

مركز إحسان لدراسات السنة النبوية

الإصدار رقم ١٥



المعسول في شمائل الرسول ﷺ

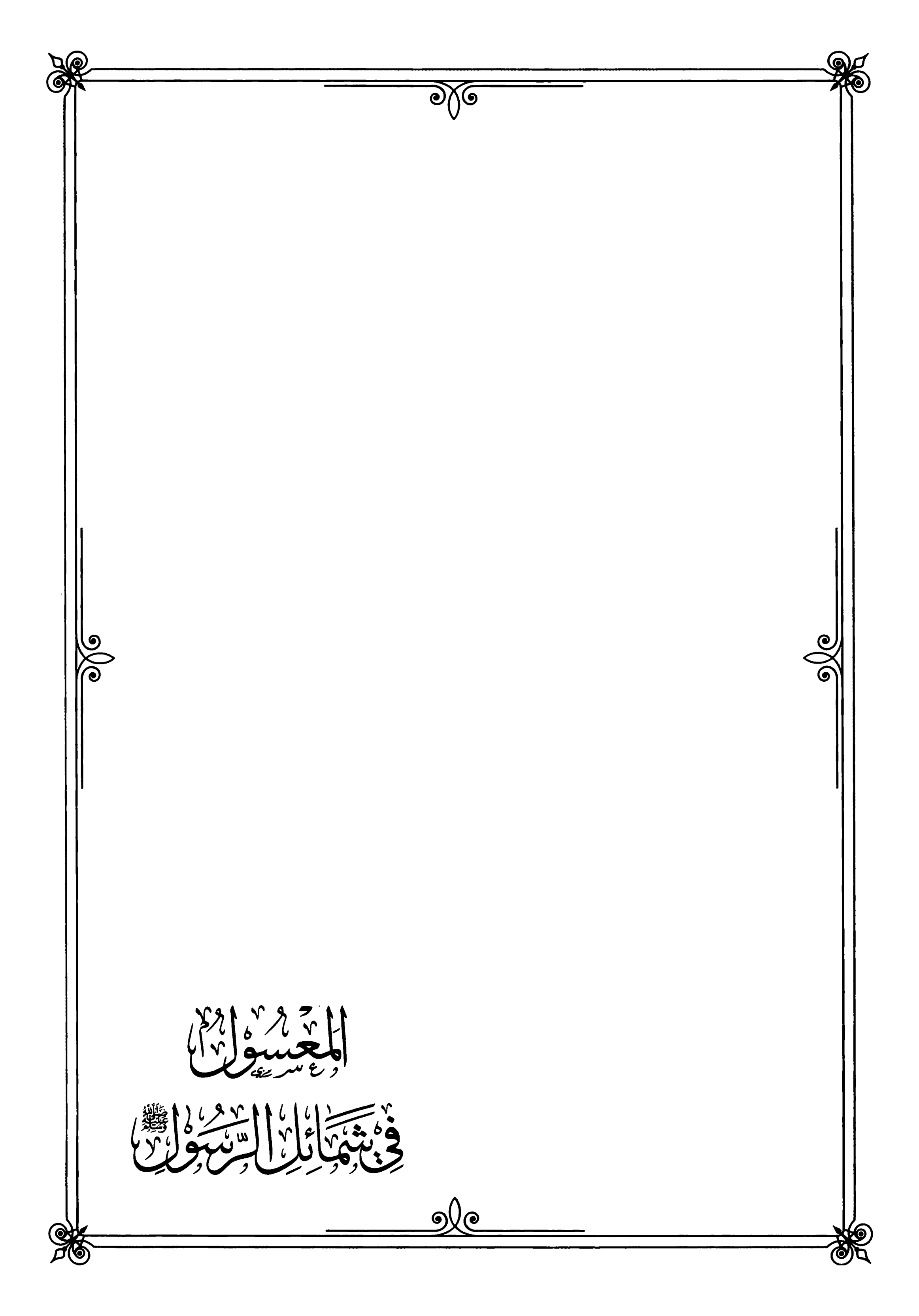
شرح مختصر شمائل النبي ﷺ للإمام الترمذي

شرح

أ. د. حسن بن عبد الحميد بخاري

عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى
والمدرس بالمسجد الحرام والمسجد النبوي




المعسول
في شمائل الرسول ﷺ

ح دار اطلس الخضراء ، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بخاري ، حسن عبد الحميد

المعسول في شمائل الرسول -صلى الله عليه وسلم-. / حسن
عبد الحميد بخاري .- الرياض ، ١٤٤٢هـ
٩١٢ ص ، ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٢-٣٨-٨٣٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- السيرة النبوية ٢- الشمائل المحمدية أ.العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٤٢/٧٢٠١

9 786038 303382






الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ/٢٠٢١م





المملكة العربية السعودية - جدة

www.ihsancenter.com
info@ihsancenter.com



المعسول

في شمائل الرسول ﷺ

شرح مختصر شمائل النبي ﷺ

للإمام الترمذي

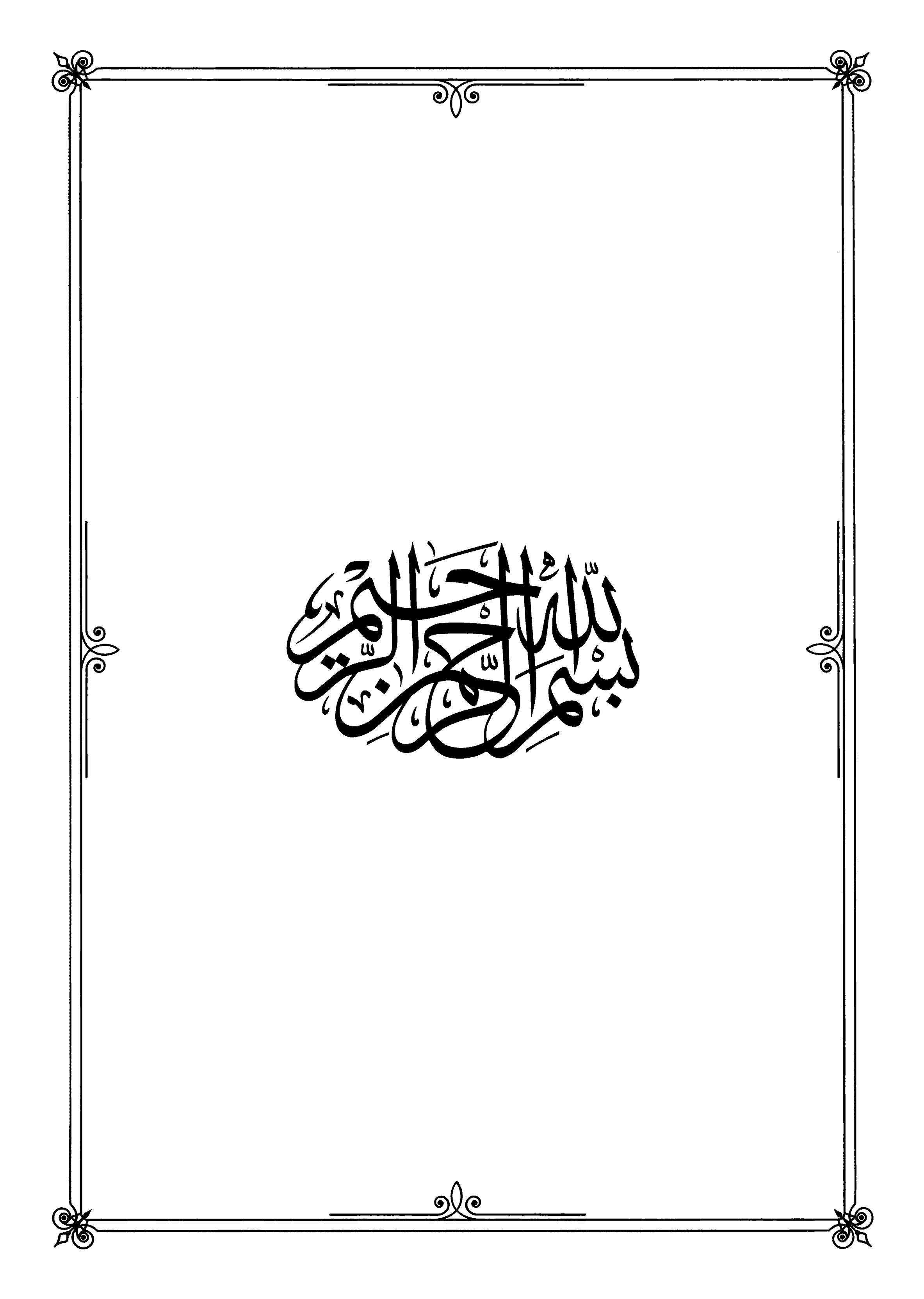
شرح

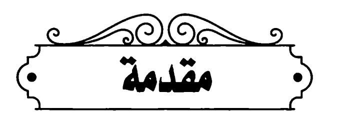
أ. د. حسن بن عبد الحميد بخاري

عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى

والمدرس بالمسجد الحرام والمسجد النبوي

مركز إحسان لدراسات السنة النبوية


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يَهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه ﷺ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فأصلُ هذا الشرح مجالسُ أسبوعيةٌ عُقِدت في رحاب بيت الله الحرام، بدءًا من ليلة الجمعة الموافق ١٣/ ٤/ ١٤٣٥هـ، وانتهاءً بليلة الجمعة الموافق١٠/ ٨/ ١٤٣٦هـ، لمذاكرة طرف من سيرة وشمائل نبيِّنا محمد بن عبد الله ﷺ، وذلك من خلال التعليق علىٰ كتاب (مختصر الشمائل المحمّدية) الذي اختصره الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ من كتاب (الشمائل المحمدية) للإمام محمد بن عيسىٰ الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ونبيُّنا ﷺ أعظمُ الخلق علىٰ المؤمنين حقًّا، وأكثرُ البشر في قلوبهم حُبًّا، فمحبَّته ﷺ من أوكد الواجبات علىٰ كل مؤمن؛ إذ هي من لوازم ومقتضيات شهادة أنه رسول الله ﷺ، وحريٌّ بكل مؤمن أن يجتمعَ في قلبه تجاه النبيِّ ﷺ أكملُ الحبِّ وأوفاه وأصدقه؛ وذلك أنَّ دواعي محبة أيِّ إنسانٍ أحدُ ثلاثة أشياء:

أحدها: جمالُ ظاهرِه ومظهره، وحسنُ صورتِه وهيئتِه، والثاني: جمالُ باطنه، وحسنُ تعامُله، وطيبُ أخلاقه، والثالث: إحسانُ هذا الإنسان إلىٰ المُحِبِّ، وهذه الدوافع الثلاثة مجتمعةٌ في حقِّ نبيِّنا ﷺ بأكمل وجوهها وأعلىٰ مراتبها.

فإذا كانت محبَّةُ نبيِّنا محمد ﷺ من أجل مظهره وصورته وجمال منظره؛ فقد كان في هذا الباب في المقام الأوفىٰ والدرجة الأسنىٰ، جمالًا وبهاءَ طلعةٍ، وسناءَ وجهٍ، وإشراقةَ مُحيًّا، يأسِرُ قلوبَ وأبصارَ الناظرين إليه محبَّةً ووُدًّا، وإذا كانت محبَّتُه ﷺ لأخلاقه وطباعه وصفاته وشمائله؛ فقد حَظِيَ بأعظم الأخلاق وأكرم الشمائل وأجمل الطِّباع، وحسبنا قول ربِّنا العظيم فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ولئن كان البشر يتجمَّلون بالأخلاق والصفات الحميدة التي يُكمِّلون بها النقصَ ويسترون العيبَ؛ فإنَّ الأخلاق ـ بحقٍّ ـ هي التي تجمَّلت بالمصطفىٰ ﷺ حين اتَّصف بها، ولم يكن هو الذي تجمَّل بها، فأصبحنا نعرف سموَّ معاني الأخلاق من الصدق والأمانة والكرم والتواضع والحلم والوفاء ونحوها لما تُضرَب لها الأمثلةُ والشواهدُ من قصص سيرته وشمائله ﷺ، وإذا كانت محبَّتُه ﷺ لعظيم إحسانه وامتنانه وفضله علىٰ كلِّ مؤمن بعد فضل الله ﷻ؛ فإنَّ له في ذلك اليدَ الطُّولىٰ، ولا أحدَ من البشر أعظمُ إحسانًا إلىٰ البشر منه ﷺ؛ فهو الذي أنقذ الله به هذه الأمَّةَ من الضلالة، وأخرجهم به من الظلمات إلىٰ النور، وهداهم به إلىٰ الصراط المستقيم، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١]، ثم لم يزل ﷺ من رأفته ورحمته يدافع عن أمته، وينشد لها السلامة والنجاة إلىٰ يوم القيامة، وهو

ينادي في ذلك الموقف: «أُمَّتي أُمَّتي»(١).

فلمَّا اجتمعت له الأسبابُ الثلاثةُ الموجِبةُ للمحبَّة بأكمل صُورها ودرجاتها؛ استحقَّ ﷺ أكملَ الحبِّ وأوفاه وأصدقه، ووجَبَ ألا يُقدَّم حُبُّ أيِّ محبوبٍ من البشر علىٰ حُبِّه ﷺ.

وإذا عرفنا هذه الأسباب الموجِبة لمحبَّة النبيِّ ﷺ، ثم سألنا أنفسنا ـ نحن المؤمنين برسالة النبيِّ ﷺ، المتَّبعين هَديَه، المتشرِّفين بالانتساب إلىٰ أمَّته والسير علىٰ نهجه ـ: هل نجد صدقًا في قلوبنا من حُبِّ النبيِّ ﷺ ذلك الحبَّ الصادق المتدفِّق الذي فاض علىٰ القلب، وامتلأ حتىٰ تجاوز به حبَّ كل محبوبٍ في قلوبنا؟

وسببُ إيراد هذا السؤال هو أنّنا متَّفقون علىٰ أصلٍ عظيمٍ، وهو أنه لا يوجد مؤمنٌ يشهد أن لا إله الله وأنَّ محمدًا رسول الله ﷺ، إلا وفي قلبه أصلُ ذلك الحُبِّ، ولكنه يزيدُ وينقصُ، ويَضعفُ ويَقوَىٰ، فكمالُه وقُوَّته وازديادُه هو بقدر ما يحصِّله أحدنا من الدوافع التي تحمله علىٰ زيادة الحُبّ له عليه الصلاة والسلام، ونقصانُ هذا الحُبِّ أو ضعفُه أو انطفاءُ جَذوته في القلوب، ينتج عن عوامل عدَّة؛ منها: البعدُ عن سيرته، وتركُ اتِّباعِ هديه وسنَّته، والبقاءُ في جهل وإعراض عن معالمِ العَظَمَة وكمالِ الهدي في رسالته ﷺ، فهذه الأمور تُورثُ في القلب جفوةً وجفاءً(٢)، وبُعدًا عن الحبِّ الصادق الذي يجب أن يكون هو

---

(١) كما في حديث الشفاعة المشهور، أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣).

(٢) قال الليث: الجَفوة ألزم في ترك الصِّلة من الجَفاء، وهو خلافُ البِرّ ونقيضُ الصِّلة. انظر: تاج العروس (١٩/ ١٧٨)، مادة: (جفو).

موقف كلِّ مسلم ومسلمة مع المحبوب الأعظم من البشر عليه الصلاة والسلام.

من أجل ذلك كلِّه كانت دراسةُ شمائل النبيِّ ﷺ مَدخلًا مهمًّا لمن أراد دراسة سيرته عليه الصلاة والسلام الدراسةَ الواعيةَ المؤثِّرةَ التي تحقِّق مقصودَها في القلوب المؤمنة، فمن قصد دراسة السيرة النبوية احتاج إلىٰ مدخلٍ قبلها، يقف به علىٰ جانبٍ من عَظَمة شخص النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وما حَبَاهُ الله تعالىٰ به وهيَّأه له من الكمالات البشرية، وما خصَّه به من الفضائل والمكرُمات، وذلك بأن يتعلَّم شأنَ النبيِّ ﷺ وهديَه، وصفاتِه الخِلقية والخُلقية، وسائرَ تفاصيل خصوصيَّاته عليه الصلاة والسلام في شأنه كلِّه؛ لتحقيق محبَّةٍ أصدقَ، واتِّباعٍ أتمَّ، وطاعةٍ أكملَ للنبيِّ ﷺ، وذلك هو الهدف المقصود من معرفة الشمائل النبوية.

وبما أنَّ أصلَ هذا الكتاب هو مجالسُ المسجد الحرام المباركةُ التي سبقت الإشارة إليها؛ فإنَّه قد تمَّ معالجةُ صياغتها بما يناسبُ إخراجَها في كتابٍ مقروءٍ، بجهدٍ مباركٍ مشكورٍ من الإخوة الكرام في (مركز إحسان لدراسات السُّنَّة النبويّة)، كتب الله أجرَهم وجزاهم خيرًا.

وأما الأصلُ الصوتيُّ لهذه المجالس فموجودٌ علىٰ هذا الرابط لقناة الدروس العلمية:



كما تمَّ إطلاق برنامجٍ الكتروني لهذه المجالس علىٰ حسابٍ مخصَّصٍ لها في (تويتر) باسم: (الشمائل المحمدية)، يتضمَّن توزيعها وجدولتها علىٰ مدَّة

زمنية محدَّدة، تُقسَّم فيها الدروس مسموعةً ومقروءةً علىٰ فتراتٍ معيَّنة، يتخلّلها اختباراتٌ وتقييمٌ، ينتهي بمنح شهاداتٍ لإتمام البرنامج، مساهمةً في تعميم النفع بها، وهي موجودة علىٰ هذا الحساب:



أسأل الله الكريم أن يبارك في هذا الشرح كما بارك في أصله، وأن يجعله عونًا لنا علىٰ طاعته ومحبّته سبحانه، ومحبة نبيِّه ﷺ، وأن يرزقنا جميعًا الاستِنانَ بسُنَّته والاهتداءَ بهديه، وأن يحشُرَنا في زُمرته، ويُكرِمَنا بشفاعته، والحمد لله رب العالمين.

** ** **







تعريف الشمائل:

الشمائل: جمع شِمال[١]، وقيل: جمع شَمْلة[٢]، وهي الطبائع والسجايا والخصال والأخلاق، يقال: رجلٌ كريم الشمائل؛ يعني في أخلاقه وطبائعه وصفاته، قال لبيد:

هـمُ قـومي وقـد أنكـرتُ مـنهم شـمائلَ بُدِّلوها من شِـمالِي[٣]

يعني: أنه أنكر عليهم شيئًا من تخلُّف صفاتهم وأخلاقهم عما كان يعهده ويألفه، وما كان يحسبه في قومه.

والشمائل النبوية: هي الطباع والخصال والصفات النبوية التي كان النبيُّ ﷺ موصوفًا بها، ومنه سُمِّيت الكتب التي اختصَّت بتناول دراسة أخلاق النبيِّ ﷺ، أو خِلقته، أو شيءٍ من خصائصه = بكتب الشمائل؛ أي: شمائل المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام.

موضوع علم الشمائل:

يتناول موضوع الشمائل النبوية جانبين يتعلَّقان بالنبيِّ ﷺ، أحدهما:

(١) المحكم والمحيط الأعظم (٨/ ٧١ ـ ش م ل)، والقاموس المحيط (١٠٢٠ ـ ش م ل).

(٢) دستور العلماء (٢/ ١٦١)، ومعجم اللغة العربية المعاصرة (٢/ ١٢٣٦ ـ ش م ل).

(٣) ديوان لبيد بن ربيعة (٧١).

أخلاقه ﷺ، وكيف كان في جوانب الرحمة، والكرم، والعفو، والإحسان، والصبر، والتواضع، والعدل، وغير ذلك من كريم أخلاقه ﷺ، والجانب الآخر: خِلقته ﷺ، وهيئته، ومظهره، ولون بشرته وشعره، وجسمه طولًا وعرضًا، وأعضاء جسده الشريف ﷺ، وبعض أفعاله كالنوم والجلوس والمشي.

ويلتحق بالشمائل الحديثُ عن خصوصياته ومقتنياته ﷺ، والحديث عن أزواجه وأولاده وأقاربه، وعن علاقته بالناس من حوله، وكذا الحديث بتفصيلٍ دقيقٍ عمَّا هو أخصُّ من ذلك، كالحديث عن لباسه الذي كان يلبس، وفراشه ونعاله، والحديث عن دوابِّه التي كان يركب، وسلاحه الذي كان يستعمل، كلُّ ذلك يُساق من أجل أن يكون أحدُنا علىٰ معرفةٍ أتمَّ بشؤون المصطفىٰ ﷺ، فإنَّ المعرفةَ الأتمَّ تقود لمحبَّةٍ أكملَ وأوثقَ.

فالحديث عن الشمائل النبوية في الجملة لا يتطرق إلىٰ سرد أحداث السيرة النبوية، والغزوات، ووقائع الدعوة النبوية، فكل تلك الحوادث والوقائع مسطورةٌ فيما سمي بكتب السير أو المغازي، وإنما ينتزع الشواهد فقط من تلك الوقائع والحوادث بما يدلُّ علىٰ موضوع الشمائل.

الهدف من دراسة الشمائل:

إنَّ الهدفَ من دراسة الشمائل النبوية يتمثَّل في جملة من المطالب الشرعية التي يحرص عليها كل مسلم ومسلمة، ويمكن إيجازها في الجوانب التالية:

١ـ أنها جزءٌ من العلم الشرعي الواجب معرفتُه في الجملة، الذي تكاثرت النصوص في بيان فضله وأجره ومكانة أهله، ويجب علىٰ المسلم تحصيل القدر

الذي يحتاج إليه في حياته ولا يسعُه جهلُه، فإنَّ الشمائلَ النبوية محفوظةٌ في الكتاب والسُّنَّة كما حُفِظت أحكامُ العقائد والفقه والآداب وسائر أبواب الشريعة، ولمّا روىٰ الصحابةُ رضي الله عنهم أحاديثَ الشمائل النبوية في الصفات الخِلْقية والخُلُقية فإنما رووها كروايتهم لأحاديث الحلال والحرام وهيئة العبادات وأحوال الآخرة وصفة الجنة والنار، وأنهم يرونها دِينًا يجب تعلُّمه وحفظُه وروايتُه وتعليمُه للأجيال وتربيةُ الناشئة عليه.

٢ـ أنها الباب الأكبر الذي يصل به المسلم إلىٰ ما وصل إليه الصحابة رضي الله عنهم بصحبتهم للنبيِّ ﷺ، وقد اكتحلت أعينُهم برؤيته وتشنَّفت آذانُهم بسماع حديثه، وسعدت قلوبُهم بمعايشته، فإنَّ وصفَهم الدقيقَ رضي الله عنهم قرَّب حياةَ النبيِّ ﷺ جدًّا إلىٰ أمَّته، حتىٰ كأنَّنا نراه ﷺ رأيَ العين، لقد كانوا رضي الله عنهم أُمناءَ في رَصدِ وحِفظِ ونقلِ ما رأوا وسمعوا وسعدوا به من صحبتهم لرسول الله ﷺ، ولم يستأثروا بذلك، بل رَوَوْه بغاية الدِّقَّة والإتقان والاستيعاب، في الشكل والمنظر والهيئة والمظهر وبعض الأفعال؛ كالمشي والجلوس والنوم والتبسُّم وغير ذلك، فحقٌّ علينا أن نكون أوفياءَ لهم، بحرصنا علىٰ هذا الإرث المحمديِّ، وصدق إقبالنا عليه وأخذنا له، فنكون خير خَلف لخير سَلَف، وصدق القائل:

أخِلَّايَ.. إنْ شطَّ الحبيبُ ورَبعُه ... وعَزَّ تَلاقِيهِ وناءَتْ مَنازِلُهْ
وفاتَكمُ أن تُبصِروهُ بِعَينِكُم ... فما فاتَكم بالسَّمعِ هَذي شمائلُهْ

وبقدر معرفة المسلم وعنايته بالشمائل المحمدية يرث من جليل آثار هذا الباب العظيم، فإن كانت أعين أبصارنا لم تكتحل برؤيته عليه الصلاة والسلام فلا أقلَّ من أن تكتحل أعينُ بصائرنا بذلك، بما يقرِّب الصورةَ كأنه ﷺ حاضرٌ بيننا ننظر إليه،

ومن لم يكرمه الله ﷻ برؤية النبيِّ ﷺ في المنام ـ ورؤيته ﷺ حقٌّ[1] ـ يمكن له أن يراه في كتب هذا العلم.

ومن عجيبِ صنيع الإمام الترمذي رحمه الله في كتابه الشمائل: أنه بدأ أوَّل أبوابه بباب: (خَلْق النبيِّ ﷺ)، الذي فيه صفة خِلقته ﷺ، وختم آخر أبوابه بباب: (رؤيته ﷺ في المنام)، والباب قبل الأخير هو باب: (وفاته ﷺ)، كأنه يقول لك: يا محبُّ، أقبل شوقًا بقلبٍ منفتح، وتعرَّف صفةَ حبيبك المصطفىٰ ﷺ وهيئتَه؛ عَلَّك أن تظفر برؤيته في المنام.

ولكن لن يظفر المسلم برؤية نبيِّه ﷺ في المنام مع بُعدٍ وجفاءٍ عن تطبيق سُنَّته، ومع انشغال القلب عن التفكير به، ومن حُرِم رؤيتَه فقد حُرِم فضلًا كبيرًا، ولهذا فإنْ أراد رؤيتَه ﷺ في المنام فليحرص علىٰ تطبيق سنَّته واتِّباع هديه، ومعرفة مظهره وهيئته ومنظره، وليزرع قلبَه حُبًّا له، وليشغل نفسه بالتفكير به، فإنْ داوم علىٰ ذلك حقَّق مُنيتَه ومبتغاه بإذن الله الكريم ﷻ.

٣ ـ أنها المدخلُ المهمُّ لكل من يرومُ بناءَ حُبٍّ صادقٍ وتوقيرٍ تامٍّ في فؤاده للنبيِّ ﷺ، فمَن عَرَفه أكثرَ أحبَّه أكثرَ، وستزداد محبَّتُه في القلوب كلما ازدادت المعرفة بشأنه وصفاته وأحواله ﷺ؛ لأنَّ شمائلَه ﷺ تفرضُ حُبَّه واحترامَه وتعظيمَه وإجلالَه ﷺ، بعظيم ما تحمله من المعاني والآثار، وهذا من مقاصد بعثته ﷺ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٨، ٩].

---

(١) كما قال ﷺ: «**من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي**»، أخرجه البخاري (١١٠)، ومسلم (٢٢٦٦).

٤ـ الاقتراب من شخصيَّةِ النبيِّ ﷺ؛ لتزداد القلوب شوقًا وحبًّا له ﷺ، وتوقًا إلىٰ معرفة أخباره وأحواله، ولتزداد القلوب قناعةً بالإيمان برسالته ونبوَّته وبعثته ﷺ؛ لتكون أكثر حرصًا علىٰ تطبيق سُنَّته؛ إذ هناك فرقٌ كبيرٌ بين من يطبِّق السُنَّة لمجرَّد تحصيل ثوابها، وبين من يطبِّقها حُبًّا في صاحبها، ورغبةً في التشبُّه به، فالتشبُّه به شرفٌ عظيمٌ ومقصدٌ جليلٌ، بأبي وأمي هو ﷺ.

وهذا من أعظم ما يعينُ المرءَ علىٰ امتثال قول ربِّنا سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، حين يترسَّمُ المؤمنُ هَديَ نبيِّه ﷺ في شأنه كلِّه، مستحضِرًا ـ بتفصيلٍ دقيقٍ ـ شمائلَه صلواتُ الله وسلامُه عليه.

٥ـ أنها وسيلةٌ من أعظم الوسائل للدعوة إلىٰ الإسلام، من خلال التعريف بنبيِّ الإسلام ﷺ، فشمائلُه الكريمةُ تحمل في طيَّاتها تعريفًا دقيقًا مشرقًا بجوانب العَظَمة والكمال البشريِّ، يحمل علىٰ الاحترام والتوقير والإيمان والتصديق، ويُذعن بذلك الموافقُ والمخالفُ، والمؤمنُ والكافرُ، فلو عَرَفوه حقًّا لأحبُّوه ﷺ!

ومهما تتابع المصلحون في تاريخ البشرية علىٰ مداواة أدوائها واستصلاح فسادها؛ فلن يبلغ أحدٌ منهم مقام النبيِّ ﷺ في سيرته الشخصية، ولا في رسالته ودعوته وأثره.

قال المؤرِّخ الإنجليزي آرنولد تويمبي: «لقد أَخَذَتْ سيرة الرسول العربي ﷺ بألباب أتباعه، وسَمَت شخصيَّتُه لديهم إلىٰ أعلىٰ علِّيِّين، فآمنوا برسالته إيمانًا جعلهم يتقبَّلون ما أوحي به إليه»، وقال الشاعر الفرنسي

لامارتين: «من ذا الذي يجرؤ من الناحية البشرية علىٰ تشبيه رجل من رجال التاريخ بمحمد؟ ومن هو الرجل الذي ظهر أعظم منه عند النظر إلىٰ جميع المقاييس التي تُقاس بها عَظَمة الإنسان؟ فأعظم حُبٍّ في حياتي هو أنني درستُ حياة محمد دراسةً وافيةً، وأدركتُ ما فيها من عَظَمة وخلود»، وقال الشاعر الألماني جوته: «وإننا أهلَ أوروبا بجميع مفاهيمنا لم نصل بعد إلىٰ ما وصل إليه محمد، وسوف لا يتقدَّم عليه أحد، وقد بحثتُ في التاريخ عن مَثَلٍ أعلىٰ لهذا الإنسان فوجدته في النبيِّ العربي محمد».

ويمكن تقسيم الشمائل النبوية إلىٰ قسمين:

القسم الأول: ما لا يمكن الاقتداء فيه بالنبيِّ ﷺ والتشبُّه به، مثل خِلقته وهيئته، فهذه ليس بمقدور أحدنا أن يتشبَّه فيها بالنبيِّ ﷺ، أو أن يحمل نفسَه علىٰ ذلك، لكن مع هذا فلو أنَّ أحدنا وجد أن شيئًا من أوصاف خِلقته يوافق شيئًا من خِلقة المصطفىٰ ﷺ فما أعظمها من فرحة، يجد فيها شبهًا منه برسول الله ﷺ.

القسم الثاني: ما يمكن الاقتداء فيه بالنبيِّ ﷺ، وهذا القسم يمكن تقسيمه إلىٰ قسمين أيضًا:

أحدهما: ما لم يأمرنا النبيِّ ﷺ بفعله، وكان يفعله من باب العادة، مثل صفة مِشيته وطعامه وشرابه، إذا لم نجد في السُّنن أمرًا يحثُّ علىٰ فعلها فهي عادات له ﷺ، وهو ما يُسمِّيه الفقهاء أفعالَ العادة والجِبلَّة والطبيعة، وهي عند الفقهاء ليست سُننًا بالمعنىٰ الاصطلاحي الذي يترتَّب عليها ثوابٌ في فعلها؛ لأنها ليست أمورًا تعبُّدية بل عاديَّةٌ وطبعيَّةٌ، فمن أراد أن يكون في مِشيته

كرسول الله ﷺ فلا يُقال له فقهيًّا: إنَّ لك بكل خُطوة تمشيها أجرًا، وكذلك المتشبِّه به في اللباس أو الطعام أو الشراب ونحو ذلك.

ولكن متىٰ كان الحامل للمسلم علىٰ فعل هذا النوع من الأفعال هو الحبُّ العظيم لرسول الله ﷺ، حُبًّا حمله علىٰ شدة الرغبة في التشبُّه والتأسِّي والمماثلة لرسول الله ﷺ في شأنه كله؛ فهذه قضيةٌ أعظم من أن يُقال فيها: إنها سُنَّةٌ يُثاب فاعلُها، فقد صارت من غَرْزِ العقيدة، ومن شُعب الإيمان في قلب صاحبها، وهي الحبُّ الصادق لرسول الله ﷺ.

فهذا النوع الأول من شمائله ﷺ الذي يتسنَّىٰ لنا التشبُّه به فيه، ولم يأمرنا به، وهو متاحٌ متىٰ كان الحامل علىٰ ذلك هو الحبَّ له ﷺ ورغبة التشبُّه به قدر المستطاع، فهذه ـ ولا شك ـ مرتبةٌ شريفةٌ، وأمارةٌ علىٰ حبٍّ عظيمٍ للنبي ﷺ، وعليه يُحمل صنيعُ الصحابة رضي الله عنهم وكثيرٍ من السلف رحمة الله عليهم أجمعين.

القسم الآخر: ما أمرنا النبيُّ ﷺ بفعله، كالنوم علىٰ الشِّقِّ الأيمن، والأكل والشرب باليمين، وإعفاء اللحية، فهذه سُننٌ، وبعضها قد يكون من الواجبات بحسب دلالة الأمر به، وهذا النوع من الشمائل لا يقال فيه: إنَّ فعلَه من التشبُّه برسول الله ﷺ فحسب، بل هو تشبُّهٌ وامتثالٌ لأمره ﷺ؛ فإعفاءُ اللحية ـ مثلًا ـ ورَدَ الأمرُ به بألفاظٍ متعددِّةٍ، قال الإمام النوويُّ رحمه الله في بيان الألفاظ التي وردت في الروايات التي تأمر بإعفاء اللحية: «فحصلَ خمسُ روايات: أَعْفُوا، وأَوْفُوا، وأَرْخُوا، وأَرجوا، ووَفِّروا، ومعناها كلِّها: تركُها علىٰ حالها»(١)، فكلُّ هذه

(١) شرح صحيح مسلم (٣/ ١٥١).

الروايات فيها خطابٌ للرجال بإعفاء اللحىٰ، ولو لم نجد نصًّا يحثُّنا فيه النبيُّ ﷺ علىٰ إعفاء اللحىٰ لكان حريًّا بكلِّ الرجال أن يحملوا أنفسهم علىٰ التشبُّه به في ذلك؛ حبًّا له ﷺ.

إنَّ المسلم المحبَّ لرسول الله ﷺ لا يفعل ما أمره به النبيُّ ﷺ لمجرَّد الرغبة في الثواب والخوف من العقاب، بل يفعل ذلك أيضًا رغبةً في المبادرة لامتثال أمره، ومحبَّةً في التشبُّه به ﷺ، فهذه منزلةٌ أشرف من مجرَّد تحصيل الثواب والخوف من العقاب.

التعريف بكتاب (الشمائل) للإمام الترمذي:

أَلَّف علماؤنا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ كُتبًا عدَّة في الشمائل النبوية، وبعضُ من أَلَّف في سيرة النبيِّ ﷺ ضمَّن كتابَه فصلًا في بيان شمائله، فقد حرص علماؤنا علىٰ التأليف في الشمائل إيمانًا منهم بأنه عِلمٌ عظيم يجب تعلُّمه، وأنه بابٌ كبير من أبواب العلم يجب علىٰ أهل الإسلام العناية به، وأنه ركنٌ من أركان الإيمان والمحبة للنبيِّ ﷺ يجب علىٰ المسلمين جميعًا ملءُ القلوب به.

ومن أقدم المؤلَّفات في الشمائل النبوية وأشهرها كتاب الإمام الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومؤلِّفه هو الإمام أبو عيسىٰ محمد بن عيسىٰ بن سَوْرة الترمذي، الإمام الشهير صاحب الجامع المعروف بـ(سنن الترمذي)، أحد كتب السنَّة الستَّة المعروفة.

وقد سمَّىٰ الإمام الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه: (الشمائل النبوية والخصائل المحمدية)، وجعله في ستة وخمسين (٥٦) بابًا، وبلغ مجموع أحاديثه خمسةَ عشرَ

وأربعمئة (٤١٥) حديث[١]، تصف ما كان عليه النبيُّ ﷺ في خِلقته وخُلُقه ومعيشته.

قال المُناويُّ رحمه الله في صدر شرحه لكتاب الشمائل: «كتابُ الشمائل لعَلَم الرواية وعالم الدراية، الإمام الترمذيِّ، جعل الله قبره روضةً عَرْفُها أطيبُ من المِسك الشذيِّ، كتابٌ وحيدٌ في بابه، فريدٌ في ترتيبه واستيعابه، لم يأتِ له أحدٌ بمُماثلٍ ولا بمشابه، سلك فيه منهاجًا بديعًا، ورصَّعه بعيون الأخبار وفنون الآثار ترصيعًا، حتىٰ عُدَّ ذلك الكتاب من المواهب، وطار في المشارق والمغارب»[٢].

وقد لقي كتاب (الشمائل) من العلماء قديمًا وحديثًا قبولًا حسنًا وثناءً عطرًا، حتىٰ قال فيه الإمام ابنُ كثير رحمه الله: «قد صنَّف الناسُ في هذا ـ قديمًا وحديثًا ـ كتبًا كثيرةً مفرَدةً وغير مفرَدة، ومِن أحسن مَن جَمع في ذلك فأجاد وأفاد: الإمامُ أبو عيسىٰ محمد بنُ عيسىٰ بن سَوْرة الترمذيُّ رحمه الله، أفرد في هذا المعنىٰ كتابه المشهور بـ(الشمائل)»[٣].

ومن مظاهر اعتناء العلماء بكتاب (الشمائل) للترمذي أنْ شرحه عددٌ من أهل العلم، كالإمام السيوطي والإمام المناوي وغيرهم، واختصره بعضهم كالإمام الألباني، رحمة الله علىٰ الجميع.

التعريف بكتاب (مختصر الشمائل المحمدية) للإمام الألباني:

اختصر الإمام المحدِّث محمد ناصر الدين الألباني كتاب (الشمائل) للإمام الترمذيِّ رحمة الله عليهما، وقام اختصاره علىٰ أمور عِدَّة، أبرزُها:

---

(١) وذلك بحسب طبعة دار الغرب، ومؤسسة الكتب الثقافية.

(٢) شرح الشمائل للمناوي بهامش جمع الوسائل (١/ ٢).

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٣٨٥).

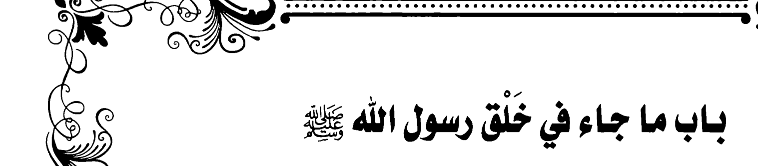
١ . حذفُ الأسانيد التي ساق بها الإمام الترمذيُّ أحاديثَ الكتاب، والاكتفاءُ بذكر الصحابي.

٢. الاقتصارُ علىٰ ما صحَّ من الأحاديث، والاكتفاءُ بها عن الضعيف الذي لم يجد له من الشواهد والمتابعات ما يمكن أن يتقوَّىٰ به ليرتقي إلىٰ درجة القبول، فنتج عن ذلك أن نقص عدد أحاديث الكتاب من خمسة عشر وأربعمئة (٤١٥) حديث، إلىٰ اثنين وخمسين وثلاثمئة (٣٥٢) حديث، أي أن المتبقي نحو ثلاثة أرباع أحاديث الكتاب.

٣. خدمةُ الكتاب بشرح الألفاظ الغريبة، والعبارات الغامضة، وبيان ذلك في هامش الكتاب؛ ليكون من يطالع الكتاب علىٰ بيِّنة مما يتعلق بوصف النبيِّ ﷺ.

٤. ذكرُ الحكم علىٰ كل حديثٍ يُساق في الكتاب، بعبارة: (صحيح) أو (حسن)، وله اصطلاحٌ في ذلك؛ وهو أنَّ الحكمَ إن كان قبل رقم الحديث فالمقصود الحكمُ علىٰ سند هذا الحديث خاصَّةً، بأنه سندٌ صحيح، أو سندٌ حسن، أو سندٌ ضعيف، وإن كان الحكمُ قبل متن الحديث فالمقصود الحكم علىٰ الحديث بمجموع طُرقه، ولهذا فقد يرِدُ قبل رقم الحديث حكم: (ضعيف)، ثم يرِدُ قبل المتن: (حسن)، أو (صحيح)، فيكون المعنىٰ أن السند الذي أورده الإمام الترمذي لهذا الحديث ضعيف، ولكن له أسانيد أخرىٰ من غير طريق الترمذي تقوَّىٰ بها.

** ** **



باب ما جاء في خَلْق رسول الله ﷺ

(صحيح) ١ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ البَائِنِ وَلا بِالقَصِيرِ، وَلا بِالأَبْيَضِ الأَمْهَقِ وَلا بِالآدَمِ، وَلا بِالجَعْدِ القَطَطِ وَلا بِالسَّبْطِ، بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ، وَبِالمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ، وَتَوَفَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ رَأْسِ سِتِّينَ سَنَةً وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعْرَةً بَيْضَاءَ»(١).

شرح الحديث

هذا أوَّل أحاديث كتاب الشمائل للإمام الترمذي رحمه الله في أوَّل أبوابه، وهو (باب ما جاء في خَلْق رسول الله ﷺ)، والحديثُ صحيحٌ أخرجه الشيخان الإمامان البخاري ومسلم، وأخرجه أيضًا غيرهما من أصحاب السنن والمسانيد.

وهذا الحديثُ من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه، ذلك الفتىٰ الصغير الذي تشرَّف بصُحبة رسول الله ﷺ وخِدمته، فقد جاءت به أمُّه منذ أن وصل رسولُنا ﷺ المدينةَ، تَعْهد به إلىٰ رسول الله ﷺ؛ ليتشرَّف بصحبته وخدمته وملازمته، فنِعمَ الأمُّ رضي الله عنها، ونِعمَ ما قامت به، ونِعمَ الشرفُ الذي حازه أنسٌ رضي الله عنه، فإن هذه الخدمة والملازمة قد هيَّآ له ما لم يتهيَّأ لغيره من كثير من الصحابة رضي الله عنهم،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٤٨)، ومسلم (٢٣٤٧).

لذا فإنَّ جملةً ليست باليسيرة من الروايات التي جاءت في وصف رسولنا ﷺ كان صاحبَها أنسٌ رضي الله عنه، فكثرةُ ملازمته للنبيِّ ﷺ مكَّنته من نقل أوصافٍ دقيقةٍ له ﷺ.

ومن الملفِت للنظر أنَّ هذه الأوصافَ التي حدَّث بها أنسٌ رضي الله عنه لم يأتِ في الرواية أن رجلًا قال له: صف لنا رسول الله ﷺ، أو: كيف كان مظهره ﷺ؟ وإنما كان أنسٌ رضي الله عنه يحدِّثُ بها ابتداءً، ويقولها للأمَّة من غير سؤال، وترويه الأجيالُ نقلًا عنه رضي الله عنه، وهذه الفِطنة منه رضي الله عنه تدلُّ علىٰ فِقهه وسَعة عِلمه.

وهذا الحديثُ فيه جُملٌ تصفُ ثلاثة أشياءَ من خِلقة النبيِّ ﷺ مما يتفاوت فيه البشر، وهي: الطُّولُ واللَّونُ ونُعومةُ الشَّعر، ومن يتأمَّل وَصْفَها يلحظ أنها كانت تَتَّسِم بالتوسُّط والاعتدالِ.

فأمَّا اللونُ: فلم يكن النبيُّ ﷺ شديدَ البياض كحال فئة من الناس، ولم يكن أسمرَ شديد السُّمرةِ كحال آخرين، ولكنه كان وسطًا بينهما، وهذا مِعيارُ الجَمال، لا شِدَّةُ البياض التي قد تُشبه البَرَص.

وأما الطُّول: فلم يكن النبيُّ ﷺ طويلًا شديدَ الطُّول، ولم يكن قصيرًا واضح القِصَر، بل كان وسطًا بينهما، ومِثلُ ذلك عَرْضُه وقَدُّه ﷺ كما سيأتي في أحاديث أخرىٰ، فلم يكن ﷺ ضعيفَ البُنية قليلَ الجسم، ولم يكن جَسيمًا عريضًا ضخمًا للغاية، وإنما كان وَسَطًا بينهما، وهذا أيضًا مِعيارُ الجَمال.

وأما وصفُ شَعرِه ﷺ: فلم يكن شديدَ النُّعومة مُنسابًا، ولم يكن متجعِّدًا شديدَ التجعيد إلىٰ حدِّ الخشونةِ، وإنما كان وسطًا بينهما، وهذا أيضًا معيارُ الجَمال.

وهذا التوسُّطُ والاعتدالُ كان ظاهرًا في أوصاف جميع أعضاء جسمه ﷺ فيما يتفاوت فيه البشر، كما سيأتي في الأحاديث الباقية، ومعلومٌ أنَّ الذين روَوا أوصافه ﷺ من صحابته عددٌ كثيرٌ، وهم يختلفون في جهة الوصف التي وصفوا النبيَّ ﷺ منها، وفي الناحية التي وصفوه ﷺ فيها، لكنهم اتفقوا جميعًا علىٰ هذا القدر، وهو: اتِّصافُه بالتوسُّط والاعتدال ﷺ، فالله ﷻ جمع لنبيِّه ﷺ بين توسُّط الظاهر والباطن، فكانت عقيدتُه وَسطًا، وكان دينُه وسَطًا، وكانت أمَّتُه أيضًا وسَطًا، فكما كان في ظاهره علىٰ التوسُّط والاعتدال والقصد؛ فكذلك كانت بعثتُه وشريعتُه، ومِلَّتُه، ودينُه، وأمَّتُه، كما قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فقوله رضي الله عنه: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ البَائِنِ وَلا بِالقَصِيرِ**»، البائن: أي الممتدُّ طولًا، الذي يَبينُ طولُه ويَظهر إذا كان بين الناس، والنبيُّ ﷺ لم يكن كذلك، فلم يكن إذا وقف بين الناس يمتاز عنهم بِطُوله من بينهم، وهذا معنىٰ قوله: «**لَيْسَ بِالطَّوِيلِ البَائِنِ**»، ولما كان وصفُه بذلك قد يُفهم منه الوصفُ بالقِصَر استدرك فقال: «**وَلا بِالقَصِيرِ**»، فيتحصَّل من مجموع ذلك أنه ﷺ لم يكن قصيرًا دون متوسطِ أطوال الناس، ولا طويلًا جدًّا يتميَّز عن متوسِّط أطوالهم، وإنما كان طولُه وسَطًا ﷺ.

وقوله رضي الله عنه: «**وَلا بِالأَبْيَضِ الأَمْهَقِ وَلا بِالآدَمِ**»، الأبيضُ: هو لون البياض المعروف، والأمْهَق: شديد البياض الذي يُشبه في بياضِه بياضَ الأبرص، والآدمُ من: الأُدْمَة، وهي اسودادُ لون البشرة، فلم يكن ﷺ شديدَ البياض، ولا موصوفًا

بالسُّمرةِ، وإنما كان متوسِّط اللون، بين البياض والسُّمرة، فكان بياضُه ﷺ مُشربًا بحُمْرة كما سيأتي في بعض الروايات؛ أي: في بياضِه اختلاطٌ بلون الحُمرة، وهو غايةُ ما يكون في جمال الأبيض؛ لأنَّ من البياض ما يختلط بصُفرة، ومنه ما يختلط بحُمرة، وهو الموصوف به ﷺ، وهو أجملُ البياض وأعدلُه وأحلاه في العين.

وقوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**وَلا بِالجَعْدِ القَطَطِ وَلا بِالسَّبْطِ**»، هذا وصفٌ للشَّعر، فالجَعْدُ القطَطُ: هو الشَّعر الذي بلغ من خشونته أنه أصبح يلتفُّ بعضُه علىٰ بعض، والسَّبط: هو الشَّعر الذي يسترسل وينساح وينسدل، فلم يكن شَعرُه ﷺ خشنًا متجعِّدًا شديد التجعيد، ولم يكن شديدَ النعومة إلىٰ درجة ينساب معها الشعر وينسدل كما هو شَعر بعض النساء، وإنما كان شَعرُه ﷺ متوسِّط النعومة.

وقوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً**»، يُريد بذلك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ السنَّ التي بعثه الله عَزَّ وَجَلَّ فيها نبيًّا، فبعد أن وصف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ طُولَ النبيِّ ﷺ ولونَ بَشرته ونعومةَ شَعره وَصَفَ جوانب أخرىٰ من شمائله ﷺ، فذكر أنه ﷺ كان حين بُعث نبيًّا في سنِّ الأربعين، وهو القول الصحيح المعتمد عند أرباب التاريخ والسير والمغازي، وهو أنَّ نبيَّنا محمدًا ﷺ بُعث وعُمرُه أربعون سنةً، واستمرَّ في رسالته ودعوته ثلاثًا وعشرين سنةً، منقسمةً قسمين: ثلاثَ عشرةَ سنةً منها بمكة، وعشرًا منها بالمدينة، فقبض الله روحه ﷺ وله من العمر ثلاثٌ وستُّون سنةً، أربعون منها قبل النبوة، وثلاثٌ وعشرون منها بعدها.

وقوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**فَأَقَامَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ، وَبِالمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ**»، ظاهرُ قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ مجموع سنوات دعوة النبيِّ ﷺ بمكة والمدينة عشرون سَنةً، والمتقرِّر

هو ثلاثٌ وعشرون، وعلىٰ هذا فيُحمل قولُ أنس ﷺ هنا علىٰ الاختصار والتقريب كما هو شأن العرب في حكاية الأرقام؛ لأنَّ مقامَه ﷺ بمكة كان ثلاث عشرة سنة، فقول أنس ﷺ: «فَأَقَامَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ»، حَذفَ فيه النيِّف، علىٰ عادة العرب في حذف الزائد علىٰ العشرة أو أحد مضاعفاتها من ألفاظ العقود، والاكتفاء بذكر الأقرب من العشرة أو مضاعفاتها، والعشرة هي الأقرب إلىٰ الثلاثة عشر، فقال: «فَأَقَامَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ».

وقوله ﷺ: «وَتَوَفَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ رَأْسِ سِتِّينَ سَنَةً»، هذا مبنيٌّ علىٰ الاختصار والتقريب أيضًا، كما اختصر في عدد سنوات دعوة النبيِّ ﷺ في مكة، فالصحيح المعتمد عند أهل الإسلام أنَّ النبيِّ ﷺ مات وله من العمر ثلاثٌ وسِتون سنةً، فالثلاث سنوات التي اختصرها أنس ﷺ في عدد سنوات دعوته ﷺ بمكة، اختصرها أيضًا في عدد سنوات عمره ﷺ، وليس هذا الاختصار من قَبيل الوهم أو الخطأ في الحساب، وإنما هو جارٍ علىٰ سَنَن العرب في كلامها، إذ لا يُظنُّ بمن عدَّ الشعراتِ البيضِ في رأس النبيِّ ﷺ ولحيتِه أن يُخطئ في عَدِّ سنوات بعثته ونبوَّته.

وقوله ﷺ: «وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعْرَةً بَيْضَاءَ»، هذه الرواية ثبتت في الصحيحين كما سبق، وليس فيها تحديد عدد الشَعَرات البِيضِ في رأس النبيِّ ﷺ ولحيته، وإنما فيها أنَّ مجموعَ الشعراتِ البِيضِ لا يبلغ العشرين شعرةً، وفي هذه الجملة وقفات:

أولًا: أنَّ هذه الرواية لم يَرِد فيها تحديدُ الشعرات البيض علىٰ سبيل الجزم، وقد جاء ذلك في روايات أخرىٰ من حديث أنسٍ وغيره من الصحابة ﷺ علىٰ

اختلافٍ بينهم في العدد، فقيل: إحدىٰ عشرة شيبةً[١]، وقيل: سبعَ عشرةَ، وقيل: ثمانيَ عشرةَ[٢]، وهو اختلافٌ يسيرٌ.

ثانيًا: دِقَّة الصحابة رضي الله عنهم في وصف النبيِّ ﷺ، حتىٰ إنهم عدُّوا الشَّعَرات البِيضَ في رأسه ولحيته، ودافعُ ذلك ليس مجرَّد الفضول، وإنما هو امتلاءُ قلوبهم رضي الله عنهم من حُبِّه ﷺ، مما جعلهم يحرصون علىٰ معرفة أدقِّ التفاصيل في وصفه ﷺ.

ثالثًا: أنس رضي الله عنه كان من صغار الصحابة سنًّا، إذ كان غلامًا صغيرًا حين صحب النبيَّ ﷺ، فقد أُتي به إلىٰ النبيِّ ﷺ وهو غلامٌ في حدود العشر سنوات؛ ليكون خادمًا عنده، فقضىٰ حياتَه في أشرف وظيفةٍ يقوم بها خادمٌ علىٰ وجه الأرض علىٰ الإطلاق، وهي خِدمةُ رسول الله ﷺ، وهذه الوظيفة جعلت أنسًا رضي الله عنه قريبًا من رسول الله ﷺ، مطَّلعًا علىٰ أموره الخاصَّة؛ إذ كان يُرافقه في المنزل، وفي المسجد، وفي الطريق، وفي أخصِّ شؤونه، وهذا ما جعله من المكثرين من رواية الأحاديث، خاصَّةً أحاديثَ الأحكام والأمور الخاصَّة بالنبيِّ ﷺ، فقد أُتيح له ما لم يُتح لكبار الصحابة، وظفر بما لم يظفروا به، وحاز فضلًا عظيمًا.

رابعًا: قد يُشْكِل أنَّ بعضَ الصحابة وَصَفَ النبيَّ ﷺ وصفًا دقيقًا ـ كما تقدَّم من رواية أنس رضي الله عنه ـ مع ما ثبت عنهم أنهم كانوا يهابون إطالة النظر إليه ﷺ؛ توقيرًا له، فقد ذكروا أنهم كانوا «ما يُحِدُّون إليه النَّظرَ؛ تعظيمًا له»[٣]، ومِثل

---

(١) كما في حديث أخرجه الحاكم (٤٢٠١)، عن أنس رضي الله عنه.

(٢) قال ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٥٧١): روىٰ ابن سعد أيضًا بإسنادٍ صحيح عن ثابت، عن أنس قال: «**ما كان في رأس النبيِّ ﷺ ولحيته إلا سبع عشرة أو ثماني عشرة**».

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣١)، في حديث طويل عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

وصفِ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا الحديث وإحصاء عدد الشعرات البيض لا يتأتَّىٰ إلا بإطالة النظر وإدامته.

والجواب عن ذلك من وجوه؛ منها: أنَّ الذي مكَّن أنسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من إدامة النظر إليه ﷺ هو طولُ مرافقته له ﷺ في أغلب الأحوال بسبب خدمته له، وهذا أمرٌ أتاح له فُرصًا يطيل فيها النظر إليه ﷺ دون غيره من الصحابة.

ومنها: أنَّ أنسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان صبيًّا صغيرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلم يَقُم في نفسه الأمرُ الذي منع كبار الصحابة سنًّا من أن يُحدُّوا النظر إلىٰ النبيِّ ﷺ.

ومنها: أنَّ هذا الوصف الدقيق لا يلزم أن يكون ناتجًا عن إحداد نظر وإطالة تأمُّل في وجهه ﷺ، لكنه نتج عن النظرة تِلو النظرة، ولو كانت هذه النظراتُ يسيرةً ومختلَسةً ومتفرِّقة، وإنما جَمَعت مع التكرار وطول الأيام والمرافقة والصحبة شيئًا من الوصف بلغ تلك الدقّة.

خامسًا: أنَّ نبيَّنا ﷺ ـ الذي توفَّاه الله تعالىٰ بعد عمر بلغ ثلاثًا وستِّين سنةً ـ لم يَشِبْ شيءٌ يُذكر من شعر رأسه ولحيته لعظيمِ همَّته في بلاغه ودعوته، لكنه ﷺ قال: «**شَيَّبَتْنِي هُوْدٌ، وَالوَاقِعَةُ، والمُرْسَلاتُ، وعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ**، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»(١)، فذكر ﷺ أنَّ هذه السور التي تتحدث عن القيامة وأهوالها هي التي سبَّبت له الشيب، وليس المراد بذلك الشيبَ الحقيقيَّ الذي هو بياض الشَّعر، ولكن المراد هو قوَّة القلب وإقبالُه علىٰ الله وعظيمُ الخشية منه عَزَّوَجَلَّ، فكلما كان

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٧).

وأعلَّه الدارقطني بالاضطراب. انظر: العلل (١/ ١٩٣- ٢١١).

القلبُ أعظم خشيةً وإنابةً وتضرعًا لله؛ كان أكثر ليونة.

*** لفتة إيمانية:**

لم يبلغ نبيُّنا ﷺ من الكِبَر عِتيًّا، وإنما كان عُمرُه حين توفي ثلاثًا وستِّين سنةً، منها ثلاثٌ وعشرون سنةً بعد البعثة كما تقدَّم، لكنه فَعل في هذه السنوات الثلاث والعشرين ما تعجز البشريَّة المعاصرة اليوم عن أن تُنجزه في قرون متلاحقة؛ من إصلاحِ فسادٍ عمَّ الأُمم، واستصلاح أخلاقٍ خَرِبت بها الذِّمَم، وانتشال البشرية من حضيضِ الجاهليَّة والبهيميَّة إلىٰ أسمىٰ درجات العزِّ والشرف الإنساني المكرَّم، وقد فعل ﷺ ذلك مؤيَّدًا بالوحي والمعجزات، باذلًا من نفسه الجهاد والتضحية، وهذا من أعظم أدِلَّة صدق نبوَّته ﷺ.

وقد أدَّىٰ ﷺ في هذه السنوات ما أوجبه الله عليه من بلاغ الرسالة وأداء الأمانة ونُصح الأمة حتىٰ أتاه اليقين، وقد قال في آخر جَمعٍ له بينه وبين أُمَّته في حَجَّة الوداع: «**أَلا هَلْ بلَّغتُ؟**»، فقالوا: نعم، قال: «**اللهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبلِّغ الشَّاهِدُ الغائبَ**»(١)، فالواجبُ الآن علىٰ أمَّته ﷺ هو الوفاء بحقِّه ﷺ؛ من صدق محبته، وتمام طاعته، وامتثال أمره، والتزام سنَّته.

***

(صحيح) **٢ـ وعنه رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَبْعَةً؛ لَيْسَ بالطَّوِيْلِ ولا بالقَصِيرِ، حَسَنَ الجِسْمِ، وكَانَ شَعْرُهُ لَيسَ بِجَعْدٍ ولا سَبْطٍ، أَسْمَرَ اللَّوْنِ، إِذَا مَشَىٰ يَتَكَفَّأ»**(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي (١٧٥٤)، وقال: «حسن صحيح غريب».

شرح الحديث

هذا حديثٌ آخرُ يرويه أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصف رسول الله ﷺ، وبعض جُمَله وردت في الصحيحين.

فقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَبْعَةً؛ لَيْسَ بالطَّوِيْلِ ولا بالقَصِيرِ، حَسَنَ الجِسْم**»، هذه الجُمل وَردَ بعضُها في الحديث السابق، وتدُلُّ علىٰ أنَّ طُولَه ﷺ كان وسطًا، فلم يكن طويلًا يتميَّز بقامته بين الرجال إذا وقفوا، ولا قصيرًا يُلحظ قِصَره بينهم، فقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَيْسَ بالطَّوِيْلِ ولا بالقَصِيرِ**» هو تفسيرٌ لقوله «**رَبْعَة**»، فالرَّبعةُ من الرجال هو من كان متوسِّطَ الطول متوسِّطَ البِنيةِ والحجم، فمن لم يكن طويلًا ولا قصيرًا ولا سمينًا ولا نحيفًا، وكان وَسطًا بين ذلك؛ فإنه يوصف بأنه رَبعة، وهو أوسطُ صفات الرجال وأعدلُها وأجملُها، ولذلك قال بعدها: «**حَسَنَ الجِسْم**»، فقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَيْسَ بالطَّوِيْلِ ولا بالقَصِيرِ، حَسَنَ الجِسْم**»، بيانٌ لمن يوصف بالرَّبعة من الرجال، وقد كان ﷺ علىٰ أتمِّ ذلك الوصف وأكملِه وأجملِه.

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وكَانَ شَعْرُهُ لَيسَ بِجَعْدٍ ولا سَبْطٍ**»؛ أي: لم يكن شَعرُه ﷺ ناعمًا سائحًا مسترسلًا، ولم يكن متجعِّدًا شديد الخشونة، بل كان وسطًا بين هذا وذاك، وقد تقدَّم مثله في الحديث السابق.

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَسْمَرَ اللَّوْنِ**»، ليس المراد منه السَّوادُ ولا الميلُ إلىٰ السَّواد، ولكنَّ المراد أنَّ بياضَه ﷺ لم يكن شديدًا قريبًا من البَرَص في شدَّة بياضِه، كما تقدَّم في الحديث السابق: «**وَلا بالأَبْيَض الأَمْهَق**»، فقوله: «**أسمرَ**»، يريد به توسُّط

اللون، ويدلُّ علىٰ ذلك الروايات الأُخَر التي ستأتي عمَّا قريب، وفيها وصفُ لونِ بشرته ﷺ بالبياض الـمُشْرَبِ بالحُمرة، والبياضُ المشربُ بالحُمرة لا يكون بياضًا شديدًا.

وقوله رضي الله عنه: «**إذا مَشَىٰ يتكَفَّأ**»، يَصِفُ فيه طريقةَ النبيِّ ﷺ في المشي، والتكفُّؤ: هو رفعُ الرِّجل بجملتها من الأرض، والمراد أنه ﷺ كان إذا مشىٰ وضعَ قدمًا ورفعَ أخرىٰ، رفعَ القدمَ بجُملتها، ولم يكن يسحبُ القَدَم ويجرُّها علىٰ الأرض كمِشية المتماوِت الضعيف الهزيل، وإنما كانت مِشيتُه ﷺ كما سيأتي في الرواية الأخرىٰ: «**إذا زالَ زالَ قَلعًا أو تقلُّعًا**»؛ يعني: كأنما يقلعُ رِجلَه من الأرض، كمِشية من يمشي في رَمْلٍ كثيفٍ أو وَحلٍ وطِينٍ، يرفعُ قدمَه وينزعُها نزعًا، وجاء في روايةٍ أخرىٰ ستأتي: «**كأنَّما يَنحَطُّ من صَبَبٍ**»، وهذه المشيةُ هي الجادَّةُ في الرِجال إذا وُصفوا بالحزمِ والسَّدادِ والقوامَةِ والشجاعة.

وخلاصةُ ما تقدَّم أنَّ مِشيةَ النبيِّ ﷺ وُصفت بثلاثة أمور؛ أحدها: التكفُّؤ، وهو وصفٌ لطريقة رفع القدم عند المشي، فكان ﷺ يرفعُ قدمَه بجُملتها من الأرض عند المشي، ولم يكن يسحبها سحبًا.

والوصف الثاني: تتابُع الخطوات، فقد كانت خطواتُه في المشي متتابعةً قريبةَ الخَطْو.

والوصف الثالث: اعتدالُ سرعةِ المشي، فلم يكن ﷺ بطيئًا في مِشيتِه كالمتماوِت ضعيفَ الهِمَّة، ولا سريعًا كالذي يُهرول هرولةً مثل أصحاب الخِفَّة في العقول والطَّيش، وإنما كانت مِشيته وَسطًا بين ذلك.

وسيأتي في روايةٍ عن أبي هريرة ﷺ يصفُ فيها سرعة النبيِّ ﷺ في المشي، فيقول: «**إنَّا لَنُجْهِدُ أنفُسَنا، وإنَّه لغَيرُ مُكْتَرِث**»؛ يعني: كان الصحابة رضي الله عنهم إذا مَشَوا معه ﷺ يجتهدون في مسارعة الخطوات ليلحقوا به ﷺ، وإنه لغير مُكتَرِث؛ أي: يمشي بتُؤَدَتِه وطُمَأنينته وهُدوئه، ولا يزالُ يسبقُهم في مَشيه ﷺ.

*** لفتة إيمانية:**

هذه الأوصافُ التي اشتمل عليها الحديثُ الذي بين أيدينا، بيَّنت طُولَه ﷺ، ووَصْفَ شَعرِه، ولونَ بشرته، ووصفَ مِشيته، وهذه الأوصافُ يُكمِّلُ بعضُها بعضًا، ولا تزالُ الرواياتُ متتابعةً في وصف سيِّد الخلق ﷺ، فافتح عينيك فيما تقرأ من وصف رسول الله ﷺ، وافتح قلبك لتطبع فيه صورةً لوصف حبيبك ﷺ، يراها قلبُك كلَّ حين، وإذا تعطَّشتَ لرؤيته وجدتَ وصفَه الكاملَ التامَّ قريبًا مما يُحقِّقُ شوقَك من النظر إليه ﷺ.

(صحيح) **٣ـ عن البَراء بنِ عازبٍ رضي الله عنهما يقولُ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا مَرْبُوعًا بَعِيدَ مَا بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ، عَظِيمَ الجُمَّةِ إِلَىٰ شَحْمَةِ أُذُنَيْهِ اليُسْرَىٰ، عَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، مَا رَأَيْتُ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ»**(١).

وفي روايةٍ عنه قال: «مَا رَأَيْتُ مِنْ ذِي لِمَّةٍ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَهُ شَعْرٌ يَضْرِبُ مَنْكِبَيْهِ، بَعِيدُ مَا بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ، لَمْ يَكُنْ بِالقَصِيرِ وَلا بِالطَّوِيلِ»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٩١ ـ رقم: ٢٣٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (٩٢ ـ رقم: ٢٣٣٧).



شرح الحديث

هذا حديثٌ يرويه البراء بن عازب رضي الله عنهما في وصفِ رسول الله ﷺ، وفيه مجموعةٌ من الجُمل، فيها وصفُ حجم النبيِّ ﷺ وبِنيته وشَعره ولباسه.

قولُه رضي الله عنه: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا مَرْبُوعًا**»، فإن كان اللفظُ: «**رَجُلًا**» بضمِّ الجيم؛ فهو وصفٌ لجَسَد النبيِّ ﷺ وبِنيته وحَجمه، وهو بمعنىٰ حديث أنس رضي الله عنه السابق: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَبْعَةً؛ لَيسَ بالطَّويلِ ولا بالقَصِيرِ، حَسَنَ الجِسمِ**»؛ أي: لم يكن ﷺ بدينًا كثيرَ اللحم، ولم يكن نحيفًا هزيلًا، بل كان وَسطًا بين ذلك، وإن كان اللفظُ: «**رجِلًا**» بكسر الجيم؛ فالمقصود به وصفُ شَعره ﷺ، وأنه كما تقدَّم في الحديثَين السابقَين: «**كانَ شَعْرُهُ ليسَ بِجَعْدٍ ولا سَبْطٍ**»؛ أي: كان وسطًا في نعومته.

وقوله رضي الله عنه: «**بَعِيدُ مَا بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ**»، فيه وصفُ المسافة ما بين الكتِف الأيمن والكتِف الأيسر، فالمنكِبان هما الكتِفان، والمراد وصفُ النبيِّ ﷺ بعِظَم الصدر، فبُعدُ المسافة ما بين المنكِبين عند الإنسان يدلُّ علىٰ عِظَم جسمه، وعِظَم واجهته التي يراها الناس؛ لأنَّ شخص الرجل إذا وقف واطَّلعت إليه الأعينُ مواجهةً ترىٰ فيه رأسَه وصدرَه، وسيأتي مزيد تفصيل لهذه الصفة.

وقوله رضي الله عنه: «**عَظِيمَ الجُمَّةِ إِلَىٰ شَحْمَةِ أُذُنَيْهِ**»، الجُمَّةُ هي شعر الرأس إذا تجاوز شحمة الأذنين واسترسل ووصل إلىٰ الكتفين، فالمنكِبان هما أطراف الكتفين، والوَفرة من شعر الرأس إذا وصل إلىٰ شحمة الأذن، والشَّعر إذا وصل شحمة الأذنين فإن ذلك يدل علىٰ وفرةٍ وغزارة فيه، وقد كان شَعرُ النبيِّ ﷺ

وفيرًا كثيرًا مسترسلًا، إذا تركه يتجاوز شحمة الأذنين، وفي بعض ألفاظ الرواية ـ وستأتي ـ أنَّ النبيَّ ﷺ «**كَانَ يَضْرِبُ شَعرُه مَنْكِبَيه**» إذا طال، فأكثر ما يبلغه طولُ شعرِه ﷺ هو أن يبلغ المنكبين، وسيأتي قريبًا كيف كان ﷺ يصنع بشعره ويدهنه ويُسرِّحه، ليتَّضح لك جمالُ مظهره وهيبتُه وحُسنُه الكامل.

وقوله رضي الله عنه: «**عَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ**»، الحُلَّة: اسمٌ للِّباس، سواءٌ كان من ثوبين: إزارٍ ورِداءٍ، أو من عامة ما يرتديه الإنسان، ولباسُ الزينة في الجملة يسمىٰ حُلَّة، والحمراءُ ههنا وصفٌ لها في اللون العام، وليس المقصود أنَّ إزارَه ورداءَه ﷺ كانا بلونٍ أحمرَ قانٍ؛ أي لم يكن أحمرَ خالصًا؛ لأنَّ الثوبَ الأحمر الخالص ورد النهيُ عنه[1]، ووُصِف بأنه من لباس أهل النار[2]، فالمنع هو من لُبس الأحمر القاني، والحُمرة في حديث البراء هنا وصفٌ عام؛ لأنَّ الثوب إذا كان مخطَّطًا بخطوط حمراء، يقال إنَّ لونه أحمر، وعلىٰ هذا فليس المقصود في حديث البراء رضي الله عنه اللونَ الأحمرَ القاني، الذي يوصف به جميع لون الرداء أو الحُلَّة.

وقوله رضي الله عنه: «**مَا رَأَيْتُ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ**»، جملةٌ يختصر فيها البراء رضي الله عنه وصف النبيِّ ﷺ وحُسنَه وجمالَ صورته.

---

(١) كما في حديث عند النسائي (٥٢٦٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «**نُهيت عن الثوب الأحمر**».

(٢) كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه دخل علىٰ النبيِّ ﷺ، وعليه ثوبان أحمران، فقال له: «**ما هذان الثوبان الأحمران؟ ألقهما، فإنهما من ثياب الكفار، أو ثياب أهل النار**»، أخرجه أبو عوانة في مستخرجه (٨٥٣٧) بهذا اللفظ.

وفي رواية عنه قال: «مَا رَأَيْتُ مِنْ ذِي لِمَّةٍ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَهُ شَعْرٌ يَضْرِبُ مَنْكِبَيْهِ، بَعِيدُ مَا بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ، لَمْ يَكُنْ بِالقَصِيرِ وَلا بِالطَّوِيلِ».

قوله رضي الله عنه: «مَا رَأَيْتُ مِنْ ذِي لِمَّةٍ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَهُ شَعْرٌ يَضْرِبُ مَنْكِبَيْهِ»؛ اللِّمَّةُ من الشَّعَر: هي ما جاوز شحمة الأذن، فالشَّعر إذا كثُر وعظُم وتوفَّر يُسمَّىٰ وفرةً إذا جُمع، فإذا نزل وتجاوز حتىٰ وصل إلىٰ المنكبين فهو جُمَّةٌ، وما تجاوز ما بين الأذن إلىٰ المنكب يُسمَّىٰ لِمَّةً.

وقوله رضي الله عنه: «مَا رَأَيْتُ مِنْ ذِي لِمَّةٍ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَهُ شَعْرٌ يَضْرِبُ مَنْكِبَيْهِ»؛ يعني: رأىٰ نبيَّنا ﷺ مرَّةً بهذا الوصف الجميل المشرق المتلألئ، عليه حُلَّةٌ حمراء، وقد ضرب شَعرُه وتجاوز إلىٰ ما تحت شحمة أذنه إلىٰ المنكِبين.

* لفتة إيمانية:

قول البراء رضي الله عنه: «مَا رَأَيْتُ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ»، وفي الرواية الأخرىٰ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ ذِي لِمَّةٍ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ»، هذه الجملة لم يتفرَّد بقولها البراء، بل قالها غيره أيضًا من الصَّحابة رضي الله عنهم بلفظها أو بمعناها، كما سيأتي في أحاديث لاحقة، فتجد الواحد من الصحابة رضي الله عنهم يُعدِّد أوصافًا للنبي ﷺ، فيصف شعرَه ولونَه وجسدَه ويدَيه ورجلَيه وصدرَه وحواجبَه، وغير ذلك، بوصفٍ دقيقٍ، ويُبيِّن مظاهرَ الكمال ومكامنَ الجمال فيها، ثم يرىٰ أنه مهما وصف النبيَّ ﷺ بعبارة دقيقة فإنها لن تحيط بجماله ﷺ، فيختم كلامَه بأن يقول: «ما رأيتُ أحسنَ منه»، أو: «ما رأيتُ أجملَ منه»، أو: «لم أرَ قبلَه ولا بعدَه

مثلَه»، بمعنىٰ: «ما وقعتْ عيني علىٰ أعظمَ ولا أجملَ من رسول الله ﷺ»؛ ليجبُر ما لم تُدركه عبارتُه، فرضي الله عن الصحابة أجمعين، ما أشدَّ حُبَّهم للنبيِّ وتعظيمَهم له! وهنيئًا لهم بما اكتحلت به عيونُهم من رؤية رسول الله ﷺ، وامتلأت به قلوبُهم من حُبٍ وطاعةٍ له وإيمانٍ به ﷺ.

ومن هذا الباب ما جاء عن جابر بن سمرة رضي الله عنهما حين قال: «**رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ إِضْحِيَانٍ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ القَمَرِ، فَلَهُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ القَمَرِ**»(١)، كان رضي الله عنه يُلقي نظرةً علىٰ النبيِّ ﷺ وأخرىٰ علىٰ القمر، فوجد نفسه أمام جَمالٍ أَخَّاذٍ، أخذ بلُبِّه وعقله وبَصرِ عينيه، وهو جمالُ النبيِّ ﷺ الذي فاق جمالَ القمر في أبهىٰ مظهرٍ له، وأكملِه نورًا، وقد كان جابرٌ رضي الله عنه صادقًا في وصفه، والجمالُ الذي أسَرَه من النبيُّ ﷺ هو جَمالُ هيبةٍ وجلال، لا جَمالُ رِقَّةٍ ونعومةٍ، فهذا الوصفُ الجليل الذي يرويه جابرٌ رضي الله عنه ليس وصفَ أربابِ هوًىٰ، ولا وصفَ عُشَّاقٍ للجَمال الشكليِّ الظاهريِّ، فالصحابةُ أولو إيمانٍ واقتداء تامٍّ برسول الله ﷺ وحبٍّ صادقٍ له، وجدوا فيه جَمالَ الظاهر والباطن علىٰ حدٍّ سواء، فأسَرَ قلوبَهم ﷺ بجمال هيئته ومنظره ومظهره، كما أسرهم بجمال أخلاقه وباطنه، وبجميل معاملته وإحسانه إليهم.

فهل نجد نحن المسلمين اليوم هذا الأسْرَ بحُبِّه ﷺ؟

رُبما نجد الأسْرَ في حُبِّنا له لما منَّ الله به علينا من هدايته لنا ودعوته ودينه، وربما نجد الأسْرَ بما نقرأ ونسمع ونتعلَّم من أخلاقه ﷺ، لكنَّ الخِلقةَ والهيئةَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨١١)، وقال: «حسن غريب».

والجمالَ والشكلَ الظاهرَ ما أُسِرْنا به؛ لأننا ما رأيناه، فلا نحرم أنفسنا من الاطلاع علىٰ وصف الصحابة رضي الله عنهم إياه لنا، وقد نقلوا لنا فيه وصفًا دقيقًا يمكن أن نملأ به قلوبَنا حُبًّا وشوقًا له ﷺ.

***

(صحيح) ٤ـ **عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ بِالطَّوِيلِ وَلا بِالقَصِيرِ، شَثْنُ الكَفَّيْنِ وَالقَدَمَيْنِ، ضَخْمُ الرَّأْسِ، ضَخْمُ الكَرَادِيسِ، طَوِيلُ المَسْرُبَةِ، إِذَا مَشَىٰ تَكَفَّأَ تَكَفُّؤًا كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ، لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ مِثْلَهُ ﷺ»**(١).

شرح الحديث

راوي هذا الحديث هو عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ، وصاحبُه الملازم، وهو بمنزلة أخيه؛ لأنَّ نبيَّنا ﷺ بعدما مات جدُّه عبدُ المطَّلب تربَّىٰ في حِجر عمِّه أبي طالب، وعاش مع أولاد عمِّه، عليٍّ وغيره، وتربَّىٰ معهم، ونشأ عليٌّ معه، كان يرافقه ويحبُّه ويُجِلُّه ويحترمه، ثم بلغ به أن كان أوَّل من أسلم من الصبيان، فكان له من المنزلةِ والحفاوة والمكانة عند رسول الله ﷺ ما لم يبلغه غيرُه من الصحابة، حتىٰ قال له النبيُّ ﷺ: **«أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ، إِلَّا أَنَّه لا نَبِيَّ بَعْدِي»**(٢)، وقد تشرَّف عليٌّ رضي الله عنه بأن يكون كمالُ صحبته للنبيِّ ﷺ مكمَّلًا مُجلَّلًا بزواجه من ابنته فاطمة رضي الله عنها، فكان أبًا لأحفاد رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٤٦)، والترمذي (٣٦٣٧)، وقال: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤)، واللفظ له.

وعليٌّ رضي الله عنه بلَّغ في هذا الحديث جملةً من أوصاف النبيِّ ﷺ، وبعضُ ما ذكره ورد في الأحاديث السابقة، كصفة الطول وصفة المشي.

فقول عليٍّ رضي الله عنه: «**لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ بِالطَّوِيلِ وَلا بِالقَصِيرِ**»، تقدَّم مثله في حديثَي أنس والبراء رضي الله عنهما.

وقوله رضي الله عنه: «**شَثْنُ الكَفَّيْنِ وَالقَدَمَيْنِ، ضَخْمُ الرَّأْسِ، ضَخْمُ الكَرَادِيسِ**»، يصفُ حجم كفَّي النبيِّ ﷺ وقدمَيه ورأسِه ومفاصلَ جسده، ومعنىٰ «شَثْن الكفَّين والقدَمين»: عظيم اليدين والقدمين، غليظ الأصابعِ وراحةِ اليد، فوصف أصابعَ النبيِّ ﷺ وكفَّه وقدمَه بالعَظَمة والضخامة.

والكراديسُ: هي رؤوس العِظام، واحدُها كُردوس، وكلُّ عظمين التَقَيا في مفصلٍ فهو كُردوس، فكلُّ رؤوس العظام في مفاصل جسد النبيِّ ﷺ اتَّصفت بالغِلَظ، فكفُّه ﷺ، وأصابعُه، ومفاصلُ عظامه التي تقع بين الأصابع والكفِّ، ومفصل اليد مع الكفِّ، ومفصل اليد مع الكتف، والركبتان، والمنكبان، والكعبان اللذان في مفصل القدم مع الساق = كلُّ ذلك موصوفٌ بالضخامة.

وليست هذه الضخامةُ ضخامةَ عيبٍ تنفرُ منها النفسُ أو تستبشعُه العين كضخامة العمالقة، ولا تدُلُّ علىٰ أنَّ جزءًا من جسده أكبر من باقي أجزائه، وإنما هي ضَخامةٌ تدلُّ علىٰ عَظَمةٍ في الخِلقة، يُراد بالوصف بها أنه ﷺ لم يكن في جماله ناعمًا ولا رقيقًا ولا دقيقَ الأعضاء، كما هو الحال في جملة النساء عادةً.

وعلىٰ هذا فالجمع بين وصفه ﷺ بالعِظَم والضخامة، وبين وصفه بأنه كان رَبعةً من الرِّجال ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بالسمين ولا بالنحيل؛ هو

أنَّ المراد بوصفه بالضخامة أنها ضخامةٌ تتجاوز به جمالَ النعومة والرِّقةِ اللتين هما من خصائص النساء، ولذا فإنَّ أنسَ بن مالك رضي الله عنه حين أراد أنْ يصفه بالضخامة قال: «**كان النبيُّ ﷺ ضَخمَ اليدين والقدمين، حَسنَ الوجهِ، لم أرَ بعدَه ولا قبلَه مِثلَه**»(١)، فرَبطَ الضخامة بالحُسن؛ حتىٰ لا يظنُّ السامعُ أنَّ وصفَه ﷺ بالضخامةِ يخرج به إلىٰ الحدِّ المعيب الذي قد تنفرُ منه عينُ الناظر، وإنما هي ضخامةٌ لا تزيده إلا حُسنًا.

وقوله رضي الله عنه: «**طَوِيلُ المَسْرُبَةِ**»، الـمَسْرُبة: اسمٌ للخطِّ من الشَّعر الذي يربط بين النُّقرة التي في أعلىٰ الصدر وبين السُّرَّة، فشَعر الإنسان في صدره نوعان: شَعرٌ منتشرٌ علىٰ الصدر، وهو المراد بشَعر الصدر عند الإطلاق، والثاني: الـمَسرُبة التي تمتدُّ من أعلىٰ الصدر بين جانبَي الضلوع حتىٰ السُّرَّة.

ولم يكن النبيُّ ﷺ ذا شَعرٍ منتشرٍ في صدره، وكذا لم يكن ذا شَعرٍ في جوانب كتفيه أو في ظهره أو في بطنه، وإنما كان له مَسرُبة، وكان طويل المسرُبة، وسيأتي مزيدُ وصفٍ لها في أحاديث لاحقة.

فإن قيل: أين وكيف رأىٰ الصحابة هذا الجزء الباطن من جسد ﷺ؟ فالجواب: أنَّ ذلك كان حين كان يُحرم ويلبس ملابس الإحرام، أو حين كان يلبس الرداء في غير الإحرام، فربما سقط الرداء عن منكبيه كما روي ذلك في غزوة بدر(٢)، فيتَّفق نظرُ بعضِ الصحابة إلىٰ النبيِّ ﷺ ورداؤه قد سقط عن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٠٧).

(٢) كما في حديث عمر رضي الله عنه عن غزوة بدر، وفيه: «**فما زال يهتف بربه، مادًّا يديه، مستقبل القبلة، حتىٰ سقط رداؤه عن منكبيه**». أخرجه مسلم (١٧٦٣).

منكبيه، فيقع بصرُه علىٰ شيءٍ من جسده.

وقوله رضي الله عنه: «**إِذَا مَشَىٰ تَكَفَّأَ تَكَفُّؤًا كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ**»؛ أي أنه يقلع رجليه قَلعًا من الأرض حين كان يمشي، وقد مضىٰ بيان ذلك في حديث أنس رضي الله عنه المتقدِّم، والصَّبَبُ هو الانحدار، وجمعه: أصْباب، والمراد أنَّ مشيته ﷺ كانت قويَّة، كمشية من ينزل من انحدارٍ بخطوات متسارعة متقاربة، يحاول أن يستمسك ويستجمع نفسه؛ لئلا ينحدر بسرعةٍ ويضطرَّ للعَدْو، فكانت مشيةُ النبيِّ ﷺ إذا مشىٰ في الأرض المنبسطة كأنها مِشية من ينحدر من صَبَب، ولهذا كان ﷺ يسبق الصحابةَ رضي الله عنهم في مشيته، مع أنهم كانوا يُجهدون أنفسَهم ويتعمَّدون الإسراع في المشي ليلحقوا به ﷺ، فما يلحقونه، وفي هذا دلالةٌ علىٰ شخصية النبيِّ ﷺ الجادَّة الحازمة ذات العزيمة القوية، وقد عرف ذلك فيه الصحابةُ رضي الله عنهم من مِشيته وغير ذلك من تصرُّفاته، كما يقول اليوم الدارسون للشخصيات والمحللون للذوات، ويذكرون أنَّ طريقة الكلام والضحك والمشية والتعامل وغير ذلك من التصرُّفات، هي في الجملة جزءٌ من نمط الشخصية.

وعلىٰ هذا فقد كانت مِشيةُ النبيِّ ﷺ معتدلةً مقتصدةً، بعيدةً عن مِشية الاختيال والغرور والتكبُّر، ومترفِّعةً عن مشية التماوُت والكسل، كما جاء في وصايا لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٨ ـ ١٩]، ومِشية المرح هي مِشية الاختيال والفخر والغرور، وغالبًا يكون فيها شيءٌ من الكبرياء والعلوِّ والتعالي علىٰ الخلق.

وقوله رضي الله عنه: «**لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ مِثْلَهُ ﷺ**»، هذه الجملة التي اتَّفق علىٰ معناها جمعٌ ممَّن وصف نبيَّنا ﷺ، فكلُّهم ـ مهما تعدَّدت بهم العباراتُ في تعداد

أوصافه ﷺ ـ يرون أنفسَهم في نهاية الوصف عاجزين عن الوفاء بوصفِ جمالِ ما ترىٰ أعينُهم من رسول الله ﷺ، ولِسانُ حالِ كلِّ واحدٍ منهم في النهاية يقول: هذا وصفٌ يقصرُ عن مطابقة الموصوف، فإني ما رأيتُ قبلَه ولا بعدَه مثلَه ﷺ، فعليك يا من تسمع هذا الوصف أيضًا مهما حاولت أن تَتَبَّع وصفَه ﷺ، وتحاول أن تقِفَ علىٰ شيءٍ ما يصفُ لك مظهره وهيئتَه، عليك أن تجعل هذا الإطار في مُخيَّلتك، وهو أنه ليس قبلَه ولا بعدَه مثلُه ﷺ، وأنَّ الذين رأوه بأمِّ أعينهم قالوا: ما رأينا أحسنَ ولا أجملَ منه ﷺ.

وهذه الرواياتُ وغيرُها تؤكد أنَّ الصحابة رضي الله عنهم وجدوا في وصفه ﷺ شيئًا حملهم علىٰ نقلِ ما رأوه لنا، ثم هم بعد اجتهادهم في وصف ذلك الجمال وروايته يجدون أنفسهم عاجزين، مضطرِّين لأن يقولوا بعد أن يصفوه: ما رأيتُ قبلَه ولا بعدَه مثلَه ﷺ.

وظاهر ما سبق يدلُّ علىٰ أنَّ النبيِّ ﷺ بلغ من الجمال ما لم يبلغه غيرُه من البشر، فهل يقالُ: إنه أجملُ من يوسف عليه السلام الذي وُصف علىٰ لسان نبيِّنا محمد ﷺ أنه «**قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ**»(١)؛ أي: نصف الجمال؟

اختلف أهلُ العلم في تعيين أيِّهما أجمل خِلقةً؛ نبيُّ الله محمد ﷺ أم نبيُّ الله يوسف عليه السلام؛ إذ يتبادر إلىٰ أذهان كثيرٍ من الناس أنَّ المرادَ بقول النبيِّ ﷺ في حقِّ يوسف عليه السلام: إنه قد أوتي شَطر الحُسن = أنَّ الجمال الذي خلقه الله للبشر منقسمٌ قسمين: نصفه أُعطي ليوسف عليه السلام، والنصف الآخر وُزِّع علىٰ البشرية كلِّها من آدم عليه السلام إلىٰ قيام الساعة، وأنَّنا جميعًا ـ أيها البشرُ ـ

---

(١) في حديث المعراج الطويل، أخرجه مسلم (١٦٢).

نتقاسم نصف الجمال، ويتقاسم معنا هذا النصفَ الذي بقي بعد النصف الذي حازه يوسفُ عليه السلام أولئك الذين أُعطوا جمالًا باهرًا.

وبعضُ أهل العلم يقول: ليس الأمر علىٰ هذا النحو من الفهم؛ فالحُسنُ وصفٌ معنويٌّ، وهو وصفٌ لا يتجزَّأ، فلا يقال: إنَّ الوصفَ شيءٌ واحد قُسِّم نصفين، فنصفُه أعطي ليوسف، والنصفُ الآخر أُعطي لباقي الخلق، ولكن يقال: فلانٌ فيه نِصف الجمال؛ بمعنىٰ أنَّ فيه نِصف ما يوصف به البشر من جَمالٍ وحُسنٍ، وإذا قيل: فيه رُبع الجمال؛ فهو كذلك.

وبخصوص مسألة المفاضلة بين النبيِّ يوسف ونبيِّنا محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فإنَّ بعض أهل العلم قال: إذا كان نبيُّ الله يوسف عليه السلام موصوفًا بشَطر الحُسن؛ فإنَّ نبيَّنا ﷺ أُوتي الحُسنَ كلَّه، أوتي حُسن الظاهر والباطن: حُسن الهيئة والمنظر، وحُسن الخُلق والتعامل.

*** لفتة إيمانية:**

جمع الله ﷻ لنبيِّه محمد ﷺ بين جمال الظاهر وجمال الباطن، وجمالُ الباطن: هو حُسنُ الأخلاق والتعامل، ومن حُسنِ تعامُله إحسانُه إلىٰ أمَّته، وقد حَظِيَ الصحابة ﷺ بكونهم وقفوا علىٰ جوانب الجمال التي أُعطيها نبيُّنا ﷺ، فانقادَت له نفوسُهم، وأُسِرت له، وجدوا منه جمالًا في تعامُله معهم وهو يهديهم إلىٰ الإسلام، ويحرص علىٰ تعليمهم، ويُشفِق عليهم، ولا يألو جهدًا في إخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، فأَسَرَ قلوبَهم، ووجدوا مع ذلك جمالَ مظهره وهيئتِه وأفعاله الخاصَّة كالمشي والنوم، ووجدوا الجمال حتىٰ في خاصَّة شأنه كرائحة عَرَقِه وكلِّ ما يتعلَّق به ﷺ، وهي عينُ المحبَّة والأُنس والرِّضا التي عاش

بها الصحابة رضي الله عنهم مع نبيِّنا ﷺ، التي ترىٰ كلَّ شيءٍ حولها يتعلَّق بمحبوبها جميلًا.

ولا يعني هذا أنَّ نبيَّنا ﷺ كان فيه شيءٌ من النقص سَتَرتْه عينُ الرِّضا، حاشاه من ذلك، لكنَّ المقصد أنَّ الصحابة رضي الله عنهم أجمعوا علىٰ أنهم رأوا في هيئته ﷺ ومنظره شيئًا لم يروه في الخلق، فهي والله همسةٌ في أُذن كلِّ مَفتونٍ بجمالٍ أَسَر قلبَه؛ لأن نقول له: ارفق بنفسك، واجعل مساحةً في قلبك لأجملِ مَن يمكن أن تراه عينُ إنسان، ونقول لكلِّ المحبِّين والعاشقين: ارفقوا بأنفسكم، وأحبُّوا مَن شئتم هَونًا، واتركوا مساحةً واسعةً لحُبِّ رسولِ الله ﷺ، الذي أكرمه الله بجمال الخِلقة والخُلُق.

وقد يكون سببُ التقصير في محبَّة النبيِّ ﷺ هو أنَّ العينَ لم تكتحل برؤيته، ولم تعرف حقيقة جَماله، فالحلُّ يكون بالإقبال علىٰ معرفة وصف المصطفىٰ ﷺ، فمن فعل ذلك فإنه والله واجدٌ في وصفه ﷺ ما يتواضعُ أمامه كلُّ حَسنٍ جميل، ولا يمكن أبدًا أن يبقىٰ في قلبه من معايير الجمال والحُسن، الذي يأسِرُ البصرَ والفؤاد، إلا جمالُ النبيِّ المصطفىٰ ﷺ.

ربما يهيمُ بعضُ الناس حُبًّا في جمال من أسرَ حُبُّه قلبَه، ويعيش في هذا الهيام أسيرًا، فيظلُّ يفكِّر فيه، وتظلُّ الخواطرُ واردةً عليه، وتظلُّ الصورةُ أيضًا تغشاه بين الحين والحين، حتىٰ ربما يراه في المنام؛ لأنه ما زال يتذكَّره إلىٰ آخر لحظةٍ قبل أن ينام.

فنقول لكل هؤلاء: رُويدكم، واجعلوا حُبَّ المصطفىٰ ﷺ وجمالَه مقدَّمَين علىٰ كلِّ ذلك.

***

(ضعيف) **٥ـ عن إبراهيم بن محمد من ولد عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كَانَ عَلِيٌّ إِذَا وَصَفَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالطَّوِيلِ المُمَّغِطِ وَلا بِالقَصِيرِ المُتَرَدِّدِ، وَكَانَ رَبْعَةً مِنَ القَوْمِ، لَمْ يَكُنْ بِالجَعْدِ القَطَطِ وَلا بِالسَّبْطِ، كَانَ جَعْدًا رَجِلًا، وَلَمْ يَكُنْ بِالمُطَهَّمِ وَلا بِالمُكَلْثَمِ، وَكَانَ فِي وَجْهِهِ تَدْوِيرٌ أَبْيَضُ مُشْرَبٌ، أَدْعَجُ العَيْنَيْنِ، أَهْدَبُ الأَشْفَارِ، جَلِيلُ المُشَاشِ وَالكَتَدِ، أَجْرَدُ ذُو مَسْرُبَةٍ، شَثْنُ الكَفَّيْنِ وَالقَدَمَيْنِ، إِذَا مَشَىٰ تَقَلَّعَ كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ فِي صَبَبٍ، وَإِذَا التَفَتَ التَفَتَ مَعًا، بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، أَجْوَدُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَهْجَةً، وَأَلْيَنُهُمْ عَرِيكَةً، وَأَكْرَمُهُمْ عِشْرَةً، مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ، يَقُولُ نَاعِتُهُ: لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ مِثْلَهُ ﷺ»**(١).

قال أبو عيسىٰ: سمعتُ أبا جعفرٍ محمدَ بنَ الحسين يقول: سمعتُ الأصمعيَّ يقول في تفسير صفة النبيِّ ﷺ:

(الـمُمغَّط): الذاهب طولًا، وقال: سمعتُ أعرابيًّا يقول في كلامه: تمغَّطَ في نُشَّابته(٢)؛ أي: مدَّها مدًّا شديدًا.

و(المتردِّد): الداخلُ بعضُه في بعضٍ قِصَرًا.

وأما (القَطَط): فالشديد الجُعُودة.

و(الرَّجِل): الذي في شَعره حُجونة؛ أي: تَثَنٍّ قليل.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٣٨)، وقال: «ليس إسناده بمتصل»، وضعَّفه الألباني؛ للانقطاع وضعف راويه عبد الله بن عمر مولىٰ غفرة.

(٢) النُّشَّابة: النبل والسهم. انظر: القاموس المحيط (١/ ١٢٢)، مادة (نشب).

وأما (المُطَهَّم): فالبادِنُ الكثير اللَّحم.

و(المُكَلثَم): الـمُدَوَّر الوجه.

و(المُشْرَب): الذي في بياضِه حُمْرة.

و(الأدْعَج): الشديدُ سوادِ العين.

و(الأهْدَب): الطويلُ الأشفار.

و(الكَتَد): مجتمع الكتِفين، وهو الكاهِل.

و(المَسرُبة): هو الشَّعرُ الدقيقُ الذي كأنه قضيب، من الصدر إلىٰ السُّرّة.

و(الشَّثْن): الغليظ الأصابع من الكفَّين والقدَمين.

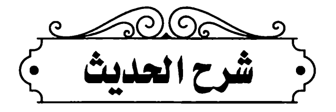
و(التَّقلُّع): أن يمشي بقوَّة.

و(الصَّبَب): الحُدور، يقال: انحدرنا في صُبوب وصَبَب.

وقوله: (جَليل الـمُشَاش)؛ يريد: رؤوس المناكب.

و(العِشْرة): الصُّحبة. والعَشير: الصاحب.

و(البديهة): المفاجأة، يقال: بدَهته بأمر؛ أي: فَجَأته.



شرح الحديث

هذه إحدىٰ أجمل الروايات التي وُصِف فيها نبيُّكم ﷺ، وفيها من الجُمل والعبارات أوصافٌ متعدِّدة، تناولت جملةً من أجزاء جسده الشريف، وأنحاء

هيئته ﷺ، والراوي لها أحد أولاد عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، نقلًا عن الإمام عليٍّ أمير المؤمنين رضي الله عنه.

والراوي هو إبراهيم بن محمد، حفيد عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أبوه محمد بن عليٍّ، ويسمَّىٰ محمد بن الحنفية؛ نسبةً إلىٰ أمِّه.

والرواية التي بين أيدينا ضعيفةٌ علىٰ طريقة المحدِّثين، فسندُها لا يَرقىٰ إلىٰ درجة الصحة، لكن فيها جُملٌ وأوصافٌ ثبتت في أحاديثَ أُخَرَ صحاحٍ تقوم بها الحُجَّة، كما اشتملت هذه الرواية علىٰ أوصافٍ لم تَرِدْ في غيرها من الأحاديث.

فقول عليٍّ رضي الله عنه: «**لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالطَّوِيلِ المُمَّغِطِ وَلا بِالقَصِيرِ المُتَرَدِّدِ**»، هي جملةٌ تشبه ما جاء في رواية أنس رضي الله عنه المتقدِّمة: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيسَ بالطَّوِيلِ البَائِنِ ولا بالقَصِير**»، فهذا وصف طول نبيِّكم ﷺ، إذ كان طولُه وسطًا معتدلًا، لم يكن بالطويل الممغَّط؛ أي: الشديد طولًا بين الرجال، ولم يكن بالقصير المتردِّد؛ أي: المتناهي في القِصَر كأنه تردَّد بعضُ خِلقته علىٰ بعضٍ فتداخلت أجزاؤه، كالذي يُسمَّىٰ اليوم بالقَزم، لكنه ﷺ كان وسَطًا بين ذلك، وهذه الوسطيَّة في طوله جاءت علىٰ ألسنة كثير من الصحابة ممن وَصَفه، فاتَّفقت أوصافُهم رضي الله عنهم علىٰ أنَّ طول النبيِّ ﷺ إذا كان واقفًا بين الرجال فإنه لا يكاد يتميَّز بينهم بطولٍ فارعٍ، ولا ينقص عنهم بقِصَرٍ واضح، وهذا يؤكِّد ما تقرَّر سابقًا أنَّ عامَّة أوصافه ﷺ كانت تتَّسم بالتوسُّط والاعتدال، وتلك آية الجمال ومَعقِدُه.

وقوله رضي الله عنه: «**وَكَانَ رَبْعَةً مِنَ القَوْمِ**»، هذا تفسير لما سبق؛ لأنَّ الرَّبْعة من الرِّجال هو من كان طولُه وسطًا بينهم، يضاف إلىٰ ذلك الاعتدال في البِنية وعرض

الجسم، فالمربوع هو من كان طولُه وعرضُ بدنِه وما بين منكبيه علىٰ نحو الوسط.

وقوله ﷺ: «**لَمْ يَكُنْ بِالجَعْدِ القَطَطِ وَلا بِالسَّبْطِ، كَانَ جَعْدًا رَجِلًا**»، تقدَّم(١) أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن شَعرُه خشِنًا شديد الخشونة إلىٰ حدِّ الالتفاف والانطواء، ولم يكن ﷺ شَعرُه بالناعم شديد النعومة كما هو المحمود في أوصاف شعور النساء عادةً، وإنما كان شعره ﷺ وسطًا بين الخشونة والنعومة، لكنك إذا نظرتَ إليه وصفتَه في الجملة بأنه ناعم، دون أن يصل إلىٰ النعومة الشديدة، ولهذا احترز عنها فقال: «**كان جَعدًا رجِلًا**»، فهذا تأكيدٌ علىٰ ما تقدَّم وصفُه، فالرَّجِل هو الشَّعر الذي فيه قدرٌ يسيرٌ من الخُشونة، يخرج به عن حدِّ الانسياب لشدَّة النعومة.

وقوله ﷺ: « **وَلَمْ يَكُنْ بِالمُطَهَّمِ وَلا بِالمُكَلْثَمِ، وَكَانَ فِي وَجْهِهِ تَدْوِيرٌ**»، الـمُطهَّم هو المنتفخُ من شِدَّة امتلاء الجسد؛ أي: لم يكن النبيُّ ﷺ بدينًا ممتلئ الجسد، وليس معنىٰ هذا أنه كان نحيفًا، فسيأتي أنه ﷺ كان بادِنًا متماسك اللحم؛ أي: في جسمه امتلاءٌ، لكنه ليس الامتلاء الذي يوصف صاحبه بالسُّمنة إلىٰ حدِّ الانتفاخ؛ لأنَّ الـمُطهَّم في لغة العرب هو البادِن كثيرُ اللحم، وقيل: هو أيضًا المنتفخ، يوصف به الرجل الذي وصل إلىٰ حدِّ السُّمنة فانتفخ بطنه، أمَّا الـمُكلثَم فهو مدوَّر الوَجه، فلم يكن وجهُه ﷺ علىٰ شكل دائري، ولا يعني ذلك أنه كان طويل الوجه، ولهذا قال بعد ذلك: «**وَكَانَ فِي وَجْهِهِ تَدْوِيرٌ**»؛ أي: كان وجهُه وسطًا بين المدوَّر والذي فيه طُولٌ، كحال كثيرٍ من أوصافه المتَّسمة بالتوسُّط.

---

(١) (ص٢٣).

وقوله ﷺ: «**أَبْيَضُ مُشْرَبٌ**»، يصف بشرتَه ﷺ، والبياض معروف، ومعنىٰ: مُشْرَب؛ أي: يخالط بياضَه حُمرةٌ، وهو غاية الجمال، أن تخالط الحُمرةُ بياضَ البشرة، وهذا يُنبئ عن تدفُّق دمٍ وحيويَّةٍ ونُضرةٍ في الوَجه، وعن حُسنٍ يملأ عينَ الناظر إليه ﷺ.

وقوله ﷺ: «**أَدْعَجُ العَيْنَيْنِ**»، الدَّعَجُ: شدَّةُ سوادِ بُؤبؤِ العين، وهو من أوصاف الجمال عند العرب، أن يكون سوادُ العين شديدَ السواد، وبياضُها شديدَ البياض، فإن هذا من أجمل أوصاف العين، وبه وُصفت الحورُ العينُ في الجنة، وهذا الوصف أيضًا يدلُّ علىٰ اعتدالٍ في الخِلقة.

وقوله ﷺ: «**أَهْدَبُ الأَشْفَارِ**»؛ أي: طويلُ شَعر الأجفان، وهذا الوصف أحد علامات الجمال التي يتغزَّل بها الشعراء.

وقوله ﷺ: «**جَلِيلُ المُشَاشِ وَالكَتَدِ**»، جليل؛ أي: عظيمٌ وكبيرٌ وضخمٌ، والمُشاشُ هو العظمُ ورؤوس المفاصل، والكَتد ـ بفتح التاء وكسرها، كلاهما صحيح ـ هو مَجمع ما بين الكتفين، ويقصد به كاهل الإنسان؛ أي: العَظْمة من الظهر التي تجمع بين الكتفين، والمراد كما في حديث عليٍّ ﷺ المتقدِّم: «**شَثْنُ الكفَّين والقدَمين، ضَخْمُ الرَّأْسِ، ضَخْمُ الكَرَادِيسِ**»، والضخامةُ الواردة علىٰ ألسنة الصحابة ﷺ في وصف نبيِّنا ﷺ لا يُفهم منها الضخامةُ البالغةُ التي يوصف بها العمالقة، لكنَّ المقصودَ هو الضخامةُ التي تُظهر الهيبةَ والوقارَ، وتتجاوز ما هو محمود في النساء من الرِّقَّة والنُّعومة واللُّطف؛ لأنَّ الرجُل إذا دقَّت أوصافُه وكان جمالُه أقرب إلىٰ النعومة كان أقرب إلىٰ وصف النساء،

ووصفُ جمال الرِّجال لا يفوق في حُسنه حُسنَ النساء إلا بما يتميَّز به الرَّجُل من ضخامة الجسد واختلاف أعضائه عما تكون عليه الأنثىٰ عادةً.

وقوله رضي الله عنه: «**أَجْرَدُ ذُو مَسْرُبَةٍ**»، أجرد؛ أي: عديم الشَّعر في الجسد، فلم يكن النبيُّ ﷺ ذا شَعرٍ في عموم جسده، وسيأتي مزيد تفصيل في وصف شَعره ﷺ في أنحاء جسده، والمسرُبة ـ كما مرَّ في الحديث المتقدِّم ـ هي: خَطُّ الشعر الذي يربط بين النقرة التي في أعلىٰ الصدر وبين السُّرَّة، والمعنىٰ أنَّ جسد النبيِّ ﷺ لم يكن ذا شعر، ولكن كان في صدره خَطٌّ دقيقٌ من الشَّعر يفصِل بين صدره الأيمن وصدره الأيسر، يمتدُّ من العُنق إلىٰ السُّرَّة.

وقوله رضي الله عنه: «**شَثْنُ الكفَّين والقدَمَين**»، سبق معنىٰ هذا في حديث عليٍّ رضي الله عنه المتقدِّم، ومعناه: عظيم الكفَّين والقدَمين.

وقوله رضي الله عنه: «**إذا مَشَىٰ تَقَلَّعَ كأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ**»، تقدَّمت هذه الجملة أيضًا في حديث عليٍّ رضي الله عنه المتقدِّم، والمعنىٰ: إذا تتابعت خطواتُه ﷺ فإنه ينزعُ قدمَه كلَّها انتزاعًا من الأرض، ولا يسحبها في الأرض سحبًا، ولكن يرفعها بجملتها، قريبًا من المشية العسكرية، من غير أن تكون مثلها في الآلية الجامدة التي يقوم بها العسكر، وإنما هي آية الحزم وعلامة الجدِّ في الهيئة والمشي، فكان ﷺ إذا مشىٰ يرفع قدمه كلَّها جملةً ويخطو بها خطوة إلىٰ الأمام، كأنما يمشي نازلًا من صَبَب؛ أي: منحدَر، فالذي يمشي في مُنحدَر من أعلىٰ إلىٰ أسفل يجد نفسه مائلًا إلىٰ السرعة غير المقصودة، فيحاول إمساك نفسه عن السرعة في العَدْو والجَرْي والهرولة، يحاول أن يتماسك فإذا به يكون سريع المشي من غير

تكلُّف، وهذا هو الموصوف به مشيه ﷺ، ويُفهم من قوله: «**كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ**» أيضًا أنهم يصفون من أراد أن يصعدَ عُلوًا أنه يرفع الرِّجلَ والقدمَ جُملةً عند المشي، فإنَّ من أراد أن يصعد جبلًا أو مكانًا مرتفعًا فإنه لا يسعه أن يسحب قدميه في المشي، ولو كان معتادًا علىٰ ذلك؛ لأنَّ هذا لا يساعده في نقل الخطوات إلىٰ الإمام حين يريد الصعود.

والمراد أنه ﷺ كانت مِشيتُه فيها إسراعٌ من غير تكلُّف، فلم يكن ﷺ يُهرول في مشيته، وإنما كان يمشىٰ مشيًا معتدلًا، لكنه بخطواته الوئيدة هذه يسبق خُطا الصحابة رضي الله عنهم، ولهذا كانوا يصفون مشيتهم رضي الله عنهم معه ﷺ ـ كما سيأتي ـ بأنهم كانوا لا يدركونه، فيسبقهم ﷺ، يقولون: «**إنَّا لَنُجهِدُ أنفُسَنا، وإنَّه لغيرُ مكترِث**»؛ أي: نحن نُتعب أنفسنا في أن نسرع المشية لنلحقه، وهو يمشي مشيته تلك ـ بلا تكلُّف ولا تعمُّد ـ فيسبقهم، لكنه الإمام المقدَّم في شأنه كلِّه ﷺ.

فمِشيتُه ﷺ كانت محلَّ نظر للصحابة رضي الله عنهم، وهم يلتقطون جملةً من أوصافه ﷺ، فبعد أن وصف عليٌّ رضي الله عنه طولَ النبيِّ ﷺ، ووَصَف عرضَه، ووَصَف وجهَه، ووَصَف لونَ بشرته، ووَصَف عينيه مظهرهما ولونَ سوادها، ثم وَصَف هيئةَ عظامه ومفاصله، ووَصَف شعره = تكلَّم علىٰ بعض تصرُّفاته ﷺ كالمشي والالتفات، فانتقل من أوصافٍ جُزئية إلىٰ صورة كاملة، ليجعل السامع كأنه يعيش اللحظة وينظر إليه ﷺ يمشي.

وقوله رضي الله عنه: «**وَإِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ مَعًا**»، هذا وصفٌ لتحرُّكاته وتصرُّفاته ﷺ، فقد كان إذا أراد أن يلتفتَ إلىٰ ناحيةٍ غيرِ تلقاءِ وجهِه التي هو عليها فإنه لا يلتفتُ

برأسه أو بوجهه فحسب، وإنما يلتفت بكامل جسده، فيكون رأسُه ووجهُه وصدرُه إلىٰ الناحية التي يريد الالتفات إليها.

والمختصُّون بتحليل الشخصيات ودراسة النفسيات يذكرون أنَّ هذا الفعل أمارةٌ علىٰ تكامُل الشخصية واستوائها، وعلىٰ الاستقلال التامِّ، وعلىٰ الشجاعة وحزم النفس وضبطها، وكل ذلك قد أوتيه نبيُّنا ﷺ من ربِّه ﷻ.

وقوله ﵁: «**بَيْنَ كَتِفَيْه خَاتَمُ النُّبُوَّةِ، وَهُو خَاتَمُ النَّبِيِّيْن**»، هذه العلامة جزءٌ بارزٌ كان في ظهره الشريف ﷺ، وهو قدرٌ بارزٌ من الجِلد، صغيرٌ في حجمه، كبيض الحمامة، كان في ظهره بين كتفيه، وعليه شَعراتٌ قليلاتٌ. وهذه العلامة اختبر بها عددٌ من الصحابة نبوَّته ﷺ قبل أن يؤمنوا به، فكانت آيةً من آيات النبوَّة، ونبيُّنا ﷺ وهو خاتم النبيِّين، لا نبيَّ بعدَه.

وقوله ﵁: «**أَجْوَدُ النَّاسِ صَدْرًا**»؛ الجُودُ معروفٌ، وهو الكَرَم، ومعنىٰ أن يكون أكرم الناس صدرًا: أن يكون أوسعَهم قلبًا، فلا يغضب علىٰ جاهل، ولا يقابل السيِّئةَ بالسيِّئة، ولا تَصدُر عنه ردودُ أفعالٍ طائشةٍ، وإنما تجدُه يتخلَّق بالحِلم والصبر والعفو والرحمة والشفقة والرأفة بالمؤمنين، كما وُصف في كتاب الله ﷻ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، لكن انظر كيف عبَّر الصحابة ﵃ بهذا التعبير اللطيف الجميل: «**أَجْوَدُ النَّاسِ صَدْرًا**»؛ ليشمل تلك الأوصاف.

وقوله ﵁: «**وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَهْجَةً**»، هذا كلامُ صدقٍ لا مبالغةَ فيه، فالنبيُّ ﷺ لم يؤثَر عنه كلمةُ كذبٍ قالها قطُّ، ليس لأنه نبيٌّ معصومٌ فحسب، بل كان

كذلك قبل أن يُبعث، حتىٰ عُرف عند قومه قبل النبوَّة بالصادق الأمين، فما حفظوا عنه كِذبةً قطُّ، ولا حفظوا عنه لفظةً أراد بها خلاف الحقيقة ولو مِزاحًا، فما عُرف في حياته قبل النبوَّة ولا بعدها إلا بالصدق في الأقوال والأفعال.

وقوله ﵁: «**وَأَلْيَنُهُمْ عَرِيكَةً**»، المراد أنه ﷺ كان لطيفًا قريبَ الخُلق، قريبَ التناوُل، سهلَ التعامُل، ولم يكن قاسيًا أو شديدًا أو مترفِّعًا، يجده كلُّ أحدٍ كذلك، حتىٰ الأطفال والنساء، سواء في ذلك الغني والفقير، والعالم والجاهل، والمتأدِّب والمتجاوز حدودَ الأدب، لا يقابل السيِّئةَ بالسيِّئةِ، ولكن يعفو ويصفح، فإذا أساء أحدٌ إليه في التعامل معه فإنه لا يجده إلا ليِّنَ العَرِيكة، وإذا غضب أحدٌ بين يديه أو تجاوز الحدَّ في قولٍ أو فعلٍ فإنه لا يجده إلا ليِّنَ العَريكة، وإذا أتاه أحدٌ قد وقع في معصيةٍ فإنه لا يجده إلا ليِّنَ العَريكة.

وقوله ﵁: «**أَكْرَمُهُمْ عِشْرَةً**»، العِشرة هي الصُّحبة، إن فُسِّرت بعِشرة الزوجة فإنَّ النبيَّ ﷺ كان أكرمَ زوجٍ لزوجه علىٰ الإطلاق، وإن فُسِّرت بعِشرة الصداقةِ والإحاطةِ والصُّحبة فما عرفت البشريةُ صاحبًا أكرمَ علىٰ صاحبه من رسول الله ﷺ علىٰ صحابته ﵃، كرمًا حسِّيًّا ومعنويًّا، فكان يبذل لأصحابه من مالِه وما يملك وما عنده وكلِّ ما يسعُه أن يقدِّمه، فلا يتأخَّر ولا يتوانىٰ.

كان ﷺ يعطي السائلَ ويأمر بإكرامه، وإن كان محتاجًا إلىٰ ما طلبه السائل، كما في حديث سهل بن سعد ﵄ أنه قال: «جاءت امرأةٌ ببُردةٍ، قالت: يا رسول الله إني نسجتُ هذه بيديّ أكسوكها، فأخذها النبيُّ ﷺ محتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنها إزارُه، فقال رجلٌ من القوم: يا رسول الله، اكسُنيها، فقال:

«**نعم**»، فجلس النبيُّ ﷺ في المجلس، ثم رجع، فطواها ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنتَ، سألتها إياه، لقد علمتَ أنه لا يردُّ سائلًا، فقال الرجلُ: والله ما سألتُه إلا لتكون كَفَني يوم أموت، قال سهلٌ: فكانت كَفَنَه»[١].

فإن كان النبيُّ ﷺ لا يملك شيئًا يعطيه فلا يتأخَّر عن مَنحه ما استطاع، كدعاءٍ ونُصحٍ وتوجيه، كما في حديث أنس رضي الله عنه أنه قال: **جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُرِيدُ سَفَرًا فَزَوِّدْنِي، قَالَ:** «**زَوَّدَكَ اللهُ التَّقْوَىٰ**»، قال: زِدْني، قَالَ: «**وَغَفَرَ ذَنْبَكَ**»، قَالَ: زِدْنِي بِأَبِي أَنْتَ وأُمِّي، قَالَ: «**وَيَسَّرَ لَكَ الخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ**»[٢].

فكان النبيُّ ﷺ كريمَ الحسِّ إلىٰ أبعد حدٍّ عرفه إنسانٌ أمام إنسان، فقد شَهِدَ منه الصحابةُ رضي الله عنهم كرمًا حسِّيًّا بكلِّ معناه، كان يجود بالمال ويجود بالطعام واللباس وكلِّ ما يُبذَل لسائلٍ ومحتاجٍ، أمَّا الكرم المعنويُّ فحدِّث ولا حرج، كان يجودُ بوقته وجُهده وأخلاقه وحياته، فلا يكون لنفسه من ذلك شيءٌ، كل ذلك قدَّمه لأمَّته ﷺ، وقد سُئلت عائشةُ رضي الله عنها: هل كان النبيُّ ﷺ يصلِّي وهو قاعد؟ قالت: «**نَعَمْ، بَعْدَما حَطَمَه النَّاسُ**»[٣]، تأمَّل هذا الجملة مَليًّا، تقول: «**حَطَمَه النَّاسُ**»، كأنَّه بناءٌ تحطَّم، بعد أن استنفذوا كلَّ جهدِه ووقتِه وصحةِ جسده وعنايتِه بحاله وحياته مع بيته وأسرته، فما وجدوه يومًا بخيلًا، ولا وجدوه يومًا متأخرًا في حاجة يطلبونها، فكان أكرمَ الناسِ عِشرةً بحقٍّ ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٩٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٤٤)، وقال: «حسن غريب».

(٣) أخرجه مسلم (٧٣٢).

وقوله ﵁: «مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ»، هذه عبارةٌ في غاية الجمال، يريد أنَّ من وقعت عينُه علىٰ رسول الله ﷺ بداهةً لأوَّل وَهلةٍ وقَعَت هيبتُه ﷺ في نفسه، إن كان قد رآه قبل أن يكون عرفه أو خالطه، وهي الهيبةُ التي تكون إطارًا لكل ما وُصِف به جمالُه ﷺ، جمال الهيبة والوقار، وأما مَن خالطهُ معرفةً أحبَّه، قال ذلك حتىٰ لا يُفهم أنَّ الهيبةَ المذكورةَ هي هيبةُ وَجَلٍ أو خوفٍ، أو هيبةُ السلطان الذي يكون له أحيانًا من الهيبة ما يقذفُ شيئًا من الوَجَل في قلوب الناس، لكنها الهيبة التي سرعان ما تتحوَّل إلىٰ محبَّةٍ راسخةٍ لكلِّ من عَرَفَه واقترب منه وعامَلَه وجالسه وسمع منه.

وقد عاش معه الصحابة ﵃ مواقفَ عِدّة مختلفة، فما رأوه إلا كريمًا حبيبًا ﷺ، فمنهم من باع واشترىٰ منه، فما رأوه إلا كريمًا حبيبًا ﷺ، ومنهم من اقترض منه أو أقرضه، فما رأوه إلا كريمًا حبيبًا ﷺ، ومنهم من خاصم واختصم بين يديه، فما رأوه إلا كريمًا حبيبًا ﷺ، ومنهم من جاء يشتكي إليه، ومنهم من جاء يتعلَّم بين يدَيه، ومنهم من جَهِل بحضرته وأخطأ، كالأعرابيِّ الذي تبوَّل في المسجد(١)، وكالذي أخطأ فتكلَّم في الصلاة دون أن يعلم(٢)، وكالأعرابيِّ الذي جَبَذَ النبيَّ ﷺ بردائه جَبْذةً شديدةً ثم قال: يا محمد، مُر لي من مال الله الذي عندك(٣)، وكاليهوديِّ الذي أتاه يطلب سَدادَ الدين وأغلظ في العبارة(٤)،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢١)، ومسلم (٢٨٤).

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧).

(٤) أخرجه ابن حبان (٢٨٨)، والحاكم (٦٥٤٧)، وقال الذهبي: «ما أنكره وأركَّه».

وغيرهم في مواقف كثيرة، فما رأوه إلا كريمًا حبيبًا ﷺ.

وقوله رضي الله عنه: «**يَقُولُ نَاعِتُهُ: لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ مِثْلَهُ ﷺ**»، كأنه قال: أتريد أن تصفه بسموّ الأخلاق؟ بكريم الطباع؟ بعَظَمة النفس؟ بسَعَة الصدر؟ بجمال الحال والخُلق والمآل؟ ستتعب في تعداد وصفه الجميل، وإن وصفتَه فستعجز عبارتُك عن أن تَفِي بالوصف به، وستجدها غير كافية، وستقفُ في آخر عبارتك فتقول: «لم أرَ قبلَه ولا بعدَه مثلَه ﷺ»، لذلك قال حسَّان بن ثابت رضي الله عنه قولًا هو من أجمل ما قالته العرب في مدح رسول الله ﷺ ووصف جمال خلقته، حيث قال:

وأحسنُ مِنكَ لم ترَ قطُّ عيني ... وأجْمَلُ مِنكَ لَم تَلِدِ النِّساءُ
خُلِقْتَ مُبرَّأً مِن كلِّ عيبٍ ... كأنَّكَ قد خُلِقتَ كما تشاءُ

وقول أبي عيسىٰ الترمذي: «سمعتُ أبا جعفر محمد بن الحسين يقول: سمعتُ الأصمعيَّ يقول في تفسير صفة النبيِّ ﷺ: ...»، هذا سردٌ لمعاني الكلمات الغريبة التي جاءت في الحديث، يذكر معانيها الأصمعيُّ اللغوي الأديب الراوي العربي، وقد رواه الترمذيُّ رحمه الله في كتابه (الشمائل) عقب هذا الحديث، فما أحسن ما صنعَ رحمه الله.

*** لفتة إيمانية:**

من السهل أن يوصف أحدُنا بأنه حليمٌ أو واسعُ الصدر، لكننا مهما بلغنا نجد أنفسنا في بعض المواقف قد تجاوزنا الحدَّ وخرجنا عن طَورنا الذي اعتدناه من أنفسنا، ونعتذر لأنفسنا ويعذرنا الناس؛ بأن الموقف كان أكبر مما هي عليه أخلاقنا، وأن الموقف كان يستدعي ذلك بلا ريب، لكنَّ البشرية والتاريخ بأكمله

لم يحفظ لنبيِّنا ﷺ موقفًا غضبَ فيه حتىٰ تجاوز حدودَ العقلانية والحِلم والرأفة وسعة الصدر، ما كان ﷺ يزيده جهلُ الجاهل إلا حِلمًا، وما كانت تزيده تصرُّفات الطائشين إلا صبرًا وتحمُّلًا لما هم عليه؛ لأنه ﷺ كان يحمل أمانةً كبيرةً، وكان ذا رسالةٍ عظيمة، يأبىٰ معها أن يقفَ مواقف البشر المعتادة التي تحمل فيها التصرُّفاتُ علىٰ تجاوز ضبط النفس أو مقابلة الجهل بالجهل، معَ أنَّ الشرعَ أذِنَ بمقابلة السيئة بالسيئة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، لكنَّ شأن الكُمَّل من الرجال والنبلاء تجاوُزُ ذلك كله، فيتعاملون في مثل هذه المواقف بأخلاقهم لا بأخلاقِ مَن يقابلهم، ولا يدفعون السوءَ بالسوء، ولا الباطلَ بالباطل، ولا يَزِنون الموقفَ بما يقابله من موقف، لكنهم يزِنونه بما يحملونه في نفوسهم العظيمة من قِيَمٍ ارتضَوها لأنفسهم، وهكذا كان شأن نبيِّكم ﷺ.

* * *

(ضعيف جدًّا) ٦ـ **عن الحسنِ بن عليٍّ رضي الله عنهما قال: سَأَلْتُ خَالِي هِنْدُ بْنُ أَبِي هَالَةَ ـ وَكَانَ وَصَّافًا ـ عَنْ حِلْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَا أَشْتَهِي أَنْ يَصِفَ لِي مِنْهَا شَيْئًا أَتَعَلَّقُ بِهِ، فقال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَخْمًا مُفخَّمًا، يَتَلَأْلأُ وَجْهُهُ تَلَأْلُؤَ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، أَطْوَلُ مِنَ المَرْبُوعِ، وَأَقْصَرُ مِنَ المُشَذَّبِ، عَظِيمُ الهَامَةِ، رَجِلُ الشَّعْرِ، إِنِ انْفَرَقَتْ عَقِيقَتُهُ فَرَّقَهَا، وَإِلَّا فَلا يُجَاوِزُ شَعرُهُ شَحْمَةَ أُذُنَيْهِ إِذَا هُوَ وَفَّرَهُ، أَزْهَرُ اللَّوْنِ، وَاسِعُ الجَبِينِ، أَزَجُّ الحَوَاجِبِ سَوَابِغَ فِي غَيْرِ قَرَنٍ، بَيْنَهُمَا عِرْقٌ يُدِرُّهُ الغَضَبُ، أَقْنَىٰ العِرْنَيْنِ، لَهُ نُورٌ يَعْلُوهُ، يَحْسَبُهُ مَنْ لَمْ يَتَأَمَّلْهُ أَشَمَّ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، سَهْلُ الخدَّيْنِ، ضَلِيعُ الفَمِ، أَشْنَبُ، مُفْلَجُ الأَسْنَانِ، دَقِيقُ المَسْرُبَةِ، كَأَنَّ عُنُقَهُ جِيدُ دُمْيَةٍ فِي صَفَاءِ الفِضَّةِ،**

مُعْتَدِلُ الخَلْقِ، بَادِنٌ مُتَمَاسِكٌ، سَوَاءُ البَطْنِ وَالصَّدْرِ، عَرِيضُ الصَّدْرِ، بَعِيدُ مَا بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ، ضَخْمُ الكَرَادِيسِ، أَنْوَرُ المُتَجَرَّدِ، مَوْصُولُ مَا بَيْنَ اللَّبَّةِ وَالسُّرَّةِ بِشَعْرٍ يَجْرِي كَالخَطِّ، عَارِي الثَّدْيَيْنِ وَالبَطْنِ مِمَّا سِوَىٰ ذَلِكَ، أَشْعَرُ الذِّرَاعَيْنِ وَالمَنْكِبَيْنِ وَأَعَالِي الصَّدْرِ، طَوِيلُ الزَّنْدَيْنِ، رَحْبُ الرَّاحَةِ، شَثْنُ الكَفَّيْنِ وَالقَدَمَيْنِ، سَائِلُ الأَطْرَافِ ـ أَو قَالَ: شَائِلُ الأَطْرَافِ ـ، خَمْصَانُ الأَخْمَصَيْنِ، مَسِيحُ القَدَمَيْنِ، يَنْبُو عَنْهُمَا المَاءُ، إِذَا زَالَ زَالَ قَلِعًا، يَخْطُو تَكَفِّيًا، وَيَمْشِي هَوْنًا، ذَرِيعُ المِشْيَةِ، إِذَا مَشَىٰ كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ، وَإِذَا التَفَتَ التَفَتَ جَمِيعًا، خَافِضُ الطَّرْفِ، نَظَرُهُ إِلَىٰ الأَرْضِ أَطْوَلُ مِنْ نَظَرِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، جُلُّ نَظَرِهِ المُلاحَظَةُ، يَسُوقُ أَصْحَابَهُ وَيَبْدَأُ مَنْ لَقِيَ بِالسَّلَامِ.

قَالَ: فَقُلْتُ: صِفْ لِي مَنْطِقَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ: كَانَ رَسُوْلُ الله ﷺ مُتَوَاصِلَ الأَحْزَانِ، دَائِمَ الفِكْرَةِ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ، طَوِيلُ السَّكْتِ، لا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، يَفْتَتِحُ الكَلَامَ وَيَخْتِمُهُ بِاسْمِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَيَتَكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ، كَلامُهُ فَصْلٌ، لا فُضُولَ وَلا تَقْصِيرَ، لَيْسَ بِالجَافِي وَلا المُهِينِ، يُعَظِّمُ النِّعْمَةَ وإِنْ دَقَّتْ، لاَ يَذُمُّ مِنْهَا شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَذُمُّ ذَوَّاقًا وَلا يَمْدَحُهُ، وَلا تُغْضِبُهُ الدُّنْيَا وَلا مَا كَانَ لَهَا، فَإِذَا تُعُدِّيَ الحَقُّ لَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ حَتَّىٰ يَنْتَصِرَ لَهُ، وَلا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ وَلا يَنْتَصِرُ لَهَا، إِذَا أَشَارَ أَشَارَ بِكَفِّهِ كُلِّهَا، وَإِذَا تَعَجَّبَ قَلَبَهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ اتَّصَلَ بِهَا، وَضَرَبَ بِرَاحَتِهِ اليُمْنَىٰ بَطْنَ إِبْهَامِهِ اليُسْرَىٰ، وَإِذَا غَضِبَ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ، وَإِذَا فَرِحَ غَضَّ طَرْفَهُ، جُلُّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمُ، يَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الغَمَامِ.

قَالَ الحَسَنُ: فَكَتَمْتُهَا الحُسَين زَمَانًا، ثُمَّ حَدَّثْتُهُ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ، فَسَأَلَهُ عَمَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ، وَوَجَدْتُهُ قَدْ سَأَلَ أَبَاه عَنْ مَدْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ وَشَكْلِهِ فَلَمْ يَدَعْ مِنْهُ شَيْئًا.

قَالَ الحُسَينُ: فَسَأَلْتُ أَبِي عَنْ دُخُوْلِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ؟

فَقَالَ: كَانَ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ جزَّأَ دُخُولَهُ ثَلاثَةَ أَجْزَاءٍ: جُزْءًا لله، وَجُزْءًا لأَهْلِهِ، وَجُزْءًا لِنَفْسِهِ، ثُمَّ جزَّأَ جُزْأَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَيَرُدُّ ذَلِكَ بِالخَاصَّةِ عَلَىٰ العَامَّةِ، وَلا يَدَّخِرُ عَنْهُمْ شَيْئًا، وَكَانَ مِنْ سِيرَتِهِ فِي جُزْءِ الأُمَّةِ إِيثَارُ أَهْلِ الفَضْلِ بِإِذْنِهِ وَقَسْمِهِ عَلَىٰ قَدْرِ فَضْلِهِمْ فِي الدِّينِ، فَمِنْهُمْ ذُو الحَاجَةِ، وَمِنْهُمْ ذُو الحَاجَتَيْنِ، وَمِنْهُمْ ذُو الحَوَائِجِ، فَيَتَشَاغَلُ بِهِمْ، وَيَشْغَلُهُمْ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ وَالأُمَّةَ مِنْ مُسَاءَلَتِهِمْ عَنْهُ، وَإِخْبَارِهِمْ بِالَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ، وَيَقُولُ: «لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنكُمُ الغَائِبَ، وَأَبْلِغُونِي حَاجَةَ مَنْ لا يَسْتَطِيعُ إِبْلاغَهَا، فَإِنَّهُ مَنْ أَبْلَغَ سُلطَانًا حَاجَةَ مَنْ لا يَسْتَطِيعُ إِبْلاغَهَا ثَبَّتَ اللهُ قَدمَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»، لا يُذْكَرُ عِنْدَهُ إِلا ذَلِكَ، وَلا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ غَيْرِهِ، يَدْخُلُونَ رُوَّادًا، وَلا يَفْتَرِقُونَ إِلا عَنْ ذَوَاقٍ، وَيُخْرِجُونَ أَدِلَّةً؛ يَعْنِي: عَلَىٰ الخَيْرِ.

قَالَ: فَسَأَلْتُهُ عَنْ مَخْرَجِهِ كَيْفَ يَصْنَعُ فِيهِ؟

قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْزِنُ لِسَانَهُ إِلا فِيمَا يَعْنِيهِ، وَيُؤَلِّفُهُمْ وَلا يُنَفِّرُهُمْ، وَيُكْرِمُ كَرِيمَ كُلِّ قَوْمٍ وَيُوَلِّيهِ عَلَيْهِمْ، وَيُحَذِّرُ النَّاسَ وَيَحْتَرِسُ مِنْهُمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْوِيَ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ بِشْرَهُ وَخُلُقَهُ، وَيَتَفَقَّدُ أَصْحَابَهُ، وَيَسْأَلُ النَّاسَ عَمَّا فِي النَّاسِ، وَيُحَسِّنُ الحَسَنَ وَيُقَوِّيهِ، وَيُقَبِّحُ القَبِيحَ وَيُوَهِّيهِ، مُعْتَدِلُ الأَمْرِ غَيْرُ

مُخْتَلِفٍ، لا يَغْفُلُ مَخَافَةَ أَنْ يَغْفُلُوا أَوْ يَمِيلُوا، لِكُلِّ حَالٍ عِنْدَهُ عَتَادٌ، لا يُقَصِّرُ عَنِ الحَقِّ وَلا يُجَاوِزُهُ، الَّذِينَ يَلُونَهُ مِنَ النَّاسِ خِيَارُهُمْ، أَفْضَلُهُمْ عِنْدَهُ أَعَمُّهُمْ نَصِيحَةً، وَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَحْسَنُهُمْ مُوَاسَاةً وَمُؤَازَرَةً.

قَالَ: فَسَأَلْتُهُ عَنْ مَجْلِسِهِ؟

فَقَالَ: كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ لا يَقُومُ وَلا يَجلِسُ إلا عَلَىٰ ذِكْرٍ، وَإِذَا انْتَهَىٰ إِلَىٰ قَوْمٍ جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ المَجْلِسُ، وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ، يُعْطِي كُلَّ جُلَسَائِهِ بِنَصِيبِهِ، لا يَحْسَبُ جَلِيسُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْهُ، مَنْ جَالَسَهُ أَوْ فَاوَضَهُ فِي حَاجَةٍ صَابَرَهُ حَتَّىٰ يَكُونَ هُوَ المُنْصَرِفُ عَنْهُ، وَمَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهُ إِلا بِهَا أَوْ بِمَيْسُورٍ مِنَ القَوْلِ، قَدْ وَسِعَ النَّاسَ بَسْطُهُ وَخُلُقُهُ، فَصَارَ لَهُمْ أَبًا، وَصَارُوا عِنْدَهُ فِي الحَقِّ سَوَاءً، مَجْلِسُهُ مَجْلِسُ عِلْمٍ وَحِلْمٍ وَحَيَاءٍ وَأَمَانَةٍ وَصَبْرٍ، لا تُرْفَعُ فِيهِ الأَصْوَاتُ وَلا تُؤْبَنُ فِيهِ الحُرَمُ، وَلا تُنْثَىٰ فَلَتَاتُهُ، مُتَعَادِلِينَ، بَلْ كَانُوا يَتَفَاضَلُونَ فِيهِ بِالتَّقْوَىٰ، مُتَوَاضِعِينَ، يُوَقِّرُونَ فِيهِ الكَبِيرَ، وَيَرْحَمُونَ فِيهِ الصَّغِيرَ، وَيُؤْثِرُونَ ذَا الحَاجَةِ، وَيَحْفَظُونَ الغَرِيبَ.

قَالَ الحُسَيْنُ: سَأَلْتُ أَبِي عَنْ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي جُلَسَائِهِ؟

فَقَالَ: كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ دَائِمَ البِشْرِ، سَهْلَ الخُلُقِ، لَيِّنَ الجَانِبِ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلا غَلِيظٍ، وَلا صَخَّابٍ وَلا فَحَّاشٍ، وَلا عَيَّابٍ وَلا مُشَاحٍ، يَتَغَافَلُ عَمَّا لا يَشْتَهِي، وَلا يُؤْيِسُ مِنْهُ رَاجِيهِ وَلا يُخَيَّبُ فِيهِ، قَدْ تَرَكَ نَفْسَهُ مِنْ ثَلاثٍ: المِرَاءِ، وَالإِكْثَارِ، وَمَا لا يَعْنِيهِ، وَتَرَكَ النَّاسَ مِنْ ثَلاثٍ: كَانَ لا يَذُمُّ أَحَدًا وَلا يَعِيبُهُ وَلا يَطْلُبُ عَوْرَتَهُ، وَلا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا رَجَا ثَوَابَهُ، وَإِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلَسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَىٰ رُؤوسِهِمُ

الطَّيْرُ، فَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا، لا يَتَنَازَعُونَ عِنْدَهُ الحَدِيثَ، وَمَنْ تَكَلَّمَ عِنْدَهُ أَنْصَتُوا لَهُ حَتَّىٰ يَفْرُغَ، حَدِيثُهُمْ عِنْدَهُ حَدِيثُ أَوَّلِهِمْ، يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ، وَيَتَعَجَّبُ مِمَّا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ، وَيَصْبِرُ لِلْغَرِيبِ عَلَىٰ الجَفْوَةِ فِي مَنْطِقِهِ وَمَسْأَلَتِهِ، حَتَّىٰ إِنْ كَانَ أَصْحَابُهُ لَيَسْتَجْلِبُونَهُمْ، وَيَقُولُ: «إِذَا رَأَيْتُمْ طَالِبَ حَاجَةٍ يطْلُبُهَا فَأَرْفِدُوهُ»، وَلا يَقْبَلُ الثَّنَاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِئٍ، وَلا يَقْطَعُ عَلَىٰ أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّىٰ يَجُوزَ فَيَقْطَعُهُ بِنَهْيٍ أَوْ قِيَامٍ»(١).

شرح الحديث

هذا حديث الحسن بن عليٍّ ﵄، سِبطِ رسولِ الله ﷺ وريحانتِه، وكان ﷺ يحبُّه حبًّا جمًّا، وكان الحسنُ من أشبه الناس بجدِّه رسول الله ﷺ، حتىٰ إنَّ أبا بكرٍ ﵁ كان يحملُه فيُداعبه ويقول:

«وا بأبي شِبْهُ النبيِّ ليس شَبيهًا بعليِّ»(٢).

فكان ﵁ - وهو الموصوفُ بأنه سيِّدٌ(٣) - ينقلُ هذا الحديثَ عن خالِه هند بن أبي هالة ﵁.

وهندُ بن أبي هالة صحابيٌّ، أدرك من الغزوات بدرًا وما بعدها، وقُتِلَ مع

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١٥٥، رقم: ٤١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣٦٢).

(٢) أخرجه أحمد (٤٠).

(٣) في قول النبيِّ ﷺ: **«إن ابني هذا سيِّد، ولعل الله أنْ يُصلِحَ به بين فئتين عظيمتَين من المسلمين»**. أخرجه البخاري (٢٧٠٤).

علي رضي الله عنه، وهو خالُ الحسن، أخو أمِّه فاطمة من أمِّها خديجة رضي الله عنهم، وخديجةُ رضي الله عنها كانت متزوِّجةً بأبي هالة قبل رسول ﷺ، ولها منه ولدٌ هو هند، فلما تزوَّجت برسول الله ﷺ وأنجبت له البنين والبنات أصبح هند بن أبي هالة أخاهم من أمِّهم.

وحديثُ هند بن أبي هالة هذا هو أجملُ حديثٍ وأشملُ روايةٍ في وصف النبيِّ ﷺ علىٰ الإطلاق، فراويه كان دقيق الوصف، ولذلك قال الحسن: «**وكان وصَّافًا**»، فقد كان هندٌ جميلَ الوصف دقيقَ العبارة، والوصفُ أمرٌ يتفاوت فيه الناس، فلو طُلب من عِدَّة أشخاص اشتركوا في رؤية مكان ما أن يَصِفوا هذا المكان؛ لتفاوتوا في الألفاظ ودِقَّة التعبير، وفي تعداد أجزاء المكان الموصوف؛ لأنَّ حُسنَ الوصف يحتاج إلىٰ شيئين: وقوف الواصف علىٰ الشيء الذي يريد وصفه ودقَّة ملاحظته وتركيزه النظرَ لتحديد ما ينبغي وصفه، والأمر الثاني هو حُسن التعبير ودقَّته وتخيُّر الألفاظ التي تؤدِّي المعنىٰ المراد، وقد اجتمع الأمران عند ابن أبي هالة رضي الله عنه، لذا كان هذا الحديث من أروع الأحاديث في وصف النبيِّ ﷺ.

ويُزاد علىٰ ما سبق أن هندًا في هذا الحديث يصف زوج أمِّه الذي ربَّاه، فهندٌ ربيبُ رسول الله ﷺ؛ أي: ابن زوجته، وقد تربىٰ في حِجره، فهو غيرُ بعيدٍ عنه.

ويجدُر التنبيه إلىٰ أنَّ هذا الحديث ضعيفٌ من جهة الإسناد علىٰ طريقة المحدِّثين؛ لأنَّ في إسناده رُواةً لم تُذكر أسماؤهم، وهو المعروف عند المحدِّثين بالإبهام، وجهالة الراوي أحد أسباب ضعف الحديث، ولما بُحِثَ عن طُرقٍ أخرىٰ للحديث تبيَّن أنها لا تَعضُده ليَرتقي إلىٰ درجة القبول، فالطُرُقُ الأخرىٰ معلولةٌ أيضًا، ولذا فإنَّ بعض المحدِّثين حكم عليه بالضعف الشديد، فإن قيل: إذا كان

ضعيفًا جدًّا فما حاجتُنا إليه؟ فالجواب: أننا لا نستقي منه أحكامًا شرعية نبني عليها حلالًا وحرامًا، بل غاية ما في الحديث هو حكايةُ أوصافِ رسول الله ﷺ.

ثم إنَّ الأوصافَ والجُملَ التي وردت في هذا الحديث نوعان: نوعٌ قد ورد وتكرَّر في الروايات الأخرىٰ الصحيحة الثابتة، فوجودُها في هذا الحديث توكيدٌ لها، والنوع الآخر انفرد به هذا الحديث، ولم يَرِد ذِكرُه في أحاديث أخرىٰ ثابتة، فهذا النوع لا يُترك لضعف الرواية التي جاءت به، بل يُحتفظ به ويُروىٰ؛ لعدمِ بناءِ أحكامٍ شرعيةٍ عليه، ولهذا ترىٰ أنَّ الإمام الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يختصر الشمائل للإمام الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد تجاوز عددًا من الرِّوايات الضعيفة التي لا تصحُّ، وأبقىٰ علىٰ مثل حديث هند بن أبي هالة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه لا يَحسُن تجاوزُه؛ إذ لم يزل هذا الحديثُ معتبرًا في الجملة عند أهل العلم المعتنين بأوصاف النبيِّ ﷺ.

ويجدُر التنبيه أيضًا إلىٰ أنَّ الإمام الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الأصل (الشمائل) لما أورد حديث هند بن أبي هالة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أورده مجزَّأً علىٰ الأبواب، فأورد قطعةً منه في هذا الباب، وهي من أوَّل الحديث إلىٰ قوله: «**وَيَبْدَأُ مَنْ لَقِيَ بِالسَّلَامِ**»، وأورد قطعةً أخرىٰ في باب ما يوصف به شَعرُه ﷺ، وقطعةً ثالثةً فيما يتعلَّق بلون بشرته، فأخذ من كل قطعةٍ من الحديث ما يناسب الباب، لكن الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ ساق هنا الحديث بطوله وتمامه وكماله، وجمع الألفاظ التي توزَّعت في الأبواب، وأتىٰ بها في سياقٍ واحد متَّصل.

وهذا الحديث العظيم اشتمل علىٰ جُملٍ عديدةٍ في وصف رسول الله ﷺ، فيها أمورٌ لم يرد وصفُها في أحاديث الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فإنَّ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يقِفون

أمامه ﷺ في نقل ما يتعلَّق بصفته وهيئته وحِليته وجمال خِلقته وخُلُقه، فكأنما يقفون علىٰ بحرٍ لا ساحل له، فكم يغرِفون وكم يتركون؟ وكم روىٰ الصحابة رضي الله عنهم من جُملٍ متعدِّدةٍ تحكي شيئًا من وصفه الجميل العظيم الشريف ﷺ، لكنهم مهما وصفوا فإنهم أتوا علىٰ جانب وتركوا جوانب، ولهذا كان كثيرٌ منهم كلما اجتهد في الوصف وحكىٰ جانبًا من جوانب خلقته وهيئته وجماله ﷺ؛ لم يسعه ـ وقد شعر أنه عجَز عن أن يُحيطَ بوصف خِلقته وأخلاقه ﷺ ـ إلا أن يقول في آخر حديثه: «لم أرَ أحسنَ منه ﷺ»، أو: «لم أرَ قبلَه ولا بعدَه مثلَه ﷺ»، كما تقدَّم، لكنَّ حديث هند بن أبي هالة حديثٌ متميِّزٌ متفرِّدٌ عن سائر الأحاديث التي جاءت في وصفه الشريف الجميل ﷺ؛ ذلك أنَّ هندَ بنَ أبي هالة كان وصَّافًا يُجيدُ الوصفَ ويُحسنه كما سبق، فلو تأمَّلت الجُمل التي ذكرها في وصف النبيِّ ﷺ واستوعبْتَ معانيَها؛ لارتسمت لك صورةٌ تكاد تكون متكاملة لمظهر النبيِّ ﷺ وهيئته.

فقول هند بن أبي هالة رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَخْمًا مُفخَّمًا، يَتَلَأْلَأُ وَجْهُهُ تَلَأْلُؤَ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ»، ابتدأ هندٌ رضي الله عنه وصفَه بهذه الجملة العظيمة، وهي وصفٌ مجملٌ سيأتي تفصيلُه تِباعًا، ومرادُه أنَّ فخامةَ وجهِ النبيِّ ﷺ تمتلئ نُبلًا وبهاءً وهيبةً، وتمتلئ بكل صُور الحُسن والجمال التي تقع عليها عين الإنسان، وهذه الفخامة تملأ عين الناظر إليه إجلالًا وتعظيمًا؛ لما جمعَتْه من جَمال الخِلقة، وحِلية الصورة، وبهاء المنظر، وحُسن الشكل، فتجدُ نفوسُ الناظرين إليه في داخلها هيبةً تحملُها علىٰ تفخيم رؤية النبيِّ ﷺ، وهذا يؤكِّد ما تقرَّر سابقًا أنَّ جَمال النبيِّ ﷺ هو جَمالُ الهيبةِ والجلال والفخامة المستحسنُ عادةً في الرجال، لا جَمالُ النعومة والليونة والرقَّة المستحسنُ عادةً في النساء.

وقوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**يَتَلَأْلَأُ وَجْهُهُ تَلَأْلُؤَ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ**»، هنا شرعَ هندٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في تفصيل جوانب ذلك الجمال المفخَّم، فوصفَ استنارةَ وجهِ النبيِّ ﷺ بتلأْلُؤ القمر ليلةَ البدر، وتشبيهُ جمالِ وجهِ الإنسان بالقمر مما كثُرَ جريانه علىٰ ألسنة العرب، فقالوا: فلانٌ كالقمر، أو: أجملُ من القمر، وهذا التشبيهُ يرِدُ للمبالغة تارةً، وللغزَل تارةً، وللتحبُّب والتودُّد تارةً، وقد يتبادر إلىٰ الذهن أنَّ الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كانوا يشبِّهون وجه النبيِّ ﷺ بالقمر من باب المجاملة أو المبالغة، إلا أنَّ الواقع خلاف ذلك، فقد كانوا يبصرون ـ حقيقةً ـ نورًا وضياءً في وجهه ﷺ، يُعطي جمالًا وبهاءً وفخامةً أجملَ مما لو أبصر أحدُهم القمرَ ليلةَ البدر، كما مرَّ في حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا حين قال: «**رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ إِضْحِيَانٍ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ القَمَرِ، فَلَهُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ القَمَرِ**»، فهذا التفضيل لجمال النبيِّ ﷺ ليس من باب المجاملة أو الغزَل أو مجرَّد التحبُّب، وإنما هو حقيقةٌ وجَدوها، ولو كتب الله لأحدنا رؤيتَه ﷺ لأيقن ذلك.

ومن الفروق بين تلألُؤِ وجهِ النبيّ ﷺ وتلألُؤِ القمر ليلةَ البدر: أنَّ القمر يتلألأُ ليلتين أو ثلاثًا في الشهر، ويكون ضعيفًا قبلها وبعدها، أمَّا تلألُؤُ وجهِ المصطفىٰ ﷺ فقد كان دائمًا مستمرًّا طوال حياته، تَبتهجُ به أعينُ الناظرين إليه.

وقوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**أَطْوَلُ مِنَ المَرْبُوعِ، وَأَقْصَرُ مِنَ المُشَذَّبِ**»، المربوعُ هو الرَّجلُ المعتدلُ الطولِ المائلُ للقصر قليلاً، والـمُشذَّبُ هو الطويلُ البائنُ الذي يتمايز بطوله عن الرجال إذا وقف بينهم، كما لو شَذَّبتَ عودًا أو شجرةً أو نخلةً فبانت طويلةً بعد تشذيب أطرافها، وقد كان طولُ النبيِّ ﷺ وسطًا بينهما، وهذه

الجملة مرَّت بمعناها في غيرِ ما حديثٍ سبق.

وقوله رضي الله عنه: «**عَظِيمَ الهَامَةِ**»؛ الهامَةُ في الأصل: أعلىٰ الرأس، وعِظَمُها يتناسب مع جملة البدن والقامة، وقد وصفَ هامةَ النبيّ ﷺ بالعِظَم، وليس المراد أنَّ هامَتَه في ضخامتها كالعماليق، ولكن يشير بذلك إلىٰ ضخامة في الأطراف يأتي وصفُها بعد قليل، فقد كان ﷺ موصوفًا بضخامة الصدر، وضخامة العظام والكراديس التي هي رؤوس المفاصل، وضخامة الكفَّين والقدمين، كل تلك الضخامة مع ما وُصف به من الجمال والجلال تملأ عين الناظر إليه جمالًا وإجلالًا وتوقيرًا.

وقوله رضي الله عنه: «**رَجِلَ الشَّعرِ**»؛ أي: ليس شديد الجُعودة يلتفُّ وينثني من شدَّة الخشونة، ولا شديد السبوطة ينساب نعومةً وليونةً، وإنما كان وسطًا بين ذلك، وقد تقدَّم أيضًا هذا الوصف لشَعره في غير حديثٍ.

وقوله رضي الله عنه: «**إنِ انفرَقَتْ عَقِيقَتُه فَرَّقَهَا**»، العقيقةُ هي الشَّعر الذي في مقدِّمة الرأس علىٰ الناصية، وهي في الأصل شعرُ المولود قبل أن يُحلَق، وجاء في روايةٍ أخرىٰ للحديث: «**إنِ انْفَرَقَتْ عَقِيصَتُه فَرَّقَهَا**»(١)، والعقيصةُ هي الخصلةُ من الشَّعر إذا لُويت وضُفِرت، ويُسمِّيها بعضُهم: عَقصة، وعِقاصًا، ومعنىٰ «**إنِ انفرَقَتْ عَقِيقَتُه فَرَّقَهَا**»: أنه إن امتشطَ ﷺ ورَجَّل شَعرَه وتيسَّر له أن يفرِق عقيقتَه ويقسمها إلىٰ قسمين فعل ذلك.

وقوله رضي الله عنه: «**وَإِلَّا فَلا يُجَاوِزُ شَعرُهُ شَحْمَةَ أُذُنَيْهِ إذَا هُوَ وَفَّرَهُ**»؛ أي إن لم

---

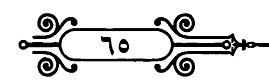
(١) عند الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١٥٥، رقم: ٤١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣٦٢).

يتيسَّر له فَرْقُ عقيقتِهِ فإنَّ شَعرَه حينها لا يجاوز شحمةَ أذنيه، وقد تقدَّم في حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما أنَّ شَعرَه صلى الله عليه وسلم يَضرِبُ إلىٰ أطراف منكِبيه، فكان طولُ شعره صلى الله عليه وسلم ـ علىٰ ما اجتمعت عليه روايات الصحابة رضي الله عنهم ـ يصلُ إلىٰ أطراف شَحمة أُذنيه أو إلىٰ أطراف منكبيه، وكلا الأمرين يدلُّ علىٰ كثافةِ شعره وطوله، لكنَّ هندًا رضي الله عنه وصف ما رأىٰ.

وقوله رضي الله عنه: «**أَزْهرُ اللَّونِ**»؛ أي: أنَّ بياضَه مُضيءٌ، ليس بالأمهقِ الشديد كما هو في بياض صاحب البرص، ولا هو بالأسمر المائل إلىٰ السواد، بل بياضٌ مُشرَبٌ بحُمرة، كما تقدَّم في الحديث السابق، وهو أجملُ أنواع البياض في البَشرة، وهو أيضًا أوسطُها وأعدلُها؛ لأنَّ البياضَ إذا زاد مال إلىٰ الصُّفرة، وإذا نقص مال إلىٰ السُّمرة والسواد.

وقوله رضي الله عنه: «**وَاسِعَ الجَبِين**»؛ أي: واضحَ الجبين، والجبينُ عند العامَّة هو ما استقبل الإنسانَ من أعلىٰ الوجه، وهذا في لغة العرب هو الجبهة، أمَّا الجبين فهو جانب الجبهة من الطرفين، ولهذا قال تعالىٰ في قصَّة أمر ذبح إبراهيم لولده إسماعيل: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]؛ أي: أضجَعَه علىٰ أحد شِقَّيه، ووَضَع جبينَه علىٰ الأرض.

وقوله رضي الله عنه: «**أَزَجُّ الحَوَاجِبِ سَوَابِغَ فِي غَيْرِ قَرَنٍ**»، هذا وصفٌ لحواجبه صلى الله عليه وسلم، وهنا بدأ بوصف أعضاءٍ دقيقةٍ بعد وصف هيئته صلى الله عليه وسلم بعامَّة، ومعنىٰ «**أَزَجُّ الحَوَاجِبِ**»: فيهما شيء من الانحناء والتقوُّس، فالزَّجَجُ: تقوُّسٌ في الحاجب مع دِقَّةٍ وطولٍ فيه، وهو أجملُ ما يكون في حواجب الإنسان، فلم تكن خطًّا مستقيمًا،



ولا كانت كثيفة تلتصق لشدَّة ما فيها من الشَّعر، ومعنىٰ «سَوَابِغَ فِي غَيْرِ قَرَنٍ»: أنها كاملة، لكنها غير مقترنة، فلا يتَّصل شعر حاجبه الأيمن بشعر حاجبه الأيسر.

وقوله رضي الله عنه: «**بَيْنَهُمَا عِرْقٌ يُدِرُّهُ الغَضَبُ**»؛ أي: كان عنده ﷺ عِرقٌ يبرزُ ويظهرُ وينتفخُ إذا كان في حالة الغضب، ويظهر هذا العِرق بين حاجبيه ﷺ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يعرفون من بعض العلامات أنه في حالةِ غضبٍ، وهذه واحدةٌ منها.

وقوله رضي الله عنه: «**أَقْنَىٰ العِرْنَيْنِ، لَهُ نُورٌ يَعْلُوهُ، يَحْسَبُهُ مَنْ لَمْ يَتَأَمَّلْهُ أَشَمَّ**»، العِرْنِين هو الأنف، ومعنىٰ «أَقْنَىٰ العِرْنَيْنِ»؛ أي: طويلُ الأنف، مع دِقَّةٍ في الأرنبة ـ وهي رأسُ الأنف ـ، وارتفاعٍ في قَصَبته، وحَدَبٍ في وسطه، يشيرُ بذلك إلىٰ قوامِ الأنف واستقامته، وأنَّ في طرفه حِدّةً وارتفاعًا واضحًا، وبسبب هذا الارتفاع وهذه الدقَّة في طرف الأنف يحسبه من لم يتأمَّله أشمَّ، والشَّمَم نحافةُ الأنف ودِقَّته جدًّا باستواءٍ من أوَّله إلىٰ آخره لا قَنَا فيه، ولكنه لم يكن كذلك؛ فمن تأمَّله واقترب منه عرف أنه ليس بأشمَّ، وإنما هو أقنىٰ العِرنِين مع دِقَّة أرنبته(١)، وهذا من علامات الجمال التي تمدح بها العرب، يقول القلقشنديُّ فيما يُستحسن من صفات الجمال: «ومنها: حُسن الأنف، ويُستحسن فيه القَنَا، وهو ارتفاعُ وسط الأنف قليلًا عن طرفيه مع دقَّةٍ فيه، وهو الغالب في العرب، وقد جاء في وصفه ﷺ أنه كان أقنىٰ الأنف، ويُستحسن فيه الشمَمُ أيضًا، وهو استواءُ قصَبَة الأنف وعلوُّ أرنبته»(٢).

---

(١) يقول الثعالبيُّ: «الشمَمُ: ارتفاعُ قصَبَة الأنف مع استواء أعلاها، والقنا: طول الأنف ودِقّةُ أرنبته، وحَدَبٌ في وسطه». فقه اللغة (١/ ٢١).

(٢) انظر: صبح الأعشىٰ للقلقشندي (١/ ١٩٨).

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كَثُّ اللِّحْيَة**»؛ أي كثيرَ شَعرِها، فقد كانت لحيتُه ﷺ عظيمةً وفيرةَ الشَّعر، ولم تكن قصيرةً، ولم يكن يأخذ منها ولا يحلقها.

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**سَهْلُ الخدَّيْنِ**»؛ يعني: منبسط الخدَّين، غيرَ مرتفع الوَجْنَتين، وهذا من أوصاف الجمال.

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ضَلِيعُ الفَمِ**»؛ يعني: عظيمَ الفم، والعرب تمدح الإنسان بسَعَة فمه؛ للدلالة على الفصاحة، فيقولون: فلانٌ ضليعُ الفم؛ أي: فصيحُ اللسان، جيِّدُ الكلام، حُلوُ المنطق، فهذا من التعبير المجازيِّ، ولا يريد ضخامةَ الفم حقيقةً، وقد يريدون بضليع الفمِ أحيانًا: سعةَ حجم الفم حقيقةً، وهو أيضًا من أوصاف الجمال، فإذا دقَّ الأنفُ واتَّسع الفمُ مع اتِّساع العينين وشِدَّة سوادها؛ كان ذلك في غاية الجمال، وقد اجتمعت هذه الأمورُ في وصفه ﷺ.

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَشْنَبُ، مُفْلَجُ الأَسْنَانِ**»، الأشنبُ: مَن في أسنانه دِقَّةٌ وحِدَّةٌ، ومُفلَج الأسنان؛ يعني: أنَّ أسنانَه غيرُ ملتصقة، وهناك فُرجةٌ يسيرةٌ بين كل سِنٍّ وسِنٍّ، فهي مستويةٌ ومتجاوِرةٌ مع انفراجٍ يسيرٍ بينها، وهذا من أعظم ما يكون عليه جَمال الأسنان عند العرب، ومما يتغزَّلون به أن تكون الأسنان في الفم على هذا النحو.

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**دَقِيقُ الـمَسْرُبَةِ**»، الـمَسْرُبة ـ كما تقدَّم في الحديث السابق ـ: هي خَطُّ الشَّعر الذي يجري من أعلى صدر الإنسان إلى سُرَّته، وقد كان ﷺ دقيق الـمَسرُبة، فهو وصفٌ لحجم خطِّ الشَّعر الذي كان في صدره ﷺ.

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كَأَنَّ عُنُقَه جِيدُ دُمْيَةٍ في صَفَاءِ الفِضَّةِ**»، الجِيدُ: هو العُنُق،

والدُّمية هي المعروفة التي تُصنع ليلعب بها الأطفال، وصُنع الدُّمية يقتضي أن تكون علىٰ نحوٍ مُتساوٍ متَّسِقٍ، يعتني بها صانعُها لتكون في غاية الاتِّزان والاتِّساق والجَمال، والمقصودُ بيانُ أنَّ طولَ عُنُقه ﷺ في غاية الاعتدال. ومعنىٰ «**في صَفَاءِ الفِضَّة**»: أنَّ عُنُقَه ﷺ تبدو في صفائها وجمالها ولَمَعانها كأنها فِضَّة، والمراد: أنَّ بياضَ عُنقه في غاية الصفاء.

وقوله ﵁: «**مُعْتَدِلُ الخَلْقِ**»، هذا وصفٌ عامٌّ، فكلُّ خَلقِه معتدلٌ، فقد كان معتدِلَ الطُّول؛ ليس بالطويل ولا بالقصير، وكان معتدلَ لونِ البشرة؛ ليس بالأبيضِ الأمْهَقِ ولا بالأسمر شديد الأُدمة، وكان معتدلَ ملمسِ الشعر؛ فليس بالسَّبْط المسترسِل ولا بالجَعْد القَطَط الملتفِّ الخَشِن، كان ﷺ في وصف سائر أنحاء جسده مُعتدِل الخَلق.

وقوله ﵁: «**بادِنٌ مُتَمَاسِكٌ**»، البادِنُ: ممتلئُ الجَسَد لحمًا، ولا يلزمُ اتِّصافُه بالسُّمنة، فقد سبق في حديث عليٍّ ﵁ المتقدِّم أنَّ النبيَّ ﷺ «**لَمْ يَكُنْ بِالـمُطَهَّمِ**»، والـمُطَهَّم: هو المُنتفِخُ من شدَّةِ امتلاء الجَسَد، والمقصدُ أنه ﷺ لم يكن نحيلًا هزيلًا دقيقَ البدن يبرز عظمُه من قِلَّة لحمه، وإنما كان بادنًا، ووَصَفه بأنه مُتماسِكٌ؛ أي: لم يكن مُترهِّلًا، كحال بعض من يوصف بالبدانة إذا ترهَّل، فارتخىٰ بطنُه أو بعضُ جسده من امتلاء اللحم والشحم، لكنه ﷺ كان بادِنًا مُتَماسِكًا، فكانت هيئةُ بدنه بامتلاءِ الجسد مستويةً، كما سيأتي.

وقوله ﵁: «**سَوَاءُ البَطْنِ والصَّدْرِ**»؛ أي أنه ﷺ مع كونه بادِنًا كان مستويَ البطن والصدر، فإذا وقف كان صدرُه وبطنُه سواءً، فلا بروزَ لبطنه، ولا انتفاخ

فيها ولا استرخاء، كحال من كان نحيفًا، غير أنه ﷺ لم يكن نحيفًا.

وقوله رضي الله عنه: «**عَرِيضُ الصَّدْرِ**»، المقصود به الاتِّساع، وهو نوعٌ من وَصفِ أجزاء جسده ﷺ بالعَظَمة والفَخامة والضَّخامة.

وقوله رضي الله عنه: «**بَعِيدُ مَا بَينَ المَنْكِبَينِ**»، المنكِبان طرفا الكتفين، وتقدَّم أنَّه ﷺ كان بعيدَ ما بين المنكِبَين، إشارةً إلىٰ اتِّساع بدنه وواجهته التي يقابل بها الناس، وهذا نوعٌ من عظمة الإنسان إذا استقبلته العينُ ووقع عليه النظرُ، رأيتَ ما يهولُك هيبةً وإجلالًا.

وقوله رضي الله عنه: «**ضَخْمُ الكَرَادِيسِ**»، تقدَّم أنَّ الكراديسَ: رؤوسُ العِظام، فرأسُ عَظمة العَضُد ورأسُ المرفق ورأسُ الكتِف ورأسُ عظمة الساق = كلُّها اتَّصفت بالضخامة، وهذا نوعٌ من عِظَم خِلقته ﷺ، ولا يلزم من ضَخامة العِظام اتِّصافُ صاحبِها بالبدانة، فقد يكون من اتَّصف بذلك نحيلًا.

وقوله رضي الله عنه: «**أَنْوَرُ المُتَجَرَّد**»، يقصدُ بذلك أنه ﷺ كان إذا انكشف منه عضوٌ ـ كالكفَّين، أو الذِّراعَين، أو البطن، أو الصدر، أو المنكب، أو القدمين، أو الساقين ـ وتجرَّدَ من اللباس في إحرامٍ وغيره، ظهر هذا العضوُ الذي تجرَّد من اللباس أنورَ لا شَعرَ عليه، وكان مُضيئًا مُشرِقًا من بياض بَشرته ﷺ.

وقوله رضي الله عنه: «**مَوْصُولُ مَا بَيْنَ اللَّبَّةِ وَالسُّرَّةِ بِشَعْرٍ يَجْرِي كَالخَطِّ**»، اللَّبَّةُ هي النُّقرة التي في أعلىٰ الصدر، وهي مَجمَع القفص الصدري في منتصفه، التي تجمع بين التَّرقُوَتين، وهي موضع القلادة من الصدر، والشَّعرُ الواصلُ بين اللَّبَّة والسُّرَّة هو المَسرُبة التي تقدَّم ذِكرُها لما قال: «**دقيقَ المَسرُبة**».

وقوله ﷺ: «عَارِي الثَّدْيَيْنِ وَالبَطْنِ مِمَّا سِوَىٰ ذَلِكَ»، أي ليس علىٰ بطنِه وثَدْيِيه شَعرٌ سوىٰ ذلك الخطِّ الواصل بين اللَّبَّة والسُّرَّة، وهو المسرُبة، فلم يكن ﷺ بالأجردِ ولم يكن بالأشعَر، ولكنه وسطٌ بين ذلك، وهذا هو الغاية في الجمال عند الرجال.

وقوله ﷺ: «أَشْعَرُ الذِّرَاعَيْنِ وَالمَنْكِبَيْنِ وَأَعَالِي الصَّدْرِ»، لا يزال يصف شَعر جَسَده ﷺ، فذكر أنَّ ذِراعَيه ومنكِبيه وأعالي صدره كان عليها شَعرٌ، فلم يكن أجردَ.

وقوله ﷺ: «طَوِيلُ الزَّنْدَيْنِ، رَحْبُ الرَّاحَةِ، شَثْنُ الكَفَّيْنِ وَالقَدَمَيْنِ، سَائِلُ الأَطْرَافِ ـ أَوْ قَالَ: شَائِلُ الأَطْرَافِ ـ»؛ الزَّندان: عَظْما الساعد، والرَّاحةُ: هي بَسطُ الكفِّ وباطنُه، ورَحْبُ الرَاحَةِ: واسِعُها، والقَصَبُ: كلُّ عَظمٍ ذي مُخٍّ، وسَبْطُ القَصَب: ممتَدُّ العِظام ذَواتِ المُخِّ، والعِظام ذَوات المُخِّ: هي العِظام الكبيرة، كعَظْمةِ العَضُدِ، وعَظْمة الذِّراع، وعَظْمةِ الفَخِذ، وعَظْمةِ الساق، وهي موجودةٌ في بعض الروايات.

وشَثْنُ الكفَّين والقدمين؛ أي: ضخمُ الكفّين والقَدَمين كبيرُ حجمِهما، كما في الحديث السابق، وسائلُ الأطراف، أو شائلُ الأطراف؛ أي: طويلُ الأطراف، علىٰ كلا اللَّفظين.

فكلُّ هذه الأوصاف تدلُّ علىٰ طُول عِظامه ﷺ وضخامة أطرافه، وأنَّ طولَها مناسبٌ للضخامة التي وُصِفت بها الأعضاء، وهذا يُظهر عظمةً في الهيئة التي يقع عليها الناظرُ إليه ﷺ.

وقوله رضي الله عنه: «**خَمْصَانُ الأَخْمَصَيْنِ، مَسِيحُ القَدَمَيْنِ، يَنْبُو عَنْهُمَا المَاءُ**»، الأخمَصان مُثنَّىٰ الأخْمَص، والأَخْمَصُ: باطنُ القَدم في وَسْطها، وفي الغالب تكون مُحدَّبةً، لا تُلامسُ الأرضَ عند وَطْئها، وبعض الناس مَسيحُ بَطنِ القدم، فإذا وَطئَت قدمُه الأرضَ التصقت بطنُ قدمِه كلِّها بالأرض، ومعنىٰ خُمصَان الأَخمَصَين: أنَّ باطنَ قدميه ﷺ شديدُ البعد والتَّجافي عن الأرض، وهذا يدلُّ علىٰ عِظَم التقوُّس في باطنِ قدمه ﷺ.

وبعد أن وصف باطنَ قدمَيه ﷺ وصَفَ ظاهرَهما، فقال: «**مَسِيحُ القَدَمَيْنِ، يَنْبُو عَنْهُمَا المَاءُ**»؛ أي: كان مسيحَ القدمين من الأعلىٰ، فكان ظهرُ قدمه من أعلىٰ مُستويًا أملسَ ناعمًا، فلم يكن فيه تقوُّسٌ، ولم يكن في جِلد قدَمه شيءٌ من الخُشونة أو التعرُّج أو التشقُّق، وأكَّد هذا فقال: «**يَنْبُو عَنْهُمَا المَاءُ**»؛ أي: إذا وَضعتَ الماءَ عليهما أو غَسَلتهما؛ سُرعان ما ينساح عنهما الماء ويَنبُو؛ أي: يبتعدُ ويفارقُهما من شِدَّة نعومتهما ومَلاسَتهما، فلا يبقىٰ عليهما الماءُ.

وقوله رضي الله عنه: «**إِذَا زَالَ زَالَ قَلِعًا، يَخْطُو تَكَفِّيًا، وَيَمْشِي هَوْنًا، ذَرِيعُ المِشْيَةِ، إِذَا مَشَىٰ كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ**»، وصفَ هنا مِشيتَه ﷺ، وقد مضىٰ في حديث عليٍّ رضي الله عنه المتقدِّم وغيرِه أنه ﷺ كان إذا زالَ زالَ قَلعًا، وإذا مَشَىٰ تكفَّأ تكفُّؤًا، والمقصود أنه كان إذا مشىٰ رفعَ قدمَه بجملتها من الأرض، فلا يجرُّها جرًّا، وهذا ـ كما تقدَّم ـ فيه دلالةٌ علىٰ الجِدِّية واستقامة الشخصية وتماسك صاحبها وحَزْمه في أمره كلِّه، وأمَّا قوله: «**وَيَمْشِي هَوْنًا**» فهي الصفةُ التي أثنىٰ الله علىٰ أصحابها في سورة الفرقان، فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، والمَشيُ الهَوْن ليس بالمِشية

الـمُتماوِتة الضعيفة المتهالكة، وليس بالمِشية المتكبِّرة الـمُتعَجْرِفة المتغطرسة، وإنما هو المشيُ الذي سَلِمَ من الأمرين، ثم المشيُ الهَونُ ليس بالمشيِ شديدِ السُرعةِ القريبِ من الهرولة، ولا بالمشِي البطيءِ، وإنما هو بين ذلك، ومعنىٰ «**ذَرِيعُ المِشْيَةِ**»: مُتَتابِعُ الخُطا، يضعُ الخُطوةَ تِلوَ الخُطوة فورًا. ومعنىٰ «**كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ**»؛ مرَّ في الأحاديث المتقدِّمة، والذي يَنحطُّ من صَبَبٍ هو النازل من المنحدَر، فإنه من شِدَّة الانحدار الذي يُلاقيه في المشي يجدُ نفسَه مُتسارِعَ الخُطا مهما حاول أن يتماسك، فكان ﷺ وهو يمشي علىٰ الأرض المنبسطة كأنَّ الناظرَ إليه يَرىٰ في مِشيته إسراعًا غيرَ مقصود.

وقوله رضي الله عنه: «**وإذا الْتَفَتَ الْتَفَتَ جَمِيعًا**»؛ أي: كان لا يلتفتُ برأسه فحسب، بل يلتفتُ ببدنه جميعًا ﷺ، فإذا ناداه إنسانٌ أو إذا أراد أن يبحثَ أو يتفقَّد أمرًا الْتفَت بجميع بَدَنه، وهذا الوصفُ ـ كما يذكر أهلُ العلم ـ يدلُّ علىٰ حال الشخص، فكلَّما كان أكثرَ اعتدالًا واستقرارًا في الشخصية فإنه يفعل هكذا، وهو من أوصاف القادة، فمن كان كذلك دلَّ ذلك علىٰ عظيم ما هو فيه من التماسُك والاتِّزان والهيبة، وأمَّا من كان يُكثِر الالتفاتَ برأسه يَمنةً ويَسرةً فغالبًا ما يكون فيه شيءٌ من العَجَلة والخِفَّة والطَّيش، وهذه أمورٌ تنزَّه عنها نبيُّكم ﷺ.

وقوله رضي الله عنه: «**خَافِضُ الطَّرْفِ، نَظَرُهُ إِلَىٰ الأَرْضِ أَطْوَلُ مِنْ نَظَرِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، جُلُّ نَظَرِهِ المُلاحَظَةُ**»، هذا وصفٌ يدلُّ علىٰ العَظَمة والجلال مع غاية التواضُع، فخَفْضُ الطَّرْفِ يعني أنه كان إذا مَشَىٰ أو تحرَّك أو إذا كان بين أصحابه غالبًا ما يَخفِضُ نَظرَه إلىٰ الأرض، ولذلك قال: «**نَظَرُهُ إِلَىٰ الأَرْضِ أَطْوَلُ مِنْ نَظَرِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ**»، وهذا من التواضُع، وهو نوعٌ من حَمْل النفس علىٰ التذلُّل لله تعالىٰ،

واستشعارِ معنىٰ العبوديَّة له في كل الأحوال، ومن ذلك أنه ﷺ لما دخل مكةَ عامَ الفتح مُنتصرًا لم يدخلها متجبِّرًا ولا متكبِّرًا، بل دخلها خافِضًا رأسَه، حتىٰ إنَّ شَعرَ لحيته ليَكادُ يمسُّ واسِطةَ الرَّحْلِ(١) من شِدَّة خَفْضِ رأسه؛ تواضُعًا لربِّه، واعترافًا بعَظَمته ﷻ، ومعنىٰ «جُلُّ نَظَرِهِ المُلاحَظَةُ»: أنه كان إذا نَظر إلىٰ شيءٍ اكتفَىٰ بلَحْظِه دون أن يُطيل النظر أو يُحدِّقَ البصر.

وقوله ﵁: «**يَسُوقُ أَصْحَابَهُ**»: المقصود أنه كان إذا مَشىٰ مع أصحابه في غزوةٍ أو سَفرٍ أو مَشيةٍ يسوقُ أصحابَه بأن يكون خلفهم، كما يسوقُ راعي الغَنم غَنَمَه، فلم يكن يمشي أمامها، بل كان يمشي خلفهم، وهذا من تمام عنايته بصَحْبه ورعايته لهم.

وقوله ﵁: «**وَيَبْدَأُ مَنْ لَقِيَ بِالسَّلامِ**»، هذه سُنَّةٌ نبويةٌ مأثورةٌ قولًا وفعلًا، أما الفعلُ: فقد كان يبدأ من لَقِيَ بالسلام؛ أي: يبتدئُ من لَقِيَ من الناس في طريقٍ أو مَجمعٍ أو مسجدٍ أو منزلٍ ويبادره بإلقاء السلام عليه، مع أنه ﷺ الأحقُّ بإلقاء السلام عليه، والأَولىٰ بأن يُوجَّه إليه السلامُ من كل الناس، من الصغار والكبار، لكنَّ مبادرتَه ﷺ غيرَه بالسلام فيه التواضعُ، والرِّفقُ ولينُ الجانبِ لأصحابه، وإصابةُ الأجر واكتسابُ الحسنات؛ لأنَّ المبادِرَ بالسلام حائزٌ للأجر، فكان ﷺ يُعلِّمُنا ذلك بهديه قولًا وفعلًا، وأما ثبوت هذه السُّنة في قوله: ففي أحاديث عِدَّة، منها قولُه: «**أَوَلا أَدُلُّكُم عَلَىٰ شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُم**»(٢)،

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٨٢).

(٢) أخرجه مسلم (٥٤).

وهذه السُّنَّة عزَّت اليوم مع الأسف الشديد، فلا يكاد يُسلِّم إلا سلامُ المعرفة، وهي من أمارات الساعة والله المستعان، كما في الحديث: «**إنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ لا يُسَلِّمَ الرَّجُلُ إِلَّا عَلَىٰ مَنْ يَعْرِفُ**»(١).

وقولُ الحسن رضي الله عنه: «**فقُلْتُ: صِفْ لِي مَنْطِقَ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»، لما انتهىٰ هندُ بنُ أبي هالة رضي الله عنه من الجُمَل والعبارات السابقة في وصف هيئةِ رسولِ الله ﷺ وجَمالِ خِلقته ومنظره؛ سأله الحسنُ رضي الله عنه عن كلامِه ﷺ ونُطقِه وعباراته، فأجابه هندٌ رضي الله عنه ووصف له ذلك بما يأتي.

فقول هند رضي الله عنه: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَوَاصِلَ الأَحْزَانِ، دَائِمَ الفِكْرَةِ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ**»، قبل أن يَصف كلامَ النبيِّ ﷺ بدأ بهذه العبارات الثلاث، الـمُشْعِرة بإنسانٍ قد ملأ الهمُّ قلبَه، فاتَّصلَ حُزنُه، والمقصود بالحُزن هو الشُعورُ الذي يحمل صاحبَه علىٰ أن تكون بَهجتُه في الدنيا يسيرةً، وفرحتُه في الدنيا عابرةً، فمن يراه يعرف بالبديهة أنَّ فِكرَه منشغلٌ ﷺ، وليس المقصود ههنا بـ«**مُتَوَاصِلَ الأَحْزَانِ**» أنه كان كئيبًا كالـمُصاب بمصيبةٍ جعلته من شِدَّة الصَّدمة يعيشُ في ذُهولٍ وغفلةٍ، فلا يكادُ ـ لأجل ذلك ـ يرُدُّ علىٰ سؤالٍ أو يلتفتُ إلىٰ خطاب، ليس هذا هو المقصود، ولذلك قال بعدها: «**دَائِمَ الفِكْرَةِ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ**»؛ ليبيِّن أنَّ الُحزَن الذي يُرىٰ عليه في الظاهر سببُه انشغالُ فِكرِه في الباطن وعدمُ الراحة، وانشغالُ الفِكرِ هذا إنما هو بأمرِ الدِّين والأُمَّة.

وقوله رضي الله عنه: «**طَوِيلُ السَّكْتِ، لا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ**»، وليس المقصودُ به

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (١٣٢٦).

أن المتحدِّثَ معه كان لا يجدُ عنده حديثًا، وإنما يعني أنه ﷺ كان قليلَ الكلام، ولذا بيَّن رضي الله عنه هذا السُّكوتَ الطويلَ بقوله: «**لا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ**»، وهذا تطبيقٌ عمليٌّ منه ﷺ لما كان يُرشدُ إليه الأُمَّة بقوله: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[(١)]، وقوله: «**امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ**»[(٢)]، وقوله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ـ أو قال: عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ ـ إِلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟**»[(٣)].

وقوله رضي الله عنه: «**يَفْتَتِحُ الكَلامَ وَيَخْتِمُهُ بِاسْمِ اللهِ تَعَالَىٰ**»، يريد بذلك أنه ﷺ كان كثيرَ الذِّكر لربِّه، مُلتمِسًا البركَة بذِكر اسمه تعالىٰ، وورد في نسخة أخرىٰ من الشمائل: «**يَفْتَتِحُ الكَلامَ ويَخْتَتِمُه بأَشْدَاقِهِ**»، وهي رواية الطبراني[(٤)]، والشِّدْقان: هما طرفا الفم، وهذا الوصفُ يؤكِّدُ ما مرَّ في المقطع المتقدِّم من هذا الحديث أنه ﷺ كان «**ضَليعَ الفَم**»، وتقدَّم أنَّ هذا الوصفَ فُسِّر بمعنيين؛ أحدهما: فصاحةُ الكلام وبلاغتُه، والمعنىٰ الآخر: اتِّساعُ الفمِ حقيقةً، وكلاهما وصفُ جَمال؛ أحدُهما في وصف مَنطِقِه وكلامه، والآخرُ في وصفِ خِلقة فمه ﷺ.

وقوله رضي الله عنه: «**وَيَتَكَلَّمُ بجَوَامِعِ الكَلِمِ**»؛ جَوامِعُ الكَلِم: هي الكلماتُ والعباراتُ ذات الألفاظ القليلة والمعاني الواسعة الغزيرة، وسُنَنُه ﷺ القوليةُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٠٦)، وحسَّنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وقال: «حسن صحيح».

(٤) في المعجم الكبير (٢٢/ ١٥٥، رقم: ٤١٤).

وأحاديثُه التي رُوِيت عنه تشهد لهذا؛ فقد اختُصِر له الكلامُ اختصارًا ﷺ، فكان يتكلَّم بالعبارات ذاتِ الألفاظِ المعدودة في الجملة، ولكنها تحملُ المعانيَ العظيمةَ الواسعةَ، كقوله: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ**»(١)، فهذا الحديثُ المؤلَّفُ من بِضع كلماتٍ حَوَت الدِّين كلَّه، حتىٰ ذكرَ العلماءُ أنَّ هذا الحديثَ تُؤَسَّسُ عليه الشريعةُ كلُّها بأصولِها وفروعِها وبكلِّ أبوابها، فالأعمالُ كلُّها تُبنَىٰ علىٰ النِّيَّات، ومثلُ ذلك حديث: «**الدِّينُ النَّصِيْحَةُ**»، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**للهِ، وَلِكِتَابِهِ، ولِرَسُوْلِهِ، ولِأَئِمَّةِ المُسْلِمِيْنَ، وَعَامَّتِهِم**»(٢)، وحديث: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»(٣)، في جُملٍ وجيزةٍ تحمل المعانيَ العظيمةَ.

فكان النبيُّ ﷺ إذا خطبَ علىٰ المنبر، أو تحدَّث مع أصحابه في مجلسِه المعتاد في المسجد، أو أجابَ سائلًا، أو ناقشَ متحدِّثًا، أو أفتىٰ مُستفتيًا، في كلِّ ذلك كان يتكلَّم بجوامع الكَلِم، فكان كلامُه ﷺ مختصرًا، وهو ميسَّرٌ لمن يريد حِفظه، واسعُ المعاني لمن يتأمَّله ويستنبط الأحكام منه، وهو أمرٌ عجز عنه أربابُ اللغة إلىٰ يومنا هذا.

وقوله رضي الله عنه: «**كَلامُهُ فَصْلٌ؛ لا فُضُولَ وَلا تَقْصِيرَ**»؛ أي: كلامُه ﷺ محدَّدٌ واضحٌ، يوصِل إلىٰ السائلِ مُرادَه من الجواب، ويُعطي لجليسه ما يحتاج إليه

---

(١) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (٥٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦١٢٠).

من الخطاب، ومع ذلك لا فُضولَ فيه ولا تقصيرَ؛ أي: ليس كلامُه مقصِّرًا يحتاج إلىٰ استفهام، ولا زائدًا يحصل فيه الحشوُ والتكرار الذي يَملّ منه السامعُ، فكون كلامِه مختصَرًا فإن ذلك لا يُخلُّ بالمعنىٰ، وكلامُه ﷺ مختصَرٌ مفيدٌ لكلِّ سامعٍ منه، ولا ينصرفُ عنه المستمع إليه إلا وقد وَعَىٰ ما يقول.

وقوله رضي الله عنه: «**دَمِثٌ**[1]**، لَيْسَ بِالجَافِي وَلا المَهِينِ**»، الدَّمَاثَةُ: وصفٌ يُشعِرُ بسهولة التعامل، وقُرب التناوُل من كلِّ أحد، فيُقال: فلانٌ دَمِثُ الأخلاق؛ أي: ليِّنُ الأخلاق، والجَفاءُ: خِلافُ البِرِّ والوفاء، فمعنىٰ: «**ليس بالجافي**»: ليس شديدًا صلبًا عديمَ البِرِّ قولًا وفعلًا، ومعنىٰ: «**ولا المَهِين**»: لا يحتقرُه أحدٌ، ولم يكن مبتَذَلًا بين الناس، وإنما كان يَلقَىٰ منهم الاحترامَ والتعظيمَ، ويُروىٰ: «**ولا المُهِين**»؛ أي: لا يحتقِرُ أحدًا.

فالنبيُّ ﷺ كان ليِّنَ الخُلُق، يَسهُلُ تعامُلُ كلِّ أحدٍ معه؛ الكبيرِ والصغيرِ، والرجلِ والمرأةِ، والحرِّ والعبدِ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**إِنْ كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيثُ شَاءَتْ**»[2].

فكلُّ الناس علىٰ اختلاف أصنافِهم كانوا يَجِدُون لِينًا في التعامُل مع النبيِّ ﷺ، فلم يكن سهلَ التعامُل مع من يَعرفُهم دون مَن لا يعرفُهم، بل بِرُّه حاصلٌ للأجانِب، فضلًا عن الأقارِب، فكان يلقاه الأعرابيُّ القادمُ من البادية، ويلقاه

---

(١) هذه اللفظة لم ترد في الشمائل للترمذي ولا مختصره، ووردت في المعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ١٥٥، رقم: ٤١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٧٢).

صاحبُه الذي أسلم معه منذ سنوات، ويلقاه الرجلُ صاحبُ الحاجة، ويلقاه المهمومُ صاحبُ المشكلة، والآخرُ المكروبُ بمصيبته، وجميعُهم يجدُ عنده صدرًا رحبًا، وقدرًا وافيًا من الحديثِ والمؤانَسة.

هذا القَدرُ من التعامُل لا يتحمَّله إلا أصحابُ النفوس الكبيرة، وأصحابُ الأخلاق الواسعة؛ لأنَّ الناس ليسوا سواءً، فما تجدُه من الحليم غيرُ ما تجدُه من الأحمق الغضبان، وما تجدُه من الكبير غيرُ ما تجدُه من الصغير، وما تجدُه من الذكيِّ الفطن غير ما تجدُه من البليد.

وقوله رضي الله عنه: «**يُعَظِّمُ النِّعْمَةَ وَإِنْ دَقَّتْ، لا يَذُمُّ مِنْهَا شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَذُمُّ ذَوَّاقًا وَلا يَمْدَحُهُ**»؛ أي: يَعرفُ قدر النعمة، ويَعترفُ فيها بحقّ الله عز وجل، فيشكرُه عليها وإن دَقَّت وكانت صغيرةً، ولا يَرىٰ أنه محرومٌ وبين يديه قَدرٌ يسيرٌ من النعمة مهما صَغُر، بخلاف كثيرٍ منَّا اليومَ ممَّن إذا ضاقت الدنيا في يدِه رأىٰ نفسَه محرومًا.

وكان من هَديِه ﷺ أنه لا يَذُمُّ شيئًا من النِّعَم، بل كان يَمدَحُ النِّعَم عمومًا؛ اعترافًا بفضلِ الله عليه، إلا ما كان من هذه النعم ذوَاقًا، وهو كلُّ ما يُذاق من مأكولٍ ومشروبٍ، فإنه لم يكن يذُمُّه ولا يَمدحُه، لم يكن يَذُمُّه؛ تعظيمًا للنعمة واحترامًا لها، ولم يكن يمدحُه؛ لأنَّ مَدحَه قد يُشعِر بحرصِه عليه، وهِمَّتُه ﷺ كانت أعظمَ مِن أن تقِف عند طعامٍ فتنشغلَ به مَدحًا أو ذَمًّا، فالصحابةُ رضي الله عنهم لم يحفظوا عنه ﷺ أنه كان يتحدَّثُ عن طعامٍ أَعجَبه، فقد ثبت عنه أنه: «**ما عابَ طعامًا قطُّ، إن اشتَهاهُ أكَلَه، وإلا ترَكه**»(١)، فقد كانت نظرتُه إلىٰ الطعامِ علىٰ أنه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٣)، ومسلم (٢٠٦٤).

زادٌ يتقوَّىٰ به علىٰ عبادة الله، بخلاف كثيرٍ منَّا اليوم ممَّن يشغَلُ نفسَه بطَيِّب الطعامِ والحديثِ عنه وتفضيلِ بعضِه علىٰ بعضٍ.

وقوله رضي الله عنه: «**وَلا تُغْضِبُهُ الدُّنْيَا وَلا مَا كَانَ لَهَا، فَإِذَا تُعُدِّيَ الحَقُّ لَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ حَتَّىٰ يَنْتَصِرَ لَهُ، وَلا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ وَلا يَنْتَصِرُ لَهَا**»، فما كانت الدنيا ـ بزينتِها وزُخرفِها وأموالِها وطعامِها وشرابِها ـ؛ لتُغضِبه ﷺ، فقد تَركَ بيتَه بمكَّةَ مُهاجِرًا، حتىٰ إذا جاء يومَ الفتح وقد أكرمه الله وأقرَّ عينَه بفتح مَكَّة، سُئل: هل ستنزلُ غدًا في دارِك بمكَّة؟ وكان الصحابةُ يَتوجَّسون من أن يكون هذا أوانُ تَركِه المدينةَ واستقرارِه في موطنه بمكَّة، فكان جوابُه ﷺ من غير تردُّدٍ: «**وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ أَو دُوْرٍ؟**»[1]؛ فأبناءُ عُمومته أخذوا بيتَه، ولم يَكترث بذلك ﷺ، ولم يبحث عنه، ولا فكَّر فيه، ولم يُؤثَر عنه أنه اختصَم يومًا مع أحدٍ في شأنِ شيءٍ من حُطام الدنيا، ولا تكلَّم بعبارةٍ شَعرَ منها الصحابة رضي الله عنهم بغَضبٍ منه ﷺ لأجلِ شيءٍ من الدنيا، إنما كان يغضبُ للدِّين، لا يغضبُ لنفسِه ولا يَنتصِرُ لها، بخلاف كثيرٍ منَّا، ممَّن يغضبُ للدنيا وحُطامِها الزائلِ، ويُخاصِم لأجل ذلك، ويتعدَّىٰ لتحصيل حقِّه، وهذا لا يعني ألَّا يسعىٰ المسلمُ لتحصيلِ حقِّه، ولكنَّ الخطأَ في أن يملأ الغضبُ والهمُّ قلبَه فينشغلَ عن طاعة الله، ويستمرئَ الاعتداءَ والتجاوزَ في سبيل تحصيل الحقِّ المعتدَىٰ عليه.

وقوله رضي الله عنه: «**إِذَا أَشَارَ أَشَارَ بِكَفِّهِ كُلِّهَا، وَإِذَا تَعَجَّبَ قَلَبَهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ اتَّصَلَ بِهَا، وَضَرَبَ بِرَاحَتِهِ اليُمْنَىٰ بَطْنَ إِبْهَامِهِ اليُسْرَىٰ**»، في هذا وصفٌ لإشارته

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨٢)، ومسلم (١٣٥١).

ﷺ، فكان إذا أشارَ إلىٰ جهةٍ أو ناحيةٍ معيَّنةٍ يستخدمُ كفَّه كلَّها، ولا يُشيرُ بأُصبُعٍ ولا بِجُزءٍ من يده، وكان ﷺ إذا تعجَّبَ من شيءٍ قَلَب كفَّه ظاهرًا وباطنًا، فيفهمُ الصحابةُ من إشارته ﷺ أنه يتعجَّبُ، ومعنىٰ «**وَإِذَا تَحَدَّثَ اتَّصَلَ بِهَا**»: أنه كان يستخدم في حديثه لُغةَ الإشارة، فكان إذا تكلَّم لا تزال إشارتُه بيده تصاحبُ كلامَه، واليوم يؤكِّدُ أصحاب فنون الخطابة والتأثير أنَّ الرَّجلَ إذا تكلَّم والناسُ يتابعونه ويسمعون إليه فإنه كلَّما كان أكثرَ استعمالًا لعباراتٍ مصحوبةٍ بإشاراتٍ؛ كان كلامُه أوقعَ في النفوس، وقوله: «**وَضَرَبَ بِرَاحَتِهِ اليُمْنَىٰ بَطْنَ إِبْهَامِهِ اليُسْرَىٰ**»؛ أي: كان أحيانًا يستخدمُ كلتا يديه عندما يتحدَّث، فيضربُ ببطنِ كفِّه اليُمنىٰ بَطنَ إبهامِه من اليد اليُسرىٰ، ولعلَّه كان يفعل ذلك لمزيد اعتناءٍ بذلك الحديث، ودفعِ ما يعرض لنَفْس المخاطَب من الفتور.

وقوله ﷺ: «**وَإِذَا غَضِبَ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ، وَإِذَا فَرِحَ غَضَّ طَرْفَهُ، جُلُّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمُ، يَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الغَمَامِ**»؛ أي: كان إذا غَضِب اكتفَىٰ بأن يُعرِض ويُشيحَ بوجهه، فكان هذا منتهىٰ تعبيره عن الغضب، دون شتمٍ أو شَطَطٍ أو رفعٍ للصوت، وكان إذا فَرِحَ غضَّ طَرْفَه، وإذا ضَحكَ لم يتجاوز حدَّ التبسُّم، فهذا الحال منه ﷺ ـ غَضبًا وفَرحًا ـ هو حالُ المتَّزِن الممتلئ وقارًا وهيبةً، فلا في غضبه يحتدُّ، ولا في فرحِه يشتدُّ، وجُلُّ ضحِكِه التبسُّم، فلا يتجاوز ذلك إلىٰ القَهْقَهة، فإذا اشتدَّ تبسُّمُه ظهرت أطرافُ أسنانه التي تُشبهُ في بياضِها وجمالها ولَـمَعَانِها وصفائها حَبَّ الغَمام الذي هو البَرَد، والغَمَام هو السحاب، فمعنىٰ: «**يَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الغَمَامِ**»: تنفَتِحُ شَفَتاه ﷺ انفتاحًا في تبسُّمه فتكشف عن أسنانه التي تُشبِهُ حَبَّ البرَد.

وقول الحسن ﵁: «**فَكَتَمْتُهَا الحُسَيْنَ زَمَانًا، ثُمَّ حَدَّثْتُهُ فَوَجَدتُه قَدْ سَبَقَنِي إِلَيه، فَسَأَلَه عَمَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ**»، يريد الحسن ﵁ أنَّ ما سبق ذِكره من أوصاف النبيِّ ﷺ التي بيَّنها هندٌ ﵁ له كتَمها عن أخيه الحسين ﵁ مدَّةً من الزمن، فلما جاء يُحدِّثه بها وَجدَه قد سبقه إلىٰ خاله هند فسأله عنها فذكرها له، فنِعْمَ هذا التنافسُ والتسابقُ بين هذين الأخوين في شيءٍ عظيمٍ؛ هو معرفةُ أوصاف النبيِّ ﷺ، والذي دفعهم إلىٰ هذا التنافُسِ هو حُبُّهم لرسول الله ﷺ الذي ملأ قلوبَهم، هذا الحُبُّ الذي ما أُشرِب في قلبٍ إلا صار صاحبُه أكثر طاعةً للنبيِّ ﷺ واتِّباعًا له وتمسُّكًا بسُنَّته.

وقوله ﵁: «**وَوَجَدْتُهُ قَدْ سَأَلَ أَبَاه عَنْ مَدْخَلِهِ، وَمَخْرَجِهِ، وَشَكْلِهِ، فَلَمْ يَدَعْ مِنْهُ شَيْئًا**»، يدلُّ علىٰ أنَّ الحسين ﵁ لم يكتفِ بما ذكره له خاله هندٌ ﵁ من أوصاف النبيِّ ﷺ، فذهبَ ليسأل أباه عليًّا ﵁ عن أوصاف أخرىٰ للنبيِّ ﷺ؛ ليزداد عِلمًا ومعرفةً به، وحُبًّا له واقترابًا منه ﷺ.

وقول الحسين ﵁: «**فَسَأَلْتُ أَبِي عَنْ دُخُوْلِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ**»؛ أي: سأل الحسينُ ﵁ أباه عليًّا ﵁: ماذا كان يفعلُ رسولُ الله ﷺ إذا دخل بيته؟ فأجابه عليٌّ ﵁، وبيَّن له ذلك، وبيَّن كيف كان ﷺ يقسِم وقته، فتأمَّل ذلك، ووازِنه بنفسك، وقِس مقدار مطابقةِ فِعلك لفِعل النبيِّ ﷺ.

وقول عليٍّ ﵁: «**كَانَ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ جَزَّأَ دُخُولَهُ ثَلاثَةَ أَجْزَاءٍ: جُزْءًا لِلَّهِ، وَجُزْءًا لِأَهْلِهِ، وَجُزْءًا لِنَفْسِهِ، ثُمَّ جَزَّأَ جُزْأَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَيَرُدُّ ذَلِكَ بِالخَاصَّةِ عَلَىٰ العَامَّةِ، وَلا يَدَّخِرُ عَنْهُمْ شَيْئًا**»، هذه الجُمل وصفَ فيها عليٌّ ﵁

لابنه الحسين رضي الله عنه كيف كان يقسم رسولُ الله ﷺ وقتَه إذا دخل بيته، وماذا كان يصنع في كلِّ جُزءٍ، فذكر أنه كان يُجزِّئ الوقتَ الذي يأوي فيه إلىٰ بيته ثلاثة أجزاء؛ أحدها: جزءٌ لله، للعبادة والصلاة وقراءة القرآن، والجزءُ الثاني لأهله، لمعاشرتهم وصحبتهم بالمعروف كما أمر اللهُ، والجزءُ الثالث لنفسه ﷺ، إلا أنه لم يدَّخره لحاجتِه الخاصة، بل كان يقضي فيه حوائج الناس أيضًا، وهذا الوقت الذي قسَّمه النبيُّ ﷺ ثلاثًا لا يدخل فيه الوقت الذي كان يقضيه خارج بيته، كالوقت الذي كان يقضيه في المسجد للصلوات الخمس، وتعليم الناس، وشهود الجنائز، وتجهيز الجيوش، وتدبير أمور الأمّة، والفصل بين المتخاصمين وغير ذلك، ومع هذا كلِّه جعل الجُزء المتبقِّيَ من وقته ليأويَ فيه إلىٰ منزله ثلاثة أجزاء: جزءًا لله، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه.

والجُزءُ الذي خصَّه النبيُّ ﷺ لنفسه جعله بينه وبين الناس، فيدخل عليه فيه خاصَّةُ الناس، فينتفع بدخولهم عليه عامَّةُ الناس؛ لأنهم ـ أي: الخاصَّة ـ حَمَلةُ عِلمه إلىٰ عامَّة الناس، فيكون بذلك قد ردَّ الجُزءَ الذي خصَّه لنفسه إلىٰ جميع الناس، ولم يدَّخر عنهم لنفسه شيئًا، وهذا معنىٰ قوله: «**فَيَرُدُّ ذَلِكَ بِالخَاصَّةِ عَلَىٰ العَامَّةِ، وَلا يَدَّخِرُ عَنْهُمْ شَيْئًا**»، فالعامَّة لا تَصِلُ إليه في ذلك الوقت، بل يدخل عليه الخاصَّةُ، ثم الخاصَّةُ تُخبرُ العامَّةَ بما سمِعَتْ من العلوم منه ﷺ، فكأنه أوصل الفوائدَ إلىٰ العامَّةِ بالخاصَّة.

فإن تأمَّلتَ هذا التقسيمَ لوقتِ النبيِّ ﷺ وعلِمتَ مدىٰ امتلائه واستنفاده؛ فإنك تعجبُ وأنت تسمعُ قول الله عز وجل له: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾

[الشرح: ٧ ـ ٨]، يقول له: إذا فرغتَ يا محمدُ من تبليغ الرسالة ومن أمور الدنيا فانصَبْ واتعَبْ واجتَهِدْ في عبادة ربِّك بكلِّ ما تملكهُ، فأيُّ فراغٍ يمكن أن يجدهُ ﷺ ـ بعد كلِّ ما سبق ـ في يومه وليلته؟ ووازِن ذلك بحالنا اليوم، وكثيرٌ منَّا يقول: إنه كثيرُ الانشغال، ولا يجدُ وقتًا للطاعة والعبادة.

وقوله رضي الله عنه: «**وَكَانَ مِنْ سِيرَتِهِ فِي جُزْءِ الأُمَّةِ: إِيثَارُ أَهْلِ الفَضْلِ بِإِذْنِهِ وَقَسْمِهِ عَلَىٰ قَدْرِ فَضْلِهِمْ فِي الدِّينِ: فَمِنْهُمْ ذُو الحَاجَةِ، وَمِنْهُمْ ذُو الحَاجَتَيْنِ، وَمِنْهُمْ ذُو الحَوَائِجِ، فَيَتَشَاغَلُ بِهِمْ، وَيَشْغَلُهُمْ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ وَالأُمَّةَ مِنْ مُسَاءَلَتِهِمْ عَنْهُ وَإِخْبَارِهِمْ بِالَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ**»، هنا بيَّنَ رضي الله عنه طريقةَ النبيِّ ﷺ في الجزء الذي خصَّه للأمَّة، فذكر أنه ﷺ كان يُقدِّم أهلَ الفضل منهم ويعطي لهم الأولوية، كالكبار والسابقين إلىٰ الإسلام، وذلك بإذنٍ منه ﷺ، فيَقسِمُ ذلك الجزءَ بينهم علىٰ قدرِ فضلِهم في الدِّين، فيعطي كلَّ صاحبِ حاجةٍ ما يستحقه من الوقت بحسب حاجته لقضائها، فيَنشغلُ بهم لقضاء حوائجهم، ويجعلهم مشغولين بما يُصلحُهم ويعودُ بالنفع عليهم وعلىٰ الأمَّة عامَّة، وكان ﷺ يخبرُهم بالذي ينبغي لهم، وفي ذلك إشارةٌ إلىٰ أنه ﷺ ربما يسأله السائلُ فيُجيبه بما ينفعه، كالذي سأله: متىٰ الساعة؟ فأجابه ﷺ بقوله: «**وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**»(١)، وربما يجيب السائل بأكثر مما سألهُ عنه، كالذي سأله عن الوضوء بماء البحر، فأجابه ﷺ بقوله: «**هُوَ الطَّهُوْرُ مَاؤُهُ، الحِلُّ مَيْتَتُه**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٣٦٣٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، والنسائي (٥٩)، وابن ماجه (٣٨٦)، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

وقوله رضي الله عنه: ويقول: «**لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الغَائِبَ، وَأَبْلِغُونِي حَاجَةَ مَنْ لا يَسْتَطِيعُ إِبْلاغَهَا، فَإِنَّهُ مَنْ أَبْلَغَ سُلطَانًا حَاجَةَ مَنْ لا يَسْتَطِيعُ إِبْلاغَهَا ثَبَّتَ اللهُ قَدَمَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١)، هذا الحديثُ لا يصحُّ عن النبيِّ ﷺ، وبعضُ ألفاظِه ورد في أحاديث ثابتةٍ، كقوله في حَجَّةِ الوداع: «**لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ؛ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَىٰ أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَىٰ لَهُ مِنْهُ**»(٢).

وقوله رضي الله عنه: «**لا يُذْكَرُ عِنْدَهُ إِلا ذَلِكَ، وَلا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ غَيْرِهِ**»؛ يعني: لا يُذكَر عنده إلا ما يفيدُهم في دينهم أو دنياهم، دون ما لا ينفعُ كالأمور المباحة التي لا فائدةَ فيها، وكان ﷺ لا يقبلُ من أحدٍ يجلسُ إليه أن يتكلَّم أو يتحدَّث إلا فيما فيه نفعٌ ومصلحةٌ له ولأمَّته من بعده.

وقوله رضي الله عنه: «**يَدْخُلُونَ رُوَّادًا، وَلا يَفْتَرِقُونَ إِلا عَنْ ذَوَاقٍ، وَيُخْرِجُونَ أَدِلَّةً؛ يَعْنِي: عَلَىٰ الخَيْرِ**»، هذا وصفٌ جميلٌ عجيبٌ، وصفَ فيه وفودَ الصحابة القادمةَ إلىٰ مجلس المصطفىٰ ﷺ، فقد وصفهم بأنهم كانوا يدخلون رُوَّادًا، والرُّوَّاد: جمعُ رائد، وهو المتقدِّم الذي يسبقُ غيرَهُ، وكانت العربُ سابقًا إذا ذهبتْ تَرعىٰ بماشيتها يتقدَّمهم أحدُهم بحثًا عن الماء والكلأ، وهو من يُسمَّىٰ الرائد، فمَن سبق قومَه للدلالة علىٰ الطريق أو للدلالة علىٰ يصلحهم وينفعهم يسمىٰ رائدًا، ولهذا قالت العربُ في أمثالها: «الرائدُ لا يَكذِبُ أهلَه»(٣)؛ أي: إذا سبقَ ووقفَ

(١) أخرجه أيضًا: الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١٥٥، رقم: ٤١٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٨٣- ٢٨٨)، وإسناده ضعيف جدًا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

(٣) جمهرة الأمثال للعسكري (١/ ٤٧٤)، ومجمع الأمثال للميداني (٢/ ٢٣٣).

علىٰ الخبرِ واطَّلعَ عليه وأخبر بما عَلِمَ فهو محلُّ ثقةٍ ومؤتمَنٌ.

وقد كان الصحابة ﷺ إذا قَدِموا مجالسَ المصطفىٰ ﷺ كلُّ واحدٍ منهم كان كالرائد يبحث عن العِلم والإيمانِ والخير والهدىٰ والأدب النبوي، فيَرجعُ إلىٰ أهل بيته وأهل حَيِّه وقومه فيُخبرُهم بما تلقَّىٰ من النبيِّ ﷺ، فالواحدُ منهم كان يَعلَم أنَّ لجلوسه بين يدَيْ رسول الله ﷺ تَبعةً وأمانةً، وهي أن يكون مُعلِّمًا ناصحًا دالًّا يدلُّ الناسَ علىٰ الخير، ولذا قال: «**وَيُخْرِجُونَ أَدِلَّةً؛ يَعْنِي: عَلَىٰ الخَيْرِ**».

ومعنىٰ قوله: «**وَلا يَفْتَرِقُونَ إِلا عَنْ ذَوَاقٍ**»؛ الذَّوَاقُ: هو ما يُذاقُ من الطعام، فذكر أنَّ الرُّوَّاد الذين كانوا يشهدون مجالسَ النبيِّ ﷺ كانوا لا يتفرَّقون إلا بعد ذَوَاقٍ، وهذا الذَّوَاقُ هو الخيرُ، والعِلمُ، والإيمانُ، والقرآنُ، والأحكامُ الشرعيةُ، والآدابُ النبوية.

فرحم الله عبدًا أتىٰ مجلسَ علمٍ رائدًا وخرج منهُ دليلًا، فكلما نَوىٰ طالبُ العلم هذا المقصدَ العظيمَ بورك له في عِلمه.

وقد ضربَ النبيُّ ﷺ مثلًا لأنواع الناس في تلقِّي العِلم، فقال: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَىٰ والعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوْا وسَقَوْا وَزَرَعُوْا، وأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَىٰ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنبِتُ كلأً، فذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، ونَفَعَه مَا بَعثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِم وعَلَّم، ومَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلتُ بِهِ**»(١)، فالأرضُ التي قَبِلت الماءَ وأنبتَت الزرعَ وأفادَ منها الناسُ هي

(١) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

مَثَلُ مَن طلب العِلمَ فانتفع به ونفع الناسَ بعِلمه، وأما الأرضُ المَلساءُ القِيعانُ التي لا تشربُ الماءَ ولا تُنبِت فمَثَلُ من لم ينتفع بالعلم ولم ينفع غيرَه به، والمقصودُ أنَّ المسلمَ إذا أكرمه الله بطلب العلم وتشرَّف بحضور مجالسه؛ فليكن رائدًا ولينتفع بالعِلم وينفع غيره، كما كان الصحابة رضي الله عنهم.

وقول **الحسين** رضي الله عنه: «**فَسَأَلْتُهُ عَنْ مَخْرَجِهِ كَيْفَ يَصْنَعُ فِيهِ؟**»، هنا يسأل الحسينُ رضي الله عنه أباه عليًّا رضي الله عنه عن حالِ رسولِ الله ﷺ حين يخرجُ من البيت.

وقول **عليٍّ** رضي الله عنه: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْزِنُ لِسَانَهُ إلا فِيمَا يَعْنِيهِ**»، يَخزِنُ لِسانَه؛ أي: يَحبسُه، والمعنىٰ أنه ﷺ كان قليلَ الكلام، لا يتكلَّم إلا بما يعودُ عليه وعلىٰ أمَّته بالمنفعة، وهذا حالُه ﷺ أيضًا في مجلسه الذي مع صحابته رضي الله عنهم، كان ﷺ يتكلَّم بالكلام القليل الفَصل الذي يحملُ عظيمَ المعاني في الإيمان والأحكام وأسرار الشريعة.

وقوله رضي الله عنه: «**وَيُؤَلِّفُهُمْ وَلا يُنَفِّرُهُمْ**»؛ أي: يَجعلُهم رُحماءَ فيما بينهم، ويجمعُهم كأنهم نفسٌ واحدةٌ، ولا يفرِّقهم، ولا يقابلُهم بقولٍ أو فعلٍ يحملُهم علىٰ النُّفور منه.

وقوله رضي الله عنه: «**وَيُكْرِمُ كَرِيمَ كُلِّ قَوْمٍ، وَيُوَلِّيهِ عَلَيْهِمْ**»؛ أي: كان من دَأبه ﷺ إنزالُ الناس منازلَهم، فالكريمُ في قومه كريمٌ عنده ﷺ، والمحترَمُ المُطاعُ في قومه محترَمٌ مُطاعٌ عنده، فكان ﷺ يرعىٰ كل ذلك، ويُعلِّم أصحابَه أدبَ التعامل مع الناس علىٰ اختلاف منازلهم، وكان يقول: «**إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوه**»(١)،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٧١٢).

فقد سبقَ نبيُّنا ﷺ إلىٰ ذلك أصحابَ دوراتِ فنونِ التعامُل مع الناس اليوم، بل فاقهم في ذلك، فالذي علَّمه وأدَّبه هو الله ﷻ، فحريٌّ بنا ـ نحن أمَّتَه ـ أن نتأدَّب بهذا الأدب، فإنَّ إحسانَ التعامل إلىٰ الناس أدعىٰ إلىٰ ائتلاف القلوب، كما قال أبو الفتح البُسْتيُّ رحمة الله عليه:

أحسِنْ إلىٰ النَّاسِ تستعبِد قلوبَهُمُ ... فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

وكان النبيُّ ﷺ يولِّي الكريمَ المُطاعَ في قومه، وهذا من تمام حُسنِ نَظَره وعظيم تدبيره؛ إذ القومُ أطوعُ لكبيرِهم وكريمِهم.

وقوله رضي الله عنه: «**وَيُحَذِّرُ النَّاسَ وَيَحْتَرِسُ مِنْهُمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْوِيَ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ بِشْرَهُ وَخُلُقَهُ**»، هذه موازاةٌ عجيبةٌ في التعامل، وسياسةٌ عامةٌ نحتاج أن نقيسَ عليها تعاملَنا مع من يكون بيننا وبينه نُفرةٌ وعدمُ أُلفة، أو نخشىٰ منه شرًّا وأذىٰ، فقد كان النبيُّ ﷺ يَحذَرُ الناسَ ويحترسُ ممَّن يَخشىٰ منه الشرَّ؛ ليحفظ نفسَه من أذاه، من غير أن يَطوِيَ عن أحدٍ منهم طَلاقةَ وجهِه وبَشاشتَه، فعن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: «**بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ، وَبِئْسَ ابْنُ العَشِيرَةِ**»، فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، وَأَلَانَ لَه الكَلَامَ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، مَتَىٰ عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا؟ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٢)، (٦٠٥٤)، ومسلم (٢٥٩١).

وهذا التصرُّف ـ وهو البِشر في وَجْهِ مَن يُخشىٰ شرُّه ـ لا يَقوَىٰ عليه كلُّ أحدٍ، فالحذرُ ممَّن هذه حاله شيءٌ طبيعيٌ، إلا أنَّ الذي يحصلُ عادةً هو الإجحافُ في التعامل معه، وإغلاظُ القول له، ولا يترفَّعُ عن ذلك إلا أصحاب الأخلاق العالية.

وقوله رضي الله عنه: «**ويَتَفَقَّدُ أَصْحَابَه**»، هذه الجملة وما بعدها تَصِفُ تعامُلَ النبيِّ ﷺ مع أصحابه، وتصفُ سياستَه في تربيته لهم، وفي تخلُّقه معهم، علىٰ اختلاف درجاتهم ومراتبهم وإيمانهم رضي الله عنهم، فهي جُملٌ تحملُ دروسًا عظيمةً عميقةً لنا جميعًا؛ لأننا نتعاملُ مع الناس من حولنا علىٰ اختلاف فئاتهم ودرجاتهم، ونحتاج إلىٰ أن نتخلَّق بأخلاقِ الهدي النبويِّ في التعامُل مع الناس.

كان النبيُّ ﷺ يتفقَّدُ أصحابَه، وأصحابُه عددُهم كبيرٌ جدًّا، ومع ذلك كان ﷺ يهتمُّ غايةَ الاهتمام بالواحد منهم، يتفقَّدُه إذا غابَ ويسألُ عنه، فقد امتلك نبيُّنا ﷺ قلبًا عظيمًا، وكان أصحابُه عنده علىٰ السواء في التفقُّد والرعاية، يسألُ عنهم جميعًا ويتفقَّدُهم.

فمن أمثلة تفقُّده أصحابَه ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَقِيَه في بَعْضِ طُرُقِ المَدِينَةِ وَهُوَ جُنُبٌ، فَانْخَنَسَ مِنْهُ، فَذَهَبَ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ جاءَ، فَقَالَ ﷺ: «**أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هُرَيرَةَ؟**»، قَالَ: كُنْتُ جُنُبًا، فَكَرِهْتُ أَنْ أُجَالِسَكَ وَأَنَا عَلَىٰ غَيرِ طَهَارَةٍ، فَقَالَ: «**سُبْحَانَ الله، إِنَّ المُسْلِمَ لا يَنجُسُ**»(١).

ومن ذلك أيضًا أنَّ امرأةً سوداءَ كانت تَقمُّ المسجد وتُنظِّفُه، فمَاتت، فسأل

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٣)، ومسلم (٣٧١).

النبيُّ ﷺ عنها، فقالوا: ماتت، قال: «**أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي بِهَا؟ دُلُّونِي عَلَىٰ قَبْرِهَا**»، فأتَىٰ قَبْرَهَا فَصَلَّىٰ عَلَيها[١]، وهذه المرأةُ لم تكن مشهورةً، ولم تَذكُر الرواياتُ اسمَها، لكنها كانت تُزيلُ القمامة من المسجد، ولما ماتت رضي الله عنها من الليل رأىٰ الصحابةُ رضي الله عنهم ألا يشغلوا رسولَ ﷺ بخبرها، فلمَّا أصبح ﷺ افتقدها، فسأل عنها، فأُخبر أنها ماتت، فعَتَبَ عليهم ﷺ أنهم لم يخبروه، والصحابةُ ﷺ لم يعلموا أنَّ مثل هذه المرأةَ تبلغ عنده هذا المبلغَ العظيم.

فهذان مثالان لتَفقُّد النبيِّ ﷺ أصحابَه، أحدُهما لصاحبٍ ملازمٍ للنبيِّ ﷺ مُقرَّبٍ منه، والمثالُ الآخرُ لامرأةٍ غيرِ مشهورةٍ لم يرد اسمُها في الروايات، ومَن تأمَّل المثالين أدرك أنَّ ما بينهما من طبقاتِ الصحابة ودرجاتِهم ومنازلِهم كانوا كذلك عنده ﷺ يتفقَّد أحوالهم، فلا عجب ـ إذا عُلم هذا ـ أن يمتلك النبيُّ ﷺ قلوبَ أصحابه محبةً له وشوقًا إليه، فحريٌّ بالأمَّة بعد الصحابة أن يمتلك النبيُّ ﷺ قلوبَها أيضًا إذا عرَفَتْ كيف كان يعاملُ أصحابَه رضي الله عنهم، لتَبقَىٰ تلك المحبَّةُ في قلوب المسلمين جميعًا، وتظلَّ جَذوتُها مُتَّقِدةً في نفوسِ أهلِ الإيمان جميعًا.

وقوله رضي الله عنه: «**وَيَسْأَلُ النَّاسَ عَمَّا فِي النَّاسِ**»؛ أي: كان النبيُّ ﷺ شديدَ القُرب من الناس، يُعلِّمُهم ويواسيهم، ويأخذُ بأيديهم، ويتفقَّد أحوالَهم، ويشاركُهم ما يشغلُ بالَهم وما يهتمُّون لأجله، ويسألُهم عمَّا وقع فيهم من المحاسن والمساوئ، وعن الأمور التي تُهِمُّهم أو تُؤَرِّقُهم وتُقلِقُهم، ولم يكن ﷺ يعيشُ بعيدًا عن أوساط الناس وهمومهم، فحريٌّ بمن وَلِيَ أمرًا من أمور

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨)، ومسلم (٩٥٦).

المسلمين أو كان عالِمًا أو داعيةً أن يقتديَ بالنبيِّ ﷺ في ذلك، فيعيشَ واقعَ النـاس، ويكونَ علىٰ مَقرُبةٍ منهم؛ ليُدرِكَ ما يحملونه من هُموم، ويَعرفَ ما يَشغلُهم وما يدور بينهم.

وقوله رضي الله عنه: «**ويُحسِّنُ الحَسَنَ ويُقوِّيه، ويُقَبِّحُ القَبيحَ ويُوَهِّيه**»؛ أي: كان ﷺ يَحكمُ بحُسْنِ الأمورِ الحَسَنة ويُثني عليها ويرشد الناس إليها، ويَحكُمُ بقُبحِ الأمورِ القبيحة ويَعيبُها ويردُّ الناسَ عنها، وهذا الأمرُ تأتَّىٰ له ﷺ بقربِه الشديد من أصحابه، وتفقُّدِه أحوالَهم، وسؤالِه عنهم، فتأتَّىٰ له أن يكون له دورُ المعلِّم والموجِّه، ليقولَ لهم: هذا حَسَنٌ فافعلوه، وهذا قبيحٌ فاتركوه، حتىٰ ولو كان بصورةٍ غيرِ مباشرة.

ومن ذلك أنَّ ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيتُ في النوم كأنَّ مَلَكين أخذاني، فذهبا بي إلىٰ النار، فإذا هي مطويَّةٌ كطيِّ البئر، وإذا لها قَرنان، وإذا فيها أناسٌ قد عرفتُهم، فجعلتُ أقولُ: أعوذُ بالله من النارِ، قال: فلَقِينا مَلَكٌ آخرُ فقال لي: لم تُرَع، فقصَصْتُها علىٰ حَفصةَ، فقصَّتْها حفصةُ علىٰ رسول الله ﷺ، فقال: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ الله، لَو كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيلِ**»، فكان ابن عمر بعدُ لا ينامُ من الليلِ إلا قليلًا[(١)]، فرسولُ الله ﷺ أوصل له رسالةً تحثُّه علىٰ العناية بقيام الليل، فقوَّىٰ هذا الأمرَ الحسنَ وحَسَّنه.

ومن أمثلة تقبيحه القبيحَ وذمِّه قوله ﷺ: «**العَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَعُوْدُ فِي قَيْئِه**»[(٢)]، فقبَّحَ هذا العملَ القبيحَ ليُنفِّرَ الناسَ عن الوقوع فيه، ومن

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢١)، ومسلم (٢٤٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٨٩)، ومسلم (١٦٢٢).

ذلك أيضًا قوله ﷺ: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: خَبُثَتْ نَفْسِي، ولكِنْ لِيَقُلْ: لَقِسَتْ نَفْسِي**»[(١)]، وكلمة (لَقِسَت) بمعنىٰ خَبُثَت؛ أي: حَصَل لها الكسلُ والخمولُ، ولكنه ﷺ كَرِهَ لفظ (خَبُثَت) لـما يحملُه من معانٍ أخرىٰ سيِّئة، ومن ذلك أيضًا قولُه ﷺ: «**بِئْسَمَا لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ: نُسِّيَ**»[(٢)]، فنهىٰ عن قول: نَسِيتُ آيةَ كذا، وأرشد إلىٰ قولِ: نُسِّيتُها أو أُنسِيتُها.

فكان ﷺ يُعلِّمُ الأمَّة دقائقَ الآداب في الأقوال والأفعال وفي الأمور كلها، وكان يأمرُ بمعالي الأخلاق، ويَنهىٰ عن سَفْسَافِها.

وقوله ﷺ: «**مُعْتَدِلُ الأَمْرِ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ، لا يَغْفُلُ مَخَافَةَ أَنْ يَغْفُلُوا أَوْ يَمِيلُوا**»، يقصد بهذا استواءَ شأنِه وهديِه ﷺ في كل أحواله، فلم يكن متقلِّبَ الأحوال؛ في الرِّضا علىٰ حال، وفي الغضب علىٰ حالٍ أخرىٰ، بل كان ﷺ في غضبه ورضاه، وفي حُزنه وفرحه، وفي موافقته ومخالفته = علىٰ حالٍ واحدة، وهي الاستقرارُ والاتِّزانُ، والحرصُ علىٰ الأمّة، والدلالةُ علىٰ الخير، والتحذيرُ من الشرِّ، فهي الوسطيةُ في شأنه كلِّه، والاعتدالُ في شأنه كلِّه، فلم يأخذه الشَّطَطُ يومًا، والتغافُل والتراخي يومًا، ولهذا قال عليٌّ ﷺ: «**لا يَغْفُلُ مَخَافَةَ أَنْ يَغْفُلُوا أَوْ يَمِيلُوا**»، فالبَشَرُ من طبيعتهم ـ مهما عَلَت هِمَمُهم ـ تعتريهم الغفلةُ في لحظاتٍ أو ساعاتٍ أو أيامٍ، وتفترُ همَّتُهم، ويصيبُهم الخُمولُ والضعف، والمقصود بالغَفلة: الضعفُ البشريُّ المعتادُ الذي لا ينفكُّ عنه إنسان، إلا أنَّ النبيَّ ﷺ الذي كان قائدًا لأمَّته وآخِذًا بها نحو طريق النجاة؛ أراد الله له أن يكون في شأنه

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧٩)، ومسلم (٢٢٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٣٢)، ومسلم (٧٩٠).

كلِّه علىٰ أتمِّ حالٍ من اليَقَظة والدراية والعناية والاستعداد، ولا يبحث لنفسه عن راحةٍ وركونٍ وسُكون؛ لأنَّ هذا هو شأن القائد الذي يحمل همَّ الأمّة، ووقوعُ الغفلة منه يُلحق الضرر بأمَّته.

وقوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**لِكُلِّ حَالٍ عِنْدَهُ عَتَادٌ**»؛ يعني: لكلِّ مَقامٍ عنده مَقالٌ، ولكلِّ وَقْعٍ وشأنٍ وحادثةٍ عنده لها ما يناسبها، فتارةً يشتدُّ علىٰ أصحابه في بعض القضايا، ويكون له موقف الحزم الذي لا تراخي فيه، من ذلك أنه ﷺ رأىٰ خاتمًا من ذهب في يدِ رجُلٍ، فنزعه فطرحه، وقال: «**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ**»، فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَمَا ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: خُذْ خَاتِمَكَ انْتَفِعْ بِهِ، قَالَ: لَا وَاللهِ، لَا آخُذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ[1]، فعبارةُ النبيِّ ﷺ فيها شيءٌ من الحزم والقوَّة، ولذلك كان لها أثرٌ بليغٌ في نفس صاحب الخاتم، وتارةً يكون توجيهُه في غاية اللُّطف والهدوء، كما فعل الأعرابيُّ الذي قَالَ وَهُو فِي الصَّلَاة: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي ومُحَمَّدًا، ولا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا، فَلَمَّا سَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ لِلْأَعْرَابِيِّ: «**لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا**»[2]، ثم بال الأعرابيُّ في المسجد وزَجَره الناسُ، فقال لهم النبيُّ ﷺ: «**دَعُوهُ، وَهَرِيقُوا عَلَىٰ بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»[3]، ثم إنَّ رسولَ الله ﷺ دعاه فقال له: «**إِنَّ هَذِهِ المَسَاجِدَ لا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا البَوْلِ، وَلَا القَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ**، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ القُرْآنِ**»[4]، فذاك التوجيهُ من النبيِّ ﷺ بهذا اللُّطف كان مناسبًا لتلك

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٥).

الحال، فلكل حالٍ عنده ﷺ عتادٌ، وكان ﷺ يَعرف مع من يتعامل، فيتعاملُ معه بما يليق به.

فالعاقلُ هو من يَتَّزِنُ في تصرُّفاته وقراراته وتعامُله مع الناس، ويعاملُ كلَّ واحدٍ بما يناسبه، والحكيمُ هو من يُحسن الصنيعة مع الجميع، ويربأُ بنفسه عن أن يُرىٰ في موقفٍ من المواقف ـ مهما كان مستفِزًّا ـ ناقصَ الهيبة أو قليلَ الخُلُق أو مخدوشَ المروءة، وهذ الأمر يحتاج إلىٰ اتِّزانٍ وعقلٍ وحكمةٍ ورويَّةٍ، فحريٌّ بنا أن نتعلَّم ذلك من الشمائل المحمدية ومن هدي المصطفىٰ ﷺ.

وقوله رضي الله عنه: «**لا يُقَصِّرُ عَنِ الحَقِّ وَلا يُجَاوِزُهُ**»؛ أي: لا يَقصُرُ عن استيفاء الحقِّ، ولا يُجاوزُه ويتعدَّاه، وهذه الموازَنةُ في التعامُل مع الناس وأَخْذُ النفس بالإنصافِ معهم هي من أصعب ما يكون في حياة المرء.

وقوله رضي الله عنه: «**الَّذِينَ يَلُونَهُ مِنَ النَّاسِ خِيَارُهُمْ، أَفْضَلُهُمْ عِنْدَهُ أَعَمُّهُمْ نَصِيحَةً، وَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَحْسَنُهُمْ مُوَاسَاةً وَمُؤَازَرَةً**»؛ أي: أنَّ أقرب الناس إليه ﷺ هم أفضلُهم وأعظمُهم إيمانًا وأعلاهم منزلةً، فالذين كانوا يَلُونه في الصفِّ الأول في الصلاة، أو يَلُونه في مجلسه إذا جلس، أو يَلُونه في طريقه إذا سار، أو غير ذلك مما يقوم به ﷺ = هم خيارُ الصحابة رضي الله عنهم، وهذا لا يعني أنه ﷺ كان يُبعد أحدًا ويمنعه من الاقتراب منه، لكنَّ المقصود أنَّ خِيارَ الصحابة رضي الله عنهم هم من كان يبادر إلىٰ أن يكونوا قريبين منه ﷺ، فرُتَبُهم في الفضل كانت بقدر اقترابهم من رسول الله ﷺ وملازمتهم له.

وقد كان ميزانُه ﷺ في التفضيل بين الناس هو أنَّ أفضلَهم عنده أكثرُهم

نُصحًا لله ولرسوله ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم، وأقواهم عقيدةً، وأخلصُهم لدين الله، وأكثرُهم حِرصًا وحَملًا لهمِّ الدِّين، للقريب والبعيد، والراعي والرعيَّة، والصغير والكبير، فأعظمُ الناس منزلةً عنده ﷺ من يشعر أنه أصدق في دينه.

وكان أعظمُ الناس عند النبيِّ ﷺ منزلةً هو أحسنَهم مواساةً ومؤازرةً لأهل الدِّين كلِّهم، فالنبيُّ ﷺ لم يبحث عمَّن يُواسيه، ولم ينتظر من يُؤازِرُ شخصَه ﷺ، وإنما كان أعظمُ الناس عنده منزلةً من يراه مُواسِيًا بنفسه وماله لدين الله، ومما يدلُّ علىٰ ذلك أنه ﷺ لما أراد أن يجهِّز جيشَ العُسرة نَدَبَ الناسَ وحثَّهم علىٰ ذلك، فلما جاء عثمانُ رضي الله عنه بما جاء به من المال الوفير وأنفقه في تجهيز ذلك الجيش، وقعَ ذلك الموقفُ من قلب رسول الله ﷺ موقعًا عظيمًا، فقال: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ**»(١)، فلم يقل ذلك لأنَّ عثمانَ زوجُ ابنتيه، إذ لو كان كذلك لذَكَر له هذ الفضل منذ تزوَّج بابنتيه ﷺ، لكن لما حصل منه ذلك الموقفُ في جيش العُسرة قال النبيُّ ﷺ ما قال، مقلِّدًا عثمانَ ذلك الشرفَ الذي ظلَّ مَنقبةً له في التاريخ، فالذي بلغ به عثمانُ رضي الله عنه تلك المنزلة إنما هو حُسنُ مُواساتِه ومؤازرته للإسلام وأهله.

وهذا بخلاف حال بعض الناس، ممَّن يكون ميزانُه في المفاضَلة بين الناس وتقريبِهم إليه هو الأمور الدنيوية، فيفضِّلُ أكثرَ الناس موافقةً له في طبيعته وتفكيره واهتماماته، أو يقرِّب إليه أعظمَ الناس نَفعًا وفائدةً له، سواءٌ كانت المنفعة ماديةً كالمال، أو معنويةً كالجاه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٠١)، وقال: «حسن غريب من هذا الوجه».

فعلىٰ المسلم أن يجعل ميزانه في تقريب الناس إليه والتفضيل بينهم كميزان رسول الله ﷺ، لا أن يكون معيارُه هو الأمورَ الدنيوية؛ لأنَّ متاعَها زائلٌ، والمصالحُ لا تَدومُ، والاعتمادُ عليها سببٌ لتذَبذُب العلاقات بين الناس وخسارةِ كثيرٍ منها.

وقول الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَسَأَلْتُهُ عَنْ مَجْلِسِهِ**»، هنا انتقل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ سؤال أبيه عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن ناحيةٍ أخرىٰ تتعلَّق بالنبيِّ ﷺ، وهي مجلسُ النبيِّ ﷺ إذا دخل عليه ضيفُه، أو مجلسُه ﷺ مع أصحابه، وحريٌّ بكلِّ مسلم أن يعرف هديَ النبيِّ ﷺ في مجلسه كيف كان.

وقول عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لا يَقُومُ وَلا يَجلِسُ إلا عَلَىٰ ذِكْرٍ**»، في هذه الجملة والجُمَل التي بعدها وصف مجلسه ﷺ، وقد بدأ هذا الوصف بأنَّ رسول الله ﷺ كان لا يقوم ولا يجلس إلا علىٰ ذِكر الله عَزَّ وَجَلَّ، فقد كان شديدَ الارتباط بذِكر ربِّه، كثيرَ الاستغفار، يفعلُ ذلك ويحثُّ عليه، فقد قال: «**وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**»(١)، وقال: «**إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(٢)، ومن قوله في الحثِّ علىٰ ذِكر الله في المجالس: «**مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَىٰ نَبِيِّهِمْ؛ إلا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً**»(٣)؛ أي: حسرةً عليهم أنهم لم يذكروا الله تعالىٰ فيه، وكم جلسْنا من مجالسَ وخُضنا في كلِّ شيءٍ وتكلَّمنا في كلِّ قضيةٍ، ثم انصرفنا عنها دون أن نذكر الله تعالىٰ، وأقلُّ ما ينبغي هو خَتْمُ المجالس بكفَّارة المجلس؛ لأنها تُكفِّرُ خطاياه،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٨٠)، وحسَّنه.

كما قال ﷺ: «**مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ؛ إِلا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ**»(١).

وقوله رضي الله عنه: «**لا يُوطِّنُ الأَمَاكِنَ وَيَنهَىٰ عَنْ إِيْطَانِها**»، هذه الجملةُ أتت في سياق هذا الحديث في بعض الروايات(٢)، ولم ترد في شمائل الترمذيِّ ومختصره، ومعناها: كان النبيُّ ﷺ لا يتَّخذُ موطِنًا مخصَّصًا له في المجالس يلازمُه ولا يجلسُ إلا فيه، ويُقِيمُ الناسَ عنه إذا جلسوا فيه، ومن المخالفات الحاصلة في بعض المساجد أنَّ بعض المصلين يخصِّصون لأنفسهم مواضعَ يلتزمونها، ولا يسمحون لغيرهم بالجلوس أو الصلاة فيها، والنبيُّ ﷺ «**نَهَىٰ أَنْ يُوَطِّنَ الرَّجُلُ المَكَانَ فِي المَسْجِدِ كَمَا يُوَطِّنُ البَعِيرُ**»(٣)، إنما المجالسُ لمن سَبقَ إليها.

وقوله رضي الله عنه: «**وَإِذَا انْتَهَىٰ إِلَىٰ قَوْمٍ جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ المَجْلِسُ، وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ**»، هذا من آداب المجالس، أن يجلس أحدُنا ـ إذا بلغ مجلسًا ـ حيث ينتهي به المجلسُ، ما لم يُفسِح له الناس، فإذا كانت حلقةً جَلس في طرفها، أو كان مَجمعًا متقاربًا متلاصقًا جلس حيث ينتهي به المجلس، وهذا يتأكَّد في مجامع الناس ومجالسهم الشرعية، كمجالس العلم، ومجالس خُطب الجمعة، فإنَّ السُّنةَ أن يجلس الرجُلُ حيث ينتهي به المجلس، ومن الخطأ الحاصل أن يأتي

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٣٣)، وقال: «حسن صحيح».

(٢) وردت في رواية الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١٥٥، رقم: ٤١٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٨٦٢)، والنسائي (١١١٢)، وابن ماجه (١٤٢٩)، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١٦٨).

أحدُنا متأخِّرًا فيقطعَ الصفوفَ ويُزاحمَ الناسَ ويتخطَّىٰ بأقدامه رقابَ إخوانه لأجل أن يجلس في صفٍّ متقدِّمٍ، فيقال لمثل هذا: إن أردتَ التقدُّم فبَكِّر مجيئَك، ولهذا لما جَاءَ رَجُلٌ يَتَخَطَّىٰ رِقَابَ النَّاسِ يَوْمَ الجُمُعَة، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، قَالَ لَه النَّبِيُّ ﷺ: «**اجْلِسْ؛ فَقَدْ آذَيْتَ**»(١).

وقوله رضي الله عنه: «**يُعْطِي كُلَّ جُلَسَائِهِ بِنَصِيبِهِ، لا يَحْسَبُ جَلِيسُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْهُ**»؛ أي: كان يعطي كلَّ واحدٍ من جُلسائه حظَّه ونصيبَه من الاهتمام، ولم يَذكر أحدٌ من الصحابة قطُّ أنه أتىٰ مجلسَ النبيِّ ﷺ ـ والمجلسُ ممتلئٌ في العادة ـ وأراد أن يتقدَّم إليه ليُسلِّم عليه ﷺ فمنعه أحدٌ، ولم يذكر أحدٌ منهم أنه خرجَ من مجلس النبيِّ ﷺ خائبًا، أو أنه لم يجد فرصةً ليطلُب حاجتَه، أو أنه لم يستطع أن يتكلَّم مع رسول الله ﷺ، بل كان كلُّ جلسائه يحظىٰ باهتمامه علىٰ السواء، وما كان أحدٌ منهم يَشعرُ أنَّ أحدًا غيرَه أميزُ منه عند رسول الله ﷺ، ولهذا قال عليٌّ رضي الله عنه: «**لا يَحْسَبُ جَلِيسُهُ أَنَّ أَحَدًا أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْهُ**»، وذلك من غاية ما يجدُ من رسول الله ﷺ من الإكرام المعنويِّ؛ من الحفاوة والإقبال والاهتمام والنظرة والابتسامة والكلمة الطيبة وحسن المعاملة، مع أنَّ المجلس قد يكون فيه أكابرُ الصحابة، كأبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ وغيرِهم رضي الله عنهم، فإنَّ مَن دونهم في المنزلة لا يشعرون بتفضيل الأكابر عليهم، وليس العجبُ في هذا، ولكنَّ العجب أن يكون قلبُ نبيِّكم ﷺ فيه هذا الاتِّساع لأمَّته ولأصحابه، مع ما يحملُ مِن همِّ الأمَّة، ومع ما يزدحمُ في قلبه وفِكره وفؤاده من عِظَم الأمانة وثِقَل

---

(١) أخرجه أبو داود (١١١٨)، والنسائي (١٣٩٩)، وابن ماجه (١١١٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (١٠٢٤).

المسؤوليَّة وهمِّ الدِّين، ولو حاول أحدُنا فِعلَ ذلك بأن يُشعرَ جميعَ جلسائه ـ علىٰ اختلاف منزلتهم عنده ـ بأنهم عنده سواءٌ؛ لعجَزَ وما استطاع، لكنَّ صحابةَ رسول الله ﷺ كانوا يشعرون أنهم في ذلك سواء.

عن سهل بن سعد رضي الله عنهما قال: «أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَدَحٍ، فَشَرِبَ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلامٌ هُوَ أَحْدَثُ القَوْمِ، وَالأَشْيَاخُ عَنْ يَسَارِهِ، قَالَ ﷺ: «**يَا غُلامُ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ الأَشْيَاخَ؟**»، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُوثِرَ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَدًا يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ»(١)، فقد كان ﷺ يُحِبُّ التيامُنَ في كل شيءٍ، وكان يحبُّ أن يُقدِّم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، لكنهما عن يساره، والغلامُ عن يمينه، فما كان منه إلا أن نظر إلىٰ الغلام واستأذنه في أن يتنازل عن حقِّه ليقدِّم أبا بكر وعمر، إلا أنَّ الغلام لم يرضَ أن يؤثر أحدًا بالشُّرب من القَدح بعد رسول الله ﷺ، فنزلَ رسولُ الله ﷺ عند رغبته.

إنها دعوةٌ لتكون مجالسُنا عامرةً بأدبٍ واحترامٍ يَفيضُ علىٰ كل جلسائنا بلا استثناء، فإذا جلس إلينا الفقيرُ والغنيُّ فهم في الإكرام عندنا سواءٌ، وإذا جلس إلينا العالمُ والجاهلُ فهم في أصل الإكرام عندنا سواءٌ، وإذا جلس إلينا الصغيرُ والكبيرُ فهم في الإكرام عندنا سواءٌ، ويبقىٰ من موجِبات مَزيد الإكرام ودواعيه بعد ذلك لكلِّ أحدٍ بحَسْبه.

وقوله رضي الله عنه: «**مَنْ جَالَسَهُ أَوْ فَاوَضَهُ فِي حَاجَةٍ صَابَرَهُ حَتَّىٰ يَكُونَ هُوَ الْمُنْصَرِفُ عَنْهُ**»؛ أي: مَن جالَسَه ﷺ من الصحابة رضي الله عنهم أو طلبه في حاجةٍ ليقضِيَها، فإنَّ رسول الله ﷺ لم يكن يبادره بالانصراف، بل يصبرُ ولا يُشعره بالاستعجال،

(١) أخرجه البخاري (٢٣٦٦)، ومسلم (٢٠٣٠).

حتىٰ يكون الآخرُ هو المنصرفَ عنه، مع أنَّ صاحبَ الحاجة هو الأولىٰ بالمصابرة حتىٰ يقضيَ حاجتَه، إلا أن رسول الله ﷺ ما كان يُنهي مجلسَه مع جليسه، ولا يقول له: كفىٰ، ولا يقول له: انتهِ، ولا يقول له: إني مشغولٌ، ولا يقول له: عُد إليَّ لاحِقًا.

فإذا كان هذا من شأنه ﷺ في مُصابَرة كلِّ جلسائه حتىٰ تنقضيَ حوائجُهم، فهل كان ذلك من عِظَم فراغ الوقت عنده ﷺ؟ لم يكن ذلك قطُّ وقد حَمَل همَّ الأمَّة، يُعلِّم جاهلَهم، ويرشدُ حائرَهم، ويُقْرِئُهم الوحيَ إذا نزل، ويعودُ مريضَهم، ويَشهدُ جنائزَهم، ويَقضي بين خُصومهم، ويقودُ الجيوشَ، ويخطُبُ الجُمَعَ، ويصلي بالناس، حتىٰ وقته الذي يأوي فيه إلىٰ بيته كان يصرفُه علىٰ الناس، إلا أنَّ النفوس كلما كبُرت في أخلاقها وفي هِمَمها وجدَتْ من سَعة الوقت ما يعينُها علىٰ تحقيق مرادها، ولذا كان الوقت الذي يعيشُه ﷺ مع أمَّته يسع ذلك كلَّه؛ لأنه ﷺ ما كان يبحثُ في شؤون حياته عن موضع حظٍّ لنفسه قطُّ، إنما هو للدّين الذي كلَّفه الله به، والرسالة التي بعثه الله بها، أفلا يحقُّ له علينا ﷺ حبٌّ صادقٌ ووفاءٌ واجبٌ وكثرةُ صلاةٍ وسلامٍ عليه؟

وقوله رضي الله عنه: «**وَمَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهُ إِلا بِهَا، أَوْ بِمَيْسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ**»؛ أي: أنَّ كلَّ من سأله ﷺ شيئًا كان لا ينصرف دون أن يظفرَ بتلبية حاجته التي سألها، فإذا لم يجد النبيُّ ﷺ ما يلبِّي به حاجته فإنَّ أقلَّ ما يرجع به السائل هو البشاشةُ والكلمةُ الطيبةُ والعبارةُ اللطيفةُ من النبيِّ ﷺ.

وقوله رضي الله عنه: «**قَدْ وَسِعَ النَّاسَ بَسْطُهُ وَخُلُقُهُ، فَصَارَ لَهُمْ أَبًا وَصَارُوا عِنْدَهُ فِي الحَقِّ سَوَاءً**»، المراد بالبَسْطِ: انبساطُ النفس والبشاشةُ والإحسانُ وحُسن الخُلُق

واللُّطفُ في القول، وهذا الخُلُق منه ﷺ قد وَسِع كلَّ الناس، فليس الجودُ بالمال فقط، وليس بالضرورة أن يكون السائلُ يريد مالًا، فالنبيُّ ﷺ لم يكن ثريًّا ولا صاحبَ كنوز، بل كان ينفقُ بحسب ما يتيسَّر له، ومع ذلك وصفَه أصحابُه بالجود والكرم والعطاء والسخاء، والقانونُ في ذلك هو أنه «**وَسِعَ النَّاسَ بَسْطُهُ وَخُلُقُهُ**»، وكان كما روي في الحديث ـ وإن كان فيه ضعفٌ وحسّنه بعضُ أهل العلم ـ أنه ﷺ قال: «**إِنَّكُم لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، فَلْيَسَعْهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ وَجْهٍ وَحُسْنُ خُلُقٍ**»(١)، فقد لا تستطيع إعطاءَ الناس كلِّهم مالًا، ولكن تستطيعُ أن تعطيَ الكلَّ خُلقًا حَسنًا، وابتسامةً لطيفةً، وعبارةً جميلة، فهذا في مقدور الجميع، وهو منهجٌ كبيرٌ نجدُه في شمائل المصطفىٰ ﷺ وهديه، ومن ثمرة ذلك أنَّ الصحابة رضي الله عنهم لما عاشوا معه ﷺ بهذا العطاء والجُود والسخاء بلا انتهاءٍ؛ شعروا أنَّ الذي يعاملهم هذه المعاملة ليس مُجرَّد إمامٍ ومعلِّمٍ ونبيٍّ ومُربٍّ لهم، بل «**صَارَ لَهُمْ أَبًا**»، هذه الكلمة تُظهِرُ لك أنَّ الصحابة رضي الله عنهم قد غَمَرَ قلوبَهم هذا الشعورُ العجيبُ، وتستظِلُّ مندهِشًا في معنىٰ هذا اللُطفِ والحنانِ الأبويِّ؛ فالأبُ لا يمنع ابنَه حاجةً سألها، وكذلك كان النبيُّ ﷺ مع الصحابة رضي الله عنهم، يملكُ لهم قلبًا رؤوفًا رحيمًا رفيقًا، وكان يقول لهم: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الوَالِدِ؛ أُعَلِّمُكُم**»(٢).

فكان ﷺ في تربيته لأصحابه يُربِّيهم تربيةَ الوالد لأولاده، وكانوا يَجِدون

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنّفه (٢٥٣٣٣)، والبزّار في مسنده (٨٥٤٤)، والحاكم (٤٢٧)، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٦٦١).

(٢) أخرجه أحمد (٧٤٠٩)، وأبو داود (٨)، والنسائي (٤٠)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٣٠١).

من دِفْءَ الأبوَّة ورِفقها ومن حُسن التعاملِ ما أغناهم بعد ذلك عن أن يتَّجهوا إلىٰ مَن سواه، حتىٰ إنَّ الرجل منهم لو اختصم مع زوجته ربما لا يذهب إلىٰ والده ولا إلىٰ والد زوجته، بل يذهبُ إلىٰ رسول الله ﷺ، والمرأةُ إن وجدت علىٰ زوجها فإنها لا تذهب إلىٰ والدها أو والده لتشكُوَه، وإنما تذهبُ إلىٰ رسول الله ﷺ، كالمرأة التي ظَاهرَ منها زوجُها، فكان الجميعُ يشعرون أنهم مهما نزلت بهم حاجةٌ يريدون قضاءَها فإنهم يَعمِدون إلىٰ رسول الله ﷺ، فيجدون منه ﷺ صدرًا رحبًا، ولا يميِّزُ بينهم، فكلُّهم كأبنائه، وصاروا عنده في الحق سواءً، وهذا من كمال عدله ﷺ.

فهذه حالُ من حَملَ همَّ أمَّته واتَّسع صدرُه لحاجات الناس، فأصحابُ النفوس الكبيرة والهِمم العظيمة لا يتذمَّرون من كثرة المطالب، ولا تنزعجُ نفوسُهم من كثرة الطارقين لأبوابهم ولا الواقفين علىٰ مداخلهم.

وقوله ﵁: «**مَجْلِسُهُ مَجْلِسُ عِلْمٍ وَحِلْمٍ وَحَيَاءٍ وَأَمَانَةٍ وَصَبْرٍ**»، هنا يُعدِّدُ الصفات التي انطبع بها مجلسُ النبيِّ ﷺ، فقد كان لمجلسه ﷺ نصيبٌ من أخلاقه هو ﷺ، وصاحبُ المجلس يؤثر في جُلسائه بأخلاقه، وهكذا هي المجالسُ، وأرفعُ المجالسِ البشرية قَدرًا هي مجالسُ الأنبياء، فذكَرَ ﵁ من صفات مجلسه ﷺ أنه «**مَجْلِسُهُ مَجْلِسُ عِلْمٍ وَحِلْمٍ وَحَيَاءٍ وَأَمَانَةٍ وَصَبْرٍ**»، فوصفَه أولًا بأنه مجلسُ عِلمٍ، فجلساؤه يجدون فيه العِلمَ والإيمانَ وأحكامَ الدين، ويسمعون الفتاوىٰ، ويسمعون القرآنَ غضًّا طريًّا حين ينزل به الوحيُ.

ثم وصفَه بأنه مجلسُ حِلمٍ وحياءٍ وأمانةٍ وصبرٍ؛ لأنَّ جُلساءَه ﷺ لا يرونه إلا متَّصفًا بمكارم الأخلاق؛ مِن سَعةِ صدرٍ وحِلمٍ ورأفةٍ ورحمةٍ وحياءٍ وأمانةٍ

وصبرٍ وغير ذلك، مهما تنوَّعت أحوالُه ﷺ أو تفاوتت أحوالُهم رضي الله عنهم، إضافة إلىٰ ما كان يلقِّنهم ﷺ في مجلسه من مكارم الأخلاق، ومن تتبَّع نصوصَ الأحاديث النبوية التي يلقِّن فيها رسولُ الله ﷺ الأمَّةَ أصولَ الأخلاق؛ فسيجدُ ميراثًا نبويًا عظيمًا في ذلك، إلا أنَّ ما كانوا يتعلَّمونه ـ من تلك الأخلاق الشريفة ـ من خُلُقه ﷺ وهديه أكثرُ مما كانوا يتعلَّمونه من قوله وأبلغ، بدليل أنَّ مَن صَحِبه في مدَّةٍ وجيزةٍ ربما لم يسمع من قوله الكثير من أحاديث الإيمان والأخلاق، لكنه تعلَّم من هديه كثيرًا من تلك المعاني.

وقوله رضي الله عنه: «**لا تُرْفَعُ فِيهِ الأَصْوَاتُ وَلا تُؤْبَنُ فِيهِ الحُرَمُ، وَلا تُنْثَىٰ فَلَتَاتُهُ**»، ذكر أمورًا كان يُنزَّه عنها مجلسُ رسول الله ﷺ، من ذلك أنَّ مجلسَه ﷺ «**لا تُرْفَعُ فِيهِ الأَصْوَاتُ**»، فمن أراد من جلسائه ﷺ أن يتكلَّم أو يتحدَّث مع جليسه أو مع النبيِّ ﷺ تحدَّث بقدر الحاجة، بلا لَجَجٍ، ولا رَفعِ صوتٍ، ولا لَغَطٍ، فمجلسُه ﷺ كان مجلسَ أدبٍ ووقارٍ وسكينةٍ.

ومما كان يُنزَّه عنه مجلسُ النبيِّ ﷺ ذِكرُ الحُرُمات، فكان مجلسُه «**لا تُؤْبَنُ فِيهِ الحُرَمُ**»؛ أي: لا تُعابُ الحُرم، والمقصودُ بالحُرم كلُّ شيءٍ له حُرمةٌ ومكانةٌ، كالنِّساء والأعراض والحقوق، فلا تُقذَفُ ولا تُرمَىٰ بعيبٍ، ولا تُذكَر بقبيحٍ في مجلسه ﷺ، ولا يُفعَل في مجلسه ﷺ شيءٌ يمكن أن يكون مُخِلًّا بالمروءة أو متجاوزًا حدودَ الأدب.

ومما كان يُنزَّه عنه مجلسُ النبيِّ ﷺ الزلَّات وفَلَتات اللسان، فكان مجلسُه «**لا تُنْثَىٰ فَلَتاتُه**»، فمعنىٰ لا تُنْثَىٰ: لا تُشاع ولا تُذاع، والفَلَتاتُ جمع فَلْتة،

وهي الزلَّة، والمراد أنه لم تكن لمجلسه ﷺ سَقَطاتٌ ولا فَلَتاتٌ من القول تُنقَل عنه خارج المجلس، فلم يكن ﷺ صاحب زَلَلٍ في القول، لا هو ولا جلساؤه، وما كان أحدُهم يتحدَّث في مجلسه بعبارةٍ تقع عند السامعين موقعًا خبيثًا فيتأذَّون منها، ثم تنقلها الألسنةُ في المجالس، ومن فتَّش كُتبَ السيرة ونقَّب كتب التواريخ سيجدُ أنَّ أكثرَ الناس عداءً وترصُّدًا وحَسدًا وحِقدًا لرسول الله ﷺ في المجتمع المدني ـ وهم اليهود والمنافقون ـ لم يجدوا سبيلًا قطُّ إلىٰ كلمةٍ تكون مأخذًا عندهم علىٰ رسول الله ﷺ، مع كلِّ ما جُبِلوا عليه من الحَسد والحِقد والكراهية لرسول الله ﷺ، وقد عاشوا معه ﷺ في المدينة عشرَ سنواتٍ فما وجد أحدُهم شيئًا من ذلك، فأنَّىٰ يظفرون بذلك والنبيُّ ﷺ يتَّصف بالرَّزانة والتأنِّي والوَقار والحِلم والرِّفق، ومعرفةِ مآخذِ الأمور ومداخِلِها ومخارِجِها، وجُلساؤه تعلَّموا منه ذلك.

وقوله رضي الله عنه: «**مُتَعَادِلِينَ، بَلْ كَانُوا يَتَفَاضَلُونَ فِيهِ بِالتَّقْوَىٰ، مُتَوَاضِعِينَ، يُوَقِّرُونَ فِيهِ الكَبِيرَ، وَيَرْحَمُونَ فِيهِ الصَّغِيرَ، وَيُؤْثِرُونَ ذَا الحَاجَةِ، وَيَحْفَظُونَ الغَرِيبَ**»، ذكر أنَّ جُلساءَه ﷺ كانوا «**مُتَعَادِلِينَ**»؛ أي كانوا سواسيةً في المجلس فيما يَجِدونه من العناية والحفاوة والإكرام في الجلوس، ثم استدرك فذكر أنهم إنما كانوا «**يَتَفَاضَلُونَ فِيهِ بِالتَّقْوَىٰ**»، أراد رضي الله عنه أنه إن كان شيءٌ ما يُفاضل بين جُلساء رسولِ الله ﷺ؛ فشيءٌ واحدٌ فقط، هو الإيمانُ والعِلمُ والتقوىٰ، وهو الميزانُ الذي أنزله الله في كتابه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقوله رضي الله عنه: «**مُتَوَاضِعِينَ، يُوَقِّرُونَ فِيهِ الكَبِيرَ، وَيَرْحَمُونَ فِيهِ الصَّغِيرَ، وَيُؤْثِرُونَ ذَا الحَاجَةِ، وَيَحْفَظُونَ الغَرِيبَ**»، ذكر هنا بعض صفات جلسائه في

المجلس، فذكر أنهم كانوا «**مُتَوَاضِعِينَ**» فيما بينهم، كما وصفهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وذكر أنهم كانوا «**يُوَقِّرُونَ فِيهِ الكَبِيرَ، وَيَرْحَمُونَ فِيهِ الصَّغِيرَ**»، فالكبيرُ فيهم محترَمٌ، والصغيرُ فيهم مرحومٌ، وهذا مما كان يحثُّهم عليه النبيُّ ﷺ بقوله: «**ليس منَّا من لم يَرحمْ صغيرَنا ويُوقِّرْ كبيرَنا**»(١)، وذكر أنهم كانوا «**وَيُؤْثِرُونَ ذَا الحَاجَةِ**»، فيُراعُون حالَه ويقدِّمونه علىٰ أنفسهم في تقريبه من النبيّ ﷺ وتحدُّثِه معه؛ لتُقضىٰ حاجته، وذكر أنهم كانوا «**وَيَحْفَظُونَ الغَرِيبَ**»، وفي رواية: «**يَحُوطُونَ الغَرِيبَ**»(٢)؛ أي: يجدُ الغريبُ عندهم حُظوةً وعنايةً وإكرامًا، فلا يجتمع عليه وَحشةُ الغُربة وجفاءُ التعامل.

فكم نحن بحاجة إلىٰ هذه الأخلاق، وإلىٰ أن نلقِّن أجيالَنا هذه القِيَمَ الكريمةَ والمبادئَ الفاضلة؛ لنُشِيعَها في مجالسنا في كل زمان ومكان في بلاد الإسلام؛ لأنَّ الناس ـ وخصوصًا العامَّة ـ تتربَّىٰ في المجالس أكثر منها في المساجد؛ وذلك أنَّ جلوسَهم في المجالس أوسعُ من جلوسهم في المساجد، فهم يجلسون أمام خطيب الجمعة أو الواعظ في المسجد دقائق معدودات، لكنهم يقضون سحابة نهارهم وكثيرًا من أوقاتهم في تلك المجالس: مجالسِ الأهل والأقرباء، ومجالسِ الرفقة والأصحاب، ومجالسِ الحيِّ، فعندما تكون ثقافةُ مجالسِنا في بلاد الإسلام ثقافةَ أخلاقٍ وقِيَمٍ ومبادئَ فستَنتُجُ مثلُ هذه المعاني.

وقول الحسين رضي الله عنه: «**سَأَلْتُ أَبِي عَنْ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي جُلَسَائِهِ**»، طلبَ الاستزادةَ من أوصاف النبيِّ ﷺ في تعامُله مع جُلسائه وحاله معهم، فأجابه عليٌّ

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩١٩)، وقال: «حديث غريب».

(٢) عند البيهقي في شعب الإيمان (١٣٦٢).

ﷺ بعباراتٍ وَصفَ فيها شأنَ النبيِّ ﷺ وهديَه مع جلسائه، فحريٌّ بكلِّ مسلم أن يتأمَّلها ليقتديَ بالنبيِّ ﷺ فيها، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، ومُقتضىٰ أن يكون أسوةً حسنةً أن يكون هديُه مِعيارًا لنا في التعامُلات، ومعيارًا نَزِنُ به أخلاقَنا وأحوالَنا كلَّها علىٰ حدٍّ سواءٍ، وإن لم يكن قُدوةً لنا ﷺ فسنضِلُّ ونضيعُ، وسنختلفُ في اختيار القُدوات، وحتىٰ يتَّحِد الجميعُ علىٰ قُدوةٍ واحدةٍ يجب أن يكون معيارُنا في ذلك مَن رَضِيَه ربُّنا لنا قُدوةً.

وقول علي رضي الله عنه: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ دَائِمَ البِشْرِ، سَهْلَ الخُلُقِ، لَيِّنَ الجَانِبِ**»، بدأ عليٌّ رضي الله عنه بوصف سِيرة النبيِّ ﷺ مع جُلسائه، فذكر أنه كان «**دَائِمَ البِشْرِ**»، والبِشْرُ هو طلاقةُ الوجه وحُسنُ المُحَيَّا، وظهورُ الابتسامة، ولا يعني هذا دوامَ الفرحِ والسرورِ والأُنس وانعدامَ الحُزنِ في حياة الرسول ﷺ، فهو بَشرٌ، يفرح ويحزن، ويضحك ويبكي، ويرضىٰ ويغضب، ويتأثَّر بالمواقف التي تمرُّ به، فمعنىٰ كونه دائمَ البِشر: أنه وإن كان يحمل همًّا شخصيًّا فإنه ما كان يُشرِك جُلساءَه في الهمِّ الذي يعيشُه، ولا في الحُزن الذي يعتريه، فكان من يجلس معه لا يشعرُ بذلك الحُزن، وهذا من سموِّ خُلُقه ﷺ ورِفعة نفسه، وليس هذا بالأمر السهل، ولا يستطيعُه كلُّ أحد، وهو دليلٌ علىٰ قوَّة العزيمة والقدرة علىٰ قيادة النفس والتحكُّم بها.

ثم وصفَه بأنه كان «**سَهْلَ الخُلُقِ، لَيِّنَ الجَانِبِ**»، وهاتان عبارتان يُفسِّرُ بعضُهما بعضًا، والمراد أنَّ جليسَه ﷺ كان يجِدُ فيه من الرِّفق واللينِ والرحمةِ ما شهدت به الكثيرُ من المواقفِ والحكاياتِ والرِّوايات.

وقوله رضي الله عنه: «**لَيْسَ بِفَظٍّ وَلا غَلِيظٍ وَلا صَخَّابٍ وَلا فَحَّاشٍ وَلا عَيَّابٍ وَلا مُشَاحٍ**»، ذكر هنا بعض الصفات التي كان النبيُّ ﷺ منزَّهًا عنها، فذكر منها أنه «**لَيْسَ بِفَظٍّ وَلا غَلِيظٍ**»، والمقصود أنه لم يكن شديدًا ولا جافيًا مع أنه كان بَشَرًا، وربما كانت تعتريه مواقفُ تُثيرُ الغضبَ أو تُغيظُ القلبَ، لكنه ﷺ ما كان إلا لَيِّنًا وَدُودًا لطيفًا بأصحابه؛ لأنه لو كان فَظًّا غليظًا لانفضَّ عنه أصحابُه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فالفَظُّ الغليظُ يخسرُ مَن حوله من أهله وأصدقائه.

ثم ذكر أنه ليس بـ«**صَخَّابٍ وَلا فَحَّاشٍ وَلا عَيَّابٍ وَلا مُشَاحٍ**»، والصَّخَّابُ هو الصَّيَّاحُ؛ إذ الصَّخَبُ هو الضَّجَّةُ واضطرابُ الصوت أثناءَ الخِصام، فالإنسانُ إذا غضِبَ مع آخَرَ وتجادلَ معه فعلا صوتُه، فقد أحدث صَخَبًا.

والفحَّاشُ هو من يَصدُر عنه الفُحشُ، وهو ما قبُح من الأقوال والأفعال، فالفُحشُ يكون في الكلام وفي التصرُّفات والأفعال، ولم يكن النبيُّ ﷺ يحصل منه ذلك، فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قال: «**لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ فَاحِشًا وَلا مُتَفَحِّشًا**»(١).

والعَيَّابُ هو من يتتبَّعُ العيوبَ في الناس أو الأشياء فيذكرُها، فلا تراه إلا وهو يتكلَّم بنقدٍ وانتقاصٍ، والـمُشاحُّ هو مَن به شُحٌّ؛ أي: بُخلٌ، أو من يَطلُب بإلحاح، وفي رواية: «**وَلا مَدَّاحٍ**»؛ أي: لم يكن كثيرَ المدح والتملُّق للآخرين، بل كان يُثني علىٰ أصحابه بما هو فيهم؛ ليُثبِّتهم ويزيدَهم إيمانًا، كقوله لأشجِّ عبدِ القيس: «**إنَّ فِيكَ خَصْلَتَينِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ، وَالأَنَاةُ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٥٩)، ومسلم (٢٣٢١).

(٢) أخرجه مسلم (١٧).

ونبيُّنا ﷺ لم يصدر عنه شيءٌ من ذلك أبدًا؛ لا الصَّخَبُ ولا الفُحْشُ ولا التَّعييرُ وذِكرُ العيوب ولا الشُّحُّ والمشاحَّةُ ولا المدحُ بغير حق، ولم يكن منسوبًا إلىٰ شيءٍ من هذه الصفات الـمُزرِيةِ أبدًا، بل كان أشرفَ وأسمَىٰ من أن يكون موصوفًا بشيءٍ منها.

وعبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما ذكرَ أنَّ مِن وصْفِ النبيِّ ﷺ في التوراة: «**لَيسَ بِفَظٍّ ولا غَلِيظٍ وَلا سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلا يَدْفَعُ بالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، ولكِنْ يَعْفُو ويَغْفِرُ**»[١].

وقوله رضي الله عنه: «**يَتَغَافَلُ عَمَّا لا يَشْتَهِي**»، التغافُل هو الإعراضُ عن الشيءِ وتركُ الاهتمام به قصدًا، فقد كان من هدي النبيِّ ﷺ أن يتغافَل عمَّا لا يَعنيه، وعمَّا لا يَستحسنه من القول والفعل، ويشغلُ نفسَه بالأمر الذي يَعنيه ويَنفعُه.

وقوله رضي الله عنه: «**وَلا يُؤيِسُ مِنْهُ رَاجِيهِ وَلا يُخَيَّبُ فِيهِ**»، وفي روايةٍ: «**وَلا يُوئِسُ مِنْه رَاجِيهِ**»[٢]؛ من الإيئاس، والأوَّل من الإيَاس، والمعنىٰ واحدٌ، وهو انقطاعُ الرجاء، والمراد أنه ﷺ كان لا يجعل مَن قَصدَه ورجاه في قضاءِ حاجةٍ يائسًا من أن يقضيَ له حاجتَه، فمن كان يقصدُ النبيَّ ﷺ لأمرٍ فإنه كان لا يَيْأَسُ من أن يجدَ حاجتَه عنده ﷺ، ولو أن يقابِلَه بكلمةٍ طيبةٍ وابتسامةٍ صادقةٍ كما تقدَّم، وكان ﷺ «**لا يُخيَّبُ فِيه**»؛ أي: لا يُخيِّبُ رجاءَ مَن رجاه لقضاء حاجته، فمَن قَصَده فلن يكون يائسًا ولا خائبًا.

وقد وصل الناسُ مِن حولِه إلىٰ هذا الشعور واتفقوا علىٰ ذلك ـ علىٰ اختلافِ أحوالهم وحوائجهم ـ حين وَجدوا منه ﷺ ما يريدون من قضاء

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٢٥).

(٢) هي رواية الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١٥٥، رقم: ٤١٤).

حوائجهم علىٰ الدوام، أو علىٰ الأقلِّ ما قاموا من عنده ولا انصرفوا عنه إلا راضيةً نفوسُهم منه ﷺ، فما كان ﷺ يرىٰ دَورَه مقتصرًا علىٰ تبليغ الدين وتعليم الأحكام وإقراء القرآن ـ مع عِظَم شأن ذلك ـ، لكنه ﷺ تجاوزَ ذلك إلىٰ قضاء حاجات الناس، فهو بذلك يعلِّمُنا أنَّ مَن انتصبَ لهداية الناس وتعليمِهم وإرشادِهم يجبُ أن يستشعرَ حاجاتهم ويَعلَم أنهم بشرٌ وأنهم لا ينفكُّون أبدًا عن تلك الحوائج، فأعظمُ ما يكون أثرُ الداعية في قلوب المدعوِّين حين يكون جامعًا بين إيجاد ما تحتاج إليه قلوبُهم وإيجاد ما تحتاج إليه أبدانُهم، وقد كان النبيُّ ﷺ قائمًا بذلك كلِّه.

وقوله رضي الله عنه: «**قَدْ تَرَكَ نَفْسَهُ مِنْ ثَلَاثٍ: المِرَاءِ، وَالإِكْثَارِ، وَمَا لا يَعْنِيهِ**»، هذه الثلاثةُ التي كان ﷺ يَجتنِبُها هي أمورٌ جالبةٌ لـمَبغَضَة الخَلق، فمَن وقع في الـمِراء أو الإكثار أو إدخال نفسِه فيما لا يَعنيه أبغضَتْه قلوبُ الخَلق شيئًا فشيئًا، فالـمِراءُ هو الجِدالُ، وهو أكبرُ تلك العوامل إثارةً للنفوس واستفزازًا لها؛ لأنه يؤدِّي إلىٰ الـمُشاحنة، وإذا أكثرَ الإنسانُ من الـمِراءِ وجِدالِ الآخرين وأصرَّ علىٰ إمضاء رأيِه وفَرْضِ مقولته؛ فإن ذلك يُنفِّرُ الناسَ عنه، ولذلك قال ﷺ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيتٍ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الـمِرَاءَ وإِنْ كَانَ مُحِقًّا**»(١)، فهذا وعدٌ لمن ترَك الـمِراءَ لا لضعفِ حُجَّةٍ أو فُقدانِ دليل، وإنما لمن تركه لله، فقد كان ﷺ يُعلِّمُ ويُرشدُ ويتكلَّمُ بأقومِ عبارةٍ وأفضلِها وأوجزِها.

وأمَّا الإكثارُ فهو المعاوَدةُ والاستكثارُ من كلِّ شيءٍ، وقد يُراد به الإكثارُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٠).

من الكلام، فالإكثارُ من تكرار عبارةٍ أو فعلٍ في مجلس يُسبِّب الإملالَ لدىٰ الجُلساء.

وأمَّا إدخالُ المرءِ نفسَه فيما لا يَعنيه فهو من القبائح، لذلك قال النبيُّ ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيه**»(١)، فمن القبائح أن يَدخُل امرؤٌ بين اثنين أو في موضوعٍ أو قضيةٍ لا تَعنيه، فيَفرضُ نفسَه طرفًا فيها، وهذا أمرٌ تأباه النفوسُ وترفضُه، بخلافِ ما لو دُعِيَ وطُلِب وقامت الحاجةُ إلىٰ وجوده، فإنه يأتي بتقديرٍ وتبجيلٍ وإكرام.

وقوله رضي الله عنه: «**وَتَرَكَ النَّاسَ مِنْ ثَلاثٍ: كَانَ لا يَذُمُّ أَحَدًا وَلا يَعِيبُهُ وَلا يَطْلُبُ عَوْرَتَهُ، وَلا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا رَجَا ثَوَابَهُ**»، هذه أمورٌ ثلاثةٌ رصدَ الصحابةُ رضي الله عنهم اجتنابَ رسولِ الله ﷺ لها في تصرُّفاته ومواقفه وأخلاقه؛ لأنه كان يُوطِّنُ نفسَه ويَحمِلُها علىٰ أكملِ المحامِلِ وأشرفِها، فمن هذه الثلاثة: أنه ﷺ كان «**لا يَذُمُّ أَحَدًا وَلا يَعِيبُهُ**»، وفي روايةٍ: «**ولا يُعيِّرُه**»(٢)، والمقصود أنه ما كان يُلحِقُ بأحدٍ ذَمًّا أو عَيبًا، ولو كان صاحبَ مَذمَّةٍ أو عَيبٍ؛ لأنَّ الله نزَّه لسانَه وقلبَه عن ذلك، وهذا من الجمعِ بين كون اللسانِ عفيفًا عن ذمِّ صاحبِ العَيب، وفي إمساك النفس وترفُّعِها عن ذلك.

ومن هذه الثلاثة أنه ﷺ لم يكن يَطلُبُ عورةَ أحدٍ أو يتتبَّعُها ويُفتِّشُ عنها، بل كان يُحذِّر من ذلك أشدَّ التحذير، ويقول: «**يا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وقال الترمذي: «غريب».

(٢) هي رواية الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١٥٥، رقم: ٤١٤).

يُفْضِ الإيمانُ إلىٰ قَلْبِه، لا تُؤْذُوا المُسْلِمِين ولا تُعَيِّرُوهُم ولا تَتَبَّعُوا عَوْرَاتِهِم، فإنَّه مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أخِيهِ المُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَه، ومَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَه يَفْضَحُهُ ولَو في جَوْفِ رَحْلِه»(١).

ومن هذه الثلاثة: أنه ﷺ كان «**لا يَتَكَلَّمُ إلَّا فِيمَا رَجَا ثَوَابَهُ**»؛ أي: فيما ظنَّ ورَجا حُصولَ ثوابٍ من الله في الكلام فيه؛ بأن يكون مما يحبه الله ويرضاه، وهذا ميزانٌ ينبغي لكل مسلمٍ أن يَزِنَ به كلامَه مع أيِّ إنسان من الأهل والأصحاب والجيران وغيرهم، لا أن يتكلَّم بالعبارات ويُطلقها من غير حساب، فقد علَّمنا رسولُ الله ﷺ هذا المبدأ بفعله وقوله، وجاء التحذيرُ عن زلَّات الألْسِنة وما يمكن أن تفعل بصاحبها في نصوص شرعية كثيرة، منها قوله: «**إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، لا يُلْقِي لَهَا بالًا، يَهْوِي بِهَا في جَهَنَّم**»(٢)، وقوله لمعاذ بن جبل رضي الله عنه وقد أخذ بلسانه: «**كُفَّ عَلَيكَ هَذَا**»، فقال معاذ: يا نبيَّ الله، وإنا لمؤاخَذون بما نتكلَّم به؟ فقال ﷺ: «**وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ عَلَىٰ وُجُوْهِهِم ـ أو عَلَىٰ مَنَاخِرِهِم ـ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم؟**»(٣).

وقد عاش السلفُ ـ رحمةُ الله عليهم ـ هذا المعنىٰ العظيم، فتجدُ في سِيَرهم وأخبارهم ما يدلُّ علىٰ طول صَمتهم وعلىٰ إمساكهم ألسِنَتهم، ومن لطيف ذلك أن الربيع بن خُثَيم ـ أحد كبار التابعين وصاحب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ـ الذي قال

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٣٢)، وقال: «حسن غريب».

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٧٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وقال: «حسن صحيح».

فيه ابنُ مسعود: «لَو رَآكَ رَسُولُ الله ﷺ لَأحَبَّك»[١]، جاءته ابنتُه تستأذنه ـ ذات مرّةٍ ـ وكانت طِفلةً، فقالت له: يا أبتِ أذهبُ ألعبُ؟ فقال: اذهبي فقولي خيرًا، فلمّا أكثرت عليه قال له بعض القوم: اتركها تذهب تلعب، قال: لا أحِبُّ أن يُكتب عليَّ اليومَ أني أَمرتُ باللَّعب[٢]، فهذا من مُحاسبتهم لعباراتِهم وألفاظِهم وكلامِهم، فلما تنزَّهت ألسنتُهم عَبَقت سيرتُهم في تاريخ الأمَّة وفاحَت بعَبير المِسك والذِكر الحَسَن، تَذكرُهم به الأمَّة جيلًا بعد جيل.

وقوله رضي الله عنه: **«وَإِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلَسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَىٰ رُؤوسِهِمُ الطَّيْرُ، فَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا، لا يَتَنَازَعُونَ عِنْدَهُ الحَدِيثَ، وَمَنْ تَكَلَّمَ عِنْدَهُ أَنْصَتُوا لَهُ حَتَّىٰ يَفْرُغَ، حَدِيثُهُمْ عِنْدَهُ حَدِيثُ أَوَّلِهِمْ»**، يصفُ رضي الله عنه أصحابَ النبيِّ ﷺ في مجلِسه، وما أضْفاهُ عليهم هذا المجلسُ من كريم الصفاتِ وجميلِ الخِصالِ، فذكر من ذلك أنه ﷺ كان **«إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلَسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَىٰ رُؤوسِهِمُ الطَّيْرُ»**، هذا مَثَلٌ يُضرب عند العرب للدلالة علىٰ السكون والهدوء؛ إذ الطيرُ لا يقفُ إلا علىٰ شيءٍ ساكنٍ ثابتٍ؛ لأنَّ أدنىٰ حركةٍ تجعله يطيرُ، فإذا وُصِف إنسانٌ فقيل: كأنَّ علىٰ رأسه الطيرَ؛ فالمراد أنه في سُكونه وهدوئه كأنه شيءٌ ثابتٌ لا يتحرَّك. والإطراقُ: هو السكوت بأدبٍ واحترامٍ، والذي دفعهم إلىٰ ذلك ليس الخوفَ منه ﷺ أو خشيةَ زجره لهم، فلم يكن ذلك من طَبعه كما تقدَّم، وإنما هو توقيرُهم للنبيِّ ﷺ محبَّةً

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٣٥٥٥٠)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٥١، رقم: ١٠٢٨٦).

(٢) أخرج القصَّةَ ابنُ سعد في الطبقات (٦/ ١٨٨)، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (٢/ ٥٧٠).

وتعظيمًا، كما قال تعالىٰ: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، فكانوا يُعزِّرون رسولَ الله ﷺ؛ أي: يَحترمونه ويُبَجِّلونه ويُقدِّرونه ويُوَقِّرونه، وكانت مجالسُهم معه علىٰ كامل الأدب.

وممَّن وَصفَ الصحابةَ ﷺ مع رسولِ الله ﷺ بهذا الوصف عُروةُ بنُ مسعودٍ الثقفيُّ حين رجع إلىٰ قريشٍ بعد أن حاول مُفاوضةَ النبيِّ ﷺ قُبيل صُلح الحُديبية، فقال: «**قَدْ قَدِمْتُ عَلَىٰ المُلُوك، وَرَأَيْتُ العُظَمَاءَ، فَأُقْسِمُ بِاللهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا وَلا عَظِيمًا أَعْظَمَ فِي أَصْحَابِهِ مِنْهُ، إِنْ يَتَكَلَّمَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنَهُ، فَإِنْ هُوَ أَذِنَ لَهُ تَكَلَّمَ، وَإِنْ لَمْ يَأْذَنْ لَهُ سَكَتَ، ثُمَّ إِنَّهُ لَيَتَوَضَّأُ فَيَبْتَدِرُونَ وَضُوءَهُ يَصُبُّونَهُ عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ، يَتَّخِذُونَهُ حَنَانًا**»(١)، فوَصفَ أمرين عظيمين، أحدَهما: هيبةَ النبيِّ ﷺ ووقارَه وجلالَه، والأمرَ الآخَر: الأدبَ العظيمَ الذي كان يتحلَّىٰ به ساداتُنا الصحابةُ الكِرامُ ﷺ مع النبيِّ ﷺ، فكانوا لا يتكلَّمون إلا بإذنه ﷺ، ولا يتكلَّمون حين يتكلَّم ﷺ، بل «**إذا سَكَتَ تَكَلَّمُوا**».

ومِن كمالِ أدب الصحابة ﷺ في مجلس النبيِّ ﷺ أنهم كانوا «**لا يَتَنَازَعُونَ عِنْدَهُ الحَدِيثَ، وَمَنْ تَكَلَّمَ عِنْدَهُ أَنْصَتُوا لَهُ حَتَّىٰ يَفْرُغَ، حَدِيثُهُمْ عِنْدَهُ حَدِيثُ أَوَّلِهِمْ**»، لا يحاولُ واحدٌ منهم أن يسبقَ أخاه ويبادرَه ليُمسِكَ بزِمام الكلام، ولا يسرقُ أحدُهم الجملةَ من فمِ أخيه ليكون هو المبادِرَ، بل إذا تكلَّم واحدٌ منهم فالبقيَّةُ يستمعون، فإذا فَرغَ تكلَّمَ الثاني دون منازَعةٍ، فمَن ابتدأ الحديثَ فهو صاحبُ الحقِّ في الكلام حتىٰ يُنهيَ حديثَه.

ما أحوجَنا في مجالسنا لمثل هذا الأدب؛ لتكون خاليةً من الصَّخَبِ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٣٦٨٣٩).

واختلاطِ الأصوات وترافُعِها حتىٰ لا تكادُ تفهمُ ما يُقال؛ لأنَّ مجالسَنا لا يكادُ يتكلَّمُ فيها أحدٌ إلا ويقاطعُه آخرُ ويتكلّم، ثم في الوقت نفسِه يتكلَّم ثالثٌ ويرفعُ صوتَه فوق صوتهما، ثم ينازِعُ الكلامَ رابعٌ وهكذا، حتىٰ يصير في المجلس جَلَبَةٌ.

إنَّ الآدابَ التي وردت في وصفِ مجلس النبيِّ ﷺ هي الآدابُ التي يوصَىٰ بها اليوم في مجالس الناس ومحادثاتهم، التي تُعتبر من مكارم الأخلاق، ويُنادَىٰ بها في كثيرٍ من مجالس المروءة أن يتجمَّل الناس بها، فقد كان صحابةُ نبيِّكم ﷺ أسبقَ الناس إلىٰ التجمُّلِ بهذه الآداب وتعليمِها للأمَّة.

وقوله رضي الله عنه: «**يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ، وَيَتَعَجَّبُ مِمَّا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ**»، يريد رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُشارِكُ جُلساءَه في جَلستهم، فيَضحك مما يَضحكون منه، ويَتعجَّبُ مما يَتعجَّبون منه، كأيِّ واحدٍ من المجلس، وهذا من خُلقه العظيم وتواضُعه لأصحابه.

وقوله رضي الله عنه: «**وَيَصْبِرُ لِلْغَرِيبِ عَلَىٰ الجَفْوَةِ فِي مَنْطِقِهِ وَمَسْأَلَتِهِ، حَتَّىٰ إِنْ كَانَ أَصْحَابُهُ لَيَسْتَجْلِبُونَهُمْ**»؛ لأنَّ الغريبَ قد تحملُه الغُربة أحيانًا وعدمُ إدراكه لما يجبُ أن يكون عليه من الأدب والوقار = يحملُه ذلك علىٰ تجاوُز الحدِّ في الأدبِ المعهودِ من الصحابة رضي الله عنهم معه ﷺ، لكنه ﷺ كان يصبرُ علىٰ هذه الجَفوة، فيتحمَّلُ ما قد يَصدُرُ من هذا الغريب، ويتجاوزُ عن بعضِ العبارات والمواقف؛ تأليفًا له، وتغليبًا لمصلحةٍ أعظمَ، وقد تقدَّم بعضُ الأمثلة لذلك.

ومعنىٰ قوله رضي الله عنه: «**حَتَّىٰ إِنْ كَانَ أَصْحَابُهُ لَيَسْتَجْلِبُونَهُمْ**»: أنَّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يَستَجلِبون الغُرباءَ القادمين مِن بعيدٍ ويُوعِزون إليهم بالمجيءِ إلىٰ

رسول الله ﷺ، ويَفرحون بمَقْدَمِهم؛ لأنهم يَقدُمون ومعهم أسئلةٌ، فيستفيدون من سماعِ السؤال وما يُجيب به ﷺ، وذلك أنَّ الصحابة بلغت بهم الهيبةُ من رسول الله ﷺ أن يمتنعوا عن سؤاله ﷺ؛ إعظامًا له وتقديرًا واحترامًا، ولا يعني هذا أنهم كانوا يَسكتُون عن مسألةٍ يَحتاجُ أحدُهم أن يتعلَّمها، ولكنهم كانوا يتعلَّمون من الأحكامِ من سؤال الأعرابِ والغُرَباءِ ما لا تَقوىٰ نفوسُهم علىٰ المبادرة بالسؤال عنه، فإنهم كانوا يُحِبّون أن يَجلسوا معه ﷺ الساعاتِ الطِّوال، ولكنَّ أدبَهم معه ﷺ وتوقيرَهم له كان يمنعهم من الإكثار عليه، فيَفرحون بالقادم إذا قَدِم؛ لأنه يبادرُ بالسؤال، وربما استَفصَل، فيستمتعون بحديث النبيِّ ﷺ، ويستفيدون مما يَذكرُ من العِلم والأحكام.

وفي ذلك يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان يُعْجِبُنا أنْ يَجِيء الرجُلُ مِنْ أهلِ البَادِيَةِ العَاقِلُ، فيَسْأَله ﷺ، ونحنُ نَسْمَعُ»(١)، ومن أمثلةِ فَرِحِهم بإجابته ﷺ للسائلِ ما رواه أنس رضي الله عنه أنَّ رجلًا سَأل النَّبيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَال: مَتَىٰ السَّاعَةُ؟ قال ﷺ: «**وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**»، قَالَ: لا شَيءَ، إلا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ ورَسُولَه ﷺ، فَقَالَ: «**أَنْتَ مَعْ مَنْ أَحْبَبْتَ**»، قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بشَيءٍ، فَرَحَنا بقَولِ النَّبيِّ ﷺ: «**أَنْتَ مَعْ مَنْ أَحْبَبْتَ**»، قال أنسٌ: «فأنا أُحِبُّ النَّبيَّ ﷺ وأَبَا بَكْرٍ وعُمَرَ، وأَرْجُو أنْ أَكُونَ مَعَهُم بحُبِّي إيَّاهُم، وإنْ لَمْ أَعْمَل بمِثْلِ أعْمَالِهِم»(٢).

ونحن اليوم ـ والله ـ نحبُّ رسولَ الله ﷺ ونحبُّ أبا بكرٍ ونحبُّ عمر رضي الله عنهما،

---

(١) أخرجه مسلم (١٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٨٨) واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٩).

ونرجو أن نَبلُغَ بحُبِّهم ما لم يَبلُغه عَملُنا، ونرجو أن نَبلُغ بصادق السَّير علىٰ منهجهم ما لم تَبلُغه حسناتُنا.

وقوله رضي الله عنه: **ويقول: «إِذَا رَأَيْتُمْ طَالِبَ حَاجَةٍ يِطْلُبُهَا فَأَرْفِدُوهُ»**؛ أي: كان النبيُّ ﷺ يقول: «**إِذَا رَأَيْتُمْ طَالِبَ حَاجَةٍ يِطْلُبُهَا فَأَرْفِدُوهُ**»، والرِّفدُ هو العونُ والمساعَدةُ، وفي روايةٍ: «**فَأَرْشِدُوْه**»(١)؛ أي: دُلُّوه علىٰ ما يَقضي به حاجتَه، وما يَصِلُ به إلىٰ تحقيق سُؤلِه ومُبتغاه، وهذا الحديثُ في هذه الجُملة لا يَصِحُّ سَندًا عند المحدِّثين، ولكن في نصوص السُّنَّة شواهدُ أُخر لهذا المعنىٰ في عموم إعانةِ المحتاجِ وإغاثةِ المكروبِ ووقوفِ المسلمِ مع أخيه المسلم، منها قولُ أبي موسىٰ الأشعريِّ رضي الله عنه: كان النبيُّ ﷺ إذ جاء رجلٌ يَسألُ أو طالبُ حاجةٍ أقبلَ علينا بوجهه فقال: «**اشْفَعُوا فَلتُؤْجَرُوا، وَلْيَقْضِ اللهُ عَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّه مَا شَاءَ**»(٢)، ومنها أيضًا قوله ﷺ: «**مَنْ نفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبةً مِنْ كُرَبِ الدُّنيا نفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبةً مِنْ كُرَبِ يوم القِيَامَةِ، ومَنْ يَسَّرَ عَلَىٰ مُعْسِرٍ يَسَّرَ الله عَلَيهِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، ومَنْ سَترَ مُسْلِمًا سَترَه الله في الدُّنْيا والآخِرَةِ، والله في عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ**»(٣).

فالمبادرةُ إلىٰ إعانة المكروب والمحتاج قبل أن يَطرُقَ البابَ وقبل أن يَسأل هو حقٌّ من حقوق المسلم، فمِن حَقّه علينا أن يَحفظَ ماءَ وَجهِه من الذِّلّة

---

(١) عند الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١٥٥، رقم: ٤١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢٦)، ومسلم (٢٦٢٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

والسؤال، لذلك أَمَرنا الشرعُ بالسعيِ والتحرُّك نحوَه وإغاثتِه لتفريجِ كُربته.

فإذا كان هذا حقُّ مسلمٍ فردٍ علىٰ الأمَّة؛ فما بالُكم بحقِّ بلدٍ مسلمٍ بأكمله يكونُ مكروبًا أو محتاجًا أو مظلومًا أو مُضطهدًا؟ فذلك أوجبُ وآكَدُ، والأمانةُ في حقِّه أعظمُ، وتَبوءُ الأمَّةُ بالإثم عندما تَتَقاصرُ عن هذا الدَّور، وتَعجزُ أن تمُدَّ يدَها بإعانةٍ وتفريجَ كُربةٍ وإغاثةِ ملهوفٍ في البُلدان التي يَئِنُّ فيها المسلمون، كفلسطين أو الشام أو العراق أو في كثيرٍ غيرها من بلاد الإسلام، فإن عَجَزْنا عن مَدِّ يَدِ العَون فلا نَعجزُ عن الدعاءِ لهم، فإنَّ «**أَعْجَزَ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ الدُّعَاءِ**»(١) كما قال نبيُّنا ﷺ.

وقوله رضي الله عنه: «**وَلا يَقْبَلُ الثَّنَاءَ إلا مِنْ مُكَافِئٍ**»، يقصدُ بذلك أنَّ نبيَّنا ﷺ كان لا يقبلُ مَدحَ المادحين، وهو أحقُّ مَن مُدِحَ علىٰ وجهِ الأرض علىٰ الإطلاق، ومع ذلك كان لا يَقبلُ مَدحًا ولا يرضَىٰ بذلك؛ تواضُعًا وإخباتًا لله عز وجل، كان ﷺ لا يرضىٰ أن يُذكر بمدحٍ صريحٍ، ولذلك لما قال وفدُ بني عامرٍ لرسولِ الله ﷺ: أنت سيِّدُنا، قال ﷺ: «**السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ**»، فقالوا: وأفضلُنا فَضلًا وأعظَمُنا طَولًا، فقال ﷺ: «**قُولُوا بقَولِكم أو بَعْضِ قُولِكم، ولا يَسْتَجْرِيَنَّكُم الشَّيطانُ**»(٢)، يقصدُ ﷺ النهيَ عن التمادي في المدح الذي يُفضي إلىٰ الغُلوِّ في حقِّه ﷺ، وكان يقول: «**إذَا رَأَيتُم المَدَّاحِينَ فاحْثُوا في وُجُوهِهم التُّرَابَ**»(٣)، ولما سمعَ رجُلًا يمدحُ

---

(١) أخرجه ابن حبان (٤٤٩٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٠١).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٥٢٩، ١٣٥٣٠)، وأبو داود (٤٨٠٦).

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠٢).

صاحبَه بعبارةٍ استرسَل في إطلاقها، قال له: «**وَيلَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِك**»(١)، يقصدُ أنَّ مبالغةَ المرء في مدح أخيه المسلم تُورِثُ العُجبَ في قلب أخيه، والعُجبُ إذا دخلَ القلبَ أفسَدَه.

فكان النبيُّ ﷺ لا يقبلُ الثناءَ إلا من مُكافئٍ؛ أي: لا يقبل الثناءَ بحضرته إلا مَقولةَ مَن يقتصدُ في العبارة ويتوسَّطُ فيها، ويَذكرُ ما يستدعيه المقامُ، فإذا تجاوزَ ذلك أوقفَه ﷺ، فرَحِم الله مسلمًا طبَّق هذه السُّنَّة، فإذا سمِع مدحَ المادِح وثناءَه عليه استوقفه، وأبىٰ أن يسترسِلَ معه، فضلًا عن أنْ يرضاه أو يفرحَ به، وقد كان الرجلُ من أصحاب النبيِّ ﷺ إذا زُكِّي قال: «اللهمَّ لا تُؤَاخِذْني بمَا يقولون، واغْفِر لي ما لا يَعْلَمُون»(٢)، يقصدُ أنه في رُتبةٍ أقلَّ مما ظنَها المادِحُ، وأنَّ الله سَتَر عليه وأخفىٰ من عُيوبه ما جَعلَ المادِحَ يمدحُه.

وقوله رضي الله عنه: «**وَلا يَقْطَعُ عَلَىٰ أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّىٰ يَجُوزَ فَيَقْطَعُهُ بِنَهْيٍ أَوْ قِيَامٍ**»؛ أي: كان ﷺ لا يقطعُ حديثَ المتكلِّم حتىٰ يُجاوِزَ المتكلِّمُ كلامَه بأن يَفرغَ وينتهيَ من تعبيره عمَّا أراد من الحاجة أو السؤال، وقوله: «**فَيَقْطَعُهُ بِنَهْيٍ أَوْ قِيَامٍ**»؛ أي: يقطعُ ﷺ حديثَ المتحدِّثِ بالنهي عن الاسترسالِ في الكلام، كما تقدَّم إذا تجاوزَ في المدحِ والإطراءِ، أو يقومُ ﷺ من المجلس، فيكون هذا مُؤْذِنًا بإنهائه حديثَ المتحدِّث.

فهذا حديثُ هندِ بنِ أبي هالة رضي الله عنه موصولًا به حديثُ الحسنِ والحسينِ عن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٦١)، وصححه الألباني.

أبيهما عليٍّ رضي الله عنهم، فيه جُمَلٌ عظيمةٌ متعدِّدةٌ في وَصف أنحاءٍ متفرِّقةٍ من هَديِ نبيِّكم ﷺ، كان القدرُ الأكبرُ منها متعلِّقًا بهيئته وخِلقته ﷺ وهديِه في مجلسه مع أصحابه.

* **لفتة إيمانية:**

■ **في قول الحسن** رضي الله عنه: «**سَأَلْتُ خَالِي هِنْدُ بْنُ أَبِي هَالَةَ ـ وَكَانَ وَصَّافًا ـ عَنْ حِلْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَا أَشْتَهِي أَنْ يَصِفَ لِي مِنْهَا شَيْئًا أَتَعَلَّقُ بِهِ**»، تأمَّل قولَ الحسن: «**وَأَنَا أَشْتَهِي أَنْ يَصِفَ لِي مِنْهَا شَيْئًا أَتَعَلَّقُ بِهِ**»، واسأل نفسك: هل اشتهيتَ يومًا معرفةَ وَصْفِ النبيِّ ﷺ حُبًّا وشوقًا إليه؟ ألا يشتهي أحدُنا ـ وقد حُرِمنا رؤيةَ النبيِّ ﷺ وصُحبتَه ـ أن يتمتَّعَ بجُمَلٍ تَصِفُه ﷺ كأنَّنا نراه؟ فإن كُنَّا قد حُرِمنا رُؤيتَه ولم تكتحل عيونُنا بالنظر إلىٰ جَمالِه وكماله؛ أفلا تشتهي قلوبُنا أن تَسمَعَ كلامًا يحكي لنا وَصفَ هيئتِه وأخلاقِه ﷺ؟ فالـمُحِبُّ لرسول الله ﷺ لا بُدَّ أن يكون كذلك، لا بُدَّ أن يكون أحَبَّ ما عليه وأشهَىٰ ما لديه أن تمتلئ مجالسُه بمعرفةِ أخبار النبيِّ ﷺ، فهذا الحَسنُ ـ وهو حفيدُ النبيِّ ﷺ، وأدرك طَرفًا من صُحبته، وشيئًا من العيش معه ﷺ ولو سِنينَ يسيرةً من طفولته ـ يقول: «**وَأَنَا أَشْتَهِي أَنْ يَصِفَ لِي مِنْهَا شَيْئًا أَتَعَلَّقُ بِهِ**»، فينبغي أن تتحرَّك قلوبُنا بهذه الشَّهوة؛ حُبًّا لرسول الله ﷺ؛ لنزدادَ إيمانًا به، واتِّباعًا له، وعنايةً بسُنَّته، وتمسُّكًا بهديه، والتفاتًا إلىٰ سيرته، وعنايةً بأخباره ﷺ.

فعندما تتعلَّقُ القلوبُ بالحبِّ الصادق لرسول الله ﷺ لا يبقَىٰ فيها مساحةٌ للحبِّ الزائفِ، ولن ينجحَ الشيطانُ في زرعِ محبوباتٍ زائفةٍ تتعلَّقُ بها القلوبُ، فتضيعُ معها الأعمارُ، فما أضاعَ أعمارَ العُشَّاقِ إلا فَراغُ قلوبهم من هذا الحُبِّ

الشريفِ الجليلِ للنبيِّ ﷺ، فإلىٰ كلِّ الشباب والشِّيب، وكلِّ الرجالِ والنساءِ، عليكم أن تعمُروا قلوبَكم بحُبِّ رسولِ الله ﷺ، وسيَبقىٰ فيها مساحةٌ واسعةٌ لحُبِّ مَن تشاؤون بعدُ، إن كان هذا الحُبُّ موافقًا لما يحبُّه الله ورسوله ﷺ، فالقلوبُ التي تُعمَر بحُبِّ رسولِ الله ﷺ هي أطهرُ القلوب وأجلُّها وأعظمُها وأصفاها وأنقاها، وإذا امتلأت القلوبُ حُبًّا لرسول الله ﷺ فإنَّ النفوسَ والعقولَ ستتحرَّكُ بحثًا عن أخباره وأحكامه وآدابه ودِينه الذي جاء به، وستجدُ القلوب دافعًا ومنطلقًا قويًّا للسير علىٰ سنَّته والتمسُّك بها.

■**وفي قول هند** رضي الله عنه: «**خَمْصَانُ الأَخْمَصَيْنِ**»، تقدَّم أنَّ المقصودَ هو أنَّ باطنَ قدميه ﷺ شديدُ البُعدِ عن الأرض، فكيف رَصدَ الصحابةُ رضي الله عنهم هذا الوصفَ الذي ليس هو بالهيئةِ الظاهرةِ كالوجهِ والعينين؟

صحيحٌ أنَّ هندَ بنَ أبي هالةَ كان وصَّافًا ودقيقَ النظر والملاحظة، ولكن ما الذي حَمله علىٰ تدقيق النظر إلىٰ أجزاءِ جسدِ النبيِّ ﷺ وحَركاته إلىٰ هذا الحدِّ، حتىٰ رَصدَ تفاصيلَ في غاية الدِّقَّة، كالانفراج في باطنِ قدَمِ النبيِّ ﷺ؟

الدافعُ إلىٰ هذا هو حُبٌّ عظيمٌ لرسول الله ﷺ ملأَ تلك القلوبَ، وشِدَّةُ تعلُّقِهم به ﷺ، وهذا الحُبُّ الصادقُ جعل القومَ رضي الله عنهم يَحكُون لنا هذا الوصفَ الدقيقَ له ﷺ، وأقلُّ ما يمكننا نحن فِعلُه هو أن يحمِلَنا حُبُّنا له ﷺ علىٰ تتبُّع هذا الوصف الذي نَقَله لنا الصحابة رضي الله عنهم، والعنايةِ به؛ حتىٰ يزيدَ حبُّنا له ﷺ، فيكون أحبَّ البشرِ إلينا جمالًا وجَلالًا وهيبةً، حتىٰ تَتهاوَىٰ كلُّ صُوَرِ الجَمال أمامَ جَماله ﷺ، ويصيرَ رسولُ الله ﷺ أحبَّ إلينا من أنفُسِنا.

■**وفي قول هند** رضي الله عنه: «**كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ مُتَوَاصِلَ الأَحْزَانِ، دَائِمَ الفِكْرَةِ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ**»، هذا الحُزنُ الذي ملأَ قلبَ حبيبِكم ﷺ، والهمُّ الذي كان يَغشىٰ قلبَه ﷺ، إلىٰ الحدِّ الذي جعل الناظرَ إليه يراه متواصِلَ الأحزان = ما هو إلا همُّ هذا الدِّين، الذي عاشَ حياتَه كلَّها لأجل الدعوةِ إليه وتبليغِ رسالته، حتىٰ يَصِلَ إلينا وإلىٰ الناس كافَّةً.

فقد حملَ نبيُّنا ﷺ همَّ أمَّته في الدنيا وفي الآخرة، أما في الدُّنيا: فقد كان يبذُلُ كلَّ ما وَسِعَه من أجل أمَّته، فبَذلَ وقتَه، وجهدَه، ومالَه، وراحةَ بدنه، وكلَّ ما يتعلَّقُ بشَخصه = من أجل ألَّا تُلقِيَ أمَّتُه بنَفْسها إلىٰ التَّهلُكة، ومن أجل أن يَحجُزَها عن النار، ويقودَها إلىٰ جنَّةٍ عَرْضُها كعرضِ السماواتِ والأرضِ.

وأمَّا في الآخرة: فإنه لا يزالُ ﷺ حامِلَ همِّ أمَّته إلىٰ يوم القيامة، وهو يقول: «**أُمَّتي أُمَّتي**»، كما في حديث الشفاعة المشهور(١)، حين تكونُ الخلائقُ في موقف الفَزَع، وحين يقولُ الأنبياءُ عليهم السلام: «نَفْسِي نَفْسِي».

كان النبيُّ ﷺ يَقسِمُ وقتَه بين نَفسِه وأهلِه وأمَّتِه، لكنه مع ذلك ما كان يدَّخِرُ وُسعًا في شيءٍ يتعلَّقُ بهدايةِ أمَّتِه، وتبليغِها دينَ الله ﷻ، لذا ينبغي لكلِّ مسلمٍ عَرفَ ذلك أن يُحرِّك في قلبه كلَّ مَشاعرِ الوفاءِ لنبيِّنا ﷺ، الذي بَذَل كلَّ ما يَملِكُ من أجل أمَّته، وارتَضَىٰ لنفسه أن يعيشَ حياتَه في الدنيا دائمَ الفِكرة، متواصلَ الأحزان، عظيمَ الهمِّ، فأقلُّ منازِلِ الوفاء للمُحِبِّين الصادقين لنبيِّهم ﷺ هو حبٌّ صادقٌ تمتلئُ به قلوبُهم، وكثرةُ صلاةٍ وسلامٍ عليه تَلهَجُ به ألسنتُهم،

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣).

واتِّباعٌ له وتمسُّكٌ بسُنَّته ﷺ، وكلُّ ذلك متوقِّفٌ علىٰ تعرُّف سيرتِه وأخبارِه، وعلىٰ دراسةِ شمائلِه وأحوالِه، وعلىٰ معرفةِ سُنَّته وأقوالِه وأفعالِه.

■**وفي قول هند** رضي الله عنه: «**دَمِثٌ، لَيْسَ بِالجَافِي وَلا المُهِينِ**»، هذا الخُلُق الرفيع الذي كان عليه رسولُنا ﷺ قد ورَّثه لأصحابه رضي الله عنهم، ومن ذلك أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه حين تولَّىٰ الخلافةَ كان الشأنُ الذي يؤرِّقُه أن يتفقَّدَ أحوالَ الرَّعيَّة، فكان يمُرُّ بين البيوت ليَجِدَ امرأةً فقيرةً فيُحسِنُ إليها، وأخرىٰ محتاجةً فيساعدُها، وثالثةً عمياءَ في طَرَف المدينة كان يتعاهدُها من الليل، فيستقي لها ويقوم بأمرها(١)، ثم ينصرفُ عنها وهي لا تدري أنه أميرُ المؤمنين وخليفةُ رسولِ الله ﷺ، فقد تعلَّم أبو بكرٍ رضي الله عنه مثلَ هذا المبدأ الكبير في الحياةِ من رسول الله ﷺ.

وعمرُ رضي الله عنه تعلَّم هذا المبدأ أيضًا من رسول الله ﷺ، فكان في خلافته يتفقَّدُ بيوتَ المسلمين وأحوالَهم، فعن أَسلمَ مولىٰ عمر رضي الله عنه قال: خرجْنا مع عمر بن الخطَّاب إلىٰ حَرَّة واقِمٍ، فإذا نارٌ، فقال: يا أَسلمُ، إني لأرىٰ ههنا رَكبًا قصَرَ بهم الليلُ والبردُ، انطلِق بنا، فخرجْنا نُهرِول حتىٰ دَنَوْنا منهم، فإذا بامرأةٍ معها صبيانٌ صغارٌ وقِدرٌ منصوبةٌ علىٰ نارٍ، فقال عمرُ: السلام عليكم، فقالت: وعليك السلام، فقال: ما بالُكم؟ قالت: قَصَرَ بنا الليلُ والبَردُ، قال: فما بالُ هؤلاء الصِّبيةِ يتَضَاغَوْن؟ قالت: الجوعُ، قال: فأيُّ شيءٍ في هذه القِدر؟ قالت: ما أُسكِتُهم به حتىٰ يناموا، واللهُ بيننا وبين عُمر، فقال: وما يُدري عمرَ بِكم؟ قالت: يتولَّىٰ عمرُ أمرنا ثم يَغفلُ عنَّا؟ قال: فأقبلَ عليَّ فقال: انطلِق بنا، فخرجْنا نُهرولُ حتىٰ أتينا

---

(١) أخرج هذه القصة ابن عساكر في تاريخه دمشق (٣٠/ ٣٢٢).

دارَ الدَّقيق، فأخرَجَ عِدلًا من دقيقٍ وكُبَّةً من شَحْمٍ، فقال: احمِلْه عليَّ، فقلتُ: أنا أحمِلُه عنك، قال: أنتَ تحملُ عنِّي وزري يوم القيامة؟ فحملتُه عليه، فانطلَقَ، وانطلقتُ معه إليها نُهرول، فألقَىٰ ذلك عندها، وأخرجَ من الدقيق شيئًا، فجعل يقول لها: ذُرِّي عليَّ، وأنا أُحرِّك لك، وجعلَ ينفُخُ تحت القِدر، فأتَتْه بصَحْفةٍ فأفرَغَها فيها، ثم جعلَ يقولُ لها: أطعِميهم، فلم يَزل حتىٰ شَبِعوا، ورَأَىٰ الصِّبْيَةَ يَصْطَرِعون ويَضحكون، ثم ناموا وهدؤوا، فقامَ وهو يحمَدُ الله(١).

فحرِيٌّ بنا ونحنُ نقرأُ في شمائلِ المصطفىٰ ﷺ أن نتعلَّمَ مِثلَ هذا المبدأ، وأن نبذُلَ من أوقاتِنا وجُهدِنا للناس، وتَتَّسِعَ لهم صُدورُنا، فعلىٰ كَثرة الشُّغلِ الذي كان يَشغَلُ النبيَّ ﷺ ما لو وُزِّعَ علينا جميعًا لكفانا وملأَ أوقاتنا؛ لم يرد عنه قطُّ أنه أتىٰ إليه أحدٌ في حاجةٍ، فردَّه واعتذَرَ بأنه مشغولٌ، لكنه ﷺ كان يُعلِّمُ أمَّتَه أنه مَن عاشَ لأُمَّتِه فعليه أن يحيا كبيرَ النفسِ، عظيمَ الخُلُق، واسعَ الصَّدرِ، وسيجِدُ في وقته مُتَّسَعًا وبركةً وعونًا من الله جلَّ جلالُه؛ لأنَّ الله في عَونِ العبدِ ما كان العبدُ في عَونِ أخيه.

■ **وفي قول الحسن رضي الله عنه: «فَكَتَمْتُهَا الحُسَينَ زَمَانًا، ثُمَّ حَدَّثْتُهُ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ، فَسَأَلَهُ عَمَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ»**، تأمَّل قولَه رضي الله عنه: **«فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ»**، فهذان حَفِيدا رسولِ الله ﷺ، وقد اكتحلَتْ أعينُهما برؤيته ولو كانا صغيرين، يتسابقان إلىٰ مَن أدركَ رسولَ الله ﷺ وكان ذا معرفةٍ دقيقةٍ بوَصفِه، فيسألانه عن

---

(١) أخرج هذه القصة الإمام أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٢٩٠)، والطبري في تاريخه (٤/ ٢٠٦).

وصفه؛ ليملآ قلبَيهما بحُبِّه ﷺ، ويرسُما في أذهانِهما صورةً متكاملةً له ﷺ؛ عن هيئته، وأخلاقه، وتعامُله، وكلامه، ومدخله، ومخرجه، أفَلسنا أَوْلىٰ منهما بهذا السؤال والتحرِّي والحرص والبحث والتنقيب والتفتيش عن أوصافه ﷺ وجماله؟ هل سَبقَ لأحدنا أن فَتَّش وسألَ ونقَّبَ وبحثَ عن خِلقتِه وهيئتِه وجميلِ وَصفِه وأخلاقِه وطباعِه ﷺ؟ وهل حَملَ أحدُنا نفسَه علىٰ ألا تنقضيَ حياتُه وألا تزول أيّامُه إلا وقد استمتعَ بمعرفة جَمالِ وكمالِ أخلاق النبيِّ ﷺ وخِلقته؟ فإذا كان الصحابةُ رضي الله عنهم ـ وهم من تشرَّفَ بصُحبته ﷺ، واكتحلَتْ أعينُهم برؤيته، وعاشوا معه ـ بهذا الحرص علىٰ معرفة أوصاف النبيّ ﷺ، أفلسنا نحنُ بحاجةٍ أشدَّ وأعظمَ إلىٰ ذلك؟ ونحنُ لم نَعِشْ معه لحظةً، ولا رأينا منه شيئًا، أفلَسْنا بأَوْلىٰ أن نُجهِدَ أنفسَنا بمعرفةِ ذلك ليزدادَ إيمانُنا ومحبتنا له؟

■ **قول الحسن رضي الله عنه: «وَوَجَدْتُهُ قَدْ سَأَلَ أَبَاه عَنْ مَدْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ وَشَكْلِهِ فَلَمْ يَدَعْ مِنْهُ شَيْئًا»**، يدلُّ هذا السؤالُ من الحسن رضي الله عنه علىٰ تعطُّشِه إلىٰ معرفةِ أوصافِ النبيِّ ﷺ؛ إذ لم يَكتَفِ بما وصفه له خالُه هندٌ رضي الله عنه، حتىٰ سألَ أباه عليًّا رضي الله عنه عن مَدخَلِ رسول ﷺ ومجلسِه ومخرجِه وشكلِه، فلم يَدَعْ منهُ شيئًا، معَ أنه حفيدُ النبيِّ ﷺ، وقد عاش معه، وهو علىٰ معرفةٍ به وبأوصافه، ولكنه أرادَ أن يكونَ أكثرَ قُربًا من رسول الله ﷺ، وأكثرَ معرفةً بأخباره، وأكثرَ اطِّلاعًا علىٰ أحواله، وأرادَ أن يبحثَ عن طريقٍ يسلُكه ليزدادَ به حُبًّا للنبيِّ ﷺ. ثم تجد اليومَ في مُقابل ذلك قصورًا عند بعض المسلمين في السعيِ إلىٰ تحصيلِ مِثلِ ذلك، فلستَ تجدُ عندهم ذلك الدافعَ الذي ينطلِقُ فيه العبدُ تُجاهَ ما يعلِّقه برسول الله ﷺ حُبًّا وشوقًا إليه.

فانظُر إلىٰ حِرص الصحابة ﷺ علىٰ معرفة كلِّ ما يتعلَّقُ بالنبيِّ ﷺ، الذي اتَّخذوه أسوةً وقُدوةً في حياتهم، ولم يكونوا يُظهِرون محبَّتَه بالقول فقط، بل كانت مَحبَّتُهم له تَظهرُ في أقوالِهم وأفعالهم، وكانوا يسألون عن أفعال النبيِّ ﷺ لا لمجرَّد معرفتها، بل ليقتدوا به فيها.

فهذه المكانةُ العاليةُ التي نالها الصحابة ﷺ ليس سببُها مجرَّدَ نقلِهم سُنَّةَ النبيِّ ﷺ، بل تطبيقهم إيَّاها أيضًا، فحريٌّ بنا أن نتعلَّم منهم كيف يجب أن يكون موقفُ المسلمِ من سيرة رسول الله ﷺ، وكيف يتعامل مع شمائله ﷺ، فالطريقُ الذي رسمه الصحابةُ ﷺ في التعامُل مع سُنَّةِ النبيِّ ﷺ وشمائله هو المنهجُ المشرقُ الذي ينبغي للمسلم اتِّباعُه.

■وفي قول عليٍّ ﷺ: «**كَانَ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ جَزَّأَ دُخُولَهُ ثَلاثَةَ أَجْزَاءٍ: جُزْءًا لله، وَجُزْءًا لأَهْلِهِ، وَجُزْءًا لِنَفْسِهِ، ثُمَّ جَزَّأَ جُزْأَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَيَرُدُّ ذَلِكَ بِالخَاصَّةِ عَلَىٰ العَامَّةِ، وَلا يَدَّخِرُ عَنْهُمْ شَيْئًا**»، هذا الوقت الذي ذكر عليٌّ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يَقسِمُه ثلاثًا هو الوقت المتبقِّي من يومه، ولا يدخل فيه الوقتُ الذي كان يَخرجُ فيه إلىٰ المسجد للصلوات الخمس ولتعليم الناس ولشهود الجنائز، ولا يدخل فيه الوقتُ الذي كان يقضي فيه بين الناس، ولا يدخل فيه الوقت الذي كان يجهِّزُ فيه الجيوشَ في المسجد، وهذا الوقتُ كان يمكن للنبيِّ ﷺ أن يجعله خالصًا لنفسه وأهله، ويُريحَ فيه بدنَه، إلا أنَّه قَسمه ثلاثةَ أقسام، ثم قسمَ الجُزءَ الذي جعله لنفسه بينه وبين الناس ممَّن له حاجةٌ ليقضِيَها له.

وبعضُنا اليوم إذا أمضىٰ نهارَه في شُغلٍ أَوَىٰ إلىٰ منزلِه، وجعلَ وقتَه كلَّه لنفسه ليُريح بدنَه، زاهِدًا تمامًا في بذلِ شيءٍ من وقته وجهده لخدمة دينه وأُمَّتِه، فأين نحنُ من رسول الله ﷺ؟

لا جَرَم هو أعظمُ البشر، وحياةُ العُظَماء لا تَخضعُ لمقاييس حياتنا المعتادة، أفلا يُوجبُ ذلك أن يكون له ﷺ حقٌّ عظيمٌ في رقابنا؟ إذ لم يدَّخِر عن أُمَّته شيئًا لنفسه، بل آثَر أُمَّتَه علىٰ نفسه فيما يملك، حتىٰ في الوقت الذي كان بحاجةٍ إليه لراحةِ بَدَنه من عَناءِ يومِه، فوالله إنَّ الوصفَ لَيعجِزُ عن بيانِ عظيمِ ما بذلَ النبيُّ ﷺ لأمَّته، وعظيمِ ما يجبُ علىٰ أُمَّته من الوفاء بحقِّه ﷺ، ثم نجِدُ تقصيرًا في أداء الحقوق الواجبة علينا للنبيِّ ﷺ، كالتقصيرِ الكبيرِ في الصلاة والسلام عليه، واتِّباعِ هديه وإحياءِ سُنَّته.

■**وفي قول عليٍّ** رضي الله عنه: «**الَّذِينَ يَلُونَهُ مِنَ النَّاسِ خِيَارُهُمْ**»، يذكُرُ أنَّ أقربَ الناس إلىٰ النبيِّ ﷺ هم أفضلُهم وأعظمُهم إيمانًا وأعلاهم منزلةً، وأعلاهم في ذلك أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما، فقد قال فيهما النبيُّ ﷺ: «**هَذَانِ السَّمْعُ والبَصَرُ**»(١)، وعليُّ بن أبي طالب ـ وهو مَن هو في الفضلِ والقُرب من رسول الله ﷺ ـ أشار إلىٰ ذلك، فقال: إنِّي كُنتُ كَثيرًا أَسْمَعُ النبيَّ ﷺ يقول: «**ذَهَبْتُ أنا وأبو بَكْرٍ وعُمرُ، ودَخَلْتُ أنا وأبُو بَكْرٍ وعُمرُ، وخَرَجْتُ أنا وأبُو بَكْرٍ وعُمرُ**»(٢)، وأبو بكر وعمرُ رضي الله عنهما ما كانا يفعلان ذلك بحثًا عن مناصبَ يتولَّيانها، ولا كانا يخطِّطان

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٧١)، وقال: «مرسل».

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٨٥)، ومسلم (٢٣٨٩).

لخلافةٍ يرِثانها من بعده ﷺ، وإنما وجدا في صُحبة النبيِّ ﷺ واتِّباعِه قدرًا عظيمًا من الإيمانِ والخيرِ والعِلم، فلزِمُوه ونالوا ما نالوه.

فإذا عُلم ذلك أفلا يستحقُّ الصحابةُ رضي الله عنهم أن نُكِنَّ لهم في قلوبنا حُبًّا واحترامًا وتعظيمًا؟ وأن ندافعَ عنهم، وأن نُسكِت كلَّ من حاول تنقُّصَهم؟ فقد قال النبيُّ ﷺ: «**لا تسُبُّوا أصْحَابِي؛ فلَو أنَّ أحَدَكُم أنفَقَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهبًا ما بَلغَ مُدَّ أحَدِهِم ولا نَصِيفَه**»(١)، فالواحدُ منَّا لو أنفقَ في سبيل الله ذَهبًا بمقدارِ جبلٍ عظيمٍ كجبلِ أُحُدٍ؛ ما بَلغَ في الأجرِ والمثوبةِ أجرَ صدقةِ أحدِهم بمقدارِ ملءِ كفٍّ من يَدِه.

▪**وفي قول عليٍّ** رضي الله عنه: «**مَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهُ إلا بِهَا أَوْ بِمَيْسُورٍ مِنَ القَوْلِ**»، يَذكرُ فيه تعامُلَ النبيِّ ﷺ معَ من جاءَه لحاجةٍ، فكلُّ مَن جاءه لشيءٍ من ذلك لا ينصرفُ دون أن يظفرَ بتلبيةِ حاجتِه التي سألها، فإذا لم يجِد حاجتَه عند النبيِّ ﷺ لقِيَ منه كلمةً طيبةً، كالرجُل الذي جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أريدُ سفرًا فزوِّدني، قال: «**زَوَّدَكَ اللهُ التَّقْوَىٰ**»، قال: زِدْني، قال: «**وَغفرَ ذَنْبَكَ**»، قال: زِدني ـ بأبي أنت وأمي ـ، قال: «**وَيسَّرَ لَكَ الخَيْرَ حَيثُمَا كنتَ**»(٢).

والذين كانوا يغشَون مجالسَ النبيِّ ﷺ ويَطرُقون بابَه ويسألونه الحوائجَ لم يكونوا سواءً، بل كانوا متفاوِتين وعلىٰ درجاتٍ شتَّىٰ، لكنهم جميعًا متَّفقون علىٰ أنهم لم يجدوا من النبيِّ ﷺ نُفرةً ولا انزعاجًا ولا إعراضًا، بل كان يُكرِمُهم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٤٤)، وقال: «حسن غريب».

ويجودُ عليهم بما يملك، فقد «**كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ**»(١)، وكان ﷺ سَخِيًّا كثيرَ الإنفاق في سبيل الله، وكان ﷺ «**لا يدَّخِرُ شَيئًا لِغَدٍ**»(٢)، بل كان يُنفِقُه ويقول: «**لَو كَانَ لِي مِثلُ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا يَسُرُّنِي أَنْ لا يَمُرَّ عَلَيَّ ثَلاثٌ وعِنْدِي مِنْه شَيءٌ، إلا شَيْءٌ أَرْصُدُه لِدَيْنٍ**»(٣).

عندما تحملُ هذه النظرةَ مع المحتاجين ستجدُ نفسَك غيرَ قادرٍ علىٰ ردِّ أحدٍ؛ لأنه لا أقلَّ من أن تقابِلَهم بكلامٍ لطيفٍ، فهو لا يكلِّفك شيئًا؛ لا دِرهمًا ولا دينارًا، فإذا جاءَك صاحبُ حاجةٍ ولم تجِد ما تُلبِّي به حاجتَه؛ فلا تبخلْ عليه بعبارةٍ لطيفةٍ، وبدعوةٍ صادقةٍ، كأن تقول له: غفر الله لي ولك، أو يسَّرَ الله أمري وأمرَك، أو فرَّج الله عنك كُربتَك.

إنَّ العبارةَ اللطيفةَ التي نَصرفُ بها السائلَ نمطٌ رفيعٌ في التعامُل مع الخَلق، نحتاجُ كلُّنا إليه؛ لأنَّا قد تسرَّب إلىٰ قلوبنا شيءٌ من الجَفاء في التعامُل مع الناس، وربما يَنزعِج بعضُنا مِن سؤالِ المحتاجين وتَردادِهم وإلحاحِهم، وربما نجِدُ من بعضهم إغلاظًا في العبارة أو إساءةً في الأدب أو تجاوزًا في الحدِّ إذا اعتذَرنا إليه؛ لأنه يرىٰ أنَّا قد منعناه حقًّا من حقوقه، وفي كل ذلك يَنبغي أن نُوطِّنَ أنفسَنا علىٰ حُسن التعامُل، وألَّا نقابِلَهم بقَسوةٍ وجَفاءٍ؛ لأنهم إخوةٌ لنا، ولنا الشرفُ في أن

---

(١) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٦٢)، من حديث أنس رضي الله عنه، وقال: «غريب».

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٨٩)، ومسلم (٩٩١).

ننتهِجَ في التعامُل معهم نَهجَ النبيِّ ﷺ، الذي وَطَّنَ نفسَه على الكرمِ والبذلِ والعطاءِ لصاحب الحاجة، فإن لم يجِد فبِمَيسورِ القول، فالله ﷻ يقول: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [الضحى: ١٠].

عندما يأتيك السائلُ ويمُدُّ يدَه مُحتاجًا، فتذكَّر نعمةَ الله عليك أن لم يَجعلك محتاجًا سائلاً تمدُّ يدَك إلى الناس مثلَ هذا السائل، ولْيَكن من حَمدك لربِّك وشُكرك على نعمته أن تَظلَّ مُعطِيًا لعباده، فإذا أعطيتَ السائلَ فاحمَد ربَّك على أنك كنت المعطي ولم تكن السائل، وهذا الشعورُ سيجعلُك تُفيضُ بالشفقة والإحسان إلى السائلين المحتاجين.

وفوقَ إعطائك السائلَ ما أنتَ في غِنًى عنه هناك مرتبةٌ أشرفُ وأسمى، وهي أن تُؤْثِرَه على نفسِك وتُعطيَه ما أنتَ بحاجةٍ إليه، كما فعل النبيُّ ﷺ حين جاءته امرأةٌ ببُردةٍ، فقالت: يا رسول الله إني نسجتُ هذه بيدي أكسُوكَها، فأخذها النبيُّ ﷺ محتاجًا إليها، فخرج إليهم وإنها إزارُه، فقال رجلٌ من القوم: يا رسول الله، اكسُنِيها، فقال: «**نعم**»، فجلس النبيُّ ﷺ في المجلس، ثم رجع، فطَواها ثم أرسلَ بها إليه، فقال له القومُ: ما أحسنتَ، سألتَه إياها، وقد علمتَ أنه لا يردُّ سائلًا، فقال الرجُل: والله ما سألتُه إلا لتكون كَفنِي يوم أموت، قال سهلٌ: فكانت كَفنَه(١).

فهل وَصلْتَ يومًا ـ عبدَ الله ـ إلى هذا الحدِّ؟ أن كنتَ محتاجًا إلى مالٍ أو طعامٍ أو لباسٍ فآثرتَ به من كان محتاجًا على نفسك؟ ألا فمَا أحرى مثلَ هذه

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٩٣).

المواقف أن ننصِبَها في حياتنا أُنموذَجًا، نُعالجُ بها نفوسَنا من الشُّحِّ والبُخل، ولو ربَّينا عليها أولادَنا لنشأوا علىٰ نمطٍ رفيعٍ من الكرمِ والبذلِ والسخاءِ، ولو تعامَلنا بها مع الناس مِن حولنا لوَجَدنا أثرَ ذلك في أهلِنا وذريّتِنا، وعندما نقفُ علىٰ مثل هذه المواقف سنعلمُ عظيمَ ما كان يعيشُه النبيُّ ﷺ في حياته، حتىٰ إنه أولىٰ من يَصدُق فيه قولُ أبي تمَّام:

تَعوَّدَ بَسْطَ الكفِّ حتَّىٰ لوَ انَّهُ ... ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لم تُجِبْه أَنامِلُهْ
تَراهُ إذا ما جِئتَه مُتهلِّلًا ... كأنَّك تُعطِيه الذي أنتَ سَائِلُهْ
ولو لم يكن في كفِّه غيرُ رُوحِهِ ... لجَادَ بها فليتَّقِ اللهَ سَائلُهْ
هُو البَحْرُ مِن أيِّ النّواحي أتيتَهُ ... فلُجَّتُهُ المعروفُ والجُودُ ساحِلُهْ

■ **وفي قول عليٍّ** رضي الله عنه: «**وَتَرَكَ النَّاسَ مِنْ ثَلاثٍ: كَانَ لا يَذُمُّ أَحَدًا وَلا يَعِيبُهُ، وَلا يَطْلُبُ عَوْرَتَهُ، وَلا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا رَجَا ثَوَابَهُ**»، هذه الأمورُ كان النبيُّ ﷺ يمتنع منها، وينهىٰ عنها، فما كان يذُمُّ أحدًا ولا يذكر عيوبَه، ولا يتتَبَّعُ سقطاتِه؛ لأنه كان لا يتكلَّمُ إلا فيما يرجو ثوابَه، حتىٰ إنه كان يُنزِّه نفسَه عن ذمِّ أصحابِ المعاصي والسَقَطات، فهذا ماعِزُ بنُ مالك الذي وقع في معصيةِ الزِّنىٰ، ثم اعترفَ وطلبَ إقامةَ الحدِّ عليه ليُطهَّر من الذنبِ، فأمرَ رسولُ الله ﷺ أن يُرجَمَ، فرُجِمَ حتىٰ مات، فمرَّ رسولُ الله ﷺ بعد ذلك معه نفرٌ من أصحابه، فقال رجلٌ منهم لصاحبه: إنَّ هذا لهو الخائبُ؛ أتىٰ النبيَّ ﷺ مرارًا، كلُّ ذلك يرُدُّه حتىٰ قُتِل كما يُقتَل الكلبُ، فسكت عنهما النبيُّ ﷺ حتىٰ مَرَّ بجيفةِ حمارٍ شائلةٍ رِجلُها، فقال: «**كُلَا مِنْ هَذَا**»، قالا: مِنْ جِيفةِ حِمَارٍ يَا رَسُولَ الله! قَالَ: «**فَالَّذِي نِلْتُمَا مِنْ**

عِرضِ أَخِيْكُمَا أَكْثَرُ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ ﷺ بِيَدِهِ إِنَّه لَفِي نَهْرٍ مِنْ أَنْهَارِ الجَنَّةِ يَتَقَمَّصُ»[١]، فنَهىٰ عن تعييره وذمِّه.

وهذا كعبُ بن الأشرف اليهوديُّ الذي تمادَت إساءاتُه إلىٰ الإسلام وإلىٰ رسول الله ﷺ وإلىٰ المسلمين من أصحابه رضي الله عنهم، وأطلقَ لِسانَه في نساء الصحابة، فكان يُشبِّبُ بهنَّ ويُعرِّضُ بهنَّ في قصائده بالقبيح والفُحش، ووصَلَ به الأمرُ إلىٰ أن يُحرِّش قريشًا علىٰ قتال النبيِّ ﷺ، ومع ذلك حين أرادَ نبيُّنا ﷺ أن يُفصِح عن فعل ذلك اليهوديِّ لم يزِد علىٰ أن قال: «مَنْ لِكَعْبِ بنِ الأَشْرَفِ؟ فَإِنَّه قَدْ آذَىٰ اللهَ ورَسُولَه»[٢]، واختَصرَ بهذه الكلمة كلَّ تلك الصفحاتِ المملوءةِ خُبثًا وأذيَّةً وإساءةً، فإذا كان الكلامُ بهذا النحو في كعب بن الأشرف الذي بلغ قِمَّة الإساءة لرسول الله ﷺ فما ظَنُّك بمن هو دونه؟

ومِثلُ كعبِ بن الأشرف في الأذىٰ والإساءة رأسُ المنافقين عبدُ الله بن أُبيٍّ ابن سَلول، فقد اجتمعَ فيه الإيذاءُ المبطَّنُ والصَّريحُ لرسول الله ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، من ذلك أنه لما حصلَ خِصامٌ بين المهاجرين والأنصار في غَزوة بني الـمُصطَلِق لما تزاحموا علىٰ الماء، فكَسَعَ رجُلٌ من المهاجرين رجُلًا من الأنصار، فقال عبد الله بنُ أُبيٍّ: قد فعلوها؟ والله لئن رَجعنا إلىٰ المدينة ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فقال عمرُ: يا رسول الله دَعني أضرِبْ عُنُقَ هذا

(١) أخرجه ابن حبان (٤٤٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥١٠)، ومسلم (١٨٠١).

المنافق، فقال ﷺ: «**دَعْهُ، لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أنَّ مُحَمَّدًا يَقتُلُ أصْحَابَه**»(١)، فالنبيُّ ﷺ لم يَلعن عبدَ الله بن أبيٍّ ولا وَصَفه بسُوءٍ، ولا أَفصحَ عن كُفرِه الـمُبطَّنِ ونِفاقِه الـمُعلَن الذي نزلت به الآياتُ، بل تَرَفَّقَ به ومنعَ الصحابةَ مِن قَتلِه.

فأيُّ مِنهاجٍ عظيمٍ يعلِّمُنا إيَّاه النبيُّ ﷺ لِنستضيءَ به ويكون لنا في دروبنا مِشعَلًا ونبراسًا ومصباحًا مضيئًا، فكم نحنُ بحاجةٍ إلىٰ أن نعالجَ كثيرًا من عَتَمَةِ القلوب بما نتعلَّمُه من إشراقةِ قلبِه ﷺ، التي نَستَقيها من شمائله العَطِرة وأخلاقِه الزكيَّة، فكم مَرِضت القلوبُ وأظلَمت وأعْتَمَت ووقعَ بعضُها في شُحٍّ وزَلَلٍ لـمَّا ابتعدَت عن هَدي النبيِّ ﷺ، فمن أرادَ أن تعودَ إليه إشراقةُ قلبه فلْيَغمِسه في نُور سيرته ﷺ، ولْيتمثَّل هديَه، ولْيَتَأَسَّ به، ولْيَقْتَدِ بصنيعه في سلامة الصَّدر وعِفَّةِ اللسان.

ولم يكن النبيُّ ﷺ يَتتَبَّعُ العوراتِ ولا يُفتِّش عن الزلَّات، بل قال ﷺ يوم النَّحر في حَجَّة الوَدَاع: «**إنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَينكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَىٰ أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَىٰ لَهُ مِنْهُ**»(٢).

■**وفي قول عليٍّ رضي الله عنه: «وَلا يَقْبَلُ الثَّنَاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِئٍ»**، يريدُ أنَّ نبيَّنا ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤). وفي تاريخ المدينة لابن شبَّة (ص٣٦٦) أن عبد الله بن أُبيٍّ قال: «والله ما مَثَلُنا ومَثَلُ محمدٍ إلا كما قال القائل: (سمِّن كلْبَك يأكُلْك)، والله لئن رجعنا إلىٰ المدينة ليُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ».

(٢) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

كان لا يرضَىٰ بالمدح المجاوِز للحدِّ، فعندما يظنُّ مسلمٌ أنَّ من تمام حُبِّه للنبيِّ ﷺ أن يُبالِغَ في مَدحِه وإطرائه حتىٰ يَبلُغَ به درجةً تَفوقُ درجةَ البَشر؛ فهذا أمرٌ مرفوضٌ، وأوَّلُ مَن رَفَضه هو نبيُّكم ﷺ كما تقدَّم، فلا يجوزُ لمسلمٍ أن يتجاوزَ وهو يتحدَّثُ عن نبيِّه ﷺ بدافع المحبَّة فتقَعَ قدمُه فيما لا يجوز شرعًا.

فمحبَّتُه ﷺ تقتَضي أن نَذكُرَ ما ثَبتَ له من الأوصافِ والخِلالِ والمنزلةِ الرفيعةِ، فهذا يحدِّث به المسلمُ كما يشاء، بل ينبغي له أن ينشُرَه بين الناس؛ لتعرِفَ الأمَّةُ نبيَّها.

وأمَّا موقفُه ﷺ حين يرفضُ مدحَ المادحين فيقول ﷺ: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»(١)، ويقول: «**لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»(٢)، وحين ينهىٰ عن تفضيلِه علىٰ غيره من الأنبياء فيقول: «**لا تُخَيِّرُونِي عَلَىٰ مُوسَىٰ**»(٣)، ويقول: «**لا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ**»(٤)، فإنَّ الذي حمله علىٰ ذلك هو تمامُ تواضُعه في ذاته، ولذلك كان يحمِلُ الأمَّةَ علىٰ ذلك، مع أنه ﷺ بلَغَ المنزلةَ التي ما بلغها مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرسَلٌ.

والنبيُّ ﷺ يعلِّمُنا بهذا مبدأً عظيمًا: كيف لأحدنا أن يعيشَ حياتَه إن كان

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٩٥)، ومسلم (٢٣٧٦).

في مرتبةٍ عظيمةٍ ومنزلةٍ رفيعةٍ، وكيف يتعاملُ مع ثناءِ الناس ومدحِهم وإطرائهم ومُبالغتهم، فإنَّ الناسَ ـ في الغالب ـ لا يُقبِلون علىٰ مَدحٍ إلا ابتغاءَ قصدٍ من المقاصد، فيتقرَّبون بذلك المديحِ رجاءَ منفعةٍ، فما كان من هذا الباب فإنه لا يخلو من تصنُّعٍ وتملُّقٍ وكذبٍ، ومن أَلِفَ مثلَ هذا المدحَ والثناءَ شَعرَ بنقصٍ عند غيابه، ولو أنَّ مَن اعتادَ مثلَ هذا المدحِ عاشَ في زمن النبيِّ ﷺ لتصاغَرت عَظَمتُه الزائفةُ بجوار عَظَمةِ المصطفىٰ ﷺ، وتَلاشَت منزلتُه الموهومةُ في حضرته ﷺ، فسيَعرفُ أيَّ قدرٍ موهومٍ كان يغشاه، وأيَّ بابٍ عظيمٍ من الزَّيفِ أتاه الشيطانُ من خلاله، فعاش في ذلك الوَهم الكبير.

***

(صحيح) **٧ـ جابرُ بن سمُرة رضي الله عنهما يقول: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ضَلِيعَ الفَمِ، أَشْكَلَ العَيْنِ، مَنْهُوسَ العَقِبِ»، قَالَ شُعْبَةُ: قُلْتُ لِسِمَاكٍ: مَا ضَلِيعُ الفَمِ؟ قَالَ: عَظِيمُ الفَمِ، قُلْتُ: مَا أَشْكَلُ العَيْنِ؟ قَالَ: طَوِيلُ شِقِّ العَيْنِ، قُلْتُ: مَا مَنْهُوسُ العَقِبِ؟ قَالَ: قَلِيلُ لَحْمِ العَقِبِ**(١).

شرح الحديث

هذا حديثٌ مصحوبٌ بمعاني الألفاظ الواردة فيه، وهو من رواية جابر ابن سمرة رضي الله عنهما، والحديثُ صحيحٌ أخرجه الإمام مسلمٌ، وفيه ثلاثةُ أوصافٍ للنبيِّ ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣٩).

فقول جابر رضي الله عنه: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ضَلِيعَ الفَمِ**»، هذا أوَّل الأوصاف الثلاثة، وقد سأل شعبةُ ـ أميرُ المؤمنين في الحديث ـ سِماكًا الراويَ الذي روىٰ عنه الحديث عن معنىٰ «**ضَلِيعَ الفَمِ**»، فقال: «عظيمُ الفَمِ»، ووصفُ فَمِه ﷺ بالعِظَم ورد في رواياتٍ متعددة، منها حديثُ هندِ بن أبي هالة رضي الله عنه المتقدِّم آنفًا، ووَصفُه ﷺ بأنه كان ضَليعَ الفَمِ فُسِّرَ بمعنيَين، كلاهما فيه حُسنٌ وجَمالٌ، أوَّلُهما: اتِّساعُ الفَمِ حقيقةً، وهو من أوصاف الجَمال، فيكونُ اتِّساعُ فمِه ﷺ متناسبًا مع عِظَم خِلقتِه في سائر جسده، كما ورد في الأحاديث المتقدِّمة أنه ﷺ كان عظيمَ الرأسِ، عظيمَ الصَّدر، ضخمَ الكَراديس، شَثْنَ الكَفَّين والقَدَمين، وتقدَّم أنَّ المقصودَ بعِظَم هذه الأجزاء من جَسده ﷺ هو عِظَمُ الجَلال المحفوفُ بالجَمال، الذي يُوقِعُ في قلب الناظرِ إليه هيبةً وإجلالًا، وأمَّا المعنىٰ الآخر في سَعَةِ الفَم فهو فَصاحةُ القول وقُوَّةُ العبارات، فعلىٰ هذا يكونُ قوله: «**ضَليعَ الفَم**» تعبيرًا مجازيًّا، وهو وصفٌ صحيحٌ، فقد أُعطيَ نبيُّنا ﷺ جوامعَ الكَلِم، فكان يجتمعُ في عباراته القليلةِ الموجَزةِ واسعُ المعاني التي لا حَدَّ لها.

وقوله رضي الله عنه: «**أشكلَ العَين**»، فسَّره سِماكٌ بأنه طويلُ شَقِّ العين، وهذا من أوصاف الجمال في العين، ومما يتغزَّلُ به الشُعراء، وذلك بأن تكون العين علىٰ سَعَتِها طويلةَ الشَّقِّ، فيكون شَقُّ العين مسحوبًا إلىٰ الطَرَف، فيزيدُ العينَ حَورًا وجمالًا يفتنُ الناظر، وهذا أحدُ مظاهر الجمال في عينَي النبيِّ ﷺ، ومن مظاهر الجمال فيها أيضًا: شِدَّةُ سَواد بُؤبُؤ العين مع شِدَّة البياض الذي يكون حوله، ومن ذلك أيضًا: طُولُ أشفارِ العينين؛ أي: الأهداب والرموش، ومن ذلك أيضًا:

ما تقدَّم في حديث هند بن أبي هالة رضي الله عنه أنه ﷺ كان: «**أزَجَّ الحواجِبِ، سَوابِغَ في غير قَرَن**»، فكانت حواجِبُه مزجَّجةً؛ أي: رَفيعةً مُقوَّسةً، من غير أن يتَّصِلَ أحدُهما بالآخر، وهذا من أجمل أوصاف العينين وما يلحق بهما.

وقوله رضي الله عنه: «**مَنْهوسَ العَقِب**»، فسَّره سِمَاكٌ بأنه: قليلُ لحمِ العَقِب، فلم يكن ﷺ موصوفًا بالسِّمَن في الجسد، والمقصود ههنا تحديدًا لَحمُ العَقِب وهو مؤخَّر القَدَم، فكان ﷺ قليل اللحم، وفي ذلك إشارة إلىٰ دِقَّةٍ في أسفل ساقيه ﷺ، وليس فيهما انتفاخٌ كما قد يُفهم من الوصف بالضخامة التي وردت في أحاديثَ متقدِّمة.

***

(صحيح) ٨ـ **وعنه** رضي الله عنه **قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ إِضْحِيَانٍ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ القَمَرِ، فَلَهُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ القَمَرِ»**(١).



شرح الحديث

هذا الحديثُ أيضًا عن جابر رضي الله عنه، ويدل علىٰ تعلُّق قلوب الصحابة رضي الله عنهم بالنبيِّ ﷺ، وشِدَّة محبَّتهم له ﷺ.

فقول جابر رضي الله عنه: «**رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ إِضْحِيَانٍ**»، المراد: ليلةٌ مُقْمِرةٌ مضيئةٌ، كليالي منتصف الشهر القمري.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨١١)، وقال: «حسن غريب».

وقوله رضي الله عنه: «**وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ**»، ليس المقصود اللونَ الأحمرَ الخالصَ، فإنه منهيٌ عنه كما تقدَّم(١)، لكن المقصود أنها حُلةٌ فيها خطوطٌ حمراء، ولما كانت بَشرةُ نبيِّنا ﷺ بيضاءَ مُشْرَبةً بالحُمرة؛ فإنه حين كان يلبس ثوبًا مُوَشًّىٰ بالأحمر يزدادُ جمالًا علىٰ جَمال.

وقوله رضي الله عنه: «**فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ القَمَرِ**»؛ أي: صار يُنقِّل نظرَه بين النبيِّ ﷺ والقمر؛ ليعلم أيَّهما أشدُّ نورًا، وأبهَىٰ جمالًا، وأتمُّ وَقعًا في القلب.

وقوله رضي الله عنه: «**فَلَهُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ القَمَرِ**»، هنا يُخبر رضي الله عنه عمَّا خلَص إليه بعد الموازنة بين حُسن نبيِّنا ﷺ وحُسن القمر، فهل قوله هذا الذي يخبر به عمَّا رآه بعينيه هو نوعٌ من المبالغة والاسترسال في العبارة والمجاملة لرسول الله ﷺ، كما يفعل الشعراء؟ كلا والله، لكنه يُخبر عن جمالٍ حقيقيٍّ باهرٍ، يُخبر عن جمالٍ تعلَّقَت به عينُه في وصف خِلقة النبيِّ ﷺ، وقد أكَّد ذلك حين وازَنَ بين جمال النبيِّ ﷺ وجمال القمر في ليلةٍ إضحيان، التي يُرىٰ فيها القمرُ أتمَّ ما يكون استدارةً وإضاءةً، وجمالًا وبهاءً، ونورًا وإشراقًا في كبدِ السماء.

*** لفتة إيمانية:**

في قول جابر رضي الله عنه: «**رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ إِضْحِيَانٍ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ القَمَرِ**»، حين رأىٰ رسولَ ﷺ في تلك الطَّلَّة البهيَّة انتقلَ بنظرِه مباشرةً إلىٰ القمر الذي كان مَضرِبَ المثَل في الجمال والإنارة، فجعل يعقدُ موازنةً بينهما، ليؤكِّد أنَّ جمالَ النبيِّ ﷺ يفوقُ كلَّ جمال، فكانت

---

(١) (ص٣٢).

نتيجة تلك الموازنة أنه قال: «**فَلَهُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ القَمَرِ**»، ولو أنَّ عينَ أحدِنا أبصرت جمالَه ﷺ لعجزَت أن تقول إلا كما قال جابرٌ رضي الله عنه، وكما قال غيرُ واحدٍ من الصحابة الذين وصفوا جمالَه ﷺ في عباراتٍ تعدَّدت ألفاظُها واتَّفقَت معانيها، من نحو: «ما رأيتُ شيئًا قطُّ أحسنَ منه»، و«لم أرَ قبلَه ولا بعدَه مِثلَه»، وغير ذلك من العبارات التي قالها الصحابة رضي الله عنهم الذين اكتحلت أعينُهم برؤية رسول الله ﷺ، فعاينَت الجمالَ الباهرَ الحقيقيَّ، ووصفوه لنا، فما أحوجَنا إلىٰ الاطِّلاع عليه لتزدادَ قلوبُنا تعلُّقًا بالنبيِّ ﷺ واقترابًا من سُنَّته، خاصَّةً في هذا الزمن الذي نعيشه؛ لنُزيلَ عن القلوب ما عَلِقَ بها من أمور الدنيا التي شغلتها عن أمور الدِّين، وأصبحنا كالتائهين، لا يكادُ أحدُنا يُدرك من صلاته إلا أداءَ أفعالها، ولا من الأذكار إلا مُجرَّد التلفُّظ بها، من غير خُشوعٍ فيها، ولا تفكُّر في معانيها، فنحن بحاجةٍ إلىٰ أن نراجعَ أنفسَنا؛ لنبعثَ في القلوب مشاعرَها، ونربطَ بها عباداتِها الـمُنوطَةَ بها، ونغترفَ من هديه ﷺ.

ودراسةُ الشمائل معينٌ لا يَنضُبُ، يَغترفُ فيه الـمُحِبُّ من هَديه ﷺ شيئًا عظيمًا يُقوِّي إيمانَه، ويُنمِّي حُبَّه، ويُحرِّك في قَلبه مِياهَ المحبَّة الراكِدةَ تُجاه النبيِّ الكريم ﷺ.

***

(صحيح) **٩ـ عن أبي إسحاق قال: سَأَلَ رَجُلٌ البَرَاءَ بنَ عَازِبٍ رضي الله عنهما: أَكَانَ وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ مِثلَ السَّيفِ؟ قَالَ: «لا، بلْ مِثلَ القَمَرِ»**(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٥٢)، ومسلم بنحوه (٢٣٤٤) عن جابر بن سمُرة رضي الله عنهما.

شرح الحديث

هذا حديثٌ عجيبٌ، أخرجه البخاريُّ في صحيحه عن البَراء بن عازِبٍ رضي الله عنهما، وفيه أنَّ أحدَ التابعين الذين لم ينالوا شرفَ رؤيةِ النبيِّ ﷺ سأل البراءَ ـ الذي نال ذلك الشرفَ واكتحلَت عينُه برؤيته ﷺ ـ عن جَمال النبيِّ ﷺ، وأرادَ أن يبلُغَ أعلىٰ درجاتِ الوصفِ بالجمال، فعقدَ موازنةً بين جَمال وجهِه الشريف ﷺ وجَمال السيف الذي جرت العادة عند العرب علىٰ تَشبيهِ الوجهِ الجميل به، فقال: أكانَ وجهُ رسولِ الله ﷺ مِثلَ السَّيف؟ أي: في لَمَعانه وبريقه وصَفائه وبَياضِه؛ لأنَّ السيفَ صقيلٌ، فسَرعانَ ما يَلمَعُ ويَبرُقُ من أدنىٰ ضَوءٍ يقعُ عليه، فكان الجوابُ البديعُ اللافِتُ علىٰ لِسانِ البراءِ بن عازب رضي الله عنهما.

فقال البراءُ رضي الله عنه: «**لا، بلْ مِثلَ القَمَر**»، فأراد بهذا الجواب أن يُثبت ما في السيف من الصفاء واللَّمعان والإشراق والنور والجمال، ولكن بالتشبيهِ بشيءٍ أجملَ من السيف، وهو القمر، ووَجهُ ذلك أنَّ السيفَ يَبرُقُ بَرقةً ويَلمعُ لمعةً إذا وقع ضوءٌ عليه، ثم يزولُ إذا زال أثرُ الضوءِ الواقعِ عليه، لكنَّ القمرَ مستَتِمُّ النورِ دائمُ الضوءِ عظيمُ الإشراقِ، فضلًا عن أنَّ القمرَ بنوره يهتدي الناس وينتفعون، فعَدَل عن التشبيهِ بالسيفِ إلىٰ التشبيهِ بالقمر، فأصاب رضي الله عنه المعنىٰ المراد وزيادة، وأشار إلىٰ جمالٍ مُكتمِلٍ ونورٍ مُستَتِمٍّ، وضوءٍ يستفيدُ منه الناظرُ إليه، فتَسكُنُ نفسُه، ويستريحُ قلبُه.

*** لفتة إيمانية:**

حين أجاب البراءُ رضي الله عنه بهذا الجواب العجيب الذي يدُلُّ علىٰ سرعة البديهة،

أتراه كان يتوقَّع سؤالًا مِثلَ هذا فيكون مستحضرًا الجواب علىٰ البديهة؟ مَن يتأمَّلُ في حال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يقعُ في نفسه تفسيرٌ لمثل هذا الجواب إلا شيءٌ واحدٌ، وهو أنهم بينهم وبين أنفسهم لطالما كان الواحدُ يُحدِّث نفسَه بما يجدُه من شعورٍ تُجاه المصطفىٰ ﷺ وجمالِ هيئته، ويُحدِّث نفسَه بذلك الحُبِّ العظيم، مما يجعلُ مثل هذا الجواب حاضرًا في أذهانهم قبل أن يَسأل السائلُ عن وصفِ جماله ﷺ، فعلىٰ المسلم أن يُحرِّك قلبَه بمثل هذه الروايات التي نقلها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وحُفِظت في دواوين السُّنَّة؛ ليزداد شوقًا وحُبًّا للنبيِّ ﷺ.

عندما يروي الصحابةُ هذا الوصفَ، فيرويه عنهم التابعون وأتباعُ التابعين، فتَصِلُ إلىٰ أئمَّة التدوين كالبخاري ومسلم والترمذي وسائرِ أئمَّة السُّنَّة، فيَلتقِطون هذه الرواياتِ ويُثْبِتونها في دواوينِ السُّنَّة = ألا ترىٰ معي أنهم أدركوا أنها عِلمٌ يَجبُ أن يقفَ المسلمون عليه؟ ألا ترىٰ معي أنهم أدركوا أنَّ هذا من ركائز الإيمان التي يجب أن توجدَ في قلوب المسلمين؟ بلىٰ والله.

(صحيح) **١٠ـ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ رَسْولُ اللهِ ﷺ أَبْيَضَ، كَأَنَّمَا صِيْغَ مِنْ فِضَّةٍ، رَجِلَ الشَّعرِ»**(١).



شرح الحديث

الأوصافُ التي وردت في هذا الحديث تقدَّمت في أحاديث سابقة.

فقول أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كَانَ رَسْولُ اللهِ ﷺ أَبْيَضَ**»؛ أي: أبيضَ لونِ

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٤١)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٠٥٣).

البَشرة، وتقدَّم أنَّ هذا البياضَ موصوفٌ بوصفين؛ أحدهما: أنه بياضٌ مُشْرَبٌ بحُمْرة، وهو أجملُ دَرَجات البَياض في أبصار البشر، والوصف الآخر: أنَّ بياضَه ﷺ لم يكن أمهقَ؛ أي: لم يكن شديدَ البياضِ كبياضِ الأبرص، لكنه بياضٌ مُشربٌ بحُمرةٍ، يزيده جمالًا ﷺ.

وقوله رضي الله عنه: «**كَأَنَّمَا صِيغَ مِنْ فِضَّةٍ**»، هذا وصفٌ للبياض، وقد تقدَّم مثله في حديث هند بن أبي هالة رضي الله عنه: «**كأنَّ عُنُقَه جِيدُ دُمْيَةٍ في صَفَاء الفِضَّة**»، والمقصودُ أنَّ صفاءَ بَشرته ﷺ ونَقاءَها كقالَب الفِضَّة في بَياضه إذا لمعَ.

وقوله رضي الله عنه: «**رَجِلَ الشَّعر**»، المقصود برُجولة الشَّعَر توسُّط درجةِ نعومته، فلا هو بالجَعْد القطَط؛ أي: ليس بالخَشِنِ الملتَفِّ الملتوي، ولا بالسَّبْط؛ أي: ليس مُنساحًا شديدَ النعومة، لكنه كان وسطًا.

***

(صحيح) ١١ـ **عن جابر بن عبد الله** رضي الله عنه **أنَّ رسول الله** ﷺ **قال: «عُرِضَ عَلَيَّ الأَنْبِيَاءُ، فَإِذَا مُوسَىٰ** عليه السلام **ضَرْبٌ مِنَ الرِّجَالِ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ** عليه السلام**، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ** عليه السلام**، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا صَاحِبُكُمْ ـ يَعْنِي نَفْسَهُ ـ، وَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ** عليه السلام**، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا دِحْيَةُ»**(١).

(١) أخرجه مسلم (١٦٧).

شرح الحديث

هذا حديثُ جابر بن عبد الله ﵄، فيه وصفٌ مُجملٌ لهيئته ﷺ، والحديثُ أخرجه مسلمٌ وغيرُه.

فقول النبيِّ ﷺ: «**عُرِضَ عَلَيَّ الأَنْبِيَاءُ**» جاء في روايةٍ أخرىٰ[1] أنَّ ذلك كان حين قابلَهم ﷺ ليلةَ الإسراء، عليهم جميعًا وعلىٰ نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام، فإنها الليلةُ التي اجتمعَ له فيها رؤيةُ عددٍ غيرِ قليلٍ من الأنبياء عليهم السلام.

وقوله ﷺ: «**فَإِذَا مُوسَىٰ ﵇ ضَرْبٌ مِنَ الرِّجَالِ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ**»، معنىٰ «**ضَرْبٌ مِنَ الرِّجَالِ**»: الخفيف اللحم، وشَنُوءَةُ قبيلةٌ عظيمةٌ في اليَمَن، ورجالُها موصوفون بالتوسُّط في الطُّول بين الطُّول الممتدِّ والقِصَر، وبالتوسُّط في مَتن الجِسم بين النَّحَافة والسِّمَن، فهو ﵇ وسطٌ في ذلك، فشبَّهَه برِجَال شَنُوءَة؛ لما عُرِفوا به من ذلك الوصف.

وقوله ﷺ: «**وَرَأَيْتُ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ ابْنُ مَسْعُودٍ**»، عروةُ بنُ مسعودٍ الثقفيُّ ﵁ هو أحد الصحابة الكِرام، ممَّن أسلمَ مؤخَّرًا، وكان أحدَ الوفود الذين قَدِموا علىٰ النبيِّ ﷺ ليلةَ صُلح الحديبية، وهو أحدُ مَن فاوَضَ النبيَّ ﷺ، وقد استبشرَ ﷺ بقدومه خيرًا، فقد كان أحدَ العُقلاء الموصوفين في الجاهليَّة برَجَاحَة العقلِ وحُسنِ المنطِق، ويُقال: إنه أحدُ الرَّجُلين في مقولةِ قريشٍ التي حكاها القرآنُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا

---

(١) أخرجها البخاري (٣٢٣٩)، ومسلم (١٦٥)، من حديث ابن عباس ﵄.

ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]، والقريتان: مكَّةُ والطائفُ(١)، فكان كان عُروةُ رضي الله عنه شبيهًا في الخِلقة بعيسىٰ عليه السلام.

وقوله ﷺ: «**وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا صَاحِبُكُمْ ـ يَعْنِي نَفْسَهُ ـ**»، يذكرُ ﷺ أنه شبيهٌ بجدِّه أبي الأنبياءِ الخليلِ إبراهيم عليه السلام، وهذا المعنىٰ هو سببُ إيرادِ هذا الحديث في الشمائل، وقد جاء في أحاديثَ أُخَرَ ذِكرُ المشبَّهين به ﷺ، منهم سِبطُه ابنُ ابنتِه الحسنُ بنُ عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، الذي كان شديدَ الشَّبَه بالنبيِّ ﷺ، وكذا كان أخوه الحسينُ رضي الله عنه، وقد قال فيه أنسٌ رضي الله عنه: «كان أشبهَهُم برسول الله ﷺ»(٢)، إلا أنَّ الحسنَ كان أشدَّ شبهًا بالنبيِّ ﷺ، وممَّن كان يُشبِهُه ﷺ أيضًا جعفرُ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، وقد قال له ﷺ يوم الحديبية: «**أَشْبَهتَ خَلْقي وخُلُقي**»(٣).

وقوله ﷺ: «**وَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ عليه السلام، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا دِحْيَةُ**» هو دِحْيَةُ بنُ خليفةَ الكَلبيُّ رضي الله عنه، كان مَوصوفًا بجَمال الخِلقة وحُسن الطَّلعة، فكان جبريلُ عليه السلام إذا أتىٰ النبيَّ ﷺ في صورة إنسانٍ تَمثَّل بصورة دِحْيَةَ بنِ خَليفةَ الكَلْبيِّ رضي الله عنه، فإذا رآهُ الناظرُ حَسِبه دِحْيةَ.

***

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٥٨٠)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٩٩).

(صحيح) ١٢ـ عن سعيدٍ الجَريريِّ قال: **سَمِعْتُ أَبَا الطُّفَيْلِ ﵁ يَقُولُ: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَمَا بَقِيَ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ رَآهُ غَيْرِي، قُلْتُ: صِفْهُ لِي، قَالَ: «كَانَ أَبْيَضَ مَلِيحًا مُقَصَّدًا»**(١).

شرح الحديث

أبو الطُّفَيل ﵁ هو آخرُ الصحابة ﵃ وفاةً، ماتَ سنة مائةٍ وعشرٍ للهجرة، وقوله: «**رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَمَا بَقِيَ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ رَآهُ غَيْرِي**»، يقصد أنه عاش إلىٰ زمنٍ ما بقيَ فيه أحدٌ من الصحابة سواه، فقال له الراوي عنه: «صِفْه لي»، فقال ﵁: «**كَانَ أَبْيَضَ مَلِيحًا مُقَصَّدًا**»، وقد تقدَّم وصفُه بالبياض في أحاديث عِدَّة.

وقوله ﵁: «**مَليحًا مُقَصَّدًا**»: أما الملاحَةُ فهي الجَمال والحُسن، وأما: «مُقَصَّدًا» فمن القَصْد، وهو الاعتدال، فقد كان جَمالُه ومَلاحَتُه وحُسنُه وسطًا.

***

(ضعيف جدًّا) ١٣ـ عن ابن عباس ﵄ قال: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَفْلَجَ الثَّنِيَّتَيْنِ، إِذَا تَكَلَّمَ رُئِيَ كَالنُّورِ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ثَنَايَاهُ**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٤٠).

(٢) أخرجه الدارمي (٥٩)، وضعَّفه الألباني جدًا في الضعيفة (٤٢٢٠)، لحال راويه عبد العزيز بن أبي ثابت الزهري، فهو متروك الحديث.



شرح الحديث

هذا آخرُ حديثٍ في الباب، وفيه تمام ما جاء في وصف خِلقة النبيِّ ﷺ.

قول ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَفْلَجَ الثَّنِيَّتَيْنِ**»، الثَّنِيَّتان: السِّنَّان في مُقدَّم فمِ الإنسان، والفَلَج هو وُجودُ فرُجةٍ يسيرةٍ بين الأسنان، فلا تكون متراصَّةً ملتصِقةً، وهذا من وصف الجَمال عند العرب، وإذا فُعِل عمدًا فهو المذموم المنهيُّ عنه؛ لدخوله في تغيير خلق الله، قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «**لَعَنَ اللهُ الواشِمَاتِ والمُسْتَوْشِمَاتِ، والـمُتَفَلِّجَاتِ للحُسْنِ، الـمُغَيِّراتِ خَلقَ الله، مَالي لا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ، وَهُو فِي كِتَابِ اللهِ:** ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]»(١).

وقوله رضي الله عنه: «**إِذَا تَكَلَّمَ رُئِيَ كَالنُّورِ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ثَنَايَاهُ**»، المراد أنه ﷺ كان برَّاق الأسنان.

فهذا تمامُ ما جاء في الباب في وصف نبيِّكم ﷺ، وجِماعُ ذلك قولُ أنسٍ رضي الله عنه كما أخرج البخاري: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ**»(٢).

** ** **

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٣١، ٥٩٤٣، ٥٩٤٨)، ومسلم (٢١٢٥).

والـمُتفلِّجات: جمع مُتَفَلِّجة، وهي التي تُفرِّقُ ما بين ثناياها بالـمِبْرَد، للجمال والزينة. انظر: النهاية (٣/ ٤٦٨ مادة فَلَجَ).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٢٠)، ومسلم (٢٣٠٧).



باب ما جاء في خَاتَم النُّبوَّة

مِن شمائل خاتم المرسلين ﷺ خصائصُه التي تُبيِّنُ أوصافَ خِلقتِه وهيئتِه وجميلَ طَلعته التي خلقه الله عليها، كما أنَّ من شمائله ﷺ أخلاقَه الشريفةَ، وصفاتَه الـمُنيفةَ، وسجاياه وطبائعَه التي جعله الله تعالىٰ فيها علىٰ أعلىٰ الدَّرجات وأسمَىٰ المقامَات، فقال له سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وخَاتَمُ النُّبوَّةِ هو جزءٌ من صفاتِ خِلقته ﷺ، وهو علامةٌ جعلها الله في بَدَن رسوله ﷺ علىٰ صِدق نبوَّته ﷺ.

ودلائلُ صِدق نُبوَّة المصطفىٰ ﷺ نوعان: حِسِّيَّةٌ ومعنويةٌ.

أما الحِسِّيَّةُ فالمقصود بها: كلُّ دليلٍ محسوسٍ يُصدِّق الناسُ به بِنُبوَّة رسول الله ﷺ، ومن الدلائل الحِسِّيَّة: خاتَم النُّبوَّة.

وأما الدلائلُ المعنويَّةُ علىٰ صِدق نُبوَّة رسولِ الله ﷺ فكثيرةٌ عظيمةٌ متعدِّدةٌ، بل هي أكثر من الدلائل الحِسِّيَّة؛ لأنَّ الدلائلَ الحِسِّيَّةَ التي تقعُ له ﷺ إنما يُدرِكُها مَن صَحِبه ﷺ وتَشرَّف برُؤيته؛ لأنَّ المعجِزة الحِسَّيَّة إنما تُدرَك برؤيةٍ أو سماعٍ أو لمسٍ أو شَمٍّ أو ذوقٍ، مثلُ انشقاقِ القمرِ، وتسليمِ الحَجَر، ونَبعِ الماء من بين أصابعه، وتكثيرِ الطعامِ بين يديه ﷺ، وهذا الإدراكُ لا يحصلُ

إلا لمن عَايَشه وصاحَبَه ورآه ﷺ، وأمَّا الدلائلُ المعنويَّةُ فهي أعظمُ أثرًا وأبقىٰ للتاريخ في الأجيال اللاحقة إلىٰ يوم القيامة.

ومن الدلائل الحِسِّيَّة: معجزاتُه ﷺ التي تحقَّقت بين يديه، وما أخبرَ بوقوعه مِن بعده، وكلُّ ذلك قد عايَنَته الأمَّةُ، فوجَدَت مِن صِدق نبوَّته ﷺ ما لا يخالطُه شكٌّ ولا ريبٌ، ومن دلائل نبوَّته المعنويَّة هذا القرآنُ الكريمُ، المعجزةُ الخالدةُ والوحيُ الباقي علىٰ مَرِّ الأزمان.

***

(صحيح) ١٤ـ **السَّائِب بْن يَزِيدَ رضي الله عنهما يَقُولُ: «ذَهَبَتْ بِي خَالَتِي إِلَىٰ النبيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ ابْنَ أُخْتِي وَجِعٌ، فَمَسَحَ ﷺ رَأْسِي، وَدَعَا لِي بِالبَرَكَةِ، وَتَوَضَّأَ فَشَرِبْتُ مِنْ وَضُوئِهِ، وَقُمْتُ خَلْفَ ظَهْرِهِ فَنَظَرْتُ إِلَىٰ الخَاتَمِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، فَإِذَا هُوَ مِثْلُ زِرِّ الحَجَلَةِ»**(١).

شرح الحديث

هذا الحديثُ من رواية السَّائبِ بن يَزيدَ رضي الله عنهما يحكي فيه ما رأىٰ من وَصفِ خاتَم نُبوَّة رسولِ الله ﷺ.

وقد اختلفَ أهلُ العلم في خاتَم النُّبوَّة الذي كان بين كتفَيه ﷺ علىٰ قولين: هل وُلِد به ﷺ؟ أم وُجِد به فيما بعد؟

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠)، ومسلم (٢٣٤٥).

ولعلَّ الراجحَ الذي يتأيَّدُ بالأدلَّة أنَّ خاتَم النُّبوَّة لم يُولَد به ﷺ، وإنما وُجِد في حادثةِ شَقِّ صدرِه ﷺ، وذلك لَمَّا كان طفلًا صغيرًا مُسترضَعًا في دِيار بني سَعد، فأتاه مَلَكان، فأضْجَعَه أحدُهما وشَقَّ صدرَه، فأخرجَ العَلَقَة، ثم غَسَلها في طَسْتٍ بماءِ زمزمَ ثم أعادها إليه، فطَبَعَ خاتَمَ النبوَّةِ عليه ﷺ[1].

قوله رضي الله عنه: **«ذَهَبَتْ بِي خَالَتِي إِلَىٰ النبيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ ابْنَ أُخْتِي وَجِعٌ»**؛ أي: جاءت به تلتمسُ استشفاءً عند رسول الله ﷺ؛ سواءٌ كان هذا الاستشفاء بدُعائه ﷺ أنْ يَشفيَه الله، أو برُقْيَته ﷺ إيَّاه بشيءٍ من رُقَىٰ القرآن أو أدعيته المباركة، كلُّ ذلك يحصل به المطلوب.

وفي بعضِ روايات البخاريِّ في الصحيح[2]: **«إنَّ ابنَ أختي وَقَعَ»**، والمقصود: أنَّه لَمَّا وَقعَ تأذَّىٰ بوَقعته فأصابَه ألمٌ، ولهذا قال الحافظُ ابنُ حَجرٍ رحمه الله: «كان يشتكي رِجْلَه كما ثبت في غير هذا الطريق»[3]، فوَجعُه كان ألـمًا في رِجْله.

قوله رضي الله عنه: **«فَمَسَحَ ﷺ رَأْسِي، وَدَعَا لِي بِالبَرَكَةِ، وَتَوَضَّأَ فَشَرِبْتُ مِنْ وَضُوئِهِ»**: صَنعَ له ﷺ ثلاثةَ أشياء، كلُّها حَفِظها الراوي ـ وقد كان طِفلًا ـ ولم يَنسَ منها شيئًا، وإنما حفِظها لعظيمِ موقِعها في قلبه لما كان مُصابًا.

قال: « **فَمَسَحَ ﷺ رَأْسِي**»، هذا أولُ الأشياء الثلاثة، ومَسْحُه ﷺ لرأسه إمَّا لبركةٍ سينالُها بمسحِه رأسَه، وإمَّا لما يحصُل من مُواساةٍ يشعرُ بها المصابُ عندما يضعُ المعتني به يدَه علىٰ رأسه، ولستَ تشكُّ أنَّ مَسحَه ﷺ رأسَ أحدِ

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٢)، بنحوه، وانظر: السيرة لابن إسحاق في السيرة (ص٥١).

(٢) صحيح البخاري (٣٥٤١).

(٣) فتح الباري (٦/ ٥٦٢).

أصحابه فيه أعظمُ فرحةٍ له؛ لأنه يشعرُ بقَدرٍ كبيرٍ من الرحمةِ والشفقةِ منه ﷺ.

أما الأمرُ الثاني فقوله: «**وَدَعَا لِي بِالبَرَكَةِ**»، لم تنقُل الروايةُ لفظَ دعائه ﷺ، لكن حسبُك أنه دعا له بالبركة؛ سواءٌ كانت البركة في بَدَنه وصِحَّته، أو في رِزقِه ومالِه، أو في أهلِه وذريَّتِه، ولقد وجدَ الصحابيُّ البركةَ في باقي حياته، ففي صحيح البخاريِّ[1] الذي يروي طرفه عن الجُعَيْد بن عبد الرحمن قال: «رَأَيْتُ السَّائِبَ بْنَ يَزِيدَ ابْنَ أَرْبَعٍ وتِسْعِين، جَلْدًا مُعْتَدِلًا، فَقَالَ: «**قَدْ عَلِمْتُ مَا مُتِّعْتُ بِهِ سَمْعِي وَبَصَرِي إِلَّا بِدُعَاءِ رسولِ اللهِ ﷺ**»؛ أي: بلغَ عُمرُه أربعًا وتسعين سنةً، وفيه جَلَدُ الشَباب، وهو مستقيمُ البَدَن صحيحُه، لم تَظهر عليه آثارُ كِبَر السنِّ، ولا الضعُف من ارتخاءِ الجِلد وشيخوخةِ البَدَن.

وقد ماتَ السائبُ وعُمرُه ستٌّ وتسعون سنةً، وهو آخرُ الصحابة موتًا بالمدينة، طالَ عُمرُه ببركة دعاءِ رسولِ الله ﷺ.

أما الأمرُ الثالثُ فقوله: «**وتَوضَّأَ فشَرِبتُ من وَضوئه**»؛ أي: شَرِبتُ من فَضلِ وَضوئه مما انفصَلَ مِن أعضاءِ بَدنه بعد الوُضوء.

ومما اتَّفقَ عليه أهلُ العلم قاطبةً أنَّ هذا مِن أعظم البركةِ التي يلتمسُها المسلمُ من رسول الله ﷺ، وهو ما انفصل مباشرةً عن جَسدِه الشريف، فعَرَقُه ﷺ كان أطيبَ من المِسك، وفَضلُ وَضوئه يُستشفَىٰ به، وكان الصحابةُ رضي الله عنهم يعلمون أنَّ هذا من عظيم البركة.

لكن هذا مختصٌّ بما انفصَلَ من بَدَنه الشريف ﷺ، وأمَّا بعد ذلك فإنْ

---

(١) صحيح البخاري (٣٥٤٠).

كان لدىٰ المسلم شيءٌ صحيحٌ ثابتٌ تَثْبُتُ نِسبتُه إلىٰ رسول الله ﷺ مِن آثاره المتَّصِلة به فهو مَوطنُ بَركةٍ، لكنَّ الإشكالَ أنه مع تَقَادُم الأزمان وتباعُد السنين لستَ تجزمُ بشيءٍ بين يدي أحدٍ من الناس اليوم لتقول: إنَّ هذا مِن آثارِه ﷺ.

وإلا فإنه في القُرُون الثلاثة المفضَّلة كان لا يزال بين يَدَيْ بعضِ السَّلَف شيءٌ من شَعْراتِه ﷺ، يحتفظون بها ويَتَوارثُونها، ويَرَون في اقتنائها وفي استعمالها بركةً؛ لاتِّصالها برسول الله ﷺ.

فهذه ثلاثةُ أمورٍ صَنَعها رسولُ الله ﷺ مع السائبِ بن يَزيد، وما أحوجَنا أن يكون لنا مِن هَديِ رسول الله ﷺ قَبَسٌ في مُواسَاةِ من يَحتاجُ إلىٰ مُواساةٍ؛ فإذا ما أتاكَ مَكروبٌ أو مَظلومٌ أو مَلهوفٌ أو مَدِينٌ أو صاحبُ حاجةٍ، وأنت لا تملكُ ما تَدفعُ به ألمَه ولا حاجتَه ولا كُربتَه = فأقلُّ ما تفعلُه أن تَبذلَ له مِن المواساة ما يَستشعرُ بها أنك أخٌ محبٌّ تَقفُ بجواره، ولو بدَعوةٍ صَادقةٍ ولطيفِ عبارةٍ تنبُض بالمشاعر، فيلتمسُ منها أخوك دِفْءَ المحبَّة الصادقةِ التي يحملُها قلبُك له.

ثم انظر كيف ظلَّ السائبُ رضي الله عنه يذكرُ هذا الموقفَ وهو ابنُ أربعٍ وتسعين سنةً ولم يَنسَه؛ موقفٌ عاشَه مع رسول الله ﷺ دقائقَ معدودةً، وظلَّ عالقًا في وجدانه؛ لأنه وَجدَ فيه من عظيم المواساةِ والرأفةِ والرحمةِ والشفقةِ منه ﷺ ما جعلَه يَشعرُ بهذا الموقف الخالد، وأصبح مُسجَّلًا في تاريخه رضي الله عنه.

قوله رضي الله عنه: «وَقُمْتُ خَلْفَ ظَهْرِهِ فَنَظَرْتُ إِلَىٰ الخَاتَمِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ»، هل قامَ السائبُ من أمام رسول الله ﷺ وأتىٰ إليه مِن الخلف عَمدًا ليرىٰ الخاتَم، أم هو تصرُّفٌ وقع اتِّفاقًا فرأىٰ الخاتَم؟ كِلا الأمرين مُحتمَلٌ، لكنَّ الشاهدَ فيه أنه رَأىٰ الخاتَمَ فوصَفَه رضي الله عنه.

قوله رضي الله عنه: «فإذا هو مِثْلُ زِرِّ الحَجَلِةِ»، الحَجَلَةُ: طائرٌ معروفٌ يُشبِهُ الحَمامةَ في شكلها وحَجمِها.

وزِرُّ الحَجَلَةِ: بَيضُ الحَجَلَة، وحَجمُه قريبٌ من بَيضِ الحَمَامة، وهو صغيرُ الحجمِ يُمسكُه المرءُ بين أُصبُعَيه لِصِغَره ودِقَّةِ حَجمه.

وقد كان خاتَمُ النُّبوَّة في ظَهر رسول الله صلى الله عليه وسلم قِطعةً ناتئةً بارزةً تقعُ بين كَتِفيه، هي إلىٰ الكَتِف الأيسرِ أقربُ منها إلىٰ الكَتِف الأيمن.

وذهبَ بعض شُراح الحديث إلىٰ أنَّ المرادَ بـ(الحَجَلَة): القُبَّةُ التي توضعُ فوق السرير، وهو مثلُ السِّتَارِ الشَّفَّافِ الذي يُفْرَد فوق السرير من أعلىٰ لِأسفلَ فيُغطِّيه، وزِرُّ الحَجَلَة: هو العُرْوَةُ التي تكونُ كالمِقبَضِ الجامع لهذا السِّتار من أعلاه، وحَجمُه قريبٌ من بيضةِ الحَمَامة، فلا خلافَ بين التفسيرين.

***

(صحيح) ١٥ـ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنهما قَالَ: «رَأَيْتُ الخَاتَمَ بَيْنَ كَتِفَيْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم غُدَّةً حَمْرَاءَ، مِثْلَ بَيْضَةِ الحَمَامَةِ»(١).



شرح الحديث

في هذا الحديث وَصفٌ للخاتَم بأنه مِثْلُ بَيضة الحَمامَة، ولا يخالفُ هذا حديثَ السائبِ السابق؛ لأنه لا فرقَ بين بَيضة الحَمامَة وبَيضة الحَجَلَة في الحجم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٤٤).

وزادَ في الوصف ههنا فقال: «**رَأَيْتُ الخَاتَمَ غُدَّةً حَمْرَاءَ**»، وَصفَ جابرٌ رضي الله عنه نُتوءَ وبروزَ الخاتَم، وأنه كان قطعةً بارزةً في ظَهره ﷺ، كالغُدَّةِ.

والغُدَّةُ: انتِفاخٌ في الجِلد، وهو عبارةٌ عن عُقدةٍ من الدَّمِ تجتمعُ بين الجِلدِ واللَّحم، وتكونُ قابِلةً لِلَّمْسِ والغَمْزِ باليَدِ، وليست قِطعةً يابسةً.

والمقصودُ بالحَمراءِ: أنَّ لونَها لا يختلفُ عن لَون البَشرة كثيرًا.

وصرَّحَ عددٌ من الصحابة بأنَّ لَونَها لونُ جِلده ﷺ(١)، وربَّما فيها زيادةٌ في درجة اللَّون.

وما جاءَ في بعض الرِّوايات بأنها شامَةٌ سوداءُ أو خضراءُ فلا يصحُّ فيها السَّندُ رِوايةً(٢).

***

(صحيح) ١٦ - **عن عاصِم بنِ عمرَ بنِ قَتَادَةَ، عن جدَّتِهِ رُمَيْثَةَ رضي الله عنها قالتْ: «سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ - وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أُقَبِّلَ الخَاتَمَ الَّذِي بَيْنَ كَتِفَيْهِ مِنْ قُرْبِهِ لَفَعَلْتُ - يَقُولُ لَسَعْدِ بنِ مُعاذٍ يَومَ مَاتَ: «اهْتَزَّ لهُ عَرْشُ الرَّحمنِ»**(٣).

---

(١) روىٰ مسلم (٢٣٤٤)، عن جابرِ بن سَمُرة رضي الله عنهما قال: «**رأيتُ الخاتمَ عند كتِفِه مثلَ بَيضةِ الحَمامة يُشبِهُ جَسَده**».

(٢) قال ابنُ حَجر في فتح الباري (٦/ ٦٥٠): «وأمَّا ما ورد من أنها كانت كأثر مِجْحَم، أو كالشَّامَة السوداء أو الخضراء، أو مكتوبٌ عليها (محمد رسول الله) أو (سِرْ أنتَ المنصور)، أو نحو ذلك؛ فلم يثبُت منها شيءٌ ... ولا تغترَّ بما وقعَ منها في صحيح ابن حبَّان فإنه غَفل حيثُ صَحَّح ذلك».

(٣) أخرجه أحمد (٢٦٧٩٣)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٧٦).
والمرفوع: أخرجه البخاري (٣٨٠٣)، ومسلم (٢٤٦٦)، من حديث جابر رضي الله عنه.

شرح الحديث

هذه روايةٌ ترويها رُمَيْثَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في قصَّة وفاةِ سَعد بنِ معاذٍ لما مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **- وَلَو أَشَاءُ أَنْ أُقَبِّلَ الخَاتَمَ الذي بينَ كتِفَيْهِ مِنْ قُرْبِهِ لفعَلتُ -**»، تشيرُ إلىٰ شِدَّة قُربها منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأيضًا إلىٰ انكِشاف موضعِ الخاتَم ورؤيتها له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**يَقُولُ لَسَعْدِ بنِ مُعاذٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» هو سيِّدُ الأنصارِ، بل أحدُ سادات الصحابة إيمانًا وقولًا وعَمَلًا، له من المواقف الدالَّة علىٰ تَضحيته وحُبِّه وصِدق جهاده مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كان مَنقبَةً عَظيمةً وتاريخًا مُشرِّفًا.

كان سعدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِفتاحَ دُخول الإسلام في المدينة، فيومَ بعثَ الرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُصعبَ بنَ عُمَيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سفيرًا بالقرآن يُعلِّمُ الفئةَ القليلةَ المؤمنةَ من بيوت أهل المدينة الإيمانَ والقرآنَ قبل هجرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ اجتمعَ قادةُ الأوس والخزرج يتحادثون بشأن مصعب ودينه الذي يدعو إليه، فاتفقوا أن يُنهوا شأن هذا الرجل، فقام أسعدُ بن زُرارة ـ وهو ابن خالة سعد ـ وقال: «أنا أكفيكم إياه»، وانطلق إلىٰ مصعب، فلمَّا أقبل عليه أسمعه مصعبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيئًا من القرآن، فشرح الله صدره فأسلم، فلمَّا عاد أسعدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ المجلس الذي ينتظره فيه سعدٌ، قال سعد: «والله لقد عاد بغير الوجه الذي ذهب به عنكم»، فلمَّا أقبل سعدٌ سأله: «ما صنعتَ بالرجل؟»، قال: «تحدَّثتُ إليه، لكني أرىٰ أن تسمع منه وتحدِّثه فإنه أولىٰ بك»، وما أراد إلا أن ينالَه من الخير والإسلام ما ناله هو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان كذلك، فأقبل سعدٌ علىٰ مصعب، فسمع القرآن، وشرح الله صدرَه فأسلم.

ثم عاد سعد إلىٰ النادي الذي يجتمع فيه أصحابه وكبار القوم من الأوس والخزرج، فنادىٰ فيهم: «أيّ أمرٍ تعهدونه عن سعد بن معاذ؟»، فقالوا: «السيد المطاع»، فقال: «ألا فاعلموا أنَّ كلامَ رجالكم ونسائكم عليَّ حرامٌ حتىٰ تدخلوا الإسلامَ هذه الليلة»(١).

فقاد بيوتَ أهل المدينة إلىٰ الإسلام في ليلةٍ واحدة، وانقاد أهل الأنصار إلىٰ الإسلام بمقولة سعدٍ وثباتِ سعدٍ وشدةِ رباط جأش سعدٍ رضي الله عنه، ودخلت بيوتُ المدينة الإسلام عدا بيوتًا معدودةً.

وسعدٌ رضي الله عنه كان له موقفٌ مشرِّفٌ يوم بدر، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ وأصحابه خرجوا يعترضون قافلةً لقريش، فانقلب الأمر إلىٰ قتالٍ لم يكن مرتَّبًا ولا محسوبًا، فاجتمع بهم ﷺ يستشيرهم، فتكلَّم أبو بكرٍ فأحسن المقالة، وتكلَّم عمر فأحسن المقالة، وأعاد ﷺ استشارتَه للناس، حتىٰ فطِنَ سعدٌ فقال: «لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يا رَسُولَ اللهِ؟»، قال: «**نعم**»، يعني: يريد أن يسمع موقف الأنصار، وذلك أنه ﷺ لما قدم المدينة كان قد عاهده الأنصار ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ علىٰ نصرتهم إياه داخل المدينة، ولم يكن في العهد الذي بذلوه ما يشير إلىٰ قتالهم معه خارج المدينة، فكان من وفائه ﷺ أن لا يُقدِم بهم علىٰ قتال حتىٰ يستشيرهم، فلما استشارهم وفطن سعدٌ رضي الله عنه أنه يريد سماع جواب الأنصار قام فقال تلك الكلمات التي سجلها التاريخ، وتهلَّل لها وجه رسول الله ﷺ استبشارًا بما قال سعد يوم قال: «امضِ بنا يا رسول الله حيث شئتَ، فلو

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٣٥ ـ ٤٣٧)، والثقات لابن حبان (١/ ٩٦ ـ ٩٨).

خضتَ بنا غمارَ هذا البحر لخضناه معك، ولو سرت بنا إلىٰ بَرْك الغِماد سرنا معك، فإنا والله صُدقٌ عند اللقاء صُبرٌ عند الحرب»(١).

وسعد هو الذي حكَّمه النبيُّ ﷺ في بني قريظة، فحكم فيهم بأن تُقتلَ مقاتلتهم، وأنْ تُسبىٰ نساؤهم وذراريهم، وتُسلب أموالهم، فلمَّا قضىٰ حكمَه قال له النبيُّ ﷺ: «**واللهِ لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِم بحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوقِ سَبْعِ طِباقٍ**»(٢).

ثم مات بعد تحكيمه في بني قريظة، فأبرد الله قلبه مما كان يحمله من الغيظ علىٰ مواقف اليهود الخبيثة بالمدينة؛ لأنه دعا ربه قبل الغزوة أنْ لا يُميته حتىٰ يشفي الله قلبه من خبثهم وعدائهم، فحكم فيهم بما حكم.

قضىٰ سعدٌ نحبَه من إصابةٍ بلغته في تلك الغزوة، وانتقض جرحُه فمات، وقد أمر ﷺ به قبل ذلك أن يُطبَّب في المسجد ليكون علىٰ مقربةٍ منه؛ لعظيم منزلته في قلب رسول الله ﷺ، فلمَّا مات ولم يعلم ﷺ بموته أتاه جبريل عليه السلام مِن السماء، فقال: «**أيُّ عبدٍ صالحٍ ماتَ فِيكُم اليَوم؟**»(٣)، فاستغرب من السؤال، وأخبره أنَّ عرش الرحمن اهتزَّ لموت سعد، وخرج ﷺ يجُرُّ ثوبَه يأتي خيمتَه، ويقول لأصحابه وهو يحثُّهم: «**أدْرِكُوا جنازَةَ سَعْدٍ، لا تَسْبِقُنا إليه المَلائِكَة**»(٤).

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٤)، بنحوه.

(٢) أصل الحديث في البخاري (٣٨٠٤)، ومسلم (١٧٦٨).

(٣) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (١٠/ ٣٦٨، رقم: ٤١٧٣)، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٢٩).

(٤) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (١٠/ ٣٦٩، رقم: ٤١٧٤)، بنحوه.

* **لفتة إيمانية:**

بقي أنْ تعلمَ أنَّ سعدَ بنَ معاذٍ رضي الله عنه ليس له في تاريخ الإسلام إلا ستُّ سنواتٍ فحسب، أسلم وعمره ثلاثون سنة، واستُشهِد في غزوة بني قريظة وعمره ستٌّ وثلاثون سنة، في ستِّ سنواتٍ قدَّم سعدٌ لدينه ولنبيِّه ﷺ ما قدَّم، حتىٰ اهتزَّ عرشُ الرحمن لموته.

وأحدُنا اليوم يعيش من عمره عشرين سنة، وثلاثين سنة، وأربعين سنة، وربما ما قدَّم شيئًا لدينه ولا لأمَّتِه، بل بعضُنا والله لا يزال عِبئًا علىٰ دينه وأمَّته، والله المستعان.

***

(صحيح) **١٧ـ أبو زيدٍ عَمرو بنُ أَخْطَبَ الأنصاريُّ رضي الله عنه قال: قال لي رسولُ ﷺ:** «**يا أبا زيدٍ، ادْنُ منِّي، فامْسَحْ ظَهْرِي**»، قال أبو زيدٍ: «**فمَسَحْتُ ظَهْرَه فوقَعَتْ أصابِعِي علىٰ الخَاتَمِ**»، قلتُ: **وما الخَاتَمُ؟** قال: «**شَعَرَاتٌ مُجْتَمِعَاتٌ**».

شرح الحديث

قوله ﷺ: «**يا أبا زيدٍ، ادنُ مني**»، أبو زيد رضي الله عنه هو أحدُ أصحاب رسول الله ﷺ، ناداه النبيُّ ﷺ بكنيته وكان كثيرًا ما يُكنِّي أصحابه ﷺ، والكُنية عند العرب ملاطفةٌ بليغةٌ في النِّداء، واحترامٌ جمٌّ.

بل كان ﷺ يُكَنِّي الأطفالَ والصبيةَ الصغار، كما خاطب ﷺ طفلًا بقوله: «**يا أبا عُمير، ما فعل النُّغَير**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (١٦٩٢).

وفي مسند أحمد(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسندٍ ثابت زيادةٌ لطيفة، يقول أبو زيد: قال لي رسول الله ﷺ: «**ادْنُ مِنِّي**»، قال: «**فَمَسَحَ بِيَدِهِ عَلَىٰ رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ جَمِّلْهُ وَأَدِمْ جَمَالَهُ**»، قَالُوا: «**فَلَقَدْ بَلَغَ بِضْعًا وَمِائَةَ سَنَةٍ ومَا فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ بَيَاضٌ إِلَّا نَبْذٌ يَسِيرٌ، وَلَقَدْ كَانَ مُنبَسِطَ الوَجْهِ**»؛ أي: لا تجاعيدَ ولا ارتخاءَ، ولا ما تراه في وجوه العجائز، بل فيه نَضرةُ الشباب، وارتواءُ الوجه، كأنه شابٌّ؛ بسبب دعوة رسول الله ﷺ.

قوله ﷺ: «**فَامْسَحْ ظَهْرِي**»، طلب منه ﷺ أن يمسح له ظهره؛ لأنه ما أراد ﷺ أن يتعامل مع أصحابه بتكلُّفٍ، بل أراد أن يرفع هذه الكلفة بهذا الطلب، كما يصنع أحدُنا ذلك مع زوجته أو أحد أبنائه أو أحد المقربين إليه، فالإنسان لا يطلب هذا الطلب إلا ممن ارتفعت بينه وبينه الكلفة؛ فلا يقولها لضيف ولا لرجلٍ عابر أو غريبٍ، فطلبَ النبيُّ ﷺ هذا الطلب من أبي زيدٍ ملاطفةً وتقرُّبًا من القلوب قبل الأبدان.

قوله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**فَمَسَحْتُ ظَهْرَهُ فَوَقَعَتْ أَصَابِعِي عَلَىٰ الخَاتَمِ**»؛ أي: الخاتم الذي يقع بين كتفيه ﷺ.

قوله: «**قُلْتُ**»؛ أي: الراوي، وهو عَلْبَاءُ - أحد رواة الحديث عن أبي زيد -.

قوله: «**وَمَا الخَاتَمُ؟**»، كانت الفرصة مواتيةً للراوي للسؤال؛ أي: أيُّ شيءٍ الذي وقعت أصابعك عليه؟

قوله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**شعراتٌ مجتمِعاتٌ**»: لا يقصد مجرّد الشَّعر، بل يقصد ذلك النُّتوءَ البارز الذي أحاطت به شعراتٌ، فعندما مسح ظهرَه لمست أصابعُه تلك

---

(١) مسند أحمد (٢٠٧٣٣).

الشَّعرات التي أحاطت بذلك الخاتم، فالشعراتُ واقعةٌ حول الخاتم وفوقه.

فاجتمع لك مِمَّا سبق من الأحاديث من وصف الخاتم: أنه غُدّةٌ؛ أي: نُتوءٌ بارزٌ، في حجم بيضة الحمامة، واقعٌ في ظهره ﷺ، لونُه قريب من لون الجلد، محاطٌ بشعراتٍ يسيراتٍ يلمسها اللامس، فهذا يدل علىٰ أنه متميزٌ عن باقي ظهره ﷺ في حجمه ولونه وما أحاط به من الشعرات.

*** لفتة إيمانية:**

هذه الدعوات التي أصابت أبا زيد والسائب بن يزيد رضي الله عنهما بالبركة وبالجمال ليست خاصةً بصحابة رسول الله ﷺ، نعم هم أوفر الناس حظًّا بهذه الدعوات، لكن إن كنت تريد الجَمال فهناك دعوةٌ لكل مسلمٍ إلىٰ يوم القيامة بالنضارة والجَمال من النبيّ ﷺ، وذلك في قوله: «**نَضَّرَ اللهُ امْرءًا سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا**»(١)، فإن كنت تريد الجَمال ونُضرة الوجه والحُسن والإشراق، وتصيبك دعوة النبيِّ ﷺ فتكون كالسائب بن يزيد أو كأبي زيدٍ الأنصاري، فتبلغ من العمر ما شاء الله لك أن تبلغ وأنت في جمال الشباب وبهائه ونضرته؛ فاعمل بهذه الخطوات الثلاث التي هي بينك وبين أن تصيب دعوة رسول الله ﷺ:

الخطوة الأولىٰ: «**سمع مقالتي**»: أن تعتني بسنة رسول الله ﷺ، وتطلبها، وتسمعها، وتحضر مجالسها.

الخطوة الثانية: «**فوَعَاها**»؛ أي: أن تفهم ما يبلغك من سنة رسول الله ﷺ فهمًا يعينك علىٰ العمل والتطبيق.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٧، ٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٣)، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

الخطوة الثالثة «**فأدَّاها كما سمعها**»؛ أي: أن ينشرها في كل مكان، وأن يبُثَّها في الآفاق، وأن يعلِّمها زوجته وأولاده وأسرته والناس من حوله.

هذه الخطوات التي بينك وبين أن تنال هذه الدعوة النبوية الشريفة: «**نضَّرَ الله امرءًا**»، سواءٌ أردتَ أن تنال النضرة المعنوية أو الحسية.

***

(حسن) ١٨ ـ **عَن بُرَيْدَةَ ﷺ يَقُولُ: جَاءَ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ قَدِمَ المَدِينَةَ بِمَائِدَةٍ عَلَيْهَا رُطَبٌ، فَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا سَلْمَانُ، مَا هَذَا؟»، فَقَالَ: صَدَقَةٌ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أَصْحَابِكَ، فَقَالَ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ: «ارْفَعْهَا؛ فَإِنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ».**

قَالَ: فَرَفَعَهَا، فَجَاءَ الغَدَ بِمِثْلِهِ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا سَلْمَانُ؟»، فَقَالَ: هَدِيَّةٌ لَكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «ابْسُطُوا».

ثُمَّ نَظَرَ إِلَىٰ الخَاتَمِ عَلَىٰ ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَآمَنَ بِهِ.

وَكَانَ لِلْيَهُودِ، فَاشْتَرَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا وَكَذَا دِرْهَمًا عَلَىٰ أَن يَغْرِسَ نَخْلًا فَيَعْمَلَ سَلْمَانُ فِيهِ حَتَّىٰ تُطْعِمَ، فَغَرَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّخِيلَ إِلَّا نَخْلَةً وَاحِدَةً غَرَسَهَا عُمَرُ، فَحَمَلَتِ النَّخْلُ مِنْ عَامِهَا، وَلَمْ تَحْمِلِ النَّخْلَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا شَأْنُ هَذِهِ النَّخْلَةِ؟»، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا غَرَسْتُهَا، فَنَزَعَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَغَرَسَهَا، فَحَمَلَتْ مِنْ عَامِهَا(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٩٧).

شرح الحديث

قوله: «جَاءَ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ قَدِمَ المَدِينَةَ بِمَائِدَةٍ عَلَيْهَا رُطَبٌ»، وراء ذلك قصة: أنَّ سلمانِ رضي الله عنه قدم المدينة وقد سمع بخبر بعثة رسول الله ﷺ، وكان قد وجد من عِلم الأحبار والرهبان من اليهود والنصارىٰ قبل قدومه المدينة ما وجد من إشارات النبوة وأوصاف رسول الله ﷺ، وأراد سلمان أن يتأكد من علامات النبوة بهذا اللقاء، وهي: أنَّ النبيَّ ﷺ لا يأكل الصدقة، وأنه يقبل الهدية، وخاتم النبوة الواقع في ظهره ﷺ.

قوله ﷺ: «**ارْفَعْهَا؛ فَإِنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ**»، تحقق بذلك سلمان رضي الله عنه من العلامة الأولىٰ.

وفي روايةٍ أخرىٰ للحديث: «**فَأَمَرَ أَصْحَابَه فأَكَلُوا**»(١)، ومجموع الروايتين أنه لم يأكل ﷺ من هذا الرطب لأنه صدقة، وقد قال ﷺ: «**إِنَّا آلَ مُحَمَّدٍ لا نَأْكُلُ الصَّدَقَة**»(٢)، وفي لفظٍ: «**لا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَة**»(٣)، فرسول الله ﷺ وآل رسول الله ﷺ شرَّفهم الله بالتنزُّه عن أكل صدقات الناس؛ لأنها كما قال ﷺ: «**إِنَّمَا هِي أَوْسَاخُ النَّاسِ**»(٤)، وجعل الله له بدلًا عنها ما يكون في بيت المال من الفيء والغنيمة لله ولرسوله، وهو السهم المبارك الذي يغتني به رسول الله ﷺ عن أن يتناول شيئًا من الصدقات.

---

(١) أخرجها أحمد (٢٣٧٢٢)، وابن أبي شيبة في المسند (٤٦٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٦٨١)، والبزار (١٣٣٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٠٦٩).

(٤) أخرجه مسلم (١٠٧٢).

بل حتىٰ لما كان الحسن بن علي رضي الله عنهما وهو طفلٌ يرفُل في أثواب الطفولة وقعت يده علىٰ تمرةٍ في بيت جده رسول الله ﷺ، وخشي أن تكون من الصدقة، فأخذها من يده وهو يقول له: «**كخ، كخ**»[(١)]؛ يعني: لا تأكلها.

قوله: «**فَرَفَعَهَا، فَجَاءَ الغَدَ بِمِثْلِهِ**»؛ يعني: جاء في يوم الغد بإناءٍ آخر مثل الأوّل.

قوله: «**فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»؛ **فَقَالَ:** «**مَا هَذَا يَا سَلْمَانُ؟**»، **فَقَالَ: هَدِيَّةٌ لَكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ:** «**ابْسُطُوا**»؛ يعني: هلُمُّوا، فأكل وأكلوا.

فتأكَّد سلمان من العلامة الثانية، وهي عند سلمان أنه ﷺ فرَّق بين الصدقة والهدية؛ فأبىٰ الصدقة، وقَبِل الهدية ﷺ.

قوله: «**ثُمَّ نَظَرَ إِلَىٰ الخَاتَمِ عَلَىٰ ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَآمَنَ بِهِ**»؛ أي: تحقَّقت له العلامة الثالثة، فآمن سلمان.

هذه قصة إسلامه باختصارٍ شديد، وإلا فقصَّتُه المطوَّلة[(٢)] فيها عِبرٌ وتضحيةٌ من سلمان رضي الله عنه؛ ظل يتنقَّل فيها من بلدٍ إلىٰ بلد، ومن رجُلٍ إلىٰ رجُل، حتىٰ قاده بحثُه عن الحق إلىٰ رسول الله ﷺ وكتب الله له الإسلامَ، ولم يُسلم سلمان فحسب، لكنه أسلم وتشرَّف بتلك المنقبة الشريفة بقوله ﷺ: «**سلمانُ مِنَّا أهلَ البيت**»[(٣)]، وسُجِّل اسمُه من أوسع الأبواب، فلا تُذكر غزوةُ الخندق إلا ويُذكر

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩١)، ومسلم (١٠٦٩).

(٢) أخرجها أحمد في المسند (٢٣٧٣٧).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ٢١٢، رقم: ٦٠٤٠)، والحاكم (٦٥٣٩).

سلمان الفارسي رضي الله عنه، صاحبُ الرأي والمشورة والفكرة التي طُبِّقت في غزوة الخندق.

قوله: «**وَكَانَ لِلْيَهُودِ**»؛ أي: كان سلمانُ عبدًا مملوكًا رقيقًا لليهود.

قوله: «**فَاشْتَرَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا وَكَذَا دِرْهَمًا**»: اشتراه من أسياده ليعتقه؛ إكرامًا له علىٰ إسلامه، ومكافأةً له علىٰ ثباته علىٰ الحق.

قوله: «**عَلَىٰ أَن يَغْرِسَ نَخْلًا**»؛ أي: كان الاتفاق بين سلمان وبين السيد الذي اشتراه منه النبيُّ ﷺ أنْ يغرسَ له نخلًا في مزرعته، قوام ذلك كما في بعض الروايات مائتا نخلة إلىٰ ثلاثمائة نخلة[1]، بل في رواية: أنها خمسمائة فسيلةٍ[2]، هذا العددُ الكبيرُ كان مُرْهِقًا لرجل مثل سلمان، حتىٰ ينال حُرِّيَّته ويَعتق، وينتقل إلىٰ رسول الله ﷺ، ويتشرَّف بحُرِّيته مع إسلامه.

قوله: «**فَيَعْمَلَ سَلْمَانُ فِيهِ حَتَّىٰ تُطْعِمَ**»؛ يعني: حتىٰ تُخرِج ثمرها طعامًا؛ يعني: لا يزال سلمان يعمل في ذلك الحقل وتلك المزرعة حتىٰ تثمر النخل، فشروط الكتابة شروطٌ شاقة.

قوله: «**فَغَرَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّخِيلَ**»؛ أي: قَبِل سلمانُ بالشروط، وأعانه علىٰ ذلك رسولُ الله ﷺ وصحابتُه، وهكذا كانت مؤازرتُه ﷺ ومعاونتُه للمسلمين، فلا يرىٰ مسلمًا بحاجةٍ إلىٰ عونٍ، أو في كُربةٍ أو محنةٍ أو ضائقةٍ أو مصيبةٍ أو مشقةٍ، ويرىٰ من الوجوب إعانتَه = إلا أعانه بنفسه ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٧٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٧٣٠).

لقد غرس رسولُ ﷺ النخيل بيده واحدةً واحدةً، وكم كان عددها؟ كانت بين المائتين والخمسمائة، كم استغرق هذا من وقت رسول الله ﷺ؟ أتظنُّ أنه ﷺ فارغٌ من الأعمال والمشاغل مما يصرف الناسُ فيه أوقاتهم، وهو مَن قد تعلَّقت برقبته همومُ الأمَّة بأسرها، وهَمُّ هذا الدين وتبليغه للعالمين؟ لكنه ـ والله العظيم ـ درسٌ إلىٰ يوم القيامة لكل مَن تبوَّأ منصبًا أو قيادةً أو ولايةً أو إدارةً أو عملًا ما، قليلًا أو كثيرًا: أن يُعين إخوانه المسلمين، وأن يبذُل من وقته وجهده وماله وجاهه ما يستطيع أن يبذله معونةً لإخوانه المسلمين.

وهذا واجبٌ لا خيارَ فيه، المسلمون ذمةٌ واحدةٌ، يدٌ واحدةٌ، يعينُ بعضُهم بعضًا، ويقف بعضُهم في النوائب بجوار بعض.

فبالله عليكم: ما تقولون في أمَّة الإسلام اليوم التي لا يشتكي فيها الأفراد فقط، بل مدنٌ وبلدانٌ تشتكي ظلمًا واضطهادًا وكربةً، واستعبادًا وحَيفًا، وأذًىٰ وحربًا، ومشقةً وعدوانًا علىٰ الإسلام والدين؟ والله إنَّ لمعونتَهم أوجب، وإنَّ تفريجَ كربةِ أيِّ رجلٍ وامرأةٍ يستطيع المسلم فعلها مع إخوانه المسلمين واجبٌ متعيِّن.

قوله: «إِلَّا نَخْلَةً وَاحِدَةً غَرَسَهَا عُمَرُ، فَحَمَلَتِ النَّخْلُ مِنْ عَامِهَا، وَلَمْ تَحْمِلِ النَّخْلَةُ»؛ يعني: التي غرسها عمر رضي الله عنه.

قوله: «فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا شَأْنُ هَذِهِ النَّخْلَةِ؟»، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا غَرَسْتُهَا، فَنَزَعَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَغَرَسَهَا»؛ أي: نزع تلك الفَسِيلة التي غرسها عمر، وأعاد غرسَها بيده الشريفة ﷺ.

قوله: «فَحَمَلَتْ مِنْ عَامِهَا»، وهذه من المعجزات والبركات التي ساقها الله علىٰ يد نبيِّكم ﷺ، وإلا فمنذ متىٰ يثمر النخل من عامه الذي يُغرَس فيه؟ لكنها نخيلٌ غُرست بيد رسول الله ﷺ، أفلا تمتلئ طعامًا وقد ملئت بركةً من يديه الشريفتين؟ بلىٰ ـ واللهِ ـ، حَملت من عامها، وكانت تلك النخلةُ التي غرسها عمرُ بيده دلالةَ صدقٍ علىٰ أنَّ القضية قضيةُ بركةٍ بيده ﷺ.

والشاهد في القصَّة علىٰ لطافتها: ما رآه سلمانُ ورواه مِن رؤيته لخاتم النبوة الذي يقع في ظهر رسول الله ﷺ.

***

(حسن) **١٩ ـ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ العَوَقِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ رضي الله عنه عَنْ خَاتَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ يَعْنِي: خَاتَمَ النُّبُوَّةِ، فَقَالَ: «كَانَ فِي ظَهْرِهِ بَضْعَةً نَاشِزَةً»**.

شرح الحديث

قوله: «سَأَلْتُ أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ عَنْ خَاتَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ يَعْنِي: خَاتَمَ النُّبُوَّةِ»، قف لحظةً للتعجُّب مِن هذا السؤال، ما الذي حمل أبا نضرة علىٰ هذا السؤال الدقيق جدًّا عن الخاتم؟ والخاتم لا يتعلق به عملٌ يؤدِّيه المسلم؛ فسواءٌ عَلِم المسلمُ بخاتم النبوَّة أو جَهِله لن يكون هذا ذا أثرٍ في صلاته ـ مثلًا ـ ولا صيامه، ولا حجِّه ولا عمرته، فما الفائدةُ أن يسأل عن الخاتم؟

وهذه ينبغي أن نفقَهها من صنيع السلف، وهي أنهم كانوا يحتفُون ويهتمُّون بأيِّ شيءٍ يتعلَّق برسول الله ﷺ، في خِلقته، وأخلاقه، وأقواله، وأفعاله، وشمائله، فهو ـ واللهِ ـ عِلمٌ ينبغي أن يُدَرَّس ويُعلَّم ويُروَىٰ ويُحمَل، وهكذا فعلوا.

لذلك لم يقل له أبو سعيد رضي الله عنه: ما حاجتُك إلىٰ السؤال؟ أو: اسأل عما ينفعك، أو: انصرف إلىٰ ما يعينك علىٰ دينك ودنياك، بل أجابه؛ لعلمه بأنَّ هذا مما يجب أن يُجاب عنه السائل.

قوله رضي الله عنه: «**كَانَ فِي ظَهْرِهِ بَضْعَةً ناشزةً**»؛ أي: قطعةً من اللحم بارزةً، كما تقدَّم في رواية سابقة.

***

(صحيح) **٢٠ ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَرْجِسَ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَدُرْتُ هَكَذَا مِنْ خَلْفِهِ، فَعَرَفَ الَّذِي أُرِيدُ، فَأَلْقَىٰ الرِّدَاءَ عَن ظَهْرِهِ، فَرَأَيْتُ مَوْضِعَ الخَاتَمِ عَلَىٰ كَتِفَيْهِ، مِثْلَ الجُمْعِ حَوْلَهَا خِيلَانٌ، كَأَنَّهَا ثَآلِيلُ، فَرَجَعْتُ حَتَّىٰ اسْتَقْبَلْتُهُ، فَقُلْتُ: غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «وَلَكَ»، فَقَالَ القَوْمُ: أَسْتَغْفَرَ لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَلَكُمْ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ:** ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

شرح الحديث

قوله رضي الله عنه: «**وَهُوَ فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ**»؛ أي: جالسًا معهم.

قوله رضي الله عنه: «**فَدُرْتُ هَكَذَا مِنْ خَلْفِهِ**»؛ أي: استدار وأتىٰ النبيَّ ﷺ من خلفه، فوقف خلفه.

قوله رضي الله عنه: «**فَعَرَفَ الَّذِي أُرِيدُ**»، عرف أنه كان يريد أن يَطَّلِع علىٰ خاتم النبوَّة، وهذه المعرفة حصلتْ له إمَّا بالوحي، وإمَّا فراسةً.

قوله ﵁: «فَأَلْقَىٰ الرِّدَاءَ عَن ظَهْرِهِ»، أعانه ﷺ علىٰ الغرض الذي مِن أجله استدار خلفه، وكم ترىٰ في ذلك مِن البُعد عن التكلُّف وإسقاط كلِّ الحواجز.

قوله ﵁: «مِثْلَ الجُمْعِ»، الجُمْع: قبضة الكفِّ، ولا يزال يسمِّيه العامةُ اليوم: (الجُمْعَ)، فيقول: (ضربه بالجُمْع) فالجُمْع: مَجمَع الكفِّ إذا انقبضت الأصابع.

وهو يشير إلىٰ أنها كتلةٌ من اللحم مجتمعةٌ في ظهره ﷺ، ووصفُ الحجم هذا يُشبه ما سبق من أنه مثل بيضة الحمامة، أو مثل زِرِّ الحَجَلة.

قوله ﵁: «حَوْلَهَا خِيلَانٌ»؛ الخِيلانُ: جمعُ خالٍ، وهو: النقطة السوداء التي تكون في الجسد ذات النتوء اليسير جدًّا في الجلد.

قوله ﵁: «كَأَنَّهَا ثَآلِيلُ»: الثآليل: معروفةٌ بهذا الاصطلاح عند أهل الطبِّ، وهي جمع ثُؤْلول أو ثألولة، وهي: القطعة اليابسة البارزة من الجِلد.

أراد أنَّ الخاتم عبارةٌ عن قطعةٍ ناشزةٍ من اللحم محاطةٍ بعددٍ من الخيلان، وكما مرَّ في حديثٍ سابق حولها شَعرات.

قوله ﵁: «فَرَجَعْتُ حَتَّىٰ اسْتَقْبَلْتُهُ، فَقُلْتُ: غَفَرَ اللهُ لَكَ، يَا رَسُولَ اللهِ»، قالها عبد الله بن سَرْجِس ﵁ لِـما رأىٰ من صدق علامة النبوَّة؛ فانشرح صدرُه وقالها.

قوله ﵁: فَقَالَ: «وَلَكَ»، فحظِيَ بدعوةٍ بالمغفرة من فمِ رسول الله ﷺ.

قوله ﵁: «فَقَالَ القَوْمُ»؛ أي: الذين يروي لهم عبد اللهُ بنُ سَرْجِس هذا الحديث، وليس الصحابة الذين كانوا جلوسًا مع النبيِّ ﷺ.

قوله رضي الله عنه: **فَقَالَ: نَعَمْ، وَلَكُمْ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ:** ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

قوله رضي الله عنه: «**أَسْتَغْفَرَ لَكَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ**؟**»؛ يعني: هل خصَّك بالاستغفار؟

قوله رضي الله عنه: «**فَقَالَ: نَعَمْ، وَلَكُمْ**»، وبيَّن لهم مكان استغفار النبيِّ ﷺ فتلا قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

** ** **




بَابُ مَا جَاءَ فِي شَعْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

قوله: «شَعْر» بسكون العين، أو شَعَر بفتح العين، كلاهما صحيح.

وُصِف شعرُه ﷺ علىٰ لسان أصحابه رضي الله عنهم في جملة ما جاء في حرصهم علىٰ نقل أوصاف خِلْقَة المصطفىٰ ﷺ، ولستَ تعجبُ مِن هذا الصَّحْبِ المبارك رضي الله عنهم الذين اعتنَوا بنقل كلِّ ما يتعلق بهيئة المصطفىٰ وشكله ﷺ، وَصَفوا كلَّ جزءٍ دقيقٍ أو عظيمٍ في خِلقَته، حتىٰ كأنهم يرسُمون لأحدنا اليوم صورةً واضحةَ المعالم محدَّدة الشكل والهيئة، تصِفُ لك المصطفىٰ ﷺ كأنَّك تراه، وهذا الحرصُ العظيمُ يدلُّ علىٰ أمورٍ عِدَّة:

أحدها: ما امتلأت به قلوبُهم حبًّا لرسول الله ﷺ، فظهر ذلك حرصًا في أن ينقلوا كل صغيرٍ أو كبيرٍ يتعلق به ﷺ، ولم يقتصر نقلهم علىٰ ما كان يعلِّمهم إياه ﷺ من القرآن والسُنَّة، ومن الحلال والحرام، نعم.. كان هذا هو صُلْبَ الدِّين الذي رَوَوْه ونقلُوه، لكنهم أيضًا كانوا يرَون أنه من تمام حُبِّهم له ﷺ أن يصِفُوا في شأنه كلَّ شيءٍ صغيرٍ أو كبيرٍ.

الثاني: حُبُّهم لنا معشرَ الخلف الذين يتَّبعون أولئك الصَّحْبَ الكريم، نحنُ الأجيال التابعة لرسول الله ﷺ، المتشرِّفين بالانتماء إلىٰ أمَّته، فإننا لم نظفر برؤيته ﷺ، ولم تكتحِل أعينُنا بالتطلُّع إلىٰ جميلِ خِلْقَته وبَهِيِّ طلعتِه ﷺ، لكنهم رضي الله عنهم

ـ حرصًا وحبًّا ورحمةً بالأجيال اللاحقة بهم ـ نقلوا هذا الوصف وحفظوه ورَوَوْه؛ ليكون لمن أتىٰ من بعدهم رضي الله عنهم حظٌّ في معرفة أوصاف خِلْقَته ﷺ.

الثالث: أنه عِلمٌ يجب العنايةُ به، ودِينٌ يجب الحفاظ عليه، فمعرفة شمائل النبيِّ ﷺ ليست تَرَفًا علميًا، ولا كمالًا يُسْعَىٰ إلىٰ تحصيله، لكنه من صُلبِ العلم ومتنه الأساس، ومَن زعم طَلَبَ العلم وتشَرَّف بسلوك طريقه فإحدىٰ الخطوات اللازمة التي يجب أن يتشرَّف بالوقوف عندها والأخذ منها هي دراسته ومعرفته وتعلُّمُه لشمائل النبيِّ ﷺ.

ولقد وَصفوا شَعرَه ﷺ كيف كان؛ فنقلوا ما يتعلَّق بوَفرته، وبحجمه كثرةً وقِلَّةً، ثم نقلوا عنايته ﷺ بشعره، وتَرجِيله وتَمشيطِه، ودَهنِه والإحسانِ إليه، ثم نقلوا أيضًا ما يتعلَّق بالشَّيب وعددِ الشَّعرات البِيض في رأسه ﷺ، وما يتعلَّق بذلك من الخِضاب، وهل خضب أو لم يخضب؟

هذا الوصف الدقيق جاء في ثلاثةِ أبوابٍ متتاليات عند الإمام الترمذي رحمه الله: باب ما جاء في شَعْرِ رسول الله ﷺ، وباب ما جاء في تَرَجُّل رسول الله ﷺ، وباب ما جاء في شيب رسول الله ﷺ، ثم ختم ذلك بباب الخِضاب.

***

(صحيح) **٢١ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ شَعْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ نِصْفِ أُذُنَيْهِ»**(١)**، وفي طريق أخرىٰ: «أَنصَافِ أُذُنَيْهِ»**(٢).

---

(١) أخرجه النسائي (٥٢٣٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣٨).

(صحيح) ٢٢ـ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كُنتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ، وَكَانَ لَهُ شَعْرٌ فَوْقَ الجُمَّةِ، وَدُونَ الوَفْرَةِ»(١).

شرح الحديث

قول أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ شَعْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ نِصْفِ أُذُنَيْهِ»، وفي طريق أخرىٰ: «أَنصَافِ أُذُنَيْهِ»، هذا وصفٌ لحَجم شَعره.

ونِصفُ الأُذُن: أن ينزل الشَّعرُ مِن أعلىٰ الرأس فيبلُغَ منتصف الأذُن. وهذا يدلُّ علىٰ وَفرةٍ وكثافةٍ في الشَعر، وكذلك كان شَعر رسول الله ﷺ.

قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَدُونَ الوَفْرَة»؛ الوَفرةُ: وُصولُ الشَّعر إلىٰ أنصاف الأُذُنين، فإذا نزل عن شَحمة الأذن واسترسل حتىٰ قارب الكتِف يُسمَّىٰ: اللِّمَّة، وسُمِّي اللِّمَّةَ لأنه يُلِمُّ بالمنكبين يكاد أن يصل إليهما، فإذا وصل إلىٰ المنكِب وضرب علىٰ الكتف فإنه يسمىٰ: جُمَّةً، فمراتب الشعر هكذا علىٰ الترتيب، الوَفْرَة، ثم اللِّمَّةُ، ثم الجُمَّة.

وقد اختلفت رواياتُ الصحابة في وصف شَعر النبيِّ ﷺ:

فحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يفيد أنَّ شَعر النبيِّ ﷺ كان وَفرةً.

وفي حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيح(٢): «مَا رَأَيْتُ مِنْ ذِي لِمَّةٍ أَحْسَنَ في

---

(١) أخرجه الترمذي (١٧٥٥)، وقال: «حسن صحيح غريب».

(٢) صحيح مسلم (٢٣٣٧).

حُلَّةٍ حَمْرَاءَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، شَعرُه يَضْرِبُ مَنْكِبَيه»، فوصَفَه بأنه ذو لِمَّةٍ، يضرب شعرُه مَنكِبَيه.

وعن البراء رضي الله عنه: «**كان رسول الله ﷺ رجُلًا مَرْبُوعًا، بَعِيدَ ما بَينَ المَنْكِبَينِ، عَظِيمَ الجُمَّةِ إلىٰ شَحْمَةِ أُذُنَيه**»(١).

فهل كان شعرُه ﷺ علىٰ أنحاءٍ مختلفة؟ أم هو اختلافٌ في الرواية والنَّقل؟

كان كلُّ واحدٍ من الرواة ينقُل ما رآه، والشَّعرُ يطول تارةً ويقصُر تارةً، ويزداد تارةً وينقص تارةً، فكان كلُّ واحد يحكي في روايته ما رآه في ذلك الوقت، فمَن رأىٰ شعره وفيرًا وصَفَه بالوَفرَة، ومَن رآه تجاوَز ذلك وصَفَه باللِّمَة، ومَن وَصَفَه بالجُمَّة فهو باعتبار ذلك.

وبعض أهل العلم يقول: بل كان الوصف بحسب الموقِع الذي يقف منه الصحابيُّ ليصِفَ شعرَ رسول الله ﷺ، فإنْ وقف من أمامه فإنه يرىٰ من الشَّعر المستَقبِلِ للوجه ما يبلُغ شَحمَة الأذن، فيقول: يَبلُغ شعرُه شَحمَة أذُنيه، ومَن رآه من الخلف وقد استرسل إلىٰ المنكب يحكي أنه تجاوَز المَنكِب فيصِفَه بالجُمَّة أو اللِّمَّة، والأمر في ذلك واسِعٌ.

لكنَّ الرواياتِ علىٰ تعدُّدها تُثبِت غزارةَ شَعرِه ﷺ، وهو نوعٌ مِن الجَمال الذي كان يتَّصِف به ﷺ، ولهذا جاء في الروايات: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ ذِي لِمَّةٍ أَحْسَنَ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ**»، فكان هذا أحد عناصر الجمال التي أُوتيها المصطفىٰ ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣٧).

ثم في هذا النقل بيانٌ لبعض السُّنَن التي تتعلق بالعِناية بالشعر، والتعامل معه، وكيف كان هَديُ النبيِّ ﷺ، فإنَّ نبيَّنا ﷺ ما ترك أُمَّته إلا وقد بيَّن لها كلَّ ما تحتاج إليه في أمر دينها ودُنياها، وبقي علينا أن نبحث عن مواقِع تلك السُّنَن، ثم نُحيلها إلىٰ واقِعٍ عمليٍ نُطبِّقه في حياتنا.

قولها رضي الله عنها: «**كُنتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ**»، فيه لطيفةٌ وفائدةٌ فِقهيةٌ، وهي: جواز اغتسال الرجُل مع امرأته من إناءٍ واحدٍ.

قولها رضي الله عنها: «**كَانَ لَهُ شَعْرٌ فَوْقَ الجُمَّةِ وَدُونَ الوَفْرَة**»، تبيَّنَ أنَّ الجُمَّة أكثر من الوَفرة؛ فكيف تَصِف شَعرَه بأنَّه أكثر من الجُمَّة وأقلُّ من الوَفرة؟ يعني: كيف يكون فوق الأكثر ودون الأقل؟

هكذا الرواية عند الإمام الترمذي رحمه الله، لكنَّ الذي رواه الأئمة أحمد وأبو داود وابن ماجه[١] بالعكس: «فوق الوَفرَة ودون الجُمَّة»، ولعلَّه أَصَح.

فهي تَصِف الشعرَ بأنه أكثر من الوَفرَة، وأقلُّ من الجُمَّة، وهو الذي جاء في حديث بعض الصحابة بتسميته باللِّمَّة.

فاللِّمَّة هي المرتَبة الواقعة بين الجُمَّة والوَفرَة في غزارة الشَّعر ووَفرته.

***

(١) أخرجه أحمد (٢٤٧٦٨)، وأبو داود (٤١٨٧)، وابن ماجه (٣٦٣٥).

(صحيح) ٢٣ـ **عَنْ أُمِّ هَانِئٍ بِنتِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنها قَالَتْ: «قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ قَدْمَةً وَلَهُ أَرْبَعُ غَدَائِرَ»**(١) **وفي رواية: «ضَفَائِرَ»**(٢).

شرح الحديث

قوله: «**عَنْ أُمِّ هَانِئٍ بِنتِ أَبِي طَالِبٍ**»؛ أُمُّ هانئٍ بنتُ عمِّ رسول الله ﷺ، وأختُ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قولها رضي الله عنها: «**قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ قَدْمَةً**»، تصِف أمُّ هانئ ما رأته من شَعر رسول الله ﷺ، عندما قَدِم عليهم مرةً مكة وزارهم فيها، وكان ذلك عام الفتح لما دخل مكة فاتحًا، أتىٰ بيت أمَّ هانئ لَمَّا طلَبَته رضي الله عنها فأتىٰ عندها، فوصفت ما رأت من رسول الله ﷺ، ومن ذلك وصفُها لصلاته ثمانيَ ركعاتٍ من الضحىٰ في بيتها(٣).

قولها رضي الله عنها: «**قَدْمَةً**»؛ يعني: مَرَّةً من مرَّات قُدومه.

قولها رضي الله عنها: «**وَلَهُ أَرْبَعُ غَدَائِرَ**»، وفي روايةٍ: «**ضَفَائِرَ**»، وعند أبي داود(٤): «عقائص»، والضَّفِيرةُ والغَديرةُ والعقيصة: معروفةٌ عند العامّة، فالغَدِيرةُ والضَفِيرةُ: الخَصلةُ المُرسَلَة من الشَّعر، فإنَّ الشعر إذا كثُر واسترسل أخذته

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٨٩٠، ٢٨٣٨٩)، وأبو داود (٤١٩١)، والترمذي (١٧٨١)، وابن ماجه (٣٦٣١). وقال الترمذي: «غريب».

(٢) أخرجها الترمذي عقب الحديث رقم: (١٧٨١)، وقال: «حسن».

(٣) أخرجه البخاري (١١٠٣).

(٤) سنن أبي داود (٤١٩١).

المرأة وقَسمته قِسمين أو ثلاثة، كلُّ قِسم عبارة عن خَصلَة مُجتَمعة، تجمعها إلىٰ بعضها، فترسلها وتُسمَّىٰ غَديرةً أو ضفيرةً، فإذا لَوَتْ بعضَها علىٰ بعض ثم أرسلته سُمِّيت عَقيصَةً.

وحديثُ أمِّ هانئٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا برواياته يصِف شَعر رسول الله ﷺ لما قدِم مكة عام الفتح، وأنه كان شَعرًا وفيرًا مُسترسِلًا مِن خلفه علىٰ هيئة ضفائر، أو هيئة غدائر، يعني: قَسَم شعره نِصفين، ثم جعل كل نصفٍ من النصفين نصفين أيضًا، فصارت خِصالُ شعره أربعَ مجموعات، كلُّ مجموعةٍ عبارة عن خَصلة أو ضَفيرة أو غَديرة، فكانت تُجمَع إلىٰ بعضها، فلمَّا يرىٰ الناظر شَعره ﷺ بهذا الوصف يرىٰ شَعره وقد استرسل مِن خلفه علىٰ هيئة الضفائر أو الغدائر، وهي أربعُ جَدائلَ مُنسَدِلةٌ خلف ظهره ﷺ.

وأمَّا رواية أبي داود: «**عقائص**»، يعني: كانت معقوصةً ملفوفةً بعضُها إلىٰ بعض، مُلتَوِيةً يدخل بعضُها في بعض.

وهذه الهيئة في تقسيم الشعر علىٰ شكل ضفائرَ وغدائرَ وعقائصَ لا تُعرف اليوم في كثير من بلاد المسلمين إلا عند النساء، ولكن ينبغي أن يُعلم أنَّ هذا الفعل كان من صنيع العرب، يفعله الناسُ عادةً، ولم يكن أمرًا مُختَصًّا بالنساء، ففعل ﷺ ما كان يفعله الرجال عادةً في ذاك الزمان، وكونُ شَعرِه كان علىٰ هيئة ضفائر أو غدائر ليس فيه شيءٌ يُستنكَر، إنما قد يُستشكل اليوم لأنه لم يعُد شيئًا معلومًا ظاهرًا يراه الناس في الرجال، والعُرف والعادةُ في مثل هذا معتبَرةٌ شرعًا.

وينبغي مُراعاة أمرٍ آخر: وهو أنَّ هذا الوصف الذي حكته أمُّ هانئ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

محمولٌ علىٰ الحال التي بعُدَ فيها عهدُه ﷺ بتعاهُد شَعره أو العِناية به، فإنَّ القصة في فتح مكة، أي: في سفرٍ وارتحال، يعرِضُ فيه ما يعرِض للمسافر من اغبرارٍ وشَعَثٍ وقسوةِ الشمس وحرارتها.

***

(صحيح) ٢٤ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَسْدِلُ شَعْرَهُ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْرُقُونَ رُؤُوسَهُمْ، وَكَانَ أَهْلُ الكِتَابِ يَسْدِلُونَ رُؤُوسَهُمْ، وَكَانَ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ بِشَيْءٍ، ثُمَّ فَرَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأْسَهُ»(١).

شرح الحديث

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَسْدِلُ شَعَرَهُ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْرُقُونَ رُؤُوسَهُمْ، وَكَانَ أَهْلُ الكِتَابِ يَسْدِلُونَ رُؤُوسَهُمْ»، مَن كَثُر شعرُ رأسه فليس له إلا إحدىٰ طريقتين: إما السَّدل، وإما الفَرْق.

أمّا السَّدلُ: فأن يجمع شعرَ رأسه فيُرسله مِن خلفه إرسالًا، كما نقول اليوم: يُسَرِّحُه.

و(يسدل) بضمِّ الدال وكسرها، كِلاهما صحيح.

وأمَّا الفَرْق: فأن يَفرِق شعر رأسه مِن مُقدَّمَته فرقتين، فيجعل كلَّ فِرقةٍ في ناحية، فإذا فَرَق نصفَ الشعر أصبح النصف الأيمن علىٰ شكل ذؤابَةٍ أو غديرةٍ أو ضفيرةٍ، فتكون فرقةً، وتكون الناحية الأخرىٰ فرقةً مثلها.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٥٨)، ومسلم (٢٣٣٦).

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَسْدِلُ شَعْرَهُ**»؛ أي: عمِل أولًا بالسَّدل.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**وَكَانَ المُشْرِكُونَ يَفْرُقُونَ رُؤُوسَهُمْ**»؛ يعني: كفَّار قريش.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**وَكَانَ أَهْلُ الكِتَابِ يَسْدِلُونَ رُؤُوسَهُمْ، وَكَانَ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ بِشَيْءٍ**»، فوافق صنيعُ رسول الله ﷺ صنيعَ أهل الكتاب أوَّل الأمر.

ووجهُ حُبِّه موافقةَ أهل الكتاب مع كون كلٍّ من المشركين وأهل الكتاب كَفَرَةً، كما قال الله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]؛ أنَّ كُفرَ أهل الكتاب أخفُّ؛ لأنَّ كفرَهم أقرب إلىٰ الإيمان، وذلك أنَّ عندهم أصلَ الإيمان وهو الإيمان بالله وبالرسالات السابقة إن كانوا يهودًا أو نصارىٰ، وعندهم كتابٌ سماويٌ مُنَزَّل؛ فهم بذلك أقرب إلىٰ الإسلام من الكفرة الوثنيين عُبَّاد الأصنام.

ولذلك قررت الشريعةُ جملةً من الأحكام التي يفترق فيها حكم الكافر الكتابي عن الكافر الوثني، ومن ذلك: حِلُّ ذبائح اليهود والنصارىٰ دون ذبائح الوثنيين، وحِلُّ نكاح الكتابيات دون نكاح الوثنيات، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ ـ أي أيضًا حلال ـ ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

في الوقت الذي يقول الله عَزَّ وَجَلَّ فيه وهو ينهىٰ عن نكاح المشركين من

الكفرة من غير أهل الكتاب: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

فتبيَّن من ذلك أنَّ الشريعةَ تعامل الكفرةَ مِن أهل الكتاب في جملةٍ من الأحكام علىٰ نحوٍ أخفَّ مما تعامل به الكفرة الوثنيِّين، ومن هذا الباب رغبةُ رسول الله ﷺ في التشبُّه بأهل الكتاب بالقيد الذي ذكره ابن عباس: «**فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ بِشَيْءٍ**»، يعني: ما لم ينزل حكمٌ يختصُّ بالمسلمين فإنه كان يوافقهم.

والملحظ والضابط الآخَر أن يكون الأمر في باب العادات لا في العبادات، أما العبادات فلا تَشبُّهَ فيها إطلاقًا، لا بملةٍ كتابية ولا بملةٍ وثنية، بل الشرائع والتعبُّدات في الإسلام جاءت علىٰ نحوٍ مستقلٍ متكامل، فلسنا نتشبَّه في حجِّنا ولا صومنا ولا طوافنا ولا سعينا البتة بأمةٍ من الأمم السابقة؛ لا باليهود ولا بالنصارىٰ ولا بغيرهم.

ولو قال قائل: إنَّ صيامَنا يشبِهُ بعض صيام اليهود والنصارىٰ، أو إنَّ حجَّنا يُشبه في بعض مناسكه حجَّ المشركين قبل الإسلام، أو يُشبِه حجَّ ملَّةٍ من المِلل.

فالجواب: أنَّه إن وقع شيءٌ من ذلك تشابُهًا فإنَّه ليس المقصود فيه التشبُّه لذاته، لكنه التوافق الذي يقع بين بعض الملل في بعض الشرائع.

قوله رضي الله عنه: «**ثُمَّ فَرَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأْسَهُ**»، فحَكىٰ أنَّه كان يسدل وكان يَفرُق، وثَبَت مِن سُنَّته ﷺ كلٌّ من السَّدل والفَرق، فكِلاهما ثابت. وجماعُ ذلك

ما قاله ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنَّ النبيَّ ﷺ كان أوَّلًا يَسدلُ شعره، ثم فَرَقه»(١).

ويُستَحسَن ههنا أن نختم بمسألةٍ، وهي: هل من السُّنَّة أن يكون لطالب العلم أو للمقتدي برسول الله ﷺ عنايةٌ بإطالة الشعر؟

والجواب عن ذلك: أنَّ أفعالَه ﷺ تنقسم إلىٰ أقسام: منها ما يصدر علىٰ وجه العادة، فمَن نظر إلىٰ عادة العرب في شعر رؤوسها في ذلك الزمان عرف أنها عادةٌ استقرّت عندهم، فما كان يفعله ﷺ في شعره وثيابه كان موافقًا لما كانت عليه عادة الناس، ولم يكن يتميَّز بشيءٍ يفعله من باب كونه نبيًا ﷺ.

فمثل هذا من الأفعال لا يُقال إنَّ فعلَها سُنةٌ في كل زمانٍ ومكان، بل من خالف عُرف الناسِ وعادتهم في الشعر واللباس فقد جاء بما هو شاذٌّ ومنكر، ونبيُّنا ﷺ ما كان يعمد إلىٰ مخالفة ما استقرَّ عليه عُرف الناس.

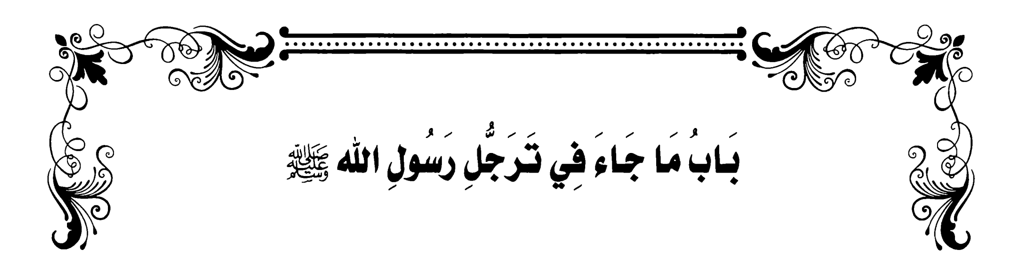
وبعض الناس تحمله محبّةُ النبيِّ ﷺ علىٰ مشابهته في لبس العِمامة وإطالة الشعر ونحو ذلك من أفعال العادات، فيُقال له: هنيئًا لك المحبَّة العظيمة التي ملأت قلبك، فسَرَت إلىٰ سائر تصرُّفاتك وأقوالك وأعمالك، لكن بشرط أن تكون هذه المحبة الصادقة باديةً عليه في شأنه كله.

وعلىٰ هذا يُحمَل قول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سُئل عن إطالة الشعر: هل هو سُنَّة؟ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو سُنةٌ، لو نَقوَىٰ عليه لاتَّخذناه»(٢).

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٦٨).

(٢) الشرح الكبير (١/ ١٠٥).



بَابُ مَا جَاءَ فِي تَرَجُّلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

التَرَجُّل: العناية بشَعر الرأس، يُقال: رجَّلَ رأسَه أو رَجَّلَ شَعرَه إذا اعتنىٰ به، فمشَطَه ودَهَنه أو غسله، واستعمل فيه ما يحسُن معه شعر الرأس.

وقد كانت الحياة في ذلك الزمان قليلةَ الترفُّه والتَنعُّم، والماء الذي يوجد في البيوت كان قليلًا، وبالكاد يقضي حاجة استعماله للشرب والأكل ونحوه، ومن ههنا لم يكن الشأن في عناية أحدٍ بشعر رأسه كما نفعل نحن اليوم، أن نغسله مرَّاتٍ، وربما تأتَّىٰ للواحد منَّا أن يغسل بدنه ورأسه في اليوم أكثر من مرَّة، لكن الشأن في تلك الأوقات كان أصعب، فكان أحدهم يغتسل كلَّ جمعة، أو إذا وجب عليه الغُسل لجنابةٍ ونحوها، وما كان الأمر بهذه السعة، فإذا أضفت إلىٰ ذلك ما كانت حياتُهم عليه من التعُّرض الكثير للشمس والغبار، وعدم وجود أسقف تعزل، ولا جدران تقي، فإذا جمعت ذلك كله تكوَّنت لك صورةٌ أنَّ الغالب في هيئة أحدهم إذا اعتنىٰ بها، واهتم بمظهره أن يكون نظيفَ البدن نظيفَ الثوب، لا علىٰ ما نتصوَّر اليوم من تنعُّمٍ ورفاهية نتقلَّب فيها ليلَ نهارٍ!

فلذلك عندما يُذكَر الترجُّل في شأنه ﷺ وفي هديه، فإنها العناية الكاملة بالمظهر والهيئة والشكل، والعناية أيضًا بحُسن الصورة التي كان النبيُّ ﷺ يحرص عليها.

***

(صحيح) ٢٥ـ **عَنْ عَائِشَةَ** ﵂ **قَالَتْ: «كُنتُ أُرَجِّلُ رَأْسَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَنَا حَائِضٌ»**(١).

شرح الحديث

قولها ﵂: «**كُنتُ أُرَجِّلُ رَأْسَ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»؛ أي: أَمشِط شعرَ رأسه.

والحديث دلَّ علىٰ **فوائد ثلاثةٍ**، بعضها ألطفُ من بعض:

الفائدة الأولىٰ: عنايته ﷺ بشعر رأسه، ولذلك كان يرجِّلُه، ولو لم يكن يعتني به ما رجَّله ولا مشَطَه، لكنه كان ﷺ في أكمل الأحوال في العناية بسَمْته وهيئته.

الفائدة الثانية: أنَّ الذي كان يُرجِّلُه زوجتُه عائشة ﵂، ولا يخفىٰ ما في ذلك من عظيم الوُدِّ والملاطفة بين الرجُل وزوجته، ولذلك وصفَتْ فِعلها بغاية الفرح والسرور.

أما **الفائدة الثالثة**: فقولها: «**وَأَنَا حَائِضٌ**»، فأفادت بذلك حكمًا فقهيًا صريحًا، أنَّ المرأة حالَ حيضِها ليست نجسة، نعم هي ليست طاهرةً طهارةَ العبادات؛ فلا تصلِّي ولا تصوم، فنفيُ وصفِ الطهارة عن الحائض ليس مثبِتًا لنجاستها أو قذارتها كما يظنه بعضُ العوامِّ، ولذلك ربما سأل بعضُ الناس: هل يجوز للمرأة الحائض أن تطبخ لنا الطعام؟ أو تصنع لنا الشاي؟ أو أن تسقيني الماء؟ يتصوَّر عدم الطهارة المعنوية يعني النجاسة الحسيَّة والقذارة فلا يُتعامل معها بشيء.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٥)، ومسلم (٢٩٧).

بل لما طلب منها ﷺ الخُمرَةَ من المسجد قالت: إِنِّي حَائِضٌ، فَقَالَ: «**إِنَّ حَيْضَتَكِ لَيْسَتْ فِي يَدِكِ**»(١) أثبت ﷺ طهارتها، وبيَّن أيضًا بمقتضىٰ هذه الأحاديث وغيرها أنَّ عدم طهارة الحائض وصفٌ معنويٌّ، يقتضي عدم صحَّة العبادة التي تُشترَط لها الطهارة، وهي الصلاة مثلًا أو الطواف، وعدم صحة الصيام، علىٰ ما تقرر في أحكام الشريعة، وما عدا ذلك فإنها طاهرة، تفعل ما يفعله الناس كلهم.

وقد قال ﷺ لعائشةَ رضي الله عنها لما حاضت وقد أتت مكة في حجَّة الوداع، ولم تأتِ بالعمرة قبل الحج، وقد أصابها الدم فحزنت لذلك فأمرها أن تُتمَّ النُّسُك قائلًا لها: «**افْعَلِي مَا يَفْعَلُ الحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لا تَطُوفِي بِالبَيْتِ حَتَّىٰ تَطْهُرِي**»(٢)، فأذِن لها أن تقِف بعرفة، وأن ترميَ الجمرات، وأن تبِيتَ في مِنىٰ ومزدلفة، وأن تذكُر الله وأن تكبِّره، وأن تدعوَ يوم عرفة، وأن تفعلَ كلَّ أفعالِ الحج، سوىٰ أنها لا تطوف بالبيت، لأنه عبادةٌ تُشترَط لها الطهارة.

***

(ضعيف) **٢٦ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ دَهْنَ رَأْسِهِ، وَتَسْرِيحَ لِحْيَتِهِ، وَيُكْثِرُ القِنَاعَ؛ حَتَّىٰ كَأَنَّ ثَوْبَهُ ثَوْبُ زَيَّاتٍ»**(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٥٠)، ومسلم (١٢١١).

(٣) ضعَّفه الألباني في الضعيفة (٢٣٥٦)، وقال: في إسناده ضعيفان.

شرح الحديث

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ دَهْنَ رَأْسِهِ»؛ أي: يستعمل الزيت الذي يَدهنُ به الرأس، وفائدة الادِّهان بالزيت: ترطيبُ الشعر، وتليينُه، وإزالةُ غُبرته، وتسكينُ الشعر إذا وَقفَ وتناثَر وأصابه الجفاف واليُبس.

ويستعمل الناس اليوم بعض المرطِّبات وغيرها مما يجعلونه علىٰ شعورهم بما يحقق هذا الوصف، مما لم يكن متوفرًا في ذلك الزمان، بل كانوا يستعملون الزيت ويُعبَّرُ عنه بالدُّهن، سواءٌ كان زيت الزيتون، أو زيت السمسم ونحوه.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَتَسْرِيحَ لِحْيَتِهِ»؛ يعني: أيضًا كان يُكثِر تسريحَ لحيته.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَيُكْثِرُ القِنَاعَ»؛ القِناع: قطعةٌ من القماش توضع علىٰ الرأس بعد دَهنه بالزيت لئلَّا يُلطِّخ باقي الثياب والملابس وسائر أثاث البيت.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَتَّىٰ كَأَنَّ ثَوْبَهُ ثَوْبُ زَيَّاتٍ»، يكون ثوبُه كثوب الزيَّات؛ كثير البُقَع، وهذا نوعٌ من المبالغة في الوصف الذي يدلُّك علىٰ كثرة استعماله للزيت ودهن رأسه.

والحديث ضعيفٌ لا يصحُّ، وقد قال ابن كثيرٍ وغيره: فيه غرابةٌ ونكَارَةٌ.

أمَّا السند فضعيفٌ لضعف بعض الرواة.

وأمَّا النكَارَة كما قال بعض العلماء: إنه لم يثبت في أوصاف هيئةٍ وثيابٍ ومنظرِ رسولكم ﷺ قطُّ علىٰ لسان أيِّ أحدٍ من الصحابة أنَّه كان مبتذَل الهيئة، أو كان رثَّ المنظرِ، أو كان غير مُعتنٍ بثيابه البتة ﷺ، بل كان تامَّ النظافة، وعلىٰ أتمِّ وُجوه التطيُّب، وكمال الهيئة والمنظر في مظهره ولباسه(١).

---

(١) جمع الوسائل في شرح الشمائل (١/ ٨٤).

بل كان ينكر ﷺ علىٰ مَن يرىٰ منه ذلك، ففي سُنن أبي داود[(١)] من حديث جابرٍ رضي الله عنه قال: «أَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَرَأَىٰ رَجُلا شَعِثًا قَدْ تَفَرَّقَ شَعْرُهُ ـ يعني: أصاب شعرَه مِن الخشونة واليُبس ما تفرَّق به شعرُه ووقف وتناثر ـ، فَقَالَ: «**أَمَا كَانَ يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ؟**»، وَرَأَىٰ رَجُلا آخَرَ عَلَيْهِ ثِيَابٌ وَسِخَةٌ، فَقَالَ: «**أَمَا كَانَ يَجِدُ هَذَا مَا يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ؟**»».

هذا نبيُّكم ﷺ، وهذا دينكم أيها المسلمون، دينُ النظافة والطهارة، والجمال والعناية بالمسلم في منظره وهيئته ولباسه.

ولكن ليست العنايةَ المبالَغ فيها، وليس الإغراقَ في المظاهر والشكليات، والترف والإسراف فيما يتعلَّق بالعناية بمظهر الإنسان وبثيابه، كلَّا! لكنه الاعتدالُ الوسطُ القصدُ الذي كان عليه شأن نبيِّكم ﷺ في أمره كلِّه؛ نعم، ما كان مُبتَذَل الهيئة رثَّها، ولكن أيضًا ما كان يلبس الحرير ولا يرضاه، وما كان يتنعَّم ﷺ، ولا يعتني بشعره كلَّ يومٍ وليلة، ولا يزاحم النساء علىٰ المرآة.

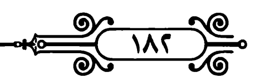
***

(صحيح) **٢٧ـ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «إِن كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيُحِبُّ التَّيَمُّنَ فِي طُهُورِهِ إِذَا تَطَهَّرَ، وَفِي تَرَجُّلِهِ إِذَا تَرَجَّلَ، وَفِي انتِعَالِهِ إِذَا انتَعَلَ**»[(٢)].

---

(١) سنن أبي داود (٤٠٦٢)، ورواه النسائي في الكبرىٰ (٨/ ٣١٥، رقم: ٩٢٦١)، وأشار إلىٰ الاختلاف في وصله وإرساله، وقال أحمد: «ما أنكره من حديث، ليس إنسان يرويه، يعني: عن ابن المنكدر غير حسان». مسائل أحمد رواية أبي داود (ص٤٠٦ـ ٤٠٧، رقم: ١٩١٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٨).



شرح الحديث

هذا حديثٌ يمثِّلُ قاعدةً نبويةً عامَّةً، وهو أنه ﷺ كان يعجبُه التَيمُّن في كل شيء.

ومعنىٰ التيمُّن: البَدءُ بالجانب الأيمن في كلِّ أمرٍ يتحقق فيه الجانبان الأيمن والأيسر.

قولها رضي الله عنها: «**إِن كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيُحِبُّ التَّيَمُّنَ فِي طُهُورِهِ إِذَا تَطَهَّرَ**»؛ أي: كان يعجبه التيمُّن في طهوره إذا تطهَّر، فيبدأ باليد اليمنىٰ قبل اليسرىٰ، وبالرِّجل اليمنىٰ قبل اليسرىٰ، بل أيضًا في غُسل بدنه إذا اغتسل يبدأ بشِقِّه الأيمن، وهذه مِن السُّنن التي لا يكاد يطبِّقها إلا مَن استحضر دومًا سُنة النبيِّ ﷺ في التيامُن.

ويمكن للمرء اليوم الذي يُصَبَّ عليه الماء صبًّا بالمِروَش ولا يغترف اغترافًا أن يطبِّق هذه السُّنة؛ فيقفَ بنصف جسده الأيمن تحت الماء النازل علىٰ جسده، فإذا غسله أتىٰ علىٰ جانبه الأيسر.

قولها رضي الله عنها: «**وَفِي تَرَجُّلِهِ إِذَا تَرَجَّلَ**»؛ يعني: في تمشيط شعر رأسه كان يبدأ بالجانب الأيمن فيمشِطُه ويرجِّلُه، وإذا دهنَ بدأ بالشِّقِّ الأيمن، بل حتىٰ في حلق رأسه عام حجَّة الوداع لما انتهىٰ من النُّسُك وأتىٰ إلىٰ أبي طلحة رضي الله عنه يحلق رأسه أعطاه جانب شِقَّه الأيمن وأمره أن يسمِّي بالله، فحلق شِقَّ رأسه الأيمن، فلما انتهىٰ بدأ بالشِقِّ الأيسر(١).

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٠٥).

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**وَفِي انتِعَالِهِ إِذَا انتَعَلَ**»؛ يعني: إذا لبس النِعال بدأ بالرجل اليمنىٰ.

وفي روايةٍ أخرىٰ عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الصحيحين تقول: «**وفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ**»(١)، قال أهل العلم(٢): هذا العموم محمولٌ علىٰ ما كان التيمُّن فيه للتبرُّكِ، أو لما كان التيمُّن فيه من باب الإحسان؛ كلبس الثوب، ودخول المنزل، ودخول المسجد، والوقوف في الصفِّ إذا استوىٰ طرفاه، لقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ مَيَامِنِ الصُّفُوفِ**»(٣)، ونحو ذلك، فإن السُّنَّة فيه أن يبدأ بالجانب الأيمن.

أما دخول الخلاء فإنه ليس موضع تكريمٍ، فلا يبتدئ برجله اليمنىٰ، بل يبتدئ باليسرىٰ في الدخول وباليمنىٰ في الخروج.

***

(صحيح) ٢٨ـ **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: «نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ التَّرَجُّلِ إِلَّا غِبًّا»**(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨).

(٢) انظر: إحكام الأحكام (١/ ٩١).

(٣) أخرجه أبو داود (٦٧٦)، وابن ماجه (١٠٠٥)، وهو حديث غير محفوظ. انظر: ذخيرة الحفاظ (١/ ٥٩٦، رقم: ٩٨٥)، وضعيف أبي داود ـ الأم (١/ ٢٣٢، رقم: ١٠٤).

(٤) أخرجه أحمد (١٦٧٩٣)، وأبو داود (٤١٥٩)، والترمذي (١٧٥٦)، والنسائي (٥٠٥٥). وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(ضعيف) ٢٩ـ **عَن رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النبيِّ ﷺ: «أَنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ يَتَرَجَّلُ غِبًّا»**(١).



الغِبُّ: الحين بعد الحين، واليوم بعد اليوم، وعدم المداومة والاستمرار كل حين.

فالحديثان ـ وإن كان الثاني ضعيفًا ويشهد له الأوّل ـ فيهما إثبات سُنَّةٍ مِن سُنن الترجُّل، وهي الاعتدال والتوسُّط في الاعتناء بالشَّعر، ودليل هذا التوسُّط والاعتدال قوله ﷺ: «**نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ التَّرَجُّلِ إِلَّا غِبًّا**»، أي: كان ينهىٰ عن الترجُّل إلا يومًا بعد يوم.

وفي الحديث الآخر: «**أَنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يَتَرَجَّلُ غِبًّا**»؛ يعني: كان أحيانًا يترجَّل، وأحيانًا يترك الترجُّل، ومن كان كذلك رأيتَ علىٰ شعره أثَرَ العناية بشكلٍ غير مُبالَغٍ فيه، وفي الوقت نفسه لا يمكن أن ترىٰ عليه آثارَ الإهمال، فالغِبُّ ههنا حقَّق له التوسُّط من غير مبالَغة.

** ** **

(١) قال الألباني: «إسناده ضعيف، فيه يزيد أبو خالد عبد الرحمن الدالاني، وهو صدوق يحطئ كثيرًا، ويغني عن حديثه هذا حديثُ عبد الله بن مغفّل الذي قبله».




بـابُ ما جاءَ في شَيْبِ رسُولِ اللهِ ﷺ

(صحيح) ٣٠ـ عَن قَتَادَةَ قَالَ: قُلْتُ لِأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَلْ خَضَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: لَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ، إِنَّمَا كَانَ شَيْبًا فِي صُدْغَيْهِ، وَلَكِنْ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَضَبَ بِالحِنَّاءِ وَالكَتَمِ»(١).

(صحيح) ٣١ـ عَن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَا عَدَدْتُ فِي رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلِحْيَتِهِ إِلَّا أَرْبَعَ عَشْرَةَ شَعْرَةً بَيْضَاءَ»(٢).

شرح الحديث

بعد أن عُرِف في بابٍ سابقٍ غزارةُ ووفرةُ شعر رأسه ولحيته ﷺ؛ يأتي هذا الباب لبيان وصفٍ آخر من أوصاف شعره وهو شَيبُه ﷺ.

يصِفُ الصحابة شَيبَ النبيِّ ﷺ في أحاديث متعدِّدة، جِماعُها أمران:

أوّلهما: أنَّ الشَّيبَ في رأس رسول الله ﷺ كان قليلًا، شَعراتٌ معدوداتٌ ما تجاوزت عشرين شعرةً.

والآخر: أنَّ شَيبَه ﷺ كان في ثلاثة مواضع من رأسه:

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٩٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٦٩٠).

الموضع الأول: الصُّدغان، وهما: موضعا التقاء شعر الرأس باللحية.

الموضع الثاني: العَنْفَقَة، وهي: الشعر الواقع بين الشَّفةِ السُّفلىٰ والذَّقَن.

الموضع الثالث: نُبَذٌ يسيرةٌ في مَفرِق رأسه، أي: إذا فَرَق شعر رأسه كانت تبدو شعراتٌ يسيراتٌ فيها شيبٌ.

وقد جاء ذلك من رواية أنس ﵁: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَخْضِبُ، إِنَّمَا كَانَ الشَّمَطُ عِنْدَ العَنْفَقَةِ يَسِيرًا، وَفِي الصُّدْغَيْنِ يَسِيرًا، وَفِي الرَّأْسِ يَسِيرًا**»[(١)].

وما عدا ذلك فشعرُ لحيته في جوانبه عامةً لم يكن فيه شيءٌ من الشَّيب، كما أنَّ شعر رأسه عمومًا ﷺ ما غزاه الشَّيب ولا ظهر فيه بكثرة.

قوله: «**هَلْ خَضَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟**»؛ يعني: هل استعمل الخِضاب لصَبغِ شَيبِه وتغيير لونه؟

قول أنس ﵁: «**لَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ**»؛ يعني: لم يبلغ به الشيبُ أنْ يحتاج ﷺ إلىٰ الخضاب، وذلك لقلّة الشعرات البِيض في رأسه.

وقد ثبت من حديث أبي جُحَيفة ﵁ ـ في صحيح مسلمٍ[(٢)] ـ قال: «**رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَبْيَضَ قَدْ شَابَ، كَانَ الحَسَن بنُ عَليٍّ يُشْبِهُه**».

ولا يعني أبو جُحَيفة ﵁ أنَّ الشَّيبَ قد أصبح عظيمًا منتشرًا في شعر رسول الله ﷺ، ولكن يقصد أنه رأىٰ بعضَ الشعرات البِيض؛ فوصفه بالشيب ﷺ.

---

(١) أخرجه النسائي (٥٠٨٧)، بإسنادٍ صحيح.

(٢) صحيح مسلم (٢٣٤٣).

يؤكِّد ذلك روايةُ أبي جُحَيفة نفسه ـ عند مسلم(١) ـ قال رضي الله عنه: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، هَذِهِ مِنْهُ بَيْضَاءَ»، وَوَضَعَ زُهَيْرٌ ـ راوي الحديث ـ بَعْضَ أَصَابِعِهِ عَلَىٰ عَنْفَقَتِهِ.

وفي حديثٍ لأنس رضي الله عنه في صحيح مسلم(٢): أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ شَيْبِ النبيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا شَانَهُ اللهُ بِبَيْضَاء**»، يريد: أنَّ الشيبَ الذي وقع به ﷺ يسيرٌ قليلٌ، ما أثَّر في حُسن وجهه وجمال طلعته؛ لأنَّ الشَّيبَ في الغالِب يدلُّ علىٰ ذهاب الشباب ونضارته، فأراد أنسٌ رضي الله عنه أن ينفيَ هذا عن النبيِّ ﷺ، وأنَّ الله ما توفَّاه إلا وهو علىٰ كمالِ الحُسن في خلقته.

قول أنس رضي الله عنه: «**وَلَكِنْ أَبُو بَكْرٍ** رضي الله عنه **خَضَبَ بِالحِنَّاءِ وَالكَتَمِ**»؛ الحِنَّاء: معروفٌ، وهو نباتٌ يُستعمل في صبغ الشعر واليدين والقدمين باللون الأحمر؛ للزينة وتغيير الشَّيب ونحو ذلك، أمَّا الكَتَم فهو نباتٌ آخر، إذا صُبِغَ به يعطي لونًا داكنًا قريبًا إلىٰ السواد وليس بأسود، فهذا وصفُ خِضاب أبي بكرٍ رضي الله عنه وأنه كان خليطًا بين الحِنَّاء والكَتَم، فيعطي لونًا ليس بالأحمر القاني ولا بالأسود الداكن، لكنه أحمرُ مُسْوَدٌّ، أو أسودُ مُحْمَرٌّ.

وفي بعض روايات الحديث: أنَّ أنسًا رضي الله عنه وصف هذا الخِضاب لكلٍّ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما(٣).

---

(١) صحيح مسلم (٢٣٤٢).

(٢) صحيح مسلم (٢٣٤١).

(٣) أخرجه أحمد (١١٩٦٥).

قول أنس ﵁: «**مَا عَدَدْتُ فِي رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلِحْيَتِهِ**»، ليس المقصود أنه عدَّها بأصابعه، وإنما لَحَظَها ببصره؛ لأجل ذلك كان يختلف عليه العدُّ كلَّ مرة؛ فتتوارىٰ بعضُ الشعرات البيضاء خلف السوداء أحيانًا فلا يراها ببصره.

قول أنس ﵁: «**إِلَّا أَرْبَعَ عَشْرَةَ شَعْرَةً بَيْضَاءَ**»، هذا العدد ليس علىٰ التعيين، لكنه علىٰ التقريب؛ بدلالة الروايات الأخرىٰ عن أنس ﵁، كما ورد عند ابن ماجه[(١)] قال: سُئِلَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﵁: أَخَضَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: «**إِنَّهُ لَمْ يَرَ مِنَ الشَّيْبِ إِلَّا نَحْوَ سَبْعَةَ عَشَرَ، أَوْ عِشْرِينَ شَعَرَةً فِي مُقَدَّمِ لِحْيَتِهِ**»، وفي صحيح البخاري[(٢)] أيضًا عن أنس ﵁ يقول: «**وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعَرَةً بَيْضَاءَ**».

فلو جمعتَ الروايات يتبيَّن لك أنَّه تقريبٌ، وأنه في جملته لا يتجاوز عشرين شعرة بيضاء.

***

(صحيح) **٣٢ـ عَن سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ سَمُرَةَ ﵄، وَقَدْ سُئِلَ عَن شَيْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «كَانَ إِذَا دَهَنَ رَأْسَهُ لَمْ يُرَ مِنْهُ شَيْبٌ، وَإِذَا لَمْ يَدْهِنْ رُئِيَ مِنْهُ شَيْءٌ»[(٣)]، وَفِي رِوَايَةٍ: «لَمْ يَكُن فِي رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْبٌ إِلَّا شَعَرَاتٌ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، إِذَا ادَّهَنَ وَارَاهُنَّ الدُّهْنُ»[(٤)]**.

---

(١) سنن ابن ماجه (٣٦٢٩).

(٢) صحيح البخاري (٣٥٤٧)، وصحيح مسلم (٢٣٤٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٤٤).

(٤) أخرجه أحمد (٢٠٨٤٠)، والحاكم (٤٢٠٢).



شرح الحديث

قوله رضي الله عنه: «كَانَ إِذَا دَهَنَ رَأْسَهُ»؛ أي: دَهَنه بالزيت علىٰ عادة العرب.

قوله رضي الله عنه: «كَانَ إِذَا دَهَنَ رَأْسَهُ لَمْ يُرَ مِنْهُ شَيْبٌ»؛ يشير إلىٰ قِلَّة عدد الشعرات البِيض، بحيثُ إذا استعمل النبيُّ ﷺ الدّهن اختفىٰ ذلك الشيبُ؛ لِما يبدو من لمعة الدّهن وبريقِه.

قوله رضي الله عنه: «وَإِذَا لَمْ يَدْهَنْ رُئِيَ مِنْهُ شَيْءٌ»؛ يشير إلىٰ قِلَّة الشيب، يعني: عددٌ يسيرٌ.

قوله رضي الله عنه: «لَمْ يَكُن فِي رَأْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْبٌ إِلَّا شَعَرَاتٌ»؛ يعني: قليلات.

قوله رضي الله عنه: «إِذَّا ادَّهَنَ وَارَاهُنَّ الدُّهْنُ»؛ أي: إذا استعمل الزيت غطَّاهُن الدُّهْنُ.

***

(صحيح) ٣٣ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عمرَ رضي الله عنهما قَالَ: «إِنَّمَا كَانَ شَيْبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَحْوًا مِنْ عِشْرِينَ شَعْرَةً بَيْضَاءَ»[١].



شرح الحديث

قوله: (عن عبدِ الله بن عمر)، هذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم[٢]

---

(١) أخرجه أحمد (٥٦٣٣)، وابن ماجه (٣٦٣٠).

(٢) صحيح البخاري (٣٥٤٧)، وصحيح مسلم (٢٣٤٧).

عن أنس رضي الله عنه، وهو في الرواية عن أنس رضي الله عنه أصحُّ من روايته عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ لذلك اختارها الشيخان في صحيحيهما ـ رحم الله الجميع ـ.

قوله رضي الله عنه: «**إِنَّمَا كَانَ شَيْبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَحْوًا مِنْ عِشْرِينَ شَعْرَةً بَيْضَاءَ**»، ورواية أنس في الصحيحين علىٰ الجزم بأنها لا تبلغ هذا العدد ـ كما مرَّ ـ، وإنما هي دون ذلك.

وجملة هذه الروايات تدلُّ علىٰ أنَّ الشيبَ كان في رأس نبينا ﷺ شيئًا يسيرًا، وقد مدَّ الله في عمره إلىٰ ثلاث وستين سنة، فبقي وصفُه بكمال الحسن والجمال والبهاء إلىٰ آخر حياته ﷺ.

***

(صحيح) **٣٤ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ شِبْتَ. قَالَ: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالوَاقِعَةُ، وَالمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»**(١).

(صحيح) **٣٥ـ عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، نَرَاكَ قَدْ شِبْتَ. قَالَ: «قَدْ شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا»**(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٧)، وابن أبي شيبة (٣٠٢٦٨).

وأعلَّه الدارقطني بالاضطراب. انظر: العلل (١/ ١٩٣ ـ ٢١١).

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (٨٨٠)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٢٣).

شرح الحديث

هذان حديثان أحدهما عن ابن عباس، والآخر عن أبي جُحَيفة رضي الله عنهما، يذكران فيه معنىً آخر للشَّيب يُنسب إلىٰ رسول الله ﷺ، وهو شَيبٌ مجازيٌّ ومعنويٌّ، وليس حقيقيًّا.

قوله رضي الله عنه: «**قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ شِبْتَ**»؛ يعني: قد ظهر عليك الشَّيبُ، يقصد رضي الله عنه تلك الشعرات المعدودات التي رآها في رأسه ﷺ ولحيته.

قوله ﷺ: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالوَاقِعَةُ، وَالمُرْسَلاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**»، نقله ﷺ إلىٰ الإجابة عن معنىً آخر غير الذي سأل عنه أبو بكر؛ لأنَّ أبا بكر سأله عن الشَّيب الذي بدا عليه، والعادة أنَّ الإجابةَ عن هذا السؤال تكون بتقدُّم السِّنِّ مثلًا، أو بِهَمٍّ عظيمٍ يعيشُه صاحبه، أو بحزنٍ شديدٍ أَلَمَّ به فكان سببًا في ظهور الشَّيب، لكنه ﷺ نقل أبا بكر رضي الله عنه والأمَّة من بعده إلىٰ معنىً عظيم يجب الوقوف عليه، وهو: الهمُّ الحقيقيُّ الذي يحمله ﷺ.

قوله ﷺ: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالوَاقِعَةُ، وَالمُرْسَلاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**»، سمَّىٰ في هذه الرواية هذه السُّوَر الخمس، وفي الرواية الأخرىٰ اكتفىٰ بقوله: «**هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا**».

هذه السُّوَر مِن السُّوَر المكِّية التي مُلئت بأحاديث الوعد والوعيد، والجنة والنار، كما هو الشأن في السُّوَر المكِّية علىٰ العموم.

يريد ﷺ: أنَّ الذي شيَّبه حقيقةً وحمل همَّه هو ما جاء في هذه السُّوَر العظيمة، من الآيات الجليلة التي ترجُفُ معها القلوب وتشيب لها الرؤوس،

من وصف القيامة، ووصف الجنة والنار، وعقاب الله للأمم المكذبة، وسطوة الجبَّار، وغضب القهَّار، هذا الذي أوقع الشَّيبَ به ﷺ.

ولأجل ذلك قال ﷺ في الحديث الصحيح: «**مَن سَرَّهُ أَن يَنظُرَ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ، وَأَحْسَبُ أَنَّهُ قَالَ: سُورَةَ هُودٍ**»[(١)] أي: من أراد أن يَعرف يوم القيامة وأهواله وأحواله كأنه يراه رأيَ عَين فليقرأ هذه السُّوَر؛ لأنها تصفُ حوادث الكون واضطرابات الخليقة عندما تقع القيامة كأنها رأيُ عَين.

وهنا وقفةٌ عظيمةٌ من هذه الأحاديث تبيِّنُ مسألة: كيف يعيش أحدنا حياته بالقرآن ومع القرآن؟ متأملًا له، متدبرًا لما فيه، وليس قارئًا أو حافظًا يمرُّ عليه مرور الكرام؛ فقد أصابه الشَّيبُ ﷺ بسبب ما يقرؤه من أهوال يوم القيامة التي يشيب لهولها الولدان، كما قال الله ﷻ: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٧ ـ ١٨]، وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

هذه رسالةٌ من نبيِّكم ﷺ إلىٰ الأمَّة مِن ورائه إلىٰ يوم القيامة: أنْ عِيشوا مع القرآن، واسمعوهُ بقلوبكم قبل آذانكم، واستشعروا معانيَه، وتدبَّروا ما تضمَّنته تلك الآيات والأوصاف.

---

(١) أخرجه أحمد (٤٨٠٦)، والترمذي (٣٣٣٣).

* لفتة إيمانية:

نعم، قد شاب نبيُّكم ﷺ بظهور بعض الشعرات البيض في رأسه، لكنه أبدًا ﷺ ما شابت هِمَّته ولا شاب قلبُه في تبليغ رسالة ربِّه، وعاش نبيُّكم ﷺ إلىٰ اليوم الأخير من حياته لم يهِن عزمُه، ولم تفترُ هِمَّتُه في تبليغ رسالة ربِّه، بل حتىٰ وهو علىٰ فراش موته ﷺ لا يزال يوصي ويرسل الرسائل لأمَّته، ويقول: «**الصَّلاةَ الصَّلاةَ، ومَا مَلَكَتْ أيْمَانُكُم**»(١).

بهذه الهِمَّة غيَّر وجهَ التاريخ رأسًا علىٰ عقِب، ونقل جيلًا من الجاهلية وسُفلِها إلىٰ أعلىٰ قمةٍ بالإيمانِ الذي دعاهم إليه.

لذلك لا تأسَ ولا تحزن إن بدا شيبٌ عليك قليلٌ أو كثيرٌ؛ إن كنتَ تحمل هِمَّة الشباب في الإيمان والدعوة، فكم مِمَّن شاب جِلدُه ورقَّ عظمُه وما زالت هِمَّتُه مشتعلةً بالدعوة إلىٰ الله، وكم من شابٍّ يحملُ الأثقال ويتسلَّق الجبال ويتكاسل حتىٰ عن أداء الصلاة!

***

(صحيح) ٣٦ـ **عَنْ أَبِي رِمْثَةَ التَّيْمِيِّ تَيْمِ الرَّبَابِ ﷺ قَالَ: «أَتَيْتُ النبيَّ ﷺ وَمَعِي ابْنٌ لِي، قَالَ: فَأَرَيْتُهُ، فَقُلْتُ لَمَّا رَأَيْتُهُ: هَذَا نَبِيُّ اللهِ ﷺ، وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ ـ وَفِي رِوَايَةٍ: بُرْدَانِ ـ أَخْضَرَانِ، وَلَهُ شَعَرٌ قَدْ عَلَاهُ الشَّيْبُ، وَشَيْبُهُ أَحْمَرُ»**(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٤٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (٧١١١)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٨٣)، والحاكم (٤٢٠٣).

شرح الحديث

حديث أبي رِمْثَة التيميِّ هو آخر أحاديث الباب.

قوله: «**تَيْمِ الرَّبَابِ**»؛ يشير إلىٰ القبيلة التي ينتسب إليها أبو رِمثة رضي الله عنه؛ لأنه قال التيمِيّ؛ نسبة إلىٰ تَيْم، ولأن هناك أكثر من قبيلةٍ عربيةٍ اسمُها: تَيْم، حدَّدها فقال: «**تَيْمِ الرَّبَابِ**» وهو فَخِذٌ كبيرٌ من عدنان.

قوله رضي الله عنه: «**وَمَعِي ابْنٌ لِي، قَالَ: فَأَرَيْتُهُ**»؛ يعني: جعل ابنَه يرىٰ النبيَّ ﷺ.

قوله رضي الله عنه: «**وَلَهُ شَعَرٌ قَدْ عَلَاهُ الشَّيْبُ، وَشَيْبُهُ أَحْمَرُ**»، هذا موضع الشاهد من الحديث، حيث وصف ما رأىٰ مِن شَعرٍ وشَيبٍ.

قوله رضي الله عنه: «**قَدْ عَلَاهُ الشَّيْبُ**»؛ يعني: ظهر الشَّيبُ ورؤي، وليس المرادُ غَلَبَةَ البياض وانتشارَه.

قوله رضي الله عنه: «**وَشَيْبُهُ أَحْمَرُ**»؛ لِما به مِن أثر الحِنَّاء، أي: رآه لَمَّا صَبغَ أو خَضبَ ﷺ فظهر اللون الأحمر، أو هو من أثر استعمال الطِّيب والدُّهن.

*** لفتة إيمانية:**

ينزعج كثيرٌ من الناس إذا ظهر شيبٌ في رأسه أو لحيته، فيعمِدُ إلىٰ تغييره أو إزالته، وقد قال ﷺ: «**مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الإِسْلامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٠٢٠)، والترمذي (١٦٣٤)، والنسائي (٣١٤٢)، وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب».

وَعَن سَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ أَوَّلَ النَّاسِ ضَيَّفَ الضَّيْفَ، وَأَوَّلَ النَّاسِ اخْتَتَنَ، وَأَوَّلَ النَّاسِ قَصَّ الشَّارِبَ، وَأَوَّلَ النَّاسِ رَأَىٰ الشَّيْبَ، فَقَالَ: يَا رَبِّ مَا هَذَا؟ فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: وَقَارٌ يَا إِبْرَاهِيمُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ زِدْنِي وَقَارًا»(١).

فعندئذٍ لا ينبغي أن يكون الشَّيبُ محلَّ انزعاج عند الرجال والنساء علىٰ حدٍّ سواءٍ.

ومَن كان يتحرَّج مِن ذلك وأراد أن يغيِّره فالرُّخصة أيضًا فيه ثابتة عن النبيِّ ﷺ، فخضابُ الشَّعرِ الأبيضِ أو صَبغُه وتغييرُ لونه كلُّ ذلك مما أباحته الشريعة، وقد خَضب الصحابة وغيَّروا الشعرَ الأبيضَ بألوانٍ أُخَر.

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ﷺ، قَالَ: أُتِيَ بِأَبِي قُحَافَةَ ـ والد أبي بكر الصديق ﷺ ـ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَرَأْسُهُ وَلِحْيَتُهُ كَالثَّغَامَةِ بَيَاضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**غَيِّرُوا هَذَا بِشَيْءٍ، وَاجْتَنِبُوا السَّوَادَ**»(٢).

والثَّغامَةُ: نباتٌ أبيض ينتشر في جزيرة العرب معروفٌ ببياض ورقه وثمره وزهره؛ أبيض كالملح أو كالثلج؛ أي: انتشر البياض في لحيته ورأسه، فهو كالثغامة.

فأشار ﷺ إلىٰ أن يصبغ شعره وأن يجتنب اللون الأسود، ولهذا كَرِه بعض

---

(١) أخرجه مالك (٢/ ٩٢٢).

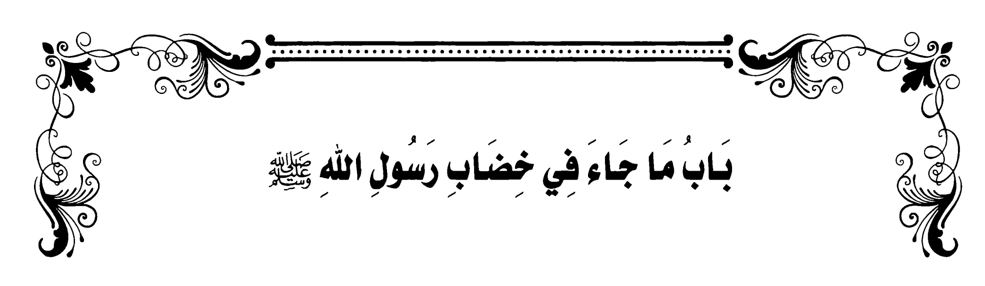
(٢) أخرجه مسلم (٢١٠٢).

أهل العلم الصبغَ بالأسود، وأباحوه بغيره من الألوان.

وأمَّا نَتْفُ الشَّيْب فجاء فيه حديثٌ لا يصحُّ، وبعضُهم حسَّنَه من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه لما قال ﷺ: **«مَن شَابَ شَيْبَةً فِي الإِسْلامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ»**، فقال رجل عند ذلك: فإنَّ رجالًا ينتفون الشَّيْبَ، فقال رسول الله ﷺ: «مَن شَاءَ فَلْيَنتِفْ نُورَهُ»[(١)]؛ يعني: هو نورٌ، فمن نَتَفه عَمدَ إلىٰ إزالة النور الذي كان في وجهه من أثر الشيب.

** ** **

(١) أخرجه أحمد (٢٣٩٥٢)، وابن أبي عاصم في الجهاد (١٦٨)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٠٤).



بَابُ مَا جَاءَ فِي خِضَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

(صحيح) ٣٧ـ وَعَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ النبيَّ ﷺ مَعَ ابْنٍ لِي، فَقَالَ: «ابْنُكَ هَذَا؟»، فَقُلْتُ: نَعَمْ، أَشْهَدُ بِهِ، قَالَ: «لَا يَجْنِي عَلَيْكَ وَلَا تَجْنِي عَلَيْهِ»، قَالَ: وَرَأَيْتُ الشَّيْبَ أَحْمَرَ(١).

قَالَ أَبُو عِيسَىٰ: هَذَا أَحْسَنُ شَيْءٍ رُوِيَ فِي هَذَا البَابِ وَأَفْسَرُ؛ لِأَنَّ الرِّوَايَاتِ الصَّحِيحَةَ أَنَّه ﷺ لَمْ يَبْلُغِ الشَّيْبَ.

وَأَبُو رِمْثَةَ اسْمُهُ: رِفَاعَةُ بْنُ يَثْرِبِيٍّ التَّيْمِيُّ.



شرح الحديث

تقرَّر فيما سبق أنَّ الشَّعراتِ البِيضَ في رأسه ولحيته كانت معدودة؛ بقي أن يُعرَف:

هل خضب نبيُّنا ﷺ أو لم يَخضِب؟

وإذا كان يَخضِب؛ فبِمَ خَضب؟

وإذا كان لا يَخضِب؛ فهل السُّنَّة إبقاءُ الشَّيب علىٰ ما هو عليه وعدم صبغه؟ أو يجوز الخِضاب والصَّبغ؟

---

(١) أخرجه أحمد (٧١١٣).

والروايات المنقولة عن الصحابة فيما يتعلَّق بخضاب رسول الله ﷺ مختلفة؛ فمِنهم مَن أثبته، ومِنهم من نفاه، وسنتحدَّث عن هذه الروايات، ثم نجمع بينها علىٰ وجهٍ تلتئِمُ معه الأحاديث.

قوله: «**وَعَنْهُ**»؛ أي: عن أبي رِمثة بنفس الحديث السابق، ولكن بروايةٍ أخرىٰ.

قوله رضي الله عنه: «**أَشْهَدُ بِهِ**»؛ يعني: جاء يشهد بالإسلام بين يدي رسول الله ﷺ.

قوله رضي الله عنه: «**لَا يَجْنِي عَلَيْكَ وَلَا تَجْنِي عَلَيْهِ**»؛ هذا تأديبٌ وتعليمٌ منه ﷺ لحقٍّ من الحقوق المتقرِّرة بين الولد والوالد.

أي: لا يجني عليكَ بعقوقٍ أو إساءةٍ في التعامل لِما أوجب الله من حقِّ البرِّ بالوالدين، ولا تجني عليه بإهمالك لتربيته وإضاعة حقِّه فيما يجب من تعليمه وتنشئته عليه من تعليمٍ للإسلام وتربيةٍ علىٰ الأخلاق.

وهذه رسالةٌ عظيمةٌ للآباء، تُبيِّن أنَّ الأبناءَ أمانةٌ متعلِّقةٌ برقاب الوالدين، وقد ارتكب جنايةً من أضاع الأولاد وأهمل تربيتهم.

وإذا رأيتَ في الأجيال المسلمة شبابًا وأبناء عَقَقَة قد جنوا كثيرًا في حقِّ مجتمعاتهم وأُسَرهم وأديانهم فاعلم أنَّ من وراء ذلك تفريطًا ولابُدَّ، نعم.. الهداية بيد الله، لكنَّ التربيةَ التي تبتدئ من الأسرة والوالدين تحديدًا هي مسؤولية عظيمة.

قوله رضي الله عنه: «**وَرَأَيْتُ الشَّيْبَ أَحْمَرَ**»؛ هذا موضع الشاهد من الرواية، وهذا يثبت أنَّ النبيَّ ﷺ كان يخضب ويستعمل الحِنّاء، حتىٰ ظهر اللون الأحمر علىٰ شَيبه.

قوله: «قَالَ أَبُو عِيسَىٰ»: هو الإمام الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ صاحب أصل هذا الكتاب، وهو الشمائل.

قوله: «وَأَفْسَرُ»؛ أي: أكثر تفسيرًا.

قوله: «يَثْرِبِيٌّ»، نسبة إلىٰ يثرب، من أسماء المدينة قبل الإسلام.

***

(صحيح) ٣٨ـ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ مَوْهَبٍ، قَالَ: سُئِلَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ خَضَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ(١).

قَالَ أَبُو عِيسَىٰ: وَرَوَىٰ أَبُو عَوَانَةَ هَذَا الحَدِيثَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَوْهَبٍ، فَقَالَ: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ.

شرح الحديث

هذه روايةٌ أخرىٰ منسوبة إلىٰ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والأولىٰ عن أبي رمثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكلاهما يثبت خضاب النبيّ ﷺ.

قوله: «قَالَ أَبُو عِيسَىٰ: وَرَوَىٰ أَبُو عَوَانَةَ هَذَا الحَدِيثَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ مَوْهَبٍ، فَقَالَ: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ»؛ أي: علَّق الترمذي علىٰ الحديث بهذا، يعني: أنَّ الرواية المذكورة التي سأل فيها عثمان بن موهب أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فيها عِلَّةٌ وقدحٌ، وذلك أنَّ الحديثَ الصحيحَ هو من رواية أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فإنَّ الحديث

---

(١) أخرجه ابن جرير في تهذيب الآثار (الجزء المفقود) (٩١٢).

الذي نسبه عثمان لأبي هريرة في إسناده شريكٌ القاضي، وشريكٌ سيِّئُ الحفظ عند أهل الحديث، وخالف الثقات؛ لأنَّ غيره من الثقات روىٰ هذا الحديث عن عثمان بن عبد الله بن مَوْهِب، عن أمّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقد أخَّر البخاريّ رَحِمَهُ اللَّهُ في الصحيح حديث أمِّ سلمة، فكانت الرواية فيه كالتالي:

قال عثمان بن عبد الله بن مَوْهَب: «أَرْسَلَنِي أَهْلِي إِلَىٰ أُمِّ سَلَمَةَ»، إذن كان عثمان تابعيًّا، «بِقَدَحٍ مِن مَاءٍ - وَقَبَضَ إِسْرَائِيلُ ثَلاثَ أَصَابِعَ مِن قُصَّةٍ - »، وإسرائيل هذا أحد رواة الحديث، يشير بقبضه بثلاث أصابع إلىٰ صِغَر القدح والإناء الذي بُعِث به عثمان بن مَوْهِب إلىٰ أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، «**فِيهِ شَعَرٌ مِنْ شَعَرِ النبيِّ** ﷺ»، ثم بيَّن سبب الإتيان بالشَّعر بقوله: «وَكَانَ إِذَا أَصَابَ الإِنْسَانَ عَيْنٌ أَوْ شَيْءٌ بَعَثَ إِلَيْهَا مِخْضَبَهُ»؛ أي: كان أحدهم إذا أصيب بعين أو مرض أو أحسَّ بعلةٍ بعث بمِخْضَبه، والمِخضَب: الإناء الذي يتوضأ منه، أي: يبعثون المِخضَب وفيه ماء إلىٰ أمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لأنَّ عندها قدحًا فيه مِن شعرات رسول الله ﷺ، فكانت تضع لهم الماء في ذلك الإناء، وتمتزج بشعرات رسول الله ﷺ، ثم تعطيهم الماء يستشفون به ويتبرَّكُون به، «فَاطَّلَعْتُ فِي الجُلْجُلِ»؛ يعني: في ذلك الإناء الصغير، «**فَرَأَيْتُ شَعَرَاتٍ حُمْرًا**»، وهنا موضع الشاهد: أنه رأىٰ شعرات النبيِّ ﷺ في الإناء الذي كان عند أم سلمة وهي شعراتٌ حمراء؛ إذن كانت مصبوغةً ومخضبة بلونٍ أحمر، وهو لون الحِنّاء في الغالب.

وفي هذا الحديث مسألة: وهي تبرُّك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ واستشفاؤهم بشعر رسول الله ﷺ، وذلك بعد موته، وهي سُنَّةٌ تتابع عليها الصحابة ومَن بعدهم،

بشرط أن يكون الذي بين أيديهم مِن أثر رسول الله ﷺ يقينًا، حتىٰ لا يفتح البابُ أمام الكذابين فيُتبرَّك بما لا يُشرع التبرُّك به.

وبعض السلف كان يوصي أن يُدفن معه في قبره ما بقي عنده من أثر رسول الله ﷺ، كما ثبت عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ وكان عنده شعراتٌ من رسول الله ﷺ بلغته، فلمَّا حضَرَتْه الوفاة أخرجها فقبَّلها ووضعها علىٰ عينيه، ثم أوصىٰ أن تكون في كَفَنِه ثم تُدفن معه(١)، وحصل هذا لعدد من السلف.

ومع تقادُم الأزمان فَنِيَت هذه الآثار النبوية، ولا يستطيع أحدٌ اليوم أن يجزم بأن شيئًا مِن آثاره ﷺ الموجود هنا أو هناك هو لرسول الله ﷺ علىٰ سبيل القطع، كل ما يمكن أن يُقال: إن هذا ظن، ومِن ثَمَّ لا ينبغي التعلُّق بشيءٍ من ذلك.

***

(ضعيف) **٣٩ـ عَنِ الجَهْدَمَةِ امْرَأَةِ بشيرِ بنِ الخَصَاصِيَّةِ** رَضِيَ اللهُ عَنْهَا **قَالَتْ: «أَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخْرُجُ مِن بَيْتِهِ يَنفُضُ رَأْسَهُ وَقَدِ اغْتَسَلَ، وَبِرَأْسِهِ رَدْعٌ مِنْ حِنَّاءٍ»، أَوْ قَالَ: «رَدْغٌ»؛ شَكَّ فِي هَذَا الشَّيْخُ**(٢).

شرح الحديث

قوله: «عَنِ الجَهْدَمَةِ امْرَأَةِ بشيرِ بنِ الخَصَاصِيَّةِ»، وهي صحابيةٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تصف في هذا الحديث موقفًا رأت فيه رسول الله ﷺ.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢١٢).

(٢) ضعَّفه الألباني؛ لأنَّ فيه النضر بن زُرارة وهو مستور، عن أبي جناب وهو مدلِّس.

قوله: «**شَكَّ فِي هَذَا الشَّيْخُ**»؛ أي: شكَّ هل الكلمة: ردع، أو ردغٌ؟ والشاكُّ هو شيخ الترمذي: إبراهيم بن هارون رَحِمَهُ اللَّهُ، والصوابُ: ما جاء في الطرق الأخرىٰ أنها ردعٌ، بالعين.

والرَّدعُ: أثرُ اللون مِن الصبغة؛ فمَن استخدم صبغةً وبقي أثرها يقال لهذا الأثر: ردعٌ(١)، وقد جاءت هذه اللفظة في حديث عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما قدم المدينة، وفيه: «فَجَاءَ وَعَلَيْهِ رَدْعُ زَعْفَرَانٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَهْيَمْ؟**»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً، فَقَالَ: «**مَا أَصْدَقْتَهَا؟**»، قَالَ: وَزْنَ نَوَاةٍ مِن ذَهَبٍ، قَالَ: «**أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ**»(٢)، يعني: عليه أثرٌ مصفرٌّ اللون من استعماله للزعفران.

أما الرَّدغُ ـ بالغين ـ: فهو اللَّطخَةُ الغليظةُ التي توضع، فمن استعمل قِطعةً من الصبغ وفيها شيءٌ ثخينٌ يتلبَّدُ ويوضع علىٰ الرأس يقال له: رَدغٌ(٣).

***

(صحيح) ٤٠ ـ **عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «رَأَيْتُ شَعَرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَخْضُوبًا»**.



هذا حديثٌ أخرجه الإمام الترمذيُّ، وسندُه فيه علىٰ شرط مسلم، يُثبت

(١) النهاية (٢/ ٢١٤)، وتاج العروس (٢١/ ٨١)، مادة ردع.

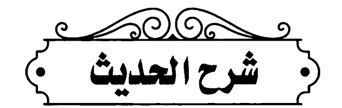
(٢) أخرجه أحمد (١٣٨٦٣).

(٣) النهاية (٢/ ٢١٥)، وتاج العروس (٢٢/ ٤٧٦)، مادة ردغ.

فيه أنسٌ رضي الله عنه أنه رأىٰ شَعرَ رسول الله ﷺ مخضوبًا.

***

(حسن) **٤١ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ رضي الله عنه قَالَ: «رَأَيْتُ شَعْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مَخْضُوبًا».**



شرح الحديث

فهذه جملةٌ مِن الروايات تثبتُ أنَّ نبينا ﷺ كان يخضبُ.

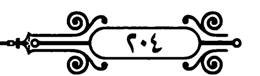
في ختام هذا الباب نورد مسألة: وهي الجمع بين الروايات التي أثبتت الخضاب، والروايات التي نَفَتْه، وكلُّها قد سبقت في الأحاديث السابقة.

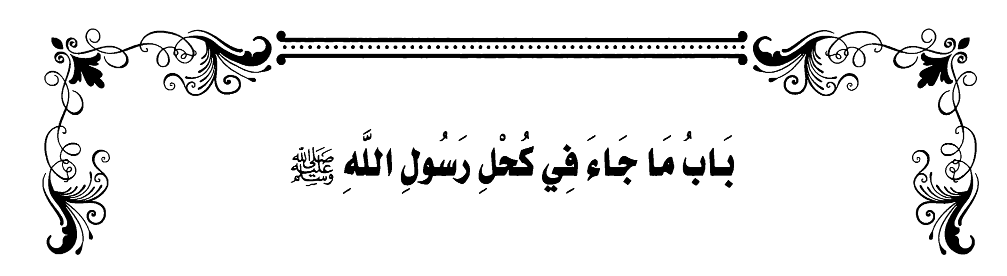
والجواب عن ذلك من وُجوهٍ:

ـ أنَّ كلَّ واحدٍ من الصحابة أخبر بما رأىٰ، فرأىٰ بعضُهم رسولَ الله ﷺ في حالٍ لم يكن قد خضب فيها فأخبر أنه لم يَخضب، ورأىٰ آخرون شَعرَه مخضوبًا فأخبروا أنهم رأوه كذلك.

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الحالَ الغالب علىٰ النبيِّ ﷺ أنه ما كان يستعمل الخِضاب، واستعمله أحيانًا.

ـ أن نبيَّنا ﷺ ما خَضَب، بمعنىٰ: أنه لم يستعمل صبغة الحِنّاء ولا غيرها، وأنَّ الاحمرار الذي رآه مَن رآه من الصحابة كان مِن أثر الطِّيب، فإنّ المسك والزعفران ونحوها من الطِيب له لونٌ، فإذا أصاب الشعرَ اصطبغ به.





بَابُ مَا جَاءَ فِي كُحْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(صحيح) ٤٢ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «اكْتَحِلُوا بِالإِثْمِدِ؛ فَإِنَّهُ يَجْلُو البَصَرَ، وَيُنبِتُ الشَّعْرَ»(١).

(ضعيف جدا) وَزَعَمَ: «أَنَّ النبيَّ ﷺ كَانَتْ لَهُ مُكْحُلَةٌ يَكْتَحِلُ مِنْهَا كُلَّ لَيْلَةٍ ـ وَفِي رِوَايَةٍ: قَبْلَ أَن يَنَامَ بِالإِثْمِدِ ـ، ثَلَاثَةً فِي هَذِهِ، وَثَلَاثَةً فِي هَذِهِ»(٢).

شرح الحديث

الكُحلُ: حَجرٌ معروفٌ، يُستخدم في العين، منه ما لونه أسود وهو الشائع المنتشر، ومنه لونٌ آخر مائلٌ إلىٰ الحُمرة وهو الإثمِد، والكُحل والإثمِد يُكتحَل بهما في العين باستخدام المِرْوَد والـمِيل، فيُجعَل بين الجَفنَين فيَكتحل به المكتحل بين عينيه.

والاكتحالُ عادةٌ معروفةٌ قديمةٌ عند العرب، يستخدمه الرجال والنساء علىٰ حدٍّ سواءٍ، وبِما أنَّ الكُحلَ زينةٌ فقد يَظنُّ بعض الناس أنه خاصٌّ بالنساء، وهذا الباب يُثبت أنَّ النبيَّ ﷺ كان يكتحِلُ، بل وحثَّ علىٰ الاكتِحال، فهو ثابتٌ مِن سُنَّته وهَديه قولًا وفعلًا.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٧٥٧)، وحسَّنه.

(٢) أخرجه الترمذي (١٧٥٧)، والطيالسي (٢٨٠٣)، وحسَّنه الترمذي.

والكُحلُ بنوعيه ـ الأسود والإثمد ـ كلاهما ثابتٌ أنَّ النبيَّ ﷺ استعمله، مع ترغيبه في الإثمد كما جاء في هذا الحديث.

قوله ﷺ: «**اكْتَحِلُوا بِالإِثْمِدِ**»؛ حثٌّ علىٰ الاكتحال بالإثمد خاصةً.

قوله ﷺ: «**فَإِنَّهُ يَجْلُو البَصَرَ، وَيُنبِتُ الشَّعْرَ**»، فيه بيان فائدتين في استعمال الإثمد:

الفائدة الأولىٰ: أنه يَجلو البصر، يعني: يُنَظِّفه، ويُصَفِّيه، ويُقَوِّيه، ويُزيل الغشاوة، ويجعل البصر أكثر وضوحًا وصفاءً، وهذا من الطبِّ النبويِّ الشريف.

الفائدة الثانية: أنه يُنبت الشَّعر، والمقصود بالشَّعر: شَعر الجفون والأهداب ـ وهي التي نسمِّيها اليوم: الرُّموش ـ، أي: يقوِّي شعر العينين، ويُنمِّيه، ويزيد في طوله.

ولزيادة طول هذا الشَّعر فائدتان:

الفائدة الأولىٰ: أنَّ الله خلق الأهداب والرُّموش لحفظ العين وحمايتها وصيانتها، فكلَّما رَمَشت العينان، وانطبق الجفنان علىٰ بعضهما كان تنظيفًا للبصر، وحاجزًا يمنع من دخول الغبار والذرَّات الصغيرة، فنَمَاء الشَّعر تقويةٌ لهذه الفائدة.

والفائدة الأخرىٰ: زيادة الجَمال؛ فإنَّ شَعر الجِفن أو الأهداب أو الأشفار أو الرموش كلما زادت وطالت كانت زيادة حُسنٍ في وجه صاحبها؛ ولهذا يتمدَّح الناس في الجَمال بطول الأشفار والأهداب.

يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «زاد المعاد»(١) في فوائد استعمال الكحل: «وفي الكُحل حفظٌ لصحة العين، وتقويةٌ للنور الباصر، وجلاءٌ لها، وتلطيفٌ للمادة الرديئة واستخراجٌ لها، مع الزينة في بعض أنواعه، وله عند النوم مزيدُ فضلٍ لاشتمالها علىٰ الكُحل وسُكونِها عقيبه عن الحركة المضرَّة بها، ـ أي: أنَّ النائم يطبق جفنيه عند النوم ولا يحرِّكهما؛ فيحتفظ بالكُحل بين عينيه مُدَّةً أطول، وفي هذا مزيد إعمال للكحل في العين ـ وخدمةِ الطبيعة لها، وللإثمد من ذلك خاصيةٌ»؛ يعني: مزيدُ فضلٍ علىٰ سائر أنواع الكُحل.

قوله: (**وَزَعَمَ**) أي: ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ النبيَّ** ﷺ **كَانَتْ لَهُ مُكْحُلَةٌ يَكْتَحِلُ مِنْهَا كُلَّ لَيْلَةٍ ـ وَفِي رِوَايَةٍ: قَبْلَ أَن يَنَامَ بِالإِثْمِدِ ـ** »، هذه الرواية في تتمَّة حديث ابن عباس ضعيفة السند، ولا يصحُّ إثبات اكتحاله ﷺ كلَّ ليلة، إنما الثابت أن يكون غِبًّا، مرّةً بعد مرَّة، وحينًا بعد حين.

لكنَّ اكتحالَه قبل النوم ثابتٌ، وقد أكَّدته الرواية الآتية من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**ثَلَاثَةً فِي هَذِهِ، وَثَلَاثَةً فِي هَذِهِ**»: بيانٌ لصفة تكحُّلِه ﷺ، وأنه كان يكتحلُ ثلاثةً في العين اليمنىٰ، وثلاثةً في العين اليسرىٰ؛ فيكون المجموع ستَّ مرَّاتٍ.

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٢٥٩).

والثلاثةُ وِترٌ، وقد جاء الأمر بالاكتحال وِترًا في قوله ﷺ: «**إِذَا اكْتَحَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَكْتَحِلْ وِتْرًا**»(١)، وهذا أخصُّ في الدَّلالة علىٰ سُنِّيَّة الوِتر في الاكتحال.

وقد جاء هذا علىٰ ما دلَّت عليه الشريعةُ عمومًا من الإيتار في الأمور المستحبَّة، كما قال ﷺ: «**إِنَّ الله وِترٌ يُحِبُّ الوِتْرَ**»(٢).

وقد ذكر أهل العلم في الاكتحال وِترًا طريقتين:

الطريقة الأولىٰ: أن يجعل المِيل ـ الذي هو أداة الاكتحال ـ في عينه اليمنىٰ فيسحبه، فتكون هذه مرَّة، ثم يكرِّر في اليمنىٰ ثانيةً، ثم ثالثة، فيكون قد اكتحل ثلاثًا في اليمنىٰ، ثم ينتقل إلىٰ اليسرىٰ ويكتحل ثلاثًا، وهو ما دلَّ عليه حديثُ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

الطريقة الثانية: أن يكتحلَ في العين اليمنىٰ مرةً أولىٰ، ثم يجعل المرَّة الثانية في عينه اليسرىٰ، ثم يجعل الثالثة في عينه اليمنىٰ، والرابعة في عينه اليسرىٰ، والخامسة في اليمنىٰ، ثم يقف فيكون المجموع وِترًا.

وفي هذه الطريقة ثلاثُ مزايا: أوَّلها أنه بدأ باليمنىٰ، وثانيها أنه انتهىٰ أيضًا باليمنىٰ، وثالثها أنَّ حظَّ اليُمنىٰ في الاكتحال كان أكثر من اليسرىٰ.

***

---

(١) أخرجه أحمد (٨٦١١)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٣٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٧).

(صحيح) ٤٣ـ عَن جَابِرٍ هو ابنُ عبدِ اللهِ ﵄ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «عَلَيْكُم بالإِثْمِدِ عِندَ النَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ يَجلُو البَصَرَ، وَيُنبتُ الشَّعْرَ»(١).

شرح الحديث

قوله ﷺ: «عَلَيْكُم بِالإِثْمِدِ عِندَ النَّوْمِ»، فيه بيانٌ للوقت الذي يُستحَبّ فيه استعمال الإثمِد، وهو موافقٌ لما تقدّم من حديث ابن عباس ﵄.

ولا يعني تخصيصُه بوقت النوم عدمَ مشروعيته في غيره، لكنه الأفضل والأكمل والأتمَّ، وقد مرَّ قبل قليل كلام ابن القيِّم الذي يُبيِّن فوائدَ استعمال الكحل قبل النوم.

***

(صحيح) ٤٤ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ خَيْرَ أَكْحَالِكُمُ الإِثْمِدُ؛ يَجْلُو البَصَرَ، وَيُنبِتُ الشَّعْرَ»(٢).

(صحيح) ٤٥ـ عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلَيْكُم بِالإِثْمِدِ؛ فَإِنَّهُ يَجْلُو البَصَرَ، وَيُنبِتُ الشَّعْرَ»(٣).

شرح الحديث

ختم الإمام الترمذيّ ﵀ البابَ بهذين الحديثين، وفيهما ما في الأحاديث

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٤٩٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٤٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٤٩٥)، والحاكم (٧٤٦٢).

السابقة من الأمر بالاكتحال بالإثمد، وفوائده.

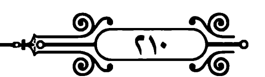
قوله رضي الله عنه: «**إِنَّ خَيْرَ أَكْحَالِكُمُ الإِثْمِدُ**»، فيه بيان أنَّ أنواعَ الكُحل متعدِّدة، وأفضل أنواعه الإثمد، وهو معروفٌ بهذا الاسم إلىٰ اليوم.

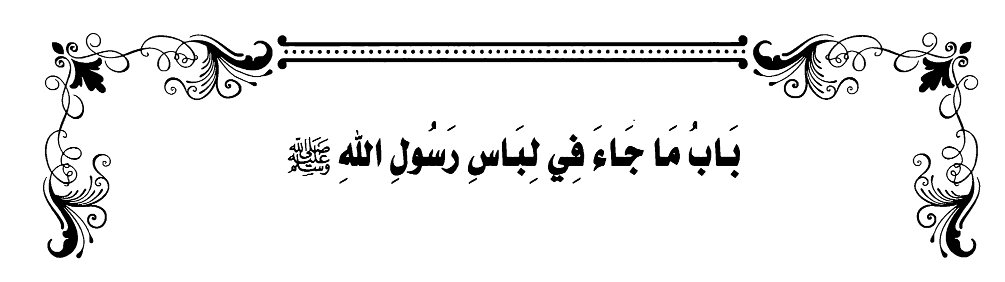
قوله: «عَنِ ابْنِ عُمَرَ»، حديث ابن عمر رضي الله عنهما فيه ضعفٌ، لكنَّه يتقوَّىٰ بحديثي جابر وابن عباس المتقدِّمَين.

بقي التنبيهُ علىٰ روايةٍ ضعيفةٍ أخرجها الإمام الطبرانيُّ في معجمه الأوسط[(١)]، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**خَمْسٌ لَمْ يكُن رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَعُهُنَّ فِي حَضَرٍ وَلَا سَفَرٍ: المِرْآةُ، وَالمُكْحُلَةُ، وَالمُشْطُ، وَالمِدْرَىٰ، وَالسِّواكُ**»، فلا يثبت استمرارُه ﷺ علىٰ استعمال الكُحل في الحضر والسفر كلَّ يومٍ وليلة؛ لأنَّ شأنه الثابت مِن هديه ﷺ الترجُّل والادِّهان والاكتحال غِبًّا، أي: حينًا بعد حين، ومرَّةً بعد مرّة.

**   **   **

(١) المعجم الأوسط للطبراني (٥/ ٢٥٥، رقم: ٥٢٤٢).





بَابُ مَا جَاءَ فِي لِبَاسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

هذا الباب مِن الأهمية بمكان؛ لأنَّه لا ينفكّ امرؤٌ عن استعمال اللباس واتخاذه.

ودراسة هذا الباب فيها أمران عظيمان:

أوّلهما: الوقوف علىٰ شأنه وسيرته وسُنَّته ﷺ في اللباس.

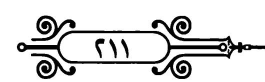
والأمر الثاني: وهو الواجب المتعيِّن علىٰ كلِّ أحدٍ: أن يقيسَ شأنَه في لباسِه ولباسِ أهل بيته وكلِّ من تحت يده، بما جاء عن المصطفىٰ ﷺ في اللباس، ويعمل بسُنَّته، ويتدارك الخطأ الموجود عنده وعند أهله وفي بيته، وما لم يفعل المرءُ هذا ويطبِّقْه فإنَّ دراستَه لسيرة المصطفىٰ ﷺ وشمائله ستكون في وادٍ وخندق، وهو في وادٍ وخندق آخَرين، قد جعل بينه وبين الاستفادة من هذه الشمائل حاجزًا؛ فعلينا أن نقف وقفةً جادَّةً في تطبيق ما نتعلَّمه من سِيرته وشمائله علىٰ حياتنا وجميع أمورنا؛ لنكون بذلك أقرب إلىٰ شأن السلف الصالح.

هذا الباب يتحدَّث عن:

ماذا كان ﷺ يلبس؟

ماذا كان ﷺ يحبُّ من ألوان اللباس؟

كيف كان يلبس ﷺ؟



ثم إذا عرفتَ ذلك؛ هل يتعيَّن علينا ـ إن كنَّا محبين له ﷺ ـ أن ننزع لباسنا المعاصر، لنلبس ما كان يلبسه ﷺ في ذلك الزمن؟

والجواب عن هذه الأسئلة أن يُقال: إنَّ لباسَ المسلم منضبطٌ بجملة من القواعد الشرعية الكبرىٰ التي تضبط لباسه وهيئته.

أوّل هذه الأصول العظيمة: أنَّ الأصل في اللباس الإباحة؛ قال الله ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وهذه الآية سِيقت مساق الامتنان، وما سِيق مساق الامتنان يدلُّ علىٰ العموم، وقوله ﷻ في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَن كَسَوْتُهُ؛ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ**»[(١)].

ومعنىٰ أنَّ الأصل في ألبسة الناس الإباحة: أنَّ أيَّ لباسٍ يلبسه الناس مهما اختلفت هيئته، ومظهره، ولونه، وطوله، وعرضه، والمادة التي صُنِع منها، وكيفية لباسه علىٰ الجسد؛ الأصل فيه الإباحة، فلا نفتقر إلىٰ أدلةٍ تفصيليةٍ جزئية تُبيِّنُ جواز كلِّ نوعٍ من اللباس علىٰ حِدة.

الأصل الثاني في اللباس: ألَّا يبلغ حدَّ الإسراف، ولا يختال به صاحبه أو يتكبَّر علىٰ الناس.

كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري معلقًا: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالبَسُوا وَتَصَدَّقُوا، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلا مَخِيلَةٍ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) علَّقه البخاري (٧/ ١٤٠)، بصيغة الجزم، ووصله أحمد (٦٦٩٥).

وصحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله: «كُلْ مَا شِئْتَ وَالبَسْ مَا شِئْتَ مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ: سَرَفٌ، أَوْ مَخِيلَةٌ»(١).

الأصل الشرعي الثالث في اللباس: الابتعاد عمَّا حرَّمته الشريعة في اللباس، فإنَّ الشريعة حرَّمت أصنافًا وهيئاتٍ محدَّدة؛ من ذلك الإسبال للرجال، وهو: تجاوُز الكعبين من الإزار أو البنطال أو الثياب أو أيِّ نوعٍ من أنواع اللباس، فهو محرَّم شرعًا، وقد صحَّ التحريم في نصوص شرعية كثيرة، منها قوله ﷺ: «**ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ: المَنَّانُ الَّذِي لَا يُعْطِي شَيْئًا إِلا مَنَّهُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الفَاجِرِ، وَالمُسْبِلُ إِزَارَهُ**»(٢)، وقوله ﷺ: «**مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ مِنَ الإِزَارِ فَفِي النَّارِ**»(٣)، وهذا للرِّجال خاصةً دون النساء.

ومن المحرَّمات في باب اللباس: استعمال الحرير للرجال، أما النساء فجائزٌ لهنَّ؛ لقوله ﷺ وقد جعل ذهبًا وحريرًا في يديه فقال: «**هَذَانِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي حِلٌّ لِإِنَاثِهَا**»(٤).

ومن المحرَّمات: ألَّا يتشبَّه الرجالُ بالنساء، ولا النساءُ بالرجال، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «**لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ**»(٥).

---

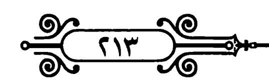
(١) علَّقه البخاري (٧/ ١٤٠)، بصيغة الجزم، ووصله ابن أبي شيبة (٢٤٨٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٨٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٠٥٧)، والنسائي (٥١٤٤)، وابن ماجه (٣٥٩٥)، والبزار (٨٨٦).

(٥) أخرجه البخاري (٥٨٨٥).



ومن المنهيِّ عنه أيضًا: لباسُ الشُّهرة؛ عنِ ابنِ عمرَ ﵄ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَن لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ فِي الدُّنْيَا أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١).

ومن المنهيّ عنه في اللباس: الأحمرُ الخالص؛ عنِ البراءِ بنِ عازِبٍ ﵄ قال: «**نهانا النبيُّ ﷺ عَنِ المَيَاثِرِ الحُمْرِ**»(٢).

ومن المنهيِّ عنه في اللباس: التشبُّه بلباسٍ لا يلبسه إلا الكفرة، أو تتميَّز به مِلَّةٌ دينيةٌ غير الإسلام؛ كأن يكون لباس اليهود في معابدهم، أو لباس البوذيِّين في معابدهم، أو لباس النصارىٰ عند أداء بعض طقوس أديانهم.

وما لم يُنهَ عنه فمشروعٌ مباحٌ.

هذا بالنسبة لشرعية اللباس، وأمَّا هديُ النبيِّ ﷺ في اللباس بحسب ما وصفته الأحاديث والآثار فيقوم علىٰ ثلاثة أمور:

الأمر الأول: اليُسر والتخفُّف وعدم التكلُّف، فما كان ﷺ يتكلَّف لباسًا معيَّنًا، ولا كان يصطنع أُبَّهةً يفتخر بها في لباسه، هذا وهو أعظم عُظماء البشر علىٰ الإطلاق، بعكس ما نلحظه ونشاهده اليوم في العُظماء والزُعماء والكُبراء، فإنَّ أوّل ما يلفت نظرك فيهم هيئتُهم ولباسُهم؛ لأنه متميزٌ عمَّن حولهم في الشكل أو اللون أو طريقة اللباس أو نحو ذلك.

ويشهد لهذا ما يأتي في الأحاديث النبوية أكثر من مرة أنه رُبَّما جاء رجلٌ لا يعرف رسولَ الله ﷺ وهو يبحث عنه، فيدخل المسجد والحلقةُ مجتمعةٌ،

---

(١) أخرجه أحمد (٥٦٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٣٨).

فيقول: أَيُّكم محمدٌ؟[١] فلو كان متميِّزًا بين صحبه في لباسه وهيئته ما احتاج الرجُل إلىٰ السؤال!

وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه مَن رفع الله مرتبتَه في العلم، أو الجاه، أو المنصب، أو الإمارة؛ ألا يبتغي من خلال لباسه شيئًا يميزه عن عامَّة الناس، وإنما التميُّز بالإيمان والأخلاق والعلم.

الأمر الثاني: موافقة عادة الناس والمجتمع حوله؛ فما كان ﷺ يلبس لباسًا يخالف أهل البلد، أو يخالف لباس العرب في ذلك الوقت، فعندما كانت العرب تلبس القمصان لبس القميص، وعندما كانت تلبس العمائم لبس العمامة، كانت تلبس الإزار والرِّداء فلبس الإزار والرِّداء، ولم يثبت أنه لبس لباسَ أهلِ فارسَ، ولا الحبشةِ، ولا الفِرنجة.

فليس من السُّنَّة في اللباس أن نخصِّص لباسًا بعينه ونقول: إن السُّنة في لُبسه، أو أن نُلْزِم الناس بلِباس العرب زمنَ النبيِّ ﷺ، بل السُّنة اعتبار عُرف الناس في البلد والزمان والمكان.

الأمر الثالث: مراعاة الجَمال والحُسن والتزيُّن، فقد حثَّ الشرعُ علىٰ العناية بحسنِ المظهر، يقول تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١].

ورَأَىٰ ﷺ رَجُلًا عَلَيْهِ ثِيَابٌ وَسِخَةٌ، فَقَالَ: «**أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَا يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ**»[٢]، وما رُؤِيَ النبيُّ ﷺ قطُّ مُتَّسِخَ الملابس، ولا باليَ المظهر.

---

(١) انظر مثلًا: صحيح البخاري (٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٦٢)، وابن حبان (٥٤٨٣).

وهذا لا يُنافي الفقر الذي كان يعيشُه ﷺ، ولا ينافي التقلُّل مِن الدنيا والزهدَ فيها الذي كان يعيشُه ﷺ؛ فلم تكن ثيابُه كثيرةً ولا فاخرةً نفيسةً، ولكنها كانت جميلةً نظيفةً زاهيةً، ولم تكن متَّسخةً ولا رَثَّة المظهر.

***

(صحيح) ٤٦ـ **عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ أَحَبَّ الثِّيَابِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَلْبَسُهُ القَمِيصُ»**[(١)].



شرح الحديث

قوله: «عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ»، الراوي للحديث زوجته أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، فهي مِن أعرف الناس بأموره الخاصَّة ولباسه.

قولها رضي الله عنها: **«كَانَ أَحَبَّ الثِّيَابِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَلْبَسُهُ القَمِيصُ»**؛ كان القميصُ أحبَّ أنواع الثياب له ﷺ.

والقميصُ هو ما نسمِّيه اليوم قميصًا، وهو: لباس له فتحةٌ من العُنُق يدخل فيه الرأس، وله كُمَّان تدخل فيه اليدان.

وقد يكون القميصُ إلىٰ نصف الجسد، فيُلبَس ويُجعل تحته الإزار، كما يلبسه كثيرٌ من العرب في جنوب الجزيرة وغيرها، وإذا طال القميص أصبح قميصًا طويلًا.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٢٥)، والترمذي (١٧٦٢- ١٧٦٤)، والنسائي في الكبرىٰ (٩٥٨٩)، وقال الترمذي: «حسن غريب».

وإنما كان القميصُ أحبَّ اللباس إليه ﷺ؛ لأنَّه لا تكلُّف في لباسه، سهلٌ في اللبس، سهلٌ في الخلع، ولا يحتاج إلىٰ كثرة تعاهُد، ليس كلباس الإحرام مثلًا؛ ينحلُّ الإزار فيُرفَع، ويسقطُ الرداء عن المنكب فيُعاد، فيحتاج إلىٰ تعاهُد متتابع.

***

(ضعيف) ٤٧ـ **عَنْ أَسْمَاءَ بِنتِ يَزِيدَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ كُمُّ قَمِيصِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ الرُّسْغِ»**(١).

شرح الحديث

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كَانَ كُمُّ قَمِيصِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ الرُّسْغِ»؛ القميصُ أو أيُّ نوع من أنواع الثياب له أكمامٌ.

والرُّسْغُ: بالسين، وبالصاد، كلاهما صحيح، وهو: العَظم الذي يربط مفصل الكفِّ بالساعد.

والمقصود: أنَّ الكُمَّ لا يزيد طوله عن الرُّسْغ، فلم يكن يجعل كُمَّه إلىٰ الكَفِّ، ولا إلىٰ أطراف الأصابع، وهذا من الهدي النبوي القائم علىٰ التوسُّط، كما أنَّ طول الإزار أو البنطال إلىٰ الكعبين.

كلُّ ذلك كانت تعدُّه العربُ أمارةً علىٰ الحزم، والشِدَّة، والجَلَد، وقوَّة النفس، والرجولة، والاستعداد للمهمَّات، وكانوا يرون في طول الأكمام والثياب

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٢٧)، والترمذي (١٧٦٥)، وقال: «حسن غريب».

والإسبال لونًا مِن الترف، وارتخاء الهِمم، وضعف النفوس، وميلِها إلىٰ الدَّعَة والليونة، فكان أحدُهم يتمدَّح إذا افتخر بأنه قصير الإزار، وأنَّ كمَّه لا يصل إلىٰ أنصاف كفَّيه.

كان هذا سمتًا عند العرب، جاء الإسلام فأقرَّه، ولهذا أبيح الإسبال للنساء دون الرجال، فأبيح لهنَّ ارتخاء الثياب إلىٰ شِبرٍ، أو إلىٰ ذراعٍ؛ فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ بِالنِّسَاءِ؟ قَالَ: «**يُرْخِينَ شِبْرًا**»، قُلْتُ: إِذَن يَنكَشِفَ عَنْهُنَّ، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَذِرَاعٌ، لا يَزِدْنَ عَلَيْهِ**»[(١)].

ويقول أهل العلم: كلُّ إناءٍ بما فيه يَنضَحُ، وأمور الظاهر تؤثِّر علىٰ الباطن، وبالعكس، فمَن تَشَبَّه في لباسه بهيئة النساء ولباسِهنَّ فهذا يعني أنَّ رجولتَه ناقصة، وأنَّ مروءتَه منخرمةٌ، وكذلك إنْ أسبل لا بقصد الخُيَلاء فإنه مع الزمن إذا استمرأ ذلك وتتابع عليه وجد نفسه قد وَرِث ذلك الخُلق عن غير قصد.

***

(صحيح) ٤٨ـ **عَن مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي رَهْطٍ مِن مُزَيْنَةَ لِنُبَايِعَهُ، وَإِنَّ قَمِيصَهُ لَمُطْلَقٌ، أَوْ قَالَ: زِرُّ قَمِيصِهِ مُطْلَقٌ، قَالَ: فَأَدْخَلْتُ يَدِي فِي جَيْبِ قَمِيصِهِ؛ فَمَسَسْتُ الخَاتَمَ»**[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٦٨١)، والترمذي (١٧٣١)، والنسائي (٥٣٣٧)، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه أحمد (١٥٥٨١)، وأبو داود (٤٠٨٢).

شرح الحديث

قوله رضي الله عنه: «**رَهْطٍ**»؛ يعني: في نفرٍ يسيرٍ؛ لأن الرَّهط من ثلاثةٍ إلىٰ عشرةٍ.

قوله رضي الله عنه: «**مُزَيْنَةَ**»: قبيلةٌ معروفةٌ.

قوله رضي الله عنه: «**وَإِنَّ قَمِيصَهُ لَمُطْلَقٌ، أَوْ قَالَ: زِرُّ قَمِيصِهِ مُطْلَقٌ**»؛ الزِرُّ جمعُه أزرارٌ، وهي معروفة، وهي التي تُغلق فتحة القميص، فإذا أدخلت رأسك في فتحة القميص زَرَرتَ الأزرار، أي: أغلقتها وأقفلتها.

والمعنىٰ: ما كانت أزرارُ قميصه مغلقة، بل كانت مفتوحة، ففتحةُ القميص كانت واسعة.

قوله رضي الله عنه: «**فَأَدْخَلْتُ يَدِي فِي جَيْبِ قَمِيصِهِ**»؛ جَيب القميص: فَتحة العنق من القميص، وليس الذي نسمِّيه اليوم الجيب ونضع فيه الأموال والأقلام ونحو ذلك.

قوله رضي الله عنه: «**فَمَسَسْتُ الخَاتَمَ**»؛ يعني: أدخل يدَه في فتحة قميصِ رسول الله ﷺ فبلغ بها ظهره، فمسَّ خاتم النبوَّة الذي في ظهره.

وقد أخطأ بعضُهم في الفهم، وظنَّ أن السُّنَّة لبس القمصان والثياب محلولة الأزرار، وهذا خطأ؛ لأنَّ عامَّة ما رُوي في شأن لباسه وثيابه وقُمصانه ﷺ ما ذكر فيه حَلُّ الأزرار، فما كان النبيُّ يحلُّ أزرار قُمصانه دائمًا علىٰ الإطلاق ﷺ، وإلا فما فائدةُ وضع الأزرار في القميص إذا كانت لا تُغلَق؟

وأما حديث قُرَّة هذا فهو وصفُ حادثةٍ، لا إطلاقٌ وتعميمٌ، فقد يكون حَلَّه بسبب الحَرِّ، أو بسبب حساسية، أو نحو ذلك مما يفعله الناس، وربما كان له

قصدٌ آخر، فلا بأس بحلِّ الأزرار لحاجةٍ، وهو موافقٌ لما سبق من عدم تكلُّفه ﷺ في لباسه وهيئته، مع أنَّه كان يقابل وفدًا من مُزينة، ولكنه لم يتقصَّد أن يقابلهم بزيٍّ معيَّن أو هيئة معيَّنة.

***

(صحيح) ٤٩ـ **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه: «**أَنَّ النبيّ ﷺ كَانَ شَاكِيًا، فَخَرَجَ وَهُوَ يَتَّكِئُ عَلَىٰ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، عَلَيْهِ ثَوْبٌ قِطْرِيٌّ قَد تَوَشَّحَ بِهِ، فَصَلَّىٰ بِهِمْ**»[1].



شرح الحديث

قول أنس بن مالك رضي الله عنه: «**أَنَّ النبيّ ﷺ كَانَ شَاكِيًا**»؛ يعني: كان يشتكي من أَلَمٍ أَلَمَّ به، أو وجعٍ أصابه.

قوله رضي الله عنه: «**عَلَيْهِ ثَوْبٌ قِطْرِيٌّ**»: نسبة إلىٰ القِطْر، والقِطْر: نوعٌ من البُرود اليمنيَّة مُخطَّطة؛ أحمر وأسود وأبيض، وكانت مِن أجمل الثياب وأزينها.

وعامّة ما كان يلبسه العربُ في جزيرة العرب كان يُصنع في بلاد اليمن، إذ كان يؤتىٰ بالثياب من هناك فتستعمل.

قوله رضي الله عنه: «**قَد تَوَشَّحَ بِهِ**»؛ يعني: تجلَّل به واشتمل به.

والوِشاح: ما يُجعَل علىٰ الكتفين، بأن تؤخذ قطعةٌ من قماش أو ثوب فتُرخىٰ علىٰ الكتفين من غير هيئةِ لباس.

(١) أخرجه أحمد (١٣٧٦١- ١٣٧٦٣)، وإسناده صحيح.

وهذه صفةٌ أخرىٰ للَّباس الذي كان يلبسه ﷺ، حيث توشَّح ثوبًا، فجعله علىٰ عُنقه أو علىٰ منكبيه، وأرخاه علىٰ كتفيه، دون أن يلبسه علىٰ هيئة الالتفاف، ولا علىٰ هيئة القميص الذي يُزَرُّ، أو يُلفُّ علىٰ الجسد.

***

(صحيح) **٥٠ـ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَجَدَّ ثَوْبًا سَمَّاهُ بِاسْمِهِ: عِمَامَةً، أَوْ قَمِيصًا، أَوْ رِدَاءً، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ، لَكَ الحَمْدُ كَمَا كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ»**(١).

شرح الحديث

هذا الحديث من أعظم الأحاديث في هديه ﷺ في باب اللباس، وهي سُنّة متروكةٌ عند كثير من المسلمين، وهي سُنّة الدعاء عند اتخاذ الثوب الجديد.

قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَجَدَّ ثَوْبًا**»؛ يعني: إذا اتَّخذ ثوبًا جديدًا.

والثوبُ في كلام العرب أعمُّ من مصطلح الثوب الذي نستخدمه اليوم؛ فكل ما يُلْبَس ويُغطَّىٰ به البدن يُسمَّىٰ ثوبًا، حتىٰ ولو كان قماشًا يُلفُّ علىٰ هيئة الإزار والرداء.

قوله رضي الله عنه: «**ثُمَّ يَقُولُ**»؛ يقول دعاء لبس الثوب؛ وعلىٰ المرء أن يحفظه، ويُحَفِّظه أولادَه وأهل بيته.

---

(١) أخرجه أحمد (١١٢٤٨)، وأبو داود (٤٠٢٠)، والترمذي (١٧٦٧) وحسَّنه.

قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ، لَكَ الحَمْدُ كَمَا كَسَوْتَنِيهِ»، ويُسمِّيه؛ فيقول مثلًا: كما كسوتني هذه العمامة، أو كما كسوتني هذا الثوب، أو كما كسوتني هذا السروال، أو كما كسوتني هذا الشماغ.

قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ، لَكَ الحَمْدُ كَمَا كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ»؛ ثلاثُ جُمَلٍ فيها خير الدنيا والآخرة: في الأولىٰ حمدُ الله علىٰ نعمة اللباس، وفي الثانية سؤال الله خير هذا اللباس، والثالثة استعاذةٌ بالله من شرِّ هذا اللباس.

والمرادُ بخير اللباس: الزينة، والستر، والجمال الذي يكتسبه صاحبه بلباسه.

والمراد بشرِّ اللباس: الخُيلاء، والكِبر، والغرور، والإسبال، والتشبُّه بالنساء، وتجسيد العورة بلبس الضيق والشفاف.

*** لفتة إيمانية:**

في حمد الله استشعارُ أنَّ الله ﷻ أكرمك بنعمة عظيمة لما آتاك هذا اللباس، والعجبُ مِمَّن رزقه الله لباسًا فيذهب يتحدَّث عن جَودة صناعته، وفخامة مادَّته، ونوع شركته، وبلد إنتاجه، بحيث يطغىٰ ذلك علىٰ إعجابه واهتمام فكره، ويغفل عن عظمة المنعم الحقيقيِّ بهذا اللباس!

ونعمةُ اللباس مِن النِّعَم التي يغفل عنها أكثر الناس؛ فإنَّ نعمة الطعام مُسْتَشْعَرَةٌ لوجود الجائعين، ونعمة الشراب محسوسٌ بها لوجود الظامئين، ونعمة الأمن مُدْرَكَةٌ بسبب وجود الحروب والخائفين، ولكن قلَّ مَن يستشعر نعمة اللباس لِقِلَّة وجود العُراة المعدمين من الستر والثياب.

ونعمةُ اللباس ليست بأقلَّ من نعمة الطعام والشراب، بل هي أعظم؛ لأنَّ نعمة الطعام والشراب يستوي فيها الإنسان والحيوان، وفضَّل الله بني آدم بنعمة اللباس.

أين أنت من قول الله: «**يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَن كَسَوْتُهُ**»(١)، هل شعرتَ أنك مِمَّن استثنىٰ الله في قوله إلا من كسوتُه؟ قال الله: «**فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ**»، أي: فاطلبوا من الله ﷻ اللباس أجمله وأكمله وأفضله.

ومِن الأدعية التي يغفلُ عنها كثير من المسلمين حديثُ معاذ بن أنس رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ أَكَلَ طَعَامًا ثُمَّ قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ، وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»، قَالَ: «**وَمَن لَبِسَ ثَوْبًا فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ**»(٢)؛ فكم مرّةً فاتنا أن يُغفَر لنا ما تقدَّم لنا من ذنوبنا مع كلِّ لباس نلبسه؟ وكم مرّةً غفلنا عن أن تُغفَر ذنوبُنا كلها فقط بأن نحمد الله؟

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ مقام الحمد مقامٌ عظيمٌ قرَّرته الشريعة وجاءت به، فإن الله ليرضىٰ عن العبد يأكلُ الأكلةَ فيحمدُه عليها، أو يشربُ الشَّربةَ فيحمدُه عليها(٣)، والله يكتب رضاه عنك إذا أعملت لسانك وقلبك بحمده سبحانه وتعالىٰ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٢٣)، والترمذي (٣٤٥٨)، وابن ماجه (٣٢٨٥)، وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٣) كما جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٧٣٤).

هذا المقامُ العظيم نحتاج أن نُوَطِّن أنفسنا عليه، وأن نربِّيَ أولادنا عليه كلما حَدَثت نعمةٌ، وبهذه التربية والتوطين للنفس علىٰ نعمة الحمد ننتقل من كوننا نفعل أمورنا اعتياديةً إلىٰ جعلها تعبُّدًا لله سبحانه.

ومِن نِعَم اللباس التي يجب أن يستشعرها المسلم ما يراه بعينه اليوم في البشرية المعاصرة، التي أصبح مظهرٌ من مظاهر حضارتها التخفُّف من اللباس، والميلُ إلىٰ العُرْيِ وكشف الأجساد، أمام الناس والملأ، دون استحياءٍ أو خجلٍ، وما هذا إلا لأنَّ البشرية بدأت تفقدُ شيئًا من إنسانيَّتها، وآلَتْ إلىٰ البهيمية الحيوانية السافلة المنحطَّة، فأَنْ تكون بشرًا ليس معناه أن تأكل وتشرب، بل معناه أن تتميَّز عن باقي المخلوقات بما مَيَّزك الله، وما ميَّزك الله به هو العقل، فإذا أصبح العقلُ لا يدلُّ علىٰ الخير الذي يُنتفع به، ولا يحذر من الشرِّ، فالإنسان في تلك اللحظة يصبح في عِداد البهائم.

ولقد استَسْهَلَتْ كثيرٌ من المجتمعات البشرية المعاصرة العُرْيَ، ثم حَملَت مجتمعاتٍ كثيرةً أخرىٰ عليه، ثم هَجمَت علىٰ المجتمعات المسلمة لتسحب من نفوسها وقلوبها الفضيلةَ والعِفَّةَ والحِشمةَ، وتسحبها سحبًا نحو التحلُّل والتفسُّخ والعُرْيِ.

إنَّ هذه المظاهر لهي انسلاخٌ من البشرية، ومَن كان قريبًا من هدي المصطفىٰ ﷺ سيتقزَّز من تلك المظاهر العارية التي تدعو إليها البشرية اليوم بكل حَماقة وسخافة وغفلة.

وهكذا؛ ما إن تتنكَّبَ المجتمعاتُ عن هدي الإسلام إلا وتصبح لا سبيلَ لها إلا سبيل الحيوانية والبهيمية المنحطَّة.

(صحيح) ٥١ـ **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «كَانَ أَحَبَّ الثِّيَابِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَلْبَسُهُ الحِبَرَةُ»**(١).

شرح الحديث

هذا أنس ﷺ يحكي ويصِفُ شيئًا من اللباس كان مُحَبّبًا إلىٰ نبيّنا ﷺ، وهو الحِبَرَة.

قول أنس ﷺ: «**الحِبَرَة**» علىٰ وزن عِنَبَة، والتحبيرُ: التزيينُ والتجميلُ، يُقال: ثوبٌ مُحَبَّرٌ أي: جميلٌ مُزَيَّن، ومنه قول أبي موسي الأشعري ﷺ في قصَّة استماع النبيِّ ﷺ لقراءته عن غير معرفة منه، فلمَّا أصبح قال له ﷺ: «**لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْمَعُ قِرَاءَتَكَ البَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِن مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»، فَقَالَ: لَوْ عَلِمْتُ لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا(٢)؛ أي: لزيَّنتُ قراءتي وجمَّلتُها.

فالحِبرَة ليس ثوبًا مخصَّصًا يسمىٰ الحِبَرة، لكنه نوعٌ من الثياب يكون مُخطَّطًا باللون الأحمر أو الأسود، فهُوَ ليس أبيض خالصًا، بل تشترك فيه جملةٌ من الألوان.

وإنما حُبِّب إليه لباس الحِبَرَة لأن فيه نوعًا من الزينة والجمال؛ فدلَّ الحديث علىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقصد إلىٰ التجمُّل بلباسه.

وسيأتي أنَّ النبيّ ﷺ حثَّ علىٰ لبس الأبيض، والحديث هنا يدُلُّ علىٰ حُبِّه

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨١٣)، ومسلم (٢٠٧٩).

(٢) أخرجه ابن حبان (٧١٩٧)، والمرفوع منه أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

للبس الحِبَرَة، والجمع بينهما أنه كان يُحِبُّ الاثنين، كما يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وكان أحبّ ألوان الثياب إليه البياض والحِبَرَة»(١).

*** لفتة إيمانية:**

عندما يمُنُّ الله عليك بلباسٍ حسنٍ جميلٍ ذي منظر بهيجٍ فاحمد الله علىٰ ذلك، ثم كما حَسَّنت مظهرك أمام الناس فحمِدوك علىٰ ذلك؛ فعليك أن تعمَل علىٰ تحسين باطنك وأخلاقك ومخبرك، وقد قَرَنَ الله بينَ اللباس والتقوىٰ؛ لأنَّ اللباس يُجَمِّلُ الظاهر، والتقوىٰ تُجَمِّل الباطن، قال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ ثم قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦].

***

(صحيح) **٥٢ـ عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «رَأَيْتُ النبيَّ ﷺ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، كَأَنِّي أَنظُرُ إِلَىٰ بَرِيقِ سَاقَيْهِ»، قَالَ سُفْيَانُ: أُرَاهَا حِبَرَةً**(٢).



شرح الحديث

(عَنْ أَبِيهِ) هو أبو جُحَيفة السّوائي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قول أبي جُحَيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **«رَأَيْتُ النبيَّ ﷺ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ»؛ الحُلَّة:** كلُّ

(١) زاد المعاد (٤/ ٢١٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٧٦٢)، والترمذي (١٩٧)، وقال: «حسن صحيح».

لباس يتكوَّن من قطعتين؛ سواء اتَّزر بأحدهما وارتدىٰ الآخر، أو الْتحف بهما.

والحُلَّة الحمراء: ليس المقصود بالحُمرة هنا الحُمرة الخالصة القانية؛ لأنَّ هذا ورد فيه نهيٌ شديدٌ، ولكن المقصود الثياب التي اختلطت بحُمرة، كما سيأتي في وصف سفيان لها.

وقد وصف أبو جُحَيفة رضي الله عنه هذا المنظر لجماله، فإنَّ النبيَّ ﷺ كان أبيض مُشْرَبًا بحُمْرَة في أجمل ما يكون عليه بياض الخَلق، فعندما لبس الحُلَّةَ الحمراءَ المخطَّطة بالبياض ازداد جمالُه ﷺ.

فاجتمع له ﷺ من جَمال الخِلْقَة مع جَمال الثياب ما كان يأسر قلوب الذين رأوه، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ جمالَ مظهرِ المسلم مطلبٌ شرعيٌّ.

ولكن ليس علىٰ المسلم أن يسعىٰ إلىٰ أن يُجَمِّل خِلقته جمالًا زائفًا بما لم يخلقْه الله عليه، فليس الجمالُ المطلوب تحصيله جمالَ العينين ولا الشفتين ولا الوجنتين، فهذا جمالٌ خَلْقِيٌّ لا اختيار للإنسان فيه، ولكنه يكتسب جمالًا بعنايته بلباسه بما يشبه هدي المصطفىٰ ﷺ.

قوله رضي الله عنه: «**كَأَنِّي أَنظُرُ إِلَىٰ بَرِيقِ سَاقَيْهِ**»، وَصَفَ بياض ساقيه ﷺ بالبريق، وذلك كما جاء في أوصاف خِلقته ﷺ وتشبيهها بسبيكة الفِضّة، ووصف بعضُ الصحابة لَـمعان عُنُقه وجِيده كأنه فِضَّة(١).

---

(١) جاء بلفظ: «**كأنَّ عنقه إبريق فضة**» من حديث علي عند ابن سعد في الطبقات (١/ ٤١٠)، وبلفظ: «**كأنَّ عنقَه جِيدُ دُميةٍ في صفاءِ الفضةِ**» من حديث هند بن أبي هالة المتقدم برقم (٦).

وهذا يدلُّ علىٰ بياض جسده ﷺ، وأنَّه فيه مِن الضِّياء والإشراق ما كان يجده الناظر إليه.

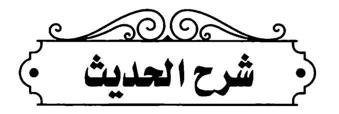
وقد أفادت الجملةُ شيئًا آخر مهمًّا في اللباس، وهو أنَّ لباسَه ﷺ ما كان طويلًا يُغَطِّي الساقين جميعًا، بل كما ثبت في وصف لباسه أنه كان لا يصل إلىٰ الكعبين، بل كان إلىٰ أنصاف الساقين ودون ذلك بقليل.

(قَالَ سُفْيَانُ) هو الراوي.

قول سفيان: «أُرَاهَا حِبَرَةً»: هذا تفسيرٌ للحُلَّة الحمراء، أي: لا أظنُّ الحُلَّة الحمراء المذكورة في حديث أبي جُحَيفة إلا حِبَرَة، وقد مرَّ معنىٰ الحِبَرَة.

***

(ضعيف) **٥٣ـ عَن قَيْلَةَ بِنتِ مَخْرَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «رَأَيْتُ النبيَّ ﷺ وَعَلَيْهِ أَسْمَالُ مُلَيَّتَيْنِ، كَانَتَا بِزَعْفَرَانٍ، وَقَدْ نَفَضَتْهُ»، وَفِي الحَدِيثِ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ**(١).



شرح الحديث

هذا الحديث في إسناده ضعفٌ.

قول قَيْلَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أَسْمَالُ»: جمع سَمَل، أي: باليةٌ تكاد تتَقَطَّع، تشير إلىٰ أنَّ ما يلبسُه كان باليًا خَلَقًا قد تهتَّك من كثرة الغسيل أو اللباس أو نحو ذلك.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨١٤)، وضعَّفه الألباني، لتفرُّد راويه عبد الله بن حسان به، ولم يُوثِّقه أحد.

قولها رضي الله عنها: «**مُلَيَّتَيْنِ**»: تثنية مُلَيَّة، والـمُلَيَّة: تصغير مُلاءَة، والـمُلاءة: قطعةٌ مِن قماش لا يُخاط طرفاها ولا يُربطان، تُلْبَس علىٰ الجسد، يلتحف بها صاحبها، أو يتَّخذها إزارًا علىٰ وسطه فيغطي به نصف جسده الأسفل، أو يتَّخذها علىٰ شكل وِشاح، وهي تُشبِهُ غِطاء السرير اليوم الذي يسمِّيه بعض الناس: مِلاية.

فقولها رضي الله عنها: «**رَأَيْتُ النبيَّ ﷺ وَعَلَيْهِ أَسْمَالُ مُلَيَّتَيْنِ**»؛ أي: كان عليه قطعتان صغيرتان باليَتَان من هذا القماش الذي يسمىٰ: الـمُلاءة، اتَّخذها لباسًا.

قولها رضي الله عنها: «**كَانَتَا بِزَعْفَرَانٍ**»؛ يعني: كانتَا مصبوغتين بلون الزعفران، وهو اللون الأصفر.

قولها رضي الله عنها: «**وَقَدْ نَفَضَتْهُ**»؛ يعني: قد نفضَتْ أثر الزعفران؛ لأنها باليةٌ، فمن شِدَّة القِدَم لم يبدُ مِن أثر الزعفران إلا الشيءُ اليسير.

وهذا الحديث لا يتعارض مع ما تقدَّم من اتِّخاذه الجميل من اللباس؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ كان لا يتكلَّف في لباس، فإنْ وجدَ الجميل الحسن لبسه واتَّخذه، وإن لم يجده لبس ما كان متيسِّرًا في ذلك الوقت.

*** لفتة إيمانية:**

هذا الحديث في جملته يدلُّ علىٰ هدي النبيِّ ﷺ في اللباس من اليُسر وعدم التكلُّف، وكذلك كان شأنه في طعامه ومشربه ومسكنه، إنما يأكل ويشرب ويسكن ما يتيسَّر دون تكلُّف، وقد قال له ربه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، ثم دلَّه

كيف يطلب الرزق بقوله: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، فما حسب النبيُّ ﷺ للدنيا حسابًا قليلًا ولا كثيرًا، وإنما كان يكتفي باليسير والموجود.

وكذلك عَظَمة الأنبياء لا تُقاس باللباس والمظاهر والحشود التي تنصبُّ حول الإنسان، وإنما تكون عَظَمتُهم بجوهرهم ومعادنهم وما في قلوبهم.

وكذلك الإنسان إنما تكون عَظَمته بما يحمل مِن عقيدة صحيحة، وقِيَم سامية، وأخلاق شريفة، ومبادئ عظيمة، عَظَمة الإنسان تكون بما يعيش له مِن رسالة عظيمة شريفة، وهِممٍ جليلةٍ ساميةٍ تنوءُ بحملها الجبال.

***

(صحيح) **٥٤ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلَيْكُم بِالبَيَاضِ مِنَ الثِّيَابِ، لِيَلْبِسْهَا أَحْيَاؤُكُمْ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ، فَإِنَّهَا مِنْ خِيَارِ ثِيَابِكُمْ»**(١).

شرح الحديث

قوله ﷺ: «عَلَيْكُم بِالبَيَاضِ مِنَ الثِّيَابِ»: حثٌّ علىٰ اتّخاذ البياض من الثياب، فقد كان البياض من أحبِّ ألوان الثياب له ﷺ، وقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه وغيره: «**أَتَيْتُ النبيَّ ﷺ وَعَلَيْهِ ثَوْبٌ أَبْيَضُ**»(٢)،

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٧٨)، والترمذي (٩٩٤)، وابن ماجه (١٤٧٢)، والحاكم (٧٣٧٧)، بنحوه، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وصحَّحه الحاكم.

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤).

فثبت لبس البياضِ هديًا نبويًا بقوله وفعله ﷺ.

والمقصود بالثياب: أيُّ نوعٍ من اللباس؛ سواء ما كان يسمَّىٰ اليوم ثوبًا، أو كان جِلبابًا، أو رداءً، أو إزارًا، أو قميصًا، أو جُبةً، أو عِمامة.

ويدخل في هذا الحثِّ المرأةُ أيضًا؛ لأنَّ الحديثَ جاءَ عامًّا ولم يُقيَّد، فيشمل النساء أيضًا.

والأمر بلبس البياض لا يمنع غيرها من الألوان؛ لأنَّ الأصل فيها الإباحة، ما لم تكن منهيًّا عنها، ولكن مَن أراد إصابة السُّنّة والفوز بأجرها فعليه باتِّخاذ الأبيض من الثياب.

قوله ﷺ: «وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ»، تكفين الموتىٰ في الأبيض من الثياب سُنَّة نبويَّة أخرىٰ، فإن كُفِّن في غيره من الألوان كان جائزًا.

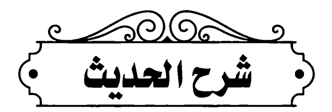
قوله ﷺ: «فَإِنَّهَا مِنْ خِيَارِ ثِيَابِكُمْ»: تعليل للأمر باتخاذ البياض من الثياب، وسيأتي مزيد تفصيلٌ لهذه العلَّة في الحديث القادم.

***

(صحيح) **٥٥ـ عَن سَمُرَةَ بْنِ جُندُبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْبَسُوا الْبَيَاضَ، فَإِنَّهَا أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ»**(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠١٥٤)، والترمذي (٢٨١٠)، والنسائي (١٨٩٦)، وابن ماجه (٣٥٦٧)، وقال الترمذي: «حسن صحيح».



شرح الحديث

حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه كحديث ابن عباس رضي الله عنهما السابق، فيه الحثُّ علىٰ لبس البياض من الثياب، وتكفين الموتىٰ بها.

قول سمرة رضي الله عنه: «فَإِنَّهَا أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ»؛ هاتان عِلَّتان كانتا سببًا وراء حُبِّ النبيِّ ﷺ للأبيض من الثياب:

أولاهما: كونه أطهر من بقية الثياب؛ لأنَّ الثوب الأبيض يظهر فيه القذر والوسخ أسرعَ مما يظهر في غيره من الألوان، فيكون صاحب الثوب الأبيض أكثر اعتناءً بنظافة ثوبه؛ لئلَّا يظهر فيه الاتِّساخ.

الثانية: كونه أطيب؛ لأن طِيب البياض ينعكس علىٰ صاحب الثوب والناظر إليه، وذلك لما يحسُّه الإنسان من البياض بانشراح نفسٍ، وحُسن منظر.

***

(صحيح) **٥٦ـ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ، وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مِنْ شَعَرٍ أَسْوَدَ»**(١).

شرح الحديث

هذا الحديث من رواية عائشة رضي الله عنها تصفُ فيه نوعًا آخر مما لبسه نبيُّنا ﷺ، وهو لباسٌ يُقال له: المِرْطُ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨١٣)، وقال: «حسن غريب صحيح».

قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**وَعَلَيْهِ مِرْطٌ**»، هذا نصُّ الحديث كما في جامع الترمذي وفي شمائله هنا، ونصُّه في صحيح مسلم: «**وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ**»[(١)]، وفي رواية: «**مُرَجَّلٌ**»[(٢)]، بالحاء والجيم، والحاءُ أصوب عند المحدِّثين.

والمِرطُ: كساءٌ طويلٌ واسعٌ، مُتَّخَذٌ مِن الصوف أو من الخَزِّ أو الكَتَّان أو غيره، يُتَّخذ إزارًا، هو أشبه بالقماش الواسع الذي يتَّخِذه اللابسُ إزارًا يتَّزر به.

والمِرط المرحَّل: ما كان مصبوغًا بلونٍ عليه صورةُ رَحْل الإبل، ورَحْل الإبل: ما يُجعل فوق ظهورها يركب عليه الراكب ويُسنِد إليه ظهره؛ أي: كان المِرط عليه صورةٌ، كما يكون في لباسنا اليوم مِن وجود صُوَرٍ مطبوعة عليها.

والـمِرْط المرجَّل ـ علىٰ إحدىٰ الروايتين ـ : ما كان فيه صورة رجال. والحاءُ أصحُّ وأرجحُ روايةً ومعنًىٰ؛ لأنه قد جاء النهي عن صُوَر ذوات الأرواح.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ»، تشير إلىٰ اللون الذي لبسه، وهو غير الأبيض، فيُفهم من صنيعه أنّ لبس البياض ليس علىٰ الوجوب، فلمَّا أمر بلبس البياض وثبت من سُنَّته أنه لبس غير البياض عُرِف أنَّ الأمر للندب وليس للوجوب، فلا يأثم من خالفه.

***

(١) أخرجه مسلم (٢٠٨١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٢٩٥)، وإسناده صحيح علىٰ شرط مسلم.

(صحيح) ٥٧ـ عَنِ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ النبيَّ ﷺ لَبِسَ جُبَّةً رُومِيَّةً ضَيِّقَةَ الكُمَّيْنِ»(١).



شرح الحديث

قول المغيرة رضي الله عنه: «**أَنَّ النبيَّ ﷺ لَبِسَ جُبَّةً**»؛ الجُبَّة: ما يُلبَس فوق القميص، فيكون ثوبًا فوق الثوب، وقد يُلبس علىٰ البدن مباشرة دون ثوبٍ تحته، وما زال يُسمَّىٰ إلىٰ اليوم عند كثير من العرب: جُبَّة.

قوله رضي الله عنه: «**رُومِيَّةً**»: نسبة إلىٰ بلاد الروم، مصنوعة في بلادهم.

قوله رضي الله عنه: «**ضَيِّقَةَ الكُمَّيْنِ**»؛ يعني: كُمُّها يصِل إلىٰ الذراع بضِيقٍ، ليس واسعًا يمكن رفعه إلىٰ المرفق للوضوء ونحوه.

وهذا الحديث كان في سَفرٍ كما بيَّنته بعضُ الروايات، وبعضها حدَّد ذلك بغزوة تبوك(٢)، ووُصفت الجُبَّة في بعض الروايات بأنها جُبَّةٌ شامية(٣)، وفي هذا الحديث أنها روميَّة، ولا منافاة بينهما لأن الشام آنذاك كانت تحت حكم قيصر ملك الروم.

وتبيَّن من أحاديث الباب أنَّ النبيَّ ﷺ نوَّع في لباسه؛ فلبس جُبَّةً رومية،

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٢٣٩)، والترمذي (١٧٦٨)، والنسائي (١٢٥)، وابن ماجه (٣٥٦٣)، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وهو بمعناه عند البخاري (٥٧٩٨)، ومسلم (٢٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٢١)، ومسلم (١٠٥ـ رقم: ٢٧٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٣)، ومسلم (٧٧ ـ رقم: ٢٧٤).

ومِرطًا من شَعرٍ أسود، وأسمالَ مُلَيَّتَين كانتا بزعفران، وحِبَرة، وحُلةً حمراء، وبُردَين، وأحبُّ ما لبسه القميص.

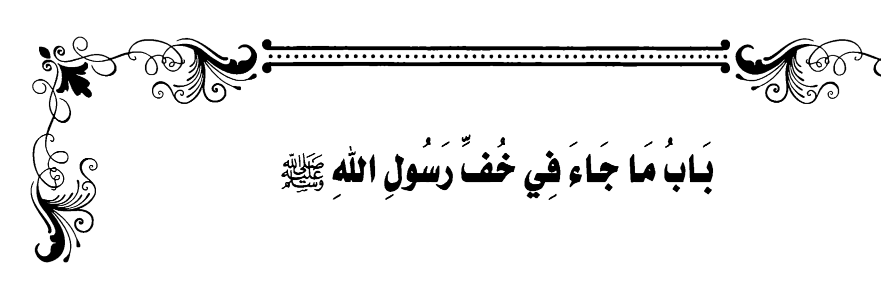
هذا التنوُّع يُبَيِّن أنَّ هديه ﷺ لم يكن مقتصرًا علىٰ نوعٍ واحدٍ من اللباس بحيث لا يلبس غيره، كما أنه لم يكن محدَّدًا بلونٍ لا يتّخذ غيره.

*** لفتة إيمانية:**

في آخر (**باب لباس رسول الله ﷺ**) يتبيَّن أنَّ الإسلام وازن بين الأمور؛ فكما اعتنىٰ كثيرًا بأمور الباطن، وتصفية القلوب، وتطهير ما في الصدور، وتصحيح العقائد، والعناية بالأخلاق، وغير ذلك مما اعتنت به الشريعة أيَّما اعتناء، فإنها كذلك اعتنت بمظهر المسلم وهيئته، فلسنا أمّةً مبتذَلةً تعتني بأحد الطرفين علىٰ حساب الآخر، لسنا أمّةً مظهريَّةً جوفاء، ولسنا أمّةً فيها مِن الغلوِّ والعناية بالجانب الروحي علىٰ حساب المادّة، مما يصل بالأمر إلىٰ الفِصام النكِد، لكنه التوسُّط والاعتدال سُنَّة الله ﷻ في الشريعة كلِّها، فاللباسُ في الشريعة الإسلامية ليس من الكماليات، بل هو مما التفتت إليه الشريعة واعتنت به.

فاللباسُ يعكس -ولابُدَّ- ما يحمله المسلم في قلبه من المعاني والعقائد والأفكار؛ فإذا انحرف باطنُه انحرف لباسُه، وإذا صحَّ باطنُه صحَّ لباسُه.

وبعدما ختم المصنف رحمه الله (**باب ما جاء في لباس رسول الله ﷺ**) شرع في باب آخر وهو (**باب ما جاء في عيش رسول الله ﷺ**) أورد فيه حديثين وأثرًا، فجاء المختصِر الشيخ الألباني رحمه الله وحذف الباب؛ لأنه تكرَّر بترجمته وما في أحاديث بابه في الباب الآتي برقم (٢٤).



بَابُ مَا جَاءَ فِي خُفِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ

(صحيح) ٥٨ـ **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه: «أَنَّ النَّجَاشِيَّ أَهْدَىٰ لِلنَّبِيِّ ﷺ خُفَّيْنِ، أَسْوَدَيْنِ، سَاذَجَيْنِ، فَلَبِسَهُمَا ثُمَّ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَيْهِمَا»**(١).

شرح الحديث

قول بريدة رضي الله عنه: «أَنَّ النَّجَاشِيَّ أَهْدَىٰ لِلنَّبِيِّ ﷺ خُفَّيْنِ»؛ النجاشيُّ هو ملك الحبشة الذي هاجر إليه المسلمون الهجرة الأولىٰ بأمره ﷺ، يبتغون عنده العدل الذي وُصِفَت به إمارته وحكمه، والصحيح أنَّ النجاشيَّ هذا قد أسلم، ولما مات صلىٰ عليه النبيُّ ﷺ صلاة الغائب كما ثبت في الصحيحين(٢).

قوله رضي الله عنه: «خُفَّيْنِ»: مُثنّىٰ خُفٍّ، والخُفُّ معروف، وهو: لباسٌ يُغَطَّىٰ به قدمُ الإنسان بأكمله، ويتجاوز ذلك إلىٰ مبدأِ ساقيه، فإن غطَّىٰ أسفل القدم فحسب دون ظهر القدم فهو النِّعال، والنِّعالُ أو النَّعلُ: ما يُتَّخَذ مِن اللباس ليقي باطن القدم مِمَّا يصيب الإنسان أثناء المشي، فإن زاد علىٰ ذلك فغطّىٰ باطنَ القَدَم وظاهرَها بأكملها ثم ارتفع إلىٰ الساقين ووصل إلىٰ الكعبين وما فوق يُسمَّىٰ خُفًّا.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٨١)، وأبو داود (١٥٥)، والترمذي (٢٨٢٠)، وابن ماجه (٥٤٩)، وحسَّنه الترمذي.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٤٥)، ومسلم (٩٥١).

والخُفُّ بهذا المعنىٰ مستعملٌ قديمًا وحديثًا.

وكانت العرب ولم تزل تتَّخذ الخِفاف وتلبسها، لحماية القدمين، وللتخفُّف من مشقّة لبس النعال وخلعها، وللتجمُّل والزينة، ألا ترىٰ أنَّ الملوك أهدت إلىٰ النبيِّ ﷺ خُفًّا كما فعل النجاشي، فهو هديةٌ معتبرةٌ كان يبعث بها الرؤساء والأمراء والملوك كما يبعثون الثياب واللباس والحليّ.

ولقد ارتبط بالخُفِّ حكمٌ شرعيٌّ عظيمٌ يتعلَّق بعبادة المسلم وطهارته، ألا وهو المسح علىٰ الخُفَّين بدلًا من غسل القدمين في الوضوء؛ للمسافر ثلاثة أيام بلياليهن، وللمقيم يوم وليلة، وليس المقصود في هذا الباب مدارسة الحكم الفقهي المتعلِّق بالخفِّ ولبسه، لكن المقصود هنا دراسة شمائله ﷺ.

وفي هذه الجملة من الحديث فوائد، منها: قبوله ﷺ الهدية، وكان يقبل الهدية من المسلم وغير المسلم علىٰ حدٍّ سواء؛ لأنَّ الهدية تعبيرٌ إنسانيٌّ لا علاقة له بالديانة، فهي تعبيرٌ عن احترام وتقدير ووفاء، وقبولُها أيضًا يعبِّر عن قدرٍ كبيرٍ من التقدير والاحترام.

وكان ﷺ يُهْدِي للمسلمين ويُهْدَىٰ إليه منهم، وكان يقبل الهدية ويُثيب عليها؛ لأنَّ قبول الهدية فيه جَبرُ خاطر الـمُهدي.

قوله رضي الله عنه: «**أَسْوَدَيْنِ**»، بيَّن أنَّ لونَ الخفَّين كان أسود.

قوله رضي الله عنه: «**سَاذَجَيْنِ**»: تثنية ساذَج، والساذَج: كلمةٌ فارسيةٌ مُعرَّبة، وهي مرادفةٌ للفظ العامِّي (سادة) الذي يُستعمل اليوم، بمعنىٰ: الشيء الذي لا مزيد عليه، كما يُقال: شرب الشاي سادةً، وشرب القهوة سادةً، بمعنىٰ: لا سُكَّر فيها، ويقال:

ثوبٌ سادةٌ، أو قماشٌ سادةٌ، بمعنىٰ: أنه لا زينة فيه ولا نقش ولا زخارف، وإنما هو لونٌ واحدٌ، فالساذَج والسادَة: هو العادي من الأشياء في أدنىٰ صُوَره دون مزيد عليه، وربما وُصِف عقل الإنسان بالسذاجة، فيُقال: فلان ساذَج؟ أي: أنَّه في أدنىٰ درجات العقل الذي لا مزيد عليه من ذكاء أو فهم أو إدراك، فالساذَج من العقول هو اليسير المحدود الذي لم يحظَ بقدرٍ من الفهم والوعي والإدراك.

فالخُفَّان الساذَجان: لا زينةَ عليهما ولا نَقشَ.

قولـه رضي الله عنه: «**فَلَبِسَهُمَا**»، فيه لطيفةٌ، وهو المبادرة إلىٰ استعمال الهدية والاستفادة منها؛ لما فيه من إشعار الـمُهدي بمكانة الهدية وموقعها من قلبه، واستفيدت المبادرة من العطف بالفاء، والفاء تفيد التعقيب وعدم التراخي، وهذا مِن آداب التعامل مع الناس وفنونه الراقية.

قوله رضي الله عنه: «**ثُمَّ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَيْهِمَا**»، فيه مشروعية المسح علىٰ الخفين، وذلك بالشروط المقرَّرة في كلام الفقهاء.

***

(صحيح) **٥٩ـ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: قَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ** رضي الله عنه: «**أَهْدَىٰ دِحْيَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ خُفَّيْنِ، فَلَبِسَهُمَا**».

(ضعيف) **وَقَالَ جَابِرٌ، عَنْ عَامِرٍ: «وَجُبَّةً، فَلَبِسَهُمَا حَتَّىٰ تَخَرَّقَا، لا يَدْرِي النبيُّ** رضي الله عنه **أَذَكِيٌّ هُمَا أَمْ لا**»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي (١٧٦٩)، وقال: «حسن غريب».

شرح الحديث

قول المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: «**أَهْدَىٰ دِحْيَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ خُفَّيْنِ، فَلَبِسَهُمَا**»، فيه فائدتان: مشروعية قبول الهدية، ومشروعية الإسراع بالاستفادة من الهدية، وتقدّم ذلك في الحديث السابق.

ودِحْيَةُ هو: دِحْيَة بن خليفة الكَلبي رضي الله عنه، أحد الصحابة الكرام، موصوفٌ بحسن الصورة وجمال المظهر، وكثيرًا ما كان يأتي جبريلُ عليه السلام إلىٰ النبيِّ ﷺ ـ إذا تَمَثَّل في صورة إنسان ـ في صورة دِحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه، وذلك لجَمال دِحْيَة، حتىٰ يحسب الصحابة أنَّ دحية كان بحضرته، فيخبرُهم ﷺ أنه كان جبريل وليس دحيةَ.

وفي الحديث: أنَّ الصحابة كانوا يُهْدُون النبيَّ ﷺ ويقبل منهم.

وإنما شُرِعَت الهدية وحثَّ الشارع عليها؛ لما تجلبه من خيرٍ ومحبةٍ بين الناس، ولا يثقل الناسُ أنفسَهم بالهدايا الفاخرة، فإنَّ الهدية تقع موقعها إذا خرجت من قلبٍ صادقٍ حتىٰ وإن كانت الهدية من الهدايا رخيصة الثمن أو المتوسطة.

(**وَقَالَ جَابِرٌ**) أي: في الرواية الأخرىٰ، وهو جابر الجعفي، ضعيف، ولهذا فإن الجملة ضعيفة السند، لكنها جاءت من طريق آخر وفيها زيادة.

قوله: «**وَجُبَّةً**»، هذه اللفظة زيادة في هذه الرواية علىٰ الرواية التي قبلها.

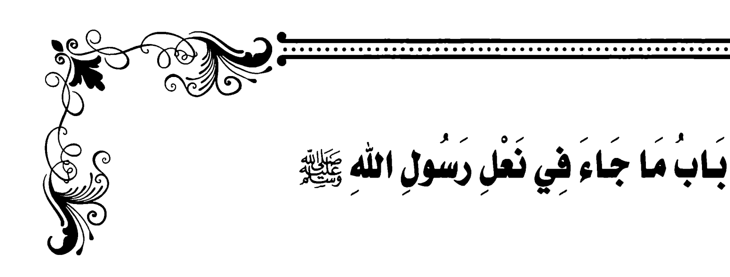
قوله رضي الله عنه: «**فَلَبِسَهُمَا حَتَّىٰ تَخَرَّقَا**»؛ يعني: استعملهما النبيُّ ﷺ حتىٰ بليا في قدميه ﷺ.

قوله رضي الله عنه: «**أَذَكِيٌّ**»: من الذَّكاة وليس من الذكاء، والذّكاةُ: الذبحُ بصورة شرعية.

قوله رضي الله عنه: «**لا يَدْرِي النبيُّ ﷺ أَذَكِيٌّ هُمَا أَمْ لا؟**»؛ يعني: لا يدري هل الخُفّان مصنوعان من جِلد حيوان مذبوح ومُذكًّى ذكاةً شرعيةً أم لا؟

والمقصود: أنَّ النبيّ ﷺ لم يستفسر عن طهارة الجلد الذي صُنِع منه الخُفّ، بل لبسه دون أن يسأل أو يعرف؛ ليدُلَّ على أنَّ المشروع لُبسه مِن غير معرفة أصل الجلد الذي صُنع منه، وقد علمتَ أنَّ هذه الزيادة لا تصح.

** ** **



بَابُ مَا جَاءَ فِي نَعْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

الأصلُ في النعال والخُفِّ كالأصل في اللباس، وهو الإباحة دون تقييدٍ بوجهٍ مخصوص.

وهذا الباب ليس من باب الأفعال التعبُّدية، بمعنىٰ: أنه لا يُشرع فيه التعبُّد بلباس النعل الذي لبسه ﷺ؛ لأنه ما فعل ذلك تعبُّدًا بل فعله عادةً، فما كان يلبسه الناس في ذلك الزمان لبسه ﷺ، فإذا لبس الناس اليوم لونًا وشكلًا ونوعًا آخر من النعال يُشرَع لبسه دون تكلُّف في صناعة غيره أو مخالفته.

***

(صحيح) ٦٠ـ **عَن قَتَادَةَ قَالَ: قُلْتُ لِأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁: كَيْفَ كَانَ نَعْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: «لَهُمَا قِبَالَانِ»**(١).

شرح الحديث

قول أنس ﵁: «لَهُمَا قِبَالَانِ»: مُثنَّىٰ قِبال، والقِبال: السَّيْرُ أو الحَبْلُ الذي يكون علىٰ ظهرِ النعل، يُجعل فيه عُقدةٌ ليرتديه الإنسان.

فالإنسان إذا اتخَّذ قطعةً من قماش أو جلدٍ يريد أن يجعلها نعلًا، فإنه

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٥٧).

يحتاج إلىٰ طريقة لتثبيت قدمه في النعل، فيُثبّت حَبْلًا أو سَيرًا في رأس النعال في مُقدَّمه يكون موصولًا إلىٰ آخره، ويجعل قدمه تحته، ويكون الحبلُ بين الأصبعين الإبهام والتي بعدها، ليكون عُروةً تُمسك القدم، وهو شبيهٌ باللباس الذي يلبسه الناس اليوم في الخفيف من أنواع النعال التي يلبسونها في كثير مما يقضون به حوائجهم ويمشون به في طرقاتهم.

***

(صحيح) ٦١ـ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ لِنَعْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَالَانِ، مَثْنِيٌّ شِرَاكُهُمَا»**(١).



شرح الحديث

قول ابن عباس رضي الله عنهما: **«مَثْنِيٌّ شِرَاكُهُمَا»**؛ يعني: هذان القِبالان ـ اللذان هما سَيران أو خَطَّان أو حَبلان يربطان القدم في النعال ـ مثنيٌّ في طرف النعل، يعني: مُثبَّتٌ فيه، فهو في مظهره كالهيئة التي يعرفها الناس في النعال اليوم التي يكون لها حبلان يضع اللابس فيهما قدمه ويربطها بين أصبعه الإبهام والتي تليها.

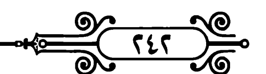
***

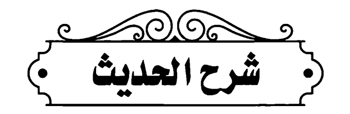
(صحيح) ٦٢ـ **عِيسَىٰ بْنُ طَهْمَانَ قَالَ: «أَخْرَجَ إِلَيْنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ نَعْلَيْنِ جَرْدَاوَيْنِ لَهُمَا قِبَالَانِ»، قَالَ: فَحَدَّثَنِي ثَابِتٌ بَعْدُ عَنْ أَنَسٍ: «أَنَّهُمَا كَانَتَا نَعْلَي النبيّ ﷺ»**(٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٦١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٨٦٠)، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٠٧).





شرح الحديث

قول عيسىٰ بن طَهْمان: «جَرْدَاوَيْنِ»: مُثَنَّىٰ جَرداء، والجَرداء: التي لا شَعر عليها.

فالنعال إذا صُنِعت مِن جِلد بقر أو غنم يكون عليها شَعر، لكنَّ الجِلد الذي صُنعت منه نِعال النبيِّ ﷺ كانت جرداء منزوعة الشَّعر.

ونَزع الشعر يكون أثناء الدَّبغ بشيءٍ من الآلات التي يُنزَع بها شعر الحيوان؛ فيبقىٰ الجِلد أملس ناعمًا أجرد.

وهذا الحديث فيه وصفٌ زائدٌ عمَّا في الأحاديث السابقة، وهو أن الجلد الذي صُنِع منه النعال لم يكن عليه شعر، بل كان جِلدًا أجرد.

قول عيسىٰ بن طَهمان: «فَحَدَّثَنِي ثَابِتٌ بَعْدُ عَنْ أَنَسٍ»، يحكي عيسىٰ بن طَهمان عن ثابتٍ البُنانيِّ، وهو من كبار التابعين، وكبار تلاميذ أنس رضي الله عنه وأكثرهم صحبة له، لزمه فتعلم كثيرًا مِن سُنن رسول الله ﷺ عن أنس.

قول أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: «أَنَّهُمَا كَانَتَا نَعْلَيِ النبيِّ ﷺ»؛ يعني: لما أخرجهما أنسٌ رضي الله عنه ورآهما عيسىٰ لم يعرف أنها نعلُ رسول الله ﷺ، لكنَّ ثابتًا البُنانيَّ حكىٰ له بعدُ أنَّ النعلين اللتين رآهما قبلُ كانتا لرسول الله ﷺ.

وسبب احتفاظ أنس رضي الله عنه بهاتين النعلين: هو ما كان قد فعله بعض الصحابة في شأن آثار رسول الله ﷺ عندما احتفظوا بها؛ فهذا أنسٌ احتفظ بالنعال، وخالد بن الوليد رضي الله عنه احتفظ بشيءٍ من الشَّعر، وهكذا، مع العلم بأنَّ النبيَّ ﷺ لم يُخلِّف شيئًا

كثيرًا من الآثار، كما جاء في حديث عمرو بن الحارث رضي الله عنه في صحيح البخاري(١) قال: «**مَا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِندَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا وَلَا عَبْدًا وَلَا أَمَةً وَلَا شَيْئًا، إِلَّا بَغْلَتَهُ البَيْضَاءَ، وَسِلَاحَهُ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً**».

ثم هذا الشيء اليسير قد صار إلىٰ بعض الصحابة؛ ثم آل مصيرُه إلىٰ أحد أمرين: إما أنَّه دُفِنَ مع الصحابي في قبره كما ثبت عن بعض الصحابة في ذلك، وإمَّا أنه زال وضاعَ وفَنِيَ عبر تاريخ الأمّة الطويل، ولا يخفىٰ كيف أنَّ المغول ـ مثلًا ـ غزَوْا بغداد فأتلفوا من تراث هذه الأمَّةِ ما أتلفوا، ومِمَّا أتلفوه البُردة التي كانت يتداولها الخلفاء عن النبيِّ ﷺ كما ثبت ذلك في كتب التواريخ.

فمَن جاء اليوم بعد أكثر من ألف وأربعمائة وثلاثين سنة يزعم أنَّ عنده أثرًا من آثار رسول الله ﷺ؛ مِن شَعره، أو نعله، أو سيفه، أو خُفِّه، فإنه لا يُصَدَّق إلا أن يُثبِت ذلك بيقين، خاصَّة إذا عُلِمَ أنَّ الصالحين خاصةً والأُمَّة عامةً تتسابق إلىٰ اقتناء مِثْل هذه الأمور.

فالصحابة رضي الله عنهم والتابعون عندما ظفِروا بشيء من هذه الآثار النبوية؛ تَبَرَّكوا بها، وافتخروا بالاحتفاظ بها، كما ورد عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، قَالَ: قُلْتُ لِعَبِيدَةَ: «عِندَنَا مِن شَعْرِ النبيِّ ﷺ أَصَبْنَاهُ مِن قِبَلِ أَنَسٍ، أَوْ مِن قِبَلِ أَهْلِ أَنَسٍ»، فَقَالَ: لَأَن تَكُونَ عِندِي شَعَرَةٌ مِنْهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا(٢)، فهذا يدلُّ علىٰ أنَّ بعض شَعر النبيِّ ﷺ قد كان موجودًا في عهد التابعين وظفر به بعضُهم.

---

(١) صحيح البخاري (٢٧٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٠).

ولكن في ذلك الزمان كانت الآثارُ النبويةُ قد نُقِلَت بأسانيد صحيحة موثوقة، يعرف مالكُها أنَّ هذا من أثر رسول الله ﷺ، أمّا اليوم مع تطاوُل الزمان وتباعُد القرون فليس من اليسير أبدًا أن يزعم زاعمٌ أن ههنا شيئًا يتعلَّق بآثار المصطفىٰ ﷺ، كالسيف والنعل والدرع، وأبعد من ذلك ضفيرة الشعر الطويلة!!

***

(صحيح) **٦٣- عَنْ عُبَيْدِ بْنِ جُرَيْجٍ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: رَأَيْتُكَ تَلْبَسُ النِّعَالَ السِّبْتِيَّةَ، قَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَلْبَسُ النِّعَالَ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَعرٌ، وَيَتَوَضَّأُ فِيهَا؛ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَلْبَسَهَا»**(١).

شرح الحديث

هذا جزءٌ من حديثٍ طويلٍ سأل فيه عبيدُ بنُ جريجٍ ابنَ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن أكثر من شيء؛ فعَنْ عُبَيْدِ بْنِ جُرَيْجٍ أَنَّهُ قَالَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، رَأَيْتُكَ تَصْنَعُ أَرْبَعًا لَمْ أَرَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِكَ يَصْنَعُهَا، قَالَ: وَمَا هِيَ، يَا ابْنَ جُرَيْجٍ؟ قَالَ: رَأَيْتُكَ لَا تَمَسُّ مِنَ الأَرْكَانِ إِلَّا اليَمَانِيَّيْنِ، وَرَأَيْتُكَ تَلْبَسُ النِّعَالَ السِّبْتِيَّةَ، وَرَأَيْتُكَ تَصْبُغُ بِالصُّفْرَةِ، وَرَأَيْتُكَ إِذَا كُنتَ بِمَكَّةَ أَهَلَّ النَّاسُ إِذَا رَأَوُا الهِلَالَ، وَلَمْ تُهِلَّ أَنتَ حَتَّىٰ كَانَ يَوْمُ التَّرْوِيَةِ.

ثم إن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عندما أجابه كان ينطلق مِن مبدأٍ واحدٍ، وهو أنَّ إمامي رسولُ الله ﷺ، فما رأيتُه فعلَ فعلتُ، وما رأيته تركَ تركتُ.

(١) أخرجه البخاري (١٦٦)، ومسلم (١١٨٧).

فسُئِل: لِمَ لَمْ تَسْتلم إلا الركنين، وتركت الركنين الآخرين، وكلها بيت الله، وكلها كعبة مُعظَّمة مباركة؟ فأجاب: «**أَمَّا الأَرْكَانُ: فَإِنِّي لَمْ أَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَمَسُّ إِلَّا اليَمَانِيَّيْنِ**».

وسُئِل عن سبب لبسه النعال السِّبْتِيّة؟ فلم يكن الجوابُ لأنها أكثر راحةً لقدمي، أو أطيب عندي، أو لأنها أجمل، أو لأنها تلائمني! بل تجاوز كلَّ هذه الإجابات ليقول: «**وَأَمَّا النِّعَالُ السِّبْتِيَّةُ: فَإِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَلْبَسُ النَّعْلَ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَعَرٌ وَيَتَوَضَّأُ فِيهَا، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَلْبَسَهَا**».

والنعالُ السِّبتِيّةُ: منسوبةٌ إلىٰ السِّبت، وهي النعال المدبوغة، وقيل: المنزوعة الشَّعر، قيل لها سِبتِيّة لأنها تسبَّتَت بالدِّباغ؛ أي لانت.

وهكذا قال في الباقي: «**وَأَمَّا الصُّفْرَةُ: فَإِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَصْبُغُ بِهَا، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَصْبُغَ بِهَا، وَأَمَّا الإِهْلالُ: فَإِنِّي لَمْ أَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُهِلُّ حَتَّىٰ تَنبَعِثَ بِهِ رَاحِلَتُهُ**».

*** لفتة إيمانية:**

هل كُنت يومًا لا تفعل الفعلَ لشيءٍ إلا حُبًّا لرسول الله ﷺ وتشرُّفًا بالتشبُّه به؟

هذا حالُ ابن عمر رضي الله عنهما مع بعض الأمور التي ليست من العبادات، فكيف حالُنا مع ما نقطع يقينًا أنَّ النبيَّ ﷺ يحبُّ أن نتبَّعه فيه ونقلِّده ونمشي علىٰ طريقته فيه؛ فعودًا حميدًا أيها المحبُّون لسُنَّة حبيبكم رسول الله ﷺ، وإلىٰ الهدي النبوي في كل أبواب الحياة وشؤونها.

لذلك لا نعجبُ من صنيع ابن عمر رضي الله عنهما عندما سمِع رغبةً من رغبات النبيِّ ﷺ، والتي لم تكن أمرًا يجب الالتزام به، بل كانت مجرَّد رغبة، فالتزم تنفيذَها ابنُ عمر رضي الله عنهما حتىٰ مات؛ عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ تَرَكْنَا هَذَا الْبَابَ لِلنِّسَاءِ**»، قَالَ نَافِعٌ: فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ ابْنُ عُمَرَ، حَتَّىٰ مَاتَ(١).

أراد ﷺ أن يخصَّ النساء في المسجد ببابٍ لا يُزاحِمن فيه الرجال، ولا يختلطن دخولًا وخروجًا بهم، والمسجدُ صغيرٌ محدود الصفوف، وهذا مِن تمام عنايته ﷺ بحشمة المرأة وعفافها، وإغلاقًا لمنافذ الشيطان وخطواته بين الرجال والنساء في أشرف جيل وأطهره وأكرمه، فاقترح هذا ورغب فيه، ولم يفعله ﷺ حتىٰ مات، ولكن ابن عمر التزم هذه الرغبة ونفَّذها إتمامًا واستكمالًا لتحقيق أوامر النبيِّ ﷺ ورغباته.

ولقد تتبَّع ابن عمر رضي الله عنهما آثار النبيِّ ﷺ حتىٰ قال نافع: «لَوْ رَأَيْتَ ابْنَ عُمَرَ يَتْبَعُ آثَارَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقُلْتَ: هَذَا مَجْنُونٌ»(٢).

فليسأل أحدُنا نفسَه: أين اتِّباعي لهدي النبيِّ ﷺ في شؤون حياتي القولية والفعلية؟ في اللباس والمظهر؟ في الطعام والشراب؟ في الدخول والخروج؟ في النكاح والمعاشرة؟ في تربية الأولاد؟ في الإحسان للجيران وصلة الأرحام؟

لقد رسم ابنُ عمر رضي الله عنهما منهجًا عظيمًا من مناهج الحياة يجب علىٰ المسلم

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٢)، وصحَّح أبو داود وقفَه علىٰ عمر رضي الله عنه، وقال صاحب عون المعبود (٢/ ٨٠): «الأشبه أن يكون الحديث مرفوعًا وموقوفًا، وعبد الوارث ثقة تقبل زيادته».

(٢) أخرجه الحاكم (٦٣٧٦).

أن يتبعها، وهو أن يجعل كلَّ شيءٍ تابعًا لرأي الرسول ﷺ وأمره، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقد قال أيضًا: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، وعدمُ طاعته مؤشِّر خطرٍ قال عنه سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

فهما طريقان لا ثالث لهما: إما اتِّباع سُنة رسول الله ﷺ وجعلها منارةً إليها يتَّجه المسلم في كل شؤون الحياة، وبعد ذلك السلامة والنجاة والهداية وطاعة الله وجنةٌ عرضها السماوات والأرض، وإما عزوفٌ عن السُّنة ووقوعٌ في وَحل الهوىٰ الذي لابُدَّ وأن يَجُرَّ صاحبه إلىٰ جهنم ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

***

(صحيح) **٦٤ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ لِنَعْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَالَانِ»**(١).



شرح الحديث

في حديث أبي هريرة ما جاء في الأحاديث السابقة مِن أنَّ نعل رسول الله ﷺ كان له قِبالان، وقد تقدَّم معناهما، وهما: السَّيْران أو الحَبلان اللذان يكونان علىٰ ظهر النِعال، يربط فيها اللابس للنعال قدمه؛ حتىٰ تمسك فيها.

---

(١) أخرجه النسائي (٥٣٦٨).

(صحيح) ٦٥ ـ **عَمْرُو بْنُ حُرَيْثٍ ﷺ يَقُولُ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي فِي نَعْلَيْنِ مَخْصُوفَتَيْنِ»**[١].

شرح الحديث

قول عمرو بن حريث رضي الله عنه: «**رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي فِي نَعْلَيْنِ**»، هذه الجملة تشير إلىٰ صلاته ﷺ لابسًا نعاله، وهذا ثابتٌ في السُّنة؛ فالصلاة في النعال صحيحة، بشرط أن تكون طاهرةً لا نجاسة فيها، فقد ثبت في الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَلَّىٰ، فَخَلَعَ نَعْلَيْهِ، فَخَلَعَ النَّاسُ نِعَالَهُمْ، فَلَمَّا انصَرَفَ قَالَ: «**لِمَ خَلَعْتُمْ نِعَالَكُمْ؟**»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْنَاكَ خَلَعْتَ فَخَلَعْنَا، قَالَ: «**إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ بِهِمَا خَبَثًا**»[٢].

وفي هذا الحديث بيانٌ لشدَّة اتِّباع الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ، فهم ما كانوا ينتظرون أمرًا منه ولا توجيهًا، بل يكفيهم أن يروه قد فعل شيئًا فيبادرون إلىٰ فعل مثله دون تردُّد.

وفي الحديث أيضًا دليلٌ علىٰ أنَّ طهارة المصلِّي في ثوبه وبدنه شرطٌ لصحة الصلاة، والنعال في حكم الثياب واللباس، فمن صلَّىٰ في نعالٍ صحَّت صلاتُه بشرطِ أن تكون طاهرة.

ولقد كان لبس النعال في المساجد أمرًا معتادًا، وذلك أنَّ المساجد إنما كانت تُفرَش بالحَصىٰ، ولم يكن فيها فرشٌ ولا أكسية.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٩٧١٨ ـ ٩٧٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (١١١٥٣)، وابن خزيمة في صحيحه (١٠١٧).

وأمَّا اليوم فلا ينبغي للناس أن يصلُّوا منتعلين في المساجد؛ لأنَّ النِّعال إما أن يستعملها أصحابها لدخول الحمامات ودورات المياه، فلا يخلو مِن أن تصيبها نجاسةٌ، فلا يجوز له أن يصلي فيها، وإن كانت طاهرةً فلا تخلو من غُبارٍ وتراب يُفْسِد بها ما تُفْرَشُ به المساجد اليوم من أنواع البُسُط، كما لا يرضىٰ الناسُ أن يدخل عليهم في بيوتهم وعلىٰ فُرُشهم مَن يكون لابسًا نعاله.

ولكن لو كان بعضُ الناسِ في بَرِّيَّةٍ أو نحو ذلك، وحضر وقتُ الصلاة، فصلَّوا منتعلين فلا بأس.

قول عمرو بن حريث رضي الله عنه: «مَخْصُوفَتَيْنِ»؛ أي: مَخِيطتَين، عليها غُرَزٌ وخياطة، والخَصْفُ ربما كان لخياطة بعضِ قِطع النعال إلىٰ بعض، فإذا كان طرف النعال الجلديِّ قد تمزَّق طرفه فخياطته تُسمَّىٰ خَصْفًا.

وقد كان النبيُّ ﷺ يخصِفُ نعلَه، ويُرَقِّع ثوبه، كما ثبت في شأنه[1].

وهذا مِن الآثار التي ترسم لك هديَه ﷺ في النعال، وأنه ما كان يتكلَّفُ فيها.

***

(صحيح) ٦٦ـ **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه، **أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لَا يَمْشِيَنَّ أَحَدُكُمْ فِي نَعْلٍ وَاحِدَةٍ، لِيُنْعِلْهُمَا جَمِيعًا، أَوْ لِيُحْفِهِمَا جَمِيعًا»**[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٧٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٥٦)، ومسلم (٢٠٩٧).

شرح الحديث

قد يحصُل للإنسان ما يحصُل من إضاعةٍ لإحدىٰ نعليه، أو تَلَفِها، أو قد تكون إحدىٰ نعليه بعيدةً عن الأخرىٰ، فيلبس الأولىٰ ويمشي خطواتٍ للثانية، أو نحو ذلك مما يدعوه للمشي في نعلٍ واحدة؛ فتكون إحدىٰ رجليه منتعلة، والأخرىٰ حافية.

وقد جاء هذا الحديث لبيان أنَّ المشي في نعلٍ واحدةٍ ليس من السُّنَّة، بل جاء بصيغة النهي التي تدلُّ علىٰ التحريم؛ لأجل ذلك منعَ بعضُ العلماءِ مِن أن يمشي الرجلُ في نعلٍ واحدةٍ ولو لخطوةً واحدة.

وعِلَّةُ النهي عن المشي في نعالٍ واحدةٍ: أَنَّها مِشية الشيطان[(١)].

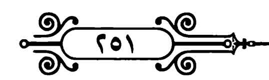
ومِن عِلَل النهي أيضًا: أنَّ المشي في النعل الواحدة يُخالِف جَمال المظهر وحسن الهيئة التي حرص الإسلام علىٰ أن يبدو عليها المسلم.

وأشار بعض أهل العلم إلىٰ لطيفةٍ مستفادةٍ من هذا الحديث، وهي أنَّ هذا الحديث من عدل الإسلام؛ ففي الحديث إقامةٌ للعدل بين القدمين، إما أن تُنعِل قدميك معًا أو تُحفِيَهما معًا، وكذلك في الشَّعر نُهِي عن القَزَع، فإما أن تحلقه كُلَّه أو تتركه كُلَّه، أما أن تحلق بعضَه وتترك بعضَه فمنهيٌّ عنه[(٢)].

***

(١) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٢/ ١٤٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (١/ ٣٤٨).

(٢) في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٩٢٠)، ومسلم (٢١٢٠).



(صحيح) ٦٧- عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه: «أَنَّ النبيَّ ﷺ نَهَىٰ أَن يَأْكُلَ - يَعْنِي: الرَّجُلَ - بِشِمَالِهِ، أَوْ يَمْشِيَ فِي نَعْلٍ وَاحِدَةٍ»(١).



شرح الحديث

في الحديث النهيُ - كما سبق - عن المشي في نعلٍ واحدة، بالإضافة إلىٰ النهي عن الأكل بالشمال.

***

(صحيح) ٦٨- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ النبيّ ﷺ قَالَ: «إِذَا انتعَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِاليَمِينِ، وَإِذَا نَزَعَ فَلْيَبْدَأْ بِالشِّمَالِ، فَلْتَكُنْ أَوَّلَهُمَا تُنْعَلُ، وَآخِرَهُمَا تُنزَعُ»(٢).

شرح الحديث

قوله ﷺ: «إِذَا انتعَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِاليَمِينِ»، وهذا داخلٌ في محبَّته ﷺ للتيامُن في شأنه كلِّه فيما كان من باب الإكرام، فيقدِّم يُمناه في لبس النعال، ولبس القميص، وفي الوضوء، وحلق الرأسه، وفي شأنه كلِّه.

قوله ﷺ: «فَلْتَكُنْ أَوَّلَهُمَا تُنْعَلُ، وَآخِرَهُمَا تُنزَعُ»، يقصد: اليمنىٰ.

في هذا الحديث تعليمٌ للأدب النبويِّ المتعلق بلبس النعال، وهو الابتداء بالرِّجل اليُمنىٰ عند الانتعال، والابتداء بالرِجل اليُسرىٰ عند نزع النعال.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٥٥).

(صحيح) ٦٩ـ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ التَّيَمُّنَ مَا اسْتَطَاعَ فِي تَرَجُّلِهِ، وَتَنَعُّلِهِ، وَطُهُورِهِ»(١).

شرح الحديث

تقدم أنَّ المراد بالترجُّل: تمشيطُ شعره وتسريحُه ودهنُه.

والمقصود بالطُّهور: الوضوء والاغتسال.

ففي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ كان يبدأ بالجانب الأيمن قبل الأيسر في ترجُّله، ولبس النعال، وتطهُّره في وضوئه وغُسْلِه حيث كان يبدأ بالجانب الأيمن ﷺ.

***

(ضعيف) ٧٠ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ لِنَعْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَالَانِ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَأَوَّلُ مَنْ عَقَدَ عَقْدًا وَاحِدًا عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»(٢).



شرح الحديث

قول أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ لِنَعْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَالَانِ»، تقدم معنىٰ القِبالَيْن.

---

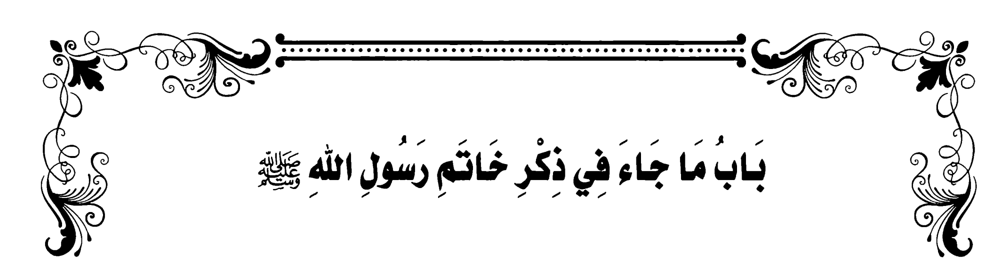
(١) أخرجه البخاري (٤٢٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (٢٥٤)، وضعَّفه الألباني؛ لأنَّ في إسناده عبد الرحمن بن قيس وهو متروك، وذكر أنَّ له طريقًا آخر فيه راوٍ ضعيف.

قوله رضي الله عنه: «**وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ** رضي الله عنهما»؛ أي: وكذلك كانت نعل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، كان لها قبالان.

قوله رضي الله عنه: «**وَأَوَّلُ مَنْ عَقَدَ عَقْدًا وَاحِدًا عُثْمَانُ** رضي الله عنه»؛ أي: أوّل مَن جعل سَير النعلِ علىٰ خطٍّ واحدٍ هو عثمان رضي الله عنه، وفي هذا دلالة علىٰ أن هذا الأمر فيه سعةٌ، وليس تعبديًّا لا يجوز مخالفته.

** ** **



بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِكْرِ خَاتَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

(صحيح) ٧١ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ خَاتَمُ النبيِّ ﷺ مِن وَرِقٍ، وَكَانَ فَصُّهُ حَبَشِيًّا»(١).

شرح الحديث

الخاتَم: معروفٌ، وهو حَلْقة مِن معدنٍ؛ من الذهب أو الفضة أو غيرهما من المعادن، تكون في الإصبع.

وفرَّق بعضهم فقال: إن كان له فَصٌّ يُسَمَّىٰ خاتمًا، وإن كان مجرَّد حَلقة لا فَصَّ له يُسمَّىٰ فَتْخَةً، والجمع فَتَخَات.

قول أنس بن مالك رضي الله عنه: «**كَانَ خَاتَمُ النبيِّ ﷺ مِن وَرِقٍ**»؛ الوَرِق: هو الفضة.

أفاد الحديثُ أنَّ نبيَّنا ﷺ لبس الخاتم، وأنَّ الخاتم الذي لبسه كان مِن فضة؛ فدلَّ علىٰ جواز لبس الفضة للرجال، وأما الذهب فهو حرام عليهم.

قوله رضي الله عنه: «**وَكَانَ فَصُّهُ حَبَشِيًّا**»؛ الفَصُّ: مُثلَّث الفاء، وهو: الحجر أو المعدن الذي يكون علىٰ ظهر الخاتم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٩٤).

والمقصود بكونه حبشيًّا: أنه مصنوع في الحبشة، أو معدنه قادم مِن الحبشة، أو صَنعته وصفاته علىٰ هيئة ما يُصنع من الخواتم والفصوص في أرض الحبشة.

***

(صحيح دون قوله: «وَلَا يَلْبَسُهُ») **٧٢ـ عَنِ ابْنِ عُمَرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: **«أَنَّ النبيَّ ﷺ اتَّخَذَ خَاتَمًا مِن فِضَّةٍ، فَكَانَ يَخْتِمُ بِهِ وَلَا يَلْبَسُهُ»**(١).

شرح الحديث

قول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: **«أَنَّ النبيَّ ﷺ اتَّخَذَ خَاتَمًا مِن فِضَّةٍ»**، هذا موافقٌ لما تقدَّم مِن حديث أنس أنَّه ﷺ اتخذ خاتمًا مِن وَرِقٍ، وهما متفِّقان مع مجموعة من الأحاديث الثابتة المروية عن جملة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تفيد أنَّ نبيَّنا ﷺ لبس خاتمًا، وأنه كان مِن فضة.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«فَكَانَ يَخْتِمُ بِهِ وَلَا يَلْبَسُهُ»**، يفيد أنه اقتنىٰ الخاتم ولكنه ما كان يلبسه، وإنما كان يختم به الكتب والخطابات التي يبعثها ﷺ، وهذا مُخالِفٌ لما ثبت من لبسه للخاتم، بل قد جاءت الأحاديث بأدَقَّ مِن ذلك؛ حيث وصفت لبسه للخاتم هل كان في اليد اليمنىٰ أم اليسرىٰ كما سيأتي.

وللعلماء عن هذا الإشكال جوابان:

---

(١) أخرجه أحمد (٥٣٦٦)، والنسائي (٥٢١٨)، وابن حبان (٥٥٠٠)، وبيَّن الألباني أنَّ قولَه «وَلَا يَلْبَسُهُ» شاذٌّ.

الجواب الأول: الحكم بالشذوذ الحديثيِّ علىٰ هذه الجملة مِن الحديث، مع أنَّ الحديثَ صحيحٌ، ومعنىٰ الشذوذ عند المحدثين: أن يخالف الراوي الثقة ـ وليس الضعيف ـ مَن هو أوثق منه مِن الرواة، والجملة التي خالف فيها الثقة ما رواه غيرُه مِن المحدّثين الأثبات يجعل المحدّثين يحكمون علىٰ هذا القدر ـ المخالف فيه لغيره ـ بالشذوذ.

والجواب الآخر: أن يُقال: إنَّ هذا يُحْمَل علىٰ خاتمٍ آخر غير الذي كان يلبسه، يعني: يُحْمَل علىٰ التعدُّد؛ فلبس خاتمًا من نوع، ونوع آخر من الخواتم اتّخذه ولم يلبسه، وعلىٰ هذا فلا تكون هذه الجملة شاذة.

***

(صحيح) **٧٣ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ خَاتَمُ النبيِّ ﷺ مِن فِضَّةٍ، فَصُّهُ مِنْهُ»**(١).

شرح الحديث

قول أنس رضي الله عنه: **«كَانَ خَاتَمُ النبيّ ﷺ مِن فِضَّةٍ»**، هذه الجملة موافقة لما تقدم في الأحاديث السابقة.

قول أنس رضي الله عنه: **«فَصُّهُ مِنْهُ»**؛ المعنىٰ: أنَّ فَصَّ الخاتم كان جزءًا مِن حلقة الخاتم غير منفصل عنها، أي: من الفضة.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٧٤٠)، والنسائي (٥٢٠٠)، وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب».

وتقدَّم في الحديث الوارد في صدر الباب عن أنس رضي الله عنه: أنَّ فَصَّه كان حبشيًّا، والجمع بينهما أن يُقال:

إمَّا أنَّ فَصَّه كان من فِضةً، وكان حبشيًّا أيضًا بمعنىٰ أنه مصنوع في الحبشة، أو المعدن من الحبشة، أو صُنِع علىٰ هيئة الفَصِّ الحبشي.

وإمَّا أنَّ النبيَّ ﷺ كان له خاتمان: أحدهما فَصُّه حبشيٌّ، والآخر فَصُّه من فِضّة.

***

(صحيح) ٧٤ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ نَقْشُ خَاتَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: (مُحَمَّدٌ) سَطْرٌ، وَ(رَسُولُ) سَطْرٌ، وَ(اللهِ) سَطْرٌ»(١).

وَفِي طَرِيقٍ أُخْرَىٰ عَنْهُ: «أَنَّ النبيَّ ﷺ كَتَبَ إِلَىٰ كِسْرَىٰ وَقَيْصَرَ وَالنَّجَاشِيِّ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ لا يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلَّا بِخَاتَم، فَصَاغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَاتَمًا حَلْقَتُهُ فِضَّةٌ، وَنُقِشَ فِيهِ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، فَكَأَنِّي أَنظُرُ إِلَىٰ بَيَاضِهِ فِي كَفِّهِ»(٢).

شرح الحديث

قول أنس رضي الله عنه: «كَانَ نَقْشُ خَاتَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: (مُحَمَّدٌ) سَطْرٌ، وَ(رَسُولُ) سَطْرٌ، وَ(اللهِ) سَطْرٌ»، قد كان منقوشًا علىٰ خاتم نبيِّنا: (محمد رسول الله)، وهذا القول من أنس رضي الله عنه حكاية لكيفية كتابة هذه الكلمات الثلاث

(١) أخرجه البخاري (٣١٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٩٢).

في الخاتم، فقال: كانت كلمة (محمد) في سطر، وكلمة (رسول) في سطر، ولفظ الجلالة (الله) في سطر.

وسبب ذلك: أنَّ الخاتم صغيرةٌ مساحتُه، لا يمكن أن تَتَّسع للكلمات الثلاث في سطر واحد، فلا بُدَّ مِن توزيعها علىٰ الأسطر.

وهذه عادةٌ مألوفةٌ مُتَّبَعةٌ في نقش الخواتيم؛ سواء كان نقشُ الخاتم اسمَ ونسبَ لابسه، أو منصبه، أو وظيفته، أو جملة من الجمل التي يرتضيها أن تكون خاتمًا له، كما يذكر عن أبي بكر رضي الله عنه أنَّ نقش خاتمه كان: (نِعمَ القادرُ الله)(١)، وقد توافق الأئمة والخلفاء في مختلف عصور الأمة الإسلامية علىٰ نقش خواتيمهم بعبارات لا تتجاوز الكلمات الثلاث غالبًا.

وظاهر لفظ حديث أنسٍ رضي الله عنه أنَّ ترتيب الكلمات الثلاث من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ هكذا (محمد، رسول، الله) فيكون لفظ محمد في الأعلىٰ، ولفظ الجلالة في الأسفل.

وقال بعضهم: بل إنه كان بالعكس، أي: كلمة (محمد) كانت في الأسفل، و(رسول) في السطر الثاني، ولفظ الجلالة (الله) كان في الأعلىٰ؛ تأدُّبًا مع الله سبحانه، وهكذا قد رُسِم نقشُ الخاتم في بعض الصور التي تحاول تقريب صورة نقش خاتم رسول الله ﷺ للناس.

وقد تناول الحافظ ابن حجر رحمه الله هذه المسألة، وأشار إلىٰ أنه لا دليل علىٰ القول الثاني، فقال: «وأمّا قول بعض الشيوخ: إنَّ كتابته كانت من أسفل إلىٰ

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٦٧٩٤).

فوق، ـ يعني: أنَّ الجلالة في أعلىٰ الأسطر الثلاثة، ومحمد في أسفلها ـ ؛ فلم أرَ التصريح بذلك من شيء من الأحاديث، بل رواية الإسماعيليّ يخالف ظاهرُها ذلك؛ فإنَّه قال فيها: (محمدٌ) سطر، والسطر الثاني: (رسول)، والسطر الثالث: (الله)»(١)، وغالبًا لا يقال السطر الأول إلا للسطر الأعلىٰ، ولا يقال السطر الثاني إلا للأوسط، ولا يقال السطر الثالث إلا للأسفل.

وقد ظهر مؤخّرًا صُوَرٌ لبعض خطابات وكُتُب النبيِّ ﷺ التي كاتب بها بعض الرؤساء في السنة التاسعة من الهجرة، وهي خطابه إلىٰ هرقل عظيم الروم، وخطابه إلىٰ المقوقس حاكم مصر، وقد كان في صورة النقش لفظ الجلالة من أعلىٰ، وتحته كلمة (رسول)، وتحته كلمة (محمد) أسفلها.

وعلىٰ كلٍّ فالمسألة ليست ذات بالٍ.

قول أنس رضي الله عنه: «**أَنَّ النبيَّ ﷺ كَتَبَ إِلَىٰ كِسْرَىٰ وَقَيْصَرَ وَالنَّجَاشِيِّ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ لا يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلَّا بِخَاتَمٍ، فَصَاغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَاتَمًا حَلْقَتُهُ فِضَّةٌ، وَنُقِشَ فِيهِ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**»، هذا بيان لسبب اتخاذ الخاتم، وهو أن يكون ختمًا علىٰ الكتب والخطابات والرسائل التي يبعثها إلىٰ الملوك والرؤساء.

وكان قد أراد أن يكتب إلىٰ كسرىٰ وقيصر والنجاشي، في أعقاب صلح الحديبية، في أواخر السنة السادسة من الهجرة، وذلك بعدما تفرَّغ ﷺ للدعوة بعد الهُدنة التي عقدها مع قريش لأمور أخرىٰ غير قتال قريش، وكان مِن أعظمها بدءُ الدعوة وإرسالُ الكتب والوفود والرسائل إلىٰ الرؤساء والملوك؛

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٣٢٩).

رجاء إسلامهم وتبليغهم دعوة الإسلام.

فلمَّا أراد بعث الكتب قيل له: إنَّ العظماء والملوك والرؤساء لا يقبلون الكتب والخطابات إذا لم يكن عليها ختم، فاتخذ الخاتم، وجعل نقشه مناسبًا لما تحتويه الرسالة.

ولأجل ذلك ذهب بعضُ أهل العلم في حكم لبس الخاتم إلىٰ أنَّ الرجل إن كان له حاجةٌ للخاتم ليختم به خطاباته ـ كالقاضي والمسؤول ـ ؛ لإثبات صحة نسبة الرسالة إليه، فاتخاذ الخاتم في حقه سُنَّةٌ، أسوةً برسول الله ﷺ، وإلا فهو مباحٌ، ولا يكون مما يُسْتَنُّ به؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لم يلبس الخاتم تعبُّدًا.

ولكن متىٰ ما لبسه المسلم تشبُّهًا برسول الله ﷺ، فإنه يُثاب من جهة المحبَّة الصادقة لنبيه ﷺ التي حملته علىٰ أن يُوطِّن نفسَه علىٰ التشبُّه بنبيِّه حتىٰ في أبواب المباحات، لا مِن جهة إصابته سُنَّة العبادة التي يُثاب فاعلها ولا يُعاقَب تاركها، وعلىٰ ذلك يتنزَّلُ ما كان يفعله بعضُ أكابر الصحابة كأنس وابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: «... **ذَهَبْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ ذَلِكَ الطَّعَامِ، فَقَرَّبَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ خُبْزًا وَمَرَقًا، فِيهِ دُبَّاءٌ وَقَدِيدٌ، فَرَأَيْتُ النبيَّ ﷺ يَتَتَبَّعُ الدُّبَّاءَ مِنْ حَوَالَيِ القَصْعَةِ**»، قَالَ: «فَلَمْ أَزَلْ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ مِن يَوْمِئِذٍ»(١)؛ والدُّبَّاء: القَرْع، فإنَّ الفقهاء لا يقولون: إنَّ أكل الدُّبَّاء سُنَّة، أو محبَة الدُّبَّاء سُنَّة يُؤجر فاعلها، ولكن ثوابُ محبَّته للنبيِّ ﷺ أكبر وأعظم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٩٢).

قوله رضي الله عنه: «**فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلَّا بِخَاتَمٍ**»، فيه بيان مكانة الصحابة رضي الله عنهم من النبيِّ ﷺ، وأنه كان يقبل مشورتهم وإبداء رأيهم، مع ما هو فيه من منزلة النبوَّة العليَّة.

قوله رضي الله عنه: «**فَكَأَنِّي أَنظُرُ إِلَىٰ بَيَاضِهِ فِي كَفِّهِ**»؛ أي: بياض الخاتم لأنه من فِضَّة، والفِضَّة تبرُق إذا لمعت بريقًا أبيض.

وهذا من وصف أنس العجيب لرسول الله ﷺ، وهو أنَّه لا يكاد يصِفه إلا ويُلمِح إلىٰ قَدر الهيبة والجمال والجلال التي تقف عليها عيناه، فيحكي شيئًا قد وقع في قلبه وأحبَّ أن يشارك المسلمين فيه مشاعرَه، وهي إتيانه بصورة محفوظة في الذاكرة بعد مرور سنوات علىٰ وفاته كأنه يراها الآن بعينه، من شدَّة محبَّته لنبيه ﷺ.

ولكن هذه المحبة لم تكن تعني أنهم لم يعيشوها بعد موته ﷺ، بل استمرّوا في حياتهم قريبين في مشاعرهم وقلوبهم منه ﷺ، وهكذا يستطيع أحدُنا اليوم بعد أكثر من ١٤٣٠ سنة أن يعيش هذا الحُبَّ والقرب من النبيِّ ﷺ، وذلك بشرط أن يبحث عن مواقع السُّنن ويطبِّقها في حياته، وألا يكون الحبُّ شِعارًا يُقال باللسان ولا يُطَبَّق واقعًا عمليًّا ممارَسًا في الحياة.

***

(ضعيف) ٧٥ـ عَنْ أَنَسٍ ﷺ: «أَنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ إِذَا دَخَلَ الخَلَاءَ نَزَعَ خَاتَمَهُ»[(١)].

شرح الحديث

هذا الحديث عن أنس ﷺ ضعيفٌ سندًا، ووصفه الإمام أبو داود صاحب السنن بأنه منكرٌ[(٢)]، أي: أنَّه خالف المحفوظ الثابت.

وفي هذا الحديث أنه ﷺ كان إذا دخل الخلاء نزع خاتمه.

وعلىٰ فرض صحة الحديث فإنَّ نزعَ الخاتم يُفَسَّر بأنه احترامٌ لاسم الله المكتوب في الخاتم، وصَونًا له عن الامتهان من الدخول به في الخلاء.

وإنما عدَّه العلماء مُنكَرًا لأنه لا يصحُّ سندُه أولًا، ولأنه يُعارض ما ثبت في غيره، ولأنَّ صيانةَ اسم الله لن تكون بمثل هذا الصنيع في صيانة الخواتم، بل قد سُئل الحسن البصري كما أخرج ابن سعدٍ في الطبقات[(٣)]: هل ينزع الرجُلُ خاتمه إذا دخل الخلاء؟ فأجاب ﷺ: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يدخل الخلاء وفي نقش خاتمه جزءٌ من آية، يعني: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وهو جزءٌ من آخر آية في سورة الفتح. فكان الإمام الحسن البصري يفتي بعدم وجوب نزع الخواتم عند دخول الخلاء، ولو كان فيه كلمة أو لفظ اسم الله.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٩)، والترمذي (١٧٤٦)، والنسائي (٥٢١٣)، وقال أبو داود: «هذا حديث منكر، وإنما يُعرف عن ابن جريج، عن زياد بن سعد، عن الزهري، عن أنس: «أنَّ النبي ﷺ اتخذ خاتمًا من ورق ثم ألقاه»، والوهم فيه من همام، ولم يروه إلا همام»، وبيَّن وجوهَ الاختلاف في إسناده ومتنه. انظر: علل الدارقطني (١٢/ ١٧٥- ١٧٦).

(٢) سنن أبي داود عقب الحديث (١٩).

(٣) الطبقات الكبرىٰ (١/ ٤٧٥).

ومع ذلك فقد تأدَّب الفقهاء مع الخاتم إذا كان به لفظ الجلالة أو شيءٌ يستوجب الاحترام والإكرام، وأفتوا بأن صاحبه إذا دخل الخلاء قلب الفَصَّ ليكون في باطن الكَفِّ ويقبض عليه، وذلك لتُتَّقىٰ مشقَّةُ نزع الخاتم ولبسه مرَّةً بعد مرَّة، ويبقىٰ قدرٌ من الاحترام والإجلال والتقديس لاسم الله عز وجل.

***

(صحيح) ٧٦ـ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «**اتَّخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَاتَمًا مِن وَرِقٍ، فَكَانَ فِي يَدِهِ، ثُمَّ كَانَ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ وَيَدِ عُمَرَ، ثُمَّ كَانَ فِي يَدِ عُثْمَانَ حَتَّىٰ وَقَعَ فِي بِئْرِ أَرِيسٍ، نَقْشُهُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**»(١).



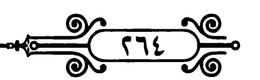
قول ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «**اتَّخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَاتَمًا مِن وَرِقٍ**»، قد تقدَّم هذا المعنىٰ مرارًا في الأحاديث السابقة.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**فَكَانَ فِي يَدِهِ**»؛ أي: مُدَّة حياته، وهي السنواتُ الأربعُ الأخيرة من حياته.

وهذه الجملة تؤكِّد شذوذ الجملة السابقة في الرواية الأولىٰ عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لما قال: «فَكَانَ يَخْتِمُ بِهِ وَلَا يَلْبَسُهُ»؛ فالراوي لهذه الرواية وتلك هو ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وهذا يؤكِّد أنَّ تلك الرواية شاذة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢١٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٩٣٠).



قوله رضي الله عنه: «**ثُمَّ كَانَ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ وَيَدِ عُمَرَ**»؛ يعني: تشرَّف الخلفاء رضي الله عنهم بعد وفاة رسول الله ﷺ بحملهم لخاتمه في أيديهم؛ فكان في يد أبي يكر، أي: حتىٰ مات، ثم انتقل إلىٰ عمر حتىٰ مات.

قوله رضي الله عنه: «**ثُمَّ كَانَ فِي يَدِ عُثْمَانَ حَتَّىٰ وَقَعَ فِي بِئْرِ أَرِيسٍ**»؛ بئرُ أَرِيس: بئرٌ تقع ناحية مسجد قباء في مزرعة، وهي باسم رجلٍ يهوديٍ يُسمَّىٰ أَرِيس، وأَرِيس باللغة العِبرية معناها: الفلَّاح، ولهذا جاء في خطابه ﷺ لَمَّا خاطب قيصر الروم: «**أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِن تَوَلَّيْتَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ**»(١)، فالأريسيِّين جمع أَرِيس.

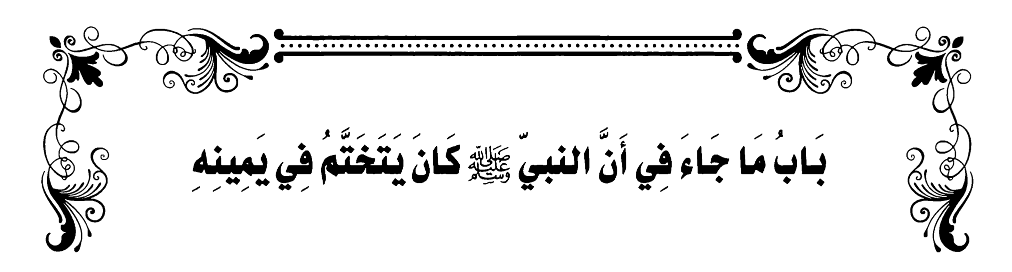
والقصة المشار إليها هي أنَّ عثمان رضي الله عنه ذات يومٍ من أيام خلافته كان في تلك المزرعة، وكان جالسًا علىٰ البئر، فسقط الخاتم مِن يده في البئر.

وقد ذكرت بعض الروايات أنهم اختلفوا إلىٰ البئر ثلاثة أيام ينزحون منها الماء، فما وجدوا الخاتم، ويئسوا بعد ذلك، فلم ينتقل الخاتم بعده إلىٰ علي رضي الله عنه، ولا إلىٰ غيره من الصحابة.

ومن زعم بعدَ ذلك أنَّ خاتم النبيِّ ﷺ عنده فيحتاج إلىٰ دليلٍ يثبت ويؤكِّد به ما يقول.

** ** **

(١) أخرجه البخاري (٧).



بَابُ مَا جَاءَ فِي أَنَّ النبيّ ﷺ كَانَ يَتَخَتَّمُ فِي يَمِينِه

(صحيح) ٧٧ـ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: «أَنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ يَلْبَسُ خَاتَمَهُ فِي يَمِينِهِ»(١).

شرح الحديث

هذا الباب عَقده المؤلِّف لتحديد اليد التي اتَّخذها النبيُّ ﷺ ليلبس فيها الخاتم، أكانت اليمنىٰ أم اليسرىٰ؟

وهذه الدقَّة في رواية الصحابة تتجاوز مجرَّد مشروعية لبس الخاتم، إلىٰ تعلُّم الصِّفة والهيئة التي لبس عليها النبيُّ ﷺ الخاتم، فمن أراد أن يتختَّم تشبُّهًا واقتداءً برسول الله ﷺ فإنَّ أمامه طريقًا واضحةَ المعالم مفصَّلةَ الخُطا.

وهذه مسألةٌ قد اختلف فيها الفقهاء، والإمام الترمذي بهذه الترجمة يُرَجِّح أنَّ التختُّم النبويَّ كان في اليد اليُمنىٰ، وهو ما أورد هذا الباب إلا لأن ثمة رواياتٍ أثبتت تختُّمه ﷺ في اليد اليسرىٰ، والترمذيُّ لا يصحِّحها.

والصحيح الذي رجَّحه الأئمة الكبار جواز التختُّم في اليدين معًا اليُمنىٰ واليُسرىٰ، وليس المقصود بالجواز مشروعيَّتَه وعدمَ إثم فاعله، بل المقصود

---

(١) أخرجه النسائي (٥٢٠٣).

ثبوتُه عن رسول الله ﷺ أنه تختَّم في يُمناه ويُسراه، ولهذا قال ابن القيِّم رحمه الله: «واختلفت الأحاديث: هل كان في يُمناه ـ يعني: الخاتم ـ أو يُسراه، وكلُّها صحيحة السند»(١). وقال الإمام النووي رحمه الله: «أجمعوا ـ يعني: الفقهاء ـ علىٰ جواز التختُّم في اليمين وعلىٰ جوازه في اليسار، ولا كراهة في واحدة منهما، واختلفوا أيَّتهما أفضل؟ فتختَّم كثيرون من السلف في اليمين، وكثيرون في اليسار، واستحبَّ مالكٌ اليسارَ وكَرِه اليمين، وفي مذهبنا ـ يقصد المذهب الشافعي ـ وجهان لأصحابنا، والصحيح أنَّ اليمين أفضل لأنه زينةٌ، واليمينُ أشرف وأحقُّ بالزينة والإكرام»(٢).

وقد أخرج الإمام مسلمٌ في صحيحه(٣): عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «**كَانَ خَاتَمُ النبيِّ ﷺ فِي هَذِهِ، وَأَشَارَ إِلَىٰ الخِنصِرِ مِن يَدِهِ اليُسْرَىٰ**».

فالأقرب ـ والعلم عند الله ـ إثباتُ لبسه ﷺ للخاتم في كلتا اليدين اليُمنىٰ واليُسرىٰ، وإن كان الأكثر أنها في اليد اليمنىٰ.

***

(صحيح) **٧٨ـ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنِيعٍ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ قَالَ: رَأَيْتُ ابْنَ أَبِي رَافِعٍ يَتَخَتَّمُ فِي يَمِينِهِ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: رَأَيْتُ عَبْدَ اللهِ**

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٣٤).

(٢) شرح النووي علىٰ مسلم (١٤/ ٧٣).

(٣) صحيح مسلم (٢٠٩٥).

ابْنَ جَعْفَرٍ يَتَخَتَّمُ فِي يَمِينِهِ، وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَخَتَّمُ فِي يَمِينِهِ»(١).

شرح الحديث

هذا الحديث يثبت ما جاء في حديث عليّ رضي الله عنه السابق من تختُّمه ﷺ في اليد اليمنىٰ.

وانظر إلىٰ إسناد الحديث؛ كيفَ أنَّ عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما إنما تختَّم في يمينه لأنه رأىٰ رسول الله ﷺ يتختَّم في يمينه، وما تختَّم ابنُ أبي رافعٍ في يمينه إلا لأنه رأىٰ عبد الله بن جعفر يتختَّم في يمينه اقتداءً بالنبيِّ ﷺ، وكذلك فعل حمَّادٌ، فانظر كيف كانوا يتوارثون السُّنَن ويفعلونها اقتداءً برسول الله ﷺ، حتىٰ وإن كان في أمرٍ هيِّن، وهو لبس الخاتم الذي ما هو إلا حَلقةٌ من معدن، ليس بعبادة يتقرَّبون بها إلىٰ الله، وإنما هو حُبٌّ للنبي المصطفىٰ، وتوطينٌ للنفس علىٰ الاقتداء به في كل أمور الحياة.

***

(صحيح) **٧٩ـ عَن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما: «أَنَّ النبيّ ﷺ كَانَ يَتَخَتَّمُ فِي يَمِينِهِ»**(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٦)، والترمذي (١٧٤٤)، ونقل عن البخاري أنه أصحُّ شيءٍ رُوي عن النبي ﷺ في هذا الباب.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٣٠٥).

شرح الحديث

حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يثبت ما أثبتته الأحاديث السابقة من تختُّمه ﷺ في يمناه.

***

(حسن) ٨٠ـ عَنِ الصَّلتِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يَتَخَتَّمُ فِي يَمِينِهِ، وَلا إِخَالُهُ إِلَّا قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَخَتَّمُ فِي يَمِينِه»[(١)].

شرح الحديث

حديث عن ابن عباس رضي الله عنهما يثبت ما أثبتته الأحاديث السابقة من تختُّمه ﷺ في يمينه، وقد رآه التابعون متختِّمًا بيمينه فحكوا ذلك عنه.

وهذا منهج الصحابة في الامتثال بأنفسهم؛ ليقتدي بهم مَن خلفهم من التابعين.

قول الصَّلت بن عبد الله: (لا إخاله): يعني: لا أظنُّه، أي: ما كان عنده الجواب إلا أنه كان يرىٰ رسول الله ﷺ متختمًا في يمينه.

وما هذا إلا كما سبق ـ قبل حديثين ـ أنَّه ما تختَّم إلا لأجل تختُّم النبيِّ ﷺ.

***

(١) أخرجه الترمذي (١٧٤٢)، ونقل عن البخاري أنه حسَّنه.

(صحيح) ٨١ـ **عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «أَنَّ النبيَّ ﷺ اتَّخَذَ خَاتَمًا مِن فِضَّةٍ، وَجَعَلَ فَصَّهُ مِمَّا يَلِي كَفَّهُ، وَنَقَشَ فِيهِ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، وَنَهَىٰ أَن يَنقُشَ أَحَدٌ عَلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي سَقَطَ مِن مُعَيْقِيبٍ فِي بِئْرِ أَرِيسٍ»**(١).

شرح الحديث

قول ابن عمر رضي الله عنهما: **«أَنَّ النبيَّ ﷺ اتَّخَذَ خَاتَمًا مِن فِضَّةٍ»**، تكرَّر هذا المعنىٰ مرارًا في الباب السابق.

قوله رضي الله عنه: **«وَنَقَشَ فِيهِ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»**، تقدَّم هذا المعنىٰ أيضًا في حديثٍ سابق.

قوله رضي الله عنه: **«وَنَهَىٰ أَن يَنقُشَ أَحَدٌ عَلَيْهِ»**؛ أي: نهىٰ ﷺ أن ينقش أحدٌ مثلَ نقش خاتمه؛ لأنه خاصٌّ به، فلا يجوز لأحدٍ أن يكون نقشُ خاتمه: محمدٌ رسول الله، وما تجرّأ أحدٌ أن ينقُشَ كما فعل ﷺ.

فلو أراد أن يلبس إنسانٌ خاتمًا يتشبّه به برسول الله ﷺ، ثم أراد أن يكون التشبُّه تامًّا وأراد أن ينقش عليه: محمد رسول الله!! فينهىٰ عنه.

قوله رضي الله عنه: **«وَهُوَ الَّذِي سَقَطَ مِن مُعَيْقِيبٍ فِي بِئْرِ أَرِيسٍ»**؛ مُعَيْقِيبٌ: هو ابن أبي فاطمة الدوسي، صحابيٌ جليلٌ، شهد المشاهد، وكان واليًا علىٰ بيت المال في خلافة عمر رضي الله عنه، كان مولًىٰ لعثمان رضي الله عنه.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٧٤٥)، وقال: «حسن صحيح».

يشير الراوي إلىٰ أنَّ هذا الخاتم قد سقط في بئر أريس ـ وقد أُشِير إلىٰ بئر أريس في آخر الباب السابق ـ، وقد مرَّ أنَّ الذي سقط منه الخاتم هو عثمان ﷺ، وهذا الحديث يذكر أنَّ مُعيقيبًا ﷺ هو الذي سقط الخاتم من يده، والجمع بين الروايتين أن يُقال: إمَّا أنَّ الخاتم كان في يد عثمان فأعطاه مُعيقيبًا ليختم به فسقط من يد مُعيقيب في البئر، أو حصل العكس: كان مع مُعيقيبٍ فأعطاه عثمان فسقط من يده؛ فنَسَبت إحدىٰ الروايتين السقوط للمناوِل، ونَسَبت الرواية الأخرىٰ السقوط للمناوَل له، فكلتا الروايتين صحيحة.

وإمَّا أن يكون السقوط حقيقةً كان من مُعَيْقِيب، ونَسب السقوط في الرواية السابقة إلىٰ عثمان؛ لأنَّ عثمان سيِّدُ مُعَيقيبٍ، فنُسب العملُ للسيِّد دون المولىٰ.

***

(صحيح) **٨٢ـ عَن جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «كَانَ الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ يَتَخَتَّمَانِ فِي يَسَارِهِمَا»**(١).

كما سبق أنَّ التختُّم في اليسار قد ثبت عن عدد ليس بالقليل عن الصحابة والتابعين والسلف، كما ثبت عنهم التختُّم في اليمين أيضًا.

وهذا الأثر يؤكِّد الحديث السابق في تختُّمه ﷺ باليسار، خاصة وأنهما سبطا رسول الله ﷺ، ففعلاه لعلمهما بأنه ثابتٌ عن جدِّهما رسول الله ﷺ.

***

(١) أخرجه الترمذي (١٧٤٣)، وصحَّحه.

(صحيح) **٨٣ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: «أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَتَخَتَّمُ فِي يَمِينِهِ»**(١).

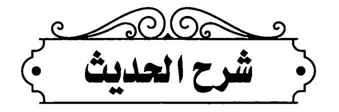
شرح الحديث

وهذا الحديث موافقٌ للجملة السابقة من الأحاديث التي ساقها الترمذي وحرص علىٰ إيرادها؛ لأنها تؤكِّد وترجِّح ما مال إليه من أنَّ التختم في اليمين.

ولا شكَّ أنَّ التختُّم في اليمين صحيح، ولكن اعتبار التختُّم في اليسار منسوخًا أو محرمًا أو مكروهًا لا يقوىٰ ولا يثبت أمام الحديث الصحيح الذي رواه مسلمٌ في صحيحه، والذي ذكرناه في مطلع الباب، وكذلك لا يقوىٰ مع ثبوت فِعْلِه عن عدد ليس بالقليل من التابعين وهم مِن أحرص الناس علىٰ التمسُّك بالسُّنة.

***

(صحيح) **٨٤ـ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: اتَّخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَاتَمًا مِن ذَهَبٍ، فَكَانَ يَلْبَسُهُ فِي يَمِينِهِ، فَاتَّخَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ مِن ذَهَبٍ، فَطَرَحَهُ ﷺ وَقَالَ: «لَا أَلْبَسُهُ أَبَدًا»، فَطَرَحَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ**(٢).



شرح الحديث

قول ابن عمر رضي الله عنهما: «اتَّخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَاتَمًا مِن ذَهَبٍ، فَكَانَ يَلْبَسُهُ فِي

(١) أخرجه النسائي (٥٢٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٦٦، ٥٨٦٧)، ومسلم (٢٠٩١)، بنحوه.

يَمِينِهِ، فَاتَّخَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ مِن ذَهَبٍ»، في هذا الحديث إثباتُ اتخاذ النبيِّ ﷺ للخاتم، وإثبات تختُّمه في يمينه ﷺ.

وفيه أيضًا مسألة جواز لبس الذهب للرجال أول الأمر، ثم نُسخ ذلك وبقي تحريمه أبدًا.

وفيه أنَّ النبيَّ ﷺ لم يأمرهم باتخاذ الخواتيم من الذهب، وإنما كان حسبهم وكافيهم أنَّ النبيَّ ﷺ فعل ذلك فاقتدوا به، بعكس ما يحصل من كثيرٍ من الناس مِن سماعهم للأوامر الصريحة فينصرفون عنها ويزهدون في تطبيقها ثم يزعمون مع ذلك محبة النبيّ ﷺ.

قوله ؓ: «**فَطَرَحَهُ** ﷺ **وَقَالَ: «لَا أَلْبَسُهُ أَبَدًا»، فَطَرَحَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ**»، أفاد عدم جواز لبس الذهب للرجال، وتحريمَه مؤبَّدًا.

ويؤكِّد هذا ما ورد في الحديث عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو ؓ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَفِي إِحْدَىٰ يَدَيْهِ ذَهَبٌ، وَفِي الأُخْرَىٰ حَرِيرٌ، فَقَالَ: «**هَذَانِ حَرَامٌ عَلَىٰ ذُكُورِ أُمَّتِي، حِلٌّ لِإِنَاثِهَا**»(١)، فانتهىٰ الأمرُ إلىٰ تحريم الذهب علىٰ الرجال، فلا يجوز التحلي بالذهب خاتمًا كان أو سلسالًا أو أيًّا ما كان، وهو مباحٌ للنساء.

الفائدة الأخيرة التي يُختم بها الباب: أنَّ الأصبع الذي ثبت عنه ﷺ أنه يتختَّم فيه: الخِنصِر، وهو أصغر الأصابع الذي يقع في طرف الكفِّ، وقد بَوَّب

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٥٩٧)، والطبراني في المعجم الكبير (١٣/ ٥١)، وسنده ضعيف، لكنَّ الحديث حسنٌ لغيره، فقد رُوي من حديث جماعةٍ من الصحابة. انظر: البدر المنير (١/ ٦٤٠- ٦٥٠).

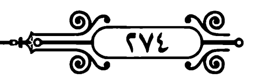
غيرُ واحد من المحدِّثين بعنوان: (باب لبس الخاتم في الخِنصِر)، فالسُّنّة للرجال لبس الخاتم في الخِنصَر، مع جواز لبسه في أيِّ أصبعٍ شاء.

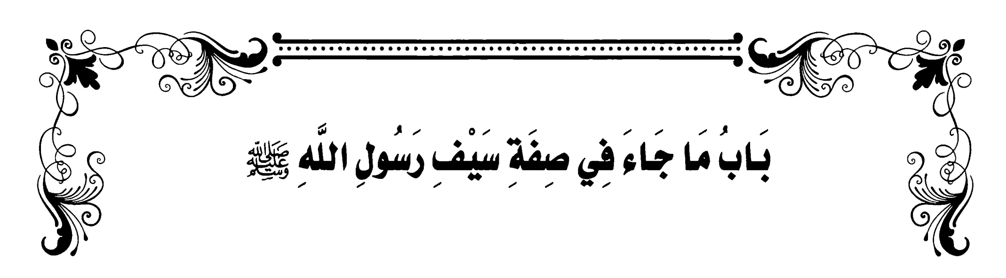
هذا بالنسبة للرجال، وأما النساء فتتوسَّع أكثر من الرجال وتتخذ الخاتم في أصابعها جميعًا. قال الإمام النووي رحمه الله: «أجمع المسلمون علىٰ أن السُّنَّة: جعل خاتم الرَّجُل في الخِنصَر، وأما المرأة فإنها تتخذ خواتيم في أصابع»[1].

*** *** ***

---

(١) شرح النووي علىٰ مسلم (١٤/ ٧١).





بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ سَيْفِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

هذا الباب فيما يتعلَّق بصفة سَيف رسول الله ﷺ، وهو يدلُّ علىٰ ما تدلُّ عليه الأبواب السابقة ـ باب الخاتم، وباب النعل، وباب الخُفِّ، وغيرها ـ مِن عناية صحابة رسول الله ﷺ ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ بالنقل الدقيق والاهتمام البالغ بكلِّ ما يتعلَّق بشأن النبيِّ ﷺ.

وفي مجيء باب صفة سَيفه ﷺ عقب باب خاتمه إشارةٌ لطيفةٌ ذكرها بعض أهل العلم، وهو أنَّ الدعوة النبوية كانت بالقلم واللسان، كما كانت أيضًا بالسيف والسِّنان، فقد خاطب النبيُّ ﷺ العظماء والرؤساء، وأرسل الرسائل والكتب التي تدعوهم إلىٰ الإسلام، واتَّخذ لأجلها خاتمًا حتىٰ يقبلوها، كما كانت دعوتُه أيضًا متضمِّنةً إرسال البعوث والسرايا وتجهيز الجيوش، وفتح البلاد؛ والتي حصل منها أنْ دخل الناسُ في دين الله أفواجًا، فكما حصلت الدعوةُ بالقلم واللسان، حصلت كذلك بالسيف والسِّنان.

وهذا هو شأن الإسلام؛ الحرص علىٰ إبلاغ هذا الدين بشتىٰ الوسائل، وتعريف الناس كلهم به، وهذه هي وظيفة النبيِّ ﷺ التي أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وفي تقديم باب الخاتم إشارةٌ لطيفةٌ إلىٰ أنَّ الدعوة باللسان مقدمةٌ علىٰ الدعوة بالسيف والسِّنان.

وقد ذكر بعضُ أهل العلم: أنه كان لنبيِّنا ﷺ تسعةُ سيوف، وكان يسمِّيها بأسماء، وقد أشار إليها صاحب قُرَّة الأبصار(١) بقوله:

لَهُ مِنَ الأَسْيَافِ تِسْعَةٌ فَقَطْ ... أَسْمَاؤُهَا مَرْوِيَّةٌ عَن مَن فَرَطْ
مِنْهَا الَّذِي أَصَابَهُ بِبَدْرِ ... وَكَانَ يُدْعَىٰ: ذَا الفِقَارِ؛ فَادْرِ
وَمِثْلُهُ القَلْعِيُّ وَالبَتَّارُ ... وَالحَتْفُ قَدْ جَاءَتْ بِهِ الأَخْبَارُ
كَذَلِكَ المِخْدَمُ وَالقَضِيبُ ... وَالعَضْبُ وَالرَّسُوبُ يَا لَبِيبُ

ويستفاد مِن هذا أنَّه لا حرج في تسمية بعض ما يستخدمه الإنسان من آلاته.

***

(صحيح) **٨٥ـ عَن قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَتْ قَبِيعَةُ سَيْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِن فِضَّةٍ»**(٢).

شرح الحديث

قول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«قَبِيعَةُ سَيْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ»**؛ القَبِيعةُ هي: ما يكون علىٰ طرف مقبض السيف، حتىٰ لا ينزلق من يد صاحبه، وقيل: ما يكون تحت شارِبَي السيف مما يكون فوق الغِمد، وقيل: هي التي فوق المقبض.

فالسيفُ ـ كما هو معلوم ـ مصنوعٌ من حديدٍ قويٍ صُلبٍ، يُحَدَّد طرفه ليُقَاتل به، ويكون له مقبضٌ ليتسنَّىٰ الإمساك والقتال به.

---

(١) انظر: نزهة الأفكار في شرح قرة الأبصار (٢/ ٢٧٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٨٣)، والترمذي (١٦٩١)، وقال: «حسن غريب».

قوله رضي الله عنه: «كَانَتْ قَبِيعَةُ سَيْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِن فِضَّةٍ»، لو صحَّ الحديث وثبت لكان دليلًا علىٰ جواز استعمال الفضة في حِلية السيوف للرجال وما شابهها، لكن الحديثَ ضعيفٌ؛ في سنده جريرُ بن حازمٍ ثقةٌ، لكنه يُضعَّف في الحديث عن قتادة، وقد تفاوت حكم العلماء علىٰ الحديث، ولكن جملتهم يحكمون عليه بأنه لا يصحّ، بل قد وصف الإمام أبو داود(١) الحديث المرسل عن سعيد بن أبي الحسن البصري بأنه أصحُّ ما في الباب!

ويؤكِّد عدمَ صحة هذا الحديث: ما أخرجه البخاريُّ رحمه الله في صحيحه(٢)، عن أبي أمامة رضي الله عنه يقول: «لَقَدْ فَتَحَ الفُتُوحَ قَوْمٌ، مَا كَانَتْ حِلْيَةُ سُيُوفِهِمُ الذَّهَبَ وَلَا الفِضَّةَ، إِنَّمَا كَانَتْ حِلْيَتُهُمُ العَلَابِيَّ وَالآنُكَ وَالحَدِيدَ».

فنفَىٰ أبو أمامة رضي الله عنه عن الفتوحات التي كانت في صدر الإسلام أن يكون أصحابها قد استخدموا سيوفًا مُحَلَّاةً بالذهب أو الفضة، وإنما كانت حِليتُهم العَلَابِيَّ: وهو العصب الذي يُستخرَج من رقاب البهائم والأغنام، يشُدُّون به ما يريدون حَزْمَهُ، فإذا كان مِقبَض السيف فيه رخاوةٌ استخدموا هذه العَلابِيَّ وشَدُّوا بها المقبض فيكون أقوىٰ ما يكون. والآنُك: الرصاص. والحديد معروف.

والمقصود أنَّهم ما كانوا يبحثون عن الزينة أثناء فتوحاتهم، وما كانوا يتخذون السيوف للزينة أصلًا، وإنما كانت تُتَّخذ للقتال والشجاعة والجرأة والإقدام، وما كان كذلك فأنسب ما يناسبه الحديد والرصاص والعَلابيّ؛ كما قال رضي الله عنه.

---

(١) سنن أبي داود عقب الحديث (٢٥٨٥).

(٢) صحيح البخاري (٢٩٠٩).

(صحيح) ٨٦ـ **عَن سَعِيدِ بْنِ أَبِي الحَسَنِ البَصْرِيِّ قَالَ: «كَانَتْ قَبِيعَةُ سَيْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِن فِضَّةٍ»**(١).

شرح الحديث

(عَن سَعِيدِ بْنِ أَبِي الحَسَنِ البَصْرِيِّ) تقدم أنَّ حديثَ أنسٍ ضعيفٌ، وحديث سعيد بن أبي الحسن هذا أضعف منه؛ لأنَّه مرسل، فسعيد بن أبي الحسن ليس صحابيًّا، وإنما هو من أئمة التابعين، وهو أخو الإمام الحسن البصري العالم المعروف.

فالحديث مُرْسَلٌ، والمرسَل من الضعيف كما هو معروف عند أصحاب الحديث.

وعلىٰ كلٍّ فيقول الإمام أبو داود صاحب السنن ـ رحمة الله عليه ـ : «أقوىٰ هذه الأحاديث حديث سعيد بن أبي الحسن، والباقيةُ ضِعافٌ»(٢). فمرسل سعيد بن أبي الحسن الضعيف يصِفُه بأنه أقوىٰ أحاديث الباب، مما يدلُّ علىٰ أنَّ الإمام أبا داود كان يرىٰ ضعفَ عمومِ ما رُوي من الأحاديث التي تحكي أنَّ قَبيعةَ سيف رسول الله ﷺ كانت مِن فضة.

***

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٨٤)، والنسائي (٥٣٧٥)، وعلَّقه الترمذي عقب الحديث (١٦٩١).

(٢) سنن أبي داود عقب الحديث (٢٥٨٥).

شرح الحديث

(ضعيف) ٨٧ـ عَنْ هُودٍ ـ وَهُوَ ابْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعْدٍ ـ، عَن جَدِّهِ قَالَ: «دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الفَتْحِ وَعَلَىٰ سَيْفِهِ ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ»، قَالَ طَالِبٌ: فَسَأَلْتُهُ عَنِ الفِضَّةِ. فَقَالَ: «كَانَتْ قَبِيعَةُ السَّيْفِ فِضَّةً»(١).

هذا الحديث أضعفُ مِن سابِقَيْهِ، وهو حديثٌ منكَرٌ.

(عَن جَدِّهِ) هو مَزيدة بن مالك، صحابيٌّ رضي الله عنه.

قوله رضي الله عنه: «وَعَلَىٰ سَيْفِهِ ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ»، زاد وصفَ الذهب، وعلىٰ كل حالٍ هو حديث لا يصح.

(قَالَ طَالِبٌ) هو الراوي عن هود.

***

(ضعيف) ٨٨ـ عَنِ ابْنِ سِيرِينَ قَالَ: «صَنَعْتُ سَيْفِي عَلَىٰ سَيْفِ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ، وَزَعَمَ سَمُرَةَ: «أَنَّهُ صَنَعَ سَيْفَهُ عَلَىٰ سَيْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ حَنَفِيًّا»(٢).

شرح الحديث

قول ابن سيرين: «صَنَعْتُ سَيْفِي عَلَىٰ سَيْفِ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ، وَزَعَمَ

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٩٠)، وقال: «غريب»، وقال الألباني: حديث منكر لتفرُّد هود به، وهو مجهول كما قال ابن القطان وغيره، ولذلك خرَّجته في الضعيفة (٥٤٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٢٢٩)، والترمذي (١٦٨٣)، وقال: «غريب»، ونقل عن يحيىٰ القطان أنه ضعَّف راويه.

سَمُرَةَ: أَنَّهُ «صَنَعَ سَيْفَهُ عَلَىٰ سَيْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ»؛ أي: أنَّه صنع سيفه مشابهًا لسيف رسول الله ﷺ.

ومعَ أنَّ الحديثَ ضعيفُ السند إلا أنَّ فيه فائدةً عظيمةً قد تقرَّرت سابقًا في أحاديثَ وآثارٍ كثيرة، وهو المبدأ الذي عاش عليه السلفُ من الصحابة والتابعين ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ، وهو تنزيل حياتهم علىٰ ما علِموه من حياة رسول الله ﷺ، في شأنهم كله، فلا يصنع أحدُهم شيئًا أو يتخذ غَرَضًا أو يقول قولًا أو يفعل فعلًا إلا ودافعه وحامِلُه هو مشابهةُ هَدي رسول الله ﷺ.

ولا يقِفُ الصحابيُّ عند هذا، بل يُعَلِّم طلابَه والتابعين كيف يكونون علىٰ هدي رسول الله ﷺ؛ شِبرًا بشبر، لا يحيدون عنه قِيد شَعرة.

وعلينا أن نُحْيِي هذا المبدأ في حياتنا، فعلىٰ الإنسان ألَّا يفعل شيئًا إلا وقد حَفِظَ من قول النبيِّ ﷺ أو فعله ما يدُلُّ عليه، فلا يفعل الشيء لأنَّ نفسه تهواه أو تحبه، بل يجعل الهدف هو الاقتداء والمشابهة برسول الله ﷺ.

لِيَفْعَل الإنسان هذا مرّةً في حياته ومرَّتين وثلاثة، حتىٰ يصبح عادةً عنده وطبيعةً، وهو البحثُ عن التشبُّه بأفعال النبيِّ ﷺ وهديه، في شؤونه كلِّها صغيرها وكبيرها.

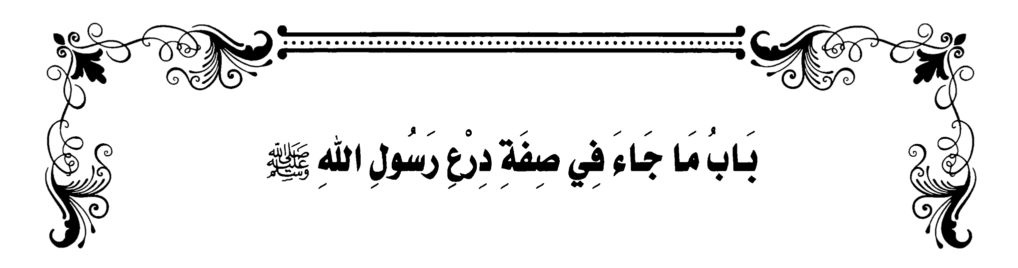
ثم علينا أن نُوَرِّث أبناءنا وطلابنا وأجيالنا الناشئة هذا المبدأ العظيم؛ لتكون حياتهم مليئةً بحُبٍّ صادقٍ واتِّباعٍ كاملٍ لرسول الله ﷺ.

قوله: «وَكَانَ حَنَفِيًّا»؛ يعني: كان سيفُ رسول الله ﷺ حنفيًّا، أي: منسوبًا إلىٰ بني حنيفة.

وبنو حنيفة: هم قوم مُسَيلمة الكذاب الذي ادَّعىٰ النبوَّة، وقاتله الصحابة حتىٰ قضوا علىٰ دعوته الآثمة الكافرة، وقوم بني حنيفة كانوا مشهورين بصناعة السيوف، وكانوا يُحسنونها، فإذا كان السيف صناعةً حنفيةً نُسِب إلىٰ بني حنيفة فقيل: حنفيٌّ، وكانت من أجود السيوف وأفضلها.

فالمعنىٰ: أنَّ سيفَ النبيِّ ﷺ كان مِن صناعة بني حنيفة، أو كان مصنوعًا علىٰ طريقة صناعة بني حنيفة؛ فهو مشابِهٌ للسيوف الحنفيَّة في الهيئة.

** ** **



بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ دِرْعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

(صحيح) **٨٩ـ عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ عَلَىٰ النبيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ دِرْعَانِ، فَنَهَضَ إِلَىٰ الصَّخْرَةِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَأَقْعَدَ طَلْحَةَ تَحْتَهُ وَصَعِدَ النبيُّ ﷺ حَتَّىٰ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الصَّخْرَةِ، قَالَ: سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَوْجَبَ طَلْحَةُ»**(١).

شرح الحديث

(عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ) هو ابن عمَّة رسول الله ﷺ صفيَّة بنت عبدالمطَّلب رضي الله عنها، وحواريُّ هذه الأمة.

قول الزبير رضي الله عنه: **«كَانَ عَلَىٰ النبيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ دِرْعَانِ»**، في الحديث إثباتُ اتِّخاذ نبينا ﷺ الدِّرع واستعماله في قتاله وجهاده وغزواته.

والدِّرعُ: قميصٌ من حديد، يُتَّخذ مِن حلقات يدخل بعضُها في بعض، يلبسه المقاتل يتَّقي به ضربات السيوف ووقع الرماح، فتكون واقيةً لصدره وظهره وعضُده ورقبته إذا قاتل، فربما اتَّجه إليه سهمٌ، أو وقعت عليه ضربةُ سيف، أو رميةُ رمح، فيكون الدرع وقايةً له؛ هذا أمرٌ.

والأمر الآخر أنَّ الدِّرعَ يُعطي المقاتل شجاعةً وإقدامًا، فهو سببٌ بعد أمر الله لحماية المقاتل من ضربات العدوِّ وقتالهم.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٩٢، ٣٧٣٨)، والحاكم في المستدرك (٤٣١٢).

قول **الزبير** رضي الله عنه: «**دِرْعَانِ**»، كان للنبيّ ﷺ سبع أدرُعٍ، وكانت لها أسماء، كما سبق في السيوف، يقول ابن القيّم رحمه الله: «كانت له سبعةُ أدرُعٍ: ذاتُ الفُضول ـ وهي التي رهنها عند أبي الشَّحم اليهودي علىٰ شعيرٍ لعياله، وكان ثلاثين صاعًا، وكان الدَّيْنُ إلىٰ سنة، وكانت الدِّرْعُ من حديد ـ، وذاتُ الوشاح، وذاتُ الحواشي، والسَّعْديَّة، وفِضَّة، والبتراء، والخِرْنِقُ»(١).

والدِّرعان اللتان اتخذهما يوم أحد: ذاتُ الفضول، وفِضّة(٢)، وذات الفُضول هي أنفَسُ أدرُعه، وأكثرُ ما كان عناية بها ﷺ، وقد مات النبيُّ ﷺ ودِرْعُهُ مرهونةٌ عند اليهودي، فعاش نبيُّنا ﷺ فقيرًا زاهدًا متقلِّلًا من الدنيا، امتثالًا لقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، ولو أراد أن يملك جبال الذهب لفعَل، ولكنه آثر أن يعيش خفيفًا من هذه الحياة، وما عند الله خيرٌ وأبقىٰ.

وهنا مسألةٌ: فقد ثبت أنَّ النبيَّ ﷺ معصومٌ من الناس، قد تكفَّل الله عزَّ وجلَّ بحمايته ونصرته، فقال له: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، فلِمَ يتخذُ دِرعًا من حديد وقد تكفَّل الله بحمايته ونصرته؟

والجواب: أنَّه ﷺ أراد أن يعلِّم الناسَ أنَّ صدقَ التوكُّلِ علىٰ الله يجب أن يكون مقرونًا بالأسباب، فحمايةُ الله وحفظه للنبي ﷺ ما كانت سببًا في ترك

(١) زاد المعاد (١/ ١٢٦).

(٢) انظر: تركة النبيِّ (ص١٠٣).

الأسباب المادية، وبهذا يُوَجِّهُ الأُمَّة أنَّ الإنسان مهما بلغ من التقوىٰ والولاية فلا يعني هذا أن يترك الأسباب الدنيوية.

يقول ابن القيّم رحمه الله: «فقد كان رسول الله ﷺ أعظم المتوكّلين، وكان يلبس لَأْمتَه ودِرعَه، بل ظَاهَرَ يوم أُحُدٍ بين دِرعين ـ أي: لَبس درعين؛ دِرعًا فوق دِرع، زيادةً في الوقاية ـ واختفىٰ في الغار ثلاثًا ـ أي: عندما هاجر ـ؛ فكان متوكّلًا في السبب لا علىٰ السبب»(١)، يتوكَّلُ علىٰ الله ويأخذ بالأسباب، لا يتوكَّل علىٰ السبب.

وهذا ليس كمَن يتَّكِلُ علىٰ قُوّته، أو منصبه، أو جاهه، أو ماله، أو قبيلته، أو عشيرته، أو دولته، أو جنسيَّته، ويَعدُّ هذا سببًا قويًا للنصر والاكتفاء، بل المؤمن يتوكَّل علىٰ الله، ومهما أوتي من قوّةٍ أو سببٍ فإنه يراه سببًا بعد مشيئة الله سبحانه.

قول الزبير رضي الله عنه: «فَنَهَضَ إِلَىٰ الصَّخْرَةِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ»؛ عندما انكشف المسلمون يوم أُحُدٍ، بعدما هُزِم جيش الرُّماة وصعِد خالد بن الوليد علىٰ جبل الرُّماة بعد أن الْتَفَّ من خلف المسلمين، وأصاب المسلمين في ظهورهم، وقلب كفَّة الميزان لصالح المشركين، وأصبح في المسلمين ضعفٌ ومقتلة، وهجم المشركون وكرُّوا علىٰ المسلمين، انكشف موقع النبيّ ﷺ، وتغلغل الضعفُ في نفوس بعض الصحابة، وأُشيع خبرٌ أنَّ الرسولَ ﷺ قد مات؛ فأراد ﷺ عند ذلك أن يُثبِّت قلوب أصحابه، ويبعث في قلوبهم الطمأنينة والسكينة والثبات، فأراد أن يصعد إلىٰ مكان مُشْرِفٍ ليَرَوه وليقود الجيش من جديد، فبحث عن صخرة ليصعد عليها ويكون مُشرفًا علىٰ أصحابه.

---

(١) الروح (ص٢٥٥).

ولكنه ما استطاع ﷺ أن يصعد عليها؛ إمَّا لثِقَلِ الدِّرعين اللتين كان يلبسهما، وإمَّا لإصابته ﷺ التي وقعت له عندما وقع ﷺ في الحفرة التي حفرها الخبيث أبو عامر الفاسق..

قول الزبير رضي الله عنه: «**فَأَقْعَدَ طَلْحَةَ تَحْتَهُ**»: هو طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، أحد العشرة المبشَّرين بالجنة، وأحد المهاجرين.

أي: قعد طلحة رضي الله عنه تحته، وصعد ﷺ علىٰ ظهره ليكون أقرب لصعود الصخرة.

قوله ﷺ: «**أَوْجَبَ طَلْحَةُ**»؛ يعني: عمل طلحةُ عملًا أوجب له الجنة، ولقد بُشِّر بالجنة في غير هذا الحديث.

فما الذي فعله طلحة رضي الله عنه في أُحُد؟

عن جابرٍ رضي الله عنه قال: «انْهَزَمَ النَّاسُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَبَقِيَ مَعَهُ أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ وَهُوَ يَصْعَدُ الجَبَلَ، فَلَقِيَهُمُ المُشْرِكُونَ، فَقَالَ: «**أَلَا أَحَدٌ لِهَؤُلاءِ؟**»، فَقَالَ طَلْحَةُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «**كمَا أَنْتَ يَا طَلْحَةُ**». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: فَأَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَاتَلَ عَنْهُ، وَصَعِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَنْ بَقِيَ مَعَهُ، ثُمَّ قُتل الأَنْصَارِيُّ، فَلَحِقُوهُ فَقَالَ: «**أَلَا رجُلٌ لِهؤُلاءِ؟**»، فَقَالَ طَلْحَةُ مِثْلَ قَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِثْلَ قَوْلِهِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: فَأَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَاتَلَ عَنْهُ وَأَصْحَابُهُ يَصْعَدونَ، ثُمَّ قُتِلَ فَلَحِقُوهُ، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ مِثْلَ قَوْلِهِ الأَوَّلِ فَيَقُولُ طَلْحَةُ: فَأَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَيَحْبِسُهُ، فَيَسْتَأْذِنُهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ لِلْقِتَالِ فيأذَنُ لَهُ، فَيُقَاتِلُ مِثْلَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا

طَلْحَةُ فَغشُوْهما، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ لِهَؤلاءِ؟**»، فَقَالَ طَلْحَةُ: أَنَا. فَقَاتَلَ مِثْل قِتَالِ جَمِيعِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ وَأُصِيبَتْ أَنَامِلُهُ، فَقَالَ: حَسِّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «**لَوْ قُلْتَ: بِاسْمِ اللهِ، وذَكرت اسْمَ اللهِ، لَرَفَعَتْكَ الملائِكَة والنَّاسُ يَنْظُرونَ إِلَيْكَ، حَتَّىٰ تلجَ بِكَ فِي جَوِّ السَّمَاءِ**»، ثُمَّ صَعِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ(١).

وَعَنْ قَيْس بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ شَلَّاءَ وَقَىٰ بِهَا النبيَّ ﷺ ـ يَعْنِي: يَوْمَ أُحُدٍ ـ(٢).

وعَنْ أَبِي عُثمان النَّهْدِي قَالَ: «لَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ تِلْكَ الأَيَّامِ، الَّتِي قَاتَلَ فِيهِنَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَيْرُ طلحةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ وَسَعْدٍ»، عَنْ حَدِيثِهِمَا(٣).

وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ وَثَابِتٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبعَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا رَهِقُوه قَالَ: «**مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الجَنَّةُ ـ أَوْ: وَهُوَ رَفِيقِي فِي الجنة؟**»، فتقدم رجلٌ من الأنصار فقاتل حتىٰ قُتِلَ، ثُمَّ رَهِقُوهُ أَيْضًا، فَقَالَ: «**مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الجَنَّةُ؟**»، فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّىٰ قُتِلَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّىٰ قُتِلَ السَّبْعَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِصَاحِبَيْهِ: «**مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابنا**»(٤).

---

(١) دلائل النبوة (٣/ ٢٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٦٠)، ومسلم (٢٤١٤)، وقوله: «عن حديثهما» يعني: هما حدَّثاني بذلك.

(٤) أخرجه مسلم (١٧٨٩).

عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا ذَكَرَ يَوْمَ أُحُدٍ بَكَىٰ، ثُمَّ قَالَ: «ذَاكَ كُلُّهُ يَوْمُ طَلْحَةَ»(١).

***

(حسن) **٩٠- عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ عَلَيْهِ يَوْمَ أُحُدٍ دِرْعَانِ، قَدْ ظَاهَرَ بَيْنَهُمَا»**(٢).

شرح الحديث

(عنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ): هو أصغر الصحابة، كان عُمرُه يوم حَجَّة الوداع سبعَ سنوات، وهو مِن آخر من مات مِن الصحابة بالمدينة سنة (٩١) من الهجرة.

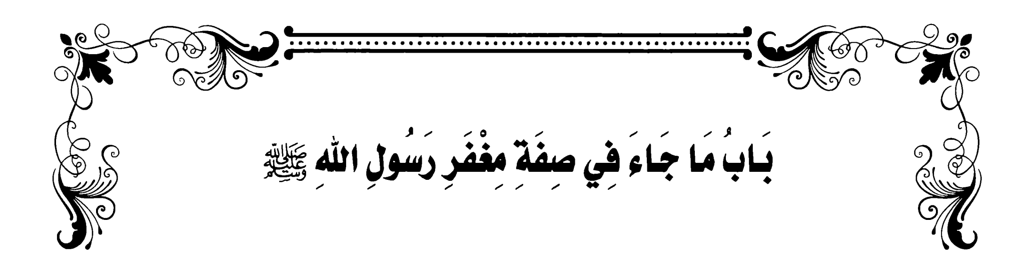
قول السائب بن يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ عَلَيْهِ يَوْمَ أُحُدٍ دِرْعَانِ»، يُثبت أنَّ النبيَّ ﷺ يوم أحد قد اتَّخذ درعين كما تقدَّم في حديث الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قول السائب بن يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «قَدْ ظَاهَرَ بَيْنَهُمَا»؛ يعني: لبسَ أحدَهما فوق الآخر، فكان أحدُهما ظاهرًا، والآخر كالبطانة له، وهو مزيدُ اتِّقاءٍ وأخذٍ بالأسباب.

** ** **

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي (٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٨٧).

(٢) أخرجه ابن الجارود في المنتقىٰ (١٠٧٧).



بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ مِغْفَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

ابتدأ الحديث سابقًا عن لباس الحرب؛ عن السيف ومَقْبِض السيف، ثم الدِّرع، وسيتحدّث الآن عن (**المِغْفَر**).

المِغْفَرِ: جزءٌ من لباس الحرب، وهو عبارة: عن لباسٍ ساترٍ من حلقاتٍ من حديد، يلبسه المقاتل تحت الخوذة أو تحت البَيضة، يكون غطاءً لبقية الرأس وللعنق إلىٰ الصدر.

فهو يُفَصَّل مِن حَلقات الحديد التي يدخل بعضها في بعض.

والبَيضة في الحرب: ما يلبسه المقاتل مِن قُبَّعةٍ من حديد تكون علىٰ الرأس، يتَّقي بها ضربات الرأس، سيوفًا كانت أو سهامًا.

فالبيضةُ لباسٌ من حديدٍ يُغَطَّىٰ به الرأس، ويُلبَس تحتها المِغْفَرُ ليقي جانب الرأس والرقبة والعُنق، ويغطي إلىٰ الصدر، ثم يلبس الدرع لتغطية الصدر وسائر جسده، فهذه الآلات التي يغطِّي بها المحارب جسده.

وفي هذا الباب يَعرِض المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ ما ثبت في مِغْفَر رسول الله ﷺ.

واتِّخاذُ المِغْفَر في الحربِ إنما هو من باب اتِّخاذ الأسباب، فهو لا ينافي التوكُّل علىٰ الله، فيَلبسُه ويعلم أن ربَّه قال له: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، ويعلم أنه قال له: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، ويعلم أنه قال له: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

فمع هذه العِصمة لم يتواكل علىٰ ذلك، بل اتَّخذَ الأسباب، ليُعَلِّم الأمة مبدءًا عظيمًا، وهو أنَّه مهما بلغت قُوّة التوكُّل في قلب المؤمن فإنه يجب عليه الأخذُ بالأسباب.

وكما أنَّه لا يجوز التوكُّل فقط دون الأخذ بالأسباب؛ كذلك لا يجوز النظر إلىٰ الأسباب فقط دون التوكُّل علىٰ الله، فعلىٰ الإنسان إذا مرض أن يستشفي ويشرب الدواء مع اعتقاده بأنَّ الربَّ هو الشافي، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

***

(صحيح) ٩١ - **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: أَنَّ النبيَّ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ عَامَ الفَتْحِ وَعَلَيْهِ مِغْفَرٌ، فَلَمَّا نَزَعَهُ قِيلَ لَهُ: هَذَا ابْنُ خَطَلٍ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الكَعْبَةِ، فَقَالَ: «اقْتُلُوهُ». قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَبَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَكُن يَوْمَئِذٍ مُحْرِمًا**(١).

شرح الحديث

قول أنس بن مالك رضي الله عنه: «**أَنَّ النبيّ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ عَامَ الفَتْحِ**»، وعامُ الفتح كان سنة ثمانٍ للهجرة، وكان دخوله في رمضان.

وذلك بعد أن نقضت قريشٌ الصُلحَ والعهدَ الذي أُبرِمَ في الحديبية سنةَ ستٍ للهجرة، وذلك أنه قام بين بني خُزاعة وبني بكرٍ قِتالٌ، فأعانت قريشٌ حليفَها، فكانت بذلك مناقِضَةً لصريح العهد والصلح الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ،

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨٦)، ومسلم (١٣٥٧)، دون قول الزهري.

فاتَّخذ التدابير واتَّجه إلىٰ مكةَ علىٰ غيرِ علمٍ مِن قريشٍ بمقدمه ﷺ، فباغتهم، ودخلها فاتحًا، وما أراقَ فيها دمًا ﷺ، بل أمَّنَ الناس أجمعين، فإنه قال وهو علىٰ مشارف مكة وقد دخل: «**مَن دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَىٰ السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابهُ فَهُوَ آمِنٌ**»(١)، فبعد هذا الإعلان لا يبقىٰ أحدٌ لم يُلْقِ سلاحَه ولم تسعه دارُه أو دار أبي سفيان إلا رجلٌ محاربٌ معاندٌ يريد القتال، فما أُوذِي أحدٌ، ولا أراق دم أحدٍ.

نعم؛ بعض كتائب المسلمين التي دخلت مكة وجدت مقاومةً، كما حصل لخالد بن الوليد ﵁ في فئةٍ قاوَمَته وقاتلته فقاتلها ﵁ في منطقةٍ في جنوب مكة جهة كداء، لكنَّ الأمرَ العام كان إعلانُ الأمان.

ثم إنَّه ﷺ اجتمع مع قريشٍ بفِناء الكعبة قائلًا لهم: «مَا تُرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟»، اجتمع بهم بعد إحدىٰ وعشرين سنةً مِن القتال المرير، والمعاداة المستمرة؛ قضىٰ بين ظهرانيهم في مكة ثلاث عشرة سنة لقي فيها ما لقي من الأذىٰ والتكذيب والعناد والمحادة والمشاقَّة له ولدعوته، لقي فيها ما لقي ﷺ من القول القبيح، بل والهمّ بقتله حتىٰ اضْطُّر أن يخرج مِن مكة مهاجرًا، ثم لما لحق بالمدينة إلىٰ يوم الفتح ليس بينه وبين قريش في هذه السنوات الثمان إلا المنابذة والمحاربة والقتال والمعاندة، وقد توقَّف القتال بينهم في صلح الحديبية سنة ستٍّ من الهجرة.

ولما دخل مكةَ بعد هذا التاريخ الطويل مِن العداوة والقتال والمحاربة، يسألهم هذا السؤال؛ يستكشف ما في نفوسهم، فيقول: «**مَا تُرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟**».

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٠).

مع كل هذا لم يقع في قلب قريشٍ قطُّ أنه ﷺ سينتقم منهم فردًا فردًا ما دام ذلك بوسعه، وأن يأتي علىٰ رؤوسهم رأسًا رأسًا، ولو فعل لكان والله مُحقًّا بأبي وأمي هو عليه الصلاة والسلام، ولو أصدر أمره بالأسر أو بإعمال السلاح في رِقاب أولئك الذين عادَوه وآذَوه وحاربوا دعوته وقتلوا أصحابه ومَثَّلوا بهم وعذَّبوهم وطردوهم لكان كل ذلك حَريًّا به وجديرًا بهم.

عجيبٌ ههنا أنَّ قريشًا وهي تستصحِب تاريخَها المريرَ في الحرب والعداوة والقتال ما خَطَر في بالها لحظةً أنَّ هذا القلب الرحيم سيكون اليومَ قاسيًا عليهم ﷺ، فأجابوا: «أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم»، ما تذَكَّروا بعد هذا القِتال المرير إلا كرَمَه وكَرَمَ أصلِه ﷺ.

ما قالوا ذلك استلطافًا وطلبًا للرحمة، ولكنهم قالوها شهادة صِدقٍ، لما وجدوه من كرَم خُلُقِه ﷺ، ومِن عظيم رحمته وسَعَه صدرِه ما يَسَع العدوَّ والصديقَ علىٰ حدٍّ سواءٍ، ما يَسَعُ الموافِق والمُخالِف علىٰ حَدٍّ سواءٍ.

أتظنُّ أنَّ الكريمَ الرحيمَ ﷺ سيقوَىٰ بعد هذا الجواب علىٰ أن يُصدِر أمرًا يؤذي فيه واحِدًا منهم، حاشاه ﷺ، بل قال: «**اِذهَبُوا فَأَنتُمُ الطُّلَقَاء**»(١).

يومُ فتح مكة كان يوم ظَفَرٍ وانتصارٍ وعِزةٍ للإسلام ولرسول الله ﷺ، صَعِد بلالٌ ظهر الكعبة فأذَّن بعدما كان لا يستطيع أن يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله»، حيث كان يُسحَب في رمضاء مكة في حَرِّ الهَجِير، حيث عُذِّب بلالٌ وغيرُه من موالي المسلمين، كانوا يُسامُون سوء العذاب علىٰ إسلامهم.

---

(١) رواه ابن هشام في السيرة (٢/ ٤١٢)، والأزرقي في أخبار مكة (٢/ ١٢١)، وضعفه الألباني في الضعيفة (١١٦٣).

ومِن أعظم كرامات النبيِّ ﷺ في ذلك اليوم أنَّه دخل مكة فاتحًا لا مقاتلًا، دانت له الرِّقاب، وفُتحِت الأبواب، ودخل الناس في دين الله مِن غير أن يقتل أحدًا، أو يأسِر أحدًا، أو يُؤذي أحدًا.

بعد أن حصل بينه وبين قومه ما حصل من الرفض والعداوة والإخراج دخلوا في دين الله أفواجًا، وما بقي أحدٌ منهم مُصِرًّا علىٰ كُفرِه، حتىٰ الصناديد والزُعماء والعُتاة، مَن بقي منهم حيًّا إلىٰ فتح مكة دخل في الإسلام.

دخل النبيُّ ﷺ يوم فتح مكة وقد أُحِلَّت له، وأعلن بعدها أنَّ حُرمتَها عادت كحُرمتها بالأمس، عن أبي شُرَيْح العَدَوِيِّ أنه قال لعَمْرِو بنِ سَعِيدٍ وَهُوَ يَبْعَثُ البُعُوثَ إِلَىٰ مَكَّةَ: ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الأَمِيرُ أُحَدِّثْكَ قَوْلًا قَامَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلْغَدِ مِنْ يَوْمِ الفَتْحِ، فَسَمِعَتْهُ أُذُنَايَ، وَوَعَاهُ قَلْبِي، وَأَبْصَرَتْهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ، إِنَّهُ حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلا يَعْضُدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ**»(١).

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَعَلَيْهِ مِغْفَرٌ**»؛ هذا موضع الشاهد من الحديث، أي: لابسًا الـمِغْفَر. وقد تقدَّم معنىٰ المِغْفَر، ففيه إثبات لباسه ﷺ للمِغْفَر.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَلَمَّا نَزَعَهُ**»، نَزَعه؛ لأنَّ المهمَّة التي لبس من أجلها المِغْفَرَ انتهت، حيث إنَّه لباسٌ للقتال، وما وُجِدَ قتالٌ ذلك اليوم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٢)، ومسلم (١٣٥٤).

كما أنَّه نَزَعه تواضعًا وإخباتًا لربِّ البيت في جوار البيت؛ لأنه لما دخل مكة فاتحًا دخل مُطَأطِئ الرأس، يكاد يمسُّ ذقنُه ركابَ راحلته من شدَّة ما كان قد طأطأ رأسه ﷺ.

أيُّ عَظَمةٍ هذه التي تمثَّلت في شخصه ﷺ؟ الموقفُ موقفُ نصرٍ وفخرٍ وعزٍّ ورفعةٍ، موقفُ فرحٍ وانتصارٍ ونَشوةٍ، موقفُ استردادٍ للعزِّ والمجدِ والسُّؤدَد، لكنَّ التواضعَ وتعظيمَ ربِّ البيت كان أعظمَ في قلبه ﷺ، فإنَّ فرحتَه ونشوتَه وانتصارَه ودخولَه مكة البلدَ الذي أحبَّه ووُلد فيه وترعرع علىٰ ترابه ونشأ بين مهاده لم تكُن مانعةً له مِن إعلان تواضُعه لربِّ العالمين؛ استشعارًا بأنَّ كل هذا ما حصل إلا بنعمةٍ من الله وفضله.

قوله رضي الله عنه: «قِيلَ لَهُ: هَذَا ابْنُ خَطَلٍ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الكَعْبَةِ»، فَقَالَ: «اقْتُلُوهُ».

تتوَقَّف مُندهشًا أمام هذا الموقف! ما الذي يحمله ﷺ في ظِلِّ كل ذلك الفرح والانتصار والفتح والأمن والأمان الذي بَذَلَه لأهل مكة أجمعين إلىٰ أن يضيق الأمرُ علىٰ عبد الله بن خَطَل؟ ليس وهو داخل المسجد الحرام فقط، بل حتىٰ وهو مُلتَصِقٌ بالكعبة مُتَعلِّقٌ بأستارها، علىٰ طريقة العرب ممن أراد أن يصون نفسه ويحفظ دمَه؛ لا بُدَّ أنَّ لابنِ خطَلٍ من الإجرام والجِنايَة ما لا يُمكِن أن يَسَعه عَفوُ رسول الله ﷺ.

هذا لأنَّ عبد الله بن خَطَل كان رجلًا قد أسلَم، ثم ارتَدَّ ـ والعياذ بالله ـ، فلما ارتَدَّ قتَل خادِمَه الذي كان قد أسلَم معه، وما قَتَله إلا لأنه مسلمٌ، ثم اتخَذ قينَتَين جاريتين يصرِف عليهما الأموال ويُنفِق عليهما، يأمرهما فتُغَنِّيان بهِجاء

وتَقبيح وشَتم رسول الله ﷺ(١).

فانظر كم بابًا من الحُرُمات انتهكه عبد الله بن خَطَل؟ وكم بابًا من الإجرام فَتَحه علىٰ نفسه؟ فلذلك كان في القائمة التي لا يشملها عَفوُ المُصطفىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقد أعلَن قبل دخوله مكة أنه يُطالِب بدم عبد الله بن خَطَل، فلما دخل الصحابة وجَدوه في الحَرَم مُتَعَلِّقًا بأستار الكعبة، فتَرَدَّدوا لما عرفوه من حُرمة الكعبة، فقالوا: يا رسول هذا ابنُ خَطَلٍ مُتَعَلِّقٌ بأستار الكعبة! يعني: هل يمضي أمرُك ولا يزال نافِذًا؟ أم أنَّ للموقِف الآن شأنًا آخَر لتَعَلُّقِه بأستار الكعبة؟ فجاء الأمر النَبوي الصَريح: «**اقتُلُوه**».

فقُتِل عبد الله بن خَطَل بين الرُّكن والمَقام علىٰ مَقرُبة من الكعبة.

وهذه المواقِف تدلُّ علىٰ أنَّ للإسلام ميزانًا، وأنَّ الحكمة لا تعني الرفق واللين علىٰ الدوام مع كل أحد، بل أحيانًا تتطلَّب الحزم والشدَّة والإقدام والعزم، ومَن ظَنَّ أنَّ الحَزم والعَزم ينافيان الرِّفق والرَّحمَة فقد أخطأ.

فهذا الرسول الذي قال الله عنه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨]؛ هذا الرسول الموصوف بالرأفَة والرَّحمة هو الذي قال في هذا المَوقِف: «**اقتُلُوه**».

«**قَالَ ابْنُ شِهَابٍ**»: هو الإمام الربانيُّ المحدِّث الثقة، محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزُهري.

---

(١) التمهيد لابن عبد البر (٦/ ١٥٧).

قول ابن شهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَبَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَكُن يَوْمَئِذٍ مُحْرِمًا**»؛ أي: أنَّه ﷺ ما دخل مكة عام الفتح مُحرِمًا؛ لأنه ما كان يريد النُسُك، بل دخل يريد فتح مكة.

لكنه لما خرج مِن مكة إلىٰ الطائف في غزوة الطائف، ثم رجع إلىٰ مكة بعد فراغه من الغزو؛ أحرم مِن الجِعْرَانة، وكان ذلك في أوائل ذي القعدة.

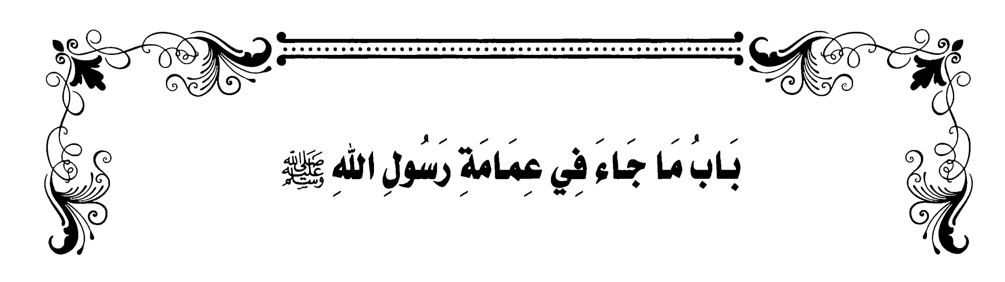
وقد استدلَّ الفقهاء بهذا علىٰ أنَّه لا يجب الإحرام علىٰ كلِّ من أتىٰ مكة، وذهب جمهور الفقهاء إلىٰ أنَّ إحرام الداخل إلىٰ مكة واجبٌ، واستثنوا النبيَّ ﷺ عام الفتح، وقالوا هذا خاصٌّ به.

والراجح ـ كما في مذهب الشافعي ورواية عن أحمد ـ أنَّ مَن دخل مكة وهو يريد الحجَّ أو العمرةَ أنه يجب عليه ألَّا يدخل مكةَ إلا محرمًا، فإذا دخل مكة بغير إحرام وهو مريدٌ للنسكِ وجب عليه الرجوع للميقات للإحرام، ويدلُّ علىٰ ذلك: حديثُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «**إِنَّ النبيَّ ﷺ وَقَّتَ لِأَهْلِ المَدِينَةِ ذَا الحُلَيْفَةِ، وَلِأَهْلِ الشَّأْمِ الجُحْفَةَ، وَلِأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنَ المَنَازِلِ، وَلِأَهْلِ اليَمَنِ يَلَمْلَمَ، هُنَّ لَهُنَّ، وَلِمَنْ أَتَىٰ عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِهِنَّ مِمَّنْ أَرَادَ الحَجَّ وَالعُمْرَةَ**»(١).

ومفهوم الحديث: أنَّ مَن لم يُرِدِ الحج والعمرة فليس عليه الإحرام؛ كمن دخلها للتجارة أو زائرًا أو يريد علاجًا أو مراجعة معاملةٍ له، أو يريد الصلاة في الحرم دون العمرة ـ كما يفعله بعض أهل الطائف وجدة اليوم ـ .

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٢٤)، ومسلم (١١٨١).



بَابُ مَا جَاءَ فِي عِمَامَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

هذا تتمةُ الحديث عن لباسه ﷺ.

العِمامة: معروفةٌ، وهي لباس الرأس، حيث اعتادت العربُ أن تغطيَ رؤوسها بقطعةٍ من قِماشٍ، تلفُّها علىٰ الرأس وتعصِبها عليه، وسميت عِمامةً لأنها تعُمُّ الرأس وتشمله غطاءً.

ولقد لبسها النبيُّ ﷺ جريًا علىٰ عادة العرب في لباسها، فإنَّه ما اتخذ لباسًا خاصًّا به منذ أن صار نبيًا ﷺ، فعندما نُبِّئ لم يغيِّر لباسَ العرب ولا طعامَهم ولا شرابَهم ولا شيئًا مما اعتاد أن يفعله علىٰ طبيعة العرب وعادتهم، فلباسه ﷺ قبل النبوة هو لباسه بعدها، ولباسه قبل الهجرة هو لباسه بعدها، بل إنَّ لباسه كان يشابه لباس كفَّار قريش وصناديدها، كأبي جهل وأبي لهبٍ وغيرهما.

فالسُّنَّة أن يُسايرَ المرءُ ما اعتاده أهل بلده من اللباس إن لم يعارض حكمًا شرعيًّا، واتخاذ العمامة ليس دينًا يتميَّزُ به المسلمون عن غيرهم، ومِن التكلُّفِ ما يفعله بعض الناسِ ـ إذا اهتدىٰ إلىٰ الإسلام أو أصبح طالب علم ـ مِن التميُّز بلباسٍ أو مظهرٍ أو هيئةٍ.

ولقد نقل الصحابة رضي الله عنهم طريقة لبسه ﷺ للعِمامة؛ فبيَّنوا أيَّ عمامة لبس، ولونها، ومظهرها، وكيفية لباسه لها؛ فمرةً يلبسها مع القلنسوة، ومرةً دون

قلنسوة ـ يعني: مع غطاء مع العمامة ودون غطاء ـ.

وفي هذا إشارة إلىٰ أنه كان لا يتكلَّف في لباسه، بل يلبس ما تيسَّر له وما كان بين يديه.

***

(صحيح) **٩٢ـ عَن جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: «دَخَلَ النبيّ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الفَتْحِ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ»**(١).

شرح الحديث

قول جابر رضي الله عنه: «دَخَلَ النبيّ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الفَتْحِ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ».

جاء في حديث أنسٍ السابق أنَّ النبيَّ ﷺ دخل مكة عام الفتح وعليه مِغْفَر، وحديث جابر هذا يُثْبت أنَّه دخلها وعليه عمامةٌ سوداء، والحادثة واحدة؛ فهل كان لابسًا عمامةً أو مغفرًا؟.

والجواب: أنه لا تعارُضَ بين الحديثين وكلاهما صحيحٌ، وعن ذلك جوابان:

إما أن نقول: إنه لبس المِغْفَر وفوقه العمامة، وهذا ممكنٌ، فقد يكون لبس المِغْفَر وشدَّ عليها العمامة بدلًا من خُوذَة الحرب، وبالتالي مَن نظر إليه يمكن أن يقول: إنه لبس العِمامة، ويمكن أن يقول: إنه لبس المِغْفَر.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٥٨).

وجوابٌ آخَر أن يُقال: إنَّ أنسًا ذكر في حديثه أنَّه كان لابسًا المِغْفر ثم نزعه، فلعلَّه عندما نزعه تعمَّم ﷺ.

قوله رضي الله عنه: «**وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ**»، اتَّفق للنبي ﷺ أن يلبس عمامةً سوداء ذلك اليوم، ولكن لم يكن ذلك له عادةً وسُنَّةً، يقول ابن القيِّم رحمه الله عن اللباس الأسود: «والنبيُّ ﷺ لم يلبسه لباسًا راتِبًا، ولا كان شعارَه في الأعياد والجُمَع والمجاميع العِظام البتَّة، وإنما اتَّفَقَ له لُبْسُ العِمامة السوداء يوم الفتح دون سائر الصحابة، ولم يكن سائرَ لباسه يومئذٍ السوادُ، بل كان لواؤه أبيضَ»[1]، أي: اللواء الذي رُفِع يوم فَتح مكة، فلو كان السواد شعارًا لجُعِلَ اللواءُ والعِلمُ أسود، فمَن أراد أن يجعل السوادَ شِعارًا للسنة خصوصًا في القتال والجهاد فهو مخطئ.

***

(صحيح) **٩٣ــعَنْ عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ** رضي الله عنه: «**أَنَّ النبيّ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ**»[2].

شرح الحديث

قول عمرو بن حريث رضي الله عنه: «**أَنَّ النبيّ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ**»، يحتمل أنَّ الخطبة كانت يوم الفتح فيكون هذا الحديثُ موافقًا للحديث السابق، ويحتمل أنَّ الخطبة كانت في يومٍ آخر.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٠٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٥٩).

قوله رضي الله عنه: «**وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ**»؛ هذا محلُّ الشاهدِ من الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ لبس العمامة السوداء.

***

(صحيح) **٩٤ـ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ النبيُّ ﷺ إِذَا اعْتَمَّ سَدَلَ عِمَامَتَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ». قَالَ نَافِعٌ: وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَفْعَلُ ذَلِكَ. قَالَ عُبَيْدُ اللهِ: وَرَأَيْتُ القَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَسَالِمًا يَفْعَلَانِ ذَلِكَ**(١).

شرح الحديث

قول ابن عمر رضي الله عنهما: «**كَانَ النبيّ ﷺ إِذَا اعْتَمَّ**»؛ يعني: لبس العِمامة.

قوله رضي الله عنه: «**سَدَلَ عِمَامَتَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ**»؛ يعني: الإنسان بعد أن ينتهي مِن لَفِّ العِمامة علىٰ رأسه يبقىٰ طرفُ العِمامة، ويسمىٰ: الذُّؤابة، فإما أن يَربط طرفَ العِمامة مع ما لفَّه علىٰ رأسه فيدخله في أثنائها فتكون عمامةً صَمَّاء، وإما أن يترك طرفَها ـ ويكون مقدار ذراع أو أقصر ـ مُرخًىٰ بين كتفيه، أو علىٰ كتفه الأيمن، أو علىٰ كتفه الأيسر، ويسمىٰ هذا: سَدْلًا.

ولهذا يقول ابن القيّم رحمه الله عن لبس النبيّ ﷺ للعِمامة: «وأرخىٰ الذُّؤابة من خلفه تارةً، وتركها تارةً»(٢).

فالحديثان السابقان ذكرا لون عمامة النبيِّ ﷺ، وهذا الحديث ذكر طريقة لبسه لها ﷺ.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٧٣٦)، وقال: «حسن غريب».

(٢) زاد المعاد (١/ ١٣٨).

(قَالَ نَافِعٌ): هو راوي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما، وهو مولىٰ ابن عمر.

قول نافع: «وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَفْعَلُ ذَلِكَ»؛ أي: إذا لبس العِمامة يسدُلها بين كتفيه، اقتداءً برسول الله ﷺ.

(قَالَ عُبَيْدُ اللهِ): هو ابن عبد الله ابن عمر.

قول عبيد الله: «وَرَأَيْتُ القَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَسَالِمًا»؛ القاسم بن محمد هو حفيد أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه، وسالم هو ابن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وكلاهما من فقهاء المدينة السبعة الذين كانت مدار فتوىٰ الإسلام عليهم في زمن التابعين، وكانوا مضربَ المثل في الفقه والإمامة في الدين.

قول عبيد الله: «يَفْعَلَانِ ذَلِكَ»؛ يعني: إذا اعتَمَّ أحدُهما سَدَل عمامته بين كتفيه.

وفي هذا إشارةٌ إلىٰ المبدأ العظيم الذي عاش عليه الصحابة والتابعون وكبار الفقهاء، وهو الحرص علىٰ الاقتداء برسول الله ﷺ في كل شأنٍ من شؤون حياتهم، فحاوِل أن تقتدي بهم وتطبِّق ذلك في حياتك كلها.

هذا هو الاقتداء الصحيح بسنة النبيِّ ﷺ، والمحبَّة الحقيقية، وليس أن يكون الإنسان منشغلًا بسماع الأناشيد والقصائد التي تترنَّم بذكر النبيّ ﷺ، وهو مُضَيِّعٌ للسنن!.

***

(صحيح) **٩٥ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ النبيَّ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ دَسْمَاءُ»**.



شرح الحديث

هذا آخر أحاديث باب ما جاء في العمامة، وأصل الحديث عند البخاري في كتاب المناقب(١).

قول ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ النبيُّ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ دَسْمَاءُ»، في تفسير (دَسْماء) قولان لأهل العلم:

القول الأول: أنَّ دَسْماء بمعنىٰ سوداء، فتكون رواية ابن عباس موافقةً لما سبق في رواية عمرو بن حُريث.

القول الثاني: أن دَسْماء معناها متلطخةٌ بدُسومةٍ مِن أثر الطِّيب والدُّهن الذي في شعره ورأسه ﷺ، فإنه كان يدهن رأسه أحيانًا وربما طَيَّبَ رأسه بطِيبٍ يُرىٰ لمعان هذا الطِيب في مفارق رأسه ﷺ، فإذا لبس العمامة علىٰ شَعره وكان ممتلئًا دُهنًا أو طِيبًا فإنّ دُهن الزيت أو الطِيب ينتقل إلىٰ العِمامة، فإذا انتقل إلىٰ العِمامة ظهر أثرُ الدَّسَم عليها، فتسمىٰ عمامةً دَسماء.

وهذا ختامُ ما جاء في باب العمامة.

تنبيه: لم يصحّ عن رسول الله ﷺ في فضل لبس العِمامة حديثٌ أبدًا، وكل حديث يُروىٰ في فضل العمامة إمَّا ضعيفٌ وإما موضوعٌ، ومنه مثلًا ما يتداوله بعض العامّة: «صلاةُ تطوُّعٍ أو فريضةٍ بعِمامةٍ تعدل خمسًا وعشرين صلاةً بلا عِمامةٍ، وجُمعةٌ بعمامةٍ تعدل سبعين جُمعةً بلا عِمامة»(٢) حديثٌ لا

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٢٨).

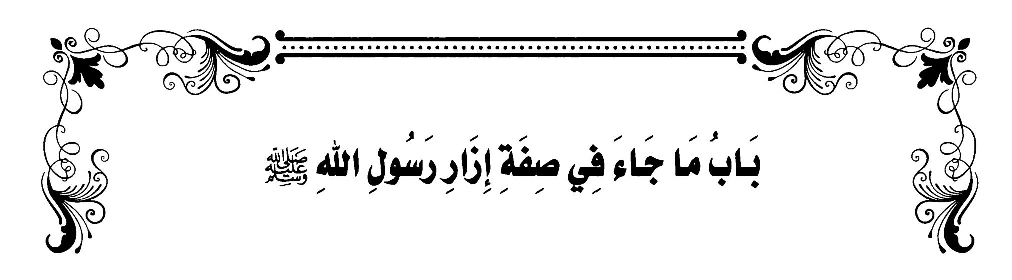
(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٧/ ٣٥٥)، وأورده القاري في المصنوع في الحديث الموضوع (١٧٧).

يصح، فرواية مثل هذه الأحاديث المكذوبة والموضوعة أو الضعيفة لا تجوز، ونسبتها للنبي ﷺ غير جائزة، وقد قال ﷺ: «**مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بحَدِيثٍ يُرَىٰ أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الكَاذِبِينَ**»(١).

وإنما الثابت فعلُه ولبسُه للعمامة ﷺ، وكما تقرَّر فإنَّ لباسَه للعِمامة ما كان إلا جَريًا علىٰ عادةِ العرب الذين عايشهم ونشأ في أوساطهم.

**   **   **

(١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (١/ ٨)، والترمذي (٢٨٥٣).



بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ إِزَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

الإزارُ: قطع اللباس التي تغطِّي أسفلَ الجَسد؛ فإنَّ لباس العرب في العادة يتكون من قطعتين: إزارٍ، ورداءٍ، والرِّداءُ: القطعة التي تغطِّي الصدر ونصف الجسد الأعلىٰ، والإزارُ: الذي يغطِّي نصف الجسد الأسفل، كما يَلبس المحرم في إحرامه قطعتين إزارًا ورداءً، والعرب اعتادت هذا اللباس، وربما لبست قميصًا مع الإزار، وربما كان بُردةً أو شيئًا آخر.

وقد لبس نبينا ﷺ ما كانت تلبسه العرب، ومنه الإزار، وهذا الباب يتحدَّث عن صفة الإزار الذي كان يلبسه ﷺ.

***

(صحيح) **٩٦ـ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «أَخْرَجَتْ إِلَيْنَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كِسَاءً مُلَبَّدًا وَإِزَارًا غَلِيظًا، فَقَالَتْ: قُبِضَ رُوحُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي هَذَيْنِ»**(١).

شرح الحديث

هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه أيضًا من رواية أبي بردة عن أبيه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٠٨، ٥٨١٨)، ومسلم (٢٠٨٠).

(عَنْ أَبِيهِ) أبوه هو الصحابي الجليل أبو موسىٰ الأشعري رضي الله عنه صاحب المزمار بالقرآن، الذي قال له النبيُّ ﷺ: «**لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِن مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»(١).

قول أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه: «**أَخْرَجَتْ إِلَيْنَا عَائِشَةُ** رضي الله عنها»: يحتمل أنَّ عائشةَ أخرجته من تِلقاء نفسها لتُرِيَه أبا موسىٰ الأشعري، ويحتمل أنَّ أبا موسىٰ هو الذي طلب رؤيته.

قوله رضي الله عنه: «**كِسَاءً مُلَبَّدًا**»؛ الكِساء: قطعةُ القماش غير المخِيطة، تكون مبسوطةً فتُلَفُّ علىٰ الجسم كما يَلُفُّ المحرم الرِّداءَ عليه. فكان رداؤه ﷺ عبارةً عن قطعة من القماش غير المَخِيط.

المُلبَّد: ثخينٌ سميكُ الوسط، كأنه مِن شِدَّة ما تراكم عليه أصبح مُلبَّدًا، أي: ثقيلًا خشنًا.

قوله رضي الله عنه: «**وَإِزَارًا غَلِيظًا**»، كان الإزار الذي يَلُفُّه علىٰ نصف جسده الأسفل إزارًا غليظًا.

قوله رضي الله عنه: «**فَقَالَتْ: قُبِضَ رُوحُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي هَذَيْنِ**»؛ يعني: كان هذا اللباس كان آخر الألبسة عهدًا بجسده الشريف ﷺ، وكنت تحتفظ به أمُّنا عائشة رضي الله عنها علىٰ هيئته، وأرته لبعض الصحابة منهم أبو موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

وفي الحديث بيانٌ للتقشُّف والاخشيشانِ الذي كان يعيشه ﷺ تقلُّلًا من

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

الدنيا، وزهدًا فيها، وانصرافًا عنها، فما كان ﷺ يتعلق بشيء من الدنيا قط لا قليل ولا كثير. كان هكذا امتثالًا لقول ربِّه له: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٣١].

كان ﷺ زاهدًا في الدنيا بأسرها؛ طعامها وشرابها، قصورها ودورها ومنازلها، لباسها وهيئاتها، وكل ما يتعلَّق به قلب ابن آدم في الدنيا، وإنما كان يلبس ما يتهيَّأ له، ويأكل من الطعام ما يتيسَّر أمامه، ويتعامل مع هذه الدنيا بقدر ما اتَّفق له دون بحثٍ أو تعنٍّ أو قصدٍ إلىٰ شيءٍ من أمور الدنيا.

هذه سُنَّته ﷺ في حياته أجمعها، وكان الذي يصرف همَّته إليه ويملأ قلبه اشتغالًا وعنايةً وقصدًا وتحصيلًا هو أمر الآخرة، وما يقرِّبه إلىٰ ربه سبحانه، فكان جُلَّ اهتمامه ﷺ القرآنُ، والدعوةُ إلىٰ الإيمان، والعنايةُ بأصحابه، وتربيتُهم علىٰ الأخلاق الفاضلة؛ لأجل أن يرثوه ويحملوه كما أراد ﷺ.

وأنت ترىٰ هذا في الناسِ؛ أنَّ كل مَن امتلأ قلبُه بهمٍّ أخرويٍّ أصبحت أمور الدنيا عنده من التفاهات، فمن اعتنىٰ بأمرٍ عظيمٍ كأمور الأمَّة، وهمِّ الدِّين، وإصلاح المجتمع، والرغبة الأكيدة فيما عند الله والدار الآخرة، واللهِ ما يجد في قلبه متَّسعًا للانشغال بتلك المظاهر والزخارف، التي تعلَّقت بها أبصار قلوب كثير من العباد؛ من المنازل، والمراكب، والملابس، والزوجات، والمطاعم والمشارب.

ولا شكَّ في حِلِّ هذه الأمور المباحات؛ فهذه ليست دعوةً لتحريم ما أحلَّ الله، وإنما الكلام عن تعلُّق القلوب بها والانشغال عن الأمور الكبيرة المهمة؛ حتَّىٰ إنَّك لَتَجِدُ بعضهم لا حديث له إلا الطعام، ولا يُقلِق فكرَه إلا إياه، فإذا

جلس في مجلسٍ كان حديثُه عن الطعام، وإذا جلس علىٰ طعام كان حديثه عن الطعام، وإذا انتهىٰ وشبع كان حديثُه عن الطعام القادم، وهكذا.

هذا لباس أعظم عظماء البشرية علىٰ الإطلاق نبيِّكم ﷺ، والله ما وجد الصحابة قطُّ يومًا في لباسه مظهرًا من مظاهر الأُبَّهة والافتخار والعَظَمة، بينما نحن اليوم لا نكاد نعرف عظيمًا أو كبيرًا أو رئيسًا إلا بما تراه العينُ من المظهر والهيئة واللباس.

أمَّا نبينا ﷺ فكان ربما يدخل الأعرابيُّ المسجد وهو ﷺ جالسٌ مع أصحابه فلا يميِّزه ولا يعرفه حتىٰ يسأل: أيُّكم محمد ﷺ؟

فعلىٰ المسلم أن يَزِنَ الأمور بحقائقها، فإنَّ عَظَمة الإنسان ليست في فخامة لباسه، ولا جمال رائحة عطوره، ولا فخامة ما يركب من سيارات، ولا جمال أثاث بيته، كلا والله، وإنما عظمة الإنسان بعَظَمَةِ ما في قلبه، فأعظمُنا كما قال الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ [الحجرات: ١٣]، لا ميزانَ آخَر.

وليست هذه أيضًا دعوة للتبذُّل، والامتهان، والانصراف عن الدنيا، والرغبة في فاسدها وسيِّئها، كلا، لكن المقصودَ التوازُنُ، فعلىٰ الإنسان أن يتمتع بما أنعم الله به عليه، وأن يُظْهِر أثر نعمته عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحىٰ: ١١]، وقال سبحانه: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، لكن إياك والتعلُّق! إياك والنظر إلىٰ ما متَّع الله به الآخرين مِن متاع الحياة الدنيا، إياك أن تمرَّ بالعمائر الشاهقة، والبنايات المرتفعة، أو السيارات الفاخرة، أو الملابس الحسنة فتحدِّثك نفسك

أنه لو كان لك شيءٌ مِن ذلك، فيقع في قلبك حسرةٌ وأسًىٰ بسبب القليل الذي رزقك الله إياه، فتفقدَ القناعة، أجارك الله.

وهنا سؤالٌ: ما سبب حرص الصحابة علىٰ رؤية لباس النبيِّ ﷺ؟

لم يكن الغرضُ التبرُّكَ أو أخذَ قطعةٍ منه أو نحو ذلك، بل كان الغرضُ أن يرىٰ الصحابةُ صورةً عن حياة المصطفىٰ ﷺ، تنطبعُ في قلوبهم، يرون فيها كيف كان عيشُه الزهيد ﷺ.

***

(صحيح) **٩٧ـ عَنِ الأَشْعَثِ بْنِ سُلَيْمٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَمَّتِي تُحَدِّثُ عَنْ عَمِّهَا قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِالمَدِينَةِ إِذَا إِنسَانٌ خَلْفِي يَقُولُ: «ارْفَعْ إِزَارَكَ؛ فَإِنَّهُ أَتْقَىٰ»، فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا هِيَ بُرْدَةٌ مَلْحَاءُ، قَالَ: «أَمَا لَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ!»، فَنَظَرْتُ، فَإِذَا إِزَارُهُ إِلَىٰ نِصْفِ سَاقَيْهِ**(١).

شرح الحديث

قول الأشعث بن سليم: «سَمِعْتُ عَمَّتِي»؛ اسمها رُهْمٌ.

قوله: «تُحَدِّثُ عَنْ عَمِّهَا»: هو صحابي اسمه عبيد بن خالد المحاربي.

قول المحاربي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **«بَيْنَا»**، وفي نسخةٍ: «بينما».

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **«إِذَا إِنسَانٌ خَلْفِي يَقُولُ»**؛ يعني: سمع صوت إنسانٍ مِن خلفه يكلِّمه.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٩٦٠٣)، بلفظ: «أبقىٰ وأتقىٰ».

قوله ﷺ: «**فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**»؛ يعني: لَمَّا التفت وجد أنَّ محدِّثَه الذي كان يكلِّمه هو رسول الله ﷺ.

قوله ﷺ: «**ارْفَعْ إِزَارَكَ**»؛ لأنَّ إزارَه كان مُسبَلًا قد ارتخىٰ فنزل عن كعبيه.

قوله ﷺ: «**فَإِنَّهُ أَتْقَىٰ**»، وفي رواية: «**أَتْقَىٰ وَأَبْقَىٰ**»(١)، وهذا تعليلٌ للأمرِ برفع الإزار، أي: أتقىٰ لربك، وأبقىٰ لثوبك، يعني: إن أردتَ تقوىٰ الله فرفعُ إزارك أكثرُ تحقيقًا للتقوىٰ، وإن أردتَ الحفاظ علىٰ ثوبك فرفعُه أبقىٰ له؛ لأن الثوب إذا أُسدل وارتخىٰ صار عند القدمين يحتكُّ بالأرض عند المشي، فتَتلَفُ أطرافُه لا محالة، ويكون أكثرَ عُرضةً للأذىٰ والقاذورات.

وفي رواية: «**أَتْقَىٰ وَأَنقَىٰ**»(٢)؛ أي: أنقىٰ لثوبك وأنظف له؛ فإنه إذا كان مرتفعًا عن الأرض لا تصيبه القاذورات والنجاسات.

وفي الحديثِ بيانٌ لكيفية مناصحة النبيِّ ﷺ للصحابة، وأنَّه لم يرضَ لأحدٍ من أصحابه أن يمشي مُسبِلًا إزارَه، وعندما ناصحه مباشرةً وهو واقفٌ خلفه، ولم ينتظر أن يُقْبِلَ عليه حتىٰ يراه، فالنصحُ لا يقبل التأخير.

قول المحاربي ﷺ: «**فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا هِيَ بُرْدَةٌ مَلْحَاءُ**»؛ مَلْحَاء: مُخَطَّطةٌ أبيض وأسود.

يشير الصحابيُّ إلىٰ تواضُعها، وأنها ليست من أنواع اللباس الفاخر، يريد أن يَنفي عن نفسه تُهمة الكِبر والخُيَلاء التي تُصاحِبُ مَن يُسْبِل إزارَه، كأنَّه يقول:

---

(١) أخرجها النسائي في الكبرىٰ (٩٦٠٢).

(٢) أخرجها البيهقي في شعب الإيمان (٥٧٣٧).

يا رسول الله، ما ثوبي إلا ثوبُ رجلٍ فقيرٍ مسكين، لا يقصد بلباسه إياه فَخرًا ولا كبرياء ولا اختيالًا.

قوله ﷺ: «**أَمَا لَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ!**»، وهذه جُملة مُفْحِمَةٌ لكل مسلمٍ يُخالِفُ رسولَ الله ﷺ في شيءٍ مّا، بأيِّ تعليلٍ كان!

وعلىٰ المسلم إذا قيل له: أمَا لك في رسول الله ﷺ أسوة! أن يقول: بلىٰ، وحبًّا وكرامةً، وشرفًا وفخرًا، أن يكون لي في رسول الله ﷺ أُسوةٌ.

وهذا نداءٌ يُوَجَّه إلىٰ المسلمين اليوم الذين يُسْبِلُون أُزُرَهم، ثم يتعلَّل أحدُهم بأنَّه لا يُسبِل كِبرًا أو خُيَلاء، وإنَّمَا اتَّفَق له شراؤه هكذا، أو خاطَه الخيَّاط هكذا، أو نحو ذلك مِن تعليلاتٍ تواجِهُ الناصحين كلَّما أمروا مُسلمًا برفع ثوبه عن الكعبين.

قوله رضي الله عنه: «**فَنَظَرْتُ**»، فَهِم الصحابيُّ أنَّ المطلوب أن ينظر إلىٰ حال النبيِّ ﷺ وهيئته في لباسه، فنظر إلىٰ إزاره.

قوله رضي الله عنه: «**فَإِذَا إِزَارُهُ إِلَىٰ نِصْفِ سَاقَيْهِ**»، هذا أكملُ وأعظمُ وأجملُ ما يكون من لباس الرجال، وهو هدي المصطفىٰ ﷺ الذي كان أكمل الناس عقلًا وخُلُقًا وخِلْقَةً، وأتمَّهم جمالًا وجلالًا بلا امتراء، وهو أن يكون إزارُ الرجل إلىٰ نصف ساقيه.

وأمَّا الزيادة علىٰ ذلك فإنما تحرُم إذا تجاوز اللباس حدَّ الكعبين، ثبت عند البخاري في صحيحه(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مِن صريح قول النبيِّ

(١) صحيح البخاري (٥٧٨٧).

ﷺ: «**مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ مِنَ الإِزَارِ فَفِي النَّارِ**»، الكَعبان: هما العَظمان الناتِئان أسفل الساق عند موضع الاتصال بالقدم، وهي التي يغسل المسلم رجله إليها في الوضوء، أي: ما تجاوز حدَّ الكعبين من الإزار فهو في النار.

وفي الحديث الآخر الصحيح الذي أخرجه مسلم[١] من حديث أبي ذرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**ثَلَاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ وَلا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: المَنَّانُ الَّذِي لا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مَنَّهُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الفَاجِرِ، وَالمُسْبِلُ إِزَارَهُ**».

هل سمعت بوعيدٍ أشدَّ من هذا؟ هؤلاء الثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، منهم الـمُسْبِل إزارَه، أو ثوبَه، أو بنطالَه، أو قميصَه، أو أيِّ شيءٍ من اللباس كان قد لبسه، والثاني هو المنَّان الذي يُعْطِي العطيَّة ثم يمُنُّ بها، والثالث أولئك الباعة الذين اتخذوا من الحلف بالله بضاعةً، يُروِّجون سلعتهم علىٰ المشترين بالحلف الكاذب؛ أنَّهُ أُعْطِي فيها كذا، أو ما اشتراها إلا بكذا، أو أنها أجْودُ من غيرها، ونحو هذا مما يُرَوِّج به سِلعتَه علىٰ الناس ويحلف علىٰ ذلك كاذبًا.

فكيف يرضىٰ العاقلُ أن يكون قطعةٌ أو شِبرٌ من القماش سببًا لدخوله النار!

أمَّا الـمُحِبُّ فكيف يرضىٰ لنفسه أن يترك سُنَّة النبيِّ ﷺ ولو لمقدار أصبع أو أصبعين أو أقلّ أو أكثر! المحبُّ له شأنٌ آخر في الاقتداء والاتباع!

---

(١) صحيح مسلم (١٠٦).

ويتبيَّن بهذا الحديث خطأً ما يقولُه بعضُهم: إنَّ المظاهر ليست من صُلب الإيمان، ويجعل إعفاءَ اللحىٰ وتقصيرَ الثياب ونحوَ ذلك أمرًا ظاهريًّا غيرَ مُهمٍّ، ويقول: إنَّ المهِمَّ هو ما في قلب المؤمن وباطنه، ويجعل الأخلاق والإيمان هو اللُّبّ، ومسائل اللباس والهيئة ونحوها قشورًا غير مهمة.

والحقُّ أنَّ علىٰ المسلم أن ينصب سيرةَ النبيِّ ﷺ أمام ناظريه، يُراعِي كلَّ ما ورد فيها عن النبيِّ ﷺ في هيئته ولباسه وأخلاقه وقلبه، كل ما ورد فيها مما يتعلق بالظاهر والباطن، بالقلب والقالب، لا يتنازل عن شيءٍ منها؛ اتباعًا واقتداءً وتطبيقًا لسُنَّة النبيِّ المصطفىٰ ﷺ.

ونحن لا نُفَرِّق بين سُنن المصطفىٰ ﷺ، فلا نجعل بعضها قُشورًا وبعضها لُبابًا، حاشاه ﷺ، بل هؤلاء الصحابة عندما نقلوا لنا سُنَّته لم يتركوا شيئًا من هديه ﷺ، بل نقلوا لنا الصغير والكبير، والدقيقَ والجليلَ، والظاهرَ والباطنَ علىٰ حدٍّ سواء؛ لأنَّ المسلم بحاجةٍ لكل هذا، أن يجعل ظاهره وباطنه موافقًا لهدي النبيِّ ﷺ.

***

(ضعيف) **٩٨ـ عَن سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ يَأْتَزِرُ إِلَىٰ أَنصَافِ سَاقَيْهِ، وَقَالَ:**

(صحيح) **«هَكَذَا كَانَتْ إِزْرَةُ صَاحِبِي»؛ يَعْنِي: النبيّ ﷺ**(١).

---

(١) بيَّن الألباني أنَّ الموقوفَ ضعيف، والمرفوع منه له شواهد كثيرة. المشكاة (٤٣٣١).



شرح الحديث

قول سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: «يَأْتَزِرُ»؛ أي: يلبس الإزار.

قول عثمان رضي الله عنه: «هَكَذَا كَانَتْ إِزْرَةُ صَاحِبِي»؛ يَعْنِي: النبيّ ﷺ. أي: أنَّ الائتزار إلىٰ نصف الساقين كان صنيعَ عثمان، لكنَّ المبدأَ العظيمَ الذي بنىٰ عليه عثمانُ هذا الصنيع هو أنَّ النبيَّ ﷺ كان يفعل ذلك، فكان يفعل عثمانُ هذا الصنيع اقتداءً بهدي وسُنَّة النبيِّ ﷺ، هذا هو المبدأ الذي حمل الصحابة علىٰ ما كانوا يفعلون، فلا حاملَ لهم ولا باعثَ ولا دافعَ إلا الاقتداء برسول الله ﷺ، كما سبق ذلك في الأبواب والأحاديث السابقة.

***

(صحيح) **٩٩ـ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ رضي الله عنه قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعَضَلَةِ سَاقِي أَوْ سَاقِهِ فَقَالَ: «هَذَا مَوْضِعُ الإِزَارِ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَأَسْفَلَ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَلَا حَقَّ لِلْإِزَارِ فِي الكَعْبَيْنِ»**(١).

شرح الحديث

قول حذيفة رضي الله عنه: «أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعَضَلَةِ سَاقِي أَوْ سَاقِهِ»؛ عَضَلةُ الساق: العَضَلةُ التي ترتكز خلف الساق، وليس في الساق عَضَلةٌ سواها، وهي تحت الركبتين فوق أنصاف الساقين.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٢٤٣)، والترمذي (١٧٨٣)، وابن ماجه (٣٥٧٢)، والنسائي في الكبرىٰ (٩٦٠٦)، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

قوله ﷺ: «**هَذَا مَوْضِعُ الإِزَارِ**»؛ أي: عَضَلةُ الساق الواقعة في منتصف الساق هي حدُّ موضع الإزار، لا أسفل من ذلك.

قوله ﷺ: «**فَإِنْ أَبَيْتَ فَأَسْفَلَ**»؛ يعني: إذا كانت نفسُك لا تطيق أن يكون الإزار إلىٰ منتصف الساق فقط، وأصرَرْتَ علىٰ تطويله إلىٰ ما أسفل نصف الساق، فلا بأس أن يكون الإزار أسفل منتصف الساق.

قوله ﷺ: «**فَإِنْ أَبَيْتَ فَلَا حَقَّ لِلْإِزَارِ فِي الكَعْبَيْنِ**»: هذا بيانٌ لآخرِ حدِّ طول ثوب الرَّجُل، وهو الكعب، وفيه بيانُ أنَّ الإزار أو الثوب أو البنطال أو القميص لا يجوز أن يغطِّي الكعبين.

فلباس الإزار له مراتب:

المرتبة الأولىٰ: وهو الهدي الأكمل والأتمُّ، أن يكون اللباس إلىٰ منتصف الساق.

المرتبة الثانية: أن يكون أسفل من منتصف الساق ولا يصل إلىٰ الكعبين، وهذا لا بأس به ولكنه أقلّ من المرتبة الأولىٰ.

المرتبة الثالثة: أن يغطِّي الكعبين، وهذا حرامٌ غير جائز.

فعلىٰ المسلمِ أن يعيد النظر في لباسه، ولباس أبنائه، وَمَن له ولايةٌ عليه، ولينظر هل اهتدىٰ بهديه ﷺ أم خالفه، لا سيما الدُّعاةِ وطلبةِ العلم؛ فمَن لم يستطع أن يُطَبِّق السُّنَّة علىٰ نفسه فكيف يظن أنه يستطيع إقناعَ الناسِ بها!

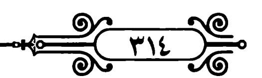
والناظر في حال الأمَّة اليومِ يرىٰ كيف ابتعدت الأمَّةُ كثيرًا عن هدي النبيِّ ﷺ في اللباس والهيئة، بل قد دخلت بيوتَنا عاداتٌ من الأزياء التي تشمئز منها

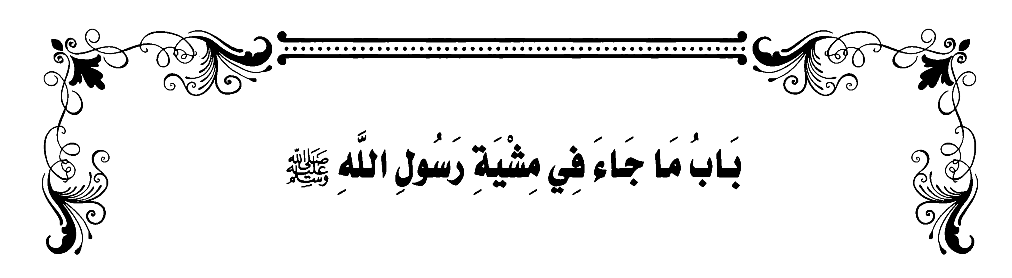
أبصار الناظرين، ألبِسَةٌ تدلُّ علىٰ أنَّ أصحابها قد مُسِخَت فطرتُهم، وابتعدوا عن الشريعة الإسلامية، وأصحبوا يتبعون تقاليدَ وعاداتٍ ممجوجةً لا تتوافق مع أذواق العرب والمسلمين، حتىٰ إنَّك لترىٰ بعض الرجال وقد أصبح لثيابهم وبناطيلهم وأُزُرهم ذيولٌ تكنسُ الشوارع من خلفها، وأصبح الناس يتلمَّسُون الأعذار لمثل هذه المخالفات بأنها عاداتُ مجتمع، وأنَّ الاهتداء بهدي المصطفىٰ يُعَرِّض الإنسان للسخرية والاستهزاء ونحو ذلك، فتنازلت الناس عن السُّنَّة لأجل عاداتٍ، ولأجل إرضاء الآخرين.

وينجرُّ الحديثُ لبعض المظاهر المؤسفةِ في اللباس؛ فنرىٰ ما شاع وانتشر بين شباب المسلمين من بعض البناطيل والملابس التي ترتخي من أعلاها فينكشف قدرٌ من عورة الإنسان الخلفية، وبعض الملابسِ يشتريها الإنسانُ جديدةً لم يلبسها أحدٌ من قَبْل وهي مُقَطَّعَةٌ ممزَّقةٌ قد تُظْهِر شيئًا من الفخذ، وما جاءت وانتشرت في بلادنا مع كونها علىٰ هذه الهيئات المقزِّزة إلا لأنها انتشرت في الغرب واستحسونها، فيستحسنها شبابُنا.

ويجدر هنا التنبيهُ إلىٰ أنَّ بعض الملتزمين بسنَّة النبيِّ ﷺ في اللباس قد تنالهم ألسِنة الناس بالتطاوُل واللَّمز والانتقاص والسخرية، فليتَّقِ الله هذا المستهزئ واللامز وليخشَ أن يقودَه استهزاؤه بالمتدينين إلىٰ الاستهزاء والسخرية بسُنَّة المصطفىٰ ﷺ، فعلىٰ الإنسان أن يُمْسِكَ لسانه، وأن ينتبه لما يقول؛ فإنَّه لا يجوز للإنسان أن يسخر ولو بنصف كلمة أو إشارةٍ أو همزةٍ بشيءٍ من سيرة النبيِّ ﷺ وهديه.

** ** **





بَابُ مَا جَاءَ فِي مِشْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(ضعيف) ١٠٠ ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ، وَلَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مِشْيَتِهِ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَأَنَّمَا الأَرْضُ تُطْوَىٰ لَهُ، إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وَإِنَّهُ لَغَيرُ مُكْتَرِثٍ»(١).

شرح الحديث

قول أبي هريرة رضي الله عنه: «**كَأَنَّمَا الأَرْضُ تُطْوَىٰ لَهُ**»؛ أي: كأنَّ الأرض تُخْتَصر له اختصارًا من سُرْعَتِه.

قول أبي هريرة رضي الله عنه: «**إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرِثٍ**»، يريد: أنَّ الصحابة رضي الله عنهم إذا مشوا إلىٰ جوار رسول الله ﷺ يُجهَدون أنفسهم في المشي للَّحاق به ومُسايَرَته ليكونوا بإزائه ﷺ، وهو يمشي مشيته الطبيعية الهُوَينىٰ دون إجهاد ولا عناء، ومع ذلك يسبِقهم في خَطوه ومَشيه.

ولا يُفْهَم مِن هذا أنه كان يهرول أو يركض، بل كان يسبقهم ببركة ما جعله الله سبحانه وتعالىٰ فيه، فالإسراع غير مقصود، لكنه المشي الذي تُحَثُّ فيه الخُطا فتُقطع فيه المسافات، ويبلغ فيه المقام الذي يُريد الوصول إليه ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٦٠٤)، والترمذي (٣٦٤٨)، وقال: «غريب»، وضعفه الألباني؛ لضعف راويه ابن لهيعة.

وقد جاء في كتاب الله وصف المشية التي يَتَّصِف بها الكُمَّلُ من الرجال وعباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، ومشية الهَون ليست مِشية تَماوُت ولا تَباطُؤ ولا تكاسُل، وإنما يمشي كما وصَّىٰ لقمانُ ابنَه: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، والقَصْدُ في المشي: الاعتدالُ بين الإسراع والبُطء. وأما الهَرولَةُ والجَريُ أثناء المشي العادي فإنما يفعله عادةً أصحاب العقول الخفيفة والطَّائشون، وأما مِشْيةُ التَّماوُت والتَّثاقُل التي لا يكاد يَقوَىٰ صاحبُها علىٰ رفع قدَمٍ وحَطِّ أخرىٰ إلا بجُهدٍ جَهيد فإنها شأن البطَّالين والكُسَالىٰ وأصحاب الهِمَم المتدَنّية.

وقد مضىٰ في بابٍ سَبَق في أوّل الكتاب وصف الصحابة رضي الله عنهم لمِشية رسول الله ﷺ، يقول علي رضي الله عنه: «**كَانَ إِذَا مَشَىٰ تَقَلَّعَ**»(١)، وفي روايةٍ: «**إِذَا مَشَىٰ تَكَفَّأَ كَأَنَّمَا يَنْحطُّ مِن صَبَبٍ**»(٢)، أي: كان إذا مَشىٰ يرفع قَدَمه رفعًا بالكامِل ولا يسحبها سَحبًا، وهذه مِشية أولي العَزم والحَزم التي تُنبئك عن هِمَّة في نَفس صاحِبها، وهي مِشية الكُمَّل من الرِّجال، والقادَة الذين آتاهم الله عز وجل الجلال والكمال في شأنهم كلّه.

هذا الحديث وإن كان ضعيفًا لكن يشهد له حديثٌ آخَر وإن كان ضعيف السَّنَد أيضًا، أخرَجه الإمام أحمد(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**كُنتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي جَنَازَةٍ، فَكُنتُ إِذَا مَشَيْتُ سَبقَنِي فَأُهَرْوِلُ، فَإِذَا هَرْوَلْتُ سَبَقْتُهُ،**

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٣٨)، وبيَّن أنه منقطع.

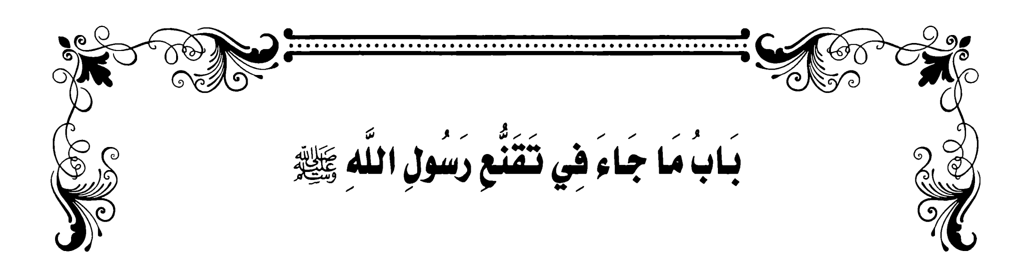
(٢) أخرجه أحمد (٧٤٦)، والترمذي (٣٦٣٧)، وقال: «حسن صحيح».

(٣) مسند أحمد (٧٥٠٦).

فالتفَتُّ إِلَىٰ رَجُلٍ جَنبِي، فَقُلْتُ لَهُ: تُطْوَىٰ لَهُ الأَرْضُ، وَخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ»، يقول: كنت إذا أريد المشي المعتاد أراه يسبقني، فإذا هرولتُ سَبَقتُه، فمَشيُه المعتادُ يسبق فيه مشيَ غيره العادي، وما وجد تفسيرًا لذلك إلا أنَّ الله ﷻ يطوي الأرض لنبيّه ﷺ.

وقصدُه بقوله: (وَخَلِيلِ إبراهيم) أي: يُقسم بالله ﷻ الذي هو خليل إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

** ** **



بَابُ مَا جَاءَ فِي تَقَنُّعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

التَقَنُّع: لُبس القِناع، والقِناعُ: غِطاءٌ يكون علىٰ الرأس من قُماش أو غيره؛ إما سترًا للشعر، أو غِطاءً له، خُصوصًا بعد دَهنِه ونحو ذلك، ومنه أيضًا يُقال للفارِس إذا لَبِس عُدَّة الحرب وغَطَّىٰ رأسه: فارسٌ مُقَنَّع.

قلت: أسند فيه حديث أنس المتقدم برقم (٢٦).

***



شرح الحديث

يُشير المختصر إلىٰ حديث أنس رضي الله عنه المُتَقَدِّم في (باب ما جاء في تَرَجُّل رسول الله ﷺ)، قال أنس رضي الله عنه: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ دَهْنَ رَأْسِهِ، وَتَسْرِيحَ لِحْيَتِهِ، وَيُكْثِرُ القِنَاعَ؛ كَأَنَّ ثَوْبَهُ ثَوْبُ زَيَّاتٍ**»، هذا الحديث أتىٰ به الإمام الترمذي رحمه الله في أصل الشمائل، وتَجاوَزه الإمام الألباني رحمه الله في الاختصار لكونه حديثًا مُتَقَدِّم الذِّكر.

وقد قدَّمنا في ذلك الباب أنَّ حديثَ أنس رضي الله عنه هذا ضعيف، وفيه نكارةٌ في قوله: «**كَأَنَّ ثَوْبَهُ ثَوْبُ زَيَّاتٍ**»، قال الحافِظ ابنُ كثيرٍ: «فيه غَرابَة ونكارَة»(١)،

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٤٨٦).

وسبب هذه النكارة أنَّ النبي ﷺ كان يُنكِر هذه الصفة علىٰ مَن يراها عليه، أي: أن يكون الثوب متَّسخًا وغير نظيف، فكيف يرتضيها لنفسه! بل المعهود عن النبي ﷺ في ثيابه وصف الطهارة والنظافة والجمال.

ولكنَّ الشاهد من الحديث لهذا الباب وهو قوله: «**وَيُكْثِرُ القِنَاعَ**» له شواهد تشهد له؛ فقد جاء في صحيح البخاري: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا**»[١]، أي: مُغَطِّيًا رأسه، وقد بوَّب له البخاري في صحيحه في كتاب اللباس بقوله: (باب التقنُّع).

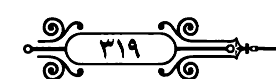
وهذا يُثبِت استعماله ﷺ للقِناع، لكن لا يُثبِت ذلك دوامَه عليه، بل الذي ثَبَت دوامُه عليه أكثر واستِعمالُه له أتَمّ هو لبسُه العِمامة، فإذا لبس العِمامة ﷺ وغَطَّىٰ رأسه بها كان ذلك مُغنيًا عن استعمال القِناع.

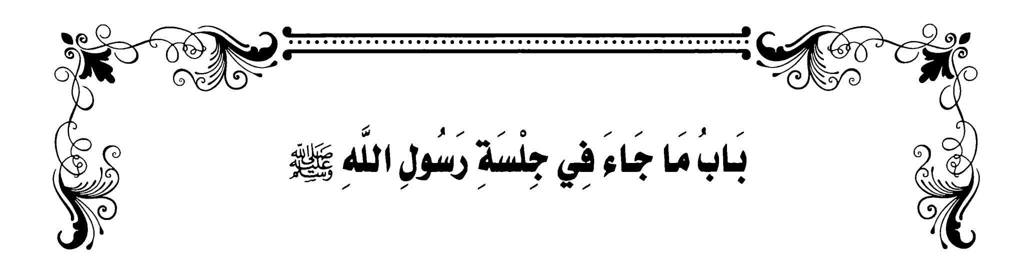
ولهذا قال ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ مُعَلِّقًا علىٰ حديث البُخاري: «فإنما فَعَلَه النبي ﷺ تِلك السَّاعة ليخْتفي بذلك، ففعله للحاجة، ولم تكن عادته التَّقَنُّع». والقِصة مَرويّةٌ في ابتداء أمر هِجرَته وإتيانه دار صديقه وصاحِب هِجرَتِه أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه، ثم قال: «وقد ذكر أنسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنه ﷺ أنه كان يُكثرُ القِناعَ، وهذا إنما كان يفعله ـ والله أعلم ـ للحاجة من الحرِّ ونحوه»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٠٧).

(٢) زاد المعاد (١/ ١٣٧).





بَابُ مَا جَاءَ فِي جِلْسَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(ضعيف) ١٠١ ـ عَن قَيْلَةَ بِنتِ مَخْرَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّهَا رَأَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي المَسْجِدِ وَهُوَ قَاعِدٌ القُرْفُصَاءَ، قَالَتْ: فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ المُتَخَشِّعَ فِي الجِلْسَةِ، فَأُرْعِدتُ مِنَ الفَرَقِ»(١).

شرح الحديث

هذا باب تُبَيَّن فيه أوصافُ جِلساتِه ﷺ.

قول قيلة بنت مخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَهُوَ قَاعِدٌ القُرْفُصَاءَ»؛ القُرفُصاء: أن يجلس الرجُلُ ناصبًا ساقيه، ويضمّ فخذيه إلىٰ بطنه، ثم يحيطهما بذراعيه ويَحتبي بهما، ويجلس علىٰ إليتيه. وهي جلسةٌ فيها تمكُّنٌ واستراحةٌ واسترخاءٌ.

هذه صفةٌ من إحدىٰ صفتين ذكرهما أهل العلم في تحديد وصف الجلسة القُرفُصاء، والوصفُ الآخر: أن يجلس الرجل جلسته في الصلاة، متّكئًا علىٰ ركبتيه، ثم ينكفئ عليهما ببطنه حتىٰ تلتصق بفخذيه، ويجعل كفَّيه تحت إبطيه. وهي جلسةٌ قد تكون من الإنسان في ساعة خلوةٍ مع ربّه وذكرٍ لله، فتَحينُ منه لحظةُ خشوعٍ فيُفضي بقلبه وقالبه إلىٰ الله، وينقطع عن الدنيا، ويشعر برغبةٍ في

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٤٧)، وضعَّفه الألباني لتفرُّد عبد الله بن حسان به، ولم يُوثَّق.

الانكباب بين يدي الله سبحانه وتعالىٰ، فيفعل ذلك، ولا يصل إلىٰ حدِّ السجود؛ ففي هذه الصفة الضمُّ والخشوعُ والإقبالُ التامُّ علىٰ ما هو مُقْبِلٌ عليه، والانقطاعُ عما حوله.

كلا الطريقتين يُقال لها: قُرفُصاء، والحديث يحتمل الوصفين، وإن كان الأشهرُ الأوّلَ.

قولها رَضِحَالِلَّهُعَنْهَا: «**فَأُرْعِدتُ مِنَ الفَرَقِ**»؛ يعني: نابني خوفٌ وهلعٌ وهيبةٌ مما رأيت في هيئته التي جلسها وعليه مظهر الخشوع، والهيبة والجلال، لم يُصبها الخوفُ بسبب أنها رأته مُدجَّجًا بالسلاح، أو أحاط به الجندُ لتخويفِ الناس، بل بما حباهُ الله من مهابةٍ وجلالةٍ.

***

(صحيح) ١٠٢ـ **عَنْ عَبَّادِ بْنِ تَمِيمٍ، عَنْ عَمِّهِ** رَضِحَالِلَّهُعَنْهُ: «**أَنَّهُ رَأَىٰ النَّبِيَّ ﷺ مُسْتَلْقِيًا فِي المَسْجِدِ، وَاضِعًا إِحْدَىٰ رِجْلَيْهِ عَلَىٰ الأُخْرَىٰ**»(١).



شرح الحديث

هذه صفةٌ أخرىٰ كان يجلسها نبينا ﷺ في المسجد، بعدما مَرَّ في الحديث السابق مِن جلسة القرفصاء.

(**عَنْ عَمِّهِ**): هو عبد الله بن زيد بن عاصم المازني رَضِحَالِلَّهُعَنْهُ، أحد الصحابة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٥)، ومسلم (٢١٠٠).

قول عبد الله بن زيد رضي الله عنه: «أَنَّهُ رَأَىٰ النَّبِيَّ ﷺ مُسْتَلْقِيًا فِي الْمَسْجِدِ»؛ الاستلقاء: البقاء علىٰ الظهر.

قوله رضي الله عنه: «وَاضِعًا إِحْدَىٰ رِجْلَيْهِ عَلَىٰ الأُخْرَىٰ»، وضع الرجلين علىٰ الأخرىٰ يحتمل وصفين:

الوصف الأول: أن تكون الرِّجلان ممدودتين علىٰ الأرض، ثم يضع إحدىٰ رجليه علىٰ الأخرىٰ.

الوصف الثاني: أن يستلقي علىٰ ظهره، ناصبًا ساقيه، ويرفع إحداهما علىٰ الأخرىٰ، وهي هيئة قد يفعلها بعضُ الناسِ خاصَّةً إذا لم يكن في حضرة من يُحتشَم في وجوده، كما لو كان بين أهله والمقرَّبين من خواصّه، ولكنه لا يفعلها في حضرة ضيفٍ أو مَن يحترمه، ويؤيّد هذا الوصف ما جاء في روايةٍ للحديث: **«رَافِعًا إِحْدَىٰ رِجْلَيْهِ عَلَىٰ الأُخْرَىٰ»**(١).

فالوصفان محتملان.

ولكن يُعارِضُ الوصف الثاني ما جاء في صحيح مسلم(٢) عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه: **«أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَىٰ عَنِ اشْتِمَالِ الصَّمَّاءِ، وَالِاحْتِبَاءِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَأَنْ يَرْفَعَ الرَّجُلُ إِحْدَىٰ رِجْلَيْهِ عَلَىٰ الأُخْرَىٰ وَهُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَىٰ ظَهْرِهِ»**.

وقد جمع العلماء بين الحديثين بأن قالوا: إنما يُحمَل النهي علىٰ ما إذا كان لا يُؤْمَن كشف العورة؛ لأنَّ العربَ كان مِن عادتهم لبس الإزار، وقد يلبسه

(١) أخرجها البخاري (٥٩٦٩).

(٢) صحيح مسلم (٢٠٩٩).

الرجل بلا سِروالٍ تحته، فتكون هذه الجلسة مظنة كشف العورة، فلهذا جاء النهي عن هذا الجلوس، وليس لعلةٍ في الجلسة نفسها، فإذا أُمِن كشف العورة بأن كان لابسًا سروالًا تحت الإزار، أو لابسًا شيئًا آخر مما لا تنكشف معه العورة في هذه الجلسة فلا بأس بهذه الجلسة.

وقد جاء في رواية البخاري(١): عَن سَعِيدِ بْنِ الـمُسَيِّبِ قَالَ: «كَانَ عُمَرُ وَعُثْمَانُ يَفْعَلانِ ذَلِكَ»؛ أي: ثبت عنهما هذا الوصف في الاستلقاء في المسجد.

وقد تبيّن من هذا الحديث: أنَّ الاستلقاء في المساجد ليس منافيًا للأدب، ولا خارمًا من خوارم المروءة، وكيف يكون ذلك وهو صاحب الخُلُق العظيم الذي قال فيه سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ولا فيه هتكٌ لحرمة المساجد؛ فلا يظننَّ ظانٌّ أنَّ بيوتَ الله تستوجب مِن الأدب والاحترام ما يمنع الاستلقاءَ والاتِّكاءَ، فهذا نبيُّنا ﷺ استلقىٰ في المسجد، واستلقىٰ أيضًا من صحابته الكبار عمر وعثمان وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين؛ فإنَّ هذا الاستلقاءَ قد يحتاجه الرجل إذا أطال المكث في المسجد.

ولكن ليس المقصود أن يُجْعَلَ المسجد مكانًا للاستلقاء والاستراحة، بحيث يجعل الناسُ غرضَهم الدائمَ مِن المسجد هو الإتيان للاستلقاء والاستراحة؛ فليس هذا المقصد من بناء المساجد، وإنما يقصد الإنسانُ من إتيانه المسجد العبادةَ والذكرَ والدعاءَ والصلاةَ، فإذا تعِب واحتاج للراحة فلا تثريب عليه بأن يجلسَ الجلسة المذكورة.

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٥).

ومع ذلك كله ينبغي مراعاة العُرفِ، فإنَّ العُرفَ معتبرٌ في أبواب المروءات، فلو استقرَّ عُرفُ الناس في بلدٍ أو في أُسْرةٍ أنَّه لا ينبغي بحضرة أبيك أن تمدَّ رجليك، ولا يَليق بحضرة أساتذتك ومشايخك أن تكون مستلقيًا أمام أعينهم، لو حصل مثل هذا وتقرَّر في العُرف فإنَّ مراعاته معتبرةٌ في أبواب المروءات.

ولكن إنْ صدرت من إنسانٍ سجيةً بعدم تكلُّف فإن هذا هو الأقرب إلىٰ هدي نبينا ﷺ.

وفي هذا الحديث: بيانٌ لهيئةٍ من هيئات جلوس النبي ﷺ.

وفيه أيضًا: بيانٌ لتواضع النبيّ ﷺ، فإنَّه أعظمُ إنسانٍ علىٰ وجه الأرض، ولم يمتنع من جلوسه علىٰ الأرض، في رفعٍ للتكلُّفِ مع أصحابه، وعدم العناية بالهيبة المصطَنعة، كما هو شأن النبي ﷺ في شأنه كلِّه: لباسه ومشيته وهيئته وكلامه، لم يكن يتكلَّف منها شيئًا بداعي إظهار المهابة الزائفة، وإنما كانت هيبته ﷺ بتقوىٰ الله والاستمساك بشريعته.

***

(صحيح) **١٠٣ـ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا جَلَسَ فِي المَسْجِدِ احْتَبَىٰ بِيَدَيْهِ».**



شرح الحديث

هذا وصفٌ ثالثٌ في جِلسات رسول الله ﷺ.

قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا جَلَسَ فِي المَسْجِدِ»،

الحديث عن جلوسه في المسجد، كما في الحديثين الماضيين كان عن جلوسه في المسجد، وذلك لأنَّ النبي ﷺ إذا كان في بيته ففي الغالب لا يراه الصحابة، ولكن كانت أكثر مخالطتهم له ومجالستهم إياه ودخولهم عليه في المسجد.

كما أنَّ هذا يُشْعِر بكثرة جلوسه ﷺ في المسجد، إذ لم يكن يُصَلِّي وينصرف مباشرةً إلىٰ بيته، فإنَّ وجودَه في المسجد لو كان مقتصرًا علىٰ أوقات الصلاة ما أبصره صحابتُه في سائر الأوقات، ولكن كان غالب وقته في المسجد، وهكذا القلب إذا تعلّق بالمسجد فإنه يجلس فيه أغلب وقته، فإذا جلس في المسجد أَنِسَ وانشرح صدرُه، وإذا خرج خرج مشتاقًا إلىٰ العودة إليه.

وهذا وصفُ أحدِ السبعة الذين قال عنهمﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ**»، وذكر منهم: «**ورَجُلٌ قَلْبُه مُعَلَّقٌ بالمساجد**»(١).

كثيرٌ من الناس مَن يفهم التعلُّق المذكور بالمساجد بأنه طول البقاء في المسجد، أو المحافظة علىٰ الصلوات الخمس، أو الجلوس بعد الفجر إلىٰ الإشراق، أو بعد العصر إلىٰ الغروب، أو حضور الدروس في المساجد، وكلُّ هذا صحيحٌ، ولكن له في الجملة معنىٰ بديعٌ عجيبٌ، وهو أن الرجل إذا خرج من المسجد خرج بلا قلب، يترك قلبه في المسجد ويخرج، فإذا خرج من المسجد وأتىٰ بيتَه وأهلَه وأولادَه جلس معهم بلا قلب، وقلبُه هناك في المسجد، فإذا جاء الوقتُ الذي يتعيّن عليه الذهاب إلىٰ المسجد فإنه والله لا يطيق جلوسًا

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

في البيت، ولا مُكثًا خارج المسجد، وإذا سمع الأذان ترك كلَّ شيء، وواللهِ إنك لتجد هذا الوصف في حياته ﷺ، تقول عائشة رضي الله عنها: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدِي كَانَ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ فَإِذَا نُودِي بِالصَّلَاةِ كَأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْنَا**»(١).

ولأجل ذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يجدون رسول الله ﷺ في المسجد دائمًا؛ يُقْرئهم قرآنًا، يعلِّمهم أدبًا، يخطب جمعةً، يؤمُّ بهم صلاةً، يقضي بين متخاصمين، حتىٰ الجيوش وقيادتها والمشاورة والاجتماع والمجالس العسكرية كانت في المسجد، بل يأمر أحيانًا بتطبيب المرضىٰ في المسجد كما صنع مع سعد بن معاذ رضي الله عنه وغيره.

ارتبطت حياته ﷺ بالمسجد ارتباطًا وثيقًا، ولا تعجب من ذلك، فإنه بنىٰ المسجد قبل أن يبحث عن بيتٍ يسكنه ﷺ، فإنه أوّل ما نزل المدينة ما اتخذ دارًا يسكنها، ولا بنىٰ حجرةً يأوي إليها ﷺ، بل كان بناء المسجد أسبق علىٰ بناء بيته ﷺ.

وهذا عكسُ ما يفعله بعضُ الناس؛ فإذا بقي قليلًا في المسجد انزعج، وتراه يلتفت إلىٰ الساعة، ويشير للمؤذّن أن أقِم الصلاة.

وواللهِ لو كان ضيفًا عند إنسانٍ كريمٍ يريد إكرامه، ويُعدُّ له الهدايا، ويقدِّم له الأموال؛ ما انزعج لبقائه وتأخُّره عنده؛ فكيف ينزعج مِن بقائه بين يدي الله سبحانه منتظرًا وقت الانصراف.

---

(١) حديث شعبة بن الحجاج لمحمد بن المظفر البغدادي (٨١).

وما أجمل ما قاله بعضُهم: إذا وقفتَ بين يدي ربّك في الصلاة، ثم أردتَ التعجُّل في الصلاة لأجل إتمام أمرٍ من أمور الدنيا، فتذكّر أنك واقفٌ بين يدي الله سبحانه، الذي بيده كلُّ شيء، المدبّر لأمرك الذي تستعجل لأجله منصرفًا من صلاتك!

وأعجبُ مِن ذلك أن تجد بعض طلبة العلم يجادلون في صلاة الجماعة وأنها ليست بواجبة؛ زهدًا في الحرص والمواظبة عليها، فأين يكون التعلُّق والأُنس بالمسجد إذا كان المسلم يصلي في بيته؟

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**احْتَبَىٰ بِيَدَيْهِ**»؛ الاحتِباءُ: أن يجلس الرجُل علىٰ أليتيه، وينصب ساقيه، ويضمَّ فخِذيه إلىٰ بطنه، ويضمهما بيديه.

وربما كان الاحتِباءُ باليدين، وربما كان بالثوب، والذي في الحديث أنه ﷺ كان يحتبي بيديه.

وفي هذا إشارةٌ إلىٰ **أمور**:

أوّلها: أنَّ الاحتِباءَ لا يحتاج إليه الجالسُ إلا إذا طال جلوسه، أما الجالسُ جلوسًا قصيرًا مؤقتًا فلا يحتاج إلىٰ الاحتباء، بل التربُّع يكفيه، أو أن يجلس كما في جلسة التشهُّد، ففي هذا إشارةٌ إلىٰ طول جلوسه ﷺ في المسجد.

الأمر الثاني: أنَّ الاحتباءَ يجد فيه الجالس ارتياحًا؛ لأنَّ الجالسَ إذا طال جلوسُه ربما آلمَه ظهرُه فيحتاج إلىٰ استرخاء، فيقوم الاحتباءُ مقام الاستلقاء،

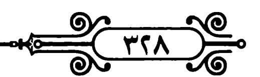
ولهذا كانت تقول العرب: «الاحتِباءُ حِيطانُ العرب»[١]، يعني: إذا احتبيتَ فكأنما أسْندتَّ ظهرك إلىٰ حائطٍ.

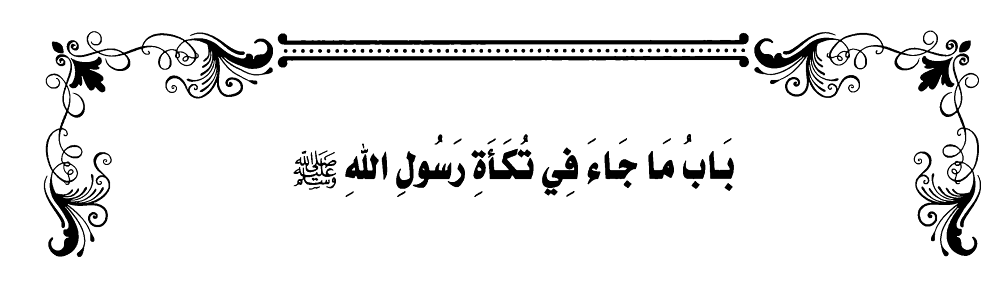
والمقصود أنَّ المسلمَ إذا جلس في المسجد جلوسًا طويلًا لذكر الله، أو لقراءة القرآن، أو للدعاء؛ فإنَّ الاحتباءَ يُعينه علىٰ البقاء مدّةً أطول، فإنَّ ضعفَ البدن لا ينبغي أن يكون سببًا للانقطاع عن الأُنس بالربِّ، وعلىٰ المسلم أن يستعينَ بما يستطيع لإطالة مدّة عبادته والتلذّذ بمناجاة ربّه، ومِن ذلك الاحتِباءُ.

وكلُّ ما كان في هذا المعنىٰ فعلىٰ المسلم أن يفعله؛ من إسنادِ ظهرٍ إلىٰ حائط، أو استلقاءٍ لبعض الوقت قبل المعاودة للجلوس، ولا يوسوس له الشيطان بأنَّه قد تعب ويحثَّه علىٰ الانصراف، بل اجتهِد في العبادة، وأقبِل عليها خاصَّةً مع انشراح الصدر، وقد قال الأوَّلون:

إذا هبَّت رياحك فاغتنمها ... فإنَّ لكلِّ خافقةٍ سكونُ[٢].

** ** **





بَابُ مَا جَاءَ فِي تُكَأَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

الاتِّكاءُ: المَيلُ علىٰ أحد جانِبَي الإنسان، معتمدًا إما علىٰ وِسادةٍ، أو أرِيكةٍ، أو علىٰ ذراعه.

ويريد المصنِّفُ رحمه الله في هذا الباب إيرادَ الروايات التي تثبت أنَّ الاتِّكاءَ كان مِن هدي نبينا ﷺ.

وقد عُقِدَ هذا الباب لثلاثة أمورٍ عظيمةٍ:

الأمر الأوّل: إثبات بشرية المصطفىٰ ﷺ، فقد كان النبيُّ ﷺ بشرًا رسولًا، يعيش ما يعيشه الناس في حياتهم، ويَعرِضُ له ما يَعْرِضُ للبشر، وهذا مِن أعظم البواعث علىٰ الاقتداء بالنبي ﷺ، فإنَّ الله لو أرسله مَلَكًا لكانت أحوالُه الكاملةُ بيننا وبينها حجاب، ولقال الناس: هُوَ مَلَكٌ لا سبيل لنا إلىٰ التشبُّه والاقتداء به. ولكن لما كان بشرًا كان باب الاقتداء بأفعاله بابًا مفتوحًا إلىٰ يوم القيامة.

الأمر الثاني: هو بيان ما كان عليه النبي ﷺ من جمعه بين المكانة العظيمة والمنزلة الرفيعة التي بوّأه الله إياها، وبين التواضع والرفق ولين الجانب؛ حيث إنَّ اتكاءَ النبي ﷺ في المجالس بين يدي صحابته ـ وهو النبيُّ الإمامُ القائدُ ـ فيه إشارةٌ إلىٰ رفع الكُلفة بينهم، وعدم تحرِّي هيئاتٍ معيّنة في مجالستهم، أو تحمُّلِ أمورٍ رسميةٍ مرتّبةٍ، بل كان يعيش بينهم وفق طبيعته وسجيّته دون كلفة، وهذا الجانب جعل الصحابة أكثر قربًا منه قلبًا وبدنًا.

الأمر الثالث: أنَّ الصحابةَ نقلوا هذا الفعل عن النبي ﷺ، وليس فيه مسألةٌ عقديةٌ أو حكمٌ فقهيٌ، وليس في الأحاديث أمرٌ نأتمر به أو نهيٌ ننتهي عنه، ولكنه حرصُ الصحابة رضي الله عنهم علىٰ نقلِ صورةٍ رأوها في حياة النبيّ ﷺ، فأحبُّوا نقلها للأجيال المحمَّدية ليكون القارئُ لسيرته وشمائله كأنه يبصر فيها نبيّنا ﷺ، وكأنه يعيش ما عاشوه رضي الله عنهم.

***

(صحيح) ١٠٤ـ عَن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنهما قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُتَّكِئًا عَلَىٰ وِسَادَةٍ عَلَىٰ يَسَارِهِ»(١).



شرح الحديث

قول جابر بن سمرة رضي الله عنهما: **«رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُتَّكِئًا عَلَىٰ وِسَادَةٍ»**: هذا لونٌ مِن ألوان الاتّكاء، حيث كانت الوسادة مُتّكأَه، أي: جعلها شيئًا يتّكئُ عليه.

فأفاد هذا القولُ: الاتّكاءَ من النبي ﷺ، وأنه كان يتّكئ علىٰ وسادة.

والاتّكاءُ من عادات الناس في مجالسهم الخاصّة والعامّة، ولهم أعرافٌ في ذلك.

قوله رضي الله عنه: **«عَلَىٰ يَسَارِهِ»**؛ أي: جعل الوِسادة علىٰ يساره، ثم اتّكأ عليها ﷺ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٧٠).

والأمرُ في الاتِّكاء واسعٌ؛ فيجوز الاتكاء ذات اليمين، أو ذات الشمال، والاتِّكاءُ علىٰ وسادةٍ أو علىٰ غيرها.

وفي أصل كتاب الإمام الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ عقَّب آخر الباب بروايةٍ أخرىٰ من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ مُتَّكِئًا عَلَىٰ وِسَادَةٍ**»(١)، ولم يذكر أنَّ الاتِّكاءَ كان علىٰ الجهة اليُسرىٰ، والروايتان تُحملان علىٰ أنَّ تحديدَ الجهة في باب الاتِّكاء الأمرُ فيه واسعٌ.

***

(صحيح) **١٠٥ـ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا أُحَدِّثُكُم بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟»، قَالُوا: بَلَىٰ، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ»، قَالَ: وَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَانَ مُتَّكِئًا، قَالَ: «وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَوْ قَوْلُ الزُّورِ»، قَالَ: فَمَا زَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُهَا حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ**(٢).

شرح الحديث

هذا الحديث أحد الأحاديث المشهورة التي تُذكر فيها الكبائر في الإسلام.

قوله ﷺ: «**أَلَا أُحَدِّثُكُم بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟**»، الكبائر: الأمور العظيمة التي يستوجب فاعلُها لعنةَ الله، أو الطردَ من رحمته، وهي الأمورُ الموبِقاتُ التي تُفسد علىٰ العبد دِينَه، أو تُحبط له عمله، أو تُوجب له النار والعياذ بالله.

(١) الشمائل المحمدية (ص٩٢، رقم: ١٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

قوله ﷺ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ»، الشركُ بالله هو أعظمُ الكبائر ورأسُها علىٰ الإطلاق، وثنَّىٰ بعقوق الوالدين وهو من أعظم الكبائر، وكثيرًا ما يقترن بالشرك بالله، كما يقترن برُّ الوالدين بتوحيد الله، فبِرُّ الوالدين من أعظم حقوق الخلق، كما أنَّ أعظمَ حقوق الخالق هو توحيدُه جلَّ جلاله.

قول أبي بكرة ﷺ: «وَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَانَ مُتَّكِئًا»، هذا أمرٌ مُلْفِتٌ للنظر، دعا الصحابة ﷺ إلىٰ نقله، حيث أراد النبي ﷺ أن يُعَدِّد عليهم ثلاثًا من الكبائر، فذكر اثنتين وهما ـ كما علِمت ـ من العَظَمة في الإسلام بمكانٍ، وقبل أن يذكر الثالثة غَيَّر ﷺ جلسته بطريقة مُلفتة لأنظار الصحابة، وبرسالةٍ واضحةٍ منه يشير بها دون تعبير إلىٰ أهمية ما سيقول، مما جعل الصحابة ﷺ يهتمّون بما سيقوله ويُصْغُون له السمع، ويعلمون أنَّ الجملة الآتية عظيمةٌ شديدةٌ في حقِّ المسلم، وعليه أن يحذَرَها ويبالغَ في الابتعاد والنَّأْي عنها.

وقد ذكر العلماء فائدةً من هذا الحديث متعلِّقةً بأدب التعليم وفِقهه: أنَّه لا بأس أن يكون العالِم متَّكِئًا حال تعليمه.

وهذا هو موضع الشاهد من الحديث؛ حيث إنَّ النبي ﷺ كان متكئًا بين أصحابه؛ فكان يتَّكئُ وهو وحده، ويتَّكئ وهو مع أصحابه يحدِّثهم ويعلِّمهم.

ولم يكن اتِّكاؤه ﷺ اتِّكاءَ تكبُّرٍ وعُلُوٍّ وترفُّعٍ علىٰ الحاضرين وازدراءٍ بهم كاتِّكاء الجبابرة المحتقِرين لجلسائهم، بل هو اتِّكاءُ التواضع والتقرُّب وتقليلِ الكُلفة بينه وبين أصحابه.

وكما سبق فإنَّ عَظَمةَ الإنسان ليست في لباسه، أو طيبه، أو طريقة جلوسه، وما إلىٰ ذلك، بل العَظَمة الحقيقية هي الحاصلة بما تمتلئ به قلوب الناظرين إلىٰ الإنسان، وقد كان ﷺ أوفر الناس عَظَمةً بهذا المعنىٰ الكبير.

وليس معنىٰ هذا أنَّ الإنسانَ لا يتكلَّفُ أحيانًا لغيره، بل إنَّ الرجلَ تقلُّ كُلفتُه إذا كان وحده أو بين أسرته أو أصدقائه المقرّبين، وقد يتكلَّفُ قليلًا لغير هؤلاء بحسب ما تقتضيه الأعرافُ والعاداتُ، ولكن النبي ﷺ يعلمنا أنَّ عَظَمةَ الإنسان ليست في تلك اللواحق الزائفة المنفكَّة عن جوهر الإنسان وقلبه، بل العَظَمة بما يحمله الإنسان في داخله من المبادئ والقِيَم والأخلاق.

قوله ﷺ: «وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَوْ قَوْلُ الزُّورِ»؛ الزُّورُ: الكذبُ والتدليسُ، وإخفاءُ الحقائق.

وشهادةُ الزُّور: قولُ غير الحق.

وقولُ الزُّور: يشمل قولَ الباطلِ، واللغوَ، والكذبَ، والغيبةَ، والنميمةَ، والغناءَ، وسائرُ ما حرم الله من الكلام داخلٌ في الزُّور، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

قول أبي بكرة رضي الله عنه: «فَمَا زَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُهَا حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ»، أشار ﷺ إلىٰ أهمية الابتعاد عن قول الزور وشهادة الزور بتعديل جلسته، وزاد عليه كذلك صفةً أخرىٰ تزيد من أهمية التحذير من قول الزور، وهو تكرار ذلك علىٰ أسماع الصحابة، في مزيد تنبيهٍ منه لصحابته ولأمَّته من بعدهم علىٰ عِظَم هذه الجناية وكبير تأثيرها علىٰ عبادة المسلم وحياته.

والتكرارُ هنا لم يكن مرّةً أو مرّتين، بل حتىٰ تمنّىٰ الصحابة أن يسكت ﷺ، إشارةً إلىٰ كثرة تكراره ﷺ هذه الجملة.

وإنما تمنَّىٰ الصحابة رضي الله عنهم سكوتَه ﷺ إشفاقًا منهم عليه؛ لما رأوه من ملامح الغضب والانزعاج، فحرصوا أن يسكتَ حتىٰ تهدأ نفسُه وتطيب، فإنهم إنما يستمتعون بمجالسته ﷺ إذا كانت حاله هكذا.

***

(صحيح) ١٠٦ـ **عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا أَنَا فَلَا آكُلُ مُتَّكِئًا»**(١).

شرح الحديث

هذا الحديث أخرجه البخاري وغيرُه من أصحاب السنن.

وفيه نفيُ النبي ﷺ عن نفسه الاتِّكاء حال الأكل، وهذا تقييدٌ للحديثين السابقين؛ فإنَّ المقصودَ أنَّ النبي ﷺ كان يتَّكِئ لكن في غير حال الأكل.

وفي بعض الروايات: **كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَأْكُلُ مُتَّكِئًا، يَقُولُ: «آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ»**(٢)، إشارة منه ﷺ إلىٰ أنَّ الأكل حالةٌ لا يسوغ فيها ولا يليق بالمسلم عبدِ الله أن يكون متَّكئًا؛ لأنَّ الاتِّكاءَ حالَ الأكل من التكبُّر المنافي

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٩٨)، والترمذي (١٨٣٠)، وأبو داود (٣٧٦٩)، وابن ماجه (٣٢٦٢).

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (٤٩٢٠).

للذُّلِّ الملازم لمقام العبودية.

والاتِّكاءُ حال الأكل يقول فيه ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد فُسِّر الاتِّكاءُ بالتربُّع، وفُسِّر بالاتِّكاء علىٰ الشيء وهو الاعتمادُ عليه، وفُسِّر بالاتِّكاء علىٰ الجنب. والأنواع الثلاثة من الاتِّكاء؛ فنوعٌ منها يضرُّ بالآكِل وهو الاتِّكاءُ علىٰ الجنب؛ فإنَّه يمنع مجرىٰ الطعام الطبيعي عن هيئته، ويَعُوقُه عن سُرعة نفوذه إلىٰ المعدة، ويضغط المعدة فلا يستحكم فتحها للغذاء، وأيضًا فإنها تَميلُ ولا تبقىٰ منتصبةً فلا يصل الغذاء إليها بسهولة. وأمَّا النوعان الآخران فمِن جلوس الجبابرة المنافي للعبودية»(١).

والتربُّع: جلسةٌ معروفةٌ.

والاتِّكاءُ علىٰ الشيء: أن يجعل الإنسان تحته وسادةً أو كرسيًا أو يجلس إلىٰ جوار جدار ويتكئ عليه.

والاتِّكاء علىٰ الجنب: إما أن يستلقيَ الإنسان علىٰ جانبه فيتَّكِئ بتمام أحد جانبي بدنه علىٰ الأرض، وإما أن يتكئ علىٰ ذراعِه أو عضُده، أو نحو ذلك.

فحاوِل أن تبتعد عن الاتِّكاء ولو كنتَ تأكل شيئًا يسيرًا، أو تمضغ لقمةً، أو نحو ذلك.

ويُستثنَىٰ من ذلك: ما دعت إليه الحاجة؛ كأن يكون الآكِل مريضًا، كمريض البواسير، أو مَن به كسرٌ أو جرحٌ، أو كان مستلقيًا علىٰ سرير في المشفىٰ ولا يسمح حالُه بالجلوس، فلا بأس أن يأكل علىٰ الحال التي هو عليها.

---

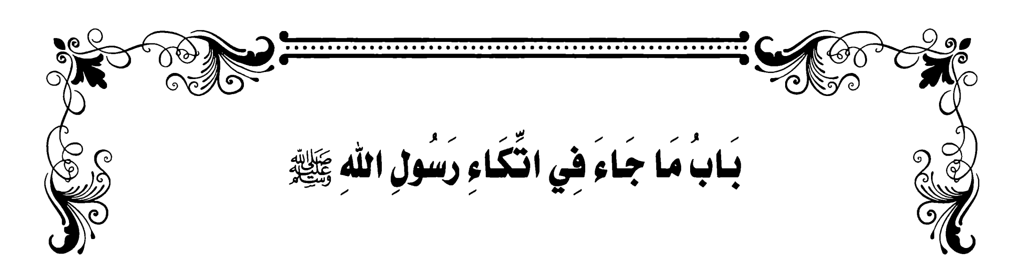
(١) زاد المعاد (٤/ ٢٠٢).

وليس المقصود هنا بيان صفة جلسة النبي ﷺ حال الأكل، فذاك بابٌ آخر.

*** لفتة إيمانية:**

في الحديث إشارةٌ من النبي ﷺ لأمته أنَّه ليس الغرض من تناول الطعام، الإقبال عليه، والاستكثار منه، والإفراط فيه، بل الأمر عكس ذلك؛ لأنَّ جلوس المسلم علىٰ الطعام لا ينبغي أن يكون جلسةً طويلةً ممتدة، بل إنَّ في حياته ما هو أهمُّ من هذا.

**　**　**



بَابُ مَا جَاءَ فِي اتِّكَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

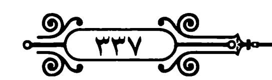
كان الباب السابق في التُّكأة، والمقصود به اتّكاؤه علىٰ شيءٍ إذا كان جالسًا، وأمَّا هذا الباب ففي الاتِّكاء، والمقصود به أنه كان يمشي متّكئًا إذا احتاج إلىٰ الاتِّكاء في مشيته؛ فالباب السابق كان الحديث فيه عن الاتِّكاء جالسًا، والحديث في هذا الباب عن الاتِّكاء ماشيًا.

والاتِّكاءُ مِن الناس قد يكون علىٰ كتفِ آخرَ أو منكبه، أو علىٰ عصا، أو أن يضع يديه علىٰ عاتِقَي رجُلين أحدهما عن يمينه والآخَرُ عن يساره، وهذا أبلغ ما يكون في صور الاتِّكاء، وذلك لا يكون إلا عندما يبلغ الضعف بالرجُل أشدَّ حالاته فلا يقوىٰ علىٰ القيام، فيكون وزنُ جسمِه محمولًا علىٰ الأكتاف أكثر من حملها علىٰ قدميه.

(ضعيف) ١٠٧ـ **عَنِ الفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِ عِصَابَةٌ صَفْرَاءُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «يَا فَضْلُ»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «اشْدُدْ بِهَذِهِ العِصَابَةِ رَأْسِي»، قَالَ: فَفَعَلْتُ، ثُمَّ قَعَدَ، فَوَضَعَ كَفَّهُ عَلَىٰ مَنْكِبِي، ثُمَّ قَامَ فَدَخَلَ فِي المَسْجِدِ. وَفِي الحَدِيثِ قِصَّةٌ**[١].

---

(١) أخرج قريبًا منه الطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٢٨١)، وضعَّفه الألباني لحال راويه عطاء بن مسلم الخفاف، فهو صدوقٌ يُخطئ كثيرًا.





شرح الحديث

قول الفضل بن عباس رضي الله عنهما: «فَوَضَعَ كَفَّهُ عَلَىٰ مَنكِبِي، ثُمَّ قَامَ فَدَخَلَ فِي المَسْجِدِ»: هذا موضع الشاهد من الحديث، فإنَّ وضعَه ﷺ كفه علىٰ منكب الفضل يريد به الاتِّكاء والاعتماد عليه؛ لأنَّه كان مريضًا.

الحديث ضعيفٌ سندًا، ولكن صحَّ في الاتِّكاءِ حديثٌ آخر، أورده الإمام الترمذي رحمه الله في أصل الكتاب، واختصره الشيخ الألباني في هذا المختصر الذي بين أيدينا، وهو أصحُّ سندًا مِن حديث الفضل هذا، وهو حديث أنسٍ رضي الله عنه المتقدّم سابقًا برقم (٤٩) في باب ما جاء في لباس رسول الله ﷺ: **«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ شَاكِيًا، فَخَرَجَ وَهُوَ يَتَّكِئُ عَلَىٰ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، عَلَيْهِ ثَوْبٌ قِطْرِيٌّ قَد تَوَشَّحَ بِهِ، فَصَلَّىٰ بِهِمْ»**(١).

ففي هذا الحديث شاهدٌ لهذا الباب الذي نحن فيه، وهو أنه خرج متكئًا علىٰ أسامة بن زيد رضي الله عنه، والحال أنه كان شاكيًا، فثبت أنَّ الاتِّكاء علىٰ بعض أصحابه حال المشي كان مِن هدي النبي ﷺ.

وفي هذين الحديثين: أنَّ النبي ﷺ ما فعل ذلك ﷺ إلا لحاجةٍ، وهي مرضُه وشكايتُه ﷺ، التي ربما ما كان يَقوَىٰ معها علىٰ الاستقلال بالمشي علىٰ قدميه، فاستعان علىٰ ذلك بالاتِّكاء علىٰ بعض أصحابه. ولم يثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه اتخذ الاتكاء هديًا معتادًا يفعله كلما خرج ومشىٰ بين الناس، وإنما هي مرّاتٌ معدودةٌ حال الشكاية والمرض.

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٧٦١).

وفي هذين الحديثين لفتةٌ لطيفةٌ: وهو أنَّه ﷺ كان يمكنه أن يتَّكئ علىٰ عصا أو نحو ذلك، ولكنَّه فضَّل الاعتماد علىٰ أصحابه لِمَا في ذلك من الدلالة علىٰ اللطف والحميمية والدفء في التعامل الذي كان يشعر به الصحابة ﷺ، بالإضافة إلىٰ حصول ما كانوا يُحبّونه وهو لمسُ أجسادهم لجسد رسول الله ﷺ، والمشيُ إلىٰ جواره.

فأيُّ شعورٍ غَمَرَ الصحابة ﷺ الذين فازوا بهذا الفضل! وأيُّ معنًىٰ وجدوه في أنفسهم لِما حازوه من هذا السبق! هذا مما لا يمكن أن يُعَبَّر عنه بالألفاظ، ولا يمكن أن ينقلوه لنا بالكلمات، ولكنْ تخيَّل نفسَك مكانهم حتىٰ تشعر بما شعروا به.

مِن أجل مثل هذه اللفتات الكريمة من نبيّنا الكريم ﷺ أحبَّه الصحابة حبًّا عظيمًا؛ حيث وجدوه كريمًا رءوفًا رحيمًا حبيبًا ودودًا، حتَّىٰ إنهم ليفدونه بأرواحهم وبما ملكوا.

** ** **




بَابُ مَا جَاءَ فِي عَيْشِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

تكرَّرت هذه الترجمة في أصل كتاب الشمائل للإمام الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ مرّتين؛ مرَّةً في الباب التاسع، ومرَّةً في الباب الثاني والخمسين، وكان في الباب التاسع حديثان فقط وهما حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورواية مالك بن دينارٍ، والباب الثاني والخمسون أورد فيه الإمام بقيّة أحاديث الباب، ثم جاء المختصِرُ الشيخُ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ فدمج البابين في بابٍ واحدٍ، ثم رتَّبه في مكانٍ آخر فهو الباب الثالث والعشرون في اختصاره.

وقد اشترط الشيخ الألباني في اختصاره أنه ربما استعان بشيءٍ من ترتيب الأبواب، وهذا مثالٌ له.

فهذا البابُ هنا في هذا الاختصار يُعَدُّ فاتحةً للأبواب القادمة؛ في طعامه وشرابه ﷺ ونحو ذلك مما هو تفصيلٌ لعَيْشه ﷺ.

وهذا أحد الأبواب الكبيرة مقارنةً بأبواب الكتاب الأخرىٰ، ففيه عددٌ ليس باليسير من الأحاديث والروايات.

وقد حرص الإمامُ الترمذيُّ في هذا الباب علىٰ نقل شيءٍ مما يتّصل بصفة عَيشه ﷺ، والمراد بالعَيش ههنا: ما كان قِوامَ حياته مِن مطعمٍ ومشربٍ، وما كان يستعين به ﷺ علىٰ قضاء هذه الحياة التي عاش فيها ثلاثًا وستين سنة؛ فإنَّ

عَيشَه كان يشمل جوانبَ عظيمةً متعدّدةً، كلُّ جانبٍ منها حريٌّ بالوقوف والتأمُّل وإمعان النظر فيه.

وإنَّما يستحقُّ هذا الباب أن يُتأمَّل فيه؛ لأنَّ عيشَ النبي ﷺ لم يكن دائمًا علىٰ حالٍ واحدة؛ بل بعض أيامه كان فيها سَعةٌ، وبعضُها فيه شيءٌ من ضيق العيش، بل أكثر أحواله كذلك، وقد دارت حياتُه بين الرّخاء والشدّة، والحرب والسلم، والبرد والحرّ، والصيف والشتاء، والحضر والسفر، تارةً يكون وحده، وتارةً يكون مع أهله، وتارةً يكون مع أصحابه.

*** لفتة إيمانية:**

هذا الباب يستحقُّ مِنَّا أن نتأمله أدقَّ تأمُّلٍ وأوفاه، فإنَّه يُحقِّق لنا شعارًا كبيرًا طالما رفعناه وادَّعَيْنَاه ودعونا الله أن يرزقنا إيَّاه، وهو الاقتداء بالنبي ﷺ في كل أمور حياته.

فدونك هذا الباب؛ فبه تقتدي في منامك واستيقاظك، في دخولك وخروجك، في معاملتك لأهلك وأصحابك، في قيامك وجلوسك، في مشيك وضحكك، في طعامك وشرابك، بل في كل شيء.

هذا بابٌ كبيرٌ، فيه الكثير من الأحاديث والروايات، وحقُّه أن نُقلّب صفحاته روايةً بعد رواية، فما مِن روايةٍ إلا وهي أعجبُ من أختها!

هذا البابُ بابٌ مهمٌّ يحتاجه كلُّ مسلم؛ لأنه يكشف ستارًا طالما ظلَّ يُغْشِي أبصارَ كثيرٍ من أتباعه في أُمّته ﷺ، وهو حقيقةُ هذه الحياة، وكيف أنَّ النبي ﷺ قد فُتِحَت له أبوابُ الدنيا فآثر القِلَّةَ وضِيقَ العيش، والتقلُّل من الطعام والشراب!

وكيف تربَّع علىٰ عرش العَظَمة البشرية من ناحية الهداية والأفكار وقيادة المجتمعات، بينما بقيت حياتُه حياةً متواضعةً يغلب فيها الفقرُ علىٰ الغِنىٰ.

بهذا الباب يتبيَّن كيف أنَّ النبي ﷺ زَهِد في هذه الدنيا، ورغِب عنها وأعرض، ولم يلتفِت إليها قطُّ في لحظةٍ من حياته، فما هي إلا جسرٌ وممرٌّ ومعبرٌ للآخرة، وفي هذا إشارةٌ للأمةِ بأنَّه ليس من الحصافة والعقل ورجاحة الرأيِ أن ينشغل الإنسان بالجسرِ عمَّا يعبر إليه، ولا بالممرِّ عمَّا ينتهي إليه.

انظر إلىٰ حياته: أيُّ بيتٍ بناه وسكن فيه؟ ما هي إلا حجراتٌ من لبِناتٍ مِن طين.

أيُّ فراشٍ كان ينام عليه؟ أهي الأسِرَّةُ المرتفعة والوسائد الفاخرة واللحُفُ التي إذا تغطَّىٰ بها صاحبُها ذهب في سباتٍ عميقٍ؟ لا والله، ما كانت إلا أُدُمًا حَشْوُها اللِّيفُ، وربما نام علىٰ حصيرٍ فأَثَّرَ في جنبه ﷺ.

أيُّ لباسٍ كان يلبسه؟ كان يلبس كساءً وإزارًا مُلَبَّدَين غليظَين.

وعندما تُوُفِّي ماذا ترك من خلفه؟ لم يترك لباسًا ولا مسكنًا ولا فِراشًا ولا طعامًا.

فافتح عينيك في هذا الباب لتتأمَّل كيف كانت سيرته، وكيف كان عيشه وحياته ﷺ، واستلْهِم منها تلك المعاني العظيمة.

***

(صحيح) ١٠٨ـ عَنْ محمدِ بن سيرين قال: «كنَّا عِنْدَ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَشَّقَانِ مِنْ كَتَّانٍ، فَتَمَخَّطَ فِي أحدهما، فَقَالَ: «بَخٍ بَخٍ، يَتَمَخَّطُ أَبُو هُرَيْرَةَ فِي الكَتَّانِ! لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَأَخِرُّ فِيمَا بَيْنَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وحُجْرَةِ عَائِشَةَ رضي الله عنها مَغْشِيًّا عَلَيَّ، فَيَجِيءُ الجَائِي، فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَىٰ عُنُقِي؛ يَرَىٰ أَنَّ بِي جُنُونًا، وَمَا بِي مِن جُنُونٍ، وَمَا هُوَ إِلَّا الجُوعُ»[1].

قول ابن سيرين: «كُنَّا عِندَ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَشَّقَانِ مِن كَتَّانٍ»، مُمَشَّقان: مصبوغان مُخَطَّطان بألوانٍ مِن حمرةٍ وغيرها؛ فهما مُنَمَّقَان مزخرفان.

والكَتَّان: نوعٌ مِن رفيع القماش ناعمُ الملمس، فلم يكن ثوبُه من الصُّوف الذي هو أدنىٰ درجةً من الكتّان وأخشنُ ملمَسًا.

كما أنَّه كان عليه ثوبان لا ثوبٌ واحدٌ، والمقصود بكلِّ هذا أنَّ أبا هريرة رضي الله عنه كان يرتدي لباسًا فاخرًا يدلُّ علىٰ الغِنىٰ والسَّعَة.

وكان هذا بعدما تولىٰ أبو هريرة رضي الله عنه إمرة المدينة في خلافة بني أميّة، فإنَّ حالة الفقر كانت أيام زمن النبي ﷺ، ثم عاش بعد رسول الله ﷺ وبعد الخلفاء الراشدين زمنًا لقي فيه سعةً من العيش.

قوله: «فَتَمَخَّطَ فِي إِحْدَاهُمَا»، كانت هذه عادة العرب إذا احتاج إلىٰ تنظيف أنفه، فإنه ينظفه ويمسحه بطرف ثوبه، ولم يكن حمل المناديل ولا الخِرَق شيئًا متبعًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٢٤).

قول أبي هريرة رضي الله عنه: «**بَخٍ بَخٍ**»: كلمة تقال عند التعجب.

قوله رضي الله عنه: «**يَتَمَخَّطُ أَبُو هُرَيْرَةَ فِي الكَتَّانِ!**»، يتعجب أبو هريرة من الحال التي بلغها! حتىٰ إنه ليتمخط في الكتان وهو قماش فاخر.

قوله رضي الله عنه: «**لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَأَخِرُّ ...**»، يَصِفُ أبو هريرة موقفًا وحالةً عاشها رضي الله عنه في زمن النبي ﷺ، أراد بها أن يحكي للناس الأحوال التي كانت في زمن النبي ﷺ، والتي لم يُدْرِكُوها؛ فإنَّ أكثرهم لم يدركوا إلا حالة الرخاء وسعة العيش التي أصابت المسلمين فيما بعد.

فقد كان أبو هريرة رجلًا من فقراء الصحابة، يسكن المسجد حيث يجلس أصحاب الصُّفَّة، وهم فقراء الصحابة الذين لا يجدون مسكنًا يؤويهم، ولا طعامًا يشبعهم، وليس لأحدهم زوجة، وقد كانت الصُّفَّة في مؤخرة المسجد النبوي، وإنما يتعيش أصحابُ الصُّفَّةِ ما يتصدق به الناس عليهم وبما يبعث به إليهم ﷺ، وينامون في المسجد، حتىٰ يكتب الله لأحدِهم زوجةً أو بيتًا أو عملًا فينتقل من الصُّفَّةِ إلىٰ بيتٍ خاصٍّ به، وكانوا يَقِلُّون أحيانًا فلا يكادون يصلون أصابع اليد الواحدة، ويكثرون أحيانًا فيكونون بالعشرات.

وكان أبو هريرة عريف أصحاب الصُّفَّة والمسؤول عنهم، فهو يصفُ ما كان يمرُّ به وما يمرُّ بأصحابه من أهل الصُّفَّة.

وأبو هريرة أسلم في السنة السابعة من الهجرة؛ فهو يحكي موقفًا حصل في آخر حياة النبي ﷺ، مما يدلُّك علىٰ أنَّ النبي ﷺ تُوُفِّي ولم تكن الدنيا قد فُتِحَت وَوُسِّعَت عليهم.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَأَخِرُّ فِيمَا بَيْنَ مِنبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَحُجْرَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَغْشِيًّا عَلَيَّ»، بين المنبر والحجرة خطوات، ومع ذلك إذا أراد أن ينتقل بينهما فإنَّ الجوع ينهكه فيسقط مغشيًّا عليه، أي: مغمًى عليه.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَيَجِيءُ الجَائِي، فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَىٰ عُنُقِي؛ يَرَىٰ أَنَّ بِي جُنُونًا، وَمَا بِي مِن جُنُونٍ، وَمَا هُوَ إِلَّا الجُوعُ»، يتحدَّثُ عن أيَّامٍ خَلَتْ، كان يسقط مغمًى عليه من شدة الجوع، ولا يجد ما يأكله.

مناسبة الحديث للباب: الحديث يصِفُ عيش أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فما علاقة ذلك بعيش رسول الله ﷺ؟.

والجواب: أنَّ أبا هريرة كان يحكي شدة الحال التي كان يعانيها هو وأهل الصفة، وفي ذلك دليلٌ علىٰ أنَّه ﷺ لم يكن يجد سعةً في العيش ووفرةً في الطعام، وإلا لكان أرسل من فضلِ طعامه لأهل الصفة.

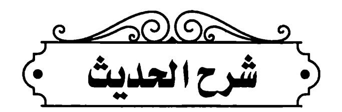
***

(صحيح) **١٠٩ـ عَن مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: «مَا شَبِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ خُبْزٍ قَطُّ وَلَا لَحْمٍ إِلَّا عَلَىٰ ضَفَفٍ»(١)، قَالَ مَالِكٌ: سَأَلْتُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ البَادِيَةِ: مَا الضَّفَفُ؟ قَالَ: أَن يَتَنَاوَلَ مَعَ النَّاسِ(٢).**

---

(١) سيأتي برقم (١١٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) السلسلة الصحيحة (١٩٧٧).



شرح الحديث

مالك بن دينار تابعي، فحديثه مرسل، وسيأتي مسندًا مِن حديث أنس رضي الله عنه.

ومعنىٰ الحديث: أنه لم يكن ﷺ يشبع من الخبز ولا من اللحم إلا أن يكون عنده أضيافٌ من الناس، فيوضع طعامٌ إكرامًا للضيوف، فيتناول الطعام معهم، فيجد في مثل ذلك المجلس من الطعام ما يمكن أن يشبع به ﷺ.

أيوجد أكثر مِن ذلك! أفقر رجلٍ اليوم ألا يشبع من الخبز؟ ومع ذلك فإنَّ نبينا ﷺ ما كان يشبع من الخبز.

فهذه حالة نبينا ﷺ ما كانت مائدته تمتلئ بأنواع الفواكه وأطايب الطعام والشواء، بل هو أقلُّ درجات القوت إن وجد.

ومِن الشواهد التي تدلُّ علىٰ ضيق حياة النبي ﷺ وقِلَّة عيشته حديث ثوبان الذي صححه الألباني[١]؛ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ رُوَيْمٍ أَنَّهُ ذُكِرَ لَهُ أَنَّ ثَوْبَانَ مَوْلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: نَزَلَ بِنَا ضَيْفٌ بَدَوِيٌّ، فَجَلَسَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمَامَ بُيُوتِهِ، فَجَعَلَ يَسْأَلُهُ عَنِ النَّاسِ: كَيْفَ فَرَحُهُم بِالإِسْلَامِ، وَكَيْفَ حُزْنُهُم فِي الصَّلَاةِ؟ فَمَا زَالَ يُخْبِرُهُ مِن ذَلِكَ بِالَّذِي يَسُرُّهُ، حَتَّىٰ رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ نَضِرًا، حَتَّىٰ إِذَا انتَفَخَ النَّهَارُ وَحَانَ أَكْلُ الطَّعَامِ أَن يُؤْكَلَ دَعَانِي، فَأَشَارَ إِلَيَّ مُسْتَخْفِيًا لَا يَأْلُو: أَنِ ائْتِ بَيْتَ عَائِشَةَ رضي الله عنها، فَأَخْبِرْهَا أَنَّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ضَيْفًا، قَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ

---

(١) الجوع لابن أبي الدنيا (١٦).

بِالهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ، مَا أَصْبَحَ فِي بَيْتِنَا شَيْءٌ يَأْكُلُهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، فَرَدَّنِي إِلَىٰ نِسَائِهِ كُلُّهُنَّ يَعْتَذِرْنَ بِمَا اعْتَذَرَتْ بِهِ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حَتَّىٰ رَأَيْتُ لَوْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كُسِفَ، وَكَانَ البَدَوِيُّ عَاقِلًا فَفَطِنَ، فَمَا زَالَ البَدَوِيُّ يُعَارِضُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، حَتَّىٰ قَالَ: إِنَّا أَهْلَ البَادِيَةِ مُعَانُونَ فِي زَمَانِنَا لَسْنَا كَأَهْلِ الحَضَرِ، إِنَّمَا يَكْفِي أَحَدَنَا القَبْضَةُ مِنَ التَّمْرِ يَشْرَبُ عَلَيْهَا، أَوِ الشَّرْبَةُ مِنَ اللَّبَنِ فَذَلِكَ الخِصْبُ، فَمَرَّتْ عِنْدَ ذَلِكَ عَنْزٌ لَنَا قَدِ احْتُلِبَتْ، كُنَّا نُسَمِّيهَا: ثَمْرَاءَ، فَدَعَا بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِاسْمِهَا، وَقَالَ: «**ثَمْرَا ثَمْرَا**»، فَأَقْبَلَتْ إِلَيْهِ تُحَمْحِمُ، فَأَخَذَ بِرِجْلِهَا، وَمَسَحَ ضَرْعَهَا، وَقَالَ: «**بِاسْمِ اللهِ**»، فَحَفَلَتْ، فَدَعَانِي بِمِحْلَبٍ لَنَا، فَأَتَيْتُهُ بِهِ فَحَلَبَ، وَقَالَ: «**بِاسْمِ اللهِ**»، فَمَلَأَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**ادْفَعْ بِاسْمِ اللهِ**»، فَدَفَعْتُ إِلَىٰ الضَّيْفِ، فَشَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً ضَخْمَةً، ثُمَّ أَرَادَ أَن يَضَعَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عُدْ**»، فَعَادَ، ثُمَّ أَرَادَ أَن يَضَعَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ: «**عُدْ**»، فَكَرَّرَ حَتَّىٰ امْتَلأَ، وَشَرِبَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ حَلَبَ فِيهِ، وَقَالَ: «**بِاسْمِ اللهِ**»، وَمَلَأَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**أَبْلِغْ هَذَا عَائِشَةَ، فَلْتَشْرَبْ مِنْهُ مَا بَدَا لَهَا**»، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَيْهِ فَحَلَبَ فِيهِ، وَقَالَ: «**بِاسْمِ اللهِ**»، فَمَلَأَهُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي إِلَىٰ نِسَائِهِ، كُلَّمَا شَرِبَتِ امْرَأَةٌ رَدَّتْنِي إِلَىٰ الأُخْرَىٰ، وَقَالَ: «**بِاسْمِ اللهِ**»، حَتَّىٰ رَدَّهُنَّ كُلَّهُنَّ، ثُمَّ رَدَدْتُ إِلَيْهِ وَقَالَ: «**بِاسْمِ اللهِ**»، وَقَالَ: «**ارْفَعْ إِلَيَّ**»، فَرَفَعْتُهُ، فَقَالَ: «**بِاسْمِ اللهِ**»، فَشَرِبَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَعْطَانِي، فَلَمْ آلُ أَنْ أَضَعَ شَفَتَيَّ عَلَىٰ دَرْجِ القَدَحِ، فَشَرِبْتُ شَرَابًا أَحْلَىٰ مِنَ العَسَلِ وَأَطْيَبَ مِنَ المِسْكِ وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ، بَارِكْ لِأَهْلِهَا فِيهَا**».

فانظر كيف كانت بيوت رسول الله ﷺ ليس فيها شيء يأكله ذو كبد!.

وانظر كيف أنَّ النبي ﷺ ما كان يعلم ماذا يوجد في بيوته؛ حتىٰ سأل

زوجاته عن ذلك، وفي ذلك دلالةٌ علىٰ عدم حرصه ﷺ علىٰ معرفة ماذا يوجد في البيت من الطعام والشراب!

***

(صحيح) ١١٠ـ عَن سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رضي الله عنهما يَقُولُ: «أَلَسْتُمْ فِي طَعَامٍ وَشَرَابٍ مَا شِئْتُمْ؟ لَقَدْ رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ وَمَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بَطْنَهُ»(١).

شرح الحديث

قول النعمان بن بشير رضي الله عنهما: «أَلَسْتُمْ فِي طَعَامٍ وَشَرَابٍ مَا شِئْتُمْ؟»: هو خطابٌ للتابعين الذين كان يحادثهم، ولكنه ـ والله ـ كأنه يخاطبنا اليوم! ونحن قد وجدنا من الطعام والشراب ما نشتهي؛ من خبز ولحم وفاكهة، من حلو ومالح، من حارٍّ وبارد.

قوله رضي الله عنه: «لَقَدْ رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ وَمَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بَطْنَهُ»؛ الدَّقل: رديء التمر وما نخره السوس، مما يأبىٰ الناسُ أكلَه.

أي: ما كان ﷺ يجِدُ مِن هذا التمر الرديء قبضة كفٍّ يملأ بها بطنه؛ فما ظنك بالجيِّد من التمر؟ بل ما ظنك بالتمر الفاخر؟

كل ذلك ما كان يجده ﷺ، فضلًا عن أن يجِد ما فوق التمر من أطايب

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٧٧).

الطعام والشراب مما يجده أغلبنا اليوم، بل حتىٰ الفقراء يأكلون اليوم من التمر أجوده وأفخره وأطيبَه في كثيرٍ من الأوقات.

*** لفتة إيمانية:**

هل مرَّ بك ـ في روايةٍ أو حديثٍ أو قصةٍ ـ مشهدٌ نقله الصحابة رضي الله عنهم عن نبينا ﷺ يتذمَّرُ فيه أو يتسخَّطُ من ضيق الحياة به؟ أو مِن قِلَّةِ ما يأكله من الطعام؟ أو حدَّث الصحابة رضي الله عنهم عنه أنه كان مهمومًا بسبب المسؤولية الملقاة علىٰ عاتقه من توفير الطعام والنفقة لزوجاته وبيوتاته؟

كلا والله لا تجد هذا أبدًا، واليوم إن بات أحدُنا طاويًا جائعًا هو وزوجته وأولاده يراها الناسُ قصةً تستحق أن تُرْوَىٰ لما يجده من صعوبة العيش.

وهذه رسالة لكل فقير؛ دونك عيشة رسول الله ﷺ، فإنَّ فقراء اليوم ـ ولله الحمد ـ لا يعدمون مَن يعطف عليهم، ويعطيهم زكاة ماله، ويتعاهدهم بالمال والطعام، ووالله إنهم لأوسع عيشةً من عيشة رسول الله ﷺ.

ومَن وجد سَعَةً مِن المال فليحمد الله، وليُكْثِر من النظر في عيشته ﷺ، ليشعر ما به من نعمة، ويحمد الله علىٰ ما أنعم الله عليه به من نِعَمِه الحلال.

***

(صحيح) ١١١ـ **عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «إِن كُنَّا آلَ مُحَمَّدٍ نَمْكُثُ شَهْرًا مَا نَسْتَوْقِدُ بِنَارٍ، إِنْ هُوَ إِلَّا التَّمْرُ وَالمَاءُ»**[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٧٢).

شرح الحديث

كان بيت محمد ﷺ أعظم بيوت الدنيا علىٰ الإطلاق يمرُّ عليه الشهر والشهران دون أن يوقَد في بيته نارٌ، فلا يطبخون شيئًا؛ لأنَّه ما كان يوجد في بيته ما يُطْبَخ، لا لحمٌ، ولا شعيرٌ ولا قمحٌ ولا إدامٌ.

أيُّ فقيرِ اليومَ تمضي ليلتُه ويومُه دون أن يوقد نارًا في بيته؟ ولو لصُنع شايٍ علىٰ الأقلِّ؟ أيُّ فقيرٍ اليوم لا يكادُ يطبُخُ في بيته شيئًا لمدّة شهرين؟

أمَّا عامَّةُ الناس فإنهم يجدون نارًا يوقدونها علىٰ ما هو مِن كماليات الحياة؛ من الشاي والقهوة ونحو ذلك.

وقد ورد الحديث في صحيح البخاري[1] مع زيادةٍ؛ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ: «ابْنَ أُخْتِي، إِن كُنَّا لَنَنظُرُ إِلَىٰ الهِلَالِ، ثُمَّ الهِلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، **وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَارٌ**»، فَقُلْتُ: يَا خَالَةُ، مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: «**الأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأَنصَارِ، كَانَتْ لَهُم مَنَائِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهِمْ، فَيَسْقِينَا**».

وعروة هو عروة بن الزبير ابن أخت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

ومعنىٰ قولها: «**ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ**»؛ أي: هلالُ أوّل الشهر، وهلالُ آخِرِه، وهلالُ أوّل الشهر الذي يليه.

---

(١) صحيح البخاري (٢٥٦٧).

وقولها: «فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَارٌ»؛ أي: بيتها وبيت زوجاته الأخريات، فما كانت النار تُوقَد في بيت عائشة رضي الله عنها، ولا في بيتٍ آخر من بيوت زوجات النبي ﷺ.

وقول عُروة: «يَا خَالَةُ، مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟»؛ يعني: كيف تأكلون إذن، وكيف كان عيشُكم وطعامُكم؟

وقولها: «**الأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالمَاءُ**»؛ أما التمرُ فلونُه أسودُ، وأمَّا الماءُ فلأنَّه إذا نُظِر إليه من أعلىٰ بئرٍ مُظلمٍ يُرىٰ أسودَ.

أو قيل فيهما الأسودان تغليبًا للتمر علىٰ الماء.

وقولها: «**إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ، كَانَتْ لَهُم مَنَائِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهِمْ، فَيَسْقِينَا**»؛ المَنِيحةُ: العَنزُ أو الناقةُ تكون ذاتَ لبنٍ، فيُمنَح لبنُها لضيفٍ أو جارٍ أو قريبٍ.

أي: كان بعضُ جِيرانِ رسول الله ﷺ من الأنصار، وكانت لهم منائحُ: شِياهٌ أو نُوقٌ، يحلبون مِن ألبانها ويُهدون رسولَ الله ﷺ ويتعاهدونه بذلك إكرامًا وحبًّا له.

ولم يكن هذا بالشيء الكثير؛ فإنَّهُ قدحُ لَبَنٍ يُرْسَل إليه يشربه هو وزوجاته ﷺ.

ولكن لم يكن ذلك دائمًا، فإنَّك لا تدري لعلّه يبقىٰ اليوم واليومين أو أكثر من ذلك وهو ليس عنده إلا التمر والماء.

* لفتة إيمانية:

هكذا كانت حياة أعظم البشر ﷺ، تَقَلُّلٌ من الدنيا، وضِيقُ عَيشٍ، وقِلَّةُ ذاتِ يدٍ، وبعدٌ عن الرفاهية، ولو وجد أحدُنا اليومَ شيئًا من هذا لظنَّ أنَّه أبْأسُ أهل الأرض علىٰ الإطلاق وأتعَسُهم.

وعلىٰ مَن يجد شيئًا مِن ضِيق العيش في حياته أن تكون له أسوةٌ حسنةٌ في نبيه ﷺ، ويقنع بما رزقه الله إيَّاه، ويكتفي به، فوالله إنَّ الحياة الهنيئة ليست بطول الموائد ولا بكثرة الأرصدة البنكية، وإنما هي بقرب الإنسان من الله؛ فلأجل ذلك استغنىٰ أولئك عن نعيم البدن بنعيم الروح والقلب، ووجدوا في قربهم من الله من اللذة ما أنساهم لذة الطعام والشراب، بل ما تجاوز بهم قرصة الجوع والفقر.

ومَن تَقَلَّبَ في ألوانٍ مِن النِّعَم والطيبات يجب عليه أن يشكر نعمة ربه عليه ويقدرها حق قدرها، وأن يعلم أنَّه ليس خيرًا مِمَّن سُلِبَ هذه النِّعَم، بل قد يكون مَن سُلِبَها خيرًا منه كما الحال مع نبينا ﷺ، فإنَّ هذا النعيم قد يكون نعيمَه الذي عُجِّل له في الدنيا.

ثم ليُعْلَم أنَّ كرامة الله لعبده لا تستلزم سعة العيش وكثرة الطعام والشراب، فهذا نبينا ﷺ قد أكرمه الله أعظم إكرام، وبلغ منزلةً ما بلغها مَلَكٌ مُقَرَّب ولا نبي مرسل، ومع ذلك اختار له العيشة التي أخبرت بها الأحاديث الفائتة.

ولا يغترَّ عبدٌ بما فُتح له من أبواب الدنيا وزهرتها، ولا يظنَّنَّ أنَّ ذلك

لمكانته عند الله، فإنَّ توسعةَ العيش علىٰ العبد لا تستلزم رضا الله عن عبده، ولا تدلُّ علىٰ مكانة العبد عند ربِّه.

***

(ضعيف) ١١٢ـ **عَنْ أَبِي طَلْحَةَ ﵁ قَالَ: «شَكَوْنَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ الجُوعَ، وَرَفَعْنَا عَن بُطُونِنَا عَنْ حَجَرٍ حَجَرٍ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَن بَطْنِهِ عَنْ حَجَرَيْنِ»**(١).

قَالَ أَبُو عِيسَىٰ: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي طَلْحَةَ، لا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ، وَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ: «وَرَفَعْنَا عَن بُطُونِنَا عَنْ حَجَرٍ حَجَرٍ»، قَالَ: «كَانَ أَحَدُهُمْ يَشُدُّ فِي بَطْنِهِ الحَجَرَ مِنَ الجُهْدِ وَالضَّعْفِ الَّذِي بِهِ مِنَ الجُوعِ».

شرح الحديث

قول أبي طلحة ﵁: «وَرَفَعْنَا عَن بُطُونِنَا عَنْ حَجَرٍ حَجَرٍ»؛ وضع الحجر علىٰ البطن أو شدُّ الحجر علىٰ البطن بحزامٍ أو نحوه إنما هو لإسكات الجوع، كما يفعل مَن جاع بوضع يده علىٰ بطنه لإسكات جوعها، ولكن مَن طال جوعُه لا يكفيه أن يضع يده فقط، بل يضع حجرًا عليها لإسكاتها.

يعني: شكونا جوعَنا وكشفنا عن بطوننا، وكلُّ واحدٍ قد ربط علىٰ بطنه حجرًا.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧١)، وقال: «غريب»، وضعَّفه الألباني لحال راويه سيار بن حاتم، فهو صدوق له أوهام.

قوله رضي الله عنه: «**فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَن بَطْنِهِ عَنْ حَجَرَيْنِ**»؛ يعني: كان الجوع الذي به ﷺ أشدَّ مِن الذي بهم، وبلغ به الأمرُ أنَّه لا يكفي شدُّ حجرٍ واحدٍ علىٰ بطنه لإذهاب حرارة الجوع، وإنما احتاج أن يربط الحجرين.

(**قَالَ أَبُو عِيسَىٰ**)؛ يعني: الترمذي، صاحب الأصل.

«**هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي طَلْحَةَ**»؛ يشير رحمه الله إلىٰ ضعف إسناد هذا الحديث.

«**لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ**»؛ يعني: مِن هذا الطريق الذي ساق الإمامُ الترمذيُّ سنده في أصل الكتاب.

والحديث وإن كان لا يصحُّ بهذه الرواية وهذا اللفظ إلا أنه عند البخاري[1] وغيره بسندٍ صحيحٍ من حديث جابر رضي الله عنه في قصة حفر الخندق قال: إِنَّا يَوْمَ الخَندَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الخَندَقِ، فَقَالَ: «**أَنَا نَازِلٌ**»، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ لا نَذُوقُ ذَوَاقًا ... الحديث.

ومعنىٰ: «**كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ**»؛ أي: حجرٌ صلبٌ أو صخرةٌ شديدةٌ، ما استطاعوا كسرها ولا تجاوزها، فقطعت عليهم طريق العمل.

وقوله: «**فَجَاؤوا النَّبِيَّ ﷺ**»، إذ كان ﷺ يشاركهم العمل والحفر، ويحمل معهم التراب، فإذا استعصىٰ عليهم شيء جاؤوا يبلغونه بذلك.

---

(١) صحيح البخاري (٤١٠١).

وقوله: «**ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ**» موافقٌ لما في الرواية المشروحة مِن ربطه ﷺ علىٰ بطنه الحجرَ من الجوع.

وقوله: «**وَلَبِثْنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ لا نَذُوقُ ذَوَاقًا**»؛ أي: لا يتذوّقون شيئًا بأفواههم.

فهذا الحديث الصحيح مع رواية أبي طلحة التي ساقها الترمذي تحكي صفة الجوع الشديد الذي كان يعيشه ﷺ حتىٰ يحمله علىٰ ربط حجر علىٰ بطنه ـ صلوات ربي وسلامه عليه ـ.

***

(صحيح) ١١٣ـ **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَاعَةٍ لا يَخْرُجُ فِيهَا وَلا يَلْقَاهُ فِيهَا أَحَدٌ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ، يَا أَبَا بَكْرٍ؟»، قَالَ: خَرَجْتُ أَلْقَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَأَنظُرُ فِي وَجْهِهِ، وَالتَّسْلِيمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَن جَاءَ عُمَرُ فَقَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ، يَا عُمَرُ؟»، قَالَ: الجُوعُ، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ ﷺ: «وَأَنَا قَدْ وَجَدْتُ بَعْضَ ذَلِكَ»، فَانطَلَقُوا إِلَىٰ مَنزِلِ أَبِي الهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ الأَنصَارِيِّ، وَكَانَ رَجُلًا كَثِيرَ النَّخْلِ وَالشَّاءِ، وَلَمْ يَكُن لَهُ خَدَمٌ، فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَقَالُوا لِامْرَأَتِهِ: أَيْنَ صَاحِبُكِ؟ فَقَالَتِ: انطَلَقَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا المَاءَ. فَلَمْ يَلْبَثُوا أَن جَاءَ أَبُو الهَيْثَمِ بِقِرْبَةٍ يَزْعَبُهَا، فَوَضَعَهَا، ثُمَّ جَاءَ يَلْتَزِمُ النَّبِيَّ ﷺ وَيُفَدِّيهِ بِأَبِيهِ وَأُمِّهِ، ثُمَّ انطَلَقَ بِهِمْ إِلَىٰ حَدِيقَتِهِ، فَبَسَطَ لَهُم بِسَاطًا، ثُمَّ انطَلَقَ إِلَىٰ نَخْلَةٍ، فَجَاءَ بِقِنْوٍ، فَوَضَعَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفَلَا تَنَقَّيْتَ لَنَا مِن رُطَبِهِ؟»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَرَدْتُ أَن تَخْتَارُوا أَوْ تَخَيَّرُوا مِن رُطَبِهِ وَبُسْرِهِ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا مِن ذَلِكَ المَاءِ، فَقَالَ ﷺ: «هَذَا ـ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ـ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ: ظِلٌّ بَارِدٌ، وَرُطَبٌ**

طَيِّبٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ»، فَانطَلَقَ أَبُو الهَيْثَمِ لِيَصْنَعَ لَهُمْ طَعَامًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَذْبَحَنَّ لَنَا ذَاتَ دَرٍّ»، فَذَبَحَ لَهُمْ عَنَاقًا أَوْ جَدْيًا، فَأَتَاهُم بِهَا، فَأَكَلُوا، فَقَالَ ﷺ: «هَل لَكَ خَادِمٌ؟»، قَالَ: لَا، قَالَ: «فَإِذَا أَتَانَا سَبْيٌ فَأْتِنَا»، فَأُتِيَ ﷺ بِرَأْسَيْنِ لَيْسَ مَعَهُمَا ثَالِثٌ، فَأَتَاهُ أَبُو الهَيْثَمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْتَرْ مِنْهُمَا»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اخْتَرْ لِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ المُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ، خُذْ هَذَا؛ فَإِنِّي رَأَيْتُهُ يُصَلِّي، وَاسْتَوْصِ بِهِ مَعْرُوفًا». فَانطَلَقَ أَبُو الهَيْثَمِ إِلَىٰ امْرَأَتِهِ، فَأَخْبَرَهَا بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: مَا أَنتَ بِبَالِغٍ حَقَّ مَا قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ إِلَّا بِأَن تَعْتِقَهُ. قَالَ: فَهُوَ عَتِيقٌ، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا وَلَا خَلِيفَةً إِلَّا وَلَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ المُنْكَرِ، وَبِطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ خَبَالًا، وَمَن يُوقَ بِطَانَةَ السُّوءِ فَقَدْ وُقِيَ»(١).

شرح الحديث

هذا حديثٌ عجيبٌ طويلٌ، يحكي مشهدًا جمع بين أفضل ثلاثة رجالٍ يمشون علىٰ وجه الأرض: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، يَقُصُّون قصةً عجيبةً لا تكاد تجد لها مثيلًا في تاريخ البشر.

قول أبي هريرة رضي الله عنه: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَاعَةٍ لَا يَخْرُجُ فِيهَا وَلَا يَلْقَاهُ فِيهَا أَحَدٌ»؛ يعني: خرج في وقتٍ لم يكن مِن عادته ﷺ أن يخرج فيه.

ولم تُبيِّن الرواية هل هي ساعةٌ مِن ليل أو مِن نهار! لكنَّ الغالب من خلال القصة أنها من نهار، ولعلها قبل الظهر أو بعده في وقت يستريح الناس فيه عادة في بيوتهم.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٦٩)، وقال: «حسن صحيح غريب».

قوله: فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ، يَا أَبَا بَكْرٍ؟»، قَالَ: خَرَجْتُ أَلْقَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَأَنظُرُ فِي وَجْهِهِ، وَالتَّسْلِيمَ عَلَيْهِ»، كان السؤال مباغتًا! وكان الجواب حاضرًا.

ما خرج يريد أن يستفتيه في مسألة، أو يشاوره في قضية، أو يردَّ له أمانة، بل مجرد مقابلة النبي ﷺ.

أيُّ شوق هذا ملأ قلوب الصحابة! أيُّ حبٍّ هذا! وأيُّ تعلُّقٍ برسول الله ﷺ؛ يجعل صاحبه القريب وأبا زوجته يأتيه في كل وقت وحين شوقًا له ومحبة لرؤيته، فما كان يشبع من رؤيته له ولا مجالسته إياه.

هذا هو الحبُّ الحقيقي الذي جعل الصحابة يتبوَّؤون أعلىٰ المنازل، دع عنك شعر الشعراء، وكلام الفصحاء.

قوله: «فَلَمْ يَلْبَثْ أَن جَاءَ عُمَرُ فَقَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ، يَا عُمَرُ؟»، قَالَ: الجُوعُ، يَا رَسُولَ اللهِ»؛ أحسَّ بالجوع، فما خرج يهيم علىٰ وجهه في الشوارع، أو يستجدي بعض جيرانه أو أصحابه، بل خرج قاصدًا رسول الله ﷺ، علَّه يجد عنده شيئًا مِن طعام يواسي به أهل بيته.

قال ﷺ: «وَأَنَا قَدْ وَجَدْتُ بَعْضَ ذَلِكَ»؛ أي: وأنا أيضًا قد وجدت بعض الجوع.

قوله: «فَانطَلَقُوا إِلَىٰ مَنزِلِ أَبِي الهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ الأَنصَارِيِّ، وَكَانَ رَجُلًا كَثِيرَ النَّخْلِ وَالشَّاءِ، وَلَمْ يَكُن لَهُ خَدَمٌ، فَلَمْ يَجِدُوهُ»؛ أبو الهيثم هو مالك بن التيهان الأنصاري، رجلٌ من الصحابة وسَّع الله له في رزقه، كان له حديقة فيها

نخلٌ كثير وقطيعٌ من الشياه، فقصده النبي ﷺ يلتمس عنده طعامًا وفي رفقته أبو بكرٍ وعمر رضي الله عنهما، فأتوا بيته فلم يجدوه في البيت.

قوله: «**فَقَالُوا لِامْرَأَتِهِ: أَيْنَ صَاحِبُكِ؟ فَقَالَتِ: انطَلَقَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا المَاءَ**»؛ يعني: يجلب ويطلب لنا ماءً عذبًا، أي: خرج إلىٰ بئر من الآبار ليأتيه منه بما عذب، فإن الماء العذب في بيوت الناس كان قليلًا، والماء الذي يستعمل غالبًا للشرب والطبخ والاغتسال فيه ملوحة الآبار، فإن المياه الحلوة ما كانت تكثر في جزيرة العرب، وأبو الهيثم رجلٌ قد وسَّع الله له في رزقه يستطيع أن يأتي بالماء العذب لأهله.

قوله: «**فَلَمْ يَلْبَثُوا أَن جَاءَ أَبُو الهَيْثَمِ بِقِرْبَةٍ يَزْعَبُهَا، فَوَضَعَهَا، ثُمَّ جَاءَ يَلْتَزِمُ النَّبِيَّ ﷺ**»؛ يزعبها: يحملها.

يعني: ما هو إلا وقتٌ يسير حتىٰ أقبل أبو الهيثم، ومعه قربةٌ يحملها، وقد ملأها بالماء العذب، فوجد عند بيته أكرم ضيفٍ علىٰ وجه الأرض، وجد أعظم ثلاثةِ رجال في تاريخ الإسلام: رسول الله ﷺ وأبو بكر صاحبه ووزيره ورفيقه في الهجرة وعمر الفاروق المُحَدَّثُ الملهم، فوضع القربة علىٰ الأرض، ثم أقبل يلتزم النبي ﷺ ويأخذه بالأعناق ويحضنه فرِحًا مسرورًا. فهنيئًا والله لأبي الهيثم، ويا لها من لحظة سعيدة عاشها أبو الهيثم!.

قوله رضي الله عنه: «**وَيُفَدِّيهِ بِأَبِيهِ وَأُمِّهِ**»؛ أي: يقول: «فداك أبي وأمي يا رسول الله».

وهذا موقفٌ يتَّضِح لك به تلك المحبة العظيمة التي ملأت قلوب أولئك الصحابة الكرام الأطهار، تلك القلوب التي استحقَّت أن تكون مِن ذلك الجيل الطاهر الفريد الذي لم يأتِ جيلٌ بعده أو قبله مثله.

قوله رضي الله عنه: «**ثُمَّ انطَلَقَ بِهِمْ إِلَىٰ حَدِيقَتِهِ، فَبَسَطَ لَهُم بِسَاطًا**»؛ الحديقة: البستان، وقد مَرَّ أَنَّه رجلٌ كثير النخل كثير الشاءِ.

أي: انطلق بهم إلىٰ بستانه، وبسط لهم بساطًا إكرامًا لهم وضيافة.

قوله رضي الله عنه: «**ثُمَّ انطَلَقَ إِلَىٰ نَخْلَةٍ، فَجَاءَ بِقِنْوٍ، فَوَضَعَهُ**»؛ قِنْوُ النخلةِ: العِذقُ الكامل مِن الرطب الذي يكون علىٰ النخلة.

أي: قطع عِذقًا كاملًا، ووضعه كما هو بين يدي رسول الله ﷺ وأبي بكرٍ وعمر.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَفَلَا تَنَقَّيْتَ لَنَا مِن رُطَبِهِ؟**»؛ يعني: ما كان لك حاجة أن تقطع العِذق بأكمله؛ لأنَّ النخلَ تحمل في القِنو الواحد والعِذق الواحد من الرطب والتمر ما يفضل عن حاجة الاثنين والثلاثة؛ فكان يكفي أن تأتينا ببعض الرطب تنتقيه من العِذْقِ.

قوله رضي الله عنه: «**فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَرَدْتُ أَن تَخْتَارُوا أَوْ تَخَيَّرُوا مِن رُطَبِهِ وَبُسْرِهِ. فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا مِن ذَلِكَ المَاءِ**»؛ أي: دعاه إلىٰ ذلك الكرم، وحُقَّ له أن يبالغ في الكرم؛ لأنَّ ضيفَه أحقُّ مَن يُكرم؛ رسول الله ﷺ. أي: أنا أضع لكم القِنْوَ كاملًا، والخيار لك، فانتقِ ما تشتهي يا رسول الله.

والرُّطَبُ: مرحلةٌ من مراحل نموّ التمر معروفةٌ، يكون فيه لينٌ وطراوةٌ.

والبُسْرُ: هو التمرُ الذي لا يزال جافًا صلبًا.

والعِذقُ أو القِنوُ من النخل يكون فيه مِن الرُّطَب والبُسْر، فربما يعجبُ الآكلَ هذا أو ذاك؛ فأراد أن يكونَ الاختيارُ من هذه الأنواع لرسول الله ﷺ.

وهذا موقفٌ آخر يدلُّ علىٰ شدة محبة أبي الهيثم للنبي ﷺ.

قوله ﷺ: «هذا ـ والذي نفسي بيدِهِ ـ مِنَ النَّعِيمِ الذي تُسْأَلُونَ عنهُ يومَ القيامةِ؛ ظِلٌّ باردٌ، ورُطَبٌ طَيِّبٌ، وماءٌ باردٌ»، قال هذا بعد أن أكلوا وشربوا.

وقد أكَّد النبيُّ ﷺ علىٰ أنَّ الناس سيُسألون عن النعيم، وحلف علىٰ ذلك؛ تنبيهًا علىٰ هذا الأمر.

وليت شعري؛ أيُّ نعيمٍ هذا الذي وجده النبي ﷺ! لكنه مِن ضيق العيش في الجملة يرىٰ الماءَ الباردَ نعيمًا، والظلَّ الباردَ مِن حرارة الشمس نعيمًا، والرُّطَب الطيِّبَ نعيمًا!!

فماذا نقول نحنُ في هذه الأيام التي تمتدُّ موائدُنا بأطايب الطعام وألوانه، وتَبَرَّدت بيوتُنا ومساجدُنا وسياراتُنا فلا يكاد أحدُنا يجد حرَّ الشمس أو لَفحَ سَمُومها إلا قدرَ الانتقال مِن باب بيته إلىٰ باب سيارته!!

*** لفتة إيمانية:**

فحقٌّ علىٰ كل مسلمٍ إذا وجد ماءً باردًا، أو مكانًا نظيفًا، أو هواءً طيبًا، أو لباسًا نظيفًا، أو لقمةً سائغةً، أو صحةً في بدنه وعافية، أو بيتًا يسكنه، أو زوجةً تعينه علىٰ أمور الحياة، أن يشكر ربَّه علىٰ هذا النعيم الذي أنعم به عليه، ويتذكر قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

وعلىٰ المسلم أن يخاف أن يعاقبه الله علىٰ نعمةٍ لم يشكرها، أو لم يعرف قدر الله حق قدره فيها، وليحذر أن يقوده هذا النعيم إلىٰ معصيته ﷻ، أو للتقصير

في حقوقه وواجباته، فوالله ما فسق الفسقة ولا عصىٰ العصاة ولا تجبر المتكبِّرون ولا طغىٰ المترفون إلا بالأموال والنِّعَم التي جعلها الله بأيديهم.

فعجبًا لابن آدم! يكرمه ربه ويسوق إليه الخيرات والنِّعم فيجعلها سببًا لمعصيته.

وأعجَبُ مِن هؤلاء؛ مَن إذا أنعم عليه مخلوقٌ ضعيفٌ مثله سارع لشكره، وتناسىٰ أن الله هو خالق هذه النعم جميعها وواهبها.

والمؤمن العاقل الحصيف مهما ضعف واستزلَّه الشيطان، واستخدم نِعَم الله في معصيته؛ فإنه يتذكر ويؤوب، ويعود ويتوب.

قوله ﵁: «فَانطَلَقَ أَبُو الهَيْثَمِ لِيَصْنَعَ لَهُمْ طَعَامًا»؛ يعني: الذي قدّمه لهم مِن الماء العذب والرُّطَب والبُسْر ما كان إلا تقدمةً للضيافة، كما يصنع أحدنا بضيفه إذا أتىٰ داره يقدم له تقدمةً من الطعام والشراب ليست هي الوجبة التي سيكرمه بها، وإنما أراد أن يذبح لهم.

قوله ﷺ: «لَا تَذْبَحَنَّ لَنَا ذَاتَ دَرٍّ»؛ أي: لا تعمد إلىٰ شاةٍ ذات لبن فتذبحها؛ لأنها ذات ولد، وذبحُها يُفَوِّتُ منفعتها من اللبن. أراد ألا يتكلَّف أبو الهيثم في ضيافتهم، وألَّا يذبح لهم ما يفوت بذبحه مصالح أخرىٰ.

قوله ﵁: «فَذَبَحَ لَهُمْ عَنَاقًا أَوْ جَدْيًا»؛ العَناق: الأنثىٰ الصغيرة من الماعز. والجدي: الذَّكر الصغير.

قوله: فَأَتَاهُم بِهَا، فَأَكَلُوا، فَقَالَ ﷺ: «هَل لَكَ خَادِمٌ؟»؛ سأله عن الخادم

لأنه رآه يباشر الخدمة بنفسه، حيث إنَّه هو الذي ذهب ليأتي بالماء لبيته، وهو الذي جاءهم بالعذق والماء، وهو الذي ذبح، وهو الذي قَدَّم لهم الطعام.

ثم إنَّه ﷺ أراد أن يكافئه علىٰ إكرامه وحفاوته، إذ كان من شأن النبي ﷺ أنْ يقبلَ الهديةَ ويُثيب عليها، ويردَّ الجميلَ بالأجمل، فإن لم يكن له خادِمٌ فسيكافئه بخادم.

قوله: «**لا**»؛ أي: ما عنده خادم، وهو يقوم برعاية أموره بنفسه.

قوله ﷺ: «**فَإِذَا أَتَانَا سَبْيٌ فَأْتِنَا**»؛ يعني: إذا جاءنا شيءٌ من الأسرىٰ فاحضر إلينا، يريد ﷺ أن يعطيه أحد الأسرىٰ خادمًا له.

قوله رضي الله عنه: «**فَأُتِي ﷺ بِرَأْسَيْنِ لَيْسَ مَعَهُمَا ثَالِثٌ**»؛ يعني: أسيرين فقط.

قوله رضي الله عنه: «**فَأَتَاهُ أَبُو الهَيْثَمِ**»؛ بناءً علىٰ الوعد الذي وعده إياه.

قوله ﷺ: «**اخْتَرْ مِنْهُمَا**»؛ أي: هذان أسيران، اختر أحدهما ليكون خادمًا لك، وفاءً بالوعد الذي وعده به قبلُ.

قول أبي الهيثم رضي الله عنه: «**يَا رَسُولَ اللهِ، اخْتَرْ لِي**»، ترك الاختيار للنبي ﷺ، وهذا مِن جميل الأدب وإكرام النبي ﷺ.

قوله ﷺ: «**إِنَّ المُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ**»؛ أي: إعطاء المشورة أمانةٌ، فمَن صدق فقد جاء بالأمانة، ومَن كذب فقد خان والعياذ بالله.

قوله ﷺ: «**خُذْ هَذَا؛ فَإِنِّي رَأَيْتُهُ يُصَلِّي، وَاسْتَوْصِ بِهِ مَعْرُوفًا**»، أشار إلىٰ أحدهما وأشار عليه بأخذه؛ وعلَّل ذلك بأنه رآه يصلي؛ فإنَّ الصلاةَ هي معيار

المفاضلة بين الناس، فعندما طلب أبو الهيثم من النبي ﷺ أن يختار له الأطيبَ والأفضلَ؛ جعل ﷺ الصلاة أمارةً وعلامة علىٰ أنَّه أطيبُ من صاحبه وأفضل.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَانطَلَقَ أَبُو الهَيْثَمِ إِلَىٰ امْرَأَتِهِ، فَأَخْبَرَهَا بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»؛ يعني: أخبرها بالقصة، وأنَّ النبي ﷺ أمره بأن يستوصي به خيرًا.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: مَا أَنتَ بِبَالِغٍ حَقَّ مَا قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ إِلَّا بِأَن تَعْتِقَهُ**»؛ أي: إذا أردت أن تمتثل أمره ﷺ فما أنت ببالغ حق هذه الوصية إلا بأن تعتقه.

انظر إلىٰ فطانة هذه المرأة الجليلة والصحابية الكريمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَهُوَ عَتِيقٌ**»، أعتقه دون تردد، فإنه استخدم حرف الفاء الدال علىٰ التعقيب والمباشرة.

سبحان الله! أخذوه خادمًا وهم محتاجون لأن يخدمهم، ولكنهم أعتقوه مبالغةً في امتثال وصية النبي الكريم ﷺ، وتقديمًا لرغبته علىٰ حاجاتهم.

قوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا وَلَا خَلِيفَةً إِلَّا وَلَهُ بِطَانَتَانِ**»، ومناسبة هذا الكلام لهذا الموقف: نصح امرأة أبي الهيثم لزوجها، حيث كانت دالَّةً لزوجها علىٰ الخير.

قوله ﷺ: «**وَبِطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ خَبَالًا**»؛ يعني: لا تنصحه ولا ترشده ولا تدله علىٰ الخير، بل تأخذ بيده نحو الخبال والهلاك.

قوله ﷺ: «**وَمَن يُوقَ بِطَانَةَ السُّوءِ فَقَدْ وُقِيَ**»، لهذا ما زال أهل العلم من

الأئمة والخطباء يدعون للخلفاء وولاة الأمور بأن يُقيِّض الله لهم بطانةً صالحة.

فهذه قاعدةٌ عامَّةٌ تشمل كلَّ خليفةٍ وإمامٍ ووليِّ أمرٍ ومسؤولٍ؛ أنَّه يكون له بطانتان: بطانةُ خيرٍ وسدادٍ ونصحٍ وإرشادٍ، وبطانةُ سوءٍ وغَيٍّ وفسادٍ، وكلُّ بطانةٍ تجرُّ صاحبَها إلىٰ طريقها.

(صحيح) **١١٤ـ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه يَقُولُ: «إِنِّي لَأَوَّلُ رَجُلٍ أَهْرَاقَ دَمًا فِي سَبِيلِ اللهِ عز وجل، وَإِنِّي لَأَوَّلُ رَجُلٍ رَمَىٰ بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَغْزُو فِي العِصَابَةِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ مَا نَأْكُلُ إِلَّا وَرَقَ الشَّجَرِ وَالحُبْلَةِ حَتَّىٰ تَقَرَّحَتْ أَشْدَاقُنَا، وَإِنَّ أَحَدَنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ وَالبَعِيرُ، وَأَصْبَحَتْ بَنُو أَسَدٍ يُعَزِّرُونَنِي فِي الدِّينِ! لَقَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِذًا وَضَلَّ عَمَلِي»**[١].

شرح الحديث

في هذا الحديث وصفٌ آخر في وصف عيش سيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ، وقد قدَّم رضي الله عنه بين يدي هذه الرواية شيئًا من مناقبه التي شرفه الله بها.

ولم يكن سعدٌ رضي الله عنه في هذا المقام قائمًا مقام العُجب بنفسه، ولا الحديث عن ذاته كما قد يخيل بادئ الأمر لمن يقرأ الرواية، لكن الحديث بتمامه كما أخرجه البخاري[٢] عن جابر بن سمرة رضي الله عنهما: شَكَا أَهْلُ الكُوفَةِ سَعْدًا إِلَىٰ عُمَرَ رضي الله عنه، فَعَزَلَهُ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّارًا، فَشَكَوْا حَتَّىٰ ذَكَرُوا أَنَّهُ لَا يُحْسِنُ يُصَلِّي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٦٥)، وقال: «حسن صحيح غريب».

(٢) صحيح البخاري (٧٥٥).

«يَا أَبَا إِسْحَاقَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لَا تُحْسِنُ تُصَلِّي»، فقدَّم سعدٌ هذه المناقب التي ذكرها لنفسه رضي الله عنه دفاعًا عن نفسه أمام التُّهَم التي اتُّهِم بها.

يريد أن يقول: أَمِثْلِي لا يُحسن الصلاة، وقد جعلني الله مِن الثُّلَّة القليلة التي ثَبَّت اللهُ بها هذا الدين!.

فساق محاسنَه في جواب التُّهمة الباطلة والزور التي افتراها عليه أهل الكوفة.

قول سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: «**إِنِّي لَأَوَّلُ رَجُلٍ أَهْرَاقَ دَمًا فِي سَبِيلِ اللهِ** عز وجل»، يقصد بإراقة الدم: أنَّه كان بمكة مؤمنًا قبل الهجرة مع قِلَّةٍ من المستضعفين يستخفون بصلاتهم، فلما بلغ بعضَ سفهاء قريش خبرُهم وأنهم يُصَلُّون خرجوا إليهم يؤذونهم ويعتدون عليهم، فتلاحوا فيما بينهم، فبلغ بسعدٍ الغضبُ أن أخذ لَحْيَ بعيرٍ فشَجَّ به رأس رجلٍ من المشركين فأراق دمه، فعلها حميةً وانتصارًا وغضبًا ودفعًا للظلم رضي الله عنه، فكان أول من أراق دمًا في سبيل الله، فصارت منقبةً لسعد، وأوليةً عظيمةً يفخر بها ويشهد له بها التاريخ، وذلك قبل أن يُفْرَضَ الجهادُ وآياتُ القتال.

قوله رضي الله عنه: «**وَإِنِّي لَأَوَّلُ رَجُلٍ رَمَىٰ بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ**»، وكان ذلك في أولىٰ البعوث والسرايا التي بعث بها النبيُّ ﷺ بعد هجرته إلىٰ المدينة، حيث أَمَّر سعدًا في إحداها، فتلاقىٰ مع فئةٍ مِن كفار قريش تراموا بالنبال والسهم ولم يقتتلوا، فكان سعدٌ أول من رمىٰ بسهمٍ في سبيل الله.

فجمع الله له بذلك بين أَوَّلية البذل والفداء والتضحية في مكة قبل الهجرة، وأَوَّلية ذلك في المدينة بعد الهجرة، فهو أول من أراق دمًا في سبيل الله، وأول من رمىٰ بسهم في سبيل الله.

قوله رضي الله عنه: «**لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَغْزُو فِي العِصَابَةِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ**»؛ العصابة والعُصبة: الفئة القليلة المجتمعة.

قوله رضي الله عنه: «**مَا نَأْكُلُ إِلَّا وَرَقَ الشَّجَرِ وَالحُبْلَةِ**»، يُصَوِّرُ صبرهم وتحمُّلهم في أيَّام مرَّت بهم وهم خارجون للجهاد في سبيل الله، حيث بلغ بهم الجوع أنهم يأكلون ورق الشجر والحُبْلَة ولا يجدون طعامًا غيره.

والحُبْلَة: نبات ذو شوكٍ، له ورق يشبه اللوبياء، وهو طعام للبهائم والأنعام.

هذه الرواية تكشفُ مرحلةً من التاريخ عاشها الصحابة في أول الإسلام، قد ضاقت بهم الدنيا حتىٰ لا يجدون شيئًا من الطعام البتة! وفي هذا إشارة إلىٰ ضيق العيش الذي كان يعيشه النبي ﷺ، فإنَّه لو كان عنده شيءٌ مِن الطَّعام لزودهم بما يكفيهم في ذهابهم وعودتهم، بل جميعُ المسلمين ذلك الوقت ما كان عندهم فائضٌ من الطعام؛ فإنَّ هذه السَّرِيَّة خرجت لأجل الإسلام والمسلمين، ولو كان يجد بعضُ المسلمين سَعَةً من العيش لأعانهم بما يستطيعه.

قوله رضي الله عنه: «**حَتَّىٰ تَقَرَّحَتْ أَشْدَاقُنَا**»؛ الشِّدقُ: جانب الفم.

وتقرُّح الشِّدق: تشققه وسيلان الدم منه.

ومِن طبيعة الإنسان أنَّه إذا أكل الطعام اليابس أو ما لا يتوافق معه أو ما لا يستطاب في مذاقه ومضغه وهضمه وبلعه؛ فإنَّ ذلك يُسَبِّب له قروحًا وجروحًا وجفافًا في الفم، وهم كانوا يأكلون ما لا يناسبهم من ورق الشجر والحُبْلَة الذي لا يجدون غيرهم كان ذلك سببًا في تقرُّح أشداقهم.

وفي هذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ أكلهم للحبلة وأوراق الشجر ما كان أمرًا عابِرًا، أو شيئًا صنعوه في ليلة أو ليلتين، بل هو أمرٌ استمرَّ بهم وطال حتىٰ تقرَّح أشداقُهم.

كما أنَّ الرواية تنبئك عن أمرٍ عظيمٍ مرَّ بهم، فلم يكن الأمرُ مجرد جوعٍ، بل شِدَّةُ جوعٍ تلجئهم إلىٰ طعامٍ لا يستطيبونه، ويؤلمهم ويؤذيهم، ومع ذلك لا يجدون إلىٰ غيره سبيلًا.

قوله ﵁: «وَإِنَّ أَحَدَنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ وَالبَعِيرُ»؛ يعني: يخرج أحدُهم الفضلةَ والبرازَ كما تخرجها الشاةُ والبعيرُ؛ بعرةً صغيرةً جافةً يابسة، لأنهم أكلوا ما تأكله الدواب فأخرجوا كما تخرج الدواب، وفيه إشارةٌ أيضًا إلىٰ قلة ما يأكلونه.

قوله ﵁: «وَأَصْبَحَتْ بَنُو أَسَدٍ يُعَزِّرُونَنِي فِي الدِّينِ!»، وفي رواية: «**يُعزِّروني**»(١)، وأخرىٰ: «**تُعزِّرني**»(٢) والمعنىٰ سواء، أي: يتهمونني زورًا وباطلًا.

يعني: جاء اليوم الذي تتكلَّمُ بعضُ قبائل العرب الكوفية في سعد، ويتهمونه في ديانته! وهو أول رجلٍ رمىٰ بسهمٍ في سبيل الله! وأول مَن أراق دمًا في سبيل الله! وقد بلغ به من الصبر وتحمُّل البلاء في سبيل الله مع الصحابة ما لم يكونوا يسدُّون به جوعتهم! كُلُّ هذا في أيامٍ كان المسلمون فيه قلةً قليلة بين أعداء كُثرٍ، ثم يأتي هؤلاء ويتّهمونه في دينه!

سعدٌ أحد السابقين! ومن العشرة المبشرين! خالُ رسول الله ﷺ الذي

---

(١) أخرجها الترمذي (٢٣٦٦)، والدارمي (٢٤٥٩)، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجها البخاري (٣٧٢٨، ٥٤١٢)، ومسلم (٢٩٦٦).

كان يفخر به ويُثبت منقبتَه العظيمة!

سعدٌ الذي كان مجاب الدعوة! كثير التضحية والصبر!

سعدٌ قائد القادسية وفتوح الإسلام الكبيرة العظيمة!

سعدٌ صاحب المناقب التي لا يتَّسع المقام لذكرها!

أيُظَنُّ أنَّ سعدًا ﵁ الذي عاش تلك المرحلة من تاريخ الإسلام، وقاسىٰ ما قاسىٰ مِن أجل نشر الإسلام والدفاع عنه؛ أن يأتي يومٌ يسيء في صلاته ولا يُحسِنها، ويُكَلَّف بإمرة بلدٍ مسلم فيظلم أهله ولا يحسن إدارته!

وهنا سُؤالٌ: إذا كان سعدٌ بهذه المناقب والصفات الجميلة، فما الذي دعا عمر ﵁ إلىٰ أن يسأله عن صلاته؟

والجواب: أنَّ عمر ﵁ كان قاضيًا في هذا المقام، وشأن القاضي أن يَفصِل في الخصومات، وأن يسمع الدعوىٰ من البرِّ والفاجر علىٰ المدَّعىٰ عليه وإن كان صالحًا، ويسأله عن التُّهمة، ويترك له المجال للدفاع عن نفسه، وهذا الذي فعله عمر.

وأمَّا عزلُه فإنما كان مِن باب السياسة مع أهل الكوفة، وليس الاتهام لسعد ابن أبي وقاص ﵁؛ فقد حفِظ له سابقته وأثنىٰ عليه.

وقد أجاب سعد بن أبي وقّاص ﵁ عن هذه التُّهمة كما في صحيح البخاري(١): قَالَ سَعْدٌ: «كُنْتُ أُصَلِّي بِهِمْ صَلاةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ صَلاتَي العَشِيِّ

(١) صحيح البخاري (٧٥٨).

لا أَخْرِمُ عَنْهَا؛ أَرْكُدُ فِي الأُولَيَيْنِ، وَأَحْذِفُ فِي الأُخْرَيَيْنِ»، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذَلِكَ الظَّنُّ بِكَ، يعني: يطيل شيئًا ما في الركعتين الأوليين، ويُخفّف في الأُخرَيين.

وقد صدَّقَهُ عُمَر فَقَالَ: «ذلك الظنُّ بك»، فكان يَعلَم ما عليه سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإنَّما المقام مقام فصل في الخصومات فلذلك سأله عن صلاته.

مناسبة الحديث للباب: قد يقول قائل: إنَّ الحديث في وصف عيش سعد ابن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فما علاقة ذلك بعيش النبي ﷺ؟

والجواب: أنَّ السرية التي خرج فيها سعد كانت مبعوثة من النبي ﷺ، وهو المسؤول عن زاد تلك السَّرِيَّة، فلَمَّا لم يكن معهم شيءٌ من الزادِ عُلِمَ أنَّ النبي ﷺ ما كان عنده شيءٌ يزودهم به، فوصف ضيق العيش الذي مَرَّ بتلك السَّرِيَّة فيه إشارةٌ لضيق العيش الذي كان يعيشه النبي ﷺ.

***

(ضعيف) ١١٥ـ **عن عَمْرِو بْنِ عِيسَىٰ أَبِي نَعَامَةَ العَدَوِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ خَالِدَ بْنَ عُمَيْرٍ وَشُوَيْسًا أَبَا الرُّقَادِ قَالَا: بَعَثَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ عُتْبَةَ بْنَ غَزْوَانَ، وَقَالَ: انطَلِقْ أَنتَ وَمَن مَعَكَ، حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي أَقْصَىٰ بِلَادِ العَرَبِ وَأَدْنَىٰ بِلَادِ العَجَمِ فَأَقْبِلُوا، حَتَّىٰ إِذَا كَانُوا بِالمِرْبَدِ وَجَدُوا هَذَا الكَذَّانَ، فَقَالُوا: مَا هَذِهِ؟ قَالُوا: هَذِهِ البَصْرَةُ. فَسَارُوا حَتَّىٰ بَلَغُوا حِيَالَ الجِسْرِ الصَّغِيرِ، فَقَالُوا: هَهُنَا أُمِرْتُمْ. فَنَزَلُوا، فَذَكَرُوا الحَدِيثَ بِطُولِهِ، قَالَ: فَقَالَ عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَسَابِعُ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ حَتَّىٰ تَقَرَّحَتْ أَشْدَاقُنَا، فَالتَقَطْتُ**

بُرْدَةً قَسَمْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدٍ، فَمَا مِنَّا مِنْ أُولَئِكَ السَّبْعَةِ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ أَمِيرُ مِصْرٍ مِنَ الأَمْصَارِ، وَسَتُجَرِّبُونَ الأُمَرَاءَ بَعْدَنَا».



شرح الحديث

الحديث ضعيفٌ كما أشار إلىٰ ذلك الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، وضعفُه إنما جاء من جهة السند، وذلك لجهالة خالد بن عميرٍ وشُوَيْسٍ المذكورين في الرواية.

لكن موضع الشاهد من الحديث قد أخرجه الإمام مسلمٌ في صحيحه(١)، وهو قوله: «وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّىٰ قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا».

قول خالد وشُوَيس: «بَعَثَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ عُتْبَةَ بْنَ غَزْوَانَ، وَقَالَ: انطَلِقْ أَنتَ وَمَن مَعَكَ»، كان هذا بدايات فتح العراق؛ الكوفة وجنوبها.

قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي أَقْصَىٰ بِلَادِ العَرَبِ وَأَدْنَىٰ بِلَادِ العَجَمِ»، يصف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الموضع الذي يريد مِن عتبة وجيشه أن يسير إليه، وهو في أقصىٰ بلاد العرب، يعني: في أبعد نقطة مِن شمال جزيرة العرب، وأدنىٰ بلاد العجم، يعني: في أقرب نقطة من بلاد العجم، والمقصود بها أرض فارس وما جاورها.

قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَأَقْبِلُوا»؛ يعني: لا تستمرّوا في المسير، واجعلوا ذلك موضعًا تنتهون إليه.

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٦٧).

هنا ينتهي كلام عمر ﵁، وتنتقل الرواية لوصف ما حصل مِن عُتبة وأصحابه.

قولهما: «حَتَّىٰ إِذَا كَانُوا بِالمِرْبَدِ وَجَدُوا هَذَا الكَذَّانَ»، والـمِرْبَدُ: موضعٌ يُحْبَس فيه الإبل والغنم وتأوي إليه، أو موضعٌ يُستخدَم لتجفيف التمر.

والكذَّان ـ علىٰ وزن حَسَّان ـ: اسم حجارةٍ بيضاءَ رخوةٍ، ليست كطبيعة حجارة صحراء العرب في صلابتها وقسوتها، فكان منظرًا مُلْفِتًا وشكلًا عجيبًا متميزًا عن غيره من البقاع المجاورة.

يعني: ساروا حتىٰ إذا وصلوا المكان الذي أشار إليه عمر استقرُّوا به وأقاموا، وبُنيت البصرة هناك، وقد سجَّل التاريخُ أنَّ مُخْتَطَّ البصرة وبانيها هو عتبة بن غزوان ﵁، فكان هذا قبل أن تكون البصرةُ مدينةً وحاضرةً تعرف بهذا الاسم، وقد غدت فيما بعدُ مدينةً من مدن التاريخ الإسلامي المعروفة إلىٰ اليوم في جنوب العراق.

قولهما: «فَقَالُوا: مَا هَذِهِ؟، قَالُوا: هَذِهِ البَصْرَةُ»؛ أي: سأل الجيشُ أهلَ المنطقة عن هذه الحجارة، فقالوا: هذا النوعُ من الحجارة يُسَمّىٰ البصرة.

ولم يقصدوا أنَّ اسم المنطقة البصرة؛ لأنَّ البصرة لم تكُن قد بُنِيَتْ بَعدُ، ولكن عتبة عندما بنىٰ المدينة سمَّاها بهذا الاسم، وما زالت معروفةً إلىٰ اليوم بهذا الاسم.

قولهما: «فَسَارُوا حَتَّىٰ بَلَغُوا حِيَالَ الجِسْرِ الصَّغِيرِ، فَقَالُوا: هَهُنَا أُمِرْتُمْ. فَنَزَلُوا»؛ يعني: هذا وصفُ ما أوصىٰ به أميرُ المؤمنين عمر ﵁ أن نقف عنده

وأن لا نتجاوزه في المسير، فامتثلوا أمر الخليفة ونزلوا في ذلك المكان.

«**فَذَكَرُوا الحَدِيثَ بِطُولِهِ**»؛ يعني: في الحديث قصة طويلةٌ، اختصرها الترمذي وأورد منها موضع الشاهد لهذا الباب؛ لأنَّ القصة حصلت في زمن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أي: بعد وفاة النبي ﷺ بسنوات، والبابُ في عيش رسول الله ﷺ، فأورد منها موضع الشاهد.

قول عتبة بن غزوان رضي الله عنه: «**لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَسَابِعُ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»؛ يحدث عن قصَّةٍ حصلت له وهو أحدُ سبعةِ رجالٍ أسلموا لا ثامن لهم، وذلك في بداية الإسلام وقلة المسلمين يومئذ، أو أنَّه كان مع النبي ﷺ مجتمعين في مكانٍ أو مسيرٍ ولا ثامن معهم.

قوله رضي الله عنه: «**مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ حَتَّىٰ تَقَرَّحَتْ أَشْدَاقُنَا**»، وهذا وصفٌ مُشَابِهٌ لما تقدم في حديث سعدٍ؛ مِن أنَّه أحوجهم الجوع وعدم الطعام إلىٰ أكلِ ورق الشجر.

وفي هذا الحديثِ زيادةٌ عن الحديث السابقِ أنَّ النبي ﷺ كان مشاركًا لهم في هذا الطعام.

قوله رضي الله عنه: «**فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً قَسَمْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدٍ**»، لم يكن حالُهم شدة جوعٍ فقط، بل قلة لباس أيضًا. أي: التقط بردةً ساقطة علىٰ الأرض تخلَّىٰ عنها صاحبُها لقِدَمها أو تلفها وتقطعها، فقسمها بينه وبين سعد.

قوله رضي الله عنه: «**فَمَا مِنَّا مِنْ أُولَئِكَ السَّبْعَةِ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ أَمِيرُ مِصْرٍ مِنَ الأَمْصَارِ**»، يحكي عن هؤلاء السبعة الذين عانوا ما عانوا من الجوع وقِلَّة

اللباس، دارت بهم الأيام، وانتقل حالُهم بعد الفتوحات، وارتَقَوْا حتىٰ أصبح كل واحدٍ منهم أميرًا لمصر من الأمصار.

ولكن ليس المقصود أنهم أصبحوا أصحاب قصور فارهة ومراكب فاخرة، فإن الأمراء في ذلك الزمان كان غِناهم الشبع وعدم الجوع، وتجاوز مرحلة الفقر ليس إلا.

وفي هذه العبارة إشارةٌ ضمنيَّةٌ إلىٰ أنَّ هؤلاء الذين عاشوا مرحلة الابتلاء والتمحيص، وتحمَّلوا أعباء وتكاليف الجهاد القاسية؛ كتب الله لهم بعد ذلك علوًّا ورِفْعَةً في أمور الدين والدنيا معًا؛ فحفظ التاريخ مناقبهم، وسيقت لهم الإمارة يأتمر الناس بأمرهم وينتهون بنهيهم.

وهكذا كل إمامة في الدين لا بد أن تُسبق بصبر ويقينٍ وتحمُّلٍ للمشاقِّ في ذات الله ﷻ، قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، ومِن هذه الآية سرت الجملة المشتهرة: «بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين»(١).

قوله رضي الله عنه: «**وَسَتُجَرِّبُونَ الْأُمَرَاءَ بَعْدَنَا**»؛ أي: أنَّ هؤلاء الأمراء السبعة

---

(١) قالها شيخ الإسلام ابن تيمية. انظر: مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣٥٨)، وجامع المسائل - المجموعة الأولىٰ (ص١٦٨).

ونقل ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ١٧): سُئل الشافعي: أيهما أفضل للرجل أن يُمكَّن أو يُبتلىٰ؟ فقال: «لا يُمكَّن حتىٰ يُبتلىٰ، والله عزَّ وجلَّ ابتلىٰ أُولي العزم من رسله، فلمَّا صبروا مكَّنهم».

عندما عاشوا قبل ذلك حياة الشظف والفقر والجوع وقلة العيش، ثم عاشوا الإمارة؛ وازنوا بين الأمور، ولم يُسرِفوا علىٰ أنفسهم من متاع الحياة وملذاتها.

وأخبرهم بأنَّ الأمراء الذين سيأتون فيما بعد مِمَّن عاش حياته في ترفٍ ورفاهية؛ فإنَّه سيزداد رفاهية وترفًا، وسيبلغ من الطغيان مبلغًا، ويتناسىٰ حق الله عليه في هذه الإمارة.

*** لفتة إيمانية:**

في هذا الحديث تصبيرٌ للفقراء الذين قد ضاقت عليهم الدنيا؛ أن ينظروا في حال النبي ﷺ وحالهم، فإن أكثر الفقراء في زماننا لم يصل بهم الحالُ إلىٰ أن يأكلوا أوراق الشجر، أو أن تتقرَّح أشداقهم بسبب ما يأكلون.

نعم قد يحصل هذا في بعض البلدان، وقد يحصل لبعض الفقراء، ولكن العجيب أنَّ النبي ﷺ وأصحابه كانوا يعيشون في هذا الفقر وهذه الحالة، ومعهم أكرم البشر، الذي كان قادرًا أن يدعو ربه أن يُمِدَّه بلقمةٍ يسدُّ بها جوعَه، ولكن ما كان النبي ﷺ يدعو بهذا ولا يلتفت إليه، فلا تجِدُ في السُّنَّة أنَّ النبي ﷺ دعا ربَّه يريد منه طعامًا أو شرابًا!، ذلك النبي الذي شُقَّ له القمر، وعُرِج به إلىٰ السماء، وتكلَّم الحصا في يده، صاحب المعجزات الكثيرة، ما كان عاجزًا أن يطلب معجزة مثل تلك المعجزات من إيجاد بستانٍ أو نهر أو نحوه لطعامه وشرابه، ولكنه ما كان يأبه لهذا ولا يلتفت إليه ولا يشغل نفسه بطلب ذلك من الله، ولكنه يأكل اللقمة إن وجدها فيحمد الله عليها، ويشرب الشربة إن وجدها ويحمد الله عليها، في غِنًىٰ وقناعةٍ عظيمين.

فعلينا أن نُعِيد مفهومنا في معنىٰ الفقر والغِنىٰ الذي يتحدث عنه الناس اليوم، ونقارنه بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

وقد يسأل سائلٌ: ألم يقل الله عز وجل لنبيّه ﷺ: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحىٰ: ٥]، فأين الإعطاءُ وهو قد عاش حياة المساكين التي لا يكاد يجد ما يسدُّ بها جُوعَه.

فالجواب: أنَّ العطاءَ الحقيقيَّ والمكرمةَ البالغةَ لم يقصد بها الدنيا، وليس المقصود بها الطعام والشراب، فإنَّ هذا ليس مقصدًا للنبي ﷺ، وإنما سيعطيه حتىٰ يرضيه في الآخرة، وأمّا عطاء الدنيا البالغ حدَّ الرضا فإنما يتحقّق في بلوغه ﷺ مراده من تبليغ دعوته واستجابة أمّته.

***

(صحيح) ١١٦ـ **عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ وَمَا يُؤْذَىٰ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِن بَيْنِ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبِطُ بِلَالٍ»**(١).

شرح الحديث

الحديث صحيح بمجموع طرقه كما أشار الشيخ الألباني رحمه الله.

قوله ﷺ: «لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ وَمَا يُؤْذَىٰ أَحَدٌ»؛ يعني: كان أعداء النبي ﷺ في مكة وما حولها يُخَوِّفُون النبي ﷺ بأنواعٍ

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٢١٢)، والترمذي (٢٤٧٢)، وابن ماجه (١٥١)، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

من التخويف، في وقتٍ ما كان يخافُ فيه أحدٌ غيره، ويؤذون رسول الله ﷺ في وقتٍ ما كان يُؤذىٰ فيه أحدٌ، فتفرَّد بالتخويف والأذىٰ في سبيل الله سبحانه.

والمواقف التي تحكي إيذاءه وتخويفه كثيرةٌ.

قوله ﷺ: «وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِن بَيْنِ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبِطُ بِلَالٍ»؛ أي: مَرَّ عليهم شهرٌ بكامله، وليس عندهم شيء من الطعام إلا شيءٌ قليلٌ، يمكن مِن قِلَّتِه أن يخفيه بلالٌ تحت إبطه؛ فهو شيءٌ قليلٌ لا يُشْبِع ولا يتجاوز اللقيمات القليلات.

***

(صحيح) **١١٧ـ وَعَنْهُ ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَجْتَمِعْ عِندَهُ غَدَاءٌ وَلَا عَشَاءٌ مِنْ خُبْزٍ وَلَحْمٍ إِلَّا عَلَىٰ ضَفَفٍ»[1]، قَالَ عَبْدُ اللهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ كَثْرَةُ الأَيْدِي.**

شرح الحديث

قول أنس ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَجْتَمِعْ عِندَهُ غَدَاءٌ وَلَا عَشَاءٌ مِنْ خُبْزٍ وَلَحْمٍ إِلَّا عَلَىٰ ضَفَفٍ»؛ أي: ما كان يجتمع عنده اللحم والخبز ليأكل منه في اليوم مرتين متتاليتين في الغداء والعشاء، إلا إذا كان هناك ضيوف استدعت ضيافتُهم تقديمَ الخبز واللحم مرتين، وأما عيشته وأهل بيته ﷺ فما كانت تبلغ ذاك المبلغ.

وتقدم في هذا الباب الحديثُ رقم (١٠٩) من حديث مالك بن دينار مرسلًا: «**مَا شَبِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ خُبْزٍ قَطُّ وَلَا لَحْمٍ إِلَّا عَلَىٰ ضَفَفٍ**»، وتقدم هناك تفسير الضفف بأنه اجتماع الضيوف وكثرتهم.

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٨٥٩).

(قَالَ عَبْدُ اللهِ): هو أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي صاحب المسند.

(قَالَ بَعْضُهُمْ)، تقدّم في حديث مالك بن دينار أنَّ القائل هو مالكٌ.

***

(ضعيف) ١١٨ـ **وَعَن نَوْفَلِ بْنِ إِيَاسٍ الهُذَلِيِّ قَالَ: كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ لَنَا جَلِيسًا، وَكَانَ نِعْمَ الجَلِيسُ، وَإِنَّهُ انقَلَبَ بِنَا ذَاتَ يَوْمٍ، حَتَّىٰ إِذَا دَخَلْنَا بَيْتَهُ، دَخَلَ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ خَرَجَ، وَأَتَيْنَا بِصَحْفَةٍ فِيهَا خُبْزٌ وَلَحْمٌ، فَلَمَّا وُضِعَتْ بَكَىٰ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: «هَلَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَمْ يَشْبَعْ هُوَ وَأَهْلُ بَيْتِهِ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ، فَلَا أُرَانَا أُخِّرْنَا لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَنَا»**(١).

شرح الحديث

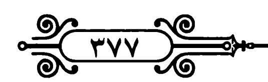
الحديث ضعيف السند لجهالة نَوفلٍ الراوي، ولكن معناه صحيحٌ، ويشهد له ما تقدَّم في الأحاديث والروايات السابقة من ضيق عيشِ النبي ﷺ.

قول نوفل: «وَأَتَيْنَا بِصَحْفَةٍ فِيهَا خُبْزٌ وَلَحْمٌ، فَلَمَّا وُضِعَتْ بَكَىٰ عَبْدُ الرَّحْمَنِ»، تذكر عيشة رسول الله ﷺ وما كانت عليه من الضيق وعدم السعة في الطعام.

وهذا البكاء يدلُّ علىٰ أنَّ الصحابة لم ينسوا حياتهم مع النبي ﷺ بعد وفاته، وكانوا يحِنُّون إليها، ويشتاقون لها، مع ما فُتِحَ عليهم من الدنيا؛ لأنَّ نعيم

---

(١) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار/ مسند عمر (٢/ ٧٠٤، رقم: ١٠٢٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٩٩).



الروح الذي كانوا يجدونه مع النبي ﷺ لا يُقارن بالنعيم الدنيوي، وهذا المعنىٰ نراه متكررًا في الأحاديث السابقة مع جمعٍ من الصحابة الذين فُتِحَت عليهم الدنيا وما زالوا يتذكَّرون تلك اللحظات الجميلة التي عاشوها مع النبي ﷺ مع ما فيها من الضيق وعدم السعة.

قول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «**فَلَا أُرَانَا أُخِّرْنَا لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَنَا**»، خشي رضي الله عنه أن يكون انفتاح الحياة وسعتها التي حصلت لهم بعده ﷺ فتنةً لهم.

*** لفتة إيمانية:**

إذا كان الصحابة ـ وهم مَن هم ـ يخشون أن يكون انفتاحُ الحياةِ عليهم فتنةً لهم؛ فما عسىٰ أحدُنا أن يقول اليوم وقد انفتحت أبواب الحياة من كل جانب، وتكاثرنا في الأموال والمتاع والبيوت والسيارات والمراكب، وأمِن الناس مِن أن يكون ذلك استدراجًا بالنعم.

فعلىٰ الناس أن يعلموا أنَّ قلة الحياة خير لهم، والتخفُّف منها أفضل للعباد يوم يلقون الله سبحانه.

***

*** لفتة إيمانية:**

بهذا الحديث انتهىٰ باب ما جاء في عيش رسول الله ﷺ، والأحاديث والروايات التي تتحدث عن عيش النبي ﷺ أكثر مِن أن تُحْصَر، ولكن يمكن تلخيص جميع ذلك بأن يُقال: إنَّ النبيَّ ﷺ قطع هذه الحياة متقلِّلًا منها، ولم

يُثقِل نفسَه بشيءٍ مِنها، متخفِّفًا مِن حسابِ الله عز وجل الذي يُحاسَبُه الأغنياء يوم القيامة حتىٰ وإن كانوا مِن أهل الجنة.

فإنَّ الفقراء يخِفُّ حسابُهم يوم القيامة، ويطول حساب الأغنياء، والفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِخَمْسِ مِائَةِ عَامٍ**»(١).

وكيف لا يدخلونها قبلهم وهم ما عندهم شيءٌ ليُحاسَبُوا عليه! عَنْ عبدِ الله بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَعْلَمُ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي؟**»، قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: «**الْمُهَاجِرُونَ، يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَىٰ بَابِ الْجَنَّةِ وَيَسْتَفْتِحُونَ، فَيَقُولُ لَهُمُ الْخَزَنَةُ: أَوَقَدْ حُوسِبْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: بِأَيِّ شَيْءٍ نُحَاسَبُ! وَإِنَّمَا كَانَتْ أَسْيَافُنَا عَلَىٰ عَوَاتِقِنَا فِي سَبِيلِ اللهِ، حَتَّىٰ مِتْنَا عَلَىٰ ذَلِكَ**»، قَالَ: «**فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيَقِيلُونَ فِيها أَرْبَعِينَ عَامًا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا النَّاسُ**»(٢).

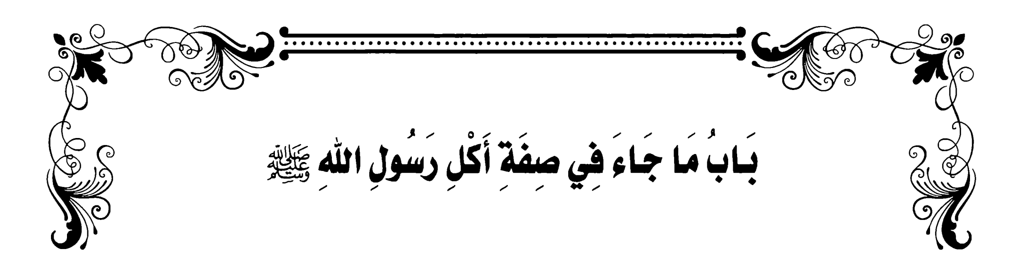
يتأخر الأغنياء عن دخول الجنة مع صلاحهم، فكيف بِمن جمع ماله مِن حرام، وتخطىٰ حدود الله فيه، وركب أمواج الشبهات، وخاضَ به الفتن والمدلهمات!.

فمَن تأمَّلَ هذا كله عرَفَ أنَّ الفقراء هم أكثرُ الناسِ حظًّا، وأسعدهم حالًا، وهم المستحقُّون للغبطة؛ فإنَّ مَن فاز بالآخرة فاز بكلِّ شيءٍ! فكيف إذا جمع الفقيرُ إلىٰ هذا عملَه بسنة النبي ﷺ واقتداءه به!

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٤٦)، والترمذي (٢٣٥٣، ٢٣٥٤)، وابن ماجه (٤١٢٢)، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه الحاكم (٢٣٨٩)، وصححه علىٰ شرط الشيخين.



بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ أَكْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

(ضعيف) ١١٩ـ **عَنِ ابْنٍ لِكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَلْعَقُ أَصَابِعَهُ ثَلَاثًا».**

قَالَ أَبُو عِيسَىٰ: وَرَوَىٰ غَيْرُ مُحَمَّدِ بْنِ بَشَّارٍ هَذَا الحَدِيثَ قَالَ: «يَلْعَقُ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ».

شرح الحديث

استفتح المصنفُ رحمه الله البابَ بهذه الرواية الضعيفة مُعقِّبًا لها بوجه مخالفتها للروايات الآتية بعدها، ومجموعُها يشترك في إثبات سُنِّيَّة لَعقِ الأصابع.

قول كعب بن مالك ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَلْعَقُ أَصَابِعَهُ ثَلَاثًا»، وجه ضعف الرواية أنَّ فيها شذوذًا؛ وهو أنَّه جاء في هذه الرواية أنه يلعق أصابعه ثلاثًا، أي: كان يلعق كل أصبع ثلاث مرات، فيما أن الروايات الثلاث الأخرىٰ ذكرت أنه يلعق أصابعه الثلاث؛ فوجه الشذوذ تحديد اللعق بمراتٍ ثلاث.

(قَالَ أَبُو عِيسَىٰ: وَرَوَىٰ غَيْرُ مُحَمَّدِ بْنِ بَشَّارٍ هَذَا الحَدِيثَ)؛ يشير الإمام الترمذي إلىٰ مخالفة رواية محمد بن بشار لرواية غيره من الرواة عن كعب بن مالك.

قول كعب بن مالك ﷺ: «**يَلْعَقُ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ**»؛ كيفية اللَّعْق: أن يُدخل أصبعَه الذي أكل به في فمه، ويَلعقَ أثرَ ما بقيَ من الطعام على هذا الأصبع؛ مِن دُهنٍ أو بقايا طعامٍ مما يبقى على الأصابع عادةً.

والأصابعُ التي يلعقها هي الأصابعُ الثلاثُ التي كان يأكل بها، وستأتي في الحديث بعد القادم، فإذا فرغ من الطعام كان يلعقُ هذه الأصابع الثلاثة.

وسُنّةُ لَعقِ الأصابع إنما تكون بعد الانتهاء من الطعام، وليس عَقِب كلّ لُقمة.

وحِكمة اللَّعْق ـ والعلم عند الله ـ: التماس البركة؛ لأنَّ البركة قد تكون في بعض أجزاء الطعام، فيبحث عنها الإنسان ويلتمسها؛ عَنِ الحَسَنِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَمْسَحْ أَصَابِعَهُ حَتَّىٰ يَلْعَقَهَا، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ كَانَتِ البَرَكَةُ**»(١).

ويؤكّد ذلك ما ورد مِن الأمر بلَعْق الصَّحْفة، عَن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ذَلِكَ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ: «**وَلا يَرْفَعِ الصَّحْفَةَ حَتَّىٰ يَلْعَقَهَا أَوْ يُلْعِقَهَا؛ فَإِنَّ آخِرَ الطَّعَامِ فِيهِ البَرَكَةُ**»(٢).

ومِن حِكمة اللَّعْق أيضًا: أنه مظهرٌ من مظاهر التواضُع والإخبات؛ لأنَّ أهل الفقر والجوع هم الذين يبحثون عن آخر الطعام وبقيته.

---

(١) أخرجه معمر بن راشد في الجامع (١٩٥٥٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٧٢).

الأكلُ بالملاعق: الأكل بالملاعق ليس محرَّمًا، ولكن الآكِلَ بالملاعق يفوته تطبيق سُنَة اللعق، ومِن وراءِ ذلك تفوته الحِكَم من سُنّة اللعقِ.

*** لفتة إيمانية:**

في لَعْقِ النبي ﷺ أصابعَه إشارةٌ إلىٰ أنَّه ما كان يبلغ به الشبعُ أن يستغنيَ عن آخر الطعام، بعكس ما يحصل مِن كثيرٍ من الناسِ مِن ترك الطعام متناثرًا علىٰ الطبق أو علىٰ السفرة، بل قد يُقذَفُ بباقي الطعام في الزبالة، في مظهر من مظاهر عدم احترام النعمة وتقديرها.

***

(صحيح) **١٢٠ـ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَكَلَ طَعَامًا لَعِقَ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ».**



شرح الحديث

حديثُ أنسٍ هذا مؤيِّدٌ لحديث كعب بن مالك السابق في رواية غير محمد ابن بشار.

***

(صحيح) **١٢١ـ عَنِ ابْنٍ لِكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْكُلُ بِأَصَابِعِهِ الثَّلَاثِ وَيَلْعَقُهُنَّ».**

شرح الحديث

قول كعب بن مالك رضي الله عنه: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْكُلُ بِأَصَابِعِهِ الثَّلَاثِ**»، فيه أنَّ مِن السُّنَّة الأكل بأصابعٍ ثلاثٍ من اليد اليمنىٰ، وهي: الإبهام، والسبابة، والوسطىٰ.

وهذا إنما يمكن تحقُّقه إذا كان المأكول مجموعًا متماسكًا، فمَن أكل طعامًا يستمسك بيديه فالسنة أن يأكله بهذه الأصابع الثلاث، أمَّا الطعام الذي لا يمكن أن يتماسك بالأصابع الثلاث فلا بأس بالإنسان أن يأكله بأصابعه الخمس.

وللأكل بالأصابع الثلاث **فائدتان**:

الفائدة الأولىٰ: تقليل الأكلِ؛ فإنَّ الآكِل بالثلاثِ ليس كالآكِل بالخمسِ، فإنَّ اللُّقمة المأخوذة بالأصابع الثلاث أقلُّ حجمًا ولا شكَّ من اللقمة المأخوذة بالأصابع الخمس، ويؤدّي هذا في آخر الطعام إلىٰ أن يكون قد أكل أقلَّ مما لو أكل بأصابعه الخمس.

الفائدة الثانية: تقليل حجم اللُّقمة الواحدة؛ وذلك أَهْنَأُ وأَمْرَأُ للآكِلِ، وأرفق بالمعدة كما شهد بذلك الطبّ الحديث.

قوله رضي الله عنه: «**وَيَلْعَقُهُنَّ**»، جمعت هذه الرواية بين الأدبَين: الأكلِ بثلاث أصابع، ثم لعقِ هذه الأصابع الثلاث، فيما أنَّ الروايتين السابقتين ذكرتا لعق الأصابع الثلاث بعد الأكل؛ وفيهما أيضًا إشارة إلىٰ أنَّه كان يأكل بها.

***

(صحيح) ١٢٢ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه يَقُولُ: «أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَمْرٍ، فَرَأَيْتُهُ يَأْكُلُ وَهُوَ مُقْعٍ مِنَ الجُوعِ»(١).

شرح الحديث

قول أنس بن مالك رضي الله عنه: «**أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَمْرٍ**»؛ أي: بتمر كثيرٍ، بدليل ما ورد في صحيح مسلم(٢) عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «**أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَمْرٍ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْسِمُهُ وَهُوَ مُحْتَفِزٌ، يَأْكُلُ مِنْهُ أَكْلًا ذَرِيعًا**»، وَفِي رِوَايَةِ زُهَيْرٍ: «**أَكْلًا حَثِيثًا**»، فمِن كثرة هذا التمر أصبح يقسمه بين الصحابة.

وهذا مشهدٌ يخالِفُ المشاهد التي سبق ذكرُها في عيشة النبي ﷺ، مِن قِلَّة الطعام، بل هو مشهد آخرُ فيه سَعَةٌ من العيش، وقدرٌ مِن الطعام يفيض عن حاجته، حيث جاءه تمرٌ كثيرٌ، مِن كثرته أنَّه قسمه، وجعل يبعث أنس بالمِكْتَل لبعض بيوتات المدينة الفقيرة والجائعة، وذلك قبل أن يأكل ﷺ، فما زال يبعث حتىٰ فرغ من توزيعه وبقي بين يديه القليل فجعل يأكل منه.

قوله رضي الله عنه: «**فَرَأَيْتُهُ يَأْكُلُ وَهُوَ مُقْعٍ**»، مُقْعٍ: أي: جالسٌ جلسة الإقعاء. والإقعاء: أن يجلس علىٰ إليتيه، ناصبًا ساقيه، كالمستوفز المتحفز للنهوض والقيام.

ولجلسة الإقعاء أثناء الطعام ثلاثة فوائد:

الأولىٰ: أنَّه كان جالسًا جلسة تدل علىٰ أنه في عجلةٍ من أمره؛ لأنَّه ما كان أكثر همِّه الطعام، وما كان يَمُدُّ له الفراش، ويطيل السفرة، ويتربَّع للجلوس، بل

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٨٦٠، ١٣١٠١)، وأبو داود (٣٧٧١)، والنسائي في الكبرىٰ (٦٧١١).

(٢) صحيح مسلم (٢٠٤٤).

كان الأمرُ عنده مجرد لقيمات لا تستحق أن يصرفَ لها شيئًا من عمره ووقته.

بعكس ما يحصلُ مِن الناس اليومِ؛ حيث أصبحت جلسة الطعام جلسة تُصْرَف عليها الأوقات، وتُطْرَح فيها الأحاديث، ثم يضيق بالناس الوقت عن أن يركعوا لله ركعتين نافلةً، أو أن يطلبوا علمًا نافعًا، أو أن يسعوا في حاجة مسلمٍ لدقائق معدودات!.

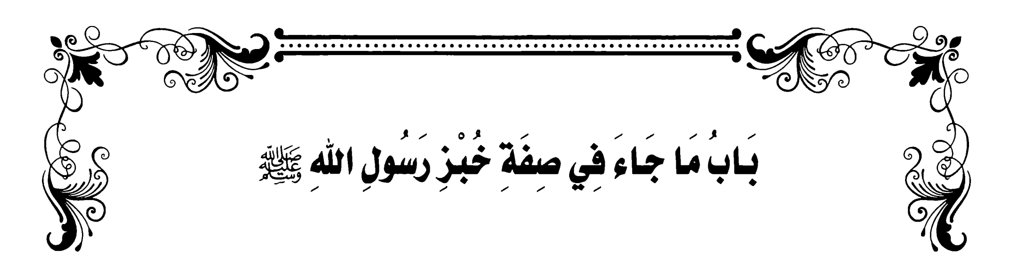
الثانية: أنه كان يجلس جلسة الإقْعاءِ، وهي جلسة الفقراء والمحتاجين، ولا يجلس جلسة الأغنياء المتكبرين المترفين.

الثالثة: أنَّ جلسةَ الإقعاء تمنعُ الآكل مِن الإكثار من الطعام، فلا تحمِله علىٰ الشِّبَع.

قوله رضي الله عنه: «**مِنَ الجُوعِ**»، وفي رواية مسلمٍ: «**يَأْكُلُ مِنْهُ أَكْلًا حَثِيثًا**»؛ أي: جعل ﷺ يأكل التمرة عقِب التمرة، وما حمله علىٰ ذلك إلا الجوع.

ولكنَّ هذا الجوع ما أنساه أن يبعث بالتمر إلىٰ الفقراء والمساكين من الصحابة، فما كان له ﷺ أن يشبع وأصحابُه فقراء، بل كان يأكل ما يسدُّ جوعَه، وما زاد عن حاجته يرسل به إلىٰ أصحابه يواسيهم به؛ فهو ﷺ يعيش معهم بحسبهم؛ يجوع إذا جاعوا، ويشبع إذا شبعوا، فهو يحملُ همَّ الأمة، ويعيش معها فعلًا لا قولًا؛ يشاركهم بمشاعره، ويشاركهم بطعامه، حقيقةً وتطبيقًا.

** ** **



بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ خُبْزِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

يذكر المؤلفُ في هذا الباب بعض الأحاديث التي تدلُّ علىٰ لونٍ من ألوان الطعام الذي كان يأكله ﷺ، وصفته، وهو الخبز؛ فهو يكشفُ جانبًا من جوانب عيشة النبي ﷺ.

***

(صحيح) **١٢٣ـ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّىٰ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ»**(١).

شرح الحديث

قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **«مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ»**، تقصد جميع بيوت النبي ﷺ أي: بيتها وبيت ضَرَّاتها، فما شبع هو ﷺ، ولم تشبع زوجاته، ولم يشبع أولاده وبناته.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **«مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ»**: وهو أقسىٰ أنواع الخبز وأيبسها، وأصعبها أكلًا ومضغًا، وأخشنها مذاقًا، فلم يكن خبزًا يُرغب في أكله كما يُرغب في أنواع الخبز الأخرىٰ، أَضِفْ إلىٰ ذلك أَنَّهم ما كان يتوفر لهم نَخْلُ الطحين بعد طحنه،

(١) أخرجه أحمد (٢٤٦٦٥).

فيبقىٰ في الطحين من قشر الشعير وقشر الحبوب ما يُقَسِّيه ويُصَعِّب أكله، فليس هو بخبز الشعير الذي يأكله الناس اليوم في نعومته ولذاذة طعمه.

والمقصود: أنَّ أقل أنواع الخبزِ ما كانوا يشبعون منه؛ فكيف بألذِّه وأفخره؟

قولها رضي الله عنها: «**يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ**»؛ أي: إن وجدوا خبز الشعير وأكلوه فإنه لا يبلغ بهم الحدُّ أن يشبعوا منه ليومين متتالين؛ بل إن وجدوه يومًا فقدوه في اليوم الذي يليه، أي: نصف حياتهم ما كانوا يجدون فيها هذا الخبز.

قولها رضي الله عنها: «**حَتَّىٰ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ»، وقد عاش النبي ﷺ ثلاثًا وعشرين سنةً بعد النبوة، كان له في مكة بيتان: بيت خديجة وبيت سَودة رضي الله عنهما، ثم توسعت بيوته في المدينة، كل ذلك وما شبع أحدٌ منهم من خبز الشعير يومين متتالين.

والحاكي لهذا الأمر هي زوجة النبي ﷺ، فهي تحكي ذلك عن معرفة واطِّلاع لما تقول.

فهو علىٰ هذه الحالة مُنذُ بُعِث، ولم تكن حالة أيامٍ أو شهورٍ فيُصْبَر عليها، بل هي حالة سنواتٍ طِوالٍ.

وإذا كان لا يجد الخبز فغيره من اللحم وطيبات الطعام مِن باب أولىٰ؛ فإنَّه إذا لم يجد الخبز فأحرىٰ ألا يجد ما يؤكل بالخبز!

***

(صحيح) ١٢٤ـ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رضي الله عنه يَقُولُ: «مَا كَانَ يَفْضُلُ عَنِ أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ خُبْزُ الشَّعِيرِ»(١).

شرح الحديث

قول أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه: «مَا كَانَ يَفْضُلُ عَنِ أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ خُبْزُ الشَّعِيرِ»؛ أي: ما كان يزيد عن حاجتهم؛ فعندما يجدون خبز الشعير كل يومين كانوا يجدون كفايتهم فقط، ولا يجدون أكثر من الكفاية.

***

(صحيح) ١٢٥ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَبِيتُ اللَّيَالِيَ المُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا هُوَ وَأَهْلُهُ، لا يَجِدُونَ عَشَاءً، وَكَانَ أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبْزَ الشَّعِيرِ»(٢).

شرح الحديث

قول ابن عباس رضي الله عنهما: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَبِيتُ اللَّيَالِيَ المُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا هُوَ وَأَهْلُهُ، لا يَجِدُونَ عَشَاءً»؛ طاويًا: مِن الطيِّ، ومنهم قولهم: طَوَيْتُ الصفحة، وطَويتُ الثوب؛ أي: ثَنَيْتُه علىٰ بعضه.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٨٤)، والترمذي (٢٣٥٩)، وقال: «حسن صحيح غريب».

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٠٣)، والترمذي (٢٣٦٠)، وابن ماجه (٣٣٤٧)، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

وطَوَىٰ الرجُلُ ليلتَه، أو بات ليلتَه طاويًا: كنايةٌ عن الجوع، كأنَّه ثَنَىٰ معِدته الفارغة من الطعام لأنها خاويةٌ، كما يَطوي الرجُلُ الكيسَ أو القطعةَ من القماش إذا كانت فارغةً لا شيء فيها.

ولم يكن ﷺ يبيت ليلةً جائعًا، وإنما هي ليالٍ متتابعة!

ولم يكن ﷺ يبيت جائعًا وحده، بل هو وأهل بيته يشاركونه هذه العيشة!

هذا وهو صاحب المعجزات والكرامات، حيث فجَّر الله الماء من بين أصابعه، وكثَّر الطعامَ القليلَ في يديه، وانشقَّ له القمرُ، وخُرِقَت له آياتُ الكون فعُرِج به إلىٰ السماء في ليلةٍ واحدةٍ؛ أيعجز أن يجد مَا يَسُدُّ جوعَه؟ لا، ولكن ما كان الطعام مسألةً مهمةً تستحق معجزةً إلهيةً، إن هي إلا لقيماتٌ تؤكل ويُسَدُّ بها الجوع، ويُقيمُ بها الإنسانُ صلبَه.

ولو تأملت حال أكثر الفقراء اليوم أينامون جائعين ثلاثة أيامٍ متتابعة؟ إنَّ هذا لا يكاد يوجد إلا في أحوال وأوقات نادرة.

قوله رضي الله عنه: «**وَكَانَ أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبْزَ الشَّعِيرِ**» هو ـ كما سبق ـ إشارة إلىٰ خشونة معيشتهم.

والراوي لهذا الحديث هو ابن عباس رضي الله عنهما، وهو ابن عمِّ رسول الله ﷺ، وخالته ميمونة زوج النبي ﷺ، فهو يعرف ما في بيوت النبي ﷺ، فحكايته معيشة النبي ﷺ وأهله هي حكاية رجل خبير.

*** لفتة إيمانية:**

هكذا كان أكلُ النبي ﷺ، يأكل أقل أنواع الخبز، واليوم إذا ذكرت كلمة

(الخبز) نتخيَّل أنواع الخبز وأصنافه وألوانه التي نراها في المخابز مما نشتريها ونأكل منها؛ الطويل والقصير، الحلو والمالح، المحشي والفارغ، وغيرها.

وإذا أكل الخبز فإنه لا يشبع منه يومين متتالين، ونحن اليوم لا نصبر أن يغيب الخبز عن وجبتين متتاليتين من أطعمتنا.

ولو تأمَّلت في حالِ بعضِ الأُسَر لوجدتَ أن علاقة الرجل بزوجته يحكمها الطعام، فالطعام قضية مؤَرِّقة بالنسبة للزوجة تفكِّر فيها كل يوم وكل وجبة، وإذا لم تُعِدَّ الزوجةُ الطعامَ قد يكون ذلك سببًا من أسباب طلاقها، والرجل لا يستأنسُ بالحديثِ إلا أن يكون عمَّا وجده من طعام لذيذ، وتفَاخَر الناسُ بما يُعِدُّونه من المطاعم والمشارب، وبمعرفتهم بألوانٍ جديدة من الأطعمة والأشربة.

وليس هذا تحريمًا للمباح، فإنَّ الله ما حرَّم الطعام والشراب والطيبات علىٰ عباده، ولكن الحديث هنا عن التوسُّعِ في هذه المباحات إلىٰ أن وصلت إلىٰ حدٍّ غير لائق، وأصبحت هي القضية الأولىٰ التي تدور حولها حياةُ كثيرٍ من الناس!.

*** لفتة إيمانية:**

مما ينبغي أن يُذكر في هذا المقام: صبرُ زوجات النبي ﷺ معه، وتحمُّلهُنَّ لضيق العيش هذا، فإنَّهُنَّ ما كُنَّ يتسخَّطْنَ، بل صبرن صبرًا جميلًا.

وفي هذا إشارةٌ إلىٰ أنَّه ينبغي للرجل أن يُوَطِّن زوجتَه وأهلَ بيته علىٰ الشدة والمشقة، وألَّا يبالغ في الترف في معيشتهم.

***

(صحيح) ١٢٦ـ **عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: أَكَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّقِيَّ ـ يَعْنِي: الحُوَّارَىٰ ـ ؟ فَقَالَ سَهْلٌ: «مَا رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّقِيَّ حَتَّىٰ لَقِيَ اللهَ عز وجل»، فَقِيلَ لَهُ: هَلْ كَانَتْ لَكُم مَنَاخِلُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: «مَا كَانَتْ لَنَا مَنَاخِلُ»، قِيلَ: كَيْفَ كُنتُمْ تَصْنَعُونَ بِالشَّعِيرِ؟ قَالَ: «كُنَّا نَنفُخُهُ، فَيَطِيرُ مِنْهُ مَا طَارَ، ثُمَّ نُثَرِّيهِ، ثُمَّ نَعْجِنُهُ»**(١).

شرح الحديث

قوله: «**أَكَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّقِيَّ؟**»؛ يعني: الخبز النقي، المصنوع من الدقيق النقيّ، وهو الذي يُسَمَّىٰ اليوم: الدقيق الأبيض.

وإنما سُمِّي بالدقيق النقي: لأنَّه قد طُحِن جيِّدًا، ثم نُخِل جيِّدًا، فلم يبقَ فيه شيءٌ من قِشْرِ الحَبِّ أو غيره من الشوائب.

وما نراه اليوم مِن أنواع الدقيق والطحين فإنه في غاية النقاء.

فسؤال السائل: هل أكل رسول الله ﷺ من الخبز النقيِّ المخبوز من الطحين والدقيق النقي؟

وفي السؤال مِن التابعيِّ لطيفةٌ، وهي شدة اهتمام التابعين بمعرفة حال النبي ﷺ وحياته، ومحبتهم الصادقة له، كما أنَّ فيه شدة معرفة الصحابة بحياة النبي ﷺ، حتىٰ إنهم كانوا يعرفون أدقَّ الدقائق عن حياته ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤١٣).

قوله: «يَعْنِي الحُوَّارَىٰ؟»؛ أي: لباب الدقيق الأبيض، وصفوته، ونقيُّه، كما مرَّ آنفًا.

قول سهل بن سعد رضي الله عنهما: «مَا رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّقِيَّ حَتَّىٰ لَقِيَ اللهَ ﷻ»؛ أي: ما أبصره بعينه في حياته؛ فضلًا عن أن يأكله.

وفي هذا دلالةٌ علىٰ ما سبق مِن أنَّ الخبز الذي كان يأكله ﷺ إنما كان خبزًا شديدًا يابسًا، صعب المضغ والبلع، غير مُسْتَطْعَمٍ ولا مُسْتَلَذّ.

قوله: «فَقِيلَ لَهُ: هَلْ كَانَتْ لَكُم مَنَاخِلُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟»؛ المناخل: جمع منخل، وهي آلةٌ تُستخدم في تنقية الدقيق بعد أن يُطْحَن الحبُّ، حتىٰ يصفوَ الحبُّ بدقيقه ويُفْصَل عن قشره.

قوله: «قِيلَ: كَيْفَ كُنتُمْ تَصْنَعُونَ بِالشَّعِيرِ؟»: هذا سؤال مُتفرِّعٌ عن قوله: «مَا كَانَتْ لَنَا مَنَاخِلُ»؛ لأنَّ الشعير حَبٌّ يابسٌ، وقِشْرٌ خَشِنٌ، ومع عدم وجود المناخل يصعب تصوُّرِ كيفية استعمال الشعير طعامًا، أو أكله خبزًا!

أي: فماذا تصنعون بالشعير بعد طحنه وفيه قشرٌ دقيقٌ مختلطٌ به؟

قول سهل بن سعد رضي الله عنهما: «كُنَّا نَنفُخُهُ، فَيَطِيرُ مِنْهُ مَا طَارَ»؛ يعني: يأخذون الدقيقَ المختلط بالقشر، ثم ينفخونه، فيطير منه ما طار من القِشْر.

ولا يُتصور بهذه الطريقة أن يصبح نقيًّا، وإنما يطير منه القطع الكبيرة اليابسة، ويبقىٰ الكثير من دقيق قِشْرِ الشعير مختلطًا بدقيق الحب، فإذا عُجِنَ وخُبِزَ بقي من القِشْرِ ما يدخل بين الأسنان، وما لا يجعل الخبز مستساغًا ولا مستطابًا.

قوله رضي الله عنه: «**ثُمَّ نُثَرِّيهِ**»؛ أي: نصب عليه الماء.

*** لفتة إيمانية:**

هذا هو خبز الشعير الذي ما شبع منه رسول الله ﷺ يومين متتابعين حتىٰ لقي الله، فما بالُ بعض الناسِ يتذمَّرُ وتضيقُ نفسُه إذا لم يجد من أنواع الطعام ما يكون علىٰ موائد الكبراء والأثرياء والمترفين، ويجد نفسَه ناقصًا، قليل الحظِّ من هذه الدنيا!

لا شكَّ أنَّ ما يجده الإنسان اليومَ من الطعام هو أرقىٰ بكثيرٍ من طعام ذلك الجيل؛ فليحمد الإنسانُ ربَّه علىٰ ما آتاه من قليلٍ أو كثير!

***

(صحيح) ١٢٧ ـ **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه **قَالَ: «مَا أَكَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ عَلَىٰ خِوَانٍ، وَلَا فِي سُكُرَّجَةٍ، وَلَا خُبِزَ لَهُ مُرَقَّقٌ». قَالَ: فَقُلْتُ لِقَتَادَةَ: فَعَلَامَ كَانُوا يَأْكُلُونَ؟ قَالَ: عَلَىٰ هَذِهِ السُّفَرِ**[1].

شرح الحديث

قول أنس رضي الله عنه: «**مَا أَكَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ عَلَىٰ خِوَانٍ**»؛ الخِوان والخُوان بكسر الخاء وضمها: كلمة فارسية، وهي مائدة لها أرجلٌ قصيرة، يُوضع عليها الطعام، ويجلس الآكلُ أمامها متربعًا أو نحو ذلك، وهي عادة منتشرة بين الناس.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٨٦).

والمقصود: أنَّه ﷺ كان يُوضَع له الطعام علىٰ الأرض، ولا يُرفَع له علىٰ مائدة ونحوها؛ لأنَّ الأكل عليها يُعَدُّ تَرَفُّهًا في الطعام.

قوله رضي الله عنه: «**وَلَا فِي سُكُرَّجَةٍ**»: نوع مِن الآنية صغيرٌ، كالصحون الصغيرة المستعملة اليوم، والتي يُوضَع فيها ما لا يكون طعامًا أساسًا من المُشَهِّياتِ ونحوها؛ كالسَّلَطَة.

ومن الأحاديث السابقة تبيَّن أنَّ النبي ﷺ لا يكاد يجِدُ من الطعام ما يسُدُّ به جوعَه في كثيرٍ من الأوقات، فمِن باب أولىٰ ألَّا يجد هذه المشهيات الزائدة عن الحاجة!.

قوله رضي الله عنه: «**وَلَا خُبِزَ لَهُ مُرَقَّقٌ**»؛ الخبز المرقَّق: هو الناعم اليوم، مما نجده اليوم ويستطيبه الناس ويستطعمه.

وهذه الجملة هي موضع الشاهد لهذا الباب. يعني: ما أكل خبزًا رقيقًا أبدًا، بل كان عامة خبزه ﷺ من الخبز الخشن الغليظ، بل ربما كان يابسًا؛ يجد كِسْرَاتِ خبزٍ في بيته فيأكلها ﷺ.

وهذه الجملة تأكيد لما سبق في حديث سهل عندما نفىٰ عن النبي ﷺ أن يكون قد أكل الخبز النقي.

قوله: «**فَعَلَامَ كَانُوا يَأْكُلُونَ؟**»؛ يعني: علىٰ أيِّ شيءٍ كانوا يضعون طعامَه ليفصِلَه عن الأرض؟.

قول قتادة: «**عَلَىٰ هَذِهِ السُّفَرِ**»؛ السُّفَر: جمع سُفْرَةٍ، وهي ما يُسَمَّىٰ اليوم سُفْرَة، غير أنَّ المستعمل اليوم مصنوعٌ من البلاستِيك، والسفرة قديمًا كانت مِن جلدٍ أو قماش.

وفائدة السفرة: حفظ الطعام المتساقط مِن الآكِلِ ألا يقع علىٰ الأرض فيختلط بترابٍ ونحوه، فإنَّه إذا وقع علىٰ السفرة بقي نظيفًا وكان يمكن أكلُه دون تقذُّرٍ، أمَّا لو وقع علىٰ التراب أو الحصىٰ فإنَّ النفس تستقذره وقد يمتنع بعضُ الناسِ من أكله.

والفرق بين السفرة والخِوان: أن السفرة توضع علىٰ الأرض ملتصقةً بها، والخوان يكون له أرجلٌ يفصل الطعام عن الأرض، وكلاهما المقصود به فصلُ الطعام عن الأرض.

ولا يُفْهَم من هذا الحديث تحريمُ أو كراهةُ الأكل علىٰ الخِوان، أو في السُّكُرُّجة، أو من الخبز المرقَّق، بل هي علىٰ الأصل في الأشياء وهي الإباحة، وإنما أراد أنسٌ وصف حياة النبي ﷺ التي كانت بعيدة عن هذا الترفُّهِ في الطعام واستعمال آنيته؛ فمَن أكل علىٰ مائدةٍ مرتفعة يجلس فيها علىٰ الكراسي، أو منخفضة كالخِوان يجلس الآكل فيها علىٰ الأرض، أو أكل علىٰ السفرة؛ فإنَّه مباحٌ ولا مانع منه.

***

(ضعيف) ١٢٨ـ **عَن مَسْرُوقٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فَدَعَتْ لِي بِطَعَامٍ، وَقَالَتْ: «مَا أَشْبَعُ مِن طَعَامٍ فَأَشَاءُ أَنْ أَبْكِيَ إِلَّا بَكَيتُ»، قَالَ: قُلْتُ: لِمَ؟ قَالَتْ: «أَذْكُرُ الحَالَ الَّتِي فَارَقَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الدُّنْيَا، وَاللهِ مَا شَبِعَ مِنْ خُبْزٍ وَلَحْمٍ مَرَّتَيْنِ فِي يَوْمٍ»**(١).

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٥٦)، وحسَّنه.

شرح الحديث

هذا الحديثُ ضعيفٌ، وذلك لوجود ضعفٍ في سنده، وشذوذ في متنِه؛ وموضع الشذوذ بكاء عائشة رضي الله عنها، وإلَّا فكونه ﷺ ما شبع من خبز ولحم مرتين في يومٍ قد مرَّت له شواهد تشهد له عن أكثر من صحابي.

وكون عائشة رضي الله عنها تقارن حياتها الحاضرة بحياة النبي ﷺ قبل وفاته، قد حصل مِن جُمْلَةٍ من الصحابة ـ كما مرَّ في أحاديث سابقة ـ.

فهذا المعنىٰ حاضِرٌ في أذهان الصحابة، وهو سعادتهم وفرحتهم حال حياتهم مع النبي ﷺ، علىٰ ما عانوه من مشقةٍ وجوعٍ وتعب، ثم افتقادهم لحياتهم مع النبي ﷺ مع أنَّه قد فُتِحَت عليهم الدنيا.

** ** **




بَابُ مَا جَاءَ فِي إِدَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

(صحيح) ١٢٩ ـ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «نِعْمَ الإِدَامُ الخَلُّ».

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي حَدِيثِهِ: «نِعْمَ الأُدْمُ أَوِ الإِدَامُ الخَلُّ»(١).

شرح الحديث

الإدامُ والأُدْمُ: لفظان بمعنًى واحد، وهو كلُّ ما يؤكل به الخبزُ مِن أيِّ نوعٍ من الطعام كان؛ فإن كان عسلًا فالعسل هو الإدام، وإن كان جُبنًا فالجبن هو الإدام، وإن كان لحمًا فاللحم هو الإدام. فعَن يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ رضي الله عنهما قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَضَعَ تَمْرَةً عَلَى كِسْرَةٍ، فَقَالَ: «هَذِهِ إِدَامُ هَذِهِ»(٢).

وهذا خلاف المعنى المستعمل اليوم للإدام، فإنَّ الناس اليوم يطلقون لفظة الإدام ويريدون بها الطعامَ ذا المرقِ مِن لحمٍ أو دجاج أو خضار؛ فالمعنى اللغوي للإدام أعمُّ من المعنى العرفي اليوم.

وقيل: إنما سمي الإدام إدامًا لأنه يُصْلِح الخبز ويجعله ملائمًا للأكل فلا يؤكل وحده مفردًا(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥١).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٥٩).

(٣) زاد المعاد (٤/ ٢٠١).

قوله ﷺ: «نِعْمَ الإِدَامُ الخَلُّ»، في هذا الحديث يمدح النبي ﷺ الخلَّ، وهو الخل المعروف، وله أنواعٌ بحسب ما خُلِّل؛ فقد يكون خل فواكه كخل التفاح، وقد يكون خل خضروات؛ فقد يُخَلَّل الزيتون، وقد يُخَلَّل الجزر، وقد يُخَلَّل الليمون، والخلُّ هو ماؤه المستعمل في التخليل.

والخلُّ ـ كما هو معروف ـ حامضُ الطعمِ، فيصعب أكلُه وحده، فيؤتدم به الخبزُ ليخَفِّف هذا الخل.

وفي مدحِ الخلِّ توجيهٌ وقِصَّةٌ ستُذكر في الحديث الآتي.

***

(صحيح) **١٣٠ـ عَن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نِعْمَ الإِدَامُ الخَلُّ»**(١).

شرح الحديث

في هذا الحديث قِصَّةٌ، فعَن طَلْحَةَ بْنِ نَافِعٍ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما يَقُولُ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِي ذَاتَ يَوْمٍ إِلَىٰ مَنزِلِهِ، فَأَخْرَجَ إِلَيْهِ فِلَقًا مِنْ خُبْزٍ، فَقَالَ: «**مَا مِنْ أُدْمٍ؟**»، فَقَالُوا: لَا، إِلَّا شَيْءٌ مِنْ خَلٍّ، قَالَ: «**فَإِنَّ الخَلَّ نِعْمَ الأُدْمُ**»، قَالَ جَابِرٌ: فَمَا زِلْتُ أُحِبُّ الخَلَّ مُنْذُ سَمِعْتُهَا مِن نَبِيِّ اللهِ ﷺ. وقَالَ طَلْحَةُ: مَا

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٢٢٥)، وأبو داود (٣٨٢١)، والترمذي (١٨٣٩)، والنسائي (٣٧٩٦)، وابن ماجه (٣٣١٧).

زِلْتُ أُحِبُّ الخَلَّ مُنذُ سَمِعْتُهَا مِنْ جَابِرٍ[١].

فمِن هذه القِصَّة يُفهَم أنَّ المدح للخل ليس مدحًا مُطْلَقًا، وإنما مِدحَ لأسباب، يقول ابن القيم: «وهذا ثناءٌ عليه بحسب مقتضىٰ الحال الحاضر، لا تفضيلٌ له علىٰ غيره كما يظن الجهَّال»[٢].

فمِن أسباب مدحه للخَلِّ في ذلك المقام: أنَّه طلب من أهل البيتِ إدامًا يأكله مع الخبز، وما كان عندهم شيءٌ يؤتدَمُ به إلا الخَلُّ، فأراد مواساتهم فقال: «**نِعْمَ الإِدَامُ الخَلُّ**»، أي: فإن لم يوجد إلا الخلُّ فأنعِم به وأكرِم، فهو طعامٌ يستحق أن يُمْدَح.

وما كان هذا الكلامُ تصنُّعًا منه ﷺ، بل هو علىٰ عادته ﷺ في الاكتفاء بما يجده وإن كان قليلًا متواضعًا.

فهل يفعل هذا الناسُ اليومَ؟ يدخلُ أحدهُم البيت فلا يجد إلا خبزًا ومُخَلَّلًا فيكتفي به! ويُثني علىٰ أهله خيرًا أن وجد هذا الطعام عندهم!

وأيضًا من أسباب مدح الخلِّ في هذا المقام: أنَّ الخبزَ الذي كانوا يأكلونه هو خبز الشعير، وقد مرَّ أنه خبزٌ يابسٌ، والخبزُ اليابسُ قد يَضُرُّ أكلُه وحده دون إدام، فيؤتدَم به الخلُّ ليصبح ملائمًا أكثر للأكل.

وفي نهاية القصة بيانٌ لحبِّ الصحابة والتابعين لنبيهم ﷺ، حيث أحبُّوا الخلَّ لحُبّ النبي ﷺ إياه، وهذا يؤكِّدُ أنَّ الإنسان يستطيع أن يتغلَّب علىٰ محبوباته

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥٢).

(٢) زاد المعاد (٤/ ٢٠١).

المحرَّمة والمكروهة، ويصبِّر نفسه علىٰ محبّة ما يحبه الله ورسوله ﷺ.

ولا يلزم الإنسانَ أن يحبّ هذه الأطعمة التي أكلها رسول الله ﷺ، فإن الناس يتفاوتون في محبّتهم للأشياء واستطعامها، ولكن المحبة الصادقة تقود الإنسان إلىٰ أن يُحِبَّ ما يحبُّه محبوبُه!

***

(صحيح) **١٣١ـ عَن زَهْدَمٍ الجَرْمِيِّ قَالَ: كُنَّا عِندَ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ ﷺ، فَأُتِيَ بِلَحْمِ دَجَاجٍ، فَتَنَحَّىٰ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ، فَقَالَ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُهَا تَأْكُلُ شَيْئًا، فَحَلَفْتُ أَن لَا آكُلَهَا. قَالَ: «ادْنُ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْكُلُ لَحْمَ دَجَاجٍ»**(١).

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِندَ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ ﷺ، قَالَ: فَقَدَّمَ طَعَامَهُ، وَقَدَّمَ فِي طَعَامِهِ لَحْمَ دَجَاجٍ، وَفِي القَوْمِ رَجُلٌ مِن بَنِي تَيْمِ اللهِ أَحْمَرُ كَأَنَّهُ مَوْلًىٰ. قَالَ: فَلَمْ يَدْنُ. فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَىٰ: «ادْنُ؛ فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَكَلَ مِنْهُ»، فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ شَيْئًا فَقَذِرْتُهُ، فَحَلَفْتُ أَن لَا أَطْعَمَهُ أَبَدًا(٢).

شرح الحديث

قول زهدم: «فَتَنَحَّىٰ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ»؛ أي: مال وابتعد رجلٌ مِن القوم ممن كان حاضرًا عنده عن الطعام ولم يأكل، ففُهِم منه الامتناع عن أكل لحم الدجاج.

---

(١) أخرجه النسائي (٤٣٤٦)، بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥١٨)، ومسلم (١٦٤٩).

قول أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَا لَكَ؟**»: ما الذي منعك مِن أن تشاركنا الأكل.

قول الرجل: «**إِنِّي رَأَيْتُهَا تَأْكُلُ شَيْئًا**»؛ أي: شيئًا قذرًا، وفي رواية أو في نسخة: «إني رأيتها تأكل نتنًا»، فاستقذر الدجاج لأنه رآه يأكل شيئًا قذِرًا.

ولم يُسَمِّ القذارة لئلا يُزْعِج الحاضرين فتأنف أنفسُهم من الدجاج الموضوع أمامهم.

قول الرجل: «**فَحَلَفْتُ أَن لَا آكُلَهَا**»، أخبر أنَّ الذي حمله علىٰ الامتناع عن مشاركتهم في أكل لحم الدجاج يمينٌ أقسمها أن لا يأكل الدجاج، عندما رآها تأكل الشيء القذر؛ لأنَّ نفسه عافَت الدجاج.

قول أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ادْنُ**»؛ أي: اترك عنك ما قلت، واقترب.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَإِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْكُلُ لَحْمَ دَجَاجٍ**»: فيه إباحة أكل لحم الدجاج؛ لأكل النبي ﷺ له.

وفيه أيضًا معنًىٰ في غاية اللطافة، وهو أنَّ الرجل عندما استقذر الدجاج وعافته نفسه؛ أراد أبو موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يجعل نفسَه تطيب بأكله وتحبه، ولم يرَ شيئًا يحمله علىٰ استطابته أكثر من إخباره أنَّ النبي ﷺ قد أكله.

وفيه أيضًا إشارةٌ إلىٰ أنَّ النبي ﷺ هو أطيبُ الناس نفسًا، فما لم يستقذره ويكرهه فليس بمستقذَرٍ ولا مكروهٍ.

وفيه بيانٌ للمنهج العظيم الذي كان يتعامل به الصحابة رضي الله عنهم مع التابعين في تربيتهم؛ حيث يربونهم علىٰ هذا المبدأ القويم، وهو اتباع النبي ﷺ في كل شيء؛ حتىٰ فيما يحبه وما لا يحبه من الطعام، وهو المنهج الذي ينبغي علىٰ الناس أن يربوا عليه أبناءهم وطلابهم؛ بأن يُعَلَّموا في كل صغيرة وكبيرة أن النبي ﷺ كان يفعل كذا ولا يفعل كذا، ويفعله هكذا ولا يفعله هكذا، تعظيمًا لشأن سنته ﷺ في حياتهم.

(**وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ**)، اختلفت الرواية، واتّحد مضمون القصة.

***

(ضعيف) ١٣٢ـ **عَن سَفِينَةَ رضي الله عنه قَالَ: «أَكَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَحْمَ حُبَارَىٰ»**(١).



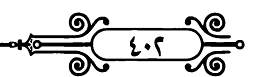
شرح الحديث

الحُبَارىٰ: طائرٌ معروفٌ، كبيرُ العُنق، رماديُّ اللَّون، في عُنُقه شيءٌ من الحُمرة.

وفي الحديث دلالةٌ علىٰ إباحة أكل لحم الحُبارَىٰ.

وقد جاءت إباحة أكله علىٰ مقتضىٰ الأصول الشرعية العامة؛ فإنه ليس بذي مِخلبٍ من الطيور، وليس آكِلًا للحوم، فأبيح أكلُه كإباحة أكل لحم الدجاج.

(١) أخرجه أبو داود (٣٧٩٧)، والترمذي (١٨٢٨)، وقال: «غريب».



والحديث ضعيف السند، وآفتُه تعود إلىٰ ضعف أحد الرُّواة، ولكنه وإن كان ضعيفًا فإنَّ إباحة أكل لحم الحُبارىٰ موافق للأصول الشرعية العامة، ولم يعارضه شيءٌ من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ.

***

(صحيح) **١٣٣ ـ عَنْ أَبِي أَسِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُوا الزَّيْتَ، وَادَّهِنُوا بِهِ؛ فَإِنَّهُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ»**(١).



شرح الحديث

قوله ﷺ: «كُلُوا الزَّيْتَ»؛ أي: زيت الزيتون ـ كما سيأتي ـ.

والمقصود بأكله: جعله إدامًا؛ سواءٌ أُكِل وحده مع الخبز، أو مع غيره من الطعام كما يصنع كثيرٌ من الناس اليوم، أو طُبِخ به.

وأكلُ الزيت وائتدامُه يتجاوز كونَه حلالًا إلىٰ الترغيب فيه؛ فإنَّ التعليل القادم بأنَّه من شجرةٍ مباركةٍ يشير إلىٰ جِنسِ فضيلةٍ فيه.

ولا بأس باستخدام بقية أنواع الزيوت؛ من زيت السمسم، أو الذُّرَة، ونحوهما مما هو مباحٌ، ولكن الانتفاع والبركة والامتثال إنما تحصل باستخدام زيت الزيتون.

قوله ﷺ: «وَادَّهِنُوا بِهِ»؛ الادِّهان: استخدامُ الزيت في اليدين والرأس والشعر وكل موضعٍ يحتاج فيه الإنسان إلىٰ الادِّهان.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٠٥٤)، والترمذي (١٨٥٢)، وقال: «غريب».

والناس تدَّهن بالزيت لأمرين: فإنهم إمَّا يدَّهنون بالزيت استشفاء وعلاجًا ومداواةً، كما يصنع صاحب الألم إذا أوجعه شيءٌ مِن جسده ادَّهن بزيت دافئٍ، وإمَّا أن يدَّهِنُوا به تجمُّلًا وتزَيُّنا وتطَيُّبًا؛ فإن الزيت يرطب الجسد، ويزيل يبوسة وجفاف الجلد والشعر.

واستخدام الادِّهان في الأمرين نافعٌ، وداخل في عموم قوله ﷺ: «**وَادَّهِنُوا بِهِ**».

قوله ﷺ: «**فَإِنَّهُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ**»؛ أي: شجرة الزيتون، وهي المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥]، وهي التي أقسم الله بها في كتابه في قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]، فالزيتون شجرة مباركة، ومنبته في أرض مباركة، فإنَّ منبتَه في بلاد الشام والمسجد الأقصىٰ، ذلك المسجد الذي بارك الله فيه وفيما حوله.

وتظهر بركةُ الزيتون في الائْتِدام بزيته، والادِّهان به، امتثالًا واقتداءً بسُنّة المصطفىٰ ﷺ.

***

(صحيح) **١٣٤ـ عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ** رضي الله عنه **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: «**كُلُوا الزَّيْتَ، وَادَّهِنُوا بِهِ؛ فَإِنَّهُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ**»(١).

(١) أخرجه الترمذي (١٨٥١)، وضعَّفه.

شرح الحديث

يدلُّ حديث عمر رضي الله عنه هذا على المعاني المستفادة من حديث أبي أسيد رضي الله عنهما.

***

(صحيح) ١٣٥ ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يُعْجِبُهُ الدُّبَّاءُ، فَأُتِيَ بِطَعَامٍ أَوْ دُعِيَ لَهُ، فَجَعَلْتُ أَتَتَبَّعُهُ فَأَضَعُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ لِمَا أَعْلَمُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ»(١).

(صحيح) وفي طريق ثانية (١٦٣): «أَنَّ خَيَّاطًا دَعَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِطَعَامٍ صَنَعَهُ، قَالَ أَنَسٌ: فَذَهَبْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَىٰ ذَلِكَ الطَّعَامِ، فَقَرَّبَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم خُبْزًا مِن شَعِيرٍ، وَمَرَقًا ـ وَفِي طَرِيقٍ ثَالِثَةٍ: ثَرِيدًا عَلَيْهِ دُبَّاءٌ ـ فِيهِ دُبَّاءٌ وَقَدِيدٌ، قَالَ أَنَسُ: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَتَتَبَّعُ الدُّبَّاءَ حَوَالَي القَصْعَةِ ـ وَكَانَ يُحِبُّ الدُّبَّاءَ ـ، فَلَمْ أَزَلْ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ مِن يَوْمِئِذٍ»(٢).

شرح الحديث

قول أنس بن مالك رضي الله عنه: **«كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يُعْجِبُهُ الدُّبَّاءُ»**، الدباء: نبات معروف، ويسمىٰ أيضًا: القرع، يطبخه الناس إدامًا ونحو ذلك.

وفي الحديث دلالةٌ صريحةٌ علىٰ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الدُّبَّاء.

قوله رضي الله عنه: **«فَأُتِيَ بِطَعَامٍ أَوْ دُعِيَ لَهُ، فَجَعَلْتُ أَتَتَبَّعُهُ فَأَضَعُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ»**؛

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٩٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٩٢).

أي: قُدِّم للنبي ﷺ طعامٌ، وكان فيه قِطَعٌ من الدُّبَّاء، فجعل أنسٌ يجمعها ويضعها أمام النبي ﷺ.

قوله رضي الله عنه: «**لِمَا أَعْلَمُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ**»، لم يحصل أنس رضي الله عنه علىٰ شرف الصحبة فقط، بل كان خادمًا ملازمًا لرسول الله ﷺ، فلأجل ذلك كان يعرف الكثير من الأمور الخاصة بالنبي ﷺ، مما لا يعرفه كثيرٌ من أصحابه؛ فلأجل ذلك كان يعلم محبة النبي ﷺ للدباء.

قوله رضي الله عنه: «**أَنَّ خَيَّاطًا دَعَا رَسُولَ اللهِ ﷺ لِطَعَامٍ صَنَعَهُ**»، هذه القصة التي حضرها أنس رضي الله عنه، هي التي عرف منها محبة النبي ﷺ للدباء.

قوله رضي الله عنه: «**فَقَرَّبَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ خُبْزًا مِن شَعِيرٍ وَمَرَقًا**»؛ المرق: معروف، وهو الماء الذي طُبِخ فيه لحمٌ.

قوله رضي الله عنه: «**ثَرِيدًا عَلَيْهِ دُبَّاءٌ**»؛ أي: خبز عليه قطع مِن اللحم ودباء.

قوله رضي الله عنه: «**فِيهِ دُبَّاءٌ وَقَدِيدٌ**»؛ القديد: لحم مُجَفَّف.

قوله رضي الله عنه: «**فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَتَبَّعُ الدُّبَّاءَ حَوَالَيِ القَصْعَةِ**»؛ أي: أصبح يلتقطها من هنا وهناك.

والقصعة: اسم لنوع من الآنية كبير الحجم، وفي ترتيب أواني الطعام يقول الثعالبي رحمه الله: «أوّلها الفَيْخَة وهي كالسُّكُرُّجة، ثم الصَّحيفة تُشبعُ الرجل، ثم المِئْكَلَة تُشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصَّحفة تُشبعُ الأربعة والخمسة، ثم القَصْعة تُشبعُ السبعةَ إلىٰ العشرة، ثم الجفنة وهي أكبرها، وزعم بعضهم أنَّ

الدَّسيعة أكبرها»(١).

والفَيْخَة التي هي السُّكُرُّجَة: إناءٌ صغير، مثل آنية اليوم الصغيرة التي تُوضَع فيها المُشَهِّيات كالسلطات والتوابل ونحوها.

وفي الحديث إشارةٌ إلىٰ حُبِّ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي ﷺ وملاحظته لما يفعله ﷺ؛ فإنه لم يكن مجرّد خادمٍ يُقَدِّم الطعام، ولكنه كان يهتمُّ لما يحبه ﷺ ويعجبه، وهو ما تكرَّر مرارًا في أحاديث متقدمة مِن شدة حب الصحابة للنبي ﷺ.

وقد يُشكل علىٰ هذا حديث عمر بن أبي سلمة الذي قال فيه: كُنتُ غُلامًا فِي حِجْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا غُلامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»(٢)، أي: كل مما أمامك ولا تتجاوزه، بينما حديث أنس هذا يدُلُّ علىٰ أنَّه كان يتتبَّع الدُّبَّاء في الصَّحفة، وعن هذا جوابان:

الجواب الأول: أنَّه ﷺ إنما كان يتتبَّع الدُّبَّاء فيما يَليه فقط، ولا تتجاوز يدُه إلىٰ موضع لا يليه.

الجواب الثاني ـ وهو أظهر ـ: أنَّ الطعام لم يكن عليه إلا النبي ﷺ وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والآكل إذا كان وحده أو كان معه مَن لا يتحرَّج معه في الطعام كالزوجة والخادم؛ فإنه يباح له أن تنتقل يده إلىٰ غير ما يليه، فإن ذلك ليس فيه إساءة أدبٍ.

---

(١) فقه اللغة (ص١٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٧٦).

قوله رضي الله عنه: «**فَلَمْ أَزَلْ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ مِن يَوْمِئِذٍ**»، فيه أيضًا دلالةٌ علىٰ شدةِ حُبِّ أنسٍ رضي الله عنه للنبي ﷺ، حتىٰ أصبح هوىٰ أنسٍ تابعًا لهوىٰ النبي ﷺ.

*** لفتة إيمانية:**

لقد جعل أنسٌ رضي الله عنه النبي ﷺ قدوة له يأتسي بها حتىٰ في ما يُشتهىٰ من طعام، فكيف بأقوامٍ يسمعون أوامره ﷺ ونواهيه وما زال أحدُهم يقدم رجلًا ويؤخر أخرىٰ مترددًا في الاستجابة له!.

***

(صحيح) **١٣٦ـ عَنْ حَكِيمِ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ أَبِيهِ** رضي الله عنه **قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَرَأَيْتُ عِنْدَهُ دُبَّاءً يُقَطَّعُ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَ: «نُكَثِّرُ بِهِ طَعَامَنَا»**[1].

قَالَ أَبُو عِيسَىٰ: «وَجَابِرٌ هَذَا هُوَ جَابِرُ بْنُ طَارِقٍ، وَيُقَالُ: ابْنُ أَبِي طَارِقٍ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا نَعْرِفُ لَهُ إِلَّا هَذَا الحَدِيثَ الوَاحِدَ».

شرح الحديث

قول النبي ﷺ: «**نُكَثِّرُ بِهِ طَعَامَنَا**»؛ يعني: يضع النبي ﷺ الدُّبَّاء في الطعام ليزداد فيكتفي به هو وأهلُه ويشبعون.

(صحيح) **١٣٧ـ عَنْ عَائِشَةَ** رضي الله عنها **قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّ الحَلْوَاءَ وَالعَسَلَ»**[2].

---

(١) أخرجه أحمد (١٩١٠٠)، وابن ماجه (٣٣٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤).



شرح الحديث

الحَلواءُ: يعني: كان يحبُّ الطعام الحُلوَ أيًّا كان نوعه، كالذي يُسَمَّىٰ في اصطلاح اليوم: حَلوَىٰ.

العَسلُ: معروفٌ، وأنواعه متعددة، وقد وصفه الله في كتابه الكريم بأن فيه شفاءً للناس، كما أنه حُلوُ المذاق، طيِّبُ الطعم، يستسيغه الناس أكلًا وشُربًا واستعمالًا في سائر أنواع الطعام.

وليس المقصود بهذه الأحاديث أنَّ أكل هذه الأطعمة من السُّنَّة، وأنَّ مِن السُّنَّة بحثَ الإنسان عنها وأكلها، فإنَّ الإنسان قد لا توافقه هذه الأطعمة، وقد يمنعه المرض من تناول بعض هذه الأطعمة كما يمتنع مرضىٰ السكر من تناول الحلواء، لكن حسبُك أن تعرفَ ما كان يحب النبي ﷺ، فإن زادت بك المحبة أصبحت تُحِبُّ هذه الأطعمة لحبّ الرسول ﷺ إياها كما كان يحصل مع المحبين من الصحابة.

بل مِن الأدوية المجرَّبَة لِمن قسا قلبُه، وبعُد شيئًا عن الهدي النبوي؛ أن يُوَطِّن نفسه علىٰ فعل ما كان يفعله النبي ﷺ، حتىٰ يتعوَّدَه ويجعل هواه كهواه ﷺ، حتىٰ يصِل به ذلك إلىٰ الحبِّ الصادق الذي ينبع عنه الاقتداء بالنبي ﷺ في كل شيء.

***

(صحيح) ١٣٨ـ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَخْبَرَتْهُ: «أَنَّهَا قَرَّبَتْ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ جَنبًا مَشْوِيًّا، فَأَكَلَ مِنْهُ، ثُمَّ قَامَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ وَمَا تَوَضَّأَ»(١).

شرح الحديث

قول أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **«أَنَّهَا قَرَّبَتْ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ جَنبًا مَشْوِيًّا»**؛ الجنب المشوي: قطعة من اللحم مشوية أيًّا كان موضع تلك القطعة؛ فربما كانت من الصدر أو الظهر أو الفخذ أو الذراع أو الساق.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **«فَأَكَلَ مِنْهُ»**، فيه إباحة أكل الشواء.

ومما يُنَبَّه عليه هُنا: أنَّه ليس كل الأطعمة التي يتناولها الناسُ اليومَ كانت موجودةً في زمن النبي ﷺ، فمِن المحبة الصادقة أن يفرح الإنسان بأكل شيء كان يأكله النبي ﷺ.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **«ثُمَّ قَامَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ وَمَا تَوَضَّأَ»**، فيه أنَّ أكل اللحم المشوي لا يُعَدَّ مِن نواقض الوضوء؛ بدليل أن النبي ﷺ أكله ولم يتوضأ قبل الصلاة.

وهذا تأكيدٌ لحديث جابر قَالَ: «كَانَ آخِرَ الأَمْرَيْنِ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ تَرْكُ الوُضُوءِ مِمَّا غَيَّرَتِ النَّارُ»(٢).

فما غيرته النارُ؛ سواء كان مطبوخًا أو مشويًّا فلا وضوء فيه، ويبقىٰ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٦٢٢)، والترمذي (١٨٢٩)، والنسائي (١٨٣)، وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب».

(٢) أخرجه أبو داود (١٩٢)، والنسائي (١٨٥)، والحديث غير محوفظ بهذا اللفظ. انظر: التلخيص الحبير (١/ ٣٠٧).

المصلي علىٰ طهارته إذا أكل منه.

وقد وقع خلاف بين الفقهاء في لحم الإبل خاصة؛ هل هو مخصوصٌ من عموم الحديث فيجب الوضوء منه، أو هو داخل فيه فلا يجب الوضوء منه؟ مذهبان مشهوران للفقهاء.

***

(صحيح) **١٣٩ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الحَارِثِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «أَكَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ شِوَاءً فِي المَسْجِدِ»**[1].



شرح الحديث

قول عبد الله بن الحارث رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **«أَكَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ شِوَاءً»**، فيه ما سبق من إباحة أكل الشواء.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **«فِي المَسْجِدِ»**، فيه جواز الأكل في المسجد، وعدم تحريمه؛ فلا بأسَ فيما يفعله الناس اليوم مِن تهيئة الطعام في المسجد لإفطار الصائمين، أو تسحير المعتكفين، بل حتىٰ لو احتاج رجلٌ لطعامٍ فوجده في المسجد فلا مانع من أكلِه فيه.

وأدب المسجد يقتضي الحفاظ علىٰ نظافته وطهارته ليبقىٰ مُهَيَّأً للعبادة، فيحرصُ الآكلُ علىٰ ألَّا يتَّسِخ المسجدُ بشيءٍ من الطعام أثناء الأكل، ثم يحرص علىٰ تنظيفه بعد ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٠٢).

ولكنَّ إباحة أكل الطعام في المسجد لا تعني أن ينقلب المسجدُ إلىٰ مطعمٍ، يصبح شغل الناس الذي يشغلهم فيه هو الطعام والشراب! وإنما المقصود أنَّ أصل تناول الطعام في المسجد مباح.

***

(صحيح) **١٤٠ـ عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه قَالَ: ضِفْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَأُتِيَ بِجَنبٍ مَشْوِيٍّ، ثُمَّ أَخَذَ الشَّفْرَةَ، فَجَعَلَ يَحُزُّ، فَحَزَّ لِي بِهَا مِنْهُ، قَالَ: فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَأَلْقَىٰ الشَّفْرَةَ، فَقَالَ: «مَا لَهُ؟ تَرِبَتْ يَدَاهُ»، قَالَ: وَكَانَ شَارِبُهُ قَدْ وَفَىٰ، فَقَالَ لَهُ: «أَقُصُّهُ لَكَ عَلَىٰ سِوَاكٍ؟»، أَوْ: «قُصَّهُ عَلَىٰ سِوَاكٍ»**[1].

شرح الحديث

قول المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: «**ضِفْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ**»؛ أي: كُنت ضيفًا عند رسول الله ﷺ ذات ليلة.

قوله رضي الله عنه: «**فَأُتِيَ بِجَنبٍ مَشْوِيٍّ**»؛ أي: قطعةٌ مشويّةٌ من اللحم.

وهذا الحديث الثالث الذي يدلُّ علىٰ أنَّه ﷺ جيء له بلحمٍ مشويٍّ ليأكله، وهذا يدلُّ علىٰ حُبِّه لهذا الطعام، فإنه لو كان يعافُه ما أكله.

قوله رضي الله عنه: «**ثُمَّ أَخَذَ الشَّفْرَةَ**»؛ الشفرة: السكين، وكل شيء حاد.

قوله رضي الله عنه: «**فَجَعَلَ يَحُزُّ**»؛ الحزُّ: القطع.

(١) أخرجه أحمد (١٨٢١٢)، وأبو داود (١٨٨).

أي: جعل يقطع مِن هذه القطعة المشوية قِطعًا أصغر؛ لتكون سهلة الأكل.

قوله ﵁: «**فَحَزَّ لِي بِهَا مِنْهُ**»؛ أي: قطع رسول الله ﷺ للمغيرة ﵁ بهذه الشفرة قطعًا من ذلك الجنب المشوي.

وفيه أنَّ النبي ﷺ هو الذي باشر المغيرةَ بالخدمة، وذلك أن النبي ﷺ كان في بيته، والمُضِيف هو الذي يباشر الضيفَ بالخدمة مهما كانت منزلة المُضِيف عالية، ومقداره شريفًا، وهذا أدبٌ عظيم وخلق رفيع منه ﷺ؛ فمُبَاشرة صاحب البيت ضيوفَه بالخدمة ليست عيبًا ولا انتقاصًا من مقامه ومنزلته.

وفي ذلك مِن التودُّدِ والملاطفة بين النبي ﷺ وصاحبه ما لا يخفى؛ وهذا سرٌّ من الأسرار التي جعلت الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ تمتلئ قلوبُهم بمحبة النبي ﷺ، فإنَّهم ما كانوا يحبونه لمجرد نبوته ورسالته ﷺ، ولكنهم وجدوا منه لطيف المعاملة، وجميل المعاشرة، ورفيع الأدب، وكان هذا مع صغيرهم وكبيرهم، رجالهم ونسائهم، حرهم وعبيدهم.

قوله ﵁: «**فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ**»؛ يعني: يُعلمه بدخول وقت الصلاة؛ فإنَّ بلالًا كان المؤذن، والنبي ﷺ الإمام، أي: جاء المؤذن يُخْبِر الإمام بدخول وقت الصلاة ليتهيأ له ويستعد للإمامة.

قوله ﵁: «**فَأَلْقَىٰ الشَّفْرَةَ**»، وهذا شأن نبينا ﷺ؛ إذا حان وقتُ الصلاة ترك كل شيء كان في يده.

عن الأسودِ بن يزيدَ قال: سألتُ عائشةَ ﵂: ما كان النبيُّ ﷺ يصنعُ في البيتِ؟ قالتْ: «**كان يكونُ في مِهْنةِ أهلِهِ، فإذا سَمِعَ الأذانَ خرجَ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٦٣).

قوله ﷺ: «**مَا لَهُ؟ تَرِبَتْ يَدَاهُ**»، معنىٰ (تَرِبَت يداه) اللغوي: أصابت يداه الترابَ، وهو كناية عن الخسارة والحرمان، فإنَّ مَن التصقتْ يداه بالتراب فقد قبض علىٰ تراب، والتراب لا يساوي شيئًا، فأصل استعمال هذه الجملة أن تُقال دعاءً علىٰ إنسان بالخسارة وعدم الربح وعدم الحصول علىٰ شيء من مرامه.

لكنَّ هذه العبارة أصبحت تُطلَق في كلام العرب ويُراد بها عكسُ معناها؛ فهي دعاءٌ بالسعادة والفلاح والفوز تارةً، وتارة يراد بها الفرح، وتارةً يراد منها التعجيب.

ومما يدلُّ علىٰ ذلك أنَّه ﷺ استخدمها في مقاماتٍ أخرىٰ للدعاء بالسعادة والفوز، كما في قوله ﷺ: «**تُنكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ**»[(١)]؛ أي: إنما يحمل الرجال علىٰ نكاح النساء هذه المقاصد الأربع، ثم دعا ﷺ بالتوفيق والفلاح والفوز والسداد لِمَن امتثل وصيته واختار مِن بين النساء ذات الدين.

واستعمال العبارة بنقيض معناها موجودٌ في كلام العرب، كقولهم: «قاتلك الله»، و«لا أُمَّ لك»، و«لا أب لك»، ونحوها مِن العبارات التي تُطْلَق ويراد بها عكس معناها.

فقوله ﷺ: «**مَا لَهُ؟ تَرِبَتْ يَدَاهُ**»، دعاءٌ لبلال بالفلاح والتوفيق لأنَّه آذنه بالصلاة.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).

قول المغيرة رضي الله عنه: **«وَكَانَ شَارِبُهُ قَدْ وَفَىٰ»**، الضمير يعود إلىٰ المغيرة نفسه رضي الله عنه، فهو التِفَاتٌ من صيغة التكلم إلىٰ صيغة الغائب، فأخبر عن نفسه بصيغة الغائب كأنه يقصد غيره، فلربما فهِم القارئُ أنَّ المراد بلالٌ لأنه هو الداخل.

والدليل علىٰ أنَّ المراد هو المغيرة نفسه ما جاء في الروايات الأخرىٰ من تصريح المغيرة بقوله: «وَكَانَ شَارِبِي قَدْ وَفَىٰ»(١)، وفي روايةٍ: «أخذَ رسولُ اللهِ ﷺ مِن شَارِبِي علىٰ سِوَاكٍ»(٢).

ومعنىٰ (وَفَىٰ): أي: كَثُر شعر شاربه، وازداد حتىٰ نزل علىٰ شفتيه.

قوله ﷺ: **«أَقُصُّهُ لَكَ عَلَىٰ سِوَاكٍ؟»**.

هنا انتقالٌ من الحديث عن الطعام واللحم المشوي إلىٰ أمرٍ آخر، وهو أنَّ النبي ﷺ لاحظَ أمرًا في المغيرة يستدعي النصح والتوجيه، وهو أنَّ شاربه قد طال.

ولم يترك النبي ﷺ النُّصْحَ والإرشاد في ذلك المقام كما يفعل الناسُ عندما يتجاوزون عمَّا يرونه من أخطاء في ضيوفهم، وإنما بادره بالنصيحة والإرشاد.

وإطالة الشارب خلافُ الفطرة، بل الفطرة حفُّ الشوارب وقصها وعدم تركها تطول حتىٰ ينزل الشعر علىٰ الشفتين.

وما يحصل اليوم مِن كثير من الناس من إطالةٍ للشارب وحلق للحىٰ إنما هو بسبب ضعف الفِطَر وانتكاستها، حتىٰ أصبحت تستحسن القبيح وتستقبح

---

(١) أخرجها الطبراني في الكبير (٢٠/ ٤٣٥).

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٦٥٥٧)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٤٣٥).

الحسن؛ تستقبح اللِّحَىٰ التي هي فطرة فطرها الله في الرجل فتعمد إلىٰ حلقها، وتستحن طول الشارب فتتركه يطول وتتباهىٰ به وتتفاخر.

وشريعة الإسلام إنما جاءت بما يتوافق مع الفطرة السوية وبما يصلح أحوال العباد، فإنَّ ارتخاء الشارب علىٰ الفمِّ مظنة دخول الشعر إلىٰ الفم مع كل طعام وشراب، وفيه ما لا يخفىٰ من احتمال دخول الأذىٰ والقذر إلىٰ الفم، والمطلوب في الفم أن يكون طاهرًا نظيفًا لأنَّه مدخل الطعام والشراب.

ومعنىٰ: «**أَقُصُّهُ لَكَ عَلَىٰ سِوَاكٍ؟**»؛ أي: يجعل السواك ـ وهو عودٌ صلبٌ ـ آلةً يحدد بها طرف الشعر من أسفل الشارب، ثم يأخذ ما زاد عنه، وهذا شبيهٌ بما يفعله الحلاقُ اليوم مِن تحديد للشعر بالمشط، ثم أخذ ما زاد بالمقص.

ووالله لَمَجْلِس المغيرة هذا خيرٌ له من الدنيا وما فيها؛ أضافه النبيُّ ﷺ، ثم أكرمه بتقطيع اللحم له، ثم بادر بقص شاربه عندما رآه طويلًا مرتخيًا علىٰ فمه!.

***

(صحيح) ١٤١ ـ **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه **قَالَ: «أُتِي النَّبِيُّ ﷺ بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ ـ وَكَانَت تُعْجِبُهُ ـ فَنَهَشَ مِنْهَا»**(١).



شرح الحديث

قول أبي هريرة رضي الله عنه: «**فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ**»، الذِّراع معروفة، والمقصود بها هنا: ذراع الشاة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢).

والمعنىٰ: ناوله الصحابةُ الذراعَ ليأكل منها؛ لعلمهم بأنه يحبها ﷺ.

قوله رضي الله عنه: «**وَكَانَت تُعْجِبُهُ**»؛ فيه إخبارٌ عن لونٍ آخر من ألوان الطعام يحبه ﷺ، وهو ذراع الشاة، فكان أحبّ لحم الشاة إليه ذراعها، وقد روي هذا عند عدد من الصحابة كما في هذا الحديث والحديثين القادمين.

يقول القاضي عياض في بيان سبب إعجابه ﷺ بالذراع: «ومحبته ﷺ في الذراع وإعجابه بها: لنُضج لحمها، وسرعة استمرائه، مع زيادة لذته وحلاوة مذاقه علىٰ سائر لحم الشاة، وبعده من مواقع الأذىٰ الذي كان يتقيه ﷺ»(١).

فالذراع سريعة النضج؛ لأنَّ لحمَها قليل غير كثير، ولحمها مرن ينضج بسرعة.

كما أنه سريع الاستمراء؛ أي: يسهل مضغه وبلغه لعدم قساوته، وذلك ليس كمواضع اللحم الأخرىٰ من جسد الحيوان.

كما أنَّه في زيادة في اللذة وحلاوة المذاق.

والذراع أبعدُ عن مواضع الأذىٰ؛ والمقصود بموضع الأذىٰ هو موضع خروج الفضلات.

قوله رضي الله عنه: «**فَنَهَشَ مِنْهَا**»، وفي روايةٍ: «**فَنَهَسَ مِنْهَا**»(٢)، واللفظان صحيحان، وبينهما فرقٌ لطيف؛ فأمَّا نهس ـ بالسين ـ : أخذ اللحم وقطعه برفق بمقدمة

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١/ ٥٨٣).

(٢) أخرجها البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

الأسنان. وأما نهش ـ بالشين ـ : فقطع اللحم وقضمه بالأسنان كلها. فالنهش أبلغ من النهس، والنهس أخف وأرفق.

***

(صحيح) ١٤٢ـ **عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ الذِّرَاعُ، قَالَ: وَسُمَّ فِي الذِّرَاعِ، وَكَانَ يَرَىٰ أَنَّ اليَهُودَ سَمُّوهُ»**[1].

شرح الحديث

قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَسُمَّ فِي الذِّرَاعِ**»؛ أي: وضع اليهود ـ لعنة الله عليهم ـ السُّمَّ في الذراع؛ لعلمهم بأنه ﷺ يحبُّ الذراع ويأكلها.

«**وَكَانَ يَرَىٰ أَنَّ اليَهُودَ سَمُّوهُ**»؛ أي: أنَّ ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يرىٰ ويعتقد أن اليهود هم الذين وضعوا السمَّ في الذِّرَاع.

وقد ثبتت بذلك رواياتٌ أخرىٰ: فعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ**» ... قَالَ: «**هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟**»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**مَا حَمَلَكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ؟**»، قَالُوا: أَرَدْنَا إِن كُنتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِن كُنتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ[2]؛ ذلك أنَّه كان قد أجلاهم إلىٰ خيبر وحاربهم، فأرادوا أن يرتاحوا منه ـ كما زعموا ـ.

---

(١) أخرجه الطيالسي (٣٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٥٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٩).

وكانت خيبرُ في السنة السابعة من الهجرة، والتي وضعت له السُّمَّ في الشاة هي زينب بنت الحارث، وكانت يهوديةً قبل أن تسلم ﵂، فعنْ عُرْوَةَ قَالَ: لَمَّا فَتَحَ اللهُ ﷿ خَيْبَرَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَتَلَ مَن قَتَلَ مِنْهُمْ، أَهْدَتْ زَيْنَبُ بِنتُ الحَارِثِ اليَهُودِيَّةُ ـ وَهِي بِنتُ أَخِي مَرْحَبٍ ـ شَاةً مَصْلِيَّةً، وسَمَّتْهُ فِيهَا، وَأَكْثَرَتْ فِي الكَتِفِ وَالذِّرَاعِ حِينَ أُخْبِرَتْ أَنَّهَا أَحَبُّ أَعْضَاءِ الشَّاةِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ بِشْرُ بْنُ البَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ أَخُو بَنِي سَلِمَةَ، قَدَّمَتْ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَنَاوَلَ الكَتِفَ وَالذِّرَاعَ، فَانتَهَسَ مِنْهَا، وَتَنَاوَلَ بِشْرٌ عَظْمًا آخَرَ فَانتَهَسَ مِنْهُ، فَلَمَّا أَدْغَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَدْغَمَ بِشْرٌ مَا فِي فِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ؛ فَإِنَّ كَتِفَ الشَّاةِ تُخْبِرُنِي: أَن قَدْ بُغِيَتْ فِيهَا**»، فَقَالَ بِشْرُ بْنُ البَرَاءِ: وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، لَقَدْ وَجَدْتُ ذَلِكَ فِي أَكْلَتِي الَّتِي أَكَلْتُ، فَإِن مَنَعَنِي أَنْ أَلْفِظَهَا إِلَّا أَنِّي كَرِهْت أَنْ أُنَغِّصَ طَعَامَكَ، فَلَمَّا أَكَلْتَ مَا فِي فِيكَ لَمْ أَرْغَبْ بِنَفْسِي عَن نَفْسِكَ، وَرَجَوْتُ أَن لَا تَكُونَ أَدْغَمْتَهَا وَفِيهَا بَغْيٌ، فَلَمْ يَقُمْ بِشْرٌ مِن مَكَانِهِ حَتَّىٰ عَادَ لَوْنُهُ كالطَّيْلَسانِ، وماطَلَهُ وَجَعُهُ مِنْهُ، حَتَّىٰ كَانَ مَا يَتَحَوَّلُ إِلَّا مَا حُوِّلَ، وَبَقِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدُ ثَلَاثِ سِنِينَ، حَتَّىٰ كَانَ وَجَعُهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ(١).

فقد عصمه الله مِن كيد هذه اليهودية، وهو القائل في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فعصمه الله، لكن بقي أثر تلك الحادثة إلىٰ مماته؛ قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «**يَا عَائِشَةُ، مَا أَزَالُ**

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ٣٥، رقم: ١٢٠٤).

أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انقِطَاعَ أَبْهَرِي مِن ذَلِكَ السُّمِّ»[١]، وكان هذا بعد ثلاث سنوات من حادثة خيبر، أثَّر فيه ذلك السم مع أنَّه لم يبتلعه.

وأمَّا زينب بنت الحارث فقد عفا عنها ﷺ، ولكن أولياء دم بِشْرِ بن البراءِ طالبوا بدمه.

***

(صحيح) ١٤٣ـ عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: طَبَخْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ قِدْرًا، وَقَدْ كَانَ يُعْجِبُهُ الذِّرَاعُ، فَنَاوَلْتُهُ الذِّرَاعَ، ثُمَّ قَالَ: «نَاوِلْنِي الذِّرَاعَ»، فَنَاوَلْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: «نَاوِلْنِي الذِّرَاعَ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَمْ لِلشَّاةِ مِن ذِرَاعٍ؟ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ سَكَتَّ لَنَاوَلْتَنِي الذِّرَاعَ مَا دَعَوْتُ»[٢].

شرح الحديث

(عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ) هو مولىٰ رسول الله ﷺ، وهي عند الإمام أحمد[٣] وغيره من روايةٍ أخرىٰ عن أبي رافعٍ رضي الله عنه مولىٰ النبي ﷺ، والحديثُ في سنده ضعفٌ ولكن له شواهدُ يتقوَّىٰ بها؛ فلذلك حكم الشيخ الألباني رحمه الله بصحة الحديث بمجموع طُرُقه وشواهده.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (٥٠٨٩)، والنسائي في الكبرىٰ (٦٦٢٥).

(٣) مسند أحمد (٢٣٨٥٩).

قول أبي عبيد ﵁: «**طَبَخْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ قِدْرًا، وَقَدْ كَانَ يُعْجِبُهُ الذِّرَاعُ**»، فإعجاب النبي ﷺ بالذراع كان أمرًا معروفًا عند الصحابة، كما سبق في عدة روايات.

قوله ﵁: «**فَنَاوَلْتُهُ الذِّرَاعَ**»؛ أي: بعدما نضج، أعطيته الذراع الأول ليأكله.

قوله ﷺ: «**نَاوِلْنِي الذِّرَاعَ**»؛ أي: أعطِني الذراع الثاني.

وفيه أنَّه لو اجتمع للنبي ﷺ الذراعُ مع طعامٍ آخر لقدَّم الذراع.

قول أبي عبيد ﵁: «**فَنَاوَلْتُهُ**»؛ أي: أعطيته الذراع الثاني.

قوله ﷺ: «**نَاوِلْنِي الذِّرَاعَ**» للمرة الثالثة.

قول أبي عبيد ﵁: «**يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَمْ لِلشَّاةِ مِن ذِرَاعٍ؟**»؛ أي: للشاة ذراعان، وقد ناولتك الأول، ثم طلبت الثاني فأعطيتك إياه! قال ذلك متعجِّبًا، يريد أنه ما بقي في القدر مِن ذراع حتىٰ يناوله إياه.

قوله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ سَكَتَّ لَنَاوَلْتَنِي الذِّرَاعَ مَا دَعَوْتُ**»؛ يعني: لو سكتَّ وذهبت إلىٰ القدر لوجدت فيه ذراعًا ولناولتني إياه، ولو عُدت مرةً رابعة وطلبتك منك ذراعًا وسكت لوجدت ذراعًا رابعًا، وهكذا ما دمت أطلب منك!

وذلك آيةٌ للنبي ﷺ، الذي شقَّ الله له القمرَ، وفَلَقَ له الحَجرَ، وأنطق له الحصىٰ تسليمًا عليه، صلىٰ الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

***

(ضعيف) ١٤٤ـ **عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:** «**مَا كَانَتِ الذِّرَاعُ أَحَبَّ اللَّحْمِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَكِنَّهُ كَانَ لَا يَجِدُ اللَّحْمَ إِلَّا غِبًّا، وَكَانَ يَعْجَلُ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا أَعْجَلُهَا نُضْجًا**»(١).

الحديث ضعيف؛ لوجود راوٍ ضعيفٍ فيه، ولوجود انقطاع فيه أيضًا، كما أنَّه معارض لما تقدم من الأحاديث السابقة في متنه ومعناه.

قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**مَا كَانَتِ الذِّرَاعُ أَحَبَّ اللَّحْمِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»، وهذا موضع العلة في الحديث؛ فإنه معارضٌ لما تقدم من الأحاديث مِن أنَّ الذِّراع كانت أحبَّ الطعام إليه ﷺ.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**وَلَكِنَّهُ كَانَ لَا يَجِدُ اللَّحْمَ إِلَّا غِبًّا**»؛ يعني: مرة بعد مرة، وليس علىٰ الدوام، وهذا قد تقرَّر في أحاديث سابقة.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**وَكَانَ يَعْجَلُ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا أَعْجَلُهَا نُضْجًا**»، تقدم في كلام القاضي عياض في أسباب تفضيل النبي ﷺ للحم الذراع علىٰ غيره أنَّه أعجلها نضجًا.

***

(ضعيف) ١٤٥ـ **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:** «**إِنَّ أَطْيَبَ اللَّحْمِ لَحْمُ الظَّهْرِ**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (١٨٣٨)، وحسَّنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٤٤)، وابن ماجه (٣٣٠٨).

الحديثُ ضعيفٌ، فيه راوٍ لم يُسَمَّ.

ولحم الظهر وإن كان لذيذًا ومستساغًا، إلا أنَّ هذا الحديث مُخالِفٌ لما سبق من الأحاديث التي تدلُّ علىٰ إعجاب النبي ﷺ وحبه للذراع وتفضيله علىٰ غيره.

ثم إنَّ إثباتُ حبِّ النبي ﷺ لشيء يحتاج إلىٰ دليل صحيح، والدليل كما ترىٰ هنا ضعيف.

***

(حسن) **١٤٦ـ عَنْ أُمِّ هَانِئٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟»، فَقُلْتُ: لَا، إِلَّا خُبْزٌ يَابِسٌ وَخَلٌّ، فَقَالَ: «هَاتِي، مَا أَقْفَرَ بَيْتٌ مِنْ أُدْمٍ فِيْهِ خَلٌّ»**(١).

شرح الحديث

حديث أمِّ هانئٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في سنده ضعفٌ، ولكنه يتقوَّىٰ بما جاء مِن حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في مدح الخَلِّ مما سبق ذِكرُه، فارتقَىٰ بذلك إلىٰ كونه حَسنًا، كما حسَّنه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

(**عَنْ أُمِّ هَانِئٍ**) هي ابنةُ عمِّ رسول الله ﷺ، وأختُ علي بن أبي طالبٍ أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد كان ﷺ يأتيها في بيتها مرارًا، ومن ذلك ما روي في عام الفتح عن أُمِّ هَانِئٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذكَرَتْ: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ اغْتَسَلَ فِي بَيْتِهَا، فَصَلَّىٰ**

---

(١) أخرجه الترمذي (١٨٤١)، وقال: «حسن غريب».

ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ، فَمَا رَأَيْتُهُ صَلَّىٰ صَلاةً أَخَفَّ مِنْهَا، غَيْرَ أَنَّهُ يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ»(١)، وقيل هذه الركعات الثمان هي الضُّحىٰ، وقيل غير ذلك.

قول أمّ هانئ رضي الله عنها: **دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟»**؛ يعني: أعندكِ طعامٌ يؤكل؟ التمس ﷺ الطعام عند ابنة عمِّه، وما طلب منها إلا لأنَّ بينه وبين أمِّ هانئٍ قدرًا مِن رفع الكُلفة، فكأنما دخل بيته.

قولها رضي الله عنها: **«لَا»**؛ يعني: ليس عندي شيءٌ، ثم استَثْنَت.

قولها رضي الله عنها: **«إِلَّا خُبْزٌ يَابِسٌ وَخَلٌّ»**، أفادت أنَّ دارَها ليس فيها إلا هذا اللون من الطعام، وهو لا يصلح أن يُقَدَّم لرسول الله ﷺ.

وهذا ليس بُخلًا منها بهذا الطعام، وإنما هو كما يفعله مَن يريد إكرام ضيفٍ عنده؛ فإنه لا يعطيه بعض أنواع الطعام مما لا يراه لائقًا بضيفه.

قوله ﷺ: **«هَاتِي»**، فجأَها الجوابُ منه، فما كانت تظنُّ أنه يأكله، ولكنه ﷺ ما كان يحتقر الطعام أو يستقلُّه، وإنما يُسكِت جوعَه بأيِّ شيءٍ يتيسَّر له من الطعام، كما سبق ذلك مِرارًا في أحاديث سابقة.

كما أنَّ في ذلك تطييبًا لخاطرِ أمِّ هانئٍ رضي الله عنها، التي ربما أصابها شيءٌ من الحرج لعدم وجود ما تقدِّمه لرسول الله ﷺ.

قوله ﷺ: **«هَاتِي، مَا أَقْفَرَ بَيْتٌ مِنْ أُدْمٍ فِيهِ خَلٌّ»**؛ يعني: لا يوصف البيت بالفقر والقِلَّة وعدم وجود الطعام والإدام مع وجود الخَلِّ؛ فإنَّ الخلَّ إذا وُجِد

---

(١) أخرجه البخاري (١١٠٣)، ومسلم (٨٠).

في بيتٍ انتفىٰ عن أهله الحاجةُ والجوعُ؛ لأنَّه يصلح أن يؤكل مع الخبز ويُستغنىٰ بذلك عن بقية الطعام.

وفيه أنَّ النبي ﷺ ما كان يَعيبُ الطعام، إن اشتهاه أكله، وإن عافته نفسُه لم يأكله.

*** لفتة إيمانية:**

هذا قدرٌ عظيمٌ من القناعة تحلَّىٰ به النبي ﷺ، فكان يكتفي بما يحصل له من الطعام، ولا يتزوَّد منه إلا بمقدار ما يقطع به هذه الحياة، فهو شيءٌ عابرٌ لا يهتمُّ به ولا يقف عنده.

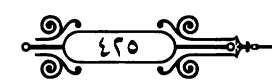
واليومَ لا يرىٰ الناسُ الخلَّ إلا مُكمِّلًا لغيره من الطعام، أو مكوِّنًا من مكوِّناته، أمَّا هو فلا يعتبر طعامًا قائمًا بذاته.

فليحمد الناسُ اللهَ علىٰ ما أولاهم من أنواع الأطعمة لذيذِها وشهيِّها وفاخرِها.

***

(صحيح) **١٤٧ـ عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَامِ»(١).**

(١) أخرجه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).





شرح الحديث

الحديث صحيحٌ، أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب المسانيد والسنن.

وفي الحديث بيانُ فضلِ أمِّ المؤمنين عائشة بنت الصدِّيق رضي الله عنهما، حبيبةِ رسولِ الله ﷺ، والتي كانت تتبوَّأ موقعًا عظيمًا من قلبه وحياته.

والمؤمن الصادق السالك سبيلَ السُّنَّة المحبُّ لرسول الله ﷺ يُحِبُّ رسولَ الله ﷺ، ويُحبُّ من أحبَّه رسولُ الله ﷺ، فنحن إذ نُحبُّ هذا الصحبَ الكريمَ إنما نُحبِّهم لحُبِّ رسول الله ﷺ إياهم، ولما ثبت من جليل مناقبهم، وعظيم منازلهم، ولأجل تضحيتهم في سبيل الله وعظيم بذلهم، فإنَّ الدين قام علىٰ أكتاف هذا الجيل الكريم، وعلىٰ أعناقهم قامت هذه الرسالة بعد موت رسول الله ﷺ، فحفِظوا الدين، ونقلوه، ورَوَوْه، وجاهدوا في الله حقَّ الجهاد، فنشروه في العالمين.

وهذا الحديث إنما هو حديثٌ واحدٌ من الأحاديث الكثيرة التي تدلُّ علىٰ فضل عائشة رضي الله عنها وعن أبيها، ومنزلتها ومكانتها.

والحديثُ إنما سيق لأجل بيان فضل عائشة رضي الله عنها لا في بيان الطعام، فهي المقصودُ من الحديث، ولكن المؤلف أورده لبيان فضل الثَّريد علىٰ سائر الطعام، وهو واضحٌ وصريحٌ من الحديث.

والثَّريدُ: مَرَقٌ، يُفَتُّ فيه الخبز ليُصْبح ليِّنًا، ثم يؤكل مع اللحم أو دون لحم.

والثَّريد مِن أطيب الطعام عند رسول الله ﷺ، بل هو مِن أطيب الطعام عند العرب عامةً.

ومعنىٰ الحديث: كما أنَّ الثَّريدَ طعامٌ مستطابٌ مُفَضَّلٌ علىٰ سائر الطعام عند العرب، حيث يرونه سيِّد الطعام وأفخرَه ومقدَّمه ومُعَظَّمه؛ فكذلك عائشة رضي الله عنها فضلُها زائدٌ علىٰ النساء كزيادة فضل الثريد علىٰ سائر الأطعمة؛ وذلك لما أُعطِيَته رضي الله عنها من الرَّزانةِ والفَصاحةِ والتحبُّب إلىٰ رسول الله ﷺ.

***

(صحيح) ١٤٨ـ **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَامِ»**[١].

شرح الحديث

وهذا الحديث كسابقه، قد ورد في الصحيحين وغيرهما، وفي بيان فضل عائشة رضي الله عنها، وفيه الشاهد لهذا الباب وهو تفضيل الثَّريد علىٰ سائر الطعام.

***

(صحيح) ١٤٩ـ **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «أَنَّهُ رَأَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَوَضَّأَ مِن ثَوْرِ أَقِطٍ، ثُمَّ رَآهُ أَكَلَ مِن كَتِفِ شَاةٍ، ثُمَّ صَلَّىٰ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ»**[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٧٠)، ومسلم (٢٤٤٦).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٤٢)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣٩٨).

شرح الحديث

قول أبي هريرة رضي الله عنه: «**أَنَّهُ رَأَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَوَضَّأَ مِن ثَوْرِ أَقِطٍ**»، فيه ذِكْرٌ لنوعٍ من الطعام أكله الرسول ﷺ، وهو الأقِطُ.

والأقِطُ: لبنٌ مُتحَجِّرٌ، مصنوعٌ من الحليب، حيث يُجفَّف الحليب حتىٰ يصبح قِطَعًا يابسةً تؤكل.

والعربُ إنما كانت تفعل ذلك لأنه لم يكن لديهم وسائل تحفظُ أطعمتهم مثل ما هو موجودٌ اليوم، فكانوا يَعمِدون إلىٰ تجفيف الحليب الفاضل عن حاجتهم بهذه الطريقة ليأكلوه فيما بعد، ثم إنَّه طعامٌ مفيدٌ مُغذٍّ؛ إذ فيه من الفوائد ما في الحليب من الفوائد، قد يكتفي به الإنسانُ إذا أكله وحده.

والعامّة اليوم تسمِّي الأقِط: الـمَضِير.

وقد جاء ذكر الأقِطِ في أحاديث أخرىٰ؛ منها حديث إخراج زكاة الفطر، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «**كُنَّا نُخْرِجُ زَكَاةَ الفِطْرِ مِن ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: الأَقِطِ، وَالتَّمْرِ، وَالشَّعِيرِ**»[١].

ومعنىٰ «ثَوْرِ أَقِطٍ»: أي قطعةٌ كبيرةٌ من الأَقِط، فكلمة (ثَور) هنا ليس المراد بها الحيوان المعروف الذي هو ذَكَر البقر، ولكنه مأخوذٌ مِن: ثارَ يثُورُ، فإنَّ اللَّبن إذا سُخِّن بالنار، ثم جُفِّفت منه القِطَعُ، يَثُور قِطَعًا قِطَعًا، أي: تتقَّطع منه أجزاءُ الحليب قِطعًا قِطعًا، فتنفصِل عن باقيه حتىٰ تَجفَّ وتَيْبَسَ، فتُسمَّىٰ القطعةُ منه ثَورًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٨٥).

ومعنىٰ «توضَّأ من ثَوْرِ أقِطٍ»: أي: أنه ﷺ أكلَ قِطعةً من الأقِط، ثم توضَّأ منها، و(مِن) هنا سببيةٌ، أي توضَّأ بسبب أكله ثَوْرَ أقِطٍ.

وظاهرُ الحديث يُشعِرُ بأنَّ أكلَ الأقِط ناقضٌ للوضوء، ولكن لم يقل بهذا أحدٌ من الفقهاء، فالوضوء هنا محمولٌ علىٰ معناه اللُّغَوي لا الشرعي، أي: تَمضْمَض وغسلَ وجهَه بعد أكلِه للأقِط، فإنَّ المضمضةَ وتنظيفَ الوجه تُسَمَّىٰ في اللغة وضوءًا.

وقد ثبت تسميةُ المضمضةِ وغسلِ بعضِ البدن وُضوءًا في كلام بعض الصحابة، فعَنِ النَّزَّالِ بْنِ سَبْرَةَ قَالَ: «**أُتِيَ عَلِيٌّ** رضي الله عنه **بِكُوزٍ مِن مَاءٍ وَهُوَ فِي الرَّحْبَةِ، فَأَخَذَ كَفًّا مِن مَاءٍ؛ فَمَضْمَضَ، وَاسْتَنْشَقَ، وَمَسَحَ وَجْهَهُ وَذِرَاعَيْهِ وَرَأْسَهُ، ثُمَّ شَرِبَ وَهُوَ قَائِمٌ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا وُضُوءُ مَن لَمْ يُحْدِثْ، هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **فَعَلَ**»(١)، يعني: هذا يَصلُح أن يُسمَّىٰ وُضوءًا، لكنه وُضوءُ مَن لم يُصِب الحَدَث.

قوله رضي الله عنه: «**ثُمَّ رَآهُ أَكَلَ مِن كَتِفِ شَاةٍ، ثُمَّ صَلَّىٰ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ**»، فيه ذكرٌ لنوعٍ آخر من الطعام أكله الرسول ﷺ، وهو الكتِف، وقد مرَّ ذلك في أحاديث سابقة.

وقد تكون هذه الرؤية بعد الرؤية الأولىٰ مباشرة؛ أي: أكل الأقِط، ثم أكل الكتِف، وقد تكون رؤيةً أخرىٰ في مقامٍ آخر، لكنه جمعهما في روايةٍ واحدةٍ لما بينهما من بيان أنواع الأطعمة التي أكلها ثم توضَّأ منها أو لم يتوضَّأ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥٨٣)، والنسائي (١٣٠).

وفيه أنَّه ﷺ لم يتوضأ بعد أكل اللحم؛ سواءٌ كان مطبوخًا أم مشويًّا، وهو الذي اجتمعت عليه الأدلَّة الشرعية الأخرىٰ؛ كما سبق في الأحاديث التي دلَّت علىٰ أن آخِرَ الأمرِ كان تركَ الوضوء مما مسَّت النارُ، وكما في حديث جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنهما: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَأَتَوَضَّأُ مِن لُحُومِ الغَنَمِ؟ قَالَ: «**إِن شِئْتَ فَتَوَضَّأْ، وَإِن شِئْتَ فَلَا تَوَضَّأْ**»(١).

فلا يجب الوضوءُ علىٰ مَن أكل لحم الغَنم، أو لحم البقر، أو لحم الدَّجاج، أو غيرها من اللحوم، إلا لحمَ الإبل خاصَّة ففيه خلافٌ بين الفقهاء معروفٌ.

***

(حسن صحيح) **١٥٠ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «أَوْلَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ صَفِيَّةَ بِتَمْرٍ وَسَوِيقٍ»**(٢).



شرح الحديث

قول أنس رضي الله عنه: «**أَوْلَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**»؛ أي: صنع وليمةً، ودعا الناس إليها.

والوَليمةُ في لسان العرب: طعامُ العُرس خاصَّةً، فإنَّ العرب يسمُّون كلَّ طعامٍ باسمٍ؛ فطعام العُرس يسمىٰ وَليمةً، وطعامُ المولود يُسمَّىٰ عَقِيقةً، وطعامُ الضيف يُسمَّىٰ قِرًىٰ، ونحوه(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٣٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٠٧٨)، وأبو داود (٣٧٤٤)، والترمذي (١٠٩٥)، وابن ماجه (١٩٠٩)، وقال الترمذي: «غريب».

(٣) انظر: عمدة القاري (١٤/ ١١١).

قوله رضي الله عنه: «**عَلَىٰ صَفِيَّةَ**»؛ أي: كانت الوليمةُ في عُرس وزواج صفيَّة رضي الله عنها.

وصفيَّةُ هي أمُّ المؤمنين، صفيَّةُ بنت حُيَيِّ بن أَخْطَب رضي الله عنها، كانت في سَبْيِ خيبر، ثم أخذها النبي ﷺ فكانت مولاةً عنده، ثم أعتقَها وتزوَّجها وجعل عِتقَها صَداقَها، فكان لها شأنٌ عظيمٌ ومَكرُمَة خاصةٌ بين نساء رسول الله ﷺ؛ وذلك لمكانتها بين قومها؛ فإنها ابنةُ حُيَيِّ بن أخطَب، سيّدٍ من سادات اليهود.

وقد كانت رضي الله عنها أسيرةً بين يدي النبي ﷺ، يستطيع أن يَطَأها بمِلك اليمين فهي جاريةٌ عنده، ولكنها كانت امرأةً صالحةً عاقلةً ذات فضلٍ وديانةٍ، فأكرمها الله بأن أزال عنها الرِّقَّ، ولم تصبح حُرَّةً فقط، بل أصبحت أمًّا لجميع المؤمنين!

قوله رضي الله عنه: «**بِتَمْرٍ وَسَوِيقٍ**»، هذا لونٌ آخرَ مِن ألوان الأطعمة التي أكلها رسول الله ﷺ، بل جعلها وليمةً لعُرسه.

والسَّوِيقُ: طحينُ الحبوب؛ سواءٌ كان حِنطةً أو شعيرًا أو دُخنًا، وإنما يُسَمَّىٰ سَوِيقًا إذا حُمِسَ، وقد يُعْجَن مع التمر ونحوه، وما زالت العامة إلىٰ اليوم تسميه: سويقًا.

فهذه هي وليمةُ النبي ﷺ: تمرٌ وطحينُ حَبٍّ!!

وفي روايةٍ أخرىٰ أنَّه ﷺ: «**أَوْلَمَ عَلَيْهَا بِحَيْسٍ**»(١)، والحَيْسُ: قريبٌ من التمر والسَّوِيق، حيث إنه طعامٌ يُتَّخذ من معجون التمر ويُحمس مع شيءٍ من السَّمن ودقيقِ الحَبّ أو الدُّخن أو الشعير، ولا يزال يُسمَّىٰ في لسان أهل الحِجاز اليوم: حَيْسًا.

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٥١٦٩)، ومسلم (١٣٦٥).

ولا تعارُضَ بين الروايتين؛ فإن الحَيْسَ والسَّوِيق متقاربان، وكلتا الروايتين تدلُّ علىٰ أنَّه اكتفىٰ في وليمته بهذا الطعام، وهي تدلُّ علىٰ قِلَّة العَيْش الذي كان يعيشه الناس في ذلك الزمان؛ إذ ما يُكْرِم به الناسُ ضيوفَهم يدلُّ علىٰ سَعة عَيشهم وحياتهم أو ضِيقها.

وفي هذا تنبيهٌ إلىٰ ما يحصل من بَذَخٍ وإسرافٍ في ولائم الناس ومآدِبهم؛ فإنَّ هذا الطعام الذي أَوْلم عليه رسولُ الله ﷺ لا يعُدُّه الناسُ طعامًا، بل هو مما يضعُه الناس علىٰ هامش الأكل؛ إذ ظهر في حياة الناس الترفُ والتوسُّعُ في المطاعم والمشارب.

وفيه أنَّ التوسُّعَ في المعيشة ليست دليلًا علىٰ إكرام الله للمجتمع، بل المجتمعُ الطاهرُ في الزمن الأوّل كانت حياتُه متقشِّفةً ومُخشَوشِنةً، وهم أطهرُ الناس وأفضل جيلٍ وخَيرُه، في حين نرىٰ هذا الزمان الذي قد فسد فيه كثيرٌ من الناس نجد أن الله قد وسَّع عليهم في هذه الحياة الدنيا، لكن الميزان كما أخبر الله في كتابه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

***

(ضعيف) **١٥١ـ عَن سَلْمَىٰ ﵂: أَنَّ الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَابْنَ عَبَّاسٍ وَابْنَ جَعْفَرٍ أَتَوْهَا، فَقَالُوا لَهَا: اصْنَعِي لَنَا طَعَامًا مِمَّا كَانَ يُعْجِبُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَيُحْسِنُ أَكْلَهُ، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ، لا تَشْتَهِيهِ اليَوْمَ، قَالَ: بَلَىٰ، اصْنَعِيهِ لَنَا، قَالَ: فَقَامَتْ، فَأَخَذَتْ مِن شَعِيرٍ فَطَحَنَتْهُ، ثُمَّ جَعَلَتْهُ فِي قِدْرٍ وَصَبَّتْ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ زَيْتٍ، وَدَقَّتِ**

الفُلْفُلَ وَالتَّوَابِلَ، فَقَرَّبَتْهُ إِلَيْهِمْ، فَقَالَتْ: «هَذَا مِمَّا كَانَ يُعْجِبُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَيُحْسِنُ أَكْلَهُ»(١).

شرح الحديث

الحديث ضعيفٌ سَندًا، ولا يوجد ما يَشْهد لصحَّته، لكنه علىٰ ضَعفه فيه إشاراتٌ لطيفةٌ.

(**عَن سَلْمَىٰ**) هي حاضنةُ إبراهيم ابنِ رسول الله ﷺ، وزوجةُ أبي رافعٍ مولىٰ رسول الله ﷺ، وطبَّاختُه ﷺ، فهي امرأةٌ قريبةٌ مِن بيوت رسول الله ﷺ.

قول سلمىٰ رضي الله عنها: «**أَنَّ الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَابْنَ عَبَّاسٍ وَابْنَ جَعْفَرٍ أَتَوْهَا**»؛ أي: اجتمع أبناءُ العمومة هؤلاء ذاتَ يومٍ عندها: الحسن بن عليّ بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس بن عبد المطّلب، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب؛ أكبرُهم سِنًّا ابنُ عباس، ثم الحسنُ، ثم ابنُ جعفر.

وكان ذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ، في موقفٍ عجيبٍ يحكي حُبَّهم للنبي ﷺ، ويحكي هاجِسًا مشتركًا تخفِقُ به قلوبُ هؤلاء الثلاثة، يريدون أن يَعلَموا شيئًا ما عَلِموه مِن قبلُ عن حياة النبي ﷺ؛ حيث إنهم كانوا صبيانًا في حياة النبي ﷺ، ولم يعيشوا معه قدرًا كبيرًا كالذي أدركه كبار الصحابة، فإنَّ ابنَ عباسٍ وهو أكبرُهم سِنًّا قد مات النبي ﷺ عنه وهو يناهز الاحتلام؛ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٩٩)، وضعَّفه الألباني؛ لضعف راويه الفضل بن سليمان.

قَالَ: «أَقْبَلْتُ رَاكِبًا عَلَىٰ حِمَارٍ أَتَانٍ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ قَدْ نَاهَزْتُ الِاحْتِلَامَ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِالنَّاسِ بِمِنًىٰ»(١)، فقد كان ذلك قبل وفاة النبيِّ ﷺ بثلاثة أشهر؛ إذ كان ذلك في حَجّة الوداع، وابنُ عباس قد قارب البلوغ، أي: بين الثالثةَ عشرةَ والرابعةَ عشرةَ، هذا وهو أكبرُهم، فما ظنُّك بالحسن بن عليّ، وابن جعفر، وهما أصغرُ سنًّا؟

قولهم: «اصْنَعِي لَنَا طَعَامًا مِمَّا كَانَ يُعْجِبُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَيُحْسِنُ أَكْلَهُ»، مع ما في الحديث مِن ضعف؛ إلا أنَّ الجملة تنطقُ بمشاعرَ صادقةٍ من الحُبّ والشَّوق، هذا وهم أقرب الناس إليه نَسبًا، ولكن أرادوا أن يقتربوا منه حِسًّا بكل معنًىٰ يُقرِّبُهم منه ﷺ.

فمَن كان في قلبه محبّةٌ صادقةٌ لنبيه ﷺ فليصنع مثلهم!

قول سلمىٰ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «يَا بُنَيَّ، لَا تَشْتَهِيهِ الْيَوْمَ»؛ أي: لو صنعتُ لك ذلك الطعام فإنك لا تشتهيه اليوم؛ بسبب ما فُتح عليهم من أنواع الطعام، فذلك يجعلهم يزهدون في هذا الطعام المتواضع.

ولقد صدَقَت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ فإنَّ طعامَه ﷺ لو وُضِع اليوم بين أيدينا لما التفتَ إليه أحدٌ، ولما اشتَهاه أحدٌ؛ لما نجده من تنوُّع المطاعم والمشارب.

وفي هذا صرفٌ منها لهم برفقٍ لطيفٍ.

قولهم: «بَلَىٰ، اصْنَعِيهِ لَنَا»، أظهَروا إصرارَهم علىٰ أن تصنعه لهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٦١)، ومسلم (٥٠٤).

«فَقَامَتْ، فَأَخَذَتْ مِن شَعِيرٍ فَطَحَنَتْهُ، ثُمَّ جَعَلَتْهُ فِي قِدْرٍ وَصَبَّتْ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ زَيْتٍ، وَدَقَّتِ الفُلْفُلَ وَالتَّوَابِلَ»، فهذا طعامه ﷺ، لم تضع فيه لحمًا أو دجاجًا أو شيئًا من الأطعمة الفاخرة!

*** وقفة إيمانية:**

إنَّ تأمُّلَ هذه الأحوال التي كانت للنبي ﷺ، من طعامٍ متواضعٍ وقلَّة معِيشةٍ، تجعل المرءَ يحمدُ الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ما أنعم عليه من النِّعَم، وما وسَّع به عليه في المآكل والمشارب، وتجعله لا ينظر إلىٰ مَن هو أعلىٰ منه من أصحاب الدنيا، وإنما ينظر إلىٰ ما كان عليه سيِّدُ ولد آدم ﷺ.

***

(صحيح) **١٥٢ـ عَن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: أَتَانَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَنزِلِنَا، فَذَبَحْنَا لَهُ شَاةً، فَقَالَ: «كَأَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّا نُحِبُّ اللَّحْمَ»، وَفِي الحَدِيثِ قِصَّةٌ.**

شرح الحديث

قول جابر رضي الله عنه: **«أَتَانَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَنزِلِنَا»**، وذلك لأنَّ جابرًا رضي الله عنه طلب من النبي ﷺ مساعدتَه في قضاء دَين والدِه.

فإنَّ أبا جابر واسمه عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه، رجلٌ من الأنصار، شهد غزوة أُحد، وليس له من الأولاد إلا جابرٌ مع سبع بنات، فلما شهد أحدًا أشفق جابرٌ علىٰ مَن تحته من الأخَوات أنه ليس لهم رجُلٌ يعولهم إلا والدُه، وقد ماتت أمُّهم، ثم إنَّ والدَه قد استُشهِد في غزوة أحدٍ فأشفق علىٰ أخواته مِن

هذا الدَّين الذي كان علىٰ والده، فجاء النبيُّ ﷺ وقد وجد مِن هَمِّ الدَّيْنِ ما وجده، فخفَّف عنه النبي ﷺ بما حكاه له من قصَّة والده العظيمة: فعَن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قال: لَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لِي: «**يَا جَابِرُ، مَا لِي أَرَاكَ مُنكَسِرًا؟**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتُشْهِدَ أَبِي، وَتَرَكَ عِيَالًا وَدَيْنًا، قَالَ: «**أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ؟**»، قَالَ: بَلَىٰ، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِن وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا؛ فقَالَ: يَا عَبْدِي، تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ، قَالَ: يَا رَبِّ، تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ**»(١).

قوله ﷺ: «أَنَّا نُحِبُّ اللَّحْمَ»: هذا موضع الشاهد من الحديث، وفيه حُبُّه لِلَّحم عامَّة، وما تقدَّم مِن حُبِّه للذِّراع يدلُّ علىٰ محبّةٍ خاصَّةٍ للذِّراع.

كما أنَّ العبارة فيها ملاطفةٌ للصحابي الجليل.

(وَفِي الحَدِيثِ قِصَّةٌ) عَن جَابِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَسْتَعِينُهُ فِي دَيْنٍ كَانَ عَلَىٰ أَبِي، قَالَ: فَقَالَ: «**آتِيكُمْ**»، قَالَ: فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ لِلْمَرْأَةِ: لَا تُكَلِّمِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَلَا تَسْأَلِيهِ، قَالَ: فَأَتَانَا، فَذَبَحْنَا لَهُ دَاجِنًا كَانَ لَنَا، فَقَالَ: «**يَا جَابِرُ، كَأَنَّكُمْ عَرَفْتُمْ حُبَّنَا اللَّحْمَ**»، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: صَلِّ عَلَيَّ وَعَلَىٰ زَوْجِي ـ أَوْ: صَلِّ عَلَيْنَا ـ، قَالَ: فَقَالَ: «**اللهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ**»، قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا: أَلَيْسَ قَدْ نَهَيْتُكِ، قَالَتْ: تَرَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْخُلُ عَلَيْنَا، وَلَا يَدْعُو لَنَا!(٢).

وكان جابرٌ قد نهاها عن محادثة النبي ﷺ تأدُّبًا مع الضيف، ولكنَّ زوجه

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠١٠) وحسنه، وابن ماجه (١٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٢٤٥).

لم تَمْتثِل لذلك، وعلَّلت ذلك بأنَّه من فَواتِ الخير العظيم أن يدخل النبيُّ ﷺ بيتَهم ولا يدعو لها ولزوجها.

والمقصود بالصلاة من النبي ﷺ: الدعاء لهم.

***

(صحيح) ١٥٣ـ **عَن جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ، فَدَخَلَ عَلَىٰ امْرَأَةٍ مِنَ الأَنصَارِ، فذَبَحَتْ لَهُ شَاةً، فَأَكَلَ مِنْهَا، وَأَتَتْهُ بِقِنَاعٍ مِن رُطَبٍ، فَأَكَلَ مِنْهُ، ثُمَّ تَوَضَّأَ لِلظُّهْرِ وَصَلَّىٰ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَأَتَتْهُ بِعُلَالَةٍ مِنْ عُلَالَةِ الشَّاةِ، فَأَكَلَ، ثُمَّ صَلَّىٰ العَصْرَ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ»**(١).

شرح الحديث

قول جابر رضي الله عنه: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ»، عَدَلَ عن قوله: (خرجتُ مع رسول الله ﷺ) إلىٰ هذه العبارة كمالًا في الأدب معه ﷺ؛ فجعل الخروج للنبيِّ ﷺ والمعيَّة له، إشعارًا بأنَّ النبي ﷺ هو القائدُ وهم الأتباع، وإلَّا فعبارة: (خرجتُ مع رسول الله ﷺ) ليست من سوء الأدب.

وهذا كما مرَّ في شرح الحديث السابق مِن أنَّه رضي الله عنه أمر زوجته ألا تسأل رسولَ الله ﷺ عن شيءٍ عندما استضافه، والحديثُ مع رسول الله وسؤاله ﷺ ليس فيه شيءٌ من سُوء الأدب، ولكنه اختار أن يؤدِّب أهلَه وبيتَه بكمال الأدب، وهو عدم إشغاله ﷺ بشيءٍ غير الضيافة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٨٠).

وهكذا كان أدب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مع نبيِّهم ﷺ، حيث لم يزل يؤدِّبهم ربُّهم بمثل هذه الآداب فيقول: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤،٥]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣].

ولأجل ذلك جاء في حديث أنس رضي الله عنه: «**إِنَّ أَبْوَابَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَت تُقْرَعُ بِالأَظَافِيرِ**»(١).

هذا من باب الأدب الحِسِّي، ومن باب الأدب المعنويِّ أن يتأدَّب المسلمُ أمام سُنَّته ﷺ وهديه، وأن يمتثل لها ولا يخالفها.

قوله رضي الله عنه: «**فَدَخَلَ عَلَىٰ امْرَأَةٍ مِنَ الأَنصَارِ**»، لم يُذكَر في الحديث سببُ دخوله علىٰ المرأة، أو القصّةُ المتعلِّقة بهذه الزيارة.

قوله رضي الله عنه: «**فَذَبَحَتْ لَهُ شَاةً، فَأَكَلَ مِنْهَا**»، بادرته بالضيافة فذبحت له شاةً.

وفيه أنَّه ﷺ أكل اللحم، وقد سبق هذا وأنه كان يُحبُّه.

قوله رضي الله عنه: «**وَأَتَتْهُ بِقِنَاعٍ مِن رُطَبٍ، فَأَكَلَ مِنْهُ**»؛ القِنَاع مِن الرُّطَبِ: طَبَقٌ من رُطَبٍ.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٨٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤٣٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٩٢).

وفيه أنَّه ﷺ أكل الرُّطَب، وقد ثبت هذا في أحاديث كثيرة، فإنَّ النبي ﷺ كان مُهاجَرَه المدينةُ، والمدينةُ أرضُ نخلٍ، وأهلُها يعملون في زراعة النخيل، ويَجْنُون أطايبَ أنواع التمر، فلا يزال أهل المدينة إلىٰ اليوم يقتاتون علىٰ التمرِ، ويعتنون بزراعته.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**ثُمَّ تَوَضَّأَ لِلظُّهْرِ وَصَلَّىٰ**»، كان هذا محتمِلًا لأن يكون أكلُه لِلَحم الشاة ناقضًا للوضوء؛ فلذلك توضَّأ، ومحتمِلًا لأن يكون ﷺ قد توضَّأ لأنه ليس علىٰ طهارةٍ من قبل، ومحتمِلًا لأن يكون قد جدَّد الوضوء فقط ﷺ.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**ثُمَّ انْصَرَفَ**»؛ يعني: خرج من مُصَلَّاه، وعاد إليها.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**فَأَتَتْهُ بِعُلَالَةٍ مِنْ عُلَالَةِ الشَّاةِ، فَأَكَلَ**»؛ العُلالةُ: البقيّةُ من الطعام؛ يعني: قدَّمَت له مما بقي مِن الطعام الذي أكل منه قبل صلاة الظهر.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**ثُمَّ صَلَّىٰ العَصْرَ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ**»، كان وضوؤه السابق لصلاة الظهر محتملًا لأن يكون وضوؤه من أكل لحم الشاة، ومحتمِلًا غير ذلك، فلما أكل قبل العصر ولم يتوضَّأ للصلاة تبيَّن أنَّ وضوءَه السابق إنما كان بسبب أنَّه كان غير متوضِّئ ﷺ.

وفيه حكمٌ فقهيٌ، وهو أنَّ الأكل من لحم الشاة المطبوخ لا ينقُض الوضوء، وقد سبق ذلك.

*** تنبيهٌ:**

تقدّم في الأحاديث السابقة في هذا الباب أنَّه ﷺ ما كان يجد إلا طعامًا قليلًا، ولا يجتمع له اللحم مرَّتين في يومٍ واحد، وقد يُوهِم هذا الحديث أنَّه ﷺ

أكل اللَّحم مرّتين في يومٍ واحدٍ في وجبتين متتالِيَتين.

والجواب عن هذا أن يُقال:

أولًا: أنَّه ما أكل في هذا المقام وجبتين، بل كانت وجبةً واحدةً توقَّف فيها لأجل الصلاة، حيث بدأ بالأكل ثم حضر وقتُ الصلاة فتوقّف للصلاة، ثم عاودَ الأكلَ، فلا يُعَدَّ بهذا أنه أكل اللحم في وجبتين.

والجواب الثاني: أنَّه في هذا المقام كان ضيفًا، وما قُدِّم إليه من الطعام أَكَله، فلم يكن باحثًا عن اللَّحم ليأكله مرّتين في يوم واحدٍ.

***

(حسن) **١٥٤ـ عَنْ أُمِّ المُنذِرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ عَلِيٌّ، وَلَنَا دَوَالٍ مُعَلَّقَةٌ، قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْكُلُ، وَعَلِيٌّ مَعَهُ يَأْكُلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَلِيٍّ: «مَهْ، يَا عَلِيُّ، فَإِنَّكَ نَاقِهٌ»، قَالَتْ: فَجَلَسَ عَلِيٌّ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَأْكُلُ، قَالَتْ: فَجَعَلْتُ لَهُمْ سِلْقًا وَشَعِيرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ: «مِنْ هَذَا فَأَصِبْ؛ فَإِنَّ هَذَا أَوْفَقُ لَكَ»**[١].

شرح الحديث

(عَنْ أُمِّ المُنذِرِ) هي سلمىٰ بنت قيسٍ الأنصارية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، امرأةٌ من الأنصار، ذاتُ مناقِبَ ومحامِد، متقدِّمةُ الإسلام حيث إنها صلَّت إلىٰ القبلتين مع رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٠٥٣)، وأبو داود (٣٨٥٦)، والترمذي (٢٠٣٧)، وابن ماجه (٣٤٤٢)، وقال الترمذي: «حسن غريب».

قول أمّ المنذر رضي الله عنها: «وَلَنَا دَوَالٍ مُعَلَّقَةٌ»؛ الدَّوالي: جمعُ دالِية، والمرادُ به: العِذْق من الرُّطَب، صِنوُ التَّمر الذي يكون على النخلة فيُقطع بأكمله، يجعله الناس في البيوت، وذلك أنَّ الأنصار كان عامّةَ زرعِهم النخلُ، فإذا نضجَ التمر أخذوه حبّاتٍ، أو أخرجوه عُذُوقًا، ويجعلونه في البيوت لكثرة ما عندهم من التمر، فيكون العِذْقُ مُعَلَّقًا في البيت يأكل منه أهل البيت.

يعني: عندما دخل عليها رسول الله ﷺ ومعه عليٌّ كان ما تزال لديهم دوالٍ مُعَلَّقَةٌ في دارهم فيها تمرٌ ورُطَب.

قوله ﷺ: «مَهْ»: اسم فعل أمرٍ، بمعنى: اترُك واكفُف عمَّا أنت فيه، نهى ﷺ عليًّا عن الأكل من الرُّطَب.

قوله ﷺ: «فَإِنَّكَ نَاقِهٌ»: اسم فاعل من النَّقاهَة، وهي: بدايةُ مرحلة شِفاءِ المريض واعتدالِ صحّته قبل شفائه التام، وهذا المصطلح لا يزال يستعمل إلى اليوم، يُقال: لا يزال فلانٌ في مرحلة النقاهة، أي: لا تزال عليه آثارُ المرض الذي عُوفِي منه.

والأطبّاءُ ينصحون المرضى أن يحتمُوا في مرحلة النقاهة هذه، وأن يُراعُوا صحّتهم ويحتاطوا لها.

وهذه العبارة منه ﷺ تعليلٌ لنهي عليٍّ عن الأكل من الرُّطب، فإنَّ عليًّا رضي الله عنه في هذه القصّة كان حديثَ عهدٍ بمرض، ولم تعتدل صحتُه بعدُ، أي: كُفَّ يا عليُّ عن تناوُلِ هذا الرُّطب؛ فإنَّه لا يناسب ما أنت فيه من المرض، وربما كان سببًا في امتداد عِلَّتك.

وفي هذا إشارةٌ إلىٰ شيءٍ مِن الطب النبويِّ، حيث كان ﷺ يشير إلىٰ صحابته في مواضع متعدّدة بما ينبغي عليهم فعلُه في مقام الطبِّ والمداواة ومراعاة الصحة.

قولها ﵂: «**فَجَلَسَ عَلِيٌّ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَأْكُلُ**»، فيه بيان ما كان مِن دأب الصحابة ﵃ من امتثال أوامر النبي ﷺ، مع أنَّ ما أمرَه به النبي ﷺ لم يكن مِن باب العبادة، ومع ذلك ما كانوا ﵃ يخالفون أوامره ﷺ.

وفيه سرعةُ امتثالهم ﵃ لأوامره؛ فإنَّه ﵁ امتثل أمره ﷺ مباشرة.

قولها ﵂: «**فَجَعَلْتُ لَهُمْ سِلْقًا وَشَعِيرًا**»؛ والسِلْقُ: نباتٌ ذو أوراقٍ خضراء، معروفٌ بهذا الاسم اليوم، وقد تُسمّيه العامّةُ سِلكًا ـ بالكاف ـ، يُطبخ في مَرَقٍ مع اللحم أو الدجاج.

والشعيرُ: معروف.

أي: لَمَّا رأت توقُّف علي ﵁ عن الأكل طَبخَت علىٰ عَجَلٍ شيئًا تجعله بين أيديهما، وفطِنَت إلىٰ ما يصلُح للمريض مثلُه.

وفي ذلك أيضًا إكرامٌ للضيف الذي لم يستطع أن يأكل مِن الطعام الموجود.

وفيه أيضًا امتثالُها ﵂ لِما أشار إليه النبي ﷺ دون أن يأمر به، وهو أنَّ ضيفَها لا يناسبه هذا الطعام، فكأنه أشار إليها بصُنع طعامٍ آخر يُناسبه.

وإنما وضعت شعيرًا مع السِّلق لِما يُقال: إنه نافعٌ جدًّا للمريض، لا سيّما في فترة النقاهة؛ فإنَّ الشعيرَ يُجِمّ الفؤادَ، ويُريح النفسَ، ويُسَكِّن القلبَ، ويُعين علىٰ استكمال الصحة.

ولذلك أُمِر المريض بأكل التَّلبِينَة كما في بعض الأحاديث(١)، وهي مصنوعةٌ من الشعير.

قوله ﷺ: «مِنْ هَذَا فَأَصِبْ؛ فَإِنَّ هَذَا أَوْفَقُ لَكَ»؛ يعني: أوفقُ لصحّتك.

*** لفتة إيمانية:**

هذا حديثٌ عجيبٌ؛ فإنَّه ﷺ ما كان طبيبَ قلوبٍ فقط، وإنما كان طبيبَ أبدانٍ أيضًا! يرعَىٰ جميع شؤون أصحابه وأمّته الدينية والدنيوية، فكما كان حريصًا علىٰ دخول أُمّته الجنّة، كذلك كان حريصًا علىٰ شؤوننا الدنيوية؛ فاتِّباعه ﷺ في كلّ الأمور فيه الفلاح الأُخروَيّ، والسعادة والراحة والطمأنينة الدنيوية، مع شفاء الأبدان من الأسقام، والحذر من مكامن الأدواء.

وقد أفرد الإمام ابن القيّم رَحِمَهُ اللهُ جُزءًا كاملًا للطبّ النبويّ في كتابه العظيم: (زاد المعاد في هدي خير العباد ﷺ)، تحدّث فيه عن الطبّ والعلاج والدواء النبوي، وما ورد من الأغذية النافعة والضارّة، وكلامُه ﷺ في ذلك ما كان عن الهوىٰ، إنما هو وحيٌ يوحَىٰ.

وفي هذا إشارةٌ للعلماء والدعاة والأمّة الإسلامية أن النجاةَ والسعادةَ هي في تكامُل جوانب الحياة، فإنَّ علىٰ الأمّة الإسلامية أن تسعىٰ لتكميل نفسها إيمانيًّا ودينيًّا، مع عدم إهمال الحياة الدنيوية، بل عليها أن تسعىٰ إلىٰ تمام استكمال جوانب العَيش واستقراره، فالدعوة الإسلامية دعوةٌ شاملةٌ كاملةٌ، لا يَطغَىٰ فيها جانبٌ علىٰ جانب، بل هي مبنيةٌ علىٰ تكامُل جميع الجوانب.

---

(١) صحيح البخاري (٥٤١٧).

(حسن) ١٥٥ـ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِينِي فَيَقُولُ: «أَعِنْدَكِ غَدَاءٌ؟»، فَأَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: «إِنِّي صَائِمٌ»، قَالَتْ: فَأَتَانِي يَوْمًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ أُهْدِيَتْ لَنَا هَدِيَّةٌ، قَالَ: «وَمَا هِيَ؟»، قُلْتُ: حَيْسٌ، قَالَ: «أَمَا إِنِّي أَصْبَحْتُ صَائِمًا»، قَالَتْ: ثُمَّ أَكَلَ(١).

شرح الحديث

قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِينِي فَيَقُولُ: «أَعِنْدَكِ غَدَاءٌ؟»، فَأَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: «إِنِّي صَائِمٌ»، في هذا الحديث أنه ﷺ كان يدخل بيوتَ أزواجه، فيسأل عن الطعام، فربما لم يجد طعامًا، فيُتِمّ يومَه صائمًا، وربما وجد فأكل.

ومِن قوله: «أَعِنْدَكِ غَدَاءٌ؟»، يستنبط أنَّه ما كان صائمًا، وإلا لم يبحث عن الطعام ليأكله.

واستنبط الفقهاءُ من هذا الحديث: أنَّ صيامَ التطوُّع لا يُشترط له النية من الليل، فيُجزئ وإن نَوىٰ في النهار، فصيامُ التطوُّع مستثنًىٰ من عموم قوله ﷺ: «مَن لم يُجْمِعِ الصِّيام قبل الفجر فلا صيام له»(٢)، ويُحمل هذا الحديث علىٰ صوم الفرض خاصّةً.

ويُستنبط من قول عائشة: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِينِي» أنَّه أمرٌ متكررٌ، وأنَّ حياة النبي ﷺ كانت بعيدةً عن التكلُّفِ؛ إن وجد طعامًا أكل، وإن لم يجد لم يأكل.

---

(١) أخرجه مسلم (١١٥٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٥٤)، والترمذي (٧٣٠)، وضعَّفه ورجَّح أنه موقوف.

هكذا كانت حياتُه ﷺ بهذه البساطة واليُسر، سأل عن الطعام ولم يجده، فطُوِيت هذه الصفحة وأصبح صائمًا، دون تذمُّرٍ وتضجُّرٍ من زوجه.

وهذا بخلافِ ما عليه بعضُ الأزواج اليوم، مِن جَعْل طَبخ الطعام شيئًا أساسًا في حياتهم، حتىٰ إنهم يصطنعون المشاكل مع زوجاتهم إن لم يجدوا الطعام جاهزًا في وقته.

ويُستنبط أيضًا من قوله ﷺ: «**أَعِندَكِ غَدَاءٌ؟**» أنَّه ما كان ﷺ يعرِف ماذا يوجد في بيته من طعام! فالطعام بالنسبة إليه أمرٌ ثانويٌّ، إنما يُسأل عنه وقت الحاجة إليه.

وهذا بخلافِ ما عليه بعض الناس اليوم مِن جعل الطعام مسألةٍ مهمةً في حياتهم، وقَنطرةً عظيمةً من قناطرها.

قولها رضي الله عنها: «**حَيْسٌ**»؛ الحَيْسُ: تَمرٌ يُحْمَس ويُطبخ علىٰ النار، ومعه سمنٌ، ودقيقُ شعيرٍ أو نحوه.

قوله ﷺ: «**أَمَا إِنِّي أَصْبَحْتُ صَائِمًا**»، أثبت بهذا أنه قد شرع في الصيام ذلك اليوم.

قولها رضي الله عنها: «**ثُمَّ أَكَلَ**»، في هذا هديٌ نبويٌّ آخر، وهو أنَّه ﷺ ربما كان صائمًا صوم تَطوُّع، فإذا وجد طعامًا أفطر وأكل.

ومنه استنبط الفقهاء ـ وهو مذهب الجمهور، وهو الراجح ـ: أنَّ الصائمَ صيامَ تطوُّع أميرُ نفسِه؛ إن شاء أتمَّ صيامه، وإن شاء أفطر.

وهذا لا يتعارضُ مع قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٣]؛ لأنَّ الصائمَ تطوُّعًا إن أمضىٰ صيامَه أُجِر، وان أفطر لعدم قُدرته علىٰ الصيام أو عرض له شيءٌ فالأمر فيه مُتَّسَعٌ.

* لفتة إيمانية:

في الحديث إشارةٌ إلىٰ أنَّ المسلم يستطيع أن يُطَوِّع كلَّ شيءٍ في حياته ليكون عونًا له علىٰ عبادة الله سبحانه؛ فالنبي ﷺ عندما لم يجِد طعامًا عند عائشة ذلك اليوم، نَوَىٰ الصيام اغتنامًا لذلك اليوم الذي لم يجد فيه طعامًا، ولم يضيِّع وقته بالتضجُّر والتذمُّر.

ويستطيع الإنسان ذلك في كثيرٍ من أمور حياته؛ فمَن كان عنده موعدٌ مع شخصٍ فتأخَّر عليه ذلك الشخص، فإمَّا أن يُضيِّع وقتَه بالغضب والتذمُّر، وإما أن يستغلَّ الفرصةَ في قراءة شيءٍ من القرآن، أو ذكر الله سبحانه، أو نحو ذلك مما يستغلُّ به وقته.

ومَن كان ينتظر ضيفًا في بيته وتأخَّر؛ فليستغلَّها في صلاة ركعتي ضُحىٰ، أو ركعتين من قيام الليل، أو نحو ذلك.

فالمسلم هكذا يُوَظِّف الفُرَصَ في زيادة حسناته، وتكثير عباداته.

***

(ضعيف) ١٥٦ـ عَن يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ رضي الله عنهما قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ كِسْرَةً مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا تَمْرَةً، وَقَالَ: «هَذِهِ إِدَامُ هَذِهِ»، وَأَكَلَ[1].



شرح الحديث

الحديث ضعيفٌ سندًا، ويوسف بن عبد الله رضي الله عنهما له صُحبةٌ[2].

ولكن الحديث على ضعفه يشهد لبعض ما فيه أحاديثُ سابقةٌ؛ كأكله خُبز الشعير، وأكله التمر، وكون طعامه شيئًا قليلًا ومتواضعًا.

قوله ﷺ: «هَذِهِ إِدَامُ هَذِهِ»؛ يعني: هذا مما يؤتدَم به الخُبزُ، أي: يُجعل مع الخبز ليُؤكل به.

وقد تقدَّم أنَّ ما أُكِل مع الخبز يُسمىٰ: إدامًا

***

(صحيح) ١٥٧ـ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: كَانَ يُعْجِبُهُ الثُّفْلُ»[3]، قَالَ عَبْدُ اللهِ: يَعْنِي: مَا بَقِيَ مِنَ الطَّعَامِ[4].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٣٠)، وضعَّفه الألباني في الضعيفة (٤٧٣٧)، لجهالة أحد رواته.

(٢) انظر: الإصابة لابن حجر (١١/ ٤٥٦، رقم: ٩٤١٦).

(٣) أخرجه أحمد (١٣٣٠٠)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١١٥، رقم: ٧١١٦).

(٤) انظر: المستدرك (٤/ ١١٥).

شرح الحديث

قول أنس رضي الله عنه: «كَانَ يُعْجِبُهُ الثُّفْلُ»؛ الثُّفْلُ - بالثاء والفاء واللام -.

«قَالَ عَبْدُ اللهِ»؛ يعني: شيخ الترمذي: عبد الله بن عبد الرحمن.

«مَا بَقِيَ مِنَ الطَّعَامِ»؛ أي: ما بقي من الطعام في قَعْر القِدر وأسفله، وفي نهاية الطَّبَق.

فإنَّ ما يكون في قَعرِ القِدر من الطعام يكون في الغالب أكثرَ نُضجًا، وألذَّ طعمًا، وما زال كثيرٌ من الناس يُحبُّ أكلَه، ويجده لذيذَ المذاق.

وفيه إشارةٌ أيضًا إلىٰ زُهد النبي ﷺ؛ فإن الثُّفْلَ عادةً ما يصيبه احتراقٌ يسيرٌ، أو يكون أكثرَ يُبسًا من غيره من الطعام.

وفيه إشارةٌ إلىٰ قِلَّة طعام بيت النبي ﷺ؛ فإنَّ الثُّفلَ ما يكون أسفلَ الطعام المطبوخ، فإذا كان أهلُ البيت لا يكفيهم الطعامُ المطبوخ ويحتاجون إلىٰ أكل الثُّفل ليشبعوا؛ كان دليلًا علىٰ قِلَّة المطبوخ وقِلَّة ما يأكلون.

وقيل في معنىٰ الثُّفْلِ: أنه اسمٌ من أسماء الثَّريد، وقد سبق تفضيل الثَّريد علىٰ سائر الطعام.

***

تمّ الباب بحديث أنسٍ رضي الله عنه، وفي الباب جُمْلَةٌ من الأمور العظيمة أوجزها فيما يلي:

أولًا: أنَّ النبي ﷺ، كان من أقلِّ الناسِ عَيشًا، وأقلِّهم اهتمامًا بشؤونها؛ فلم يكن يهتمُّ بطعامٍ أو شرابٍ أو لباسٍ أو مركبٍ أو أيِّ شيءٍ من سائر نواحي الحياة اهتمامَ بحثٍ وتفكيرٍ وترتيبٍ مقصودٍ، وذلك مصداقُ لقوله ﷺ: «**كُن فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»(١)، وقوله: «**مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رَاكِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»(٢)، فالتقلُّلُ من الدنيا أمرٌ عظيمٌ أرشد إليه أمّتَه ورغَّب فيه، وفيه من عظيم الفوائد: راحةُ البال وانشراحُ الصدر والقناعةُ الموجبةُ للرضا والسعادة، وعدمُ التكدّر أو الأسَىٰ علىٰ حظوظ الدنيا الفائتة ومتاعها الزائل، وتوفيرُ همّ القلب علىٰ عظيم الهمم ومعالي الأمور، وما يتبع ذلك من توفيقٍ عظيمٍ وحياةٍ طيبةٍ.

وبالمقابل فإنَّ التوسُّعَ في المباح ليس محرَّمًا؛ فإننا نجد مِن الصحابة مَن وُسِّع له في هذه الحياة الدنيا، كعثمان بن عفّان، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم من الصحابة من التُجّار والأثرياء رضي الله عنهم، ولكن لم تكن الدنيا في قلوبهم، ولم يركنوا إليها، وإنَّما سخروا ما أعطاهم الله ووسَّع عليهم به في خدمة المسلمين ونصرة هذا الدين ونبيّه الكريم ﷺ.

وهذا هو الفرقُ بين مَن كانت الدنيا في يديه، ومَن كانت الدنيا في قلبه؛ بين مَن كانت الدنيا في يديه فسخَّرها في طاعة الله سبحانه، ومَن كانت الدنيا في قلبه فسيطرت علىٰ تفكيره، واشتغل بها همُّه وقلبُه، وتعلَّق بها، وربّما هَوَتْ به إلىٰ الدركات، نسأل الله السلامة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤٢٠٨)، والترمذي (٢٣٧٧)، وقال: «حسن صحيح».

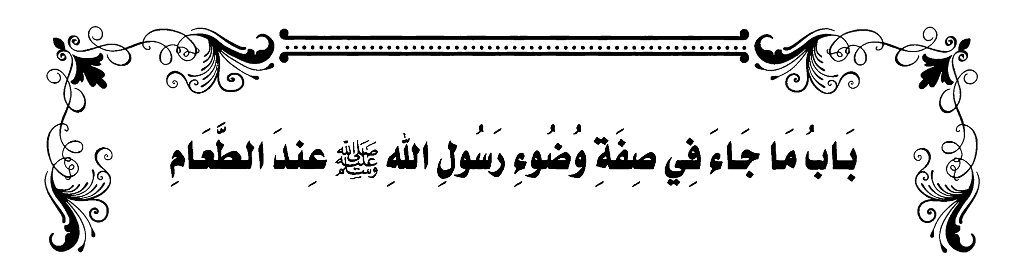
ثانيًا: أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن يَشغَل أهلَ بيته أو أصحابه بشأن الطعام، فلا يتكلّف ولا يتطلّب أوصافًا معيَّنةً في مطعمه ومشربه، بل يأكل ما تيسَّر إن وَجد.

ثالثًا: دلَّت أحاديثُ الباب علىٰ أنَّ هديَه ﷺ في هذا الباب هو ما يكفي الإنسان حاجتَه وبُلغتَه، ولم يكن يتوسَّع في المباحات، ذلك أنَّ الاكتفاء بالحاجة أوفقُ لصحَّة الإنسان، وأنسبُ له في تعبُّدِه لله سبحانه.

رابعًا: علىٰ المؤمن أن يرضَىٰ بما قَسَم الله له مِن متاع الحياة الدنيا، وأن يجعل النبيَّ ﷺ أسوةً له وقدوةً في هذا الأمر، فإن وَجد الله قد ضيَّق عليه عِيشَتَه فليكن له سُلوةٌ في حبيبه ونبيّه ﷺ.

ثم ليعلم المسلمُ أنَّ الإنسان ما ضُيِّق عليه في شيءٍ إلا ووُسِّع عليه في شيءٍ آخر؛ فإن ضُيِّق عليه في ماله فقد يكون رُزِق من الصحة والعافية ما ليس لغيره، وإن قُلِّلت عِيشتُه فقد يكون أُعْطِي من الولد والذرية ما يكون له ذِكرًا حَسنًا بعد مماته، وإن كان مالُه قليلًا فقد تكون سعادتُه بعبادة ربِّه مغنيةً له عن كثرة المال، وهكذا؛ فلا ينبغي للإنسان أن يمدَّ عينيه إلىٰ ما متَّع اللهُ به غيره في هذه الدنيا.

** ** **



بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ وُضُوءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ الطَّعَامِ

بعدما انتهىٰ الحديثُ عمَّا جاء من صِفةِ طعامِ رسول الله ﷺ؛ ناسبَ أن يأتي بعده هذا الباب الذي فيه صفة وُضوء رسول الله ﷺ عند الطعام.

والوُضوءُ يأتي بمعنيين:

المعنىٰ الأوّل ـ وهو المعنىٰ المعروف ـ : وُضوءُ العبادة علىٰ الصفة المعروفة؛ من غَسل اليدين، ثم المضمضة، ثم الاستنشاق، ثم غَسلِ الوجه، ثم غَسلِ اليدين إلىٰ المرفقين، ثم مسحِ الرأس، ثم غسلِ الرِّجلين إلىٰ الكعبين.

والمعنىٰ الثاني: التنظُّف؛ مِن غسل اليدين والفم والوجه ونحو ذلك، وقد تقدَّم دليلُ تسميته وُضوءًا.

***

(صحيح) ١٥٨ ـ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ مِنَ الخَلَاءِ، فَقُرِّبَ إِلَيْهِ الطَّعَامُ، فَقَالُوا: أَلَا نَأْتِيكَ بِوَضُوءٍ؟ قَالَ: «إِنَّمَا أُمِرْتُ بِالوُضُوءِ إِذَا قُمْتُ إِلَىٰ الصَّلَاةِ»، وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَالَ: «أَأُصَلِّي فَأَتَوَضَّأُ؟»**(١).

---

(١) أخرج أحمد (٢٥٤٩)، وأبو داود (٣٧٦٠)، والترمذي (١٨٤٧)، وحسَّنه، والنسائي (١٣٢).

شرح الحديث

قول ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ مِنَ الخَلَاءِ»؛ أي: بعد قضاء الحاجة.

قوله رضي الله عنه: «فَقَالُوا: أَلَا نَأْتِيكَ بِوَضُوءٍ؟»، الوَضوء ـ بفتح الواو ـ: اسمٌ للماء الذي يُتَوَضَّأ به، ـ وبضمِّ الواو ـ: فعل الوضوء؛ أي: استعمال الماء لغَسل أعضاء الوضوء.

أي: عَرَضوا عليه أن يأتوه بماءٍ يتوضّأ منه قبل أن يأكل.

قوله ﷺ: «إِنَّمَا أُمِرْتُ بِالوُضُوءِ إِذَا قُمْتُ إِلَىٰ الصَّلَاةِ»؛ أي: تناوُل الطعام ليس عبادةً تُوجب الوضوء.

قوله ﷺ: «أَأُصَلِّي فَأَتَوَضَّأُ؟»؛ يعني: أهذه صلاةٌ حتىٰ يلزمَني فيها الوضوء!

فدلَّ علىٰ أنَّ تناوُل الطعام لا يحتاج معه أن يكون المؤمنُ متوضِئًا.

كما دلَّ علىٰ أنه لا يجب الوضوء بعدما يخرج المؤمن من الخلاء، إلا إذا أراد عبادةً يكون من شرطها الوضوءُ والطهارةُ.

***

(ضعيف) **١٥٩ ـ عَن سَلْمَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَرَأْتُ فِي التَّوْرَاةِ: «إِنَّ بَرَكَةَ الطَّعَامِ الوُضُوءُ بَعْدَهُ»، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَرَأْتُ فِي التَّوْرَاةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:**

«**بَرَكَةُ الطَّعَامِ الوُضُوءُ قَبْلَهُ، وَالوُضُوءُ بَعْدَهُ**»(١).

شرح الحديث

قول سلمان ﷺ: «**قَرَأْتُ فِي التَّوْرَاةِ: إِنَّ بَرَكَةَ الطَّعَامِ الوُضُوءُ بَعْدَهُ**»؛ الوُضوءُ هنا ليس هو الوُضوءَ الشرعيّ، وإنما المراد به التنظُّف، أي: غَسلُ اليدين والفم بعد تناوُل الطعام.

قوله ﷺ: «**بَرَكَةُ الطَّعَامِ الوُضُوءُ قَبْلَهُ، وَالوُضُوءُ بَعْدَهُ**»؛ أي: مِن أدب الطعام غَسل اليدين قبله، وغَسل اليدين بعده.

والأطبّاءُ اليوم ينصحون بغَسل اليدين قبل الطعام تجنُّبًا لأي أذًى يكون في اليدين؛ حيث إنها آلة إدخال الطعام إلى الفم، فإن كان في اليد أذًى فإنه يدخل إلى الفم مع الطعام، وربما تضرَّرت صحَّةُ الآكِل.

والحديثُ فيه ضعفٌ في إسناده، ولو كان صحيحًا لكان حُجَّةً في بابه.

ولأجل ذلك اختلف العلماء في سُنِّيّة غَسل اليدين قبل الطعام، فقال ابنُ تيمية ﷺ: «وتنازعَ العلماءُ في غسل اليدين قبل الأكل: هل يُكرَه؟ أو يُستحَبُّ؟ على قولين، هما روايتان عن أحمد، فمن استَحبَّ ذلك احتجَّ بحديث سلمان ..، ومن كَرِهه قال: لأنَّ هذا خلافُ سُنَّة المسلمين، فإنهم لم يكونوا يتوضّؤون قبل الأكل، وإنما كان هذا من فعل اليهود؛ فيُكرَه التشبُّهُ بهم، وأمّا حديث سلمان فقد ضعَّفه بعضُهم، وقد يُقال: كان هذا في أوّل الإسلام لَمَّا كان النبي ﷺ يُحِبُّ

(١) أخرجه أحمد (٢٣٧٣٢)، وأبو داود (٣٧٦١)، والترمذي (١٨٤٦)، وضعَّفه.

موافقةَ أهل الكتاب فيما لم يُؤمَر فيه بشيءٍ»(١).

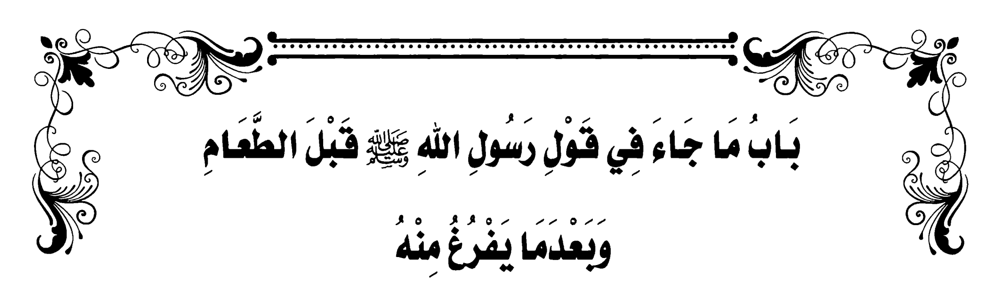
وخلاصةُ الكلام: أنَّ غسل اليدين قبل الطعام لم يصحَّ فيه حديثُ سلمان لضعفه، فإنْ أراد الإنسانُ الاحتياطَ لصحّته وغَسلَ اليدين فلا بأس، خصوصًا إذا غلب علىٰ الظنِّ وجودُ شيءٍ مما يَعلَقُ باليدين مما يُستحسَن معه غَسلُ اليدين قبل الطعام، وإن لم يثبت سُنّةٌ عن رسول الله ﷺ، فلا أقلَّ من أن يكون من باب العادات المستحسَنة استكمالًا لدواعي الصحة والسلامة.

وأمّا غسلُ اليدين بعد الطعام فإنه يَحسُن إذا بقي في اليد شيءٌ من بقايا الطعام، وذلك أيضًا من قبيل العادات المستحسَنة وإن لم يصحّ فيها الحديث.

** ** **

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٢/ ٣١٩).



بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ الطَّعَامِ وَبَعْدَمَا يَفْرُغُ مِنْهُ

هذا بابٌ آخرُ متعلِّقٌ بالأبواب السابقة، وهو ما ورد عن النبيّ ﷺ مما كان يقوله قبل الطعام، وبعد الفراغ منه.

وهذا من باب الشمائل التي يُسَنُّ فيها الاقتداء بالنبيّ ﷺ.

***

(ضعيف) ١٦٠ـ **عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنصَارِيِّ ﷺ قَالَ: كُنَّا عِندَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا، فَقُرِّبَ طَعَامٌ، فَلَمْ أَرَ طَعَامًا كَانَ أَعْظَمَ بَرَكَةً مِنْهُ أَوَّلَ مَا أَكَلْنَا وَلا أَقَلَّ بَرَكَةً فِي آخِرِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ هَذَا؟ قَالَ: «إِنَّا ذَكَرْنَا اسْمَ اللهِ حِينَ أَكَلْنَا، ثُمَّ قَعَدَ بَعْدُ مَنْ أَكَلَ وَلَمْ يُسَمِّ اللهَ تَعَالَىٰ، فَأَكَلَ مَعَهُ الشَّيْطَانُ»**[١].



شرح الحديث

وهذا الحديث لا يصحُّ سندُه.

قول أبي أيّوب الأنصاري ﷺ: «فَلَمْ أَرَ طَعَامًا كَانَ أَعْظَمَ بَرَكَةً مِنْهُ أَوَّلَ مَا أَكَلْنَا وَلا أَقَلَّ بَرَكَةً فِي آخِرِهِ»، يصف أبو أيوب ﷺ موقفًا حصل له مع النبي

(١) أخرجه أحمد (٢٣٥٢٢)، وضعَّفه الألباني؛ لحال راويه عبد الله بن لهيعة، وهو سيء الحفظ، وفوقه راويان لا يُعرفان.

ﷺ، حيث إنَّه وجد فَرقًا في البركة بين أوّل ما قُدِّم الطعامُ وآخِره.

قوله رضي الله عنه: «**فَقُلْنَا: يَا رَسُول اللهِ، كَيْفَ هَذَا؟**»، فيه اغتنام الفرصة لسؤال النبيّ ﷺ حتىٰ وإن كانوا ليسوا في مقام تعلُّمٍ، وإنما كانوا علىٰ طعام، وهذا يدلُّ علىٰ اغتنام الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ للثواني والدقائق.

قوله ﷺ: «**إِنَّا ذَكَرْنَا اسْمَ اللهِ حِينَ أَكَلْنَا**»؛ يعني: أنّ ذِكرَ اسم الله تعالىٰ هو سببُ وقوعِ البركة أوّلَ الطعام.

قوله ﷺ: «**ثُمَّ قَعَدَ بَعْدُ مَنْ أَكَلَ وَلَمْ يُسَمِّ اللهَ تَعَالَىٰ، فَأَكَلَ مَعَهُ الشَّيْطَانُ**»؛ يعني: لحِقَهم رجلٌ بعد جلوسهم، وجلس معهم، وأكل دون ذِكر اسم الله تعالىٰ، فكان مَدخلًا للشيطان أن يُصيب من طعامهم ويأكل منه.

وكان أكلُ الشيطان معه لا معهم، فإنهم قد سَمَّوا، ولكن الطعامَ واحدٌ، فكان ذلك الواحدُ سببًا لأكل الشيطان وذهاب البركة من الطعام.

ومسألةُ أكل الشيطان مع الإنسان من الأمور الغيبية التي لا يصحّ إثباتها إلا بأحاديثَ صحيحةٍ، وهذا الحديثُ ضعيفٌ، إلا أنَّ في السُّنَّة الصحيحة ما يشهد لهذا المعنىٰ، وذلك في أحاديث متعدِّدة، منها ما ورد في صحيح مسلم[(١)]: عَن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ وَالعَشَاءَ**».

---

(١) صحيح مسلم (٢٠١٨).

يعني: يقول الشيطان لذُرِّيّته ومَن معه: لا مَبيتَ لكم اليوم ولا طعامَ؛ لأن صاحبَ البيت ذَكَرَ اسمَ الله، أو يقول لهم: أدركتُم الـمَبيتَ لأنه لم يذكر اسم الله، فكأن مَن لم يذكر اسم الله عند دخوله البيت تَرك البابَ مفتوحًا للشيطان ليدخل، ومَن ذكر اسم الله فإنه أغلق الباب بقُفلٍ مُحكَم عليه ختمٌ.

وفي حديث جابرٍ رضي الله عنه هذا مسألتان:

المسألة الأولىٰ: فضلُ الذِّكر، وأنه وقايةٌ وحِصنٌ، فمن حافظ علىٰ الذِّكر فقد حصَّن نفسَه، ومن ترك ذِكر الله فقد ترك نفسَه عُرضةً للشياطين، ولهذا يكثُرُ اليوم ما نسمعه من إصابة الشياطين لبني آدم؛ فهذا محسودٌ، وهذا مسحورٌ، وهذا مَعيونٌ، وهذا مُوَسوِسٌ.. إلخ.

المسألة الأخرىٰ: أنَّ تسلُّطَ الشيطان علىٰ ابنِ آدم ليس لقوّة الشيطان؛ بل لضعف ابن آدم بتركه الذكر، والله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

ومما يُذكر ههنا استطرادًا تمامًا للفائدة: أنَّ البيوتَ التي تُعمَر بذِكر الله ـ عزَّ وجل ـ لا يُترَك فيها مجالٌ للشيطان؛ مِن خلال صلاةِ النساء في البيت، وصلاةِ الرجال للنوافل في البيت، وقراءةِ القرآن فيه، وذِكرِ الله فيه، وغير ذلك.

وعلىٰ النقيض من ذلك تلك البيوت التي امتلأت بأجهزة التلفاز والاتّصالات وغيرها، وصَدحَت تلك الأجهزة في البيوت بالأغاني والموسيقىٰ، قد هُجِر فيها ذكر الله عز وجل، حتىٰ أصبحت مأوًىٰ للشياطين، حتىٰ عَبثت بأهل ذلك البيت، فلا

تَسَل عن وَحشةِ نفوسهم، وضِيق صدورهم، والضَّنْكِ الذي يعيشون فيه، كيف لا وقد خَلَت ساحاتُ البيتِ من ذكر الله لتلك الشياطين تعيثُ فيه فسادًا!؟

***

(صحيح) ١٦١ ـ **عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَنَسِيَ أَن يَذْكُرَ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ طَعَامِهِ فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ»**(١).

شرح الحديث

قوله ﷺ: «**إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَنَسِيَ أَن يَذْكُرَ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ طَعَامِهِ**»؛ يعني: عند الابتداء، فمن الآداب النبويّة أن يَذكُرَ المسلمُ ربَّه عند الطعام قبل الشروع فيه.

فإذا نسيَ ذِكرَ الله لأيِّ أمرٍ من الأمور، وشرع في الطعام، فإنَّ السُّنَّة قد فتحت بابًا آخر لذكر الله، أرشد إليه النبيُّ ﷺ بقوله:

«**فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ**»، سواءٌ تذكَّر أثناءَ الطعام، أو قُربَ الفراغ.

أي: بسم الله أوّلَ الطعام، وبسم الله آخِرَ الطعام.

وذلك كالكفّارة لنِسيانه ذِكرَ اسمِ الله تعالىٰ أوَّلَ الطعام، ثم إنه مُحقِّقٌ لبركة الطعام الباقية.

وقد يُعْرِض بعضُهم عن تطبيق هذه السُّنَّة النبوية إذا تذكَّر وبقي له من

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٧٦٧).

طعامه لقمةٌ أو لقمتان؛ بدعوىٰ أنَّ ذِكرَ اسمِ الله علىٰ الطعام إنما هو لأجل البركة، وأنّ الطعام قد فاتَ أكثرُه!

فيُقال لهذا: إن اللُّقمةَ التي تَذكرُ عليها اسم الله تعالىٰ تَحلُّ فيها البركة، وإذا حلَّت البركة في هذه اللُّقمة كانت أعظمَ في استغناء الآكِلِ بها عن كلّ ما سبق من الطعام.

وهذا الأدبُ مما ينبغي أن يُلتفت إليه، ويعلّمه أهلُ البيت والصبيان.

***

(صحيح) ١٦٢ـ **عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ طَعَامٌ، فَقَالَ: «ادْنُ يَا بُنَيَّ، فَسَمِّ اللهَ تَعَالَىٰ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»**[1].

شرح الحديث

(عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ): هو ربيبُ رسول الله ﷺ، والمقصود بالرَّبيب: ابنُ الزوجةِ من زوجٍ آخَر، أي: إذا تزوّج الرجُلُ امرأةً لها ولدٌ فإنَّ الولد يسمىٰ ربيبًا.

وذلك أنَّ النبي ﷺ تزوَّج أمَّ سَلَمة بعد وفاة زوجها أبي سَلَمة، وكان عندها ولدٌ منه، وهو عُمر بنُ أبي سَلَمة.

وفي تعليم النبي ﷺ ربيبَه فائدةٌ عظيمةٌ في أهميّة التربية والتعليم والتوجيه لجميع فئات المجتمع، فالنبيُّ ﷺ كان نبيًّا يوحَىٰ إليه، مأمورًا بالبلاغ، يحمل

(١) أخرجه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

علىٰ عاتقه همَّ الأمة بأسرها، كل ذلك لم يَعُقْه عن توجيه هذا الطفل الصغير الجالس بحضرته.

كما أنَّ تعليم النبي ﷺ ابنَ زوجته فيه توجيهٌ لِمَن أهمل تربية ابنه الذي هو مِن صُلْبِه؛ بأنَّ الإنسان عليه أن يكون حريصًا علىٰ أبناء غيره، فكيف بأبنائه هو!

قوله ﷺ: «ادْنُ يَا بُنَيَّ»؛ أي: اقترب، وكُلْ معي من الطعام، ثم علّمه ثلاث جُمَلٍ هي مفاتيح أدب الطعام، وكل واحدةٍ من هذه الجملة جاء ما يدلُّ عليها ويؤيّدها في أحاديث أخرىٰ.

وفي الحديث أنَّ تعليم الصِّغار فيه ما ليس في تعليم الكبار؛ فإنَّ الصغار أشدُّ حِفظًا، لأجل ذلك حَفِظ عمرُ بن أبي سَلَمة هذا الحديث صغيرًا، وبلَّغه كبيرًا.

ويُلاحَظ في الحديث أنَّ النبي ﷺ ذكر ثلاثةً من آدابِ الطعام في جُمَلٍ وجيزةٍ قصيرةٍ؛ ذلك أنَّ الغلامَ صغيرٌ، وعقلُ الصغير لا يستوعب الدروسَ الطويلةَ، ثم إنَّ الموقفَ موقفُ طعام، وذلك الموقفُ لا يناسب الطُّول في الدروس والمواعظ أيضًا، ومع ذلك لم يخلُ الأمرُ من توجيهٍ مناسبٍ للمقام.

وفي هذا إرشادٌ للمعلّمين والموجّهين والآباء المربِّين؛ أنَّ الإنسان عليه أن يكون ذا منهجٍ وسَطٍ في دعوته، فإنَّ بعض الناس يظلُّ يمارس دور الوعظ والإرشاد والتوجيه مع أبنائه وطلابه، حتىٰ ربما أصابهم الملَلُ من ذلك، فينصرفون عن الموعظة ولا يُلقون إليها بالًا ولا قلبًا.

وعلىٰ النقيض في الجانب الآخر ترىٰ بعض الآباء والمعلّمين لا يكاد يُسمَع له توجيهٌ، بل رُبَّما نَهىٰ مَن يأمُر أبناءه وطُلابه بمثل هذه الآداب، بحُجّة أنَّ الأبناء في رحلةٍ أو نزهةٍ أو وقتِ طعامٍ، وتلك الأوقاتُ ينبغي فيها التخلُّص من تلك القيود الدينية!

والصوابُ هو المنهجُ الوسطُ بين منهجين؛ بإعطاءِ كلِّ مقامٍ حقَّه، والتعامُلِ مع كل حالٍ بما يناسبها.

وفي استخدام لفظة «**يَا بُنَيَّ**» مِن التحبُّبِ والتقرُّبِ ما يُقَوِّي الامتثال عند المأمور، وفيه توجيهٌ للآباء والمربّين باستخدام مثل هذه الألفاظ في التربية: يا بُنيّ، يا ولدي، يا قُرَّة عيني، يا فَلذة كَبِدي.

وهذا أولىٰ مِن العبارات الجافَّة والصُّراخ المستمرّ الذي يمارسُه الآباءُ في تعليم أبنائهم، ويصُكُّ آذانَ أبنائهم قبل التوجيه، مما يجعلهم ينفِرون من هذا التعليم والتوجيه.

قوله ﷺ: «**وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»؛ أي: مِن الأدب أن يأكل الإنسان مما يليه من الطعام، فلا يأكل مما يلي شخصًا آخر ممن يجلس معه علىٰ السُّفرة أو المائدة، أو مِن طَبَقه.

هذا التوجيهُ والتأديبُ النبويُّ الكريم كان قبل أكثر من ألفٍ وأربعمائةٍ وثلاثين سنةً، سابقًا بذلك أنظمة الآداب والتقاليد والعادات الراقية التي تُدْرَس وتُطبَّق في بيوت الكبار والعُظَماء وأبناء الأشراف وذوي الوجاهة والرئاسة؛ من عادات التصرُّف في الدخول والخروج والجلوس واستقبال الناس والجلوس علىٰ الموائد وكيفية تناول الطعام والشراب.

فهذا الدينُ ما زال فيه من كنوز الآداب والأخلاق التي تدلُّنا علىٰ عَظَمة هذا الدِّين وهذا النبي ﷺ، وأننا ما زلنا نحتاج إلىٰ تصفُّح مواضع العَظَمة واكتشافها، وما زال الآباءُ والأمَّهاتُ بحاجةٍ إلىٰ زرعِ هذه المعاني في قلوب أطفالهم، وتعليمهم هذه الآدابَ ليتأدَّبوا بها.

وقد يحرصُ بعضُ الآباء والأمّهات علىٰ تعليم أولادهم الحذرَ من مخالفة الأعراف والآداب العامّة، وهذا لا بأس به، ولكن عندما يُربط الأدبُ بأنَّه من سُنّة النبي ﷺ فإنَّه يكون أكثر وقعًا وتأثيرًا، وأدعىٰ للامتثال والاتِّباع، وبه تُبْذَر بُذورُ محبّةِ الرسول ﷺ في تلك القلوب الغَضّة الطريّة الناشئة، خاصَّةً في هذه الأزمان المتأخِّرة التي أصبحت فيها التربيةُ تحدِّيًا عظيمًا يواجهه الآباُء والمؤدِّبون، مع وجود هذا السَّيل الإعلاميّ الجارِف الذي دخل كلَّ بيتٍ؛ مِن قنواتٍ مُشاهَدةٍ، ووسائل التواصُل الاجتماعي.

***

(ضعيف) **١٦٣ـ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِن طَعَامِهِ قَالَ: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا، وَسَقَانَا، وَجَعَلَنَا مُسْلِمِينَ»**(١).

شرح الحديث

عُنوانُ هذا الباب: **(باب ما جاء في قول رسول الله ﷺ قبلَ الطعام وبعدما**

(١) أخرجه أحمد (١١٢٧٦)، وأبو داود (٣٨٥٠)، والترمذي (٣٤٥٧)، وابن ماجه (٣٢٨٣)، وضعَّفه الألباني في تخريج الكلم الطيب (١٨٨).

يَفرغُ منه)، وقد تقدّم في الأحاديث السابقة الأدبُ النبويُّ فيما يقول المسلم قبلَ الطعام، وهو التسمية وذِكر اسم الله تعالىٰ علىٰ الطعام لتَحِلَّ البركة، وتَطرُدَ الشيطان؛ فيَنعَمَ ابنُ آدم بأكل الطعام، ويكون هنيئًا مريئًا له، مع تقوية بدنه به.

وبقي الشقُّ الآخرُ مما عُقِد لأجله الباب، وهو ما يقوله المسلم بعد الطعام، وقد دلَّ حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه هذا عليه.

والأدب المذكور في الحديث: حَمدُ الله سبحانه بعد الفراغ من الأكل علىٰ الطعام، وعلىٰ السُّقيا، وعلىٰ الإسلام.

وحديثُ أبي سعيد الخدري رضي الله عنه حديثٌ ضعيفٌ، إلا أنَّ حَمدَ الله بعد الطعام قد ورد في أحاديث ثابتةٍ كثيرةٍ متعدّدة، فالحديثُ إن لم يصحَّ سندًا فهو صحيحٌ معنًىٰ.

***

(صحيح) ١٦٤ـ **عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا رُفِعَتِ المَائِدَةُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ يَقُولُ: «الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مُودَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنًىٰ عَنْهُ، رَبَّنَا»**(١).

شرح الحديث

قول أبي أمامة رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا رُفِعَتِ المَائِدَةُ من بَيْنِ يَدَيْهِ

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٠٠)، وأبو داود (٣٨٤٩)، والترمذي (٣٤٥٦)، وقال: «حسن صحيح».

يَقُولُ»، هذه الصيغةُ تدُلُّ علىٰ الاستمرار.

وفيه أنَّه ﷺ كان يرفعُ صوتَه بهذا الذِّكر يُسمِعُه مَن حوله، حتىٰ حفظه الصحابة مِن فيه، وفي هذا توجيهٌ للآباء والمربّين برفع صوتهم بهذا الدعاءِ بعد الطعام تعليمًا لأبنائهم؛ خاصَّةً وأنَّ آذانَ الصِّغار الغَضَّةَ الطريّةَ تستوعب كثيرًا مما تسمع، وتحفظُ ذلك وتنقُشُه في ذاكرتها، خاصَّةً إذا تكرَّر علىٰ مسامعهم مرارًا.

قوله ﷺ: «الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ»، صدَّرَ الدعاء بحمدٍ عظيمٍ بالغٍ، وَصفَه بأنه كثيرٌ أولًا، وطيبٌ ثانيًا، ومباركٌ ثالثًا.

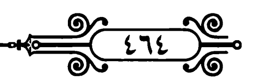
أي: أحمد الله حمدًا يليق بجلاله وعظيم نعمته، حمدًا كثيرًا لا مُنتهىٰ له، حمدًا طيبًا يزيد الكثرةَ بركةً.

قوله ﷺ: «غَيْرَ مُودَّعٍ»؛ أي: غير مودَّعٍ الطعامُ الذي رُفِع، ولا النعمةُ التي ساقها الله إليَّ، ولا أسألك يا ربِّ الاكتفاءَ منه، بل آمُل أن ترزقني نعمةً تِلوَ نعمةٍ، أظلُّ أحمدُك عليها وأتنعَّمُ بها.

قوله ﷺ: «وَلَا مُسْتَغْنًىٰ عَنْهُ»؛ أي: لا أستغني عن فضلك ربَّنا، حَمَدتُك بعدما أكلتُ وشبعتُ، ولكن أكلي وشِبَعي لا يعني استغنائي عن فضلك، ولا اكتفائي من رزق الله.

وفيه إقرارٌ بفضل الله أولًا، وبفَقر العبد وحاجته إلىٰ ربه ثانيًا.

قوله ﷺ: «رَبَّنَا»: منصوبٌ علىٰ النداء، أي: يا ربَّنا.



والحديثُ في رواية البخاري[١] بلفظ: «**الحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلا مُوَدَّعٍ وَلا مُسْتَغْنًى عَنْهُ، رَبَّنَا**»، والمعنىٰ واحدٌ.

فثبت بحديث أبي أمامة هذا والحديث الذي يسبقه حَمدُ الله بعد الطعام من فعله ﷺ، وجاء في حديثٍ سابقٍ وسيأتي في الحديث القادم ثبوتُ ذلك بتوجيهه القوليّ والندبُ إليه.

***

(صحيح) **١٦٥ـ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْكُلُ الطَّعَامَ فِي سِتَّةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَأَكَلَهُ بِلُقْمَتَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ سَمَّىٰ لَكَفَاكُمْ»**[٢].

شرح الحديث

قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْكُلُ الطَّعَامَ فِي سِتَّةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَأَكَلَهُ بِلُقْمَتَيْنِ**»؛ أي: كان النبي ﷺ والصحابة قد سَمَّوا عندما جلسوا لأكل هذا الطعام، فلم يجد الشيطانُ مدخلًا للأكل معهم، فعندما جاء هذا الأعرابيُّ وأكل ولم يُسَمِّ وجد الشيطانُ مدخلًا لمشاركتهم.

قوله ﷺ: «**لَوْ سَمَّىٰ لَكَفَاكُمْ**»؛ أي: لو سمّىٰ لذهب الشيطان.

فيُفهَم من هذا الحديث أنَّ عدم تسميةِ شخصٍ واحدٍ علىٰ الطعام تُذْهِب بركته.

---

(١) صحيح البخاري (٥٤٥٨).

(٢) أخرجه الترمذي (١٨٥٨)، وقال: «حسن صحيح».

وحديثُ عائشة هذا شاهدٌ للحديث الضعيف في أوّل الباب من رواية أبي أيّوب رضي الله عنه؛ فقد تقدّم في ذلك الحديث أنَّ الطعامَ إنما ذهبت بركتُه لَمَّا شاركهم في الطعام مَن لم يذكر الله تعالىٰ عليه، وهذا الحديث في هذا المعنىٰ نفسه، وهو صحيحٌ.

ويؤيِّد ذلك أيضًا ما ورد عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا لَمْ نَضَعْ أَيْدِيَنَا حَتَّىٰ يَبْدَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَضَعَ يَدَهُ، وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ، فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهَا، ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ فَأَخَذَ بِيَدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَن لا يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا، فَجَاءَ بِهَذَا الأَعْرَابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا»**[١].

فدلُّ كل ذلك علىٰ أنَّ بركةَ الأكل لا تبقىٰ في الطعام إلا إذا سمَّىٰ الجميع، وأنَّ واحدًا منهم لو ترك التسمية لكان سببًا في زوال البركة ومشاركة الشيطان معهم طعامهم.

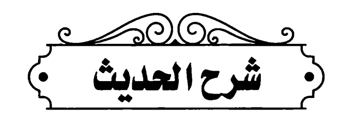
***

(صحيح) ١٦٦ـ **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَىٰ عَنِ العَبْدِ أَن يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»**[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠١٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٤).



شرح الحديث

في الحديث فوائدُ:

الفائدةُ الأولىٰ: أنَّ الحامِدَ لله سبحانه بعد الأكل والشرب ينال رضا ربِّ العالمين، وهذه مرتبةٌ لا يزهُد فيها أحدٌ من المسلمين! وتحقيقُها في هذا المقام لا يقتضي كثيرَ جهدٍ ولا كبير طاقةٍ ولا بذلَ شيءٍ من المال، وإنما هي حركةٌ خفيفةٌ باللسان ينطق فيها الآكِلُ والشاربُ بحمد الله سبحانه.

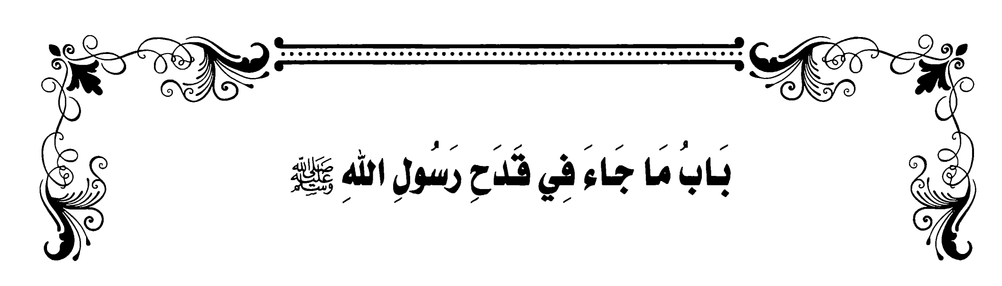
فوالله ما قام أهلُ الليل إلا بحثًا عن رضا الله، ولا قرأ أهلُ القرآنِ القرآنَ إلا بحثًا عن رضا الله، ولا صام الصائمون إلا بحثًا عن رضا الله، ولا تنافس الصالحون إلا طلبًا لمرضاة الله، وها هو رِضا الله أمرٌ قريبٌ بفضل الله ورحمته، يناله الإنسانُ بحمدِ ربّه عقِبَ الطعام والشراب.

الفائدةُ الثانية: أنَّ مقامَ الحمد مِن أعظم مقامات العبوديّة، إذ به يُنال رضا الله سبحانه وتعالىٰ، مما يدلُّ علىٰ محبّة الله سبحانه لحَمده.

الفائدةُ الثالثة: يدلُّ الحديث علىٰ كريمِ فضلِ الله سبحانه وتعالىٰ؛ فإنَّه هو الذي رَزقَ العبدَ تلك الأكلةَ وتلك الشَّربةَ، ثم رَضِيَ عنه بمجرَّد حمدِه، مع أنَّ حَمدَ العبدِ لربّه إنما هو فضلٌ وتوفيقٌ من الله أيضًا، فإنَّ الله لو لم يُلْهِم العبدَ أن يحمده لما حمِده، فلأجل ذلك يقول العلماء: إنَّ شُكرَ الله نعمةٌ تستوجبُ شكرًا آخر، وهكذا.

الفائدةُ الرابعة: في هذا الحديث توجيهٌ قوليٌّ لحَمدِ الله سبحانه وتعالىٰ ـ كما في أحاديث سابقة ـ؛ فثَبتَت سُنَّةُ الحمدِ بعد تناوُل الطعام من قوله وفعله ﷺ، وإذا اجتمع في السُّنَّة ثبوتُها عن النبي ﷺ قولًا وفعلًا كانت من أعظم درجات السُّنَن، وأولىٰ الشمائل التي تُطَاع وتُتَّبع وتُقتَدَىٰ؛ حيث اجتمع فيها مُوجِبان: فعلُه ﷺ لهذه السُّنَّة، وحَثُّه ونَدبُه وأمرُه لنا بفعلها.

** ** **



بَابُ مَا جَاءَ فِي قَدَحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

القَدَحُ: الإناءُ والوِعاءُ الذي يُشْرَب فيه.

أي: هذا بابُ ما جاء في الإناءِ والوِعاءِ الذي كان يَشرب فيه ﷺ.

وفي هذا ما يُشير إلىٰ ما سبق ذِكْرُه مرارًا؛ وهو اهتمام الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بدقائق الأمور المتعلِّقة بالنبي ﷺ.

***

(صحيح) ١٦٧ ـ **عَن ثَابِتٍ قَالَ: أَخرَجَ إِلَيْنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه قَدَحَ خَشَبٍ غَلِيظًا، مُضَبَّبًا بِحَدِيدٍ، فَقَالَ: «يَا ثَابِتُ، هَذَا قَدَحُ رَسُولِ اللهِ ﷺ»**.

شرح الحديث

(عَن ثَابِتٍ) هو ثابتٌ البُنَانيّ رحمه الله، إمامٌ من أئمَّة التابعين، وأحد الملازمين لأنس بن مالك رضي الله عنه صحبةً وتلمذةً ومرافقةً.

قول ثابت: «**أَخرَجَ إِلَيْنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَدَحَ خَشَبٍ غَلِيظًا، مُضَبَّبًا بِحَدِيدٍ**»، هذا وصفٌ للقَدَح الذي كان يشرب فيه رسولُ الله ﷺ، وكما هو ظاهرٌ فإنه قَدَحٌ زهيدٌ.

أما الخشبُ فمادَّةُ صُنعه، وفي بعض الأحاديث: أنه كان خَشبًا من عَيدانٍ(١)، لكنه ليس خَشبًا مُجَوَّفًا، وإنما هو قطعٌ مِن الخشب تُجمَع ويُستدار هيئتُها علىٰ شكلِ إناءٍ ليكون مكانًا أو محلًا ليُشرب منه.

وقِطعُ الخشب إذا جُعل بعضُها بجوار بعضٍ، تحتاجُ إلىٰ قطعةٍ من الحديد تُجعل بينها لتتماسك، وهي الضَّبَّة، وهي التي تُسَمَّىٰ اليوم: اللِّحام.

وكان غليظَ الحجم، أي: كبيرَه وثَخينَه.

قول أنس رضي الله عنه: «**يَا ثَابِتُ، هَذَا قَدَحُ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»، والأمرُ ـ كما مرَّ ـ قائمٌ علىٰ التقلُّلِ، وعدم التكلُّف، وعلىٰ الزهد في الحياة والاكتفاء منها باليسير.

وإخبار أنسٍ بقدح النبي ﷺ في هذا الحديث والذي بعده إنما هو إخبارٌ مِمَّن ظفر بصحبة رسول الله ﷺ السنوات الطِّوال؛ حيث إنه خدم رسول الله ﷺ منذ كان غلامًا صغيرًا، حين جعلته أمُّه خادمًا لرسول الله ﷺ، فظفِرَ بشرف الصُحبة والخِدمة، فهو إخبارٌ مِمَّن عرف دقائقَ وخصائصَ النبي ﷺ في هذه الأمور مِمَّا قد يكون لم يبلغ كبارَ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، وذلك لما لِلخادم من القُرب والملازمة والخصوصية ما ليس لغيره؛ فإنه يكون معه في بيته، ويرافقه إذا خرج، ونحو ذلك.

وفي الحديث أن أنسًا رضي الله عنه قد احتفظ بشيءٍ من متاع النبي ﷺ، كما سبق أنه قد احتفظَ بشَعَراتٍ من شَعر النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه النسائي (٥٧٥٣).

ولم يكن يحتفظ أنس رضي الله عنه بهذا القَدَح للتبرُّك به، ولا لاكتساب الأموالِ من الناس الذين يأتون ويشاهدونه! وإنما أراد أن يزرع المعانيَ العظيمةَ في قلوب أصحابه من التابعين، فإنه قد عاش مع النبي ﷺ ورآه كيف كان يعيش بأمّ عينه، وأراد بإخراج القَدَح لأصحابه أن يرىٰ التابعون بأعينهم كيف كانت مَعِيشةُ النبي ﷺ، فإن الرؤيةَ والمعايَشةَ أبلغُ من السماع.

وكما سبق: فإنَّ معرفة القَدَح ليست من مسائل الحلال والحرام، ومع ذلك اعتنىٰ بها الأئمّة المحدّثون ورَوَوْها، لتعرف الأجيالُ أنَّ كلَّ مسألةٍ تتعلَّق بشخص رسول الله ﷺ فإنها من المسائل التي يجب أن يُعتنىٰ بها؛ وأنَّ معرفةَ دقائقِ حياتِه ﷺ تُقرِّب منه القلوب، وتزيدُ المحبّة له.

كما أنَّ ذلك يجعل الإنسانَ يقيسُ شأنَه وحاله بحال النبي ﷺ، وليس المقصود أن يتَّخذ الإنسانُ قَدَحًا مثل قَدَح النبي ﷺ، ولكن أن يُقارِن زُهدَ النبي ﷺ بحاله، وتقلُّلَ النبي ﷺ بما يفعله، وهكذا.

***

(صحيح) ١٦٨ـ **عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَقَدْ سَقَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِهَذَا الْقَدَحِ الشَّرَابَ كُلَّهُ: الْمَاءَ، وَالنَّبِيذَ، وَالعَسَلَ، وَاللَّبَنَ»**(١).

شرح الحديث

قول أنس رضي الله عنه: «لَقَدْ سَقَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِهَذَا الْقَدَحِ الشَّرَابَ كُلَّهُ»؛ أي:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٠٨).

كان يشرب في الإناء المذكور جميع أنواعِ الشراب، كما قد يفعله بعضُ الناسِ اليومَ من التزامِهِ كأسًا واحدًا يشربُ به جميعَ مشروباته من شايٍ وقهوةٍ وماءٍ، ولم يكن فعل النبي ﷺ ذلك علىٰ وجه التكلُّفِ أو التَّرف أو العناية بآنية المنزل، ولكن من باب اتِّخاذ الغرض اليسير الذي يتحقَّق به جميع احتياجاته.

وفي روايةٍ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ لِأُمِّ سُلَيْمٍ قَدَحٌ مِنْ عَيْدَانٍ، فَقَالَتْ: «سَقَيْتُ فِيهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ كُلَّ الشَّرَابِ ...»(١).

قول أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**المَاءَ، وَالنَّبِيذَ، وَالعَسَلَ، وَاللَّبَنَ**»؛ أما الماءُ والعسلُ واللبنُ: فمعروفٌ كلُّه.

وأما النَّبِيذُ: فهو الماءُ الذي يُنبَذ فيه التمرُ أو العنبُ أو الزبيبُ أو أيُّ طعامٍ حُلوٍ، فيُترك في الماء ويُنقَع، ليحتفظ الماءُ بحلاوة ما نُبِذ فيه، وكانوا يَنبِذون في الليل عادةً ويشربون في النهار.

فالمقصود بالنبيذ هنا: نَقيعُ التمرِ ونحوِه.

فمثلًا إذا تُرِك التمرُ في الماء ليلةً أو ليلتين مثلًا فإن التمرَ يَلِينُ، وتَخرج حلاوتُه إلىٰ الماء وتختلطُ به، فيشربونه.

وإنما كانوا يفعلون ذلك لأنَّه كان عامة مياهِهم من الآبار، وكانت مالحةً، والماءُ العذبُ كان يسيرًا، فكانوا يعمدون إلىٰ تحلية الماء بتلك الطريقة؛ يَنبِذون في الماء الزبيبَ أو التمرَ أو غيرهما، فيَحْلُو أو تخفُّ عنه الملوحة.

وليس النبيذُ هنا بالنبِيذِ الـمُسكِرِ، فإنَّ النَّبيذَ المسكِرَ خمرٌ.

---

(١) أخرجه النسائي (٥٧٥٣).

ثم إنَّ طريقةَ النبيذِ المُسْكِرِ كطريقة النبيذ غير المسْكِر؛ فإنه يُنبَذ الزَّبيبُ مثلًا في الماء، ولكنه يُترك مدةً أطولَ حتىٰ يَغلي ويُزبِد ويُصبح خمرًا، وأمَّا غيرُ المُسكِر فيُترَك في الماء مدَّةً أقصر، كما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُنبَذُ لَهُ لَيْلَةَ الخَمِيسِ، فَيَشْرَبُهُ يَوْمَ الخَمِيسِ وَيَوْمَ الجُمُعَةِ ـ قَالَ: وَأُرَاهُ قَالَ ـ وَيَوْمَ السَّبْتِ، فَإِذَا كَانَ عِندَ العَصْرِ فَإِنْ بَقِيَ مِنْهُ شَيْءٌ سَقَاهُ الخَدَمَ، أَوْ أَمَرَ بِهِ فَأُهْرِيقَ**»(١)، فإنَّه دلَّ علىٰ أنَّه إذا طالت فترةُ نَقعِه فإنه قد اقترب من الغَلَيان الذي يتخمَّر فيه، فلأجل ذلك يتخلَّص منه ﷺ.

وفي روايةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُنبَذُ لَهُ الزَّبِيبُ فِي السِّقَاءِ، فَيَشْرَبُهُ يَوْمَهُ، وَالغَدَ، وَبَعْدَ الغَدِ، فَإِذَا كَانَ مَسَاءُ الثَّالِثَةِ شَرِبَهُ وَسَقَاهُ، فَإِن فَضَلَ شَيْءٌ أَهَرَاقَهُ**»(٢).

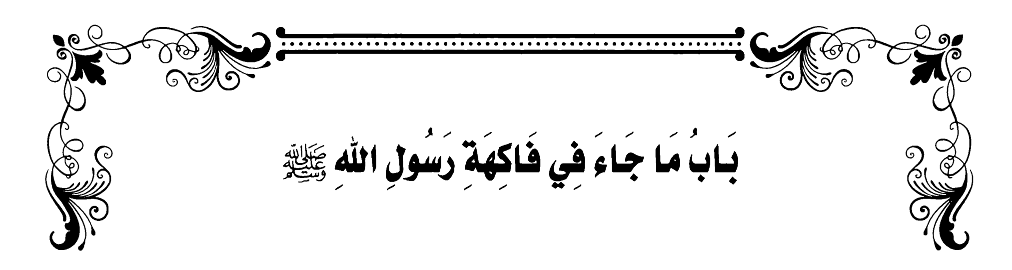
قال النووي رحمه الله معلِّقًا علىٰ هذه الأحاديث: «في هذه الأحاديث دلالةٌ علىٰ جواز الانتِبَاذ، وجواز شُرب النبيذِ ما دام حُلوًا لم يتغيَّرْ ولم يَغْلِ، وهذا جائزٌ بإجماع الأمّة، وأما سَقيُه الخادمَ بعد الثلاثِ وصَبُّه فلأنه لا يؤمَن بعد الثلاث تغيُّره، وكان النبي ﷺ يتنزَّهُ عنه بعد الثلاث»(٣)، أي: لم يثبت عند النبي ﷺ أنه أصبح خمرًا، ولكنه يبتعد عنه ويتركه، وليس المعنىٰ أنه يسقيه الخادمَ وهو خمرٌ، حاشاه ﷺ أن يفعل ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٦٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٠٤).

(٣) شرح النووي علىٰ مسلم (١٣/ ١٧٤).



بَابُ مَا جَاءَ فِي فَاكِهَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

الفاكهةُ: ما يأكله الإنسان من غير قُوتِه الذي يقتاتُ به، ولكنه طعامٌ يُجعَل بعد الطعام أو أثناءَه، يُقصَد به التفكُّهُ والاستمتاعُ.

والفاكهةُ مِمَّا يحبُّه الناس ويرغبون فيه، وهي مما أباحه الله من الطيبات، حتىٰ إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ جعله من نعيم الجنة فقال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨].

وعلىٰ المرءِ أن يحمد الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ما يأكله من الفواكه اليوم، فإنَّ الله قد ساق للناس الفواكه من بلدانٍ شتىٰ، يأكل منها الناس ما لذَّ وطاب.

***

(صحيح) ١٦٩- **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْكُلُ القِثَّاءَ بِالرُّطَبِ»**(١).

شرح الحديث

كان الرُّطَب طعامَ أهل المدينة، فهو زَرْعُهم الذي يزرعونه، ويَقتاتُون عليه، ويدَّخِرون منه؛ فكان الرُّطَبُ والتمرُ عامّةَ قوتِ أهل المدينة.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٤٠)، ومسلم (٢٠٤٣).

والقِثَّاءُ معروفٌ: نبتٌ يُشبِهُ الخيار، أفتحُ منه لونًا، ويستخدمه الناس كاستخدام الخيار.

ومعنىٰ الحديث: أن النبي ﷺ إذا أراد أن يتفكَّه جمع بين الرُّطَب والقِثَّاء.

***

(صحيح) ١٧٠ ـ **عَنْ عَائِشَةَ** رضي الله عنها: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَأْكُلُ الْبِطِّيخَ بِالرُّطَبِ**»(١).


شرح الحديث

البِطِّيخُ معروفٌ.

وعند أبي داود تتمّة للحديث: **كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْكُلُ الْبِطِّيخَ بِالرُّطَبِ، فَيَقُولُ**: «**نَكْسِرُ حَرَّ هَذَا بِبَرْدِ هَذَا، وَبَرْدَ هَذَا بِحَرِّ هَذَا**»(٢)، والمقصود بهذه التتمّة: أنَّ الرُّطَبَ حارٌّ، إذا أكثر الإنسانُ من أكله أحرق مَعِدتَه، كمَن يُعاني من حُموضة المعدة فإنَّه يجد في أكل الرُّطَبِ شيئًا من الحرارة والحرقة في المعدة، وأمَّا البِطّيخ فباردٌ، فكان النبي ﷺ يأكل البِطّيخ مع الرُّطَب حتىٰ تُعادِل برودةُ البِطّيخ حرارةَ الرُّطَب في المعِدة.

وفي ذلك تمام العناية بصحّة الأبدان، والبحث عمّا ينفع الإنسان، وهكذا كان شأنه ﷺ، التمامُ والكمالُ والعنايةُ بكلّ مناحي الحياة.

يقول ابن القيّم رحمه الله بعد أن أورد هذا الحديث: «وفي البِطّيخ عِدّةُ أحاديثَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٣٦)، والترمذي (١٨٤٣)، وقال: «حسن غريب».

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٣٦).

لا يصحُّ منها شيءٌ غير هذا الحديث الواحد، والمراد به الأخضرُ، وهو باردٌ رَطْبٌ»(١).

***

(صحيح) ١٧١ـ **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الخِرْبِزِ وَالرُّطَبِ»**(٢).

الخِرْبِز: البطّيخ الأصفر، وهو الذي يُسَمَّىٰ اليوم: شمَّامًا، وقيل: هو البطّيخ بالفارسية.

***

(صحيح) ١٧٢ـ **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاؤُوا بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَإِذَا أَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ، بَارِكْ لَنَا فِي ثِمَارِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا، اللَّهُمَّ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ بِهِ لِمَكَّةَ وَمِثْلِهِ مَعَهُ»، قَالَ: ثُمَّ يَدْعُو أَصْغَرَ وَلِيدٍ يَرَاهُ، فَيُعْطِيهِ ذَلِكَ الثَّمَرَ**(٣).

قول أبي هريرة ﷺ: «كَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاؤُوا بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ»، كانت هذه عادة الصحابة ﷺ والأنصارِ منهم علىٰ وجه الخصوص؛ إذ كان أهلُ المدينة أهلَ مزارع.

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٢٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٤٤٩)، والنسائي في الكبرىٰ (٦٦٩٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٣٧٣).

والمقصود أنَّهم كانوا إذا رأوا أوَّلَ الثمر في أوّل الحصاد، أي: إذا أخرج النباتُ بواكيرَ الثمر، أخذوه وانطلقوا به إلىٰ رسول الله يلتمسون بركة الدعاء منه ﷺ.

وهذا يدلُّ علىٰ تعلُّق الصحابة بالنبي ﷺ في كل شؤون الحياة؛ حتىٰ في هذا الأمر المتعلّق بشؤون الزراعة والحصاد، فما كان ارتباطُهم بالنبي ﷺ في جوانب العبادة فقط، وإنما كان حاضرًا في حياتهم وشأنهم كلِّه.

فمِن حُبِّهم له يكون أوّلَ حاضرٍ في أذهانهم حين يبدو الثمر، ومَن كان ﷺ أوّلَ حاضرٍ في ذهنه لا بُدَّ أن يقتدِيَ به في شؤونه كلّها؛ فإذا كان أوّلَ حاضرٍ في ذهنك عندما تذهب للنوم فلن تَنسَىٰ أذكار النوم اقتداءً به، وإذا كان أوّلَ حاضرٍ في ذهنك وقت الصلاة فستحرص علىٰ تأديتها موافقةً لسنَّته ﷺ، وهكذا في شأنك كلّه.

قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ، بَارِكْ لَنَا فِي ثِمَارِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا»، فحَظِيَت مدينةُ رسول الله ﷺ ببركة دعواته لها، ولم تنل البركةُ الثمرَ فقط، بل نالت المدينةَ كلَّها ومُدَّها وصاعَها.

والمقصود بالـمُدِّ والصَّاع: الطعامُ؛ لأنّه هو الذي يُكال بالـمُدِّ والصاع.

ولا تزال مدينةُ رسولِ الله ﷺ يظهر فيها البركة في أقواتها وطعامها إلىٰ اليوم.

وفيه أنَّ الصحابة فرحوا بباكورةِ الثمر، وجاءوا فرِحين بذلك إلىٰ النبي ﷺ، فلم يردَّهم النبي ﷺ، وشاركَهم فرحتَهم بالدعاء والتبريك.

قوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ**»، هذا إلحاحٌ منه ﷺ في الدعاء.

قوله ﷺ: «**وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ**»، ودعاءُ إبراهيم عليه السلام لمكةَ بالبركة قد ذكره الله تعالىٰ في قوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ولما زار إبراهيمُ عليه السلام ابنَه إسماعيلَ ولم يَجِده، فَدَخَلَ عَلَىٰ امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: **خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَىٰ اللهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتِ اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتِ: المَاءُ، قَالَ: اللَّهُمَّ، بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالمَاءِ**، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَلَمْ يَكُن لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ**»، قَالَ: **فَهُمَا لا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلا لَمْ يُوَافِقَاهُ**(١).

قوله ﷺ: «**وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ بِهِ لِمَكَّةَ وَمِثْلِهِ مَعَهُ**»، فقد دعا النبي ﷺ للمدينة بضِعفِ ما في مكة من البركة، فبركةُ الطعامِ والقُوتِ في المدينة أعظمُ مما هي في بلد الله الحرام.

ومع أنَّ مكةَ هي بلدُ الله الحرام وفيها الكعبةُ المشرَّفةُ، إلا أنَّ النبي ﷺ دعا بأن تكون بركةُ المدينةِ في طعامها ضِعفَ بركةِ مكة، وفي ذلك إشارةٌ إلىٰ أنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

المسلم إذا دعا الله سبحانه فليطمع في أعلىٰ الدرجات، ولا يرضَ بالقليل؛ فإنَّ الله لا يعجزه شيءٌ.

وهذا الحديثُ وأمثالُه من الأحاديث التي دعت العلماءَ إلىٰ المفاضَلَة بين مكة والمدينة؛ فإنَّه قد جاءت أحاديثُ في فضل مكَّة، وأحاديثُ في فضل المدينة، فأراد العلماء أن يُوازِنوا ويجمعوا بين هذه الأحاديث، لمعرفة أيِّ المدينتين أولىٰ بأن يَقضي المسلمُ فيها حياتَه، أو يعيش فيها جزءًا من حياته.

ومِن طرائف هذه المسألة: أنَّه اجتمع رجُلان من أهل العلم عند أحد الوُلاةِ في مجلسه، وتناقشا في مسألةِ تفضيل مكة علىٰ المدينة أو العكس، وانتصر كلُّ عالمٍ لإحدىٰ المدينتين، وبعد أن سَرَدا فضائل مكة والمدينة، أراد الوالي أن يحسم الخلاف بينهما فقال: مكةُ والمدينةُ عينان في الرأس، فأجابه العالم المنتصِر للمدينة: نعم، ولكنَّ المدينةَ العينُ اليمنىٰ، فلم يقبل إلا بتفضيل المدينة ولو بالشيء اليسير!

قول أبي هريرة ﷺ: «ثُمَّ يَدْعُو أَصْغَرَ وَلِيدٍ يَرَاهُ، فَيُعْطِيهِ ذَلِكَ الثَّمَرَ»؛ أي: يدعو أصغرَ طفلٍ في المجلس، ويعطيه ذلك الثمر.

وهذا موقفٌ عجيبٌ منه ولطيفٌ، فإنَّ هذا الثمرَ الذي جاءوا به هو باكورةُ الثمر بعد أن طال انتظارُه زمنًا، وعيشُه ﷺ ـ كما سبق ـ كان قليلًا، وهو بحاجةٍ إلىٰ مثل هذا الطعام في هذا الوقت الذي يُشتهَىٰ فيه، ومع ذلك لم يأكله، ولا أرسله لأهل بيته؛ لأنَّ الصحابةَ جاؤوا يبحثون عن بركة دعائه، فيدعو لهم، بل يُعطي الثمرةَ لأصغر طفلٍ يراه حاضرًا.

وفي هذا الموقف ملاطفةُ الأطفال ولو بالشيءِ القليل؛ فإنَّ الطفلَ يفرحُ بأيِّ شيءٍ ولو كان قليلًا، وملاطّفةُ الأطفال في سُنَّته ﷺ مبثوثةٌ معروفةٌ، فعلىٰ المسلم أن يقتدي بهذا، ويلاطف أطفالَ المسلمين وصِبيانَهم ويتودَّد لهم.

وقد ذكر بعضُ أهل العلم مناسبةً بين باكورة الثمر والوليد: وهو أنَّ كلًّا منهما حديثُ عهدٍ بالحياة، فلهذه المناسبة أعطىٰ النبي ﷺ باكورةَ الثمر للوليد.

***

(ضعيف) ١٧٣ـ **عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنتِ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: «بَعَثَنِي مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ بِقِنَاعٍ مِن رُطَبٍ، وَعَلَيْهِ أَجْرٌ مِن قِثَّاءٍ زُغْبٍ، وَكَانَ ﷺ يُحِبُّ القِثَّاءَ، فَأَتَيْتُهُ بِهِ، وَعِندَهُ حِلْيَةٌ قَدْ قَدِمَتْ عَلَيْهِ مِنَ البَحْرَيْنِ، فَمَلأَ يَدَهُ مِنْهَا، فَأَعْطَانِيهِ»**(١).

شرح الحديث

هذا الحديث ضعيف سندًا عند المحدِّثين، ولكن فيه من المعاني اللطيفة التي لا بأس من المرور عليها.

قول الرُّبَيِّع بنت معوِّذ بنِ عَفْراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «بَعَثَنِي مُعَاذُ بْنُ عَفْرَاءَ»، كانت صغيرةً إذ ذاك، ومعاذُ بن عفراء هو عمُّها، وأبوها مُعَوِّذ بنُ عفراء، وقد شاركا في غزوة بدرٍ صغارًا، ومعاذ بن عفراء ومعاذ بن عمرو بن الجموح هما اللذان قتلا أبا جهلٍ فرعونَ هذه الأمة.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «بِقِنَاعٍ مِن رُطَبٍ»، القِناعُ: الطَّبَق والصَّحنُ الذي يوضع عليه الرُّطَب.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٧٣- ٣٧٤)، وضعَّفه الألباني في الضعيفة (٥٤١١).

قولها رضي الله عنها: «**وَعَلَيْهِ أَجْرٌ مِن قِثَّاءٍ زُغْبٍ**»؛ أجرٌ: جمع جِرْوٍ، والجِرْوُ هو الصغيرُ من كلِّ شيءٍ نباتًا كان أو حيوانًا؛ فيقال لصغير الكلب: جِرْوٌ، ويقال للصغير من النبات: جِرْوٌ.

القِثَّاءُ: معروفٌ، يُشبِهُ الخيارَ إلا أنه أكبرُ حجمًا وأفتحُ لونًا.

والزُّغْبُ: الصغيرُ الذي يظهر عليه بداياتُ ظهورِ الشَّعْر، وذلك كما يقال لشَعْرِ فِراخ الطَّير: زُغْب، أي: كان القِثَّاء فيه شَعرٌ يسيرٌ خفيفٌ لطيفُ الملمَس ناعمٌ.

والمعنىٰ: أنه قد بعث معها بطَبَقٍ فيه رُطَبٌ، وقد وضع فوق الرُّطَب حَبّاتٍ من قِثَّاءٍ صغيرةً أوَّلَ مَنبتِها، وإنما أهداه الرُّطب والقِثَّاء لأنَّه ﷺ كان يأكل القُثَّاء بالرُّطَب، فلعلّه كان يعرفُ هديَ النبيّ ﷺ في ذلك فقدّمه إليه.

قولها رضي الله عنها: «**فَأَتَيْتُهُ بِهِ، وَعِندَهُ حِلْيَةٌ**»؛ أي: ذهبٌ وجَواهرُ.

قولها رضي الله عنها: «**قَدْ قَدِمَتْ عَلَيْهِ مِنَ البَحْرَيْنِ**»؛ البحرَين: هي التي تُسَمَّىٰ اليوم الأحساء، وهي منطقةٌ في طرف الجزيرة العربية مِن جهة الشرق، مُطِلَّةٌ علىٰ الخليج العربي، وليست هي الجزيرة والدولة التي تُسمَّىٰ اليوم: البَحْرَين.

أي: كانت هذه الحِليةُ خَراجًا قد جاءت النبيَّ ﷺ من البحرين.

قولها رضي الله عنها: «**فَمَلأَ يَدَهُ مِنْهَا، فَأَعْطَانِيهِ**»، أراد ﷺ أن يكرمها مما عنده كما أكرمته، فأعطاها مِلْءَ يدِها من هذه الحُلِيّ.

وهذا شبيهٌ بما مرَّ في الحديث السابق مِن إعطائه أصغرَ مَن في المجلس

باكورةَ الثمر، وهنا كانت الرُّبَيِّع صغيرةً فملأ يدَها بشيءٍ من هذه الحُلِيّ التي كانت عنده.

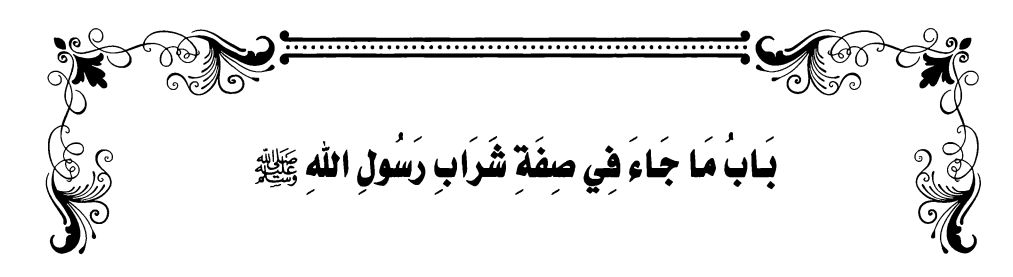
***

(ضعيف) ١٧٤ـ **وَمَن طَرِيقٍ أُخْرَىٰ عَنْهَا قَالَتْ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ بِقِنَاعٍ مِن رُطَبٍ وَأَجْرٍ زُغْبٍ، فَأَعْطَانِي مِلْءَ كفيه حُلِيًّا أَوْ قَالَتْ: ذَهَبًا»**(١).

شرح الحديث

هذه الطريقُ ضعيفةٌ كالطريق السابقة، ومعنىٰ الحديث هنا مُشَابِهٌ للرواية الأولىٰ، إلا أنَّ فيه أنَّه أعطاها مِلْءَ كفيه هو ﷺ، وفيه: أنَّ الحُلِيَّ الذي أعطاها إياه كان ذهبًا.

** ** **



بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ شَرَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

هذا الباب والباب الذي يليه بابان متكاملان؛ أحدهما يتحدَّث عن نوع شراب الرسول ﷺ وصفته وهيئته، والآخرُ يتحدَّث عن هيئة النبي ﷺ التي يكون عليها عندما يَشرب.

***

(صحيح) ١٧٥ـ **عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ الحُلْوُ البَارِدُ»**(١).

شرح الحديث

هذا أوَّل أحاديث الباب، ترويه أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، والحديث قد ضعَّفه بعضُ أهل العلم، ولكن الشيخ الألباني عضَّده بحديثٍ آخر؛ فهو صحيحٌ لغيره.

ومعنىٰ الحديث: أنَّ أحبَّ الشرابِ إلىٰ النبي ﷺ هو ما اجتمعت فيه هاتان الصفتان: أن يكون حُلوًا، وأن يكون باردًا.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤١٠٠)، والترمذي (١٨٩٥)، ورجَّح أنه مرسل. وصحَّحه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٣٧)، وصحَّحه الألباني لغيره في السلسلة الصحيحة (٢١٣٤).

وقد سبق أنَّ عامَّة الماء الذي كان يشرب منه أهل المدينة كان ماءً مالحًا؛ لأنَّ الآبار التي يستقُون منها كانت مالحةً، والعذبُ منها قليلٌ؛ فلأجل ذلك كان يحبُّ الشرابَ الحُلْوَ، فيُحبُّ الماءَ الذي يُنبَذ له فيه تمرٌ أو عنبٌ أو نحوُه؛ ليصبح حلوًا وتزول ملوحتُه.

وأمّا الماءُ الباردُ فالمقصود به: ما ليس ساخنًا، وليس المقصود به ما كان باردًا برودةً زائدةً مما يكون في زماننا اليوم بسبب آلات التبريد، بل المقصودُ ما لم يكن حارًّا ساخنًا، فإذا كان أمْيَلَ إلىٰ البرودة كان أهنأَ للنفس وأطيبَ للبدن، والإنسانُ إذا عطش كان ارتواؤُه بالبارد أكثر من الساخن.

***

(حسن) ١٧٦ـ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَا وَخَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ عَلَىٰ مَيْمُونَةَ، فَجَاءَتْنَا بِإِنَاءٍ مِن لَبَنٍ، فَشَرِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا عَلَىٰ يَمِينِهِ وَخَالِدٌ عَن شِمَالِهِ، فَقَالَ لِي: «الشَّرْبَةُ لَكَ، فَإِن شِئْتَ آثَرْتَ بِهَا خَالِدًا»، فَقُلْتُ: مَا كُنتُ لِأُوثِرَ عَلَىٰ سُؤْرِكَ أَحَدًا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَطْعَمَهُ اللهُ طَعَامًا فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ، بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَمَن سَقَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَبَنًا فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ، بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَزِدْنَا مِنْهُ»، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ يُجْزِئُ مَكَانَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ غَيْرُ اللَّبَنِ»**[١].

(١) أخرجه أحمد (١٩٧٨)، والترمذي (٣٤٥٥)، وحسَّنه.

شرح الحديث

قول ابن عباس ﵄: «**دَخَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَا وَخَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ عَلَىٰ مَيْمُونَةَ**»، وذلك أنَّ ميمونة ﵂ كانت خالتَهما، فابنُ عباسٍ وخالدُ بن الوليد ابنا خالة، فلم يكن مِن حرجٍ في دخولهما حُجرةَ رسول الله ﷺ التي فيها خالتُهما.

قوله ﵁: «**فَجَاءَتْنَا بِإِنَاءٍ مِن لَبَنٍ**»، هذا هو موضع الشاهد من الحديث، وهو شربُه ﷺ لِلَّبَن.

قوله ﷺ: «**الشَّرْبَةُ لَكَ**»؛ لأنَّ ابن عباسٍ كان عن يمينه.

وهذا من الأدب الذي ينبغي العنايةُ به في مجالسنا، وهو أن تُعْطَىٰ الضيافة ونحوها لمن كان علىٰ يمين الجالس، وإن كان الكبير جالسًا علىٰ يساره، وليس هذا مما يعيبُ الكبيرَ أو يطعن فيه، وإنما هو تطبيقٌ للسُّنّة النبوية.

ويشهد لهذا ما رواه البخاريُّ في صحيحه: عَن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﵄ قَالَ: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَدَحٍ، فَشَرِبَ مِنْهُ، وَعَن يَمِينِهِ غُلامٌ أَصْغَرُ القَوْمِ، وَالأَشْيَاخُ عَن يَسَارِهِ، فَقَالَ: «**يَا غُلَامُ، أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ الأَشْيَاخَ**»، **قَالَ: مَا كُنْتُ لِأُوثِرَ بِفَضْلِي مِنكَ أَحَدًا، يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ**[١].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بِلَبَنٍ قَدْ شِيبَ بِمَاءٍ، وَعَن يَمِينِهِ أَعْرَابِيٌّ، وَعَن شِمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، فَشَرِبَ ثُمَّ أَعْطَىٰ الأَعْرَابِيَّ، وَقَالَ: «**الأَيْمَنَ فَالأَيْمَنَ**»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦١٩)، ومسلم (٢٠٢٩).

ومعنىٰ (لَبَنٍ قَدْ شِيبَ بِمَاءٍ): أي: خُلِطَ الماءُ باللبن.

قوله ﷺ: «فَإِن شِئْتَ آثَرْتَ بِهَا خَالِدًا»؛ لأنَّ خالدًا كان أكبر من ابن عباسٍ؛ فإنَّ ابن عباسٍ في حَجّة الوداع كان قد ناهز الاحتلام، أمَّا خالدٌ فقد كان يقود الجيوش ـ كما هو معلومٌ ـ قبل ذلك؛ كقيادته جيش المشركين يوم أحد.

وهذا مِن تَلَطُّفِ النبي ﷺ مع الطرفين؛ وذلك أنَّ ابن عباسٍ أحقُّ بالإناء لأنه عن يمينه فأعطاه إياه، ثم لما كان خالدٌ أكبرَ من ابن عباس، وقد يقع في نفسه ما يقع بسبب تقديم الصغير عليه، أراد النبيُّ ﷺ أن يطلب من ابن عباسٍ أن يُؤْثِر خالدًا بالشُّرب؛ فهذان أدبان نبويّان في مقامٍ واحدٍ.

وهكذا كان دأبُ النبي ﷺ: تحقيقَ السُّنَّة المشروعة، مع مراعاة مشاعرِ جُلسائه.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَا كُنتُ لِأُوثِرَ عَلَىٰ سُؤْرِكَ أَحَدًا»، لم يقبل ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يتقدَّم عليه خالدٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وعلَّله بهذه العبارة.

والسُؤْرُ: بقيّةُ ما يكون في الإناء من طعامٍ أو شرابٍ، ومنه قول الفقهاء: سُؤْرُ الهِرّة طاهرٌ، أي: بقيّةُ ما تتركه الهِرَّةُ من طعامٍ أو شرابٍ فهو طاهرٌ.

ومعنىٰ قول ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ما كُنتَ لتعطيني فضلةَ شرابِك، ثم أُقَدِّمَ أحدًا عليَّ في شُرْب فَضلةِ شرابِ رسول الله ﷺ، لا خالدًا ولا غيرَه.

وفيه أنَّ ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اختار من العبارات ألطفها مراعاةً لسنِّ خالد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قوله ﷺ: «مَنْ أَطْعَمَهُ اللهُ طَعَامًا فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ، بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَأَطْعِمْنَا

خَيْرًا مِنْهُ»، في هذا الأدب النبويِّ دعاءان: طلبُ الإنسان البركةَ من الله في الطعام الذي أكله، وطلبُ الإنسان أن يُطعِمه طعامًا آخر بعده خيرًا منه.

قوله ﷺ: «وَمَن سَقَاهُ اللهُ ﷻ لَبَنًا فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ، بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَزِدْنَا مِنْهُ»، وفي هذا الأدب النبويّ أيضًا دعاءان: طلبُ الإنسان البركةَ من الله في اللَّبن الذي شرِبه، وطلبُ الإنسان من الله أن يزيدَه مِن اللَّبن.

ويُلاحَظ أنَّ النبي ﷺ غايَرَ من بين الدُّعاءَين، فطلب بعد الأكل أن يأكل خيرًا منه، ولم يطلُب بعد شُرب اللبن أن يشرب خيرًا منه، وقد جاء بيانُ ذلك في آخر الحديث.

فهذان دعاءان عن النبي ﷺ بعد الأكل وبعد الشرب، علىٰ الإنسان أن يحفظَهما، ويُحَفِّظ مَن تحتَ يدِه مِن أهل بيته وأطفاله.

وقد تقدَّم أنَّ حمدَ الله وشُكرَه من المقامات العظيمة، وقد أُمِرَ بهما الإنسان بعد الشرب والأكل.

قوله ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ يُجْزِئُ مَكَانَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ غَيْرُ اللَّبَنِ»؛ أي: أنَّ اللَّبنَ شرابٌ من جهةٍ، وطعامٌ من جهة أخرىٰ؛ أما كونُه شرابًا فلأنه سائلٌ يُشرب كما تُشرب السوائل، وأما كونُه طعامًا فلأنه يحصل به الاكتفاء والاغتذاء والشِّبَع، فيُجزِئُ عن الطعام، وليس ذلك لغيره من المشروبات.

وخلاصةُ ما ورد في الباب: أنَّ النبي ﷺ كان يُحِبُّ الشرابَ الحُلْوَ الباردَ، ويَشربُ اللَّبَنَ ويمدحُه.

وفي الختام أُورِدُ هذا الحديثَ على طوله ـ وفيه شُربُ النبيّ ﷺ اللبن ـ للطافةِ ما فيه: عَنِ المِقْدَادِ رضي الله عنه قَالَ: أَقْبَلْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي، وَقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا مِنَ الجَهْدِ، فَجَعَلْنَا نَعْرِضُ أَنْفُسَنَا عَلَىٰ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَقْبَلُنَا، فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ، فَانطَلَقَ بِنَا إِلَىٰ أَهْلِهِ، فَإِذَا ثَلَاثَةُ أَعنُزٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**احْتَلِبُوا هَذَا اللَّبَنَ بَيْنَنَا**»، قَالَ: فَكُنَّا نَحْتَلِبُ، فَيَشْرَبُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنَّا نَصِيبَهُ، وَنَرْفَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَصِيبَهُ، قَالَ: فَيَجِيءُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيمًا لَا يُوقِظُ نَائِمًا وَيُسْمِعُ اليَقْظَانَ، قَالَ: ثُمَّ يَأْتِي المَسْجِدَ فَيُصَلِّي، ثُمَّ يَأْتِي شَرَابَهُ فَيَشْرَبُ، فَأَتَانِي الشَّيْطَانُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ شَرِبْتُ نَصِيبِي، فَقَالَ: مُحَمَّدٌ يَأْتِي الأَنصَارَ فَيُتْحِفُونَهُ، وَيُصِيبُ عِندَهُمْ، مَا بِهِ حَاجَةٌ إِلَىٰ هَذِهِ الجَرْعَةِ، فَأَتَيْتُهَا فَشَرِبْتُهَا، فَلَمَّا أَنْ وَغَلَتْ فِي بَطْنِي، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَيْهَا سَبِيلٌ، قَالَ: نَدَّمَنِي الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: وَيْحَكَ، مَا صَنَعْتَ، أَشَرِبْتَ شَرَابَ مُحَمَّدٍ، فَيَجِيءُ فَلَا يَجِدُهُ، فَيَدْعُو عَلَيْكَ فَتَهْلِكُ، فَتَذْهَبُ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ! وَعَلَيَّ شَمْلَةٌ إِذَا وَضَعْتُهَا عَلَىٰ قَدَمَيَّ خَرَجَ رَأْسِي، وَإِذَا وَضَعْتُهَا عَلَىٰ رَأْسِي خَرَجَ قَدَمَايَ، وَجَعَلَ لَا يَجِيئُنِي النَّوْمُ، وَأَمَّا صَاحِبَايَ فَنَامَا وَلَمْ يَصْنَعَا مَا صَنَعْتُ، قَالَ: فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَلَّمَ كَمَا كَانَ يُسَلِّمُ، ثُمَّ أَتَىٰ المَسْجِدَ فَصَلَّىٰ، ثُمَّ أَتَىٰ شَرَابَهُ فَكَشَفَ عَنْهُ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَقُلْتُ: الآنَ يَدْعُو عَلَيَّ فَأَهْلِكُ، فَقَالَ: «**اللهُمَّ، أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي، وَأَسْقِ مَنْ أَسْقَانِي**»، قَالَ: فَعَمَدْتُ إِلَىٰ الشَّمْلَةِ فَشَدَدْتُهَا عَلَيَّ، وَأَخَذْتُ الشَّفْرَةَ، فَانْطَلَقْتُ إِلَىٰ الأَعْنُزِ أَيُّهَا أَسْمَنُ، فَأَذْبَحَهَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا هِيَ حَافِلَةٌ، وَإِذَا هُنَّ حُفَّلٌ كُلُّهُنَّ، فَعَمَدْتُ إِلَىٰ إِنَاءٍ لِآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا كَانُوا يَطْمَعُونَ أَن يَحْتَلِبُوا فِيهِ، قَالَ: فَحَلَبْتُ فِيهِ حَتَّىٰ عَلَتْهُ رَغْوَةٌ، فَجِئْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**أَشَرِبْتُمْ شَرَابَكُمُ اللَّيْلَةَ؟**»، قَالَ: قُلْتُ:

يَا رَسُولَ اللهِ، اشْرَبْ، فَشَرِبَ، ثُمَّ نَاوَلَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اشْرَبْ، فَشَرِبَ، ثُمَّ نَاوَلَنِي، فَلَمَّا عَرَفْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ رَوِيَ وَأَصَبْتُ دَعْوَتَهُ ضَحِكْتُ حَتَّىٰ أُلْقِيتُ إِلَىٰ الأَرْضِ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِحْدَىٰ سَوْآتِكَ، يَا مِقْدَادُ!**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَانَ مِنْ أَمْرِي كَذَا وَكَذَا، وَفَعَلْتُ كَذَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا هَٰذِهِ إِلَّا رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ، أَفَلَا كُنتَ آذَنْتَنِي فَنُوقِظَ صَاحِبَيْنَا فَيُصِيبَانِ مِنْهَا**»، قَالَ: فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، مَا أُبَالِي إِذَا أَصَبْتَهَا وَأَصَبْتُهَا مَعَكَ مَنْ أَصَابَهَا مِنَ النَّاسِ(١).

قوله: «وَقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا مِنَ الجَهْدِ»؛ أي: من التعب والإعياء كادوا لا يسمعون ولا يبصرون.

قوله: «فَجَعَلْنَا نَعْرِضُ أَنْفُسَنَا عَلَىٰ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَقْبَلُنَا»؛ أي: لا يقبل أحدٌ ضيافتَهم، ولم يكن هذا تكبرًا أو إعراضًا عن ضيافة الضيف، وإنما هو الفقرُ والقِلَّة وعدمُ القدرة علىٰ استضافتهم.

قوله: «ثُمَّ يَأْتِي شَرَابَهُ فَيَشْرَبُ»؛ يعني: يأتي إلىٰ ما أبقَوه له من اللَّبَن مِن حَلب العَنزِ تلك، فيشربُ نصيبه ﷺ.

قوله: «فَأَتَانِي الشَّيْطَانُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ شَرِبْتُ نَصِيبِي، فَقَالَ: مُحَمَّدٌ يَأْتِي الأَنْصَارَ فَيُتْحِفُونَهُ، وَيُصِيبُ عِندَهُمْ، مَا بِهِ حَاجَةٌ إِلَىٰ هَٰذِهِ الجَرْعَةِ»؛ أي: شرِبَ المقدادُ نصيبَه من اللَّبَن، ولم يكفِه، فجعل يلتمسُ مخرجًا لشُرب نصيب النبي ﷺ، فقال لنفسه: إنَّ النبي ﷺ يدخل بيوت الأنصار فيكرمونه ويضيِّفونه، فليس بحاجةٍ لهذه الجُرعة من اللبن.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥٥).

قوله: «فَلَمَّا أَنْ وَغَلَتْ فِي بَطْنِي، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَيْهَا سَبِيلٌ»؛ أي: لَمَّا استقرّت هذه الشَّربةُ في بطني، وانتهىٰ أمرُها.

قوله: «نَدَّمَنِي الشَّيْطَانُ»، وهكذا يصنع الشيطان؛ يزيِّن للإنسان المعصية، ثم يُحْزِنُه.

قوله: «وَعَلَيَّ شَمْلَةٌ»؛ أي: غِطاءٌ.

قوله: «وَجَعَلَ لَا يَجِيئُنِي النَّوْمُ»؛ يعني: تغشَّاه مِن الهمِّ ما أذهب عنه النوم.

قوله: «ثُمَّ أَتَىٰ شَرَابَهُ فَكَشَفَ عَنْهُ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَقُلْتُ: الآنَ يَدْعُو عَلَيَّ فَأَهْلِكُ، فَقَالَ: «**اللهُمَّ، أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي، وَأَسْقِ مَنْ أَسْقَانِي**»، بأبي هو وأمي ﷺ، لم يكثِرت ولم يغتمَّ ولم يحزن علىٰ فَقْدِ شرابه من اللَّبن تلك الليلة، بل تجاوز هذا كلَّه وجعل يدعو بالخير والبركة والإطعام والسُّقيا لِمَن كان سببًا في إطعامه وسقياه.

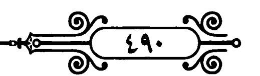
قوله: «فَعَمَدْتُ إِلَىٰ الشَّمْلَةِ ... »، ندِم علىٰ فعله، ويريد أن يستدرِكَ خطأَه.

قوله: «فَإِذَا هِيَ حَافِلَةٌ، وَإِذَا هُنَّ حُفَّلٌ كُلُّهُنَّ»؛ أي: أضرُعُهنَّ مليئةٌ باللَّبن.

قوله: «مَا كَانُوا يَطْمَعُونَ أَن يَحْتَلِبُوا فِيهِ»؛ أي: مِن كِبَرِ حَجم الإناء ما كانوا يطمعون أن يملؤوه باللبن.

قوله: «فَلَمَّا عَرَفْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ رَوِيَ وَأَصَبْتُ دَعْوَتَهُ»؛ أي: دعوتَه السابقةَ بإطعام من أطعمه وسقي مَن سقاه.

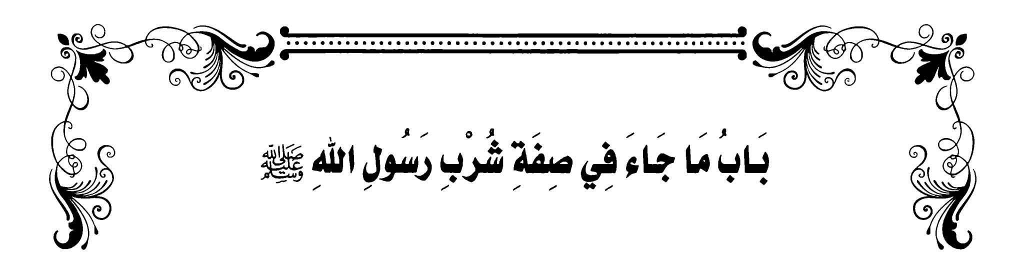
قوله ﷺ: «**إِحْدَىٰ سَوْآتِكَ، يَا مِقْدَادُ!**»؛ أي: هذه واحدةٌ من حالاتك التي تسوءُ.



قوله: «مَا أُبَالِي إِذَا أَصَبْتَهَا وَأَصَبْتُهَا مَعَكَ مَنْ أَصَابَهَا مِنَ النَّاسِ»؛ أي: ما دمتُ قد أصبتُ دعوتَك وسَقَيتُك؛ فلا أبالي إذا شرب جميعُ الناس معنا.

وفي هذه القصَّةِ عظيمُ رأفتِه ورحمتِه ﷺ ولُطفُه في التعامل، وقربُه الشديدُ من الصحابة، وقبولُه ما كان من أصحابه بلا تكلُّفٍ، وعدمُ معاتبةِ أصحابه عتابًا يشقُّ عليهم.

** ** **



بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ شُرْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

أي: الصفة والهيئة التي كان النبي ﷺ يشرب الشراب عليها؛ أكان قائمًا أم قاعدًا؟ أكان يتنفَّسُ في الإناء عندما يشربُ فيه، أم لا يتنفس؟

***

(حسن) **١٧٧ـ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَن جَدِّهِ قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَشْرَبُ قَائِمًا وَقَاعِدًا»**(١).



شرح الحديث

في هذا الحديث إثباتُ شُرب النبي ﷺ قائمًا وقاعدًا من رواية جدِّ عمرِو بنِ شُعَيب، وهو عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ويؤيِّده حديثُ عائشة رضي الله عنها: **«شَرِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمًا وَقَاعِدًا، وَمَشَىٰ حَافِيًا وَنَاعِلًا، وَانصَرَفَ عَن يَمِينِهِ وَعَن شِمَالِهِ»**(٢).

وقد أورد الإمام الترمذي(٣) جملةً من الأحاديث في شُرب النبي ﷺ قائمًا، وأيضًا قد وردت أحاديثُ عن النبي ﷺ تنهىٰ نهيًا صريحًا عن شُرب

---

(١) أخرجه أحمد (٦٦٢٧)، والترمذي (١٨٨٣)، وقال: «حسن».

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٥٦٧).

(٣) انظر: جامع الترمذي (١٨٨٠، ١٨٨٢ - ١٨٨٣).

الإنسان قائمًا(١)، وبعضُها فيه زجرٌ ومبالغةٌ في النهي بأمرِ مَن شرب قائمًا أن يستقيءَ(٢).

ويُفهَم من صنيع الترمذي بإيراد جملةٍ من الأحاديث في شُربه ﷺ قائمًا؛ بأنه يرُدُّ علىٰ مَن يقول مِن الفقهاء بأنَّ الشُّربَ قائمًا حرامٌ، وأنَّه لو كان حرامًا لما فعله النبي ﷺ.

وقد جمع ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين هذه الأحاديث وآراء العلماء بكلامٍ ملخَّصٍ فقال: «وكان مِن هديه ﷺ الشربُ قاعدًا، هذا كان هديُه المعتاد، وصحَّ عنه أنَّه نهىٰ عن الشرب قائمًا، وصحَّ عنه أنَّه أمر الذي شرِب قائمًا أن يستقيءَ، وصحَّ عنه أنه شرب قائمًا.

قالت طائفةٌ: هذا ناسخٌ للنهي، وقالت طائفةٌ: بل مُبيِّنٌ أنَّ النهيَ ليس للتحريم، بل للإرشاد وتركِ الأَوْلَىٰ، وقالت طائفة: لا تعارُضَ بينهما أصلًا، فإنه إنما شرب قائمًا للحاجة، فإنه جاء إلىٰ زمزمٍ وهم يَستَقُون منها، فاستقَىٰ، فناولوه الدَّلْوَ، فشرِبَ وهو قائمٌ، وهذا كان موضعَ حاجةٍ»(٣).

وقولُ ابن القيِّم من أعدل الأقوال؛ لأنه جمع بين الأقوال، وهذا مسلك أهل العلم عند الجمع بين الأحاديث التي ظاهرُها التعارُض، وهو أنَّه إذا أمكن الجمع بينها كان الجمع أولىٰ؛ لأنَّ في الجمع إعمالًا لجميع الأحاديث، وأمَّا القول بالنسخِ فهو إبطالٌ لبعض الأحاديث وإهمالٌ لأحاديث أخرىٰ بدعوىٰ النسخ.

---

(١) روىٰ مسلم (٢٠٢٤)، عن أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ: **«أنه نهىٰ أن يشربَ الرجل قائمًا»**.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢٦).

(٣) زاد المعاد (٤/ ٢١٠).

وعلىٰ فرضِ أنَّ الأحاديث فيها تعارضٌ، فإنَّ التعارُضَ بين قوله وفعله ﷺ، والقاعدةُ الأصوليةُ أنَّه إذا تعارض القولُ والفعلُ قُدِّم القولُ علىٰ الفعل؛ لأنَّ القولَ أعمُّ، والفعلَ يحتمل الخصوصيّة.

فالراجحُ أن يُقال: إنَّ الهديَ النبويَّ في الشُّرب هو أن يَشرب المسلمُ جالسًا، فإن احتاج للشرب قائمًا شرب قائمًا.

ومن أمثلة الحاجة المعاصرة: ما نراه في برّادات الماءِ التي تُعلَّق فيها أكوابُ الشرب بسلسلةٍ لا يستطيع الشاربُ معها أن يشرب جالسًا؛ فلا بأس أن يشرب قائمًا.

وكذلك إذا كان موضعُ شربِ الماء قد تَبلَّلت أرضُه بالتراب، وخشي الشارب إذا قعد أن تتَّسخ ملابسُه.

أو كان الزحامُ شديدًا في المسجد الحرام أو غيره، وخشيَ شاربُ الماءِ إذا قعد أن يطأه الناسُ، فلا بأس أن يشرب قائمًا.

وأمَّا إذا شرب في بيته في موضعٍ مطمئنٍ فالهديُ النبويُّ المعتادُ أن يشرب المسلم قاعدًا.

***

(صحيح) ١٧٨ـ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «سَقَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ مِن زَمْزَمَ، فَشَرِبَ وَهُوَ قَائِمٌ»**(١).

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٣٧)، ومسلم (٢٠٢٧).

شرح الحديث

ليس المقصود بهذا الحديث أنَّ هدي النبي ﷺ هو الشرب قائمًا، وإنما الأمر كما بُيِّن في شرح الحديث السابق من كلام ابن القيم: أنَّ النبي ﷺ إنما شرب من زمزم قائمًا للحاجة الداعية إلىٰ القيام في تلك الحال.

***

(صحيح) **١٧٩ـ عَنِ النَّزَّالِ بْنِ سَبْرَةَ قَالَ: «أُتِيَ عَلِيٌّ رضي الله عنه بِكُوزٍ مِن مَاءٍ وَهُوَ فِي الرَّحْبَةِ، فَأَخَذَ مِنْهُ كَفًّا، فَغَسَلَ يَدَيْهِ، وَمَضْمَضَ، وَاسْتَنْشَقَ، وَمَسَحَ وَجْهَهُ وَذِرَاعَيْهِ وَرَأْسَهُ، ثُمَّ شَرِبَ مِنْهُ وَهُوَ قَائِمٌ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا وُضُوءُ مَن لَمْ يُحْدِثْ، هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَلَ»**(١).

شرح الحديث

تقدَّم هذا الحديث في باب صفة الوضوء من الطعام.

قول النَّزَّال بن سَبْرَة رحمه الله: «**بِكُوزٍ مِن مَاءٍ**»؛ الكُوزُ: القَدَحُ، أو الكأسُ مخروطيُّ الشكل في الغالب.

قوله: «**وَهُوَ فِي الرَّحْبَةِ**»؛ الرَّحْبَةُ: موضعٌ في الكوفة.

قول علي رضي الله عنه: «**هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَلَ**»، يدلُّ علىٰ ما أراده المصنف مِن نسبة شُرب الماء قيامًا للنبي ﷺ، وأنَّه ليس مخالفًا للسُّنّة.

---

(١) أخرجه أحمد (٥٨٣).

والحديث عند البخاري بلفظٍ أصرحَ مِن هذا، إذ فيه بيان أنَّ عليًّا رضي الله عنه إنما تعمَّد الشُّربَ قائمًا ليبيِّن للناس أن الشُّربَ قيامًا ليس مخالفًا للسُّنَّة؛ فعن النَّزَّالِ قَالَ: أَتَىٰ عَلِيٌّ رضي الله عنه عَلَىٰ بَابِ الرَّحْبَةِ فَشَرِبَ قَائِمًا، فَقَالَ: إِنَّ نَاسًا يَكْرَهُ أَحَدُهُمْ أَن يَشْرَبَ وَهُوَ قَائِمٌ، وَإِنِّي «**رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَعَلَ كَمَا رَأَيْتُمُونِي فَعَلْتُ**»(١).

***

(صحيح) **١٨٠ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: [وَفِي طَرِيقٍ أُخْرَىٰ: كَانَ أَنَسٌ يَتَنَفَّسُ فِي الإِنَاءِ ثَلَاثًا، وَزَعَمَ أَنَسٌ] «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَنَفَّسُ فِي الإِنَاءِ ثَلَاثًا إِذَا شَرِبَ، وَيَقُولُ: هُوَ أَمْرَأُ وَأَرْوَىٰ»**(٢).

شرح الحديث

قول أنس رضي الله عنه: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَنَفَّسُ فِي الإِنَاءِ ثَلَاثًا إِذَا شَرِبَ**»؛ المقصود بالتنفُّس في الإناء: أنه لم يكن يشربُ الماءَ دفعةً واحدةً، بل يُجزِّئ شُربَه، ويتنفّس بين الشَّربة والشَّربة.

وكيفيَّة التنفُّس ثلاثًا: أنه يشربُ مرةً أولىٰ، ثم يُبعِد الإناء ويتنفَّس، ثم يشربُ الثانية، ثم يُبعِد الإناء ويتنفَّس، ثم يشرب الثالثة وينتهي من الشرب، ويُبعِد الإناء ويتنفَّس.

ففي الحديث إثباتُ تنفُّس رسول الله ﷺ أثناءَ الشُّرب، وأنَّه ما كان يتناول الشراب دفعةً واحدةً.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦١٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٢١٨٦)، والترمذي (١٨٨٤)، وصحَّحه، وأصله عند مسلم (٢٠٢٨).

وقد جاء في هذا المعنىٰ حديثٌ ضعيف عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَشْرَبُوا وَاحِدًا كَشُرْبِ البَعِيرِ، وَلَكِنِ اشْرَبُوا مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ**»(١).

وربما توهَّم متوهِّمٌ أنَّ التنفُّس كان داخلَ الإناء، وليس هذا هو المقصود، بل إن التنفُّسَ داخلَ الإناء منهيٌّ عنه، فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا شَرِبَ أَحَدُكُمْ فَلا يَتَنَفَّسْ فِي الإِنَاءِ**»(٢).

قوله ﷺ: «هُوَ أَمْرَأُ»؛ أَفعَلُ تفضيلٍ من كونه مريئًا، والـمَرِيءُ: الـمُستَساغ.

قوله ﷺ: «وَأَرْوَىٰ»؛ أَفعَلُ تفضيلٍ من الريّ، أي: أكثر تحقيقًا للرِّي.

وذلك أنَّ الإنسان العطشان يُخَيَّل إليه أن تَجرُّع الماء دفعةً واحدةً سيروي عطشه، والأمرُ خلافُ ذلك؛ فإنه لو جَزَّأَ شرابَه علىٰ دَفعاتٍ لكان أكثر إرواءً.

بل إنَّ الشراب دفعةً واحدةً لربما آذىٰ المعِدَة وأضرَّها وآلمها، فتَجزْيءُ الشرابِ يحصل به الريُّ، ويُبْعِد الأذىٰ عن الجسم، وهكذا هديُ النبي ﷺ يجد الإنسانُ فيه صحّة البدن، واعتدال العافية، فهديُه ﷺ أكملُ هَدي.

وإثباتُ فضلِ هديِ النبيِّ ﷺ لا يحتاج إلىٰ تأكيدٍ من الأطبّاء والدراسات المعاصرة، ولكن لا بأس أن نعتضِدَ ببعض أقوالهم، فإنَّ الطبَّ الحديثَ والدراساتِ المعاصرةَ أثبتت أن تأنِّي الإنسان في الشرب والفَصل بين الشَّربات بالتنفُّس أفضل للصحة، وأكثر انتفاعًا للشارب بشرابه.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٨٨٥)، وقال: «غريب»، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٢٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٥٣)، ومسلم (٢٦٧).

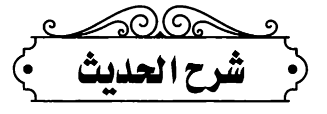
قوله في الرواية الأخرىٰ: «كَانَ أَنَسٌ يَتَنَفَّسُ فِي الإِنَاءِ ثَلَاثًا»، فيه ما ذكرناه مرارًا مِن أنَّ الصحابةَ كانوا يقتدون في كلّ أفعالهم وتصرُّفاتهم بالنبي ﷺ، وهذا هو المبدأ العظيم الذي رَبَّوا عليه طُلَّابهم وأبناءهم، ويجب علينا أن نُربّي عليه أبناءنا وطلَّابنا وأهلنا.

وفيه أنَّه طبَّقَ السُّنَّة بفعله، ثم عضَّد ذلك برواية الحديث عن النبي ﷺ، فإنَّ تطبيق الإنسان السُّنةَ علىٰ نفسه أبلغ في قبولها عند الآخرين مما لو أمرهم بها دون أن يفعل ذلك بنفسه.

«وَزَعَمَ أَنَسٌ»، ليس الزَّعمُ هنا الزَّعمَ المذمومَ الذي قد يتبادر إلىٰ الفهم أحيانًا لكلمة (زعم)، والذي يُشعر بالتعريض بالكذب، ولكن الزعم هنا بمعناه اللُّغوي وهو بمعنىٰ: أخبر أو قال، وكثيرًا ما يَرِد بمعناه اللغوي في كلام السلف وأئمة العلم كالإمام الطبري مثلًا في تفسيره.

***

(ضعيف) ١٨١ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا شَرِبَ تَنَفَّسَ مَرَّتَيْنِ»(١).


شرح الحديث

تقدَّم في حديث أنس السابق أنه ﷺ يتنفَّس ثلاثَ مرَّاتٍ عند شُربه، وهذا الحديث يدلُّ علىٰ أنه يتنفَّس مرَّتين.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٧١)، والترمذي (١٨٨٦)، وقال: «غريب»، وضعَّفه الألباني في الضعيفة (٤٢٠٤).

ولا تعارُض بين الحديثين؛ لأنَّ التنفُّس الأوّل بعد الشَّربة الأولىٰ، والتنفُّس الثاني بعد الشَّربة الثانية، ثم يشرب الثالثة وينتهي شربُه؛ فاكتفىٰ ابن عباس بعدَّ هاتين المرَّتين في التنفُّس، وأمَّا أنسٌ فإنه حَسَب تنفُّسه بعد شرُب الثالثة، ولا تعارُض بين الأمرين، فإنَّ النبي ﷺ لا شكَّ وأنه قد تنفَّس بعد شربه الثالثة.

***

(صحيح) **١٨٢ـ عَن كَبْشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا قَالَتْ: «دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ، فَشَرِبَ مِن فِي قِرْبَةٍ مُعَلَّقَةٍ قَائِمًا، فَقُمْتُ إِلَىٰ فِيهَا، فَقَطَعْتُهُ»**(١).

شرح الحديث

(**عَن كَبْشَةَ**) هي كَبشةُ بنتُ ثابتٍ، أختُ حسَّان بن ثابتٍ شاعرِ رسول الله ﷺ.

قول كبشة رَضِيَ اللهُ عَنهَا: «**فَشَرِبَ مِن فِي قِرْبَةٍ مُعَلَّقَةٍ**»؛ يعني: شرب من فَمِ القِربة، أي: رأسها.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنهَا: «**قَائِمًا**»، فيه ما ذُكِر في شرح أول حديثٍ في الباب؛ مِن أنَّ المسلم إذا احتاج لأن يشرب قائمًا فلا بأس أن يشرب قائمًا؛ لأنَّ القِرْبَة كانت معلقةً، فاحتاج أن يشرب منها قائمًا.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنهَا: «**فَقُمْتُ إِلَىٰ فِيهَا، فَقَطَعْتُهُ**»، قَطعَت فمَ القِربة بعد أن شرب رسول الله ﷺ ابتغاءَ الاحتفاظ بهذه القطعة التي لامسَت فمَ رسول الله ﷺ،

(١) أخرجه الترمذي (١٨٩٢)، وابن ماجه (٣٤٢٣)، وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب».

ولهذا جاء هذا الحديث عند ابن ماجه[١] بزيادةٍ في آخره: «تَبْتَغِي بَرَكَةَ مَوْضِعِ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ».

(صحيح) ١٨٣ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَىٰ أُمِّ سُلَيْمٍ وَقِرْبَةٌ مُعَلَّقَةٌ، فَشَرِبَ مِن فَمِ القِرْبَةِ وَهُوَ قَائِمٌ، فَقَامَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ إِلَىٰ رَأْسِ القِرْبَةِ، فَقَطَعَتْهَا»[٢].

شرح الحديث

حديث أمِّ سُلَيمٍ رضي الله عنها شبيهٌ بحديث كَبشةَ بنت ثابت رضي الله عنها السابق، أثبتَت فيه شُربَ النبي ﷺ قائمًا من فَم القِربة، ثم فعلت أمُّ سُلَيمٍ ما فعلته كبشةُ من قطع جُزء القِربة الذي لامسَ شفةَ رسول الله ﷺ واحتفظت به تبرُّكًا.

وفي هذين الحديثين ما سبق الدلالة عليه من شدّة حُبِّ الصحابة للنبيِّ المصطفىٰ ﷺ، وشدة عنايتهم بمواقع البركة في حياتهم معه ﷺ.

وقد سبقت الإشارة إلىٰ أنَّ مثل هذه الآثار يصِحُّ نسبتُها للنبي ﷺ مما هو موجودٌ اليوم إن دلَّ دليلٌ علىٰ أنها من آثار رسول الله ﷺ، ولكن يصعب إثباتُ هذا؛ وذلك لطول المدّة بيننا وبينه ﷺ، ولما ثبت عن بعضهم أنَّه كان يدفن ما حصل عليه من أثر النبي ﷺ معه، ولما مَرَّ علىٰ الأمَّة في تاريخها من حروبٍ ودمار كبيرٍ أتىٰ علىٰ عواصم بلاد الإسلام، كُلُّ هذا يصعب معه القطعُ بأنَّه يوجد

---

(١) سنن ابن ماجه (٣٤٢٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٢١٨٨).

شيءٌ من آثار النبي ﷺ باقيًا إلىٰ اليوم، فما يدَّعيه بعضُ الناسِ وما هو موجودٌ في بعض المتاحفِ من عمامةٍ أو بُردةٍ أو شَعرٍ لا دليلَ واضحًا علىٰ صحةِ إثبات نسبته للنبي ﷺ.

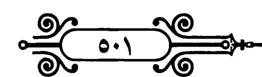
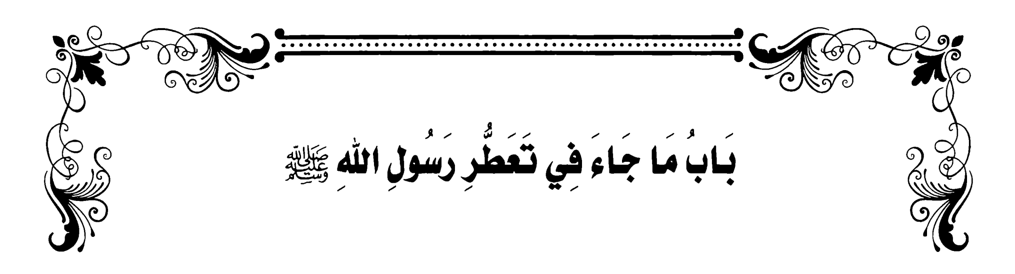
(صحيح) ١٨٤ ـ **عَنْ عَائِشَةَ بِنتِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهَا** رضي الله عنه: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَشْرَبُ قَائِمًا**»(١).

شرح الحديث

هذا الحديث كالأحاديث السابقة يُثبت أن النبي ﷺ شرب قائمًا، وهذا كما تقدّم إنما هو إثباتٌ لصنيعه، وإلا فهديُه الأكثرُ كان شربه قاعدًا.

** ** **

(١) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٦٨٤٨)، والطبراني في الكبير (١/ ١٤٧).

بَابُ مَا جَاءَ فِي تَعَطُّرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

هذا بابٌ فيه الحديث عن طِيبِ رسول الله ﷺ، وهذا من أنواع هَديه الظاهر، وهو من الأبواب التي تَصِفُ جمال هيئة النبي ﷺ وكمال أحواله التي عاش عليها، فإن الله ﷻ قد جمع له بين جمال الظاهر والباطن؛ وقد ثبت عنايتُه ﷺ بجمال هيئته ومنظره وملبسه، كما آتاه الله ﷻ حسن الخِلقة والصورة.

وفي هذا الباب إثباتٌ لاعتنائه بالطِيب، وحُبّه له، وحثِّه عليه، وما ذلك إلا لصدوره من قلبٍ طيّبٍ.

فإنَّ الطِيبَ من الأشياء الـمُحبَّبة للنفوس؛ لأنَّ الأرواحَ الطيبةَ تستهوي الروائحَ الطيبةَ، وتأنسُ إليها، وتستريحُ لها، وتنشرحُ صدورُها لها؛ فالناس تميل إلىٰ الطَّيِّب من كل شيءٍ، فتميل إلىٰ الطَّيِّب من الكلام، والطَّيِّب من الأفعال، والطَّيِّب من الطعام والشراب، والطَّيِّب من الروائح كذلك.

هذه العناية من النبي ﷺ بالطِّيب لم يكن الحاملُ عليها ما يصدرُ من بعض الناس من رائحةٍ كريهةٍ تُؤذي جلساءَه، بل إنَّه ﷺ لم يُعرَف عنه شيءٌ من ذلك، حيث كان بدنُه جميلَ الرائحة، عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: «**خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالهَاجِرَةِ إِلَىٰ البَطْحَاءِ، فَتَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّىٰ الظُّهْرَ رَكْعَتَيْنِ، وَالعَصْرَ رَكْعَتَيْنِ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ عَنَزَةٌ ... كَانَ يَمُرُّ مِن وَرَائِهَا المَرْأَةُ، وَقَامَ النَّاسُ فَجَعَلُوا يَأْخُذُونَ يَدَيْهِ**

فَيَمْسَحُونَ بِهَا وُجُوهَهُمْ، قَالَ: فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَوَضَعْتُهَا عَلَىٰ وَجْهِي؛ فَإِذَا هِيَ أَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَطْيَبُ رَائِحَةً مِنَ المِسْكِ»(١).

والعَنَزَةُ المقصود بها: الرُّمحُ الصغير، ووصفُ أبي جُحَيفة رضي الله عنه هذا لم يكن من المبالغة في شيءٍ، فإنَّ غيره من الصحابة وصفوه بهذا الوصف، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «**وَلا مَسِسْتُ خَزَّةً وَلا حَرِيرَةً أَلْيَنَ مِن كَفِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلا شَمِمْتُ مِسْكَةً وَلا عَبِيرَةً أَطْيَبَ رَائِحَةً مِن رَائِحَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»(٢).

وجاء حديث أنسٍ رضي الله عنه هذا عند مسلمٍ بلفظ: «**وَلا مَسِسْتُ دِيبَاجَةً وَلَا حَرِيرَةً أَلْيَنَ مِن كَفِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلا شَمِمْتُ مِسْكَةً وَلا عَنبَرَةً أَطْيَبَ مِن رَائِحَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»(٣)، ولفظه عند الترمذي: «**وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، وَلَا مَسَسْتُ خَزًّا قَطُّ وَلَا حَرِيرًا وَلَا شَيْئًا كَانَ أَلْيَنَ مِن كَفِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا شَمَمْتُ مِسْكًا قَطُّ وَلَا عِطْرًا كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ النَّبِيِّ ﷺ**»(٤)، فكان ريحُه طَيبًا، ويزداد طِيبًا بتطيُّبه.

كما أنه كان ينهىٰ عن أكلِ ما رائحتُه خبيثة؛ عَن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ البَقْلَةِ، الثُّومِ ـ وقَالَ مَرَّةً: مَنْ أَكَلَ البَصَلَ وَالثُّومَ وَالكُرَّاثَ ـ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا؛ فَإِنَّ المَلَائِكَةَ تَتَأَذَّىٰ مِمَّا يَتَأَذَّىٰ مِنْهُ بَنُو آدَمَ**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٧٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٣٠).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٠١٥)، وقال: «حسن صحيح».

(٥) أخرجه مسلم (٥٦٤).

فالحاملُ للنبيِّ ﷺ علىٰ التطيُّب هو كمال الجمال الذي جبله الله عليه، وقد تقدَّم أنَّ مُوجِبات الحُبِّ ثلاثةٌ: جمالُ الصورة، وجمالُ الأخلاق، وكمالُ الإحسان إلىٰ الآخرين، وهذه الثلاثة قد اجتمعت لنبينا ﷺ في أتمِّ صُوَرها؛ فاستحقَّ أكمل الحُبِّ ﷺ؛ فاهتمامُه بالطِّيب إنما هو جزءٌ من الكمال البشري الذي اتَّصف به نبيُّنا ﷺ.

فإذا كانت هذه العناية من النبي ﷺ بالطِّيب مع طيبه؛ فإنَّ عناية غيره بالطيب من باب أولىٰ.

وإن كان الإنسانُ قد جبله اللهُ علىٰ حبِّ الطيب، ويصرف مِن وقته ومالِه في الاعتناء بالطيب؛ فعليه أن يصرف نيَّته إلىٰ أن يجعل حُبَّه للطِّيب مِن باب الاقتداء والاهتداء بسنَّة النبي ﷺ.

***

(صحيح) ١٨٥ـ **عَن مُوسَىٰ بْنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ ؓ قَالَ: «كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ سُكَّةٌ يَتَطَيَّبُ مِنْهَا»**(١).

شرح الحديث

السُّكَّةُ: قيل: عِطرٌ خليطٌ مركَّبٌ من مجموعٍ من الروائح. ففيه اعتناؤه بالطِّيب ﷺ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤١٦٢).

وقيل: السُّكَّةُ: وعاءٌ يوضع فيه الطيب، وفيه أيضًا اعتناؤه بالطيب ﷺ، حتىٰ إنه قد اهتمَّ بوضع السُّكَّة عنده ليتطيَّب ويتعطَّر منها ﷺ.

***

(صحيح) ١٨٦ـ **عَن ثُمَامَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كَانَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ لَا يَرُدُّ الطِّيبَ، وَقَالَ أَنَسٌ** رضي الله عنه: «**إِنَّ النبي ﷺ كَانَ لَا يَرُدُّ الطِّيبَ**»(١).

شرح الحديث

قول ثمامة: «كَانَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ لَا يَرُدُّ الطِّيبَ»: فيه ربطُ الصحابة أحوالَهم وأفعالَهم بما رأوه من النبي ﷺ، وهو كما سبق مرارًا من صنيع الصحابة أنهم يفعلون الشيء ثم يعلِّلون ذلك بأنَّه من فعل النبي ﷺ، تربيةً لطلابهم علىٰ ربط حياتهم بأفعال النبي ﷺ وهديه.

قول أنس رضي الله عنه: «**إِنَّ النبي ﷺ كَانَ لَا يَرُدُّ الطِّيبَ**»، في هذا الحديث هديٌ نبويٌّ يتعلَّق بالعِطر والطِّيب، وهو أنَّ السُّنَّة النبوية ألَّا يردَّ المسلمُ العِطرَ أو الطِّيب إذا أُهْدِي له أو قُدِّم إليه.

والمقصود بعدم ردِّ الطيب يحتمل أحد أمرين: أن يُهْدَىٰ له شيءٌ من الطِّيب أو نحو ذلك فيقبله، أو أن يرغب المُهْدِي في وضع القليل من الطِّيب علىٰ بدنه أو ثوبه فيقبل ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٢).

وإنما شُرِع قبولُ الطيب وعدمُ ردِّه: لأنه خفيفُ المحمَل طيّبُ الرائحة، كما أنَّ في ذلك فتحًا لباب الإهداء بين المؤمنين، والتهادي بابٌ يتوادُّ به المؤمنون ويتحابُّون.

***

(حسن) ١٨٧ـ **عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ لا تُرَدُّ: الوَسَائِدُ، وَالدُّهْنُ، وَاللَّبَنُ»**(١).



شرح الحديث

قوله ﷺ: «ثَلاثٌ لَا تُرَدُّ»؛ يعني: ثلاثٌ لا ينبغي أن تُرَدَّ إذا قُدِّمت للإنسان.

قوله ﷺ: «الوَسَائِدُ»: جمع وِسادة، وهي: المخَدَّة التي تُستعمل للنوم أو الاتِّكاء، يعني: إذا قُدِّم للضيفِ وسادةٌ ليتَّكئ عليها، أو يُريح ظهرَه عليها، أو يستند إليها؛ فلا ينبغي له أن يردَّها؛ لأنَّ تقديم الوِسادة للضيف من باب إكرامِ الضيف، فعلىٰ الضيف أن يقبلها، فإن لم يكن بحاجةٍ إليها فليجعلها بجانبه.

قوله ﷺ: «وَالدُّهْنُ»، هذا هو موضع الشاهد من الحديث للباب، والمقصود بالدُّهن: الطِّيب أو العِطر.

قوله ﷺ: «وَاللَّبَنُ»، تقدَّم في باب شرابه الحديثُ عن اللَّبن، وأنه مما يُسْتَغنىٰ به عن الطعام والشراب؛ إذ إنه غذاءٌ وشرابٌ في آنٍ واحد.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٩٠)، وقال: «غريب»، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٢/ ١٨٣، رقم: ٦١٩).

(صحيح) ١٨٨ـ **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «طِيبُ الرِّجَالِ مَا ظَهَرَ رِيحُهُ وَخَفِيَ لَوْنُهُ، وَطِيبُ النِّسَاءِ مَا ظَهَرَ لَوْنُهُ وَخَفِيَ رِيحُهُ»**(١).

شرح الحديث

في هذا الحديث هديٌ نبويٌّ كريم في التفريق بين طِيب وعِطر الرجال والنساء، وذلك أنَّ الطِّيبَ رائحةٌ فائحةٌ طيبةٌ ينشرح لها صدرُ مَن يشمُّها، وتقع في قلبه فتؤثِّر فيه أيَّما تأثير، وربما كانت الرائحةُ سببًا لقبول صاحب الرائحة عند مَن يشُمُّ تلك الرائحة، وبالعكس إذا شمَّ الإنسانُ رائحةً كريهةً مستقذَرةً انقبض قلبُه وضاق صدرُه، وربما كرِه صاحبَ الرائحة القذرة؛ فأثرُ الرائحة مما لا ينكره أحدٌ.

ومن هذا الباب جاء التفريقُ في الإسلام بين طِيب الرجال والنساء، بحيث يكون طِيب الرجال معتمدًا علىٰ فَوَحان الرائحة وانتشارها وظهورها، وأن يكون طِيب النساء معتمدًا علىٰ ظهور اللون لا الرائحة.

ومردُّ ذلك إلىٰ بابٍ عظيمٍ قرّرته الشريعة تقريرًا بليغًا، وهو إغلاق باب الفتنة بين النساء والرجال الأجانب، حيث جاء الإسلام بالحجاب كما قال: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، وبالنهي عن الضرب بالأرجُل التي فيها الخلخال كما يقول عز وجل: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، ونهيُ المرأة هنا عن التطيُّب بطيبٍ له رائحةٌ إنما هو من الباب نفسِه، وهو إغلاقُ باب افتتان الرجال بالنساء.

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٩٧٧)، وأبو داود (٢١٧٤)، والترمذي (٢٧٨٧)، والنسائي (٥١١٧)، وحسَّنه الترمذي.

وقد جاء النهيُ صريحًا في قوله ﷺ: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَصَابَتْ بَخُورًا فَلَا تَشْهَدْ مَعَنَا العِشَاءَ الآخِرَةَ**»(١)، أي: إذا تبخَّرت المرأةُ وتطيَّبت فلتقعد في بيتها، ولا تحضر المسجد لتصلِّيَ مع المسلمين، وذلك أنَّ البخورَ مما تفوحُ رائحتُه وتنتشر، فيقع ذلك في أنوف الرجال، فيُخشىٰ علىٰ الرجال من الافتتان بالنساء علىٰ تلك الحال.

***

(ضعيف) ١٨٩ـ **عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أُعْطِيَ أَحَدُكُمُ الرَّيْحَانَ فَلَا يَرُدَّهُ؛ فَإِنَّهُ خَرَجَ مِنَ الجَنَّةِ»**(٢).

شرح الحديث

الحديث ضعيفُ السند لأنه مُرسَلٌ، فأبو عثمان النَّهديُّ ليست له صُحبةٌ، إنما هو تابعيٌ كبيرٌ، وأحدُ المشاهير الكبار، من أعلام الإسلام، أدرك الجاهلية، وأسلم في عهد النبي ﷺ لكنه لم يظفر برؤيته، فلم يُكتَب له شرف الصحبة لرسول الله ﷺ، وهو من المعمَّرين، عاش مائةً وثلاثين سنةً.

قوله ﷺ: «إِذَا أُعْطِيَ أَحَدُكُمُ الرَّيْحَانَ فَلَا يَرُدَّهُ»، الرَّيحانُ: كلُّ نباتٍ مشمومٍ طيِّب الرائحة، وفي عُرف العامَّة اليوم يُطلق الرَّيحان علىٰ نوعٍ خاصٍّ من النبات ذكيّ الرائحة، وهو رَيحانٌ، ولكن لا يختصُّ الاسم به، وإنما هو عامٌّ لكل نَبتٍ طابت رائحتُه.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٤٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٧٩١)، وقال: «غريب»، وضعَّفه الألباني في الضعيفة (٧٦٤).

وهذا موضع الشاهد من الحديث، وهو عدم ردِّ الريحان.

والحديث وإن كان ضعيفًا إلا أنَّه ثبت معناه في صحيح مسلم(١)، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فَلَا يَرُدَّهُ؛ فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمِلِ، طَيِّبُ الرِّيحِ**»، وفي رواية: «**مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ طِيبٌ فَلَا يَرُدَّهُ؛ فَإِنَّهُ طَيِّبُ الرِّيحِ، خَفِيفُ الْمَحْمَلِ**»(٢).

ولكن ينبغي أن يُعْلَم أنَّه لا بأس للإنسان أن يرُدَّ الطيبَ لعذرٍ، كأن يكون مريضًا بحساسيةٍ في الصدر، أو كانت رائحةُ الطِيب شديدةً قويةً مزعجةً له، أو نحو ذلك، فإنَّ الإسلام جاء بنفي الضَّرَر، ودفع الأذىٰ عمَّا يؤذي المسلم، يقول النووي رحمه الله: «وفي هذا الحديث كراهية ردِّ الريحان لِمَنْ عُرِضَ عليه، إلا لعُذْرٍ»(٣).

ولكن ينبغي للمسلم أن يُبَيِّن عُذرَه حين ردِّه بلطفٍ ورفقٍ، بحيث لا يَظْهَرُ لـمُهديه أنه معارضٌ للسُّنَّة.

قوله ﷺ: «**فَإِنَّهُ خَرَجَ مِنَ الجَنَّةِ**»، إثبات كون الرَّيحان مِن نبات الجنة لا يصحُّ بهذا الحديث، ولكنه قد ثبت بنصوصٍ شرعيةٍ أخرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٩]، فأثبت الله عز وجل أن الرَّيحان مما يكون نعيمًا لأهل الجنة.

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٥٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤١٧٢).

(٣) شرح النووي علىٰ مسلم (١٥/ ١٠).

(ضعيف جدًّا) ١٩٠ ـ عَن جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: عُرِضْتُ بَيْنَ يَدَيْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه، فَأَلْقَىٰ جَرِيرٌ رِدَاءَهُ وَمَشَىٰ فِي إِزَارٍ، فَقَالَ لَهُ: خُذْ رِدَاءَكَ، فَقَالَ عُمَرُ لِلْقَوْمِ: مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَحْسَنَ صُورَةً مِن جَرِيرٍ إِلَّا مَا بَلَغَنَا مِن صُورَةِ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ عليه السلام[(١)].

شرح الحديث

(عَن جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه)، هو أحد الصحابة الذين تأخَّر إسلامُهم، وكان النبيُّ ﷺ يعجبه من جريرٍ جمالُه وكمالُ عقلِه، كما أنه مِن أمراء الصحابة، فهو أميرٌ نبيلٌ جميلٌ، يقول الذهبيّ رحمه الله: «وَفدَ علىٰ رسول الله ﷺ سنة عشرٍ، فأسلم في رمضان، فأكرم رسولُ الله ﷺ مقدمَه، وكان بديعَ الجمال، مليحَ الصورة إلىٰ الغاية»[(٢)].

قَالَ جَرِيْرٌ: لَمَّا دَنَوْتُ مِنَ المَدِيْنَةِ أَنَخْتُ رَاحِلَتِي، وَحَلَلْتُ عَيْبَتِي، وَلَبِسْتُ حُلَّتِي، ثُمَّ دَخَلْتُ المَسْجِدَ، فَإِذَا بِرَسُوْلِ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ، فَرَمَانِي النَّاسُ بِالحَدَقِ، فَقُلْتُ لِجَلِيْسِي: يَا عَبْدَ اللهِ، هَلْ ذَكَرَ رَسُوْلُ اللهِ مِنْ أَمْرِي شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، ذَكَرَكَ بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ، بَيْنَمَا هُوَ يَخْطُبُ، إِذْ عَرَضَ لَهُ فِي خُطْبَتِهِ، فَقَالَ: **«إِنَّهُ سَيَدْخُلُ عَلَيْكُمْ مِنْ هَذَا الفَجِّ مِنْ خَيْرِ ذِي يَمَنٍ، أَلَا وَإِنَّ عَلَىٰ وَجْهِهِ مِسْحَةَ مَلَكٍ»**، قَالَ: «فَحَمِدْتُ اللهَ»[(٣)].

---

(١) ضعَّفه الألباني لحال راويه عمر بن إسماعيل بن مجالد، وبيَّن أنه متروك.

(٢) تاريخ الإسلام (٣/ ٦٢٦).

(٣) أخرجه أحمد (١٩١٨٠).

وقَدِمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَلْقَىٰ لَهُ ثَوْبَهُ لِيَجْلِسَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «**إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ**»(١).

قول جرير رضي الله عنه: «**فَأَلْقَىٰ جَرِيرٌ رِدَاءَهُ وَمَشَىٰ فِي إِزَارٍ**»؛ الرِّداء: ما يُلبَس علىٰ النصف الأعلىٰ من الجسد؛ أي: علىٰ الصدر والكتف والظهر.

والإزارُ: ما يُلبَس علىٰ النصف الأسفل من الجَسد. كما يلبس المحرمُ إزارًا ورداءً.

قول عمر رضي الله عنه: «**مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَحْسَنَ صُورَةً مِن جَرِيرٍ إِلَّا مَا بَلَغَنَا مِن صُورَةِ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ** عليه السلام»، يشير إلىٰ جَمالِ جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

أولًا: حديثُ جريرٍ هذا ضعيفٌ سندًا، بل ضعيفٌ جدًّا كما أشار الشيخ الألباني رحمه الله.

ثانيًا: ليس للحديث صِلةٌ ظاهرةٌ بباب العِطر والطِّيب الذي نحن فيه إلا بتكلُّف؛ وذلك بأن يُقال: مَن حَظِيَ بجمال الخِلقة وكمال المظهر والهيئة فأولىٰ به أن يُكمِّل هذا بجمال رِيحه وعنايته بالطِّيب.

وفي ختام باب الطِّيب يُقال: علىٰ المرء أن يعتني بالطِّيب؛ لأنَّه يبعث في نفسه وفي جلسائه الارتياحَ وانشراحَ الصدر، فيأنسُ به جلساؤه ومحدِّثوه، وأولىٰ ما يكون ذلك مع أهل البيت والزوجة، فلا ينبغي للإنسان أن يعتنيَ بطِيب

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٧١٢)، والبزار (١٤/ ٣٤٢)، والطبراني في الأوسط (٦٢٩٠)، وإسناده ضعيف، وضعَّفه البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ١٧٣).

رائحته إذا خرج من بيته ويهملها في بيته؛ يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إني لأُحِبُّ أن أتزيَّن للمرأة كما أُحِبُّ أن تزيَّن لي»(١).

كما ينبغي للمسلم أن يعتني بالطِّيب في عباداته؛ خاصةً في مثل صلاة الجمعة، والعيد، ونحو ذلك، فهذا من الكمال الذي يُنشَد في العبادات العظيمة.

يقول ابن القيّم رحمه الله: «وفي الطِّيب من الخاصِّيَّة: أنَّ الملائكة تُحِبّه، والشياطينَ تنفِرُ عنه، وأحبُّ شيءٍ إلىٰ الشياطين الرائحةُ المُنتِنَةُ الكريهةُ، فالأرواح الطيِّبةُ تُحِبُّ الرائحةَ الطيِّبةَ، والأرواحُ الخبيثةُ تُحِبُّ الروائحَ الخبيثةَ، وكلُّ روحٍ تميل إلىٰ ما يناسبها، فالخبيثاتُ للخبيثين، والخبيثون للخبيثات، والطيِّباتُ للطيّبين، والطِّيبون للطيِّبات، وهذا وإن كان في النساء والرجال فإنه يتناول الأعمال والأقوال، والمطاعم والمشارب، والملابس والروائح؛ إمّا بعموم لفظه، أو بعموم معناه»(٢).

** ** **

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (١٤٧٢٨).

(٢) زاد المعاد (٤/ ٢٥٧).



بَابُ كَيْفَ كَانَ كَلامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ

هذا الباب من مُهِمّات أبواب الشمائل النبوية؛ لتعلُّقه بأمرٍ لا ينفكُّ عنه أحدنا وهو الكلام، ومعرفة هدي النبي ﷺ فيه مطلبٌ عظيمٌ وردت به الأحاديث المبيّنة له.

***

(صحيح) ١٩١ ـ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْرُدُ كَسَرْدِكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ بَيِّنٍ فَصْلٍ يَحْفَظُهُ مَن جَلَسَ إِلَيْهِ»(١).

شرح الحديث

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْرُدُ كَسَرْدِكُمْ هَذَا»؛ السَّرْدُ: السرعةُ والعَجَلةُ في الكلام، التي قد يسقطُ معها بعضُ الحروف أو تتداخلُ.

وذلك أنَّ بعضَ الناس يُسْرِع سُرعةً مُفرِطةً في كلامه؛ وذلك إمّا أن يكون ناشئًا عن عَجَلةٍ اعتاد عليها في كلامه، ومشيه، فهو ذو طبيعة متسرِّعة، وإما أن يكون ناشئًا عن سُيولة الذهن وتدفُّق الأفكار، فتتعجَّل الكلماتُ علىٰ لسانه فيتعجَّل في كلامه ليُخرج ما عنده.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٢٠٩)، والترمذي (٣٦٣٩)، وقال: «حسن صحيح».
وهو في البخاري (٣٥٦٨)، ومسلم (٢٤٩٣)، بمعناه.

ولم يكن طبع النبي ﷺ هكذا، بل كان متأنِّيًا في كلامه.

قولها رضي الله عنها: «**وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ بَيِّنٍ فَصْلٍ**»؛ يعني: واضحٍ، مفصولٍ بعضُه عن بعض.

قولها رضي الله عنها: «**يَحْفَظُهُ مَن جَلَسَ إِلَيْهِ**»؛ أي: يستطيع جلساؤه أن يحفظوه. وهذا تأكيدٌ لما سبقَ من بيانه في الكلام ووضوحه وفَصْله بين الألفاظ.

ثُمَّ يوجد أمرٌ آخرُ يساعد الصحابة علىٰ حفظ كلامه ﷺ، وهو قِلَّة كلامه ﷺ في المجالس، حيث كان يتكلَّم بكلامٍ معدودٍ لو شاء أن يحصيه العادُّ لأحصاه، وذلك أنه أوتي جوامعَ الكلام، واختُصِر له الكلامُ اختصارًا.

وكان ﷺ يُقَلِّل الكلام ليجد موقعًا أعظم في قلوب سامعيه؛ لأنَّ الكلام إذا قلَّ حرِص السامعُ علىٰ التقاطه، بخلاف ما إذا كثُر، فإنَّ الكلام إذا كثُر يُنسِي آخرُه أوّلَه، وكان عُرضةً للسَّقَط والزَّلَل والخطأ.

***

(صحيح) **١٩٢ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه **قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعِيدُ الكَلِمَةَ ثَلَاثًا لِتُعْقَلَ عَنْهُ»**(١).

شرح الحديث

يعني: كان ﷺ يُعيدُ الكلمةَ التي يُحْتَاج إليها في سياق الكلام ثلاثَ مرَّاتٍ، وإلا فلم يكن هديُه ﷺ أن يُكرِّر كل كلامِه ثلاثَ مرَّاتٍ، فإنَّ ذلك لم يَثبُت فيما

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٤٠)، وقال: «حسن صحيح غريب».

روي عنه من سُنَّته ﷺ، وإنما ثبت التكرار في بعض الأحاديث، بل إنه كان يُكرّر أكثرَ من ثلاثٍ إذا احتيج إلىٰ ذلك؛ فعَنْ أَبِي بَكْرَة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟**» ثَلاثًا، قَالُوا: بَلَىٰ، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ**»، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: «**أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ**»، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ(١).

ومِمَّا ورد من تكراره العبارة ثلاثًا: عَنْ عَبْدِ اللهِ المُزَنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ رَكْعَتَيْنِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ رَكْعَتَيْنِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ رَكْعَتَيْنِ لِمَنْ شَاءَ**»، خَشْيَةَ أَن يَتَّخِذَهَا النَّاسُ سُنَّةً(٢).

والتكرارُ ثلاثًا عند الحاجة من بدائع الأساليب النبوية في التعليم؛ وذلك ليثبُتَ عند السامع أهميّةُ ما يكرِّره النبيُّ ﷺ، ولا يزال المُربُّون والمعلِّمون يغترفون من تلك الأساليب في التعليم إلىٰ اليوم.

وهذا الحديث رواه أنسُ بن مالك رضي الله عنه، والحديث الذي قبله رَوَتْه عائشةُ رضي الله عنها، وأنسٌ وعائشةُ كلاهما مِن أقرب الناس للنبي ﷺ، وأعلمهم بأحواله؛ فالأول خادمُه، والثانية زوجتُه، فإخبارُهما عن طريقة كلامه وحديثه ﷺ هو إخبارٌ من الخبير العارف.

ومِن لطيف كلام الإمام ابن القيِّم رحمه الله في هذا الباب قوله: «كان ﷺ أفصحَ خلق الله، وأعذبهم كلامًا، وأسرعَهم أداءً، وأحلاهم منطقًا، حتىٰ إنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٥٥٢)، والدارقطني في سننه (١٠٤٢).

كلامه ليأخُذ بمجامعِ القلوب، ويَسْبي الأرواح، ويشهد له بذلك أعداؤه، وكان إذا تكلَّم تكلَّم بكلامٍ مُفَصَّل مُبَيَّنٍ يَعُدُّهُ العادُّ، ليس بِهَذٍّ مُسْرعٍ لا يُحْفَظ، ولا منقطعٍ تخلَّله السكتات بين أفراد الكلام، بل هديُه فيه أكملُ الهدي، قالت عائشةُ رضي الله عنها: «**مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْرُدُ سَرْدَكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ بَيِّنٍ فَصْلٍ يَحْفَظُهُ مَن جَلَسَ إِلَيْهِ**»، وكان كثيرًا ما يُعِيد الكلامَ ثلاثًا ليُعْقَل عنه، وكان إذا سلَّم سلَّم ثلاثًا، وكان طويل السكوت لا يتكلَّم في غير حاجةٍ، يفتتِحُ الكلام ويختتِمُه بأشْداقه، ويتكلَّم بجوامِعِ الكلام، فصلٌ لا فُضُولٌ ولا تقصيرٌ، وكان لا يتكلَّم فيما لا يعنيه، ولا يتكلَّم إلا فيما يرجو ثوابَه، وإذا كرِه الشيءَ عُرِفَ في وجهه، ولم يكن فاحشًا ولا مُتَفَحِّشًا ولا صخَّابًا»[1].

فلم يُعْرَف عنه ﷺ أنه تكلَّم بكلامٍ فاحشٍ أو تلفَّظ بألفاظٍ نابيةٍ، عَنْ أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «**خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، وَاللهِ مَا قَالَ لِي: أُفًّا قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا؟**»[2].

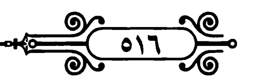
وهكذا إذا أردت أن تعرف خُلُقَ رجُلٍ فانظر كيفية تعامله في بيته؛ مع زوجه، وأولاده، وخَدَمِه، فإن الرجُل قد يتصنَّع حُسنَ الخلق مع ضيوفِه، ومع أصدقائه، وإنما يظهر الخُلُق غير المتكلَّف داخل البيت.

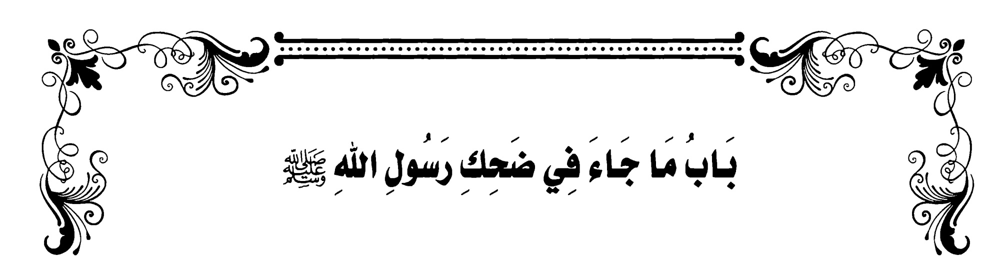
** ** **

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٧٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٠٩).





بَابُ مَا جَاءَ فِي ضَحِكِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

هذا البابُ فيه انبساطٌ وارتياحُ فؤادٍ وتبسُّمُ شِفَاهٍ في صُحْبَةِ ضَحِك وتَبَسُّم رسول الله ﷺ، وليس هذا الباب فقط، وإنما كل أبواب السيرة النبوية، وكلُّ مقامٍ يُذكر فيه رسول الله ﷺ فهو موضع انبساطٍ وسرورٍ للمؤمنين الذين تهتمُّ قلوبهم بحُبِّ رسول الله ﷺ؛ فكيف إذا كان الباب يتناوَل جوانِب من ضَحِكه وتَبَسُّمِه ﷺ!

***

(ضعيف) ١٩٣ـ عَن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنهما قال: «كَانَ فِي سَاقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حُمُوشَةٌ، وَكَانَ لَا يَضْحَكُ إِلَّا تَبَسُّمًا، فَكُنتُ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ قُلْتُ: أَكْحَلُ العَيْنَيْنِ، وَلَيْسَ بِأَكْحَلَ»(١).

شرح الحديث

في حديث جابرٍ رضي الله عنه جُمَلٌ ثلاثةٌ: أوَّلها: في وصف ساقَي رسول الله ﷺ، والثانية: في وصف ضَحِكه، والثالثة: في وصف عينيه ﷺ.

(١) أخرجه أحمد (٢٠٩١٧)، والترمذي (٣٦٤٥)، وقال: «حسن غريب»، وضعَّفه الألباني بعنعنة حجاج بن أرطاة.

والحديث ضعيفٌ سَندًا، ولكن موضِعَ الشاهِد فيه صَحَّ مِن وجوه أُخَر سيأتي ذِكرُها.

قول جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**كَانَ فِي سَاقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حُمُوشَةٌ**»؛ يعني: كان فيها دِقَةٌ، أي: ليست كبيرة الحجم.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**وَكَانَ لَا يَضْحَكُ إِلَّا تَبَسُّمًا**»؛ التَّبَسُّم: انفِراج الشَّفَتين انفراجًا يُشعِر بالسرور وارتياح الفؤاد، وأمَّا الضَّحك فهو فوق ذلك درجةً، يَصحَبه صوتٌ يخرج معه النَفَس، فإذا زاد في الضحك درجةً أخرىٰ وكان صوتُ الضحك مرتفعًا أصبح قَهْقَهةً.

يعني: لم يكن ضَحِك النبي ﷺ سِوىٰ تَبَسُّمٍ، ولا يصل إلىٰ درجة الضَحِك والقَهقَهَة، فإذا مرَّ في حديثٍ عن أحدٍ من الصحابة أنَّ النبي ﷺ قد ضحك في مجلسٍ ما؛ فإنَّما يقصد أنه تبسَّم.

وهذا موضع الشاهد من الحديث للباب، والحديثُ وإن كان ضعيف السند إلا أنَّ له شواهدَ أخرىٰ صحيحةً في الصحيحين وغيرهما؛ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: «**مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَاحِكًا حَتَّىٰ أَرَىٰ مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ**»(١)، واللَّهاةُ: قطعةُ اللحم المتدلِّيَة من أقصىٰ سَقف الحَلق في الفَم، وتقصد رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أنَّها ما رأت النبيَّ ﷺ يضحك ضحكًا شديدًا ينفتح منه فمُه ﷺ وتظهر لهاتُه للناظر إليه؛ فهي تنفي الضحكَ الشديدَ، وتثبت له الضحكَ المعتدِلَ الذي هو أعلىٰ درجات التبسُّم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٨)، ومسلم (٨٩٩).

وسيأتي أنه ربما ضَحِك وصدَرَ مع ضحكه صوتٌ؛ فالمقصود أنَّ عامَّةَ ضحِكه كان التبسُّمَ، وهو ما يتوافق مع التوسُّط والاعتدال الذي طُبِع عليه ﷺ في شأنه كله، فكان في ضَحِكه مُعتَدِلًا مُتوسِطًا، كما كان في مشيته مُعتدِلًا مُتوسِطًا، وفي عِيشته معتدِلًا متوسطًا، وفي كل شأنٍ من شؤونه علىٰ الهَدي القَصْد والتَّوَسُّط والاعتدال.

وفي ضحكه وتبسُّمه ﷺ إثباتٌ لبشريَّته ﷺ، فإنه يمرُّ عليه ما يمُرُّ علىٰ الإنسان من أحوالٍ نفسيَّة؛ فكان يحزَن، ويضحك، ويغضب، ويبكي، فلم يكن ﷺ مَلَكًا، ولكن كان بشرًا رسولًا، يصدر منه طباع البشر، ولكن علىٰ النحو الأكمل.

فإنَّ التَبَسُّم والضحك حاجةٌ وطبيعةٌ بشريةٌ، ومتىٰ ما وجدتَ إنسانًا مُتجهِّمًا عَبوسًا مُقطِّب الجبين علىٰ الدوام حتىٰ في المواقف التي تستدعي التبسُّم والضحك؛ فاعلم أنه مُتكَلِّفٌ هذا العَبوسَ والتجهُّم، أو أنَّ به عِلَّةً ومرضًا، فإنَّ طبيعةَ الإنسانَ السَّويَّ أنَّ يضحك ويتبسَّم إذا استدعىٰ الموقفُ الضحكَ والتبسُّمَ، كما أنه يبكي إذا استدعىٰ الموقفُ البكاءَ.

وقد يتفاوت الناسُ في الضحِكِ والتبسُّم بحسب طبيعتهم وحياتهم؛ أمَّا الطبيعة فلا يمكن للإنسان أن يتحكَّم فيها كثيرًا، وأما المواقف التي تدعو إلىٰ الضحك والتبسُّم في الحياة فهي التي يمكن للإنسان أن يتحكَّم فيها؛ فقد تجد شخصًا كثيرَ الضحك والتبسُّم، وآخر قليلَهما، وثالثٌ متوسطٌ معتدلٌ فيهما.

ولقد كان المأثور الثابت عنه ﷺ في هذا الباب هو التَوَسُّط، فإنه لم يكن يُرىٰ ضاحِكًا علىٰ الدوام ﷺ، كما أنه لم يكن يُرىٰ مُتجهِّمًا ولا عَبوسًا، بل ما

رؤيَ قَطُّ ﷺ مُقَطِّب الجبين، ومجلسُه مع أصحابه ما كان يغلب عليه الضَّحكُ والخروجُ عن حدِّ الوقار والجِدِّ، ولا كان مجلسًا فيه وَحشةٌ وانقِباضٌ.

وهذا التبسُّم والضحكُ لا ينافي الهيبةَ والجلالَ والوقارَ في شيءٍ؛ فإنَّه كان يملك من الهيبة والوقار ما يحترمه الناس لأجله ويهابونه.

قوله رضي الله عنه: «فَكُنتُ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ قُلْتُ: أَكْحَلُ العَيْنَيْنِ، وَلَيْسَ بِأَكْحَلَ»؛ أي: يتراءى للناظر إليه أنه قد اكتَحلَ في عينيه، وليس كذلك، وإنما ذلك مِن أصل خِلقته ﷺ، حيث كان في مَنبت شعرِ رِمشِه سوادٌ يظنُّه الناظرُ لأجله مكتحِلًا.

وهذا سِمةٌ مِن سِمات الجَمال عند العرب؛ أن يُقال: أكحَل العينين، دون اكتحالٍ، وإنما خلقته وطبيعته هكذا.

*** لفتة إيمانية:**

كلُّ إنسان يحمل في قلبه شيئًا من الهموم؛ مثل هَمِّ تربية الأولاد، والعناية بالأسرة، وواجبات الوظيفة، وما يجب عليه من سدادِ ديون ومستلزمات الحياة ونحو ذلك.

وقد يكون همُّ الإنسان أرقىٰ مِن ذلك، فيكون همُّه نشرَ هذا الدِّين، وتعليمَ أبناء الأمَّة أحكامَ الشريعة، ودعوةَ الناس إلىٰ الهدىٰ والفلاح.

ومع ذلك فإنَّ وجودَ الهموم لا تُنافي الضحك والتبسُّم في مقامهما، فإنَّ صاحبَ أكبرِ الهموم هو النبي ﷺ، وقد أُمِر بتبليغ الدين لجميع العالمين، بقوله

سبحانه: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، فأيُّ همٍّ يحمله إنسانٌ يفوق همَّ النبيِّ ﷺ؟

ومع هذا الهمِّ لا تجِدُه قلِقًا، أو متوتِّرًا، أو منفعِلًا، أو ضيِّقَ الصدر، ولا ساءت أخلاقُه بسبب ما يجب عليه من واجبات، وما يحمله من هموم، بل لا يُرىٰ ﷺ إلا متبسِّمًا.

بعكس ما يوجد من بعض الناس الذين إذا حملوا همًّا من الهموم توتَّروا وانفعلوا، وساءت أخلاقُهم، وانزَوَوْا وانعزلوا، وطالَبوا الناس من حولهم بتحمُّلِ ما هم فيه بسبب همومهم.

وللناس جميعًا أسوةٌ في النبي ﷺ في هذا الشأن، الذي علَّم أمَّته وربَّاهم علىٰ أنَّ مَن حمل همًّا ـ خاصَّةً من حَمَل همَّ الدعوة والهداية ـ فعليه أن يُرسِل رسالةَ ملاطفةٍ لِمَن حوله ولِمَن يدعوهم؛ بالابتسامة المستمرَّة، التي هي رسالةُ حُبٍّ ووُدٍّ، يقرأها كلُّ من يرىٰ تلك الابتسامة.

تلك الابتسامةُ التي هي مفتاح القلوب، حيث تجعل المبتسِمَ يدخل قلبَ الناظرين من غير استئذانٍ، دون كلامٍ، ودون تكلُّفِ دينارٍ أو درهمٍ؛ فإذا وَعظَ سُمِع قولُه، وإذا شَفعَ قُبِلَت شفاعتُه.

ومَن كان عَبوسًا مقطِّب الجبين انصرف الناسُ عنه، ولم يستلطفوه، وإذا وَعظَ لم يُسْمَع، وإذا شَفعَ لم يُقبَل.

***

(صحيح) ١٩٤ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ»(١).

(صحيح) وَمِن طَرِيقٍ أُخْرَىٰ عَنْهُ رضي الله عنه قَالَ: «مَا كَانَ ضَحِكُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا تَبَسُّمًا»(٢).

شرح الحديث

قول عبد الله بن الحارث رضي الله عنه: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ»؛ أي: كان ﷺ من أكثر الناس تبسُّمًا.

قوله رضي الله عنه: «مَا كَانَ ضَحِكُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا تَبَسُّمًا»، المقصود به أنَّ عامَّةَ هدي النبي ﷺ هو الاكتفاء بالتبسُّم دون الضحك، وهذا لا ينفي الضحك مطلقًا؛ لأنَّ الضحكَ قد ثبت عنه بطُرقٍ صحيحةٍ أخرىٰ.

***

(صحيح) ١٩٥ـ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ أَوَّلَ رَجُلٍ يَدْخُلُ الجَنَّةَ، وَآخِرَ رَجُلٍ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ؛ يُؤْتَىٰ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَيُخَبَّأُ عَنْهُ كِبَارُهَا، فَيُقَالُ لَهُ: عَمِلْتَ كَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، وَهُوَ مُقِرٌّ لَا يُنكِرُ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِن كِبَارِهَا، فَيُقَالُ: أَعْطُوهُ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: إِنَّ لِي ذُنُوبًا لَا أَرَاهَا هَهُنَا، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٠٤)، والترمذي (٣٦٤١)، وقال: «غريب».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٤٢)، وقال: «صحيح غريب».

ضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ»(١).

شرح الحديث

قوله ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ أَوَّلَ رَجُلٍ يَدْخُلُ الجَنَّةَ**»؛ يقصد نفسَه ﷺ، إذ هو أوّل من يستفتح الجنّةَ، وأوّل من يدخلها.

وإنما ذَكرَ معرفتَه بأوّل رجُلٍ يدخل الجنة بهذا الأسلوب؛ مشاكلةً لما بعده من معرفته بآخر رجلٍ يدخل الجنَّة.

قوله ﷺ: «**وَآخَرَ رَجُلٍ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ**»؛ أي: إني لأعلم آخِرَ رجُلٍ يخرج من النار، وآخِرُ رجُلٍ يخرج من النار هو آخِرُ رجُلٍ يدخل الجنة، فجمع ﷺ في هذا الحديث بين أوّلِ داخلٍ إلىٰ الجنةِ وآخِر داخلٍ إليها.

قوله ﷺ: «**يُؤْتَىٰ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»؛ يقصد به: آخِر رجُلٍ خرج من النار.

قوله ﷺ: «**فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَيُخَبَّأُ عَنْهُ كِبَارُهَا**»، يأمر الله ﷻ ملائكته الكرام ـ عليهم السلام ـ أن يعرضوا علىٰ هذا الرجُل ذنوبَه الصِّغار، ولا تُعرض عليه ذنوبه الكِبَار.

قوله ﷺ: «**فَيُقَالُ لَهُ: عَمِلْتَ كَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا**»، من باب تقرير العبد بذنوبه.

وفيه أنَّه يُعرض عليه ذنبُه مقترنًا بزمن عمل الذنب.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٣٩٣).

قوله ﷺ: «وَهُوَ مُقِرٌّ لَا يُنكِرُ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِن كِبَارِهَا»، لا يُنكِر ذنوبه الصغيرة التي عُرِضَت عليه ويُقِرُّ بها، ولكنَّ ذِهنَه يستعرِضُ ذنوبَه الكبيرة التي لم تُعرض بعد، وهو يخاف أن يحاسَب عليها، كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

ومما يجب علىٰ المؤمن في الإيمان باليوم الآخر أن يؤمِن بهذا الموقف، الذي سيُعرَض فيه علىٰ كلِّ شخصٍ عملُه، صغيرُه وكبيرُه.

قوله ﷺ: «فَيُقَالُ: أَعْطُوهُ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً»، وهذا من فضل الله ونعمته ورحمته بعباده، فإنَّه ما أخرجه من النار إلا بعد أن طهَّره من ذنوبه، ولا يمكن لأحد أن يدخل الجنة مصطحبًا ذنوبَه وسيئاتِه معه؛ فأبدله الله سيئاتِه حسنات.

ومصداقُ ذلك ما ورد في سورة الفرقان بعدما ذكر الله ﷻ الكبائرَ والذنوبَ العِظام ذكر أنها تُبدَّل حسناتٍ لمن تاب، فقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٦٧ ـ ٧٠].

قوله ﷺ: «فَيَقُولُ: إِنَّ لِي ذُنُوبًا لَا أَرَاهَا هَهُنَا»، كان يظنُّ أن الموقفَ موقفَ حسابٍ، فتفاجأ الرجلُ بتبديل سيئاته حسناتٍ، فطمِعَ بكرم الله سبحانه وعَفوه، فذكر أنَّه يعرفُ ذنوبًا أخرىٰ قد عمِلها في الدنيا ولم تُقرّره عليها الملائكة، أراد إثباتها ليعوَّض بدلَها حسناتٍ!!

كان حالُه حالَ خوفٍ وقلقٍ وهلعٍ، فانقلبت حالُه إلىٰ ما جُبِل عليه ابنُ آدم من حرصٍ وطَمعٍ، لم تتغيّر هذه الجِبِلَّة بل بقيت معه حتىٰ وهو أمام الله سبحانه وتعالىٰ؛ فكان ذلك سببًا لضحكه ﷺ حتىٰ بدت نواجِذُه.

وقد أخبر ﷺ في هذا الحديث عن أمرِ غَيبٍ، والمؤمن يؤمن بأخبار الغيب التي يخبر بها نبيُّه ﷺ، كأنه يراها واقعةً أمام بصره يراها بأمّ عَينه، وإنما يحمله علىٰ هذا اليقين إيمانُه بأنه ﷺ نبيٌّ كريمٌ صَدوقٌ، لا يُخبر بشيءٍ إلا وهو واقعٌ لا محالةَ.

قوله رضي الله عنه: «**فَلَقَدْ رأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ**»؛ النواجِذُ: آخرُ الأضراس في الفم.

في هذا إثبات ضحكه ﷺ الذي يتجاوز التبسُّم؛ لأنَّ النواجِذَ آخرُ الأضراس في الفم، ولا يمكن أن تظهر إلا إذا انفتح الفمُ إلىٰ أقصىٰ درجات الانفتاح.

وليس المقصود هنا أنَّ النبي ﷺ قد فتح فمَه في الضحك حتىٰ ظهر آخرُ الأضراس، ولكن هذا أسلوبٌ عربيٌّ، إذا أرادت العربُ المبالغةَ في وصف الضحك قالوا: «ضَحِك حتىٰ بَدَت نواجِذُه».

فهذا الحديث يثبت ضَحِك النبي ﷺ ضَحِكًا شديدًا فوق التبسُّم.

***

(صحيح) ١٩٦ـ عَن جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «مَا حَجَبَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلَا رَآنِي إِلَّا ضَحِكَ»(١)، وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَّا تَبَسَّمَ»(٢).

شرح الحديث

قول جرير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **«مَا حَجَبَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ»**؛ المقصود بالحِجاب هنا: منعُ الصحابة مِن دخول بيت الرسول ﷺ، ومنه سُمِّي العامل الذي يقف علىٰ الباب ويمنع الناس من الدخول: حاجِبًا.

وصف جريرٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شيئًا خاصًّا به، وهو أنَّه لم يُمْنَع يومًا من الدخول علىٰ النبي ﷺ.

قول جرير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **«وَلَا رَآنِي إِلَّا ضَحِكَ»**، وَفِي رِوَايَةٍ: **«إِلَّا تَبَسَّمَ»**، يصِفُ جريرٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حُسنَ تعامُل النبي ﷺ معه، وهو أنَّه ما كان يراه إلا ويضحك ويتبسَّم في وجهه، وهذا التبسُّم والضحكُ قد أثَّر في نفس جريرٍ، فحكاه مبيِّنًا تلك المودَّة الكبيرة التي كان يراها من النبي ﷺ.

في هذا الحديث روايتان مختلفتان عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فيها شاهِدٌ لِما نحن فيه مما جاء في ضحك رسول الله ﷺ؛ فإنَّ إحدىٰ الروايتين تُفَسِّر الأخرىٰ، فدلت الروايتان علىٰ أنه ﷺ ما كان ضحكه إلا تبسمًّا.

***

(١) أخرجه البخاري (٣٨٢٢)، ومسلم (٢٤٧٥).

(٢) أخرجها البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (٢٤٧٥).

(صحيح) ١٩٧ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا؛ رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنْهَا زَحْفًا، فَيُقَالُ لَهُ: انطَلِقْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، قَالَ: فَيَذْهَبُ لِيَدْخُلَ الجَنَّةَ، فَيَجِدُ النَّاسَ قَدْ أَخَذُوا المَنَازِلَ، فَيَرْجِعُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ أَخَذَ النَّاسُ المَنَازِلَ، فَيُقَالُ لَهُ: أَتَذْكُرُ الزَّمَانَ الَّذِي كُنتَ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، قَالَ: فَيُقَالُ لَهُ: تَمَنَّ، قَالَ: فَيَتَمَنَّىٰ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ الَّذِي تَمَنَّيْتَ، وَعَشَرَةَ أَضْعَافِ الدُّنْيَا، قال: فَيَقُولُ: أَتَسْخَرُ بِي وَأَنتَ المَلِكُ؟»، قَالَ: «فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ»(١).

شرح الحديث

الحديث فيه وصفٌ لمشهدٍ من مشاهد اليوم الآخِر مما هو مِن علم الغيب.

قوله ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا»، وآخرُ مَن يخرج مِن النار هو آخرُ مَن يدخل الجنةَ مِن أمة التوحيد ممّن لم يلقَ الله مشركًا، لكنَّ ذنوبَه ومعاصيَه وسيئاته كانت سببًا في دخوله النار، فيمكث في النار ما شاء الله أن يمكث عقابًا علىٰ ما اقترف وجَنَىٰ علىٰ نفسه في هذه الدنيا، وربُّك لا يظلم أحدًا، ثم يأذن الله له بالخروج بسبب التوحيد الذي في قلبه.

قوله ﷺ: «فَيَذْهَبُ لِيَدْخُلَ الجَنَّةَ، فَيَجِدُ النَّاسَ قَدْ أَخَذُوا المَنَازِلَ»؛ يعني: يجد أصحابَ الجنَّة الذين سبقوه، كلٌّ قد أخذ منزله وتنعَّم بنعيمه الذي كتب الله له.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٦).

قوله ﷺ: «فَيَرْجِعُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ أَخَذَ النَّاسُ المَنَازِلَ»؛ أي: لم يبقَ لي في الجنة شيءٌ؛ فإنَّها قد قُسِّمت بين أهل الجنة وأخذ كلٌّ منهم نصيبَه.

قوله ﷺ: «فَيُقَالُ لَهُ: أَتَذْكُرُ الزَّمَانَ الَّذِي كُنتَ فِيهِ؟»؛ يعني: الدنيا وعَيْشَها وما كان يشهده فيها.

قوله ﷺ: «فَيُقَالُ لَهُ: تَمَنَّ، قَالَ: فَيَتَمَنَّىٰ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ الَّذِي تَمَنَّيْتَ»، لقد طوىٰ الحديثُ هذه الأُمنِيَات فلم يذكرها، ولكنه تمنَّىٰ ما يُعرَف في الدنيا من قصورٍ ومراكبَ ونحو ذلك مما يراه ويعرفه أهل الدنيا، ومما جُبِل عليه الإنسان من الحرص والطمع والشُّحّ.

ثم إنه قد خرج من النار ـ والعياذُ بالله ـ فلا شكَّ أنه سيتمنَّىٰ ما يُنسيه ذلك العذابَ والشقاءَ.

قول ابن مسعود رضي الله عنه: «فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ»، وهذا ضحكُ تعجُّبٍ وإقرارٍ؛ تعجُّبًا من هذا العبد الذي انقلب من حال القلَق والهَلَع إلىٰ حال الحرص والطَمَع، وذلك شأنُ ابن آدم!

***

(صحيح) ١٩٨ ـ **عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ: شهِدتُ عليًّا أُتِيَ بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ قَالَ: بِسْمِ اللهِ، فَلَمَّا اسْتَوَىٰ عَلَىٰ ظَهْرِهَا قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، ثُمَّ قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ (ثَلَاثًا)، وَاللهُ أَكْبَرُ (ثَلَاثًا)، سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنتَ، ثُمَّ ضَحِكَ، فَقُلْتُ لَهُ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ، يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ**

رَسُولَ اللهِ ﷺ صَنَعَ كَمَا صَنَعْتُ، ثُمَّ ضَحِكَ، فَقُلْتُ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ، يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي؛ إِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرُكَ»(١).

شرح الحديث

قول ابن أبي ربيعة: «فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ»؛ الرِّكاب: ما يُعلَّق في السَّرج فيضع الراكبُ فيه قدمَه ليصعَد فوق ظهر الدابَّة.

قول علي رضي الله عنه: «الحَمْدُ لِلَّهِ، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، ثُمَّ قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ ثَلَاثًا، وَاللهُ أَكْبَرُ ثَلَاثًا، سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنتَ»، دعا بدعاء ركوب الدابَّة.

قول ابن أبي ربيعة: «ثُمَّ ضَحِكَ، فَقُلْتُ لَهُ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ»، ضحكَ عليٌّ من شيءٍ لا يظهر فيه ما يدعو إلىٰ الضَّحِك، فتعجَّب ابنُ أبي ربيعة وسأله عن سبب ضحكه.

قول علي رضي الله عنه: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَنَعَ كَمَا صَنَعْتُ، ثُمَّ ضَحِكَ»، فيه ما تكرَّر مرارًا في الأحاديث السابقة، وهو توطين الصحابة أنفسَهم علىٰ مبدأٍ عظيمٍ، يتعلَّم به كلُّ من يراهم من التابعين ومَن يسمع ذلك ويقرأ من المسلمين، وهذا المبدأُ العظيمُ هو التصرُّف كما تصرَّف النبي ﷺ في كل شيءٍ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٤٦)، والنسائي في الكبرىٰ (٨٧٤٨)، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

فيا ـ أيها المسلم ـ كم مرّةً حرصت علىٰ أن تكون شؤونُ حياتك مطابقةً لحياة النبي ﷺ؛ في العبادات، والتعامُل مع الزوجات، وتربية الأولاد، وفي البيع والشراء في السوق، وفي الخُصومة والجِدال عند القاضي، وفي علاقاتك بجيرانك وأقاربك والناس من حولك! أم أنَّك تسير في هذه الأمور علىٰ ما يوافق طبائعك ورغباتك!

قوله ﷺ: «إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي؛ إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرُكَ»، فضحك النبي ﷺ في هذا المقام كان ضحكَ تعجُّبٍ للإقرار.

وهذا لونٌ من ألوان تَبَسُّمِه وضَحِكه ﷺ؛ فقد يضحكُ لموقفٍ طريفٍ، وقد يضحكُ للدلالة علىٰ إقرارِ قولٍ أو فعلٍ يقع بحضرته ﷺ.

ومن ضحكه الدالِّ علىٰ الإقرار غيرِ هذا الحديث: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَوْ يَا أَبَا القَاسِمِ، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا المَلِكُ، **فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَعَجُّبًا مِمَّا قَالَ الحَبْرُ، تَصْدِيقًا لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]»(١)، فضحكُه ﷺ ههنا ضحكُ تعجُّبٍ وإقرارٍ وتصديقٍ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٦).

*** لفتة إيمانية:**

ما الموقف الذي أقرَّه ﷺ في حديث عليٍّ رضي الله عنه وضحك له تعجبًا من رِفعة شأنه؟ وما حظُّ المسلم مِن هذا الموقف؟

لقد تعجَّب ﷺ وأقرَّ اليقينَ الذي يقوم في قلب العبد من معرفة أنَّ ربَّه غفورٌ رحيمٌ، وأنه مهما بلغت ذنوبُه ومعاصيه فإنَّ ربَّه حليمٌ كريمٌ، رءوفٌ رحيمٌ، غفورٌ وَدودٌ، وهذا اليقين مما يتقرَّب به العبدُ إلىٰ الله، وهو مِن الأعمال القلبية، فإذا أضيف إليه الاستغفارُ باللسان كان عملًا بالجوارح مع اليقين القلبيّ، وهما كافيان لنيل مغفرة الله وتوبته؛ فإنَّ الله عز وجل لا يُبالي مهما بَلَغت ذنوبُ العباد أن يغفرها وأن يتوب عليهم.

فعلىٰ المسلم أن يملأ قلبَه بهذا اليقين، فإنه لو امتلأ قلبُه يقينًا بمغفرة الله وعفوه لنالَ خيرًا عظيمًا، ومن الأحاديث الدالَّة علىٰ هذا المعنىٰ أيضًا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنبًا ـ وَرُبَّمَا قَالَ: أَذْنَبَ ذَنبًا ـ فَقَالَ: رَبِّ، أَذْنَبْتُ ـ وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ ـ فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنبًا أَوْ أَذْنَبَ ذَنبًا، فَقَالَ: رَبِّ، أَذْنَبْتُ ـ أَوْ أَصَبْتُ ـ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ؟ فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنبًا ـ وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنبًا ـ، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ ـ أَوْ قَالَ: أَذْنَبْتُ ـ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧).

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَرْوِيهِ عَن رَبِّهِ، قَالَ: «**ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ فِيكَ، ابْنَ آدَمَ، إِن تَلْقَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا لَقِيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً بَعْدَ أَن لا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إِنْ تُذْنِبْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ذَنْبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَسْتَغْفِرُنِي أَغْفِرْ لَكَ وَلا أُبَالِي**»(١).

هذا اليقينُ يحتاجه المسلمُ الصالحُ التقيُّ، ويحتاجه الفاسقُ العاصي، فإنَّ المسلم إذا أذنب ذنبًا ينبغي عليه أن يعلم أن الله غفورٌ رحيمٌ، فلا يُحبطه الشيطان، ولا يقعدُ به في خَندقِ اليأس والعَجز والقُنوط.

***

*** وفي ختام الباب:**

نسرد بعض الأحاديث التي فيها ضحكُ النبيُّ ﷺ غير ما ذكره المؤلف، ليُعلم أنَّ النبيَّ المعصومَ الذي أُوحِي إليه من فوق سبعِ سمواتٍ كان يتعامل مع البشر في أكمل مراتب الأخلاق والخصال الإنسانية؛ فقد كان يضحك مع نسائه وأهل بيته، ومع أصحابه، ومع الزائرين والوفود والأعراب، بعيدًا عن التكلُّفِ.

بعكس ما قد يكون من بعض أصحاب الجاه والمناصب والرئاسات، مِمَّن يَظُن أنَّه إذا تبسَّط وضحك مع الناس أنَّه ستضيع هيبتُه، وينقصُ احترامُه، ويرفعُ حِجابَ الوقارِ بينه وبين العامَّة، فلا يضحك إلا بحضرة المقرَّبين والخواصّ.

(١) أخرجه أحمد (٢١٤٧٢)، والترمذي (٣٥٤٠)، وقال: «حسن غريب».

وهذا مخالفٌ للهدي النبويِّ الذي كان فيه ضحكُ النبي ﷺ وتبسُّمه قائمًا علىٰ التبسُّط وعدم التكلُّف؛ فمتىٰ وُجِدَ داعي الضحكِ ضحِكَ، سواءٌ كان في حضرة العوامِّ أو المقرَّبين.

فمن هذه الأحاديث: ما أخرجه أبو داود بسندٍ صحيحٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ أَوْ خَيْبَرَ، وَفِي سَهْوَتِهَا سِتْرٌ، فَهَبَّتْ رِيحٌ، فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَن بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ لُعَبٍ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا، يَا عَائِشَةُ؟**»، قَالَتْ: بَنَاتِي، وَرَأَىٰ بَيْنَهُنَّ فَرَسًا لَهُ جَنَاحَانِ مِن رِقَاعٍ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا الَّذِي أَرَىٰ وَسْطَهُنَّ؟**»، قَالَتْ: فَرَسٌ، قَالَ: «**وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟**»، قَالَتْ: جَنَاحَانِ، قَالَ: «**فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟**»، قَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسُلَيْمَانَ خَيْلًا لَهَا أَجْنِحَةٌ؟ قَالَتْ: **فَضَحِكَ حَتَّىٰ رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ**[1].

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «وَفِي سَهْوَتِهَا سِتْرٌ»، السَّهْوَةُ: الرَّفُّ الذي يكون في الجدار؛ أي: هذا الرَّفُّ عليه سِتَارٌ.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَن بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ لُعَبٍ»؛ أي: كانت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قد اتخذت ألعابًا تلعب بها علىٰ هيئةِ بناتٍ؛ فإنها إذ ذاك كانت جاريةً صغيرةً، حيث إنَّه ﷺ قد توفي عنها وعمرُها ثماني عشرةَ سنةً، وهذه القصة قد حصلت قبل ذلك بسنواتٍ، فعُمرُها آنذاك لم يتجاوز الرابعةَ عشرةَ، أو الخامسةَ عشرةَ.

أي: عندما هبَّت الريحُ انكشف الستارُ، وظهرت تلك الدُّمَىٰ واللُّعب التي كانت تلعب بها عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٣٢).

قولها ﵂: «**وَرَأَىٰ بَيْنَهُنَّ فَرَسًا لَهُ جَنَاحَانِ مِن رِقَاعٍ**»، رأىٰ ﷺ بين اللُّعب دُمْيَةً علىٰ هيئةِ فَرَسٍ، له جناحان.

قولها ﵂: «أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسُلَيْمَانَ خَيْلًا لَهَا أَجْنِحَةٌ؟ قَالَتْ: **فَضَحِكَ حَتَّىٰ رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ**»؛ ضحك ﷺ تعجُّبًا من فِطنة عائشة ﵂ وسرعة بديهتها واستحضارها للجواب، وأنها ما عَجزت أن تجد جوابًا، فإنها أقرَّت بأنَّ الخيولَ ليس لها أجنحة، ولكن سليمان ﵇ قد أوتي من المعجزات ومن تسخير خلق الله ﷻ له ما لم يكن لأحدٍ مثلُه، كما قال سبحانه عنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٦-٣٨].

فهذا موقفٌ نبويٌّ له ﷺ داخلَ بيوته، ضَحكَ فيه مع زوجته، وخُذ موقفًا آخَر أيضًا من داخل الحُجرات النبوية، وبين زوجاته ﷺ.

أخرج الإمام النسائي في السنن الكبرىٰ[1] بسندٍ حسنٍ: عَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: زَارَتْنَا سَوْدَةُ يَوْمًا، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَهَا؛ إِحْدَىٰ رِجْلَيْهِ فِي حِجْرِي، وَالأُخْرَىٰ فِي حِجْرِهَا، فَعَمِلْتُ لَهَا حَرِيرَةً، -أَوْ قَالَ: خَزِيرَةً- فَقُلْتُ: كُلِي، فَأَبَتْ فَقُلْتُ: لَتَأْكُلِي، أَوْ لَأُلَطِّخَنَّ وَجْهَكِ، فَأَبَتْ، فَأَخَذْتُ مِنَ القَصْعَةِ شَيْئًا فَلَطَّخْتُ بِهِ وَجْهَهَا، فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رِجْلَهُ مِنْ حِجْرِهَا تَسْتَقِيدُ مِنِّي، فَأَخَذَتْ مِنَ القَصْعَةِ شَيْئًا فَلَطَّخَتْ بِهِ وَجْهِي، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَضْحَكُ، فَإِذَا عُمَرُ يَقُولُ: يَا عَبْدَ اللهِ بنَ عُمرَ، يَا عَبْدَ اللهِ بنَ عُمرَ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) سنن النسائي الكبرىٰ (٨٦٨٨).

«قُومَا فَاغْسِلا وُجُوهَكُمَا، فَلا أَحْسِبُ عُمَرَ إِلَّا دَاخِلًا».

قولها ﵂: «زَارَتْنَا سَوْدَةُ يَوْمًا»، هي أولىٰ زَوجات النبيِّ ﷺ، بعد وفاة خديجة ﵂؛ فإنه ﷺ ما تزوَّج علىٰ أمِّنا خديجة بنت خويلد ﵂ امرأةً أخرىٰ حتىٰ ماتت، فلما ماتت في مكة قبل الهجرة كانت سَوْدةُ ﵂ أوَّلَ امرأةٍ تزوَّجها بعد خديجة.

قولها ﵂: «فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَهَا؛ إِحْدَىٰ رِجْلَيْهِ فِي حِجْرِي، وَالأُخْرَىٰ فِي حِجْرِهَا»، جلس بين زوجتيه، ووضع رِجله اليُمنىٰ علىٰ زوجته التي عن يمينه، ووضع رِجله الأخرىٰ علىٰ زوجته التي عن شماله.

قولها ﵂: «فَعَمِلْتُ لَهَا حَرِيرَةً، ـ أَوْ قَالَ: خَزِيرَةً ـ»: نوعٌ من الطعام.

قولها: «فَقُلْتُ: كُلِي»؛ أي: قالت عائشةُ ذلك لسَوْدة.

قولها ﵂: «فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رِجْلَهُ مِنْ حِجْرِهَا تَسْتَقِيدُ مِنِّي»؛ أي: ظلَّ واضِعًا رِجله علىٰ عائشة، ورفع رِجله التي علىٰ سَوْدة لتقوم وتأخذ حقَّها، وتفعلَ بعائشة كما فعلت عائشةُ بها، وهذا من باب التودُّدِ والملاعبة والملاطفة، لا مِن باب القصاص.

قولها ﵂: «وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَضْحَكُ»، من موقف الدُّعابة والانبساط والـمُزاح الذي حصل بين زوجاته بحضرته ﷺ.

وهذا الحديث يكشفُ عن مَعْلَمٍ عظيمٍ من معالم الحياة في بيت النبي ﷺ، فهذا النبي العظيمُ ﷺ الذي بلغ سِدرةَ المنتهىٰ لم يكن يمانع أن يجلس مع زوجاته هذا الجلوسَ الذي فيه من التبسُّطِ والتواضع ما لا يخفىٰ.

قولها: «قُومَا فَاغْسِلَا وُجُوهَكُمَا، فَلَا أَحْسِبُ عُمَرَ إِلَّا دَاخِلًا»، وكان هذا قبل أن يُفرَض الحجاب، حيث كان ولا يزال لعمر هيبتُه وحضورُه رضي الله عنه.

وفي موقفٍ آخر خارج البيوت النبوية وبعيدًا عن زوجاته ـ رضي الله عنهن ـ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَوْمًا يُحَدِّثُ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ البَادِيَةِ: «**أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ، فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَىٰ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ، قَالَ: فَبَذَرَ، فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ، فَكَانَ أَمْثَالَ الجِبَالِ، فَيَقُولُ اللهُ: دُونَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ**»، فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: وَاللهِ، لا تَجِدُهُ إِلَّا قُرَشِيًّا، أَوْ أَنْصَارِيًّا؛ فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، وَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ(١).

قوله رضي الله عنه: «**وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ البَادِيَةِ**»؛ أي: أعرابيٌّ بدويٌّ.

قوله رضي الله عنه: «**أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ**»، يحكي ﷺ عن موقفٍ في الجنة، عن رجُلٍ من أهل الجنّة يتمنّىٰ أن يحرُثَ ويزرَع.

قوله رضي الله عنه: «**فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟**»؛ يعني: ألا يكفيك النعيم الذي أنت فيه؟ وأنَّ كلَّ ما تشتهيه يأتيك؟

قوله رضي الله عنه: «**فَبَذَرَ، فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ**»، وهذا مما يكون في الجنة، أي: أنَّه بذر البذرة، فما رفع بصرَه عنها إلا وقد اكتمل النبات، وآتىٰ ثمرَه، وحان وقتُ حصادِه.

قوله رضي الله عنه: «**فَيَقُولُ اللهُ: دُونَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ**»؛ يعني:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٤٨).

مهما أوتيت من النعيم فإنك ستظل تطلُبُ غيرَه.

قوله: «**فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: وَاللهِ، لا تَجِدُهُ إِلَّا قُرَشِيًّا، أَوْ أَنْصَارِيًّا؛ فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، وَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ**»؛ أي: هذا الرجُل الذي سأل ربه الزرع في الجنة إما أن يكون قرشيًا، وإما أن يكون أنصاريًّا، لأنهم هم أهل الزراعة، وأمَّا هو ونحوه من الأعراب فإنهم لا يعتنون بالزراعة فلا يمكن أن يكون هذا السائل منهم.

فضحك النبي ﷺ من طَرافَة ما قاله الأعرابي.

وموقفٌ أخيرٌ مما حصل خارج بيوت النبي ﷺ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «**كُنتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّىٰ نَظَرْتُ إِلَىٰ صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِن شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِن مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالتَفَتَ إِلَيْهِ، فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ**»[(١)].

قوله رضي الله عنه: «**بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ**»؛ نسبة إلىٰ نَجران، بلدةٌ معروفةٌ بهذا الاسم إلىٰ اليوم.

قوله رضي الله عنه: «**غَلِيظُ الحَاشِيَةِ**»؛ أي: حاشيةُ البُرد من داخله غليظةٌ، أي: خشِنةٌ.

قوله رضي الله عنه: «**حَتَّىٰ نَظَرْتُ إِلَىٰ صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِن شِدَّةِ جَذْبَتِهِ**»؛ أي: مِن شِدَّة وقوَّة سَحْبِ هذا الأعرابيِّ للرِّداء؛ قد أثَّرت حاشيتُه في جانب عاتقه ﷺ، فجَرحَت الجِلدَ أو احمرَّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٤٩).

قوله: «**فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ، فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ**»، وهذان أمران عجيبان منه ﷺ؛ فإنَّه موقفٌ قد يستدعي الغضبَ من غيره ﷺ، بل الحليمُ مِنَّا هو الذي يُمْسِكُ نفسه عن شتمٍ أو ضربِ مَن يفعل هذا به، ولكنه ﷺ تجاوز درجةَ العفو والصفح في هذا الموقف إلىٰ ما هو أعلىٰ من ذلك، فقابله بابتسامةٍ وضحكٍ؛ وذلك أنه ﷺ قد علِم أنَّ ما حمل هذا الأعرابيَّ علىٰ هذه الفِعْلَة هي طبيعتُه التي جُبِلَ عليها من الجفوة والغِلظَة وخُشونةِ الطباع، وليس بالضرورة أن يكون ذلك من سوءُ الخُلق.

ثم الأمرُ العجيبُ الثاني هو أنَّه ﷺ أمرَ له بعطاءٍ، علىٰ ما فعله به الأعرابي، فلا يدري الإنسانُ أيعجب مِن ابتسامته وضحكه، أم من سَعَة صدره، أم من كَرمه ﷺ!

وفي هذا الحديثِ بيانٌ للدواء النبويِّ لمثل هذه المواقف؛ حيث قابل العُنف بالضحك، واحتوىٰ الموقف بابتسامةٍ منه ﷺ؛ فانقلب الأمرُ رأسًا علىٰ عقِب.

وفي هذا الحديث بيانٌ لنوعٍ آخر من ضَحِكه وتبسُّمه ﷺ، فلم يوجَد هنا باعثٌ معتادٌ يبعث علىٰ الضحك، أو للتقرير والتعجُّب، وإنما لعلاجِ ومداواةِ هذا الموقف باللُّطف والتبسُّم.

فما أحوج الإنسان أن يستعمل دواءَ الضحك والتبسُّم في خلافاته مع غيره؛ خاصَّةً في خلافاته الزوجية، ومشاكله مع أبنائه، هذا الدواء الذي يُدْفِئ القلوب، ويحتوي المواقف، ولا يجعل للشيطان سبيلًا علىٰ المتخاصمين، فليس بالضرورة أن يكون الدواءُ دائمًا عقابًا أو غَضَبًا أو هَجرًا، بل بعض

المواقف تحتاج إلىٰ الحَزم، وبعض المواقف يُكتفَىٰ فيها بالضحك والتبسُّم.

***

(ضعيف) ١٩٩ـ **عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ سَعْدٌ ﵁: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ يَوْمَ الخَندَقِ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ كَانَ ضَحِكُهُ؟ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مَعَهُ تُرْسٌ، وَكَانَ سَعْدٌ رَامِيًا، وَكَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا بِالتُّرْسِ يُغَطِّي جَبْهَتَهُ، فَنَزَعَ لَهُ سَعْدٌ بِسَهْمٍ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ رَمَاهُ، فَلَمْ يُخْطِئْ هَذِهِ مِنْهُ ـ يَعْنِي: جَبْهَتَهُ ـ، وَانقَلَبَ الرَّجُلُ وَشَالَ بِرِجْلِهِ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ: قُلْتُ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكَ؟ قَالَ: مِن فِعْلِهِ بِالرَّجُلِ»**(١).

شرح الحديث

(**قَالَ سَعْدٌ**) هو سعدُ بنُ أبي وقّاص ﵁، خالُ رسول الله ﷺ، وأحدُ العشرة المبشرين بالجنة، كان له سَبقٌ وقدمُ صدقٍ في الإسلام، وسيرتُه عَبِقةٌ، ومناقبُه زاخرةٌ بالمآثِر والمناقِب، رضي الله عنه وأرضاه.

قول سعد بن أبي وقّاص ﵁: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ يَوْمَ الخَندَقِ»، في الحديث حكايةُ قصّةٍ حدثت يوم الخندق.

«**قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ كَانَ ضَحِكُهُ؟**»: القائل هنا هو الراوي، ابنُ سعد ﵁، يسأل عن سبب ضحك النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٢٠)، وضعَّفه الألباني لجهالة راويه محمد بن محمد بن الأسود.

قول سعد بن أبي وقّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كَانَ رَجُلٌ مَعَهُ تُرْسٌ**»، الرجل من كُفَّار المشركين من قريش، الذين حاصروا المدينة يوم الخندق.

والتُّرْسُ: صفيحةٌ من حديدٍ يتَّقي بها المقاتِلُ الرَّميَ والسهام.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَكَانَ سَعْدٌ رَامِيًا**»؛ أي: سعدُ بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَكَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا بِالتُّرْسِ يُغَطِّي جَبْهَتَهُ**»؛ أي: كان الرجُل يُحرِّك التُّرْسَ يمينًا ويسارًا ليغطِّي به جَبهتَه.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَنَزَعَ لَهُ سَعْدٌ بِسَهْمٍ**»؛ أي: نزعَ سعدٌ له سهمًا من كِنانته، وجعلها في قوسه، استعدادًا لرمي هذا الرجُل.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ رَمَاهُ، فَلَمْ يُخْطِئْ هَذِهِ مِنْهُ - يَعْنِي: جَبْهَتَهُ -**»، وهذا من دِقَّة رميه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن وجد لحظةً رفع فيها المشركُ رأسَه، وانكشف عن غِطاء التُّرْس، فكانت فرصةً يصيب بها رأسَه، وما هي إلا ثانيةٌ أو أقلّ، ولكن من براعته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَانقَلَبَ الرَّجُلُ وَشَالَ بِرِجْلِهِ**»؛ أي: كان من شدَّة السهم الذي أصاب جبهتَه أنه جعله ينقلب، وارتفعت رجلُه إلىٰ أعلىٰ.

«**قُلْتُ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكَ؟ قَالَ: مِن فِعْلِهِ بِالرَّجُلِ**»؛ يعني: من عجيب ما صنع سعدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومِن دِقَّة رميِه، وحُسن قِتاله.

حديث سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا حديثٌ ضعيفٌ، لكن له شاهدٌ في موضعٍ آخر في الصحيح، ولكنه كان يوم أُحد؛ فعَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ

النَّبِيَّ ﷺ جَمَعَ لَهُ أَبَوَيْهِ يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أَحْرَقَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**»، قَالَ: فَنَزَعْتُ لَهُ بِسَهْمٍ لَيْسَ فِيهِ نَصْلٌ، فَأَصَبْتُ جَنْبَهُ فَسَقَطَ، فَانْكَشَفَتْ عَوْرَتُهُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ نَظَرْتُ إِلَىٰ نَوَاجِذِهِ(١).

قوله: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَمَعَ لَهُ أَبَوَيْهِ»؛ أي: قال له: «ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي».

قوله: «كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أَحْرَقَ الْمُسْلِمِينَ»؛ يعني: أَثْخَنَ فيهم بالقتل والإصابة.

وقد ذكر الصحابة أنَّه ﷺ لم يَجمع أبوَيْه لأحدٍ إلا لسعدٍ؛ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُفَدِّي أَحَدًا بِأَبَوَيْهِ إِلَّا سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ لَهُ يَوْمَ أُحُدٍ: «**ارْمِ سَعْدُ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**»(٢).

قوله ﷺ: «**ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**»، أمرَه بالرِّماية لأنه كان راميًا، وفدَّاه بأبيه وأمِّه حثًّا له علىٰ الرَّمي وتشجيعًا.

قوله رضي الله عنه: «فَنَزَعْتُ لَهُ بِسَهْمٍ»؛ أي: نَشِط سعدٌ رضي الله عنه واشتدَّت عزيمتُه للرَّمي.

قوله رضي الله عنه: «لَيْسَ فِيهِ نَصْلٌ»، نَصْلُ السَّهم: رأسُه المحدَّدُ الذي يخرِقُ الجسمَ ويقتُله، فإن كان السهمُ لم يُبْرَ ولم يُحدَّد يُسمَّىٰ سهمًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٢).

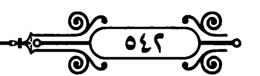
(٢) أخرجه أحمد (١٠١٧)، والترمذي (٣٧٥٥)، وصحَّحه، وابن ماجه (١٢٩).

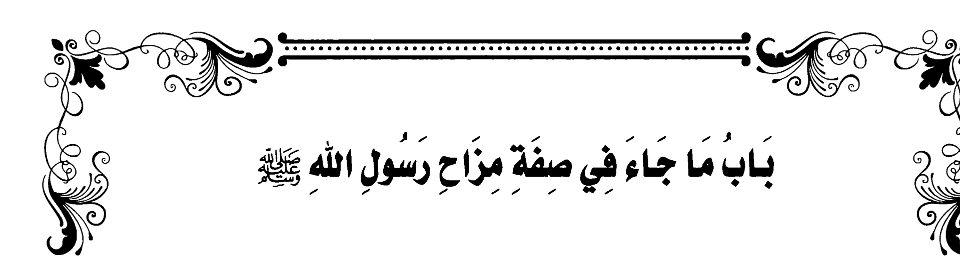
والسهمُ الذي ليس فيه نَصلٌ أضعفُ من السهم ذي النَّصل، وإصابتُه تكون غيرَ قاتلة في الغالب.

قوله ﷺ: «فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ نَظَرْتُ إِلَىٰ نَوَاجِذِهِ»، ضَحِك من حُسْنِ رمي سعد، ودقَّة إصابته، مع أنه استعمل سهمًا ليس فيه نصلٌ، وأصابه إصابةً قاتلةً.

وفي هذين الحديثين مع أحاديث الباب السابقة ما ذُكِر سابقًا مِن أنَّ التبسُّمَ والضحِكَ في المواقف المناسبة لذلك كان من طبيعة النبي ﷺ، وأنَّه ما كان يتكلَّف الهيبةَ والوقار، وأنَّ هذا التبسُّمَ والضحكَ ما كان مُقَلِّلًا من هيبة النبي ﷺ في عيون أصحابه، بل إنهم كانوا لا يستطيعون إطالةَ النظر في وجهه ﷺ من هيبته.

** ** **





بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ مِزَاحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

هذا الباب وثيقُ الصلة بالباب السابق؛ حيث إن فيه بيانَ مِزاحِ النبي ﷺ مع أصحابه، ومداعبتِه لهم، وهذا المزاحُ هو سببٌ من أسباب الضحك التي مرَّت في الباب السابق، ولأجل هذه الصِّلَة جعل الإمام الترمذي رَحِمَهُ اللهُ هذين البابين متعاقبَينِ.

والـمِزاح: بالكسر، والـمُزاح: بالضم، كلاهما صحيحٌ.

والمقصود بالمزاح معروف، وهو مستعملٌ في معناه إلىٰ اليوم، وهو مُداعبة ومُلاطفة ومُؤانسة الآخرين.

وقد يتصوَّر البعضُ أنَّ المزاح يتناقض مع الهيبة والوقار والاحترام والتقدير، وأنَّ مَن مازح غيرَه فقد خلع عنه حجاب الهيبة والاحترام، وأنَّ مَن أراد أن يكون محترمًا مُقَدَّرًا مهيبًا علىٰ الدوام فعليه أن يتجنَّب المزاح إطلاقًا.

وهذا غيرُ صحيحٍ؛ بدلالة ما في أحاديث هذا الباب من مِزاح النبي ﷺ مع أصحابه، مع كونه أعظم الناس مهابةً وحبًّا وتقديرًا في أعيُن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

***

(صحيح) **٢٠٠ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «يَا ذَا الأُذُنَيْنِ»**(١).

(١) أخرجه أحمد (١٢١٦٤)، وأبو داود (٥٠٠٢)، والترمذي (١٩٩٢).

قَالَ أَبُو أُسَامَةَ: يَعْنِي: يُمَازِحُهُ(١).

شرح الحديث

في هذا الحديث أنَّ النبي ﷺ نادىٰ أنسًا رضي الله عنه بـ«**يَا ذَا الأُذُنَيْنِ**»؛ أي: يا صاحبَ الأُذُنَين، وكلُّ إنسانٍ له أُذُنان، وقد فُسِّر هذا بأنه ممازحةٌ منه ﷺ.

«**قَالَ أَبُو أُسَامَةَ**»؛ أبو أسامة هو شيخُ شيخِ الترمذي؛ فإنَّ شيخه محمود بن غيلان، وهو يروي عن أبي أسامة.

«**يَعْنِي: يُمَازِحُهُ**»؛ هذا أحد الوجهين في تفسير هذه العبارة، أي: أنَّه ﷺ كان يداعبه ويمازحه، فكنَّاه بهذه الكنية.

وهذا خلافُ ما يكون من بعض الناس؛ أنهم إذا أرادوا ممازحة شخصٍ آخر نادوه بلقبٍ مضحكٍ، قد يكون فيه شيءٌ من السُّخرية أو التنابُز بالألقاب.

والوجهُ الآخر في تفسير هذه العبارة: أنَّه ﷺ قالها ثناءً عليه، فإنه كان يملك أُذُنَين تسمعان وتَعِيان ما يُقال لهما من النبي ﷺ، أي: يا مَن يسمع الأمرَ فيطيع، ويعي ويُدْرِكُ ما يُقال له من الكلام النبوي الشريف.

***

(صحيح) **٢٠١ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: إِن كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيُخَالِطُنَا حَتَّىٰ يَقُولَ لِأَخٍ لِي صَغِيرٍ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟»**(٢).

---

(١) جامع الترمذي عقب الحديث (١٩٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠).

قَالَ أَبُو عِيسَىٰ: وَفِقْهُ هَذَا الحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُمَازِحُ، وَفِيهِ: أَنَّهُ كَنَّىٰ غُلَامًا صَغِيرًا فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عُمَيْرٍ، وَفِيهِ: أَنَّهُ لا بَأْسَ أَن يُعْطَىٰ الصَّبِيُّ الطَّيْرَ لِيَلْعَبَ بِهِ، وَإِنَّمَا قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟»؛ لِأَنَّهُ كَانَ لَهُ نُغَيْرٌ يَلْعَبُ بِهِ، فَمَاتَ، فَحَزِنَ الغُلَامُ عَلَيْهِ، فَمَازَحَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟».

شرح الحديث

قول أنس رضي الله عنه: «**إِن كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيُخَالِطُنَا**»؛ أي: يتعامل معنا عن قُرْبٍ، ويخالطُنا خُلْطَةً فيها أُنسٌ ورفعٌ لحِجاب الكُلفة المصطنَعة والهيبة المزعومة الزائفة.

وهذا خِلَافُ ما نرىٰ عليه اليوم بعضَ أهلِ المناصب من العُظَماء والكُبَراء، يتصوَّرُ أحدُهم أنه لو عايش الناس وخالطَهم وتبسَّط معهم أنه يفقد هيبتَه واحترامَه.

قول أنس رضي الله عنه: «**حَتَّىٰ يَقُولَ لِأَخٍ لِي صَغِيرٍ**»، أخوه هذا كان أخاه من أمِّه، وأمُّهما هي أمُّ سُلَيْمٍ بنتُ ملحان رضي الله عنها، وزوجُها أبو طلحة رضي الله عنه، كان النبي ﷺ يأتي بيتهما كثيرًا فيَقِيلُ ويأكلُ عندهم، وكان لأمِّ سُلَيْمٍ منزلةٌ عظيمةٌ عند النبي ﷺ، كما كان زوجُها من أصحاب المناقب العظيمة من الأنصار، ومن أكثرهم شُهرةً وشأنًا، كما أنَّه قد أبلَىٰ يوم أُحُدٍ بلاءً حسنًا، وكان له مع طَلحة بين عبيد الله رضي الله عنه مواقفُ مشهورةٌ عظيمةٌ.

وقد كان الحديث السابق في ممازحة النبي ﷺ أنسًا رضي الله عنه، وهذا الحديث في ممازحة النبي ﷺ أخا أنسٍ الصغير.

ولم تُبيِّن هذه الرواية عُمْر أخي أنسٍ الصغير هذا، ولكن جاء في رواية البخاري: «أَحْسَبُهُ فَطِيمًا»(١)، والمقصود بالفَطِيم: الطفلُ الحديثُ العهدِ بالفِطامِ، أي: الذي فُطِم للتَّوِّ، فربما كان عُمرُه سنتين، أو أكثر قليلًا، أو أقلَّ قليلًا.

والطفلُ في هذه السِنِّ لا يستوعبُ ما يُقال له ولا يَعقل، فلم يحفظ الروايةَ ولم ينقلها، ولكن الذي رواها أخوه أنس؛ فليس المقصودُ أن يعقِل الطفلُ هذا التعامُل والمزاح من النبي ﷺ، وإنما كان التلطُّف والممازحةُ لمن حوله من أهل البيتِ من صغيرٍ أو كبير، كما أنَّه يدلُّ علىٰ رأفةٍ ورحمةٍ ملأت قلبَ النبي ﷺ.

فهذ الحديث تصويرٌ لشدّة مُخالَطة النبي ﷺ وتبسُّطه معهم، حتَّىٰ إنه قد يُمازح الطفل الصغير من أهل بيتهم الذي لا يعقل؛ فما بالُك بممازحته ومخالطته الكبير منهم!، بل ما بالُكَ بمخالطته وممازحته الكبارَ أهلَ العقل من الصحابة! فما بالُك بممازحته مَن كان قريبًا إليه ﷺ في حياته وإلىٰ قلبه!

فلا تعجب عند معرفتك ذلك أن تجد أهل بيته وأصحابه قد أحبُّوه حُبًّا شديدًا، ورغبوا في معاشرته ومجالسته رغبةً قويةً تملأ قلوبَهم، وتشرح صدورَهم.

قوله ﷺ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟»؛ النُّغَيْر: تصغير نُغَرٍ، وهو طائرٌ صغيرٌ يُربَّىٰ في البيوت، وقد كان لأخي أنسٍ الصغير هذا طائرٌ يلعب به فمات، فحزِن حُزنًا شديدًا، فداعبه النبي ﷺ بهذه العبارة.

وإنما صَغَّر اسم الطائر ليتوافق مع كنية الطفل في اللفظ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٠٣).

وهاتان العبارتان لطيفتان في أذن هذا الطفل، بل هما لطيفتان في أُذُنِ كلِّ سامعٍ؛ فلا يزال الناسُ إلىٰ اليومِ يستلطفونها ويستعذبونها، وذلك من فصاحته وبلاغته ﷺ.

قول الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَفِقْهُ هَذَا الحَدِيثِ**»، استنبط الترمذيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الفوائد المتعدِّدةَ من هذا الحديث اللطيف ذي العبارة القصيرة، ثم جاء الإمامُ الفقيهُ العالمُ أبو العباس الطبريُّ المعروف بابن القاصِّ الشافعي فاستخرج فوائدَ هذا الحديث وجَمعها في جُزءٍ مفردٍ، وقد بلغتْ الفوائد التي استنبطها ستّين فائدةً، ثم جاء الحافظُ ابن حجرٍ العسقلاني في فتح الباري ولخَّص هذه الفوائد وزاد عليها.

وهكذا ألفاظُ النبي ﷺ؛ جامعةٌ للكَلِم، تحوي من الفوائد علىٰ قِصَرِها ما لا تحويه عبارات الناس الطويلة، فكلامه وعباراته مِشكاةٌ يَستقِي منها الناسُ الآدابَ والهدىٰ إلىٰ يوم القيامة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَفِيهِ: أَنَّهُ كَنَّىٰ غُلَامًا صَغِيرًا فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عُمَيْرٍ**»، لم يكن هذا التأديبُ موجَّهًا للطفل الصغير، فإنه ـ كما سبق ـ ما كان يعقِلُ ما يُقال له، ولكنه تأديبٌ نبويٌ للآباء، وتوجيهٌ لهم بأن يُكنوا أبناءَهم وبناتهم الصغار؛ فإنَّ الكُنْية عند العرب تشريفٌ واحترامٌ وتقديرٌ، فإذا خوطب بها الصغيرُ شَعر بالحفاوة والاحترام والتقدير، وزُرِع في قلبه الثقة، وأنَّه ذو شأنٍ، مما يؤثِّر ذلك علىٰ مستقبله.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «**وَفِيهِ: أَنَّهُ لَا بَأْسَ أَن يُعْطَىٰ الصَّبِيُّ الطَّيْرَ لِيَلْعَبَ بِهِ**»، ليس المقصود بأنه يَلعبُ به أي يُعذِّب الحيوانَ ويعبثُ به، وإنما المقصود به مداعبةُ هذا الطَّير والإمساك فيه، وإطعامه، فيكون بين يدي الصِّغار للمُداعَبة والملاطَفة.

وفي ختام شرح الحديث نقول: ما كان هذا الموقفُ الموقفَ الفريد أو اليتيمَ في ممازحة النبي ﷺ للصِّغار، بل لا زالت له مواقفُ تُحكَىٰ وتُروَىٰ في ممازحته لأطفالٍ آخرين، مِن ذلك: عَن مَحْمُودِ بْنِ الرَّبِيعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «**عَقَلْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مَجَّةً مَجَّهَا فِي وَجْهِي** وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ مِن دَلْوٍ»[1].

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**عَقَلْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ**»؛ أي: لا زلت أعقِلُ هذا الموقفَ وأدركُه وأَعِيه.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**مَجَّةً مَجَّهَا فِي وَجْهِي**»؛ أي: أخذ ماءً في فمِه الشريف، ثم دفعه دفعةً واحدةً في وَجْه هذا الصغير؛ ملاطفةً ومداعبةً.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ»، يروي هذا الحديث وهو رجلٌ، وقد عقِلَ هذه المجّةَ من فمِ النبي ﷺ وهو ابن خمسِ سنين، تأكيدًا علىٰ تذكُّره لهذه القصّة.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مِن دَلْوٍ»؛ يعني: الماء الذي مجَّهُ في وجهه أخذهُ من دَلْوٍ.

وإنما ذكرتُ مداعبتَه لمحمود بن الرَّبيع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ولم أذكر مُداعبتَه للحسنِ والحسينِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لئِلَّا يُقال: إنه جَدُّهما وقد غلب عليه طَبعُ الأُبوَّة، ولكنها رأفةٌ ورحمةٌ في قلبه لأطفال المسلمين عمومًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٧).

(صحيح) ٢٠٢ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا، قَالَ: «نَعَمْ، غَيْرَ إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا»(١).



شرح الحديث

هذا الحديث أصلٌ كبيرٌ في الباب، يثبت مداعبةَ النبي ﷺ وممازحته لأصحابه.

قول الصحابة رضي الله عنهم: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا».

سأله الصحابة رضي الله عنهم هذا السؤال تعجُّبًا واستغرابًا مِن أن يكون هذا النبي الكريم الذي يوحَىٰ إليه من فوق سبعِ سماواتٍ، ويؤخذ عنه القرآنُ والحكمةُ والهدىٰ وأحكامُ الحلال والحرام، والذي يُرْشِدُ الناس إلىٰ طريق الجنة ويُحذِّرهم من النار، والذي أخرجهم الله علىٰ يديه من الظلمات إلىٰ النور، هذا النبيُّ الذي جاء بهذه الأمور العظيمة كلِّها؛ ثم هو بعد ذلك يُمازِحهم ويُداعبهم!

كما أنهم رضي الله عنهم سألوه هذا السؤالَ مخافةَ أن يخِفَّ هذا المزاح، فقصدوا الاستزادة منه.

كما أنهم رضي الله عنهم أرادوا أن يعلموا هل هذا المزاح له علاقة بالجانب التشريعي والتعليمي؟ فإنَّ المزاح عادةً إنما يخرج به المازِح عن طريق الجدِّ إلىٰ محطةٍ يستريح بها من عناء التكاليف، فهي محطةٌ يرتاح فيها قليلًا عمَّا هو فيه، ثم يرجع إلىٰ طريقه.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٤٨١)، والترمذي (١٩٩٠)، وحسَّنه.

قوله ﷺ: «**نَعَمْ، غَيْرَ إِنِّي لا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا**»، هذه قاعدةً عظيمةٌ مِن قواعد المزاح أدبَّنا ـ معشر المسلمين ـ بها نبيُّنا ﷺ، وهو أنَّ الممازحةَ والملاطفةَ لا ينبغي لها أن تخرج من الصدق إلىٰ الكذب، ولا من الحق إلىٰ الباطل؛ فإنَّ الكذب غير مقبولٍ بحالٍ من الأحوال، حتَّىٰ مِن الأُمِّ مع أطفالها؛ عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: دَعَتْنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا، فَقَالَتْ: هَا تَعَالَ أُعْطِيكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَا أَرَدْتِ أَن تُعْطِيهِ؟**»، قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ**»(١).

ومِن هذا البابِ أيضًا: منعُه ﷺ أن يمازح المسلمُ أخاه بما يُرَوِّعه، فقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لا يَأْخُذَنَّ أَحَدُكُمْ مَتَاعَ أَخِيهِ لاعِبًا وَلا جَادًّا، وَمَنْ أَخَذَ عَصَا أَخِيهِ فَلْيَرُدَّهَا**»(٢)، وذلك لئلَّا يصيبه خوفٌ أو قَلَقٌ علىٰ متاعه.

وهذا بخلاف ما انتشر اليوم بين الناس مِن فعل هذه الأمور علىٰ سبيل المزاح، مما يُسَمَّىٰ بالمقالِب؛ ليضحكوا علىٰ ردَّةِ فعل الناس وقَلَقهم، وقد يحصُل نقيضُ قصدِه؛ فيغضب الممازَح، أو يحزَن.

فمَن أراد أن يمازِح أحدًا فليمازِحه بما يشاء، ولكن في حدود المأذون به شرعًا من الممازَحة.

***

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٠٢)، وأبو داود (٤٩٩١).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٠٣).

(صحيح) ٢٠٣ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا اسْتَحْمَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنِّي حَامِلُكَ عَلَىٰ وَلَدِ نَاقَةٍ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ النَّاقَةِ؟ فَقَالَ ﷺ: «وَهَلْ تَلِدُ الإِبِلَ إِلَّا النُّوقُ؟»(١).

شرح الحديث

قول أنس رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا اسْتَحْمَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ»؛ أي: جاء رجلٌ إلىٰ النبي ﷺ يطلب منه دابةً يركبُها ويحملُ عليها متاعَه.

قوله رضي الله عنه: «فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ النَّاقَةِ؟»؛ لأنَّه تبادرَ إلىٰ فهم الصحابي أنَّ النبي ﷺ سيحملُه علىٰ ولدٍ صغيرٍ، ومثلُ هذا لا يُرْكَب عادةً؛ لأنه لا يَقوَىٰ علىٰ حملِ شيءٍ.

قوله ﷺ: «وَهَلْ تَلِدُ الإِبِلَ إِلَّا النُّوقُ؟»؛ يعني: أراد الصحابيُّ بعيرًا كبيرًا، ابنَ خمسِ سنين أو أكبر، فبيَّن له النبيُّ ﷺ أنَّه سيحمله علىٰ بعيرٍ كبيرٍ، وأنَّ قوله: «إِنِّي حَامِلُكَ عَلَىٰ وَلَدِ نَاقَةٍ» لا يُخالِفُ ذلك، وإنما قاله مِن باب الممازحة؛ فإنَّ البعير الكبير إنما هو ولدٌ لإحدىٰ النُّوق، حتىٰ وإن كان كبيرًا.

وهذا يتوافق مع ما ذُكر في الحديث السابق؛ مِن أنَّه ﷺ لا يمزحُ إلا بما هو حقٌّ، مع أنَّه استخدم عِبارةً في معناها البعيد غير المتبادَر إلىٰ الذِّهن، إلا أنَّ ذلك لا يخرج عن الحقِّ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٨١٧)، وأبو داود (٤٩٩٨)، والترمذي (١٩٩١)، وقال: «صحيح غريب».

(صحيح) ٢٠٤ـ وَعَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ البَادِيَةِ كَانَ اسْمُهُ: زَاهِرًا، وَكَانَ يُهْدِي إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ هَدِيَّةً مِنَ البَادِيَةِ، فَيُجَهِّزُهُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَن يَخْرُجَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتُنَا، وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ»، وَكَانَ ﷺ يُحِبُّهُ، وَكَانَ رَجُلًا دَمِيمًا، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ، فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَهُوَ لَا يُبْصِرُهُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ أَرْسِلْنِي، فَالْتَفَتَ، فَعَرَفَ النَّبِيَّ ﷺ، فَجَعَلَ لَا يَأْلُو مَا أَلْصَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ عَرَفَهُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «مَن يَشْتَرِي هَذَا العَبْدَ؟»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذًا ـ وَاللهِ ـ تَجِدُنِي كَاسِدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَكِنْ عِنْدَ اللهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ»، أَوْ قَالَ: «أَنتَ عِنْدَ اللهِ غَالٍ»(١).

شرح الحديث

(وَعَنْهُ) أي: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وهذا حديثٌ صحيحٌ علىٰ شرط الشيخين.

قول أنس رضي الله عنه: «وَكَانَ يُهْدِي إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ هَدِيَّةً مِنَ البَادِيَةِ»، كان كثيرًا ما يأتي إلىٰ المدينة، وكلما قَدِم مِن البادية حمل معه هديةً إلىٰ النبي ﷺ من هدايا البدوِ؛ كاللَّبن، والسَّمن، ونحو ذلك مما يَحتفل به أهل البادية ويرونه ذا شأنٍ عندهم.

قوله رضي الله عنه: «فَيُجَهِّزُهُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَن يَخْرُجَ»؛ يعني: يقابل هديَّته بهدية مثلها؛ فإذا فرغ زاهرٌ من إقامته بالمدينة وأراد العودة إلىٰ قومه، حمَّله ﷺ من الجهاز والمتاع ما يستعين به علىٰ السفر والعودة إلىٰ أهله.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٦٤٨).

وكذلك كان النبي ﷺ؛ يقبل الهدية، ويثيب عليها، فيكافئُ بمثلها أو أحسنَ منها.

قوله ﷺ: «إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتُنَا، وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ»؛ أي: زاهِرٌ رضي الله عنه نجد عنده حاجتَنا من البادية، ويجد عندنا حاجتَه من الحاضرة.

وهذه عبارةٌ نبويةٌ لطيفةٌ؛ كأنه جعل البادية كلها متشخِّصةً في زاهر رضي الله عنه، وجعل النبيُّ ﷺ نفسَه بالنسبة لزاهر رضي الله عنه كأنه حاضرةٌ متشخِّصةٌ له.

قوله رضي الله عنه: «وَكَانَ رَجُلًا دَمِيمًا»، لم يكن حَسَن الخِلقة، بل كان في خِلقته قُبْحٌ، والدَّمامةُ: عكس الجَمال.

قوله رضي الله عنه: «فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ»؛ أي: يبيع شيئًا مما أتى به من البادية.

قوله رضي الله عنه: «فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ أَرْسِلْنِي»، القائل هو زاهِرٌ رضي الله عنه، يخاطِبُ القابضَ عليه من خلفه، وهو لا يعرف أنه النبي ﷺ.

قوله رضي الله عنه: «فَجَعَلَ لا يَأْلُو مَا أَلْصَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ عَرَفَهُ»؛ أي: أصبح يتأخَّر ويُلصِقُ ظهرَه بصدر النبي ﷺ، والنبي ﷺ يحتضِنُه من خلفه، فهنيئًا له ذلك المقام!!

قوله ﷺ: «مَن يَشْتَرِي هَذَا العَبْدَ؟»، وهذا موطنُ الممازَحة وموضع الشاهد، فإنَّ النبي ﷺ لم يكن ليبيعَه حقيقةً، وإلا كان ذلك من باب السبِّ والشتيمة.

وإنما أراد النبي ﷺ بوصفه بالعبودية أنه عبدٌ لله سبحانه.

قول زاهر رضي الله عنه: «إِذًا - وَاللهِ - تَجِدُنِي كَاسِدًا»؛ يعني: لن يشترِيَني أحدٌ، وسأبقَىٰ عندك، وإنما قال ذلك لأنه كان دميمًا رضي الله عنه.

قوله ﷺ: «لَكِنْ عِنْدَ اللهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ»، أَوْ قَالَ: «أَنتَ عِنْدَ اللهِ غَالٍ»، وهذه منقبَةٌ عظيمةٌ، وشرفٌ وشهادةٌ رفيعان، تحقَّقا لزاهرٍ رضي الله عنه.

وفي هذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ العِبرة بالتقوىٰ في قلوب المؤمنين وبما يعملونه من أعمالٍ تُقرِّبهم إلىٰ الله سبحانه، لا بالأشكال والهيئات والمناظر.

***

(حسن) ٢٠٥ - عَنِ الحَسَنِ قَالَ: أَتَتْ عَجُوزٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَن يُدْخِلَنِي الجَنَّةَ، فَقَالَ: «يَا أُمَّ فُلَانٍ، إِنَّ الجَنَّةَ لا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ»، قَالَ: فَوَلَّتْ تَبْكِي، فَقَالَ: «أَخْبِرُوهَا أَنَّهَا لا تَدْخُلُهَا وَهِيَ عَجُوزٌ، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٧]»(١).

شرح الحديث

قوله ﷺ: «أَخْبِرُوهَا أَنَّهَا لا تَدْخُلُهَا وَهِيَ عَجُوزٌ»؛ يعني: أنها لن تدخُل الجنةَ علىٰ حالها هذا من الكِبَر في السنّ.

قوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٧]»، استشهد بهذه الآيات علىٰ أنَّ أهلَ الجنة إذا دخلوها إنما يكونون في سنِّ الشباب، ومعنىٰ الآيات: إنا أنشأنا النساءَ الداخلاتِ للجنَّة

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٥٤٥).

إنشاءً جديدًا، يَكُنَّ فيه شابّاتٍ، وقد دلَّت الأحاديثُ علىٰ أنَّ أهل الجنة في الجنة يكونون أبناءَ ثلاثين، أو ثلاث وثلاثين سنة(١).

***

وفي ختام الباب قد مرَّت الأحاديث التي تدلُّ علىٰ مزاح النبي ﷺ مع الصغير والكبير والعجوز، وأختم الكلام علىٰ هذا الباب بممازحته ومداعبته لآل بيته ﷺ.

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُن، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «**تَقَدَّمُوا**»، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: «**تَعَالَيْ حَتَّىٰ أُسَابِقَكِ**»، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّىٰ إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنتُ وَنَسِيتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «**تَقَدَّمُوا**»، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: «**تَعَالَيْ حَتَّىٰ أُسَابِقَكِ**»، فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: «**هَذِهِ بِتِلْكَ**»(٢).

قول عائشة رضي الله عنها: فَقَالَ لِلنَّاسِ: «**تَقَدَّمُوا**»؛ أي: قال ذلك للناس المسافرين معه، أمَرَهم بالتقُّدم ليكون وحده مع أهله، ولا يتسابقا تحت أنظار الناس.

قوله ﷺ: «**تَعَالَيْ حَتَّىٰ أُسَابِقَكِ**»، أراد أن يتسابقا علىٰ أرجلهما.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٤٥)، وقال: «حسن غريب» وذكر أنه رُوي مرسلًا. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٢٧٧).

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «فَسَكَتَ عَنِّي»؛ أي: تركها ولم يحادثها في ذلك ما شاء اللهُ من الزمن.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «حَتَّىٰ إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنتُ وَنَسِيتُ»؛ أي: مرَّت الأيامُ، وامتلأ بدُنها لحمًا وسَمِنَت قليلًا، ونَسِيَت المسابقة الأولىٰ، وكانت في السباق الأول جاريةً صغيرةً.

قوله ﷺ: «**هَذِهِ بِتِلْكَ**»؛ أي: سبقتيني المرّة الأولىٰ، وسبقتُك المرّةَ الثانية.

لقد نسِيَت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قصَّة المسابقة الأولىٰ، ولكن النبي ﷺ لم يَنْسَها، بل ظلَّ متذكِّرًا لها، ينتظر الفرصة ليعاوِد هذه الملاطفة والمزاح مع زوجه؛ فمَن يكون مثله ﷺ يتذكَّر ملاطفاته مع زوجه تلك السنوات الطويلة، يذكِّرها بها، ويبني معها جسرًا من الملاطَفة.

فمَن مِنَّا يحتفظ في ذاكرته بموقفِ مزاحٍ وملاطفة مع زوجه قد مَرَّ عليه سَنَواتٌ، يبعثه بينه وبينها بعد سِنين؛ يُعيدُ به ربط العلاقات، ويَبني من الوُدِّ والملاطفة ما يسعدان به في حياتهما الزوجية!

وهكذا ... مَن أراد أن يبحث عن حياةٍ زوجيةٍ عامرةٍ باللُّطف والأُنس فلينظر في سيرته ﷺ مع أزواجه، وليستفِد منها، وليُطبقِّها في حياته الزوجية.

** ** **



بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ كَلَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الشِّعْرِ

الشِّعرُ دِيوانُ العرب، ومَعقِلُ فَصاحتهم، ومَورِدُ فَخرهم وتعاليهم، حفِظَ به العربُ تاريخَهم وأيَّامهم، وأرَّخوا به حوادثَهم، فأصبح للشِّعر منزلةٌ عظيمةٌ عند العرب؛ يَحتفُون به، ويُنشدونه، ويحفظونه، ويتفاخرون به، وذلك أنَّ العرب أُمَّةُ لِسانٍ، والشِّعرُ من أفخم فنون اللسان واللغة التي يتفاخرون بها، فصار من أمجاد العرب إنشادُ الأشعار، وحِفظُها، وأن يقول القائل قولةً تسيرُ بها الرُّكبان، فغدا الشعرُ علامةً فارقةً في أمّة العرب.

كما أنَّ الشِعرَ أصبح سمةً من سمات العرب، وشأنًا من شؤونهم التي يَحتفُون بها، فلا تجِدُ انفِكاكًا لهم عن الشِّعر إنشادًا وافتخارًا، فيأنَسُون به في مجالسهم، ويستطيبون سماعَه فيها، حتىٰ أصبح له من المكانة ما ليس لغيره من الكلام الفصيح.

ومع ذلك فإنَّ أعذبَ الشِّعر أكذبُه؛ وذلك أنَّ الشِّعرَ مبنيٌّ علىٰ خيالات الشاعر واتِّساع آفاقِ أحلامه ومُخيَّلته، فتنشأ له المعاني وتنقاد له الألفاظ، والشاعر المبدع هو الذي يكون أعظمُ اتِّساعًا في الخيال وأكثر إغراقًا في الأوهام، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧].

ولقد كان للشِّعر حضورٌ في حياة رسول الله ﷺ؛ فإنَّه بُعِث في هذه الأمّة التي تحتفي باللُّغة وتهتمُّ باللِّسان، ولكن لم يكن النبي ﷺ بشاعرٍ، كيف وقد قال الله ﷻ له: ﴿وَمَا عَلَّمْنَهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

ولكن كيف يكون أفصحُ العرب لسانًا بعيدًا عن أعظم ما تفاخرت به العرب وتفاصَحَت به؟

والجواب عن ذلك: أنَّ الله قد أوحىٰ للنبي ﷺ هذا القرآنَ العظيم، الذي هو في أعلىٰ درجات الفصاحة والبلاغة والبيان والإعجاز، عَجَزَ العربُ عن أن يُجارُوه أو أن يأتوا بمثله، بل وتحدَّاهم القرآنُ إنسًا وجنًّا أن يأتوا بمثِله فلم يستطيعوا، قال سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تحدَّاهم القرآنُ أن يأتوا بعشرِ سُوَرٍ مثلِه مُفتَرَياتٍ فلم يستطيعوا، ثم بسورةٍ من مثله فعَجَزوا.

فلمَّا كان القرآنُ بهذه المثابة التي فاق في بيانه وفصاحته كلَّ ما كانت تَعهدُه العربُ من شِعرٍ وغيره؛ كان المناسب أن يُمْنَع الموحَىٰ إليه بهذا القرآن مِن قول الشِّعر، وذلك للفرق العظيم بين القرآن الكريم والشعر في الفصاحة والبلاغة والبيان.

ثم إنَّه قطعٌ لحُجّةِ مَن يقول: إن القرآن شِعْرٌ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤٣].

ولقد أوتي النبيُّ ﷺ من فنون الكلام ما لم يؤتَهُ غيرُه؛ فقد أوتي جوامِع الكلِم، حيث ينطق بالعبارات اليسيرة القليلة المعدودة، وفي طيّاتها من المعاني والحِكَم والفوائد ما يعجز الناس عن استقصائه وتتبُّعه، ولكن دون القدرة على الإتيان بالشِّعر صونًا للقرآن الكريم، ففهِمَت العربُ مِن هذا أنَّ القرآن إنما هي وحيٌ من الله سبحانه.

فحضورُ الشِّعر في حياة النبي ﷺ لم يكن حُضورَ اشتغالٍ به، وإنشادٍ دائمٍ في مجالسه، ولم يكن يجمعُ الشعراءَ في مجلسه، ولم يصعد المنابرَ لإلقاء الشِعر، وإنما كان يُردِّد شيئًا منه أحيانًا، وقد يُلقَىٰ شيءٌ بين يديه من الشعراء أحيانًا أخرىٰ، وهذا ما ستبيِّنه أحاديثُ هذا الباب.

فخلاصةُ القول في الشِّعر: أنَّه ﷺ ما كان يَذُمُّ الشِّعرَ مُطلَقًا وينهىٰ عنه، ولا كان يحثُّ عليه دائمًا؛ بل يُنشَد الشِّعرُ في مسجده وبين يديه، حتىٰ بوَّب البخاريُّ وغيرُه أبوابًا في إنشاد الشِّعر في المساجد إشارةً إلىٰ جوازه.

والشِعرُ بحسب ما فيه من القول؛ فإن كان باطلًا من القول كان مذمومًا، وإن كان في نصرة الإسلام وخدمته فهو ممدوحٌ، فحَسَنُه حَسَنٌ، وقَبيحُه قَبيحٌ.

***

(صحيح) **٢٠٦ـ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قِيلَ لَهَا: هَلْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَمَثَّلُ بِشَيْءٍ مِنَ الشِّعْرِ؟ قَالَتْ: «كَانَ يَتَمَثَّلُ بِشِعْرِ ابْنِ رَوَاحَةَ، وَيَتَمَثَّلُ بِقَوْلِهِ: يَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَن لَمْ تُزَوِّدِ»**(١).

(١) أخرجه أحمد (٢٥٢٣١)، والترمذي (٢٨٤٨)، وقال: «حسن صحيح».

شرح الحديث

قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «قِيلَ لَهَا: هَلْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَمَثَّلُ بِشَيْءٍ مِنَ الشِّعْرِ؟»، من المعلوم عند السائلين ابتداءً أنه لم يكن بشاعرٍ ﷺ، ولكن السؤال: هل كان يتمثَّلُ بشيءٍ من الشِّعر؟ بمعنىٰ: هل كان يستشهدُ ببعض أبياتٍ مِن الشِّعر يقولها علىٰ لسانه وتخرج مِن فمه ﷺ؟

ويُفهَم من سؤالهم أنَّ استشهاده بالشِّعر لم يكن كثيرًا مستفيضًا؛ إذ لو كان مِن عادته الاستشهادُ بالشِّعر في خُطَبه ومجالسه لشاع بين الناس أنه يَستشهِد بالشِّعر، ولما وُجِد داعٍ للسؤال.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ يَتَمَثَّلُ بِشِعْرِ ابْنِ رَوَاحَةَ»: هذا موضع الشاهد من الحديث، وهو أنه ﷺ كان يتمثَّل بشيءٍ من الشِّعر.

وابنُ رَوَاحةَ: هو عبدالله بنُ رَوَاحة الأنصاريّ الخزرجيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أحدُ كِبار الصحابة الأنصار سِنًا وقَدرًا، شَهِد بيعةَ العَقبة فكان أَحدَ النُّقَباء، وشَهِد المشاهدَ كلَّها مع رسول الله ﷺ، وكان مِن الحاضرين في نصرته ﷺ في كل موقعةٍ وغزوةٍ ومَحفلٍ، عدا فتحِ مكة وما بعدها، ذلك أنه استُشهِد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غزوة مُؤتة، فهو أحدُ الأُمراء الثلاثة الذين أمَّرهم نبيُّنا ﷺ علىٰ جيش مُؤْتَة المسمَّىٰ بجيش الأمراء، أو غزوة الأمراء، والثلاثة هم: زيدُ بنُ حارثة، وجعفرُ بن أبي طالب، وعبدالله ابن رَوَاحة، وقد استُشهِد ثلاثتُهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في هذه الغزوة العظيمة سنة ثمانٍ للهجرة، فعاش حياتَه نُصرةً للإسلام بسيفِه ولسانه، أمّا بسيفه فقد مات غازيًا مجاهدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأما لسانُه فبالشِّعر الذي كان ينصُرُ به رسولَ الله ﷺ.

ولقد كان عبدُالله بنُ رَوَاحة مع حَسّان بن ثابت وكعبِ بن مالكٍ رضي الله عنهم شُعراءَ رسول الله ﷺ الذين يمثّلون الجبهةَ الشِّعرية التي تنصر النبي ﷺ، وإن كان أشهرَهم حسّانُ، وكان ابنُ رَوَاحة رضي الله عنه يؤجِّج مشاعر المجاهدين في الغزوات، ويُلْهِب حماستَهم، ويَرفع هِمّتَهم، ويُنشِد الأشعار التي تدفعهم للقتال وحمايةِ رسول الله ﷺ.

فلأجل ذلك كان لابن رَوَاحة حظوةٌ كبيرةٌ في قلب رسول الله ﷺ، فكان يحبُّ شِعرَه، ويتمثَّل بشيءٍ مما يقوله.

ولقد كان ابنُ رَوَاحة صاحبَ بديهةٍ شعريةٍ حاضرةٍ، تتدفَّقُ قريحتُه عند وجود الموقفِ الإنشاديِّ الشِّعريِّ الذي يحتاج شِعرَه، فمن أبياته المشهورة على ألسِنة الناس والتي يرتجزون بها؛ أبياته في غزوة أُحُد:

تَـاللهِ لَوْلَا اللهُ مَا اهْتَـدَيْنَـا ... وَلَا تصــدَّقْنَا وَلَا صَــلَّيْنَا

الكَـافِرُونَ قَـدْ بَغَوْا عَلَيْنَـا ... إِذَا أَرَادُوا فِـتْـنَـةً أَبَـيْـنَـا

إِنَّـا إِذَا صِـيـحَ بِنَـا أَتَيْنَـا ... وَبِالصِّـيَـاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

فَثَبِّتِ الأَقْـدَامَ إِن لَاقَينَـا ... وَأَنْزِلَن سَـكِينَـةً عَلَـيْنَـا

ومن أبياته وقصائده الذائعة المشهورة ما ختم به شِعرَه في غزوة مُؤتة، وذلك أنه عندما أراد الخروج لغزوة مُؤتة أنشد أبياتًا تمنَّىٰ فيها الشهادة، يقول فيها رضي الله عنه:

لَكِنَّنِي أَسْــأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً ... وَضَـرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا

أَوْ طَعْنَـةً بِيَـدَيْ حَرَّانَ مُجْهِزَةً ... بِحَرْبَةٍ تَنفُذُ الأَحْشَــاءَ وَالكَبِدَا

حَتَّىٰ يَقُولُوا إِذَا مَرُّوا عَلَىٰ جَدَثِي ... يَا أَرْشَدَ اللهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رَشَدَا(١)

وقد كتب الله له ما تمنَّىٰ في هذه الأبيات، فكان أحدَ أُمراءِ الغزوة الثلاثة الشُهداء، الذين خلَّد التاريخُ ذِكرَهم واستشهادَهم.

وسيأتي حديثٌ آخر فيه شِعرٌ آخَرُ من أشعار عبد الله بن رَوَاحة يتمثَّل بها النبيُّ ﷺ.

قولها رضي الله عنها: «**وَيَتَمَثَّلُ بِقَوْلِهِ: يَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَن لَمْ تُزَوِّدِ**»، قد تُوهِم العبارُة أنَّ هذا البيتَ من أبياتِ عبد الله بن رواحة، وليس كذلك، وإنما هو بيتٌ لطَرَفةَ ابنِ العَبْد، أحدِ الشعراء الجاهليّين وأصحاب المعلَّقات، فقد جاء في بعض روايات الحديث: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَرَاثَ الخَبَرَ تَمَثَّلَ فِيهِ بِبَيْتِ طَرَفَةَ: وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ**»(٢).

ومعنىٰ «اسْتَرَاثَ الخَبَرَ»؛ أي: أبطأ عنه الخبرُ الذي ينتظره.

وهذا شَطرُ البيت، وشَطرُه الأوّل: سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنتَ جَاهِلًا.

ومعنىٰ البيت: لا تعجَلنَّ علىٰ شيءٍ؛ فإنه يوشك أن يأتيَك بالخبر مَن لم تطلبْ الخبرَ منه فتزوِّده بزادٍ ليتكلَّف لك الخبر، أي: سيأتيك الخبرُ لا محالةَ، فلا تجزع لتأخُّر الخبر عنك.

***

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٣/ ١٧٩)، وحلية الأولياء (١/ ١١٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٠٢٣).

(صحيح) ٢٠٧ـ **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَصْدَقَ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ ـ وَفِي رِوَايَةٍ: أَشْعَرُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَتْ بِهَا العَرَبُ ـ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ، وَكَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ»**[١].

شرح الحديث

قوله ﷺ: «**إِنَّ أَصْدَقَ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ ـ وَفِي رِوَايَةٍ: أَشْعَرُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَتْ بِهَا العَرَبُ ـ كَلِمَةُ لَبِيدٍ**»، فيه ثناءٌ علىٰ شَطر البيت هذا، وأنه أصدقُ كلمةٍ تكلَّمَت بها العربُ.

ولَبِيدٌ: هو لَبِيد بنُ ربيعةَ بنِ مالكٍ العامريّ، شاعرٌ فحلٌ مُخضرَمٌ، من كبار شُعراء العرب، ذو شرفٍ وجاهٍ، وَفَد علىٰ النبي ﷺ فأسلم، وكان شِعرُه حَسَنًا، بل من أفضل الشِّعر، ولكنه بعدما أسلم امتنع عن قول الشِّعر؛ لأنَّ الله شرَّفه بالقُرآن، فاعتاض بالقرآنِ عن الشعر[٢].

وروي أنَّ عمرَ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتب إلىٰ المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو علىٰ الكوفة: أن استنشِد من قِبَلَك من شُعراء مِصرِك ما قالوا في الإسلام، فأرسل إلىٰ لَبِيدٍ فقال: أنشِدني، فانطلق فكتب سورة البقرة في صحيفة ثم أتىٰ بها، وقال: أبدَلَني الله هذه في الإسلام مكان الشِّعر، فكتب بذلك المغيرةُ إلىٰ عمر، فزاد في عطائه[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦)، وأحمد (٩٠٨٣، ٩١١٠).

(٢) أسد الغابة (٤/ ٥١٥).

(٣) الشعر والشعراء (ص٢٨١).

قوله ﷺ: «أَلا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ»، في هذا إشارةٌ إلىٰ معرفة النبي ﷺ بأشعار العرب، وقُدرتِه علىٰ الحُكم علىٰ الجيِّد والرَّديء، وذلك بحكم معايَشَته للعرب وسماع أشعارهم، ولكنه لم يكن شُغلَه الشاغِلَ الذي يملأ به مجالسَه، ويقضي فيه أوقاتَه.

ثم لا مجال لأحدٍ بعد قول النبي ﷺ أنْ يصِفَ شعرًا بأنه أبلغُ أو أفصحُ أو أصدقُ مِن هذا البيت.

وأما القصيدة التي أنشأ فيها لَبِيدٌ هذا البيت ففيها جملة أبيات، يقول فيها رضي الله عنه:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ ... وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ
وَكُلُّ ابْنِ أُنْثَىٰ لَوْ تَطَاوَلَ عُمْرُهُ ... إِلَىٰ الغَايَةِ القُصْوَىٰ فَلِلْقَبْرِ آيِلُ
وَكُلُّ أُنَاسٍ سَوْفَ تَدخُلُ بينَهُمْ ... دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الأَنَامِلُ
وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْمًا سَيَعْلَمُ سَعْيَهُ ... إِذَا كُشِّفَتْ عِندَ الإِلَهِ المَحَاصِلُ[1]

ولكن رُوِي أنَّه أنشد بيتَه هذا أمام عُثمان بنِ مَظْعُون رضي الله عنه فقال: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ، فَقَالَ عُثْمَانُ: صَدَقْتَ، ثُمَّ إِنَّ لَبِيدًا أَنْشَدَهُمْ تَمَامَ البَيْتِ: وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ، إِنَّ نَعِيمَ أَهْلِ الجَنَّةِ لَا يَزُولُ[2].

قوله ﷺ: «وَكَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ»، فيه ثناءٌ علىٰ شِعر أميّة بن أبي الصَّلْت، وأنه كاد أن يُسلِم ولكن لم يُسْلِم.

---

(١) خزانة الأدب (١/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٣٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٠٣).

وذلك أنَّه كان في شِعر أميّة بن أبي الصَّلت قبل الإسلام حكمةٌ وإيمانٌ بالله ﷻ وتوحيدٌ، ولكن عندما بُعِثُ النبيُّ ﷺ لم يسلم أُميّة، وبقي على الكُفر ومات عليه!!

***

(صحيح) ٢٠٨ـ **عَن جُندُبِ بْنِ سُفْيَانَ البَجَلِيِّ ﷺ قَالَ: أَصَابَ حَجَرٌ أُصْبُعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَدَمِيَتْ، فَقَالَ: «هَلْ أَنتِ إِلا أُصْبُعٌ دَمِيتِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ»**(١).

شرح الحديث

هذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما وغيرهم أيضًا من أصحاب السُنن.

قول جندب رضي الله عنه: «**أَصَابَ حَجَرٌ أُصْبُعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»؛ أي: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يسيرُ ذاتَ يومٍ في طريق، فأصاب حجرٌ أصبعًا من أصابع قدميه مما يُصيب الإنسانَ في الطريق، ويتعثَّر به.

قوله رضي الله عنه: «**فَدَمِيَتْ**»؛ يعني: تأثَّرت أصبعُه بذلك الحَجَر، فخرج منها الدَّمُ.

قوله ﷺ: «**هَلْ أَنتِ إِلا أُصْبُعٌ دَمِيتِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ**»، يجوز في همزة (أصبع) التثليث: بالفتح والضم والكسر، ويجوز في بائها أيضًا التثليث؛

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦).

فيتحصل من ذلك تسعةُ أوجه كلها صحيحة، وهي: أَصْبَع، وأَصْبِع، وأَصْبُع، وإِصْبَع، وإِصْبِع، وإِصْبُع، وأُصْبَع، وأُصْبِع، وأُصْبُع.

والمقصود من البيت: تهوينُ ما يُصيب المسلمَ من المُصَاب؛ فإنه ﷺ عندما دَمِيَت أصبعُه الشريفةُ هوَّن علىٰ نفسِه بهذا البيت، ومعناه: لا يوجد ما يستحقُّ أن يغتمَّ له الإنسانُ ويهتمّ، فما الأمرُ إلا أن أصبُعًا من أصابعه أصيبت في سبيل الله.

وهذا البيتُ لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه، وفيه شاهدٌ لحديث عائشة رضي الله عنها المتقدِّم، في أنَّه ﷺ كان يتمثَّل بشِعر عبدالله بن رواحة رضي الله عنه.

وهذا البيت من أبياتٍ كان قد قالها عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في غزوة مُؤتة، يحثُّ نفسَه وأصحابَه علىٰ حُسن البلاء في القتال، فقال:

هَلْ أَنتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ ... وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ
يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي ... هَذَا حِمَامُ المَوْتِ قَدْ صُلِّيتِ
إِن تَسْلَمِي اليَوْمَ فَلَن تَفُوتِي ... أَوْ تُبْتَلَيْ فَطَالَمَا عُوفِيتِ
ومَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ ... إِن تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيتِ(١)

أي: إنْ تفعَلي فِعْلَ صاحبيَّ زيدٍ وجعفر، أي: ما فعلاه من القيادة وحمل الراية ونيلِ الشهادة، فهي الهداية المنشودة.

***

(١) انظر: المعجم الكبير للطبراني (١٣/ ١٨٢)، ومحاسبة النفس لابن أبي الدنيا (١/ ٦٨).

(صحيح) ٢٠٩ـ عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَا أَبَا عُمَارَةَ؟ فَقَالَ: لَا، وَاللهِ، مَا وَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَكِن وَلَّىٰ سَرَعَانُ النَّاسِ، تَلَقَّتْهُمْ هَوَازِنُ بِالنَّبْلِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ بَغْلَتِهِ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ آخِذٌ بِلِجَامِهَا، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ»(١).

شرح الحديث

«أَفَرَرْتُمْ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَا أَبَا عُمَارَةَ؟»، السؤال عمَّا حصل في غزوة حُنَينٍ بعد فتح مكة، وذلك أن النبي ﷺ لما فرغ من فتح مكة في رمضان سنة ثمانٍ من الهجرة، وأقرَّ الله ﷻ عينَه بدخول مكة وأهلها في الإسلام، توجَّه ﷺ إلىٰ الطائف، وحصل فيها عِدّةُ غَزَواتٍ بينه وبين قبائل الطائف؛ كغَزوة ثقيفٍ، وحِصار الطائف، وغَزوة أوطاسٍ.

وفي غزوة حُنَين اشتدَّ القتال علىٰ جيش المسلمين؛ رسول الله ﷺ ومَن معه من الصحابة الأوائل، ومِن مسلمة الفتح، وفيه نزل قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٧٤)، ومسلم (١٧٧٦).

فحصل تراجُعٌ في صفوف بعض المسلمين، وانهزم الجيشُ في بداية المعركة، وفرَّ مَن فرَّ مِن مُسْلِمَة الفتح الذين لم يتمكَّن الإيمانُ من قلوبهم بعدُ، وليس لهم من الإيمان والنصرة والتضحية مع رسول الله ﷺ مثل ما للصحابة الأوائل.

قول البراء رضي الله عنه: «**مَا وَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ**»؛ أي: لم يفِرَّ رسولُ الله ﷺ ولم يتولَّ عن القتال يوم حُنَينٍ، بل قد ثبت ﷺ في هذا الموطن ثبوتًا أظهر بطولته وشجاعتَه ﷺ، وذلك أنَّ صفوفَ القتال في ذلك اليوم اهتزَّت، وفرَّ مَن فرَّ ممن دخل الرُّعبُ إلىٰ قلبه، وترك كثيرٌ منهم القتال، وقد جرتِ العادةُ في مثل هذه المواطن أنَّ تلتفَّ عُصبةٌ من الجيش حول القائد تَحميه، ليكون أكثر أفراد الجيش أمانًا.

ولكن الذي حصل أنَّ النبي ﷺ نزل ساحة المعركة في ذلك الوقت الذي فرَّ فيه الناس، يريد تثبيت مَن بقي في الميدان، ونادَىٰ في الناس يجمعهم، فما أن سمع الصحابةُ صوت نبيِّهم ﷺ حتىٰ عادوا إليه.

وإنما كان ذلك من أظهر مواطن الشجاعة؛ لأنَّها كانت ساعةَ انكشافٍ للجيش وتفرُّقٍ للصفوف، فتلك اللحظة هي أسهل ما يمكن الوصول فيها للقائد وقتله، وزاد علىٰ ذلك أنَّه نادىٰ بأعلىٰ صوتِه، وهذا يزيد قُدرة المشركين علىٰ معرفة مكانه والوصول إليه، والأعجبُ من ذلك أنه لم ينزل إلىٰ أرض المعركة بخيلٍ يستطيع أن يهربَ به إذا رآه أعداؤه، أو بناقةٍ يرتفع بها عن الأعداء مع ما عُرِف عن الناقة من قُوّة! بل نزل أرض المعركة ببَغلةٍ لا تساعد علىٰ فرارٍ، وليست بذات تحمُّل في القتال.

فدلَّ ذلك علىٰ ما أوتيه ﷺ من شجاعةِ قلبٍ ورَبَاطةِ جَأشٍ.

قوله رضي الله عنه: «**وَلَكِن وَلَّىٰ سَرَعَانُ النَّاسِ**»؛ أي: ما تولَّىٰ يوم حُنَينٍ ولا فَرَّ إلا سَرَعانُ الناس، وقصد بهم: مُسْلِمَةَ الفتح الذين أسلموا للتَّوِّ، ولم يتمكن الإيمانُ من قلوبهم، وذلك عندما رأوا ما أصابهم وخَشُوا الهزيمة والقتل فرَّ بعضُهم، ولم يفِرَّ الجميع.

قوله رضي الله عنه: «**تَلَقَّتْهُمْ هَوَازِنُ بِالنَّبْلِ**»؛ هَوَازِنُ هم أهل الطائف، وكانت معروفةً بشدّة الرَّمي وقُوّة الإصابة.

قوله رضي الله عنه: «**وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ آخِذٌ بِلِجَامِهَا**»، أبو سفيان هو ابن عمِّه، كان آخِذًا بلِجام البَغْلة.

قوله ﷺ: «**أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ**»: هذا شاهدٌ ثالثٌ لتمثُّل نبيِّنا ﷺ بالشِّعر.

وقد كان ﷺ يقول ذلك تثبيتًا لقلوب أصحابه، أي: ما زلتُ أنا موجودًا في الساحة، فعودوا إلىٰ مواقعكم التي غادرتموها، واثبُتُوا فيها حتىٰ تُنصَروا.

وفي ندائه بهذا الصوت المرتفع إظهارٌ لشجاعته، وعدمِ تراجُعه عن القتال ﷺ.

كما أنَّ في انتقائه هذه الألفاظ تفاؤلًا عظيمًا وثقةً بنصر الله، وذلك أن الله يقول: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، أي: أنا نبيُّك يا ربِّ، فآتني نصرَك الذي وعدتَ.

وعبدُ المطَّلب هو جدُّه، ولا بأس أن ينتسب الرجلُ إلىٰ أي أحدٍ من آبائه وأجداده وإن عَلَوا.

ووصفُ نفسِه ﷺ بالنبوَّة، وانتسابُه لعبد المطَّلب لم يكن افتخارًا أو كِبْرًا، ولكن قال ذلك استنزالًا لنصر الله، وثقةً بموعوده، وتفاؤلًا وحُسنَ ظنٍّ به.

وفي هذا إشارةٌ لكلِّ مسلمٍ تمرُّ به فترةٌ عصيبةٌ، أو وقتُ ضعفٍ وانهزامٍ وتراجُع؛ أنَّ الأوقاتَ العصِيبةَ إنما تتعلَّق فيها القلوب بالله، لحُسنِ ظنِّها به سبحانه، فهما بلغت الأمّة من ضعف، ومهما تعاظم فيها البلاء؛ فلا ينبغي للمسلم أن يَيْأسَ أو يَجزع، بل يَثِقُ بموعودِ ربِّه بالنصر؛ فإنَّ الله قد كَتَب النصرَ لهذا الدِّين: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١] أي: في الدنيا وفي الآخرة، وقال: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

وفي آخر شرح هذا الحديث بَقِي علينا أن نُنَبِّه إلىٰ أنَّ بعضَ الناس تكلَّفَ وقال: إنَّ انتساب النبي ﷺ لجدِّه عبد المطلب يدلُّ علىٰ تشرُّفه بالانتساب إليه، وتشرُّفه بالانتساب إليه يدلُّ علىٰ إسلامه؛ إذ لو كان كافرًا لما تشرَّف بالانتساب إليه.

وذلك غيرُ صحيحٍ، فإنَّ الرَّجل ينتسب إلىٰ آبائه وأجداده مؤمِنين أو كافِرين، وقد قال ﷺ: «**لَيْسَ مِن رَجُلٍ ادَّعَىٰ لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ، وَمَنِ ادَّعَىٰ مَا لَيْسَ لَهُ فَلَيْسَ مِنَّا، وَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»(١)، فانتساب النبي ﷺ لجَدِّه

---

(١) أخرجه مسلم (٦١).

ليس دليلًا علىٰ إسلامه، بل قد دلَّت الأحاديثُ والسِّيَرُ علىٰ أنه مات كافرًا.

نعم؛ هو جَدُّ رسول الله ﷺ، وله من الشرف أُبُوَّتُه لرسول الله ﷺ، لكن يبقىٰ الإيمانُ مرتهنًا بالشهادتين، وشروطهما، وأداء الواجب المترتِّب علىٰ ذلك لا محالةَ.

***

(صحيح) ٢١٠ـ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ فِي عُمْرَةِ القَضَاءِ، وَابْنُ رَوَاحَةَ يَمْشِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ:**

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَن سَبِيلِهِ ... اليَوْمَ نَضْرِبْكُمْ عَلَىٰ تَنزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الهَامَ عَن مَقِيلِهِ ... وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رضي الله عنه: يَا ابْنَ رَوَاحَةَ، بَيْنَ يَدِي رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفِي حَرَمِ اللهِ تَقُولُ الشِّعْرَ؟ فَقَالَ ﷺ: «خَلِّ عَنْهُ، يَا عُمَرُ؛ فَلَهِيَ أَسْرَعُ فِيهِم مِن نَضْحِ النَّبْلِ»(١).

شرح الحديث

قول أنس رضي الله عنه: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ فِي عُمْرَةِ القَضَاءِ**»؛ عُمْرَةُ القَضَاء كانت بعدَ صُلح الحديبية، فإنَّ صُلح الحديبية كان سنة ستٍّ مِن الهجرة، وكانت عُمرة القضاء بعد الصُلح بسَنَةٍ.

قوله رضي الله عنه: «**وَابْنُ رَوَاحَةَ يَمْشِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ ...** »، فإنَّ الصحابة

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٤٧)، والنسائي (٢٨٧٣)، وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب».

كانوا يؤدُّون العُمرةَ متحلِّقين حول النبي ﷺ محيطين به.

وكان هذا قبل استشهاد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، فإنه استُشهِد في غَزوة مُؤتة، سنة ثمانٍ من الهجرة.

وهذا موضع الشاهد من الحديث، وهو دليلٌ علىٰ إنشاد الشعر بين يديه ﷺ، وبحضرته.

قول ابن رواحة رضي الله عنه: «**خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَن سَبِيلِهِ**»، يخاطب به كفَّارَ قُريش.

قول عمر رضي الله عنه: «**يَا ابْنَ رَوَاحَةَ، بَيْنَ يَدِي رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفِي حَرَمِ اللهِ تَقُولُ الشِّعْرَ؟**»، استنكر عمرُ رضي الله عنه إنشادَه الشِّعرَ بين يَدَيْ رسول الله ﷺ وفي الحَرم؛ ظنًّا منه أنَّ ذلك يخالفُ توقيرَ مجلسِ رسول الله ﷺ ويخالفُ تعظيمَ الحَرم.

قوله ﷺ: «**خَلِّ عَنْهُ، يَا عُمَرُ؛ فَلَهِيَ أَسْرَعُ فِيهِم مِن نَضْحِ النَّبْلِ**»؛ أي: هذا الأبيات التي يقولها ابنُ رَوَاحةَ افتخارًا بالإسلام وتهديدًا للكفار هي أشدُّ عليهم وأعظم من وقوع السهام التي تقع في نحورهم وظهورهم وصدورهم.

وفي هذا بيانُ مقامِ الشِّعر عند العرب، أُمَّةِ اللسانِ والشِّعرِ والبيانِ، حتىٰ إنَّ البيتَ من الشِّعر قد يكون أعظمَ تأثيرًا وأشدَّ نكايةً من سيفٍ يَقطعُ رِقابَهم، بل قد تقوم الحروبُ بينهم لأجل بيتٍ يُقال، أو قصيدةٍ تُنشَد، أو شِعرٍ يَنتشِر، وقد يرفعُ بيتٌ من الشِّعر أقوامًا ويخفِضُ آخرين.

وفي الحديث دلالةٌ علىٰ جواز إنشاد الشعر في المساجد، وذلك إذا كان للإنشاد غرضٌ صحيحٌ، كأن يكون لنُصرة هذا الدِّين.

ولا يعني هذا فتحَ الباب مُطلَقًا لإنشاد الشِّعر في المسجد؛ فيُنشَد فيه الشِّعرُ الهزيلُ المقاصد، أو شِعرُ الغَزَل، أو ما فيه فُحْشٌ في القول.

وفي الحديث أيضًا دلالةٌ علىٰ أنَّ الشُّعراء يستطيعون نُصرة هذا الدين، وهذا بابٌ عظيمٌ ما يزال مفتوحًا إلىٰ اليوم للشعراء، يستطيعون فيه نُصرةَ الدين في المواقف والحوادث والقضايا بما يستطيعون أن يساهموا فيه من فصيحِ أشعارهم؛ وذلك كما يُساهِم المقاتِلُ بقتاله، والخطيبُ بخُطبته، والعالمُ بعِلمه، فالبابُ مفتوحٌ لكلِّ مسلمٍ يملك آلةً يَنصُر بها هذا الدِّين أن يَنصُره.

وفي الحديث أيضًا دلالةٌ علىٰ أنَّ الصحابة استخدموا الشِّعر لنُصرة هذا الدِّين لِمَا للشعر من تأثيرٍ قويٍّ في زمانهم، فيُستفاد منه أنَّ ما يُفتح علىٰ الناس من وسائلَ جديدةٍ لنُصرة هذا الدين فهي وسيلةٌ مشروعةٌ، ينبغي لهم الاستفادةُ منها، مثل ما يوجد اليوم من وسائل التواصُل الاجتماعي وآلاتِ التقنية بأنواعها؛ فإنَّ نُصرةَ الدين ليست محصورةً بالسلاح فقط، بل لكلٍّ مجالُه في خِدمة هذا الدِّين ونُصرة أُمَّته والدفاع عن نبيِّه ﷺ.

***

(صحيح) ٢١١ـ **عَن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ﭫ قَالَ: «جَالَسْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَكْثَرَ مِن مِائَةِ مَرَّةٍ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَتَنَاشَدُونَ الشِّعْرَ، وَيَتَذَاكَرُونَ أَشْيَاءَ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، وَهُوَ سَاكِتٌ وَرُبَّمَا تَبَسَّمَ مَعَهُمْ»**(١).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٥٠)، وقال: «حسن صحيح».

شرح الحديث

قول جابر بن سمرة رضي الله عنهما: «**جَالَسْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَكْثَرَ مِن مِائَةِ مَرَّةٍ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَتَنَاشَدُونَ الشِّعْرَ**»، فيه إثباتٌ لإنشاد الصحابة رضي الله عنهم للشِّعر بحضرة رسول الله ﷺ، وهذا الإنشادُ لم يكن مرّةً أو مرَّتين أو إنشادًا عابرًا، بل إثباتٌ لشيءٍ متكرِّرٍ حصل أكثر من مائةِ مرّة.

قوله رضي الله عنه: «**وَيَتَذَاكَرُونَ أَشْيَاءَ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ**»، فإذا ذكروا ما كانت تفعله الجاهلية من المحرَّمات والمنكرات فإنما يذكرونه من باب التحدُّث بنعمة الله عليهم بالهداية للإسلام، وترك ما كانوا يفعلونه في زمن الجاهلية.

قوله رضي الله عنه: «**وَهُوَ سَاكِتٌ**»، وسكوتُه يدلُّ علىٰ الإقرار؛ لأنَّ ما كانوا يفعلونه ليس بالأمر بالمنكر؛ إذ لو كان محرَّمًا لمنعهم وأنكر عليهم.

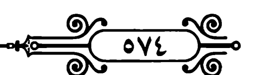
قوله رضي الله عنه: «**وَرُبَّمَا تَبَسَّمَ مَعَهُمْ**»؛ يدلُّ التبسُّم علىٰ الإقرار أكثر مما يدلُّ السكوت علىٰ الإقرار.

***

(صحيح) **٢١٢ ـ عَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ، عَنْ أَبِيهِ** رضي الله عنه **قَالَ: كُنتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنشَدتُهُ مِائَةَ قَافِيَةٍ مِن قَوْلِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ الثَّقَفِيِّ، كُلَّمَا أَنْشَدتُهُ بَيْتًا قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: «هِيهْ»، حَتَّىٰ أَنْشَدتُهُ مِائَةً يَعْنِي بَيْتًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِن كَادَ لَيُسْلِمُ»**[1].

---

(١) أصله في مسلم (٢٢٥٥).



شرح الحديث

قول الشَّرِيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كُنتُ رِدْفَ النَّبِيِّ** ﷺ»؛ رِدْفَ ورَدِيف: راكبٌ خلفَه علىٰ الدابّة.

وكذلك كان النبيُّ ﷺ كثيرًا ما يُرْدِفُ أصحابَه خلفه علىٰ الناقة، فكلَّما تيسَّر له أردفَ خلفَه أحدَ أصحابه، فأردف ابنَ عباسٍ، وبلالًا، وأسامةَ، وقد حاول بعضُ العلماء جمعَ من أردفه النبي ﷺ خلفه فوجدهم أكثر من أربعين صحابيًّا[١].

وفي هذا الإردافِ معانٍ عظيمةٌ:

من أعظمها: دلالة ذلك علىٰ تواضُعه ﷺ، وأنه ما كان يأنفُ أن يكون معه علىٰ دابَّته رجلٌ من أصحابه، وذلك أمرٌ لا يقوَىٰ عليه إلا أصحابُ النفوس الكبيرة العظيمة، المتواضعة المخبِتة، ليِّنة الجانب.

ومن ذلك: مواساتُه لأصحابه ﷺ، وذلك بعدم تركهم يمشون راجلين، وفي ذلك من الرِّفق واللُّطف واللِّين مع أصحابه والتحبُّب إليهم ما هو ظاهرٌ.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَأَنشَدتُهُ مِائَةَ قَافِيَةٍ**»؛ أي: جعل يُنشِد بعضَ الأبيات، ويَسمعها منه النبيُّ ﷺ، وفيه أنَّ النبي ﷺ كان يستمع الشِّعرَ.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مِن قَوْلِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ الثَّقَفِيِّ**»، سبق ذِكرُه قبل أحاديث قليلة، في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (١/ ٢٣٣).

قوله رضي الله عنه: «**كُلَّمَا أَنْشَدتُهُ بَيْتًا قَالَ لِيَ النَّبِيُّ** ﷺ: **«هِيهْ»**؛ أي: كلَّما ألقىٰ عليه بيتًا قال له: هِيه، وهي كلمةٌ عند العرب بمعنىٰ: زِدني، تدلُّ علىٰ الإعجاب بما يقول، ويجوز فيها أن يُقال: إيه.

قوله ﷺ: «**إِن كَادَ لَيُسْلِمُ**»، وذلك لِما رأىٰ في شِعر أميّة بن أبي الصَّلت من الحكمة، والحديث عن عجائب الكون، وإقراره بكثيرٍ من مقتضيات الإيمان.

وكما سبق فإن أميَّةَ بن أبي الصَّلت لم يُسلم.

***

(حسن) **٢١٣ـ عَنْ عَائِشَةَ** رضي الله عنها **قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ **يَضَعُ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ مِنبَرًا فِي المَسْجِدِ، يَقُومُ عَلَيْهِ قَائِمًا، يُفَاخِرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ** ﷺ **ـ أَوْ قَالَ: يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ اللهِ** ﷺ **ـ وَيَقُولُ** ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ القُدُسِ مَا يُنَافِحُ أَوْ يُفَاخِرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ** ﷺ»(١).

شرح الحديث

قول عائشة رضي الله عنها: «**كانَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ **يَضَعُ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ مِنبَرًا فِي المَسْجِدِ، يَقُومُ عَلَيْهِ قَائِمًا**»، فيه إثباتٌ لمكانة الشِّعر في حياة رسول الله ﷺ، ومكانةِ حسَّان بن ثابت رضي الله عنه خاصَّةً.

وقد تقدَّم أنَّ كلًّا مِن حسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٤٣٧)، والترمذي (٢٨٤٦)، وقال: «حسن صحيح».

رضي الله عنهم كانوا من شعراء الإسلام نصرةً ودفاعًا وتأييدًا وجهادًا بشعرهم مع رسول الله ﷺ، وأبرزُهم وأشهرُهم وأشعرُهم حسّان ولا شكَّ، حتى لُقِّب بشاعر رسول الله ﷺ، وصار يُضرَب بحسّان الـمَثَل في النُّصرة بالشِّعر، وكان حسّانُ شاعرًا مُجيدًا، يَبلغُ شِعرُه الآفاقَ.

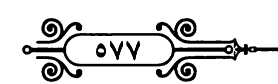
وكان قد بلغ به الأمر عند رسول الله ﷺ أن اتَّخذه شاعرًا له، فإذا ما قدِمت الوفودُ بين يدي رسول الله ﷺ ومعها خطيبُها وشاعرُها؛ استدعى ﷺ خطيبَه وشاعرَه، وخطيبُه ثابتُ بن قيس بن شمَّاس، وشاعرُه حسّانُ بن ثابت، فيفاخر أيضًا بمن عنده من الخطباء والشعراء.

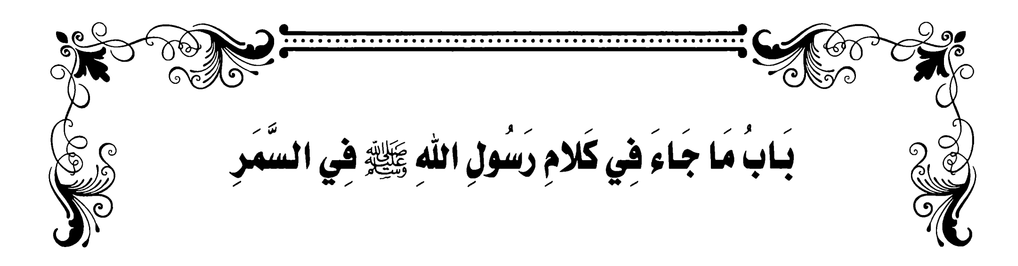
وإنما كان ﷺ يضع لحسّان مِنبرًا في المسجد إذا ما أراده أن ينصُر الإسلام بشِعره.

قولها رضي الله عنها: «**يُنَافِحُ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ**»؛ أي: يُدافع عنه.

قوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ القُدُسِ**»، وروحُ القُدس هو جبريلُ عليه السلام، وما أُيِّد بجبريل عليه السلام إلا لشَرَف مُنافحته ومُفاخَرته برسول الله ﷺ، فنال بذلك التأييد الإلهيَّ من فوق سبع سماوات.

وفي ذلك حثٌّ للشعراء الذي يُفاخِرون ويدافعون عن النبي ﷺ وعن هذا الإسلام؛ بإعلامهم أن الله يؤيّدهم بتأييدٍ مِن عنده، وأنَّ لهم عند الله أجرًا عظيمًا، يَرَون ذلك في ميزان حسناتهم يوم القيامة، ولن تَعدِم هذه الأمة شاعرًا كحسَّان؛ يُنصر به هذا الدين، ويُدافَع بشِعره عن النبي ﷺ.





بَابُ مَا جَاءَ فِي كَلامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي السَّمَرِ

السَّمَرُ: السهَرُ في الليل إذا هدأ، وعمَّ سكونُه، وأَوَت الناسُ إلىٰ بيوتها وناموا، فمَن سهِرَ طرفًا من الليل آنذاك فقد سَمَر، ولا يُسمَّىٰ سَمَرًا إلا إذا خالطه حديثٌ أو انشغالٌ بأمرٍ يأنسُ به.

وقبل الشروع في شرح أحاديث الباب نذكر الهدي النبوي في السَّمَرِ، وذلك أنَّ السنَّة النبوية استقرَّت علىٰ كراهية السَّهَر بعد العشاء، فعن أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه قال: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُؤَخِّرُ العِشَاءَ إِلَىٰ ثُلُثِ اللَّيْلِ، وَيَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَهَا، وَالحَدِيثَ بَعْدَهَا**»(١)، وكراهيةُ النوم قبل العشاء لأنه مَظِنّةٌ لتفويت صلاة العشاء، وذلك أنَّ الناس كانت تقضي سَحَابةَ نهارِها في عملٍ وكدٍّ وكدحٍ في مزارعها وأسواقها وتجاراتها، فإن أَوَىٰ إلىٰ الفراش قبل العشاء مع ما به من التعب والعناء كان مَظِنةً لتفويته الصلاة.

ومعنىٰ كراهيةِ الحديث بعد العشاء: أنّ المستحبَّ أن يأوي المسلم إلىٰ فراشه إذا أتمّ صلاة العشاء وانقضت أشغالُه، وألا يسهر.

وما ثبت في مواضعَ عِدّةٍ من أنه ﷺ جالسَ بعضَ أزواجه رضي الله عنهن أو بعض صحابته رضي الله عنهم بعد العشاء وتحدَّث إليهم، فمحمولٌ علىٰ أنَّ النهي عن السَمَر

(١) أخرجه البخاري (٥٤٧)، ومسلم (٦٤٧) واللفظ له.

بعد العِشاء للكراهة، وأنَّ حديثَه بعد العِشاء فلحاجةٍ أو مصلحةٍ؛ كاستئناسِ أهله به، أو طلبِ علمٍ، أو نحو ذلك.

فالحكمُ الشرعيُّ للسَهَر بعد العِشاء هو الكراهة لِمن ليس له حاجةٌ للسَهَر والسَمَر، أمَّا من كان له حاجةٌ وتحقيقُ مصلحةٍ فلا بأس بذلك.

وبالنظر إلىٰ ما جدَّ في حياة الناس اليوم من وجود كثيرٍ من الأعمال والوظائف اللّيلية، كمن يعمل في المطارات، وأجهزة الأمن، ونحو ذلك، مما استدعىٰ وجودَ فئةٍ من المجتمع تَبقىٰ مستيقظةً ليلًا؛ فإنَّنا بحاجة إلىٰ أن نقف من ذلك موقف الوسط؛ فلا ندعو الناس إلىٰ إغلاق تلك الأعمال، والعودة بهم إلىٰ نمط الحياة في عصورٍ سابقة، ولا يُزعم في المقابل بأنَّه لا مجال لتطبيق سُنَّة عدم السَهَر والسَمَر بعد العِشاء، والنوم المبكِّر.

بل يُقال: إنَّ الهديَ النبويَّ هو الذي يستقيم مع نواميس الكون وفطرة البشرة وما يحتاجونه، مع ما جعله الله من كون الليل لباسًا، والنوم سكنًا، وكون النهار معاشًا، فهذه الأوصاف هي التي تليق بالإنسان، والتي يجب أن يكون عليها معاشُهم ومنامُهم، ومَن طبَّق هذا يكون أكثر صحةً واعتدالًا وسلامةً في البدن والمزاج والأهواء.

ولكن مَن دعَته حياتُه إلىٰ الإخلال بشيءٍ من هذا فلا حرج، والضرورةُ قد تدعوه إلىٰ ذلك، ولكن سيختلُّ شيءٌ من حياته وصحَّته ومزاجه بقدر ما يخالف الفطرة التي فطر الله عليها الإنسان ولا بُدّ!

وأمَّا من لا عُذرَ له فبقاؤه مستيقظًا الساعاتِ الطويلةَ من الليل مخالفٌ للهدي النبويِّ، وسَهَرُهُ آفةٌ يجب عليه أن يتخلَّص منها، وهذا الذي يُعاب علىٰ

مجتمعاتنا اليوم، حتىٰ أصبح طولُ سَهَرهم يخالف ويصادم الأحكام الإسلامية والمقاصد الشرعية؛ فكثيرٌ من هؤلاء الساهرين يفوتهم قيامُ الليل، ويتأخَّرون عن صلاة الفجر، أو يُفَوِّتونها بالكلية، هذا مع ما يصطحبه معه أثناء النهار من تعبٍ وكسلٍ وضعفٍ، بسبب سَهَره وقلَّة نومه، مما يجعله لا يؤدِّي رسالتَه المنوطةَ به علىٰ أكمل وجهٍ.

وهذا هو المنهجُ الوسطُ في هذه المسألة؛ فمن رام حياةً أجملَ وأعظمَ وأسهلَ وأسعدَ فليس له إلا سُنَّة رسول الله ﷺ.

***

(ضعيف) ٢١٤- **عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: حَدَّثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ نِسَاءَهُ حَدِيثًا، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: كَأَنَّ الحَدِيثَ حَدِيثُ خُرَافَةَ، فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا خُرَافَةُ؟ إِنَّ خُرَافَةَ كَانَ رَجُلًا مِنْ عُذْرَةَ، أَسَرَتْهُ الجِنُّ فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَمَكَثَ فِيهِمْ دَهْرًا، ثُمَّ رَدُّوهُ إِلَىٰ الإِنسِ، فَكَانَ يُحَدِّثُ النَّاسَ بِمَا رَأَىٰ فِيهِم مِنَ الأَعَاجِيبِ، فَقَالَ النَّاسُ: حَدِيثُ خُرَافَةَ»**(١).

شرح الحديث

الحديثُ ضعيفٌ سندًا، وفي مَتنه نكارةٌ كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(٢)؛ فأمَّا ضعفُ السَّند فبسببِ ضَعف بعض الرُّواة فيه، وأما النكارةُ فيه فبسبب ما

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٥٢٤٤)، وضعَّفه الألباني في الضعيفة (١٧١٢)، لحال مجالد بن سعيد.

(٢) البداية والنهاية (٦/ ٥٣).

جاء في جواب إحدىٰ زوجات رسول الله ﷺ ـ كما سيأتي ـ .

قول عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**حَدَّثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ نِسَاءَهُ حَدِيثًا**»، وهذا موضعُ الشاهد؛ أنه سَمَر مع أزواجه ذات ليلةٍ، وحدَّثهن حديثًا.

قولها رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: كَأَنَّ الحَدِيثَ حَدِيثُ خُرَافَةَ**»، وهذا مثلٌ ذائعٌ إلىٰ اليوم، أنَّ الحديث إذا تجاوز حدودَ العقل ولم يقبله المنطقُ يُقال له: خُرافة، أو شيءٌ خُرافيّ.

وهذا هو موضع النَّكارة من الحديث الذي قصده الحافظُ ابن كثيرٍ رَحِمَهُٱللَّهُ؛ لأنَّه لا يليق بأمَّهات المؤمنين أن يَقُلْنَ هذا لرسول الله ﷺ، ويصفن كلامَه بالخُرافة.

وبما أنَّ الحديثَ ضعيفٌ سندًا فلا نتكلَّفُ عذرًا يُدْفَع به هذا الكلام؛ لأنَّه لم يثبت هذا القول حتىٰ يُدْفَع.

قوله ﷺ: «**إِنَّ خُرَافَةَ كَانَ رَجُلًا مِنْ عُذْرَةَ**»، وعُذْرَةُ قبيلةٌ من قبائل العرب.

قوله ﷺ: «**فَمَكَثَ فِيهِمْ دَهْرًا**»؛ أي: عاش هذا الإنسيُّ عندهم دهرًا، ثم عاد.

قوله ﷺ: «**فَكَانَ يُحَدِّثُ النَّاسَ بِمَا رَأَىٰ فِيهِم مِنَ الأَعَاجِيبِ**»، وذلك أنَّ عالم الجن عالمٌ عجيبٌ، فيه ما لا يُقاس بعالم الإنس، ويخالف طبيعتهم ونمط حياتهم، فلمَّا حدثهم خُرافةُ بما رآه وسمعه وعاشه لم تُطِقه عقولُهم.

قوله ﷺ: «**فَقَالَ النَّاسُ: حَدِيثُ خُرَافَةَ**»؛ أي: أصبح مثلًا ذائعًا فيقال: (حديثُ خُرافة) لكلِّ من قال شيئًا أو سمع شيئًا لا يقبله العقل.





حَدِيثُ أُمِّ زَرْعٍ

(صحيح) ٢١٥ـ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «جَلَسَتْ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ امْرَأَةً، فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ أَن لَا يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا.

فَقَالَتِ الأُولَىٰ: زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ، عَلَىٰ رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ؛ لا سَهْلٌ فَيُرْتَقَىٰ، وَلا سَمِينٌ فَيُنْتَقَلُ.

قَالَتِ الثَّانِيَةُ: زَوْجِي لَا أُثِيرُ خَبَرَهُ، إِنِّي أَخَافُ أَن لَا أَذَرَهُ، إِنْ أَذْكُرْهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ.

قَالَتِ الثَّالِثَةُ: زَوْجِي العَشَنَّقُ، إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ، وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ.

قَالَتِ الرَّابِعَةُ: زَوْجِي كَلَيْلِ تِهَامَةَ، لا حَرٌّ وَلا قُرٌّ، وَلا مَخَافَةَ وَلا سَآمَةَ.

قَالَتِ الخَامِسَةُ: زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهِدَ، وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ، وَلا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ.

قَالَتِ السَّادِسَةُ: زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفَّ، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ، وَإِنِ اضْطَجَعَ الْتَفَّ، وَلا يُولِجُ الكَفَّ لِيَعْلَمَ البَثَّ.

قَالَتِ السَّابِعَةُ: زَوْجِي عَيَايَاءُ ـ أَوْ غَيَايَاءُ ـ طَبَاقَاءُ، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ، شَجَّكِ، أَوْ فَلَّكِ، أَوْ جَمَعَ كُلًّا لَكِ.

قَالَتِ الثَّامِنَةُ: زَوْجِي المَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبٍ.

قَالَتِ التَّاسِعَةُ: زَوْجِي رَفِيعُ العِمَادِ، طَوِيلُ النِّجَادِ، عَظِيمُ الرَّمَادِ، قَرِيبُ البَيْتِ مِنَ النَّادِ.

قَالَتِ العَاشِرَةُ: زَوْجِي مَالِكٌ، وَمَا مَالِكٌ! مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ، لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ المَبَارِكِ، قَلِيلاتُ المَسَارِحِ، إِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ المِزْهَرِ أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ.

قَالَتِ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ، وَمَا أَبُو زَرْعٍ؟ أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ، وَمَلأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ، وَبَجَّحَنِي فَبَجَحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةٍ بِشِقٍّ فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ وَدَائِسٍ وَمُنَقٍّ، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أُقَبَّحُ، وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ، وَأَشْرَبُ فَأَتَقَمَّحُ، أُمُّ أَبِي زَرْعٍ فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ؟ عُكُومُهَا رَدَاحٌ، وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ، ابْنُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ؟ مَضْجَعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ، وَتُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الجَفْرَةِ، بِنتُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا بِنتُ أَبِي زَرْعٍ؟ طَوْعُ أَبِيهَا، وَطَوْعُ أُمِّهَا، وَمِلْءُ كِسَائِهَا، وَغَيْظُ جَارَتِهَا، جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ؟ لا تَبُثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا، وَلا تُنَقِّثُ مِيرَتَنَا تَنقِيثًا، وَلا تَمْلأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا، قَالَتْ: خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالأَوْطَابُ تُمْخَضُ، فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالفَهْدَيْنِ، يَلْعَبَانِ مِن تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ، فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا، فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا، رَكِبَ شَرِيًّا، وَأَخَذَ خَطِّيًّا، وَأَرَاحَ عَلَيَّ نَعَمًا ثَرِيًّا، وَأَعْطَانِي مِن كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجًا، وَقَالَ: كُلِي أُمَّ زَرْعٍ، وَمِيرِي أَهْلَكِ، فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ.

قَالَتْ عائشة رضي الله عنها: فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُنتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).



شرح الحديث

حديث «أُمِّ زَرْعٍ» حديثٌ طويلٌ مشهورٌ، خرَّجه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحهما، وباقي أصحاب السنن والمسانيد، وفيه قصةٌ لطيفةٌ استَدلَّ بها المؤلِّفُ علىٰ أنَّ النبي ﷺ ربما سامَرَ بعضَ أزواجه وحادثهُنَّ بما لا علاقة له بأحكام الشريعة والدِّين، ومسائل الحلال والحرام، فإنَّ الرجُل مع زوجته يحتاجان أن يتحادثا ويؤانسَها وتؤانسَه بما يكون عادةً في كلام الناس، فالنبي ﷺ كان بشرًا يحتاج ما يحتاجه البشر، ولكنه كان أكمل البشر هديًا، وأرفعهم خُلُقًا، وأعظمَهم سجيّةً ﷺ.

ولم يمتنع النبي ﷺ من مُسامَرة زوجه ومحادثَتها؛ بحجّة مشاغله العظيمة، وهمّه الكبير، فإنَّ هذا لا يتعارض مع جلوسه مع زوجاته ومحادثته لهنّ، فانظر كيف صبر علىٰ حديث زوجته الطويل الذي تتحدُّث فيه عن اجتماعِ وحديثِ نِسْوَةٍ، بل سمعها حتىٰ انتهت، وعلَّق علىٰ ذلك تعليقًا لطيفًا.

وحديثُ «أمّ زَرْع» علىٰ طوله حديثٌ لطيفٌ عجيبٌ، جمع بين لَطافَة المحتوىٰ، وعظيمِ العبرة، وكثرةِ الحِكَم والمقاصد التي هي محلُّ وقوفٍ واستلهامٍ، مما جعل القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجمع هذه الفوائد في رسالة اسمها: «بُغية الرائد لما تضمَّنه حديثُ أمِّ زَرْعٍ من الفوائد»، وكذلك فعل الحافظُ ابن حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه العظيم «فتح الباري في شرح صحيح البخاري»، حيث أَوسعَ هذا الحديثَ شرحًا، وأورد فيه قدرًا كبير من الفوائد واللطائف.

وحديثُ «أمّ زرع» قصةٌ طويلةٌ جعلت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ترويها علىٰ مسامع

رسول الله ﷺ لما فيها من طرافة، ومواضع تعجُّبٍ، وظلَّ ﷺ يستمعُ إليها حتىٰ أتمَّت حديثَها.

وإنما سُمِّيَ الحديثُ بحديث «أُمِّ زَرْع» مع أنهنَّ إحدىٰ عشرة امرأةً؛ لأنها كانت أكثرَ وصفًا لزوجها مِن غيرها، ولأنَّ قصَّتَها كانت أكثرَ عِظةً وعبرةً، كما أنَّها كانت أعظمهنَّ موقفًا وفيًّا في عِشرتها مع زوجها، ولتعليقه ﷺ في آخر الحديث علىٰ خبرها وشأنها دون غيرها.

قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ أَن لَا يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا**»؛ يعني: تعاهدن أنَّ كلَّ واحدةٍ تُخبرُ عن زوجها بما تعرف، ولا تكتمُ شيئًا مِن سرِّه، فما تحدَّثت به كلُّ واحدةٍ منهن هو صفةٌ صادقةٌ تنطبق علىٰ زوجها.

وفي هذا تنبيهٌ للأزواج؛ أنَّ طبعَ كلِّ واحدٍ منهم صفحةٌ مكشوفةٌ، وكتابٌ مفتوحٌ أمام زوجته، تستطيع أن ترىٰ خُلُقَه وشخصيَّتَه الحقيقيَّين، فإنَّ الرجُلَ قد يستطيع أن يتصنَّع أخلاقًا ويتكلَّفَها في السوق أو في العمل أو مع الأصدقاء، ولكن يصعُبُ عليه أن يبقىٰ متكلِّفًا في بيته وأمام زوجه؛ فالاختبارُ الحقيقيُّ والـمِحَكُّ الصادقُ للأخلاق إنما يكون للرجل مع زوجه وأهل بيته.

كما أنَّ المتأمِّل للحديث سيجد أنَّ كلَّ امرأةٍ منهنَّ وصَفَت زوجَها بعباراتٍ قليلةٍ مختصَرة، مما يدلُّ علىٰ أن الرجل الذي عاش مع زوجته سنينَ طويلةً سيبقىٰ شيءٌ من تصرُّفاته وأخلاقه وطباعه هي السِّمةَ البارزةَ التي تنطبع في ذهن زوجته، مع أنَّ أيام الحياة الزوجية تتفاوَتُ بين سعادةٍ ونكَدٍ، ورخاءٍ وشِدَّةٍ، وأُنسٍ وضِيقِ صَدرٍ، ولكن يبقىٰ طبعٌ في الإنسان يغلب عليه يمكن

اختصاره ـ مهما عاش ـ في جُملةٍ أو جُملتين؛ فمهما تقلَّبت الحياةُ الزوجيةُ سيبقىٰ الكريمُ كريمًا، والحليمُ حليمًا، والغَضوبُ غَضوبًا، والأحمقُ أحمقَ، والجاهلُ جاهلًا، وهكذا، وقد يخرج الإنسانُ عن طبعه هذا أحيانًا، ولكن يبقىٰ له سمتٌ أعمُّ وأغلب، ستَصِفُه به زوجتُه لا محالةَ!

وقد يقول بعض الناس: إنَّ زوجتي عاقلةٌ صالحةٌ لا يمكن أن تكشفَ شيئًا من أسراري وأخلاقي، فيُقال له: إنك لا تضمن هذا، ثم إنَّ المرءَ مهما حاول إخفاءَ سِيرته وسريرته فلا بُدَّ وأن ينكشف شيءٌ منها ولو بعد حينٍ، وقد صدق من قال:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَىٰ عَلَىٰ النَّاسِ تُعْلَمِ(١)

وقبل ذلك وبعده علىٰ الإنسان أن يعلم أنَّ الله يراه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**فَقَالَتِ الأُولَىٰ: زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ، عَلَىٰ رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ؛ لا سَهْلٌ فَيُرْتَقَىٰ وَلا سَمِينٌ فَيُنْتَقَلُ**»، شبَّهت زوجَها بلحمِ الجَمل، وهو أقلُّ جَودةً وطِيبًا من لحم الغنم، تعني بذلك: أنَّ زوجَها أنزلُ رتبةً من الرتبة التي يُحْمَدُ عليها الأزواج.

ثم أضافت إلىٰ ذلك وصفًا ذميمًا، وهو أنه لحمٌ غَثٌّ، أي: هَزيلٌ غيرُ مرغوبٍ فيه؛ لأنه قليلُ اللحم، لا يُشْبِع آكلَه، ولا يُغني من جوع، تريد أن تَصِفَه بأنه قليلُ الإحسان.

---

(١) البيت لزُهَير بن أبي سلمىٰ من مُعلَّقته. انظر: شرح المعلَّقات السبع للزوزني (ص١٥١).

ثم زادت ذمًّا لزوجها بأنه لحمٌ غَثٌّ علىٰ رأسِ جبلٍ وَعْرٍ، أي: لحمٌ غيرُ جيّد، وليس في مُتناوَل اليد، بل في رأس جبلٍ يصعب الصعودُ عليه إلا بشقِّ الأنفُس.

ثم ختمت كلامَها بقولها: ليس هو بالجبل السهل الصُّعود فيُرتقَىٰ ويُصعَدُ إليه للوصول إلىٰ لحم ذلك الجمل، كما أنَّ اللحم ليس سمينًا يستحقُّ لأجله أن يتعب الإنسانُ ويَنصبَ للوصول إليه، فهو مرغوبٌ عنه متروكٌ.

فوصفت زوجَها بأسوأ وصفٍ، بعبارةٍ بليغةٍ فيها تشبيهٌ بليغٌ؛ بأنه قليلُ الإحسان، وعْرُ الأخلاق، شرِسُ الطباع، والحياةُ معه نكِدةٌ.

فهذا النمطُ الأوّل من أنماط الأزواج: غَليظُ الطَّبع، فظُّ الأخلاق، شَرِسُ الطباع، الذي ربما لا تَعرفُ المرأةُ من إحسانه إلا أنه زوجُها وأبو أولادها، ولا تعرف شيئًا معه من الكرم والإحسان ولُطف المعاشرة والتودُّد ونحو ذلك.

قولها رضي الله عنها: «**قَالَتِ الثَّانِيَةُ: زَوْجِي لَا أُثِيرُ خَبَرَهُ، إِنِّي أَخَافُ أَن لَا أَذَرَهُ، إِنْ أَذْكُرْهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ**»، قد أوجزت الثانية أكثر من الأولىٰ.

ومعنىٰ: «**زَوْجِي لَا أُثِيرُ خَبَرَهُ**»؛ أي: إنها لن تبُثَّ خبرَه، ولن تسترسل في الكلام عليه، ولكن لم يكن ذلك حَصافةً وعقلًا منها!

ومعنىٰ: «**إِنِّي أَخَافُ أَن لَا أَذَرَهُ**»؛ أي: أخاف إن بدأتُ ألا أترك فيه شيئًا إلا وذكرتُه.

ومعنىٰ: «**إِنْ أَذْكُرْهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ**»؛ العُجَر والبُجَر: مرضٌ يصيب الإبلَ في بطونها وجِلدها، تبدو معه دَمامِلُ وحُبوبٌ، أي: أنَّ المرض له باطنٌ في

البطن وظاهرٌ في الجلد، فأصبح مثلًا عند العرب لمن ذكر مَعايِبَ شخصٍ آخر فلم يترك صغيرةً ولا كبيرةً من معايِبَه إلا وذكرها.

فهي بهذه العبارات تُلمِح إلىٰ كثرة العيوب في زوجها، وأنه مذمومٌ كثيرُ النقائص والسلبيّات.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**قَالَتِ الثَّالِثَةُ: زَوْجِي العَشَنَّقُ، إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ، وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ**»؛ العَشَنَّقُ: الطويلُ المشدودُ الطول، أي: طويلٌ طولًا فاحشًا، وطولُه مكروهٌ مُستقبَحٌ، ليس بالطول الجميل.

ومعنىٰ: «**إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ، وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ**»؛ يعني: أنها لا تَسْلم عنده بحالٍ من الأحوال، إن كلَّمت زوجَها وناقشته وعارضته أو حاولت اعتبر ذلك تعدِّيًا علىٰ حدود الأدب فطلَّقها، وإن سكتَت وتصبَّرت وتحمَّلت كانت مثل المعلَّقة التي لا هي بمتزوِّجة ولا بمطلَّقة.

وهذا نمطٌ آخرُ من أنماط الأزواج، والذي يُسمَّىٰ بلغة اليوم: المتسلِّط أو الديكتاتوري، أي: هو صاحبُ الرأي الأوحد في البيت، ولا يَسمح لغيره برأيٍ أو مقولةٍ أو نقاشٍ، فمحادثةُ البيت ليس فيها أخذٌ وعطاءٌ، ويظنُّ أن هذا هو السمت الأكمل للرجولة، فليس عنده شيءٌ من لِين الجانب، أو توطِئة الأكناف، بل يراها ضَعفًا.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**قَالَتِ الرَّابِعَةُ: زَوْجِي كَلَيْلِ تِهَامَةَ، لا حَرٌّ وَلا قُرٌّ، وَلا مَخَافَةَ وَلا سَآمَةَ**».

كانت الزوجاتُ الثلاثُ السابقاتُ قد ذمَمْن أزواجَهنَّ، وأمَّا هذه الرابعة

فقد وصفته بشيءٍ من المدح والاعتدال.

ومعنىٰ: «**كَلَيْلِ تِهَامَةَ، لَا حَرٌّ وَلَا قُرٌّ**»؛ تِهامةُ: هو ساحلُ الحجاز الممتدُّ علىٰ البحر الأحمر بين الجبل وبين البحر.

وليلُ تِهامة معروفٌ عند ساكنيه ـ إلىٰ اليوم ـ بأنه ليلٌ معتدلٌ، فلا هو حارٌّ ولا هو باردٌ، فلا يكون في الصيف حارًّا حرارةً شديدةً، ولا يكون في الشتاء قاسيَ البرد، بل هو معتدِلٌ.

والقُرُّ: البردُ الشديدُ.

ومعنىٰ: «**وَلَا مَخَافَةَ وَلَا سَآمَةَ**»؛ أي: لا يصيبها الخوفُ من زوجها، فليس هو بالرجل الجبَّار أو الغليظ أو الفظّ، ولا تَسأم منه أيضًا، فليس هو بالهاجِر بيتَه، أو المبتعِد عن عِشرة أهله.

فوصفت زوجَها بوصفٍ مُعتدِلٍ، وهو وإن لم يكن فيه مزيدُ مدحٍ إلا أنَّه سالمٌ من الذمِّ علىٰ أقلِّ الأحوال.

قولها ﵂: «**قَالَتِ الخَامِسَةُ: زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهِدَ، وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ**»، اختلف الشُرَّاح في وصف هذه المرأة لزوجها؛ أهو مدحٌ أم ذمٌّ؟ لكنَّ الأشهرَ والأقربَ أنه مدحٌ.

أي: إن دخل البيتَ فهو كالفَهد الذي يأوي إلىٰ عَرينِه، والفَهدُ إذا دخل عرينَه غَلبَ عليه الوقارُ والسكينةُ والراحةُ والخلودُ إلىٰ النوم.

وإن خرج من البيت فهو كالأسد، أي: هو شجاعٌ مقدامٌ جريءٌ، له هيبتُه ومكانتُه في المجتمع، كما أنَّ الأسد مَلِك الحيوانات، وله هيبتُه وسطوتُه.

ومعنىٰ: «وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ»؛ يعني: لا يسأل عمَّا يجلبه إلىٰ البيت من طعامٍ أو لباسٍ أو غيره، وذلك من كرمه؛ فلا يسأل هل أنهاه أهل البيت أو أتلفوه أو نحو ذلك، وذلك خلافُ الشحيح البخيل الذي يسأل عن كل شيءٍ.

هذا إذا حُمِلَت هذه العبارات علىٰ المدح، وأمَّا إن حُمِلَتْ علىٰ الذمِّ فيكون معناها: إنَّ زوجها كالفهد إذا دخل البيت، أي: كثيرُ النوم، قليلُ المبالاة، يبحث عن راحته لا غير، ولا يسأل أهلَ البيت عن حاجتهم، وإذا خرج يكون كالأسد في نَهَمِه؛ فهو يبحث عن حاجته، وعمَّا يُشْبِع بطنَه لا غير.

وأمَّا عدم سؤاله عمَّا عهِد فهو من باب الإهمال، وعدم الاكتراث بأهل البيت، وعدم القيام بشؤون البيت كما ينبغي، بل يترك الحبلَ علىٰ غاربِه.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «قَالَتِ السَّادِسَةُ: زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفَّ، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ، وَإِنِ اضْطَجَعَ الْتَفَّ، وَلا يُولِجُ الكَفَّ لِيَعْلَمَ البَثَّ»، وصفت زوجَها بالأنانية، أي: إذا أكل لَفَّ ما أمامه من الطعام فما أبقىٰ لأهل البيت شيئًا، وإذا شرِب أتىٰ علىٰ الشراب إلىٰ آخره، فلا يُبقي لأهل البيت شيئًا؛ فهو نهِمٌ كثيرُ الأكل كثيرُ الشرب، لا يُشبعه طعامٌ ولا يَرويه شرابٌ.

ثم عند النوم والاضطجاع يلتفُّ باللِّحاف وحده، ولا يترك شيئًا منه لزوجته لتلتحف به؛ فهو أنانيٌّ في طعامه وشرابه وفراشه.

ومعنىٰ: «وَلا يُولِجُ الكَفَّ لِيَعْلَمَ البَثَّ»؛ أي: لا يُدخِل كفَّه ويدَه في بيته، ويتحسَّس أحوالَ زوجه وأولاده؛ ليعلمَ ما يبثُّونه من أحزانٍ وهمومٍ، أي: لا يعيش همومَ أهل بيته، ولا يسأل عمَّا يعتريهم؛ فلا يسأل عن سبب حُزن

الحزين، ولا عن مَرَض المريض، ولا عن غمِّ المغموم، فما عنده شفقةٌ، ولا يتحمَّل مسؤوليةً.

والذي ينبغي علىٰ الزوج أن يُعامِل زوجته به أنها شريكتُه في الحياة، ويتفقَّد أحوال أبنائه لأنهم قطعةٌ منه، لا أن يتنصَّل من مسؤولياته وواجباته وما كلَّفه الله به، ليقتصر علىٰ نفسه وهمِّه وحاجته فحسب!

قولها ﵂: «**قَالَتِ السَّابِعَةُ: زَوْجِي عَيَايَاءُ ـ أَوْ غَيَايَاءُ ـ طَبَاقَاءُ، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ، شَجَّكِ، أَوْ فَلَّكِ، أَوْ جَمَعَ كُلًّا لَكِ**»، هذه وصفت زوجَها بأنه أحمقُ شرِّيرٌ.

ومعنىٰ: «عَيَايَاء»؛ من العِيِّ، وهو الحُمْقُ، لا يُفْصِحُ إذا تكلَّم، فلسانُه لا يُفْهَم منه شيءٌ إذا تكلَّم، ولا يُفْهَم مطلوبُه إذا أمر ونهىٰ.

ومعنىٰ: «**غَيَايَاء**»؛ من الغيِّ، وهو السفاهةُ والإغراقُ في الضلال.

ومعنىٰ: «**طَبَاقَاء**»؛ أي بلغ به الحمقُ والضلال درجةً أطبقت عليه؛ فليس هو بالعَييِّ أو الغَويِّ أحيانًا، بل أطبقت هذه الأوصاف عليه فلا ينفكُّ عنها.

ومعنىٰ: «**كُلُّ داءٍ لَهُ داءٌ**»؛ أي: كلُّ داءٍ وسُوءٍ موجودٍ في الناس موجودٌ في زوجها، فجَمعَ كلَّ الأمراض الذميمة والمعِيبة، وصَفَتْه بأنه مَجمعٌ لخصال الشرِّ والسوء والفساد.

ومعنىٰ: «**شَجَّكِ**»، تصف تعامُله معها؛ فهو إذا ضَربها قد يَشُجُّها، أي: يجرح رأسَها حتىٰ يسيل منه الدم.

ومعنىٰ: «**أَوْ فَلَّكِ**»، إذا ضربها فلم يَشُجَّها فهو يكسِر عُضوًا فيها.

ومعنىٰ: «**أَوْ جَمَعَ كُلًّا لَكِ**»؛ أي: قد يضربها ويجمع لها الأمرين؛ فيَشُجُّها ويَكسِرُها.

والمقصود أنها لا تسلمُ منه بحالٍ، فإما أن يجرحَ رأسَها، أو يكسِرَ لها عظمًا، أو يجمع لها الوصفين، فحياتُها معه لا تُذْكَر بخير.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**قَالَتِ الثَّامِنَةُ: زَوْجِي المَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبٍ**»؛ مسُّ الأرنبِ مسٌّ لطيفٌ ناعمٌ، فوصَفَت زوجَها بتمام اللُّطف والوداعة، فيتعاملُ بهدوءٍ حتىٰ وإن كان غاضبًا، فغايةُ ما عنده عند الِخصام هو العِتابُ الرقيقُ والكلامُ اللطيفُ.

ورائحتُه رائحةُ زَرْنَبٍ، والزَّرْنَبُ نباتٌ ممدوحٌ عند العرب بطِيب رائحته، فهو كالقَرَنفل، أي: أنه يعتني بهيئته في البيت فهو جميل الرائحة.

فمدَحَته باللَّطافة في التعامُل، وحُسن الرائحة والهيئة.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**قَالَتِ التَّاسِعَةُ: زَوْجِي رَفِيعُ العِمَادِ، طَوِيلُ النِّجَادِ، عَظِيمُ الرَّمَادِ، قَرِيبُ البَيْتِ مِنَ النَّادِ**»، وصَفَت زوجَها بالكرم والسخاء والجُود.

معنىٰ: «**رَفِيعُ العِمَادِ**»، وصفته بالطُول وصفًا معنويًا؛ فإنَّ عِماد البيت: هو عَمود الخيمة الذي يكون في منتصفها، يُنصَبُ ويقوم عليه سقفُ الخيمة.

ورِفعةُ العِماد تدلُّ علىٰ طُول الخَيمة، وطُول الخَيمة يشير إلىٰ كرم صاحبها؛ لأنهم كانوا يرفعون السَّقف والبناء ليراها الضيوف مِن مكان بعيد فيقصدونها للضيافة.

فهو شريفُ النسب، كريمُ الخِصال، معروفٌ بالكرم والخير والجُود في مجتمعه.

ومعنىٰ: «**طَوِيلُ النِّجَادَ**»، وصفته بالطُّول وصفًا حِسِّيًّا؛ فإنَّ النِّجَاد: حَمائلُ السَّيف، حيث كان العرب يحملون السيف بحبلٍ معلَّقٍ علىٰ الرقاب يجعلون فيه غِمدَ السيف، فحِمَالةُ السيف تُسمَىٰ: نِجادًا، وهذا الحبلُ يتفاوت طولًا وقِصَرًا بحسب طول الرجُل وقِصَره، فالرجُلُ الطويلُ يحتاج إلىٰ نِجادٍ طويلٍ، والقصيرُ يكون نِجادُه قصيرًا وإلا تدلَّىٰ سيفُه علىٰ الأرض، فوصفُه بأنه طويلُ النِّجاد هو وصفٌ له بالطُّول.

ومعنىٰ: «**عَظِيمُ الرَّمَادِ**»؛ أي: رَمادُ بيته كثيرٌ، وإنما يكثُرُ الرَّماد إذا كثُر إيقاد النار، وإنما يكثُر إيقاد النارِ لأجل الطبخ عليها إكرامًا للضيوف، فعِظَمُ الرَّماد وكثرتُه دلالةٌ علىٰ الكرم، وهذه كنايةٌ مشهورةٌ عند العرب إذا أرادوا وصف شخصٍ بالكرم قالوا: «كثيرُ الرَّماد».

ومعنىٰ: «قَرِيبُ البَيْتِ مِنَ النَّادِ»؛ النادي: هو مجمَعُ الرِّجال؛ يجلسون فيه ويتسامرون.

وقُربُه من البيت يدلُّ علىٰ كرمه أيضًا، إذ كلَّما قدِم غريبٌ أو مسافرٌ أو ضيفٌ إلىٰ نادي قومه ومجتمعهم يكون بيتُه أقربَ بيتٍ للضيافة وإيواء هذا الغريب أو المحتاج، كما أنَّ قُربَه من النادي يجعله يتحمَّلُ ضيافةَ أهلِ النادي وإكرامهم ممن هم مِن أهل البلد.

فوصَفَته بالكرم والجود والسخاء.

قولها رضي الله عنها: «قَالَتِ العَاشِرَةُ: زَوْجِي مَالِكٌ، وَمَا مَالِكٌ! مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ، لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ المَبَارِكِ، قَلِيلَاتُ المَسَارِحِ، إِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ المِزْهَرِ أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ»، هذه أيضًا وصفت زوجَها بالكرم، وقد مرَّ وصفُ بعض الزوجات أزواجَهنَّ بالكرم، وذلك أنَّ الكرمَ من الخصال الشريفة والطباع الحَسَنة، ومهما تفاوَتَ الناسُ في الأخلاق فإنَّ الكرَمَ يبقىٰ من أبرز الخصال وأكثرها تأثيرًا في نفوس الناس، فلأجل ذلك كان من أكثر الخصال التي اشتهر بها العربُ بين الأُممِ هي الكرم، ولا يزال العربيُّ الأصيلُ يجد في نفسه من الكرم ما يدفعه إلىٰ البذل والسخاء.

وهكذا تجد الرجال يتفاوتون في الأخلاق؛ فمنهم الكريم، ومنهم الحليم، ومنهم الأمين، ومنهم الصدوق، لكن يبقىٰ الكرمُ هو الأكثر تأثيرًا في نفوس الناس، فإنه يأسِرُ قلوبَهم، وفي مقابل ذلك فإنَّ أخسَّ الصفات الذميمة في الرجال هي البُخل والشُّحُّ، والمرأةُ قد تحتملُ الكثير من الصفات المذمومة في الرجُل ولكنها لا تحتمل الشُّحَّ والبُخلَ، فالشُّحُّ أكثر ما يُسبِّبُ النكدَ في الحياة الزوجية.

معنىٰ: «زَوْجِي مَالِكٌ»: اسمُ زوجها مالكٌ.

معنىٰ: «وَمَا مَالِكٌ؟»: استفهامٌ تعجُّبيٌّ، تُشَدُّ به الأسماع ليُسْمَع ماذا سيُقال، أي: اسمع عن زوجي مالك، وماذا سأتكلَّم عنه.

معنىٰ: «مَالِكٌ خَيْرٌ مِن ذَلِكَ»؛ أي: اسمُه علىٰ مُسَمَّاه؛ فإنه كثير المِلك، قد وسَّع الله تعالىٰ له في العطاء، وهو خيرٌ من ذلك.

معنىٰ: «لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ المَبَارِكِ، قَلِيلَاتُ المَسَارِحِ»؛ المَبارِك: المواضع

التي تأوي إليها الإبل وتَبْرُك فيها في الليل، فإذا أصبح الصباح غدا بها الراعي إلىٰ مَسَارِحِها.

وتقصد: أنَّ زوجَها كثيرُ الإبل، ولكن الإبلَ الموجودةَ في المبارك أكثر من الموجودة في المسارح، وإنما يستبقِي زوجُها تلك الإبل في مَبَاركها حتىٰ إذا احتاج لنحرِ تلك الإبل لضيوفه كانت موجودةً جاهزةً، فهو يُبقي قدرًا كبيرًا منها بجانب البيت تحسُّبًا لمجيء الضيوف.

ومعنىٰ: «إِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ المِزْهَرِ أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ»؛ المِزْهَر: آلةٌ من المعازف، وكانت تُسْتَخدَم كالجرسِ للإعلام بإقبال الضيوف، فإذا سمعه أهل البيتِ استعدُّوا للضيوف.

ومعنىٰ كلامها: أنَّ الإبلَ إذا سمعت صوت المِزْهَر عرفت أنها ستُنحَر عمَّا قريبٍ؛ لأنَّ صاحبَها كلما جاءَه ضيفٌ نحر له الإبل.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**قَالَتِ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ**»، وهي الأخيرة، وهي أُمُّ زرعٍ التي سُمِّي الحديثُ باسمها، ولم تكتفِ أمُّ زرعٍ بوصف زوجها، بل وصفَتْه، وأمَّه، وابنَه، وبنتَه، وجاريتَه، مبالغةً في مدح هذا الرجل الذي تعلَّق قلبُها به.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ**»؛ أي: ملأ أذُني بالحُلِيّ، وأعطاني منه ما آنسُ به، حتىٰ تدلَّىٰ هذا الذَّهبُ والحُلِيُّ علىٰ نحري؛ إشارةً إلىٰ عظيم كرمه.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**وَمَلأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ**»؛ العضُد: أعلىٰ اليد قبل الكتِف، أي: وجدت عنده من الطعام ما ملأت به عَضُديها شحمًا، وامتلاءُ العَضُدين يدلُّ علىٰ امتلاء البدن.

قولها ﵂: «**وَبَجَّحَنِي فَبَجَحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي**»؛ أي: فرَّحني، حتىٰ فَرِحت نفسي من كثرة ما وجدت عنده من الخير والعطاء.

قولها ﵂: «**وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةٍ بِشِقٍّ**»؛ أي: وجدني في أهلي أصحابِ غُنَيماتٍ قليلاتٍ، تشير إلىٰ قِلَّة الحال، والشِّقُّ: ناحيةٌ ما، ليست معروفة.

قولها ﵂: «**فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ وَدَائِسٍ وَمُنَقٍّ**»؛ أهلُ الصَّهِيل: أهلُ الخَيل، والأَطِيطُ: الإبل، والدَّائسُ: البقر تدوس علىٰ الزرع، ومُنَقٍّ: الغِربالُ الذي تُنخَل به الحبوبُ وتُنقَّىٰ.

أي: انتقل بي من حياة الغُنَيماتِ القليلات إلىٰ حياةِ خيراتٍ وبركاتٍ، فيها خيولٌ وإبلٌ وزرعٌ وبقرٌ.

قولها ﵂: «**فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أُقَبَّحُ، وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ، وَأَشْرَبُ فَأَتَقَمَّحُ**»؛ أي: إذا تكلَّمتُ لم يُقَبِّحني في قولي، وإذا نِمتُ أهنأ في نومي وأنام حتىٰ الصبح، ولا أجد في ذلك غضاضةً ولا يزعجني في نوم أحدٌ، وإذا شربتُ فإني أشرب حتىٰ أرتوي، تشير بذلك إلىٰ النعيم الذي تقلَّبت فيه عنده.

وإنما ذكَرَت ارتواءَها من الشراب لأنَّ الماءَ كان قليلًا عند العرب كما هو معلومٌ، وهم أهلُ صحراءٍ وبادية، وفي هذا إشارةٌ إلىٰ عِزِّهم وغِناهم.

قولها ﵂: «**أُمُّ أَبِي زَرْعٍ فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ؟ عُكُومُهَا رَدَاحٌ**»؛ العُكُومُ: قِربةٌ من الجِلد تُجْمَع فيها الأواني، أي: أوعيتُها التي تُحفظ فيها آنيتُها كبيرةٌ، أي: هي امرأةٌ كثيرةُ الأدوات، وهذا إشارةٌ إلىٰ الغِنىٰ والسَّعة.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ»؛ أي: بيتها كبيرٌ مُتَّسِعٌ، ويدلُّ ذلك على الغِنى، وعلى سَعَة العَيش، ورُبَّما دلَّ أيضًا على كثرة الضيوف؛ فإنَّ مَن كَثُر ضيفُه احتاج أن يُوَسِّع منزله لاستقبالهم.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ابْنُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ؟ مَضْجَعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ»؛ الشَّطْبَةُ: القِطعةُ من الجَريد، ومَسَلُّ الشطبة: القطعةُ من الجريد إذا استُلَّتْ. تشير بذلك إلى نحالة جِسمه وقلَّة لحمه، فالمكانُ الذي ينام فيه ويضطجعُ كقطعةٍ مُسْتَلَّةٍ من الجَريد.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَتُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الجَفْرَةِ»؛ الجَفْرةُ أقلُّ الغَنم لحمًا، والذِّراعُ مِن أقلِّ ما في الغنم من اللَّحم، وهو يَشبع من ذِراع الجَفرة؛ إذ يُشبعه الشيءُ القليلُ من الطعام، ومِمَّا يُمدَح به الرجالُ الاكتفاءُ بقليل الطعام، والبَدانَةُ مذمومةٌ فيهم.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «بِنتُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا بِنتُ أَبِي زَرْعٍ؟ طَوْعُ أَبِيهَا، وَطَوْعُ أُمِّهَا»؛ أي: هي بارَّةٌ بوالديها، مطيعةٌ منقادةٌ لهما، وذلك أجمل ما يكون في البنتِ؛ فإنَّ البنت فيها من الأُنوثة ورِقَّة الطباع ما تجعل والديها يميلان إليها، فإذا أضافت إلى ذلك طاعتَها واستجابتَها لأمرهما أَسَرَت قلوبَهما.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَمِلْءُ كِسَائِهَا»؛ أي: تملأُ كِساءَها إذا اكتست به، وهذا كنايةٌ عن امتلاء البدن، وامتلاءُ البدن محمودٌ في النساء مذمومٌ في الرجال، وليس المقصود بذلك البَدانة، وإنما امتلاءُ الجسم دون البدانة، هذا إذا كان المقصود أنها تملأ كِساءَها مَلأً حِسِّيًّا.

وقد يكون مَلْؤُها كِساءَها مَلأً معنويًّا مجازيًّا، أي: أنَّها صاحبةُ سُمعةٍ طيبةٍ، وذِكْرٍ حَسَنٍ، فتملأُ ثيابَها في عين ناظِريها وسامِعِيها.

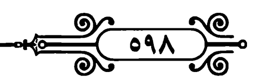
قولها ﵂: «**وَغَيْظُ جَارَتِهَا**»؛ الجارَةُ: هي الضَّرَّة، أي: أنَّ جارتها تغتاظ مما تراه من حُسنها وجمالها وخُلُقها وطاعتها لزوجها؛ فإنَّ المرأة إذا كانت كذلك لا شكَّ أنها ستملأ قلب زوجِها حُبًّا.

قولها ﵂: «**جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ؟**»، من حُبِّها لأبي زرعٍ مدحت جاريتَه، والجواري عادةً لسن محلَّ المدحِ والثناءِ وذكرِ المناقب، وإنما هُنَّ لخدمة البيوت، لكنها مَدَحتها من شدَّة امتلاءِ قلبِها بحُبِّ أبي زَرعٍ، فمن شِدَّة حُبِّها له رأت أنَّ جاريتَه تستحقُّ الثناءَ والمدحَ أيضًا.

قولها ﵂: «**لا تَبُثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا**»؛ أي: هي كَتومةٌ وأمينةٌ علىٰ أسرار البيت فلا تُفشيها، وذلك أن الخادمةَ والجاريةَ تكون في البيت فتسمعُ كلامَ أهلِ البيت، وحوارَ الزوجين، وهي ليست من أهل البيت، فقد تنقُل أسرارَهم لغيرهم، ولكنها من أمانتها ووفائها جعلت نفسَها فردًا من أفراد البيت، وكتَمَت أسرارَهم ولم تُفشِها، وذلك من غاية ما يُمتدَح به الخَدَمُ والعُمَّال ونحوهم.

قولها: ﵂ «**وَلا تُنَقِّثُ مِيرَتَنَا تَنقِيثًا**»، والـمِيرَةُ: طعامُ البيت وغِذاؤُه، وما يُدَّخَر من القُوت.

يعني: لا تَنقُل طعامَنا وتُخرجه من البيت، ولا تَعبثُ به، فهي أمينةٌ علىٰ ما في يدِها من طعامٍ وشرابٍ، تحفظه وتصونه؛ فهي أمينةٌ علىٰ ما تحت يدها.



قولها ﵂: «**وَلَا تَمْلَأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا**»؛ أي: تقوم بشؤون البيت ونظافته؛ فلا يظهرُ فيه قمامةٌ ولا أذىً ولا وَسَخٌ.

كلُّ هذا الثناء والمدح، ووصفِ عِيشتها الجميلة إنما كان توطئةً لما بعده؛ لأنَّ حالةَ أمِّ زَرعٍ لم تستمرَّ علىٰ هذه المعيشة الجميلة، بل انقلب أمرُها رأسًا علىٰ عَقِب، فما كان السامِعُ سيتصوَّر أنَّ هذه القصَّةَ الجميلةَ وهذا المدحَ العظيمَ سينتهي بالنهاية الآتية.

قولها ﵂: «**قَالَتْ: خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالأَوْطَابُ تُمْخَضُ**»؛ الأوطاب: جمع وَطْبٍ، وهو سِقاءٌ يكون فيه اللَّبن كالقِرْبة، مصنوعٌ من الجِلد، يُجعَل فيه اللَّبن ويُخَضُّ، وذلك شأنٌ يعرفه أهل البادية؛ فإنهم إذا حلبوا الشِّيَاهَ والأبقارَ والنُّوقَ، وأرادوا حِفظ الحليب حتىٰ لا يفسُد مع حرارة الجوِّ وطول الزمان، ولم يكن آنذاك عندهم برّاداتٌ أو ثلاجاتٌ، فيجعلونها في هذه الأوطاب ويَمخَضُونها، ويصنعون منه الجبن ونحوه.

تشير إلىٰ الوقت الذي خرج فيه أبو زَرعٍ من بيته، وحصل له ما حصل، وأنه كان وقت جمع الألبان وتصنيعها، وهو إشارةٌ إلىٰ موسم الأمطار والخيرات والزرع والربيع.

قولها ﵂: «**فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالفَهْدَيْنِ**»؛ أي: وجد امرأةً معها طفلان لها، ومن صفة هذين الطفلين أنهما كالفَهدين، في الجَمال والرَّشاقة والقُوَّة والأوصاف الحَسَنة.

قولها ﵂: «**يَلْعَبَانِ مِن تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ**»؛ أي: يلعبُ الطفلان

حول أُمِّهما تحت خَصْرها؛ بأن يَدخُل أحدُهما من هذه الجهة والآخرُ من الجهة الأخرىٰ، ويتلاعبان مع أُمِّهما.

والمقصود بالرُّمَّانتين: أنهما كانا يلعبان بفاكهة الرُّمَّان، وقيل: كانا يلعبان بثَدْي أُمِّهما، شُبِّه بالرُّمَّانة لجماله؛ حيث كانت العرب تُشَبِّه الثديَ الجميلَ بالرُّمَّان.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا**»؛ أي: كانت رؤيتُه لتلك المرأة علىٰ هذه الحال سببًا لتعلُّق قلبِه بها، فطلَّق أمَّ زَرعٍ، وتزوَّج تلك المرأة!!

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا**»، تصِفُ زوجَها الجديد، أي: رجُلًا من أشراف الناس وأسيادهم، له منزلةٌ في قومه.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**رَكِبَ شَرِيًّا**»، والشَّرِيُّ: الخيلُ الذي يمشي بقوَّةٍ وثباتٍ واتِّساعِ الخُطَا، وهذا إنما يكون في الخيول النفيسة الأصيلة التي لا يقتنيها أيُّ أحد، أي: إذا ركِب إنما يركبُ من الخيول الأصيلة والنفيسة والغالية الثمن، وفي هذا دلالةٌ علىٰ غِناه وثرائه.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**وَأَخَذَ خَطِّيًّا**»؛ أي: يُمسك بالرُّمح ويَستَلُّه، تَصِفُه بالفروسيَّة والشجاعة والقيادة.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**وَأَرَاحَ عَلَيَّ نَعَمًا ثَرِيًّا**»؛ أي: أعطاني إبلًا كثيرةً(١).

---

(١) انظر: مشارق الأنوار (٢/ ١٧)، وفتح الباري (١/ ٩٤).

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**وَأَعْطَانِي مِن كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجًا**»؛ المقصود بالرائحة هنا: البهيمةُ التي تَغدُو وتَروح، وليس المقصود الطيِّب من الرائحة.

أي: أعطاني من كلِّ أنواع الأنعام؛ فأعطاني زوجًا من الغَنم، وزوجًا من البقر، وزوجًا من الخيل، وزوجًا من الإبل، ملَّكها إياها علىٰ سبيل التوسعة عليها.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**وَقَالَ: كُلِي أُمَّ زَرْعٍ، وَمِيرِي أَهْلَكِ**»؛ أي: تنعَّمي وتلذَّذي بالطيِّبات، وأعطي أهلَك مِن القوت لتوسِّعي عليهم، ومن مُنتهىٰ الكرم أن يتجاوزَ كرمُ الرجُلِ زوجتَه إلىٰ أهلها، فهو إنما يُكرمهم لكرامتها عنده، وحُبِّه واحترامِه وتقديرِه لها.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ**»، فكلُّ ما أعطاها الزوج الثاني من الخيرات والنِّعَم لا يبلغ عندها أصغرَ إناءٍ كان موجودًا في بيت أبي زَرْعٍ الذي طلَّقها.

ولم يكن هذا إنكارًا لحقِّ الزوج الثاني، وإنما لما كان لأبي زرعٍ من قدرٍ كبيرٍ عندها، حيث أحسن إليها إحسانًا ما استطاعت أن تنساه، فقالت هذا وفاءً له، مع أنَّه أساء إليها بتطليقه إياها، وفي هذا مصداقٌ لقول أبي تمام:

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ　　　مَا الحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الأَوَلِ[1]

وهنا انتهت قصَّةُ المرأة الحاديةَ عشرةَ، وخُتِمَت بأمِّ زَرْعٍ لعظيمِ وصفِها وتعداد مناقب زوجها.

---

(١) ديوان أبي تمام (٤/ ٢٥٣).

قوله ﷺ: «كُنتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ»؛ وذلك أنَّها ذكرت له من أصناف الرِّجال بحسب ما وصفت نساؤهم؛ ففيهم الأنانيُّ، والكريمُ، وجميلُ الخِلقة، وسيِّئُ العِشرة، والحليمُ، ولكنَّ أوصافَ أبي زرعٍ كانت أفضلَ من أوصاف مَن سبقه، فجعل نفسَه ﷺ لعائشة في مقامِ أبي زَرْعٍ لأمِّ زَرْعٍ؛ وذلك من ناحية الكرم والعطاء، وأيضًا من ناحية محبَّة عائشة للنبي ﷺ.

وفي هذا من ملاطفة الزوجة ما لا يخفىٰ؛ فإنَّ عائشة ﵂ إنما كانت تحادثُه من باب المسامَرَة، ولقد استغلَّ ﷺ هذه الفرصة لملاطفتها ومداعبتها، وفي هذا تعليمٌ للأزواج كيفيَّةَ معاملةِ زوجاتهم، والتلطُّف معهنَّ، والإحسان إليهنَّ بالقول.

وفي بعض الرِّوايات التي ذكرها الحافظُ ابن حجرٍ ﵀: «**إِلَّا إِنَّهُ طَلَّقَهَا، وإِنِّي لا أُطَلِّقُكِ**»(١).

وفي روايةٍ أنَّ عائشةَ ﵂ قالت: «**بَلْ أَنتَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي زَرْعٍ**»(٢)، ولا شكَّ في هذا؛ فمَن ذا الذي يُقارَن برسول الله ﷺ في أيِّ جانبٍ من جوانب حياته؟

ومن فوائد الحديث: أنَّ النساء أصنافٌ كما أنَّ الرجالَ أصنافٌ، فمنهنَّ الصَّبورةُ، ومنهنَّ الحمقاءُ، ومنهنَّ ناكرةُ الجميل كافرةُ العَشِير، ومنهنَّ الحافظةُ للوفاء كأمِّ زَرعٍ، وهكذا.

---

(١) فتح الباري (٩/ ٢٧٥).

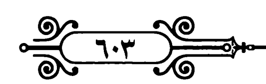
(٢) السنن الكبرىٰ للنسائي (٩٠٩٣).

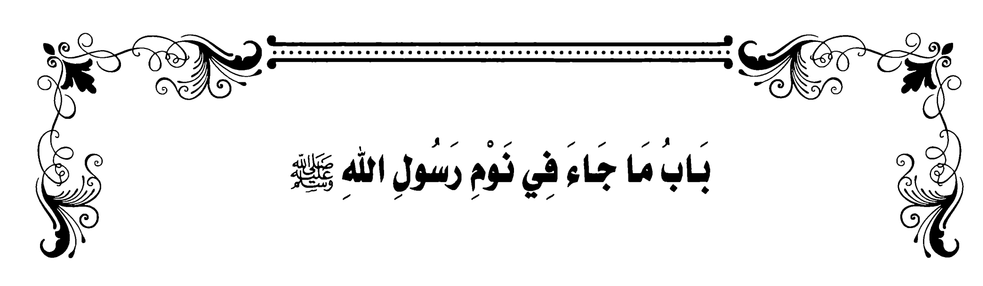
ومن الفوائد أيضًا: ما قاله الإمام المازري رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال بعضهم: وفيه أنَّ بعضهنَّ قد ذكرنَ عيوبَ أزواجهنَّ، فلم يكن ذلك غِيبة؛ إذ كانوا لا يُعرفون بأعيانهم وأسمائهم، وإنما الغِيبة: أن يقصد لأعيانٍ من الناس فيذكروا بما يكرهون من القول ويتأذَّون به، وإنَّما يفتقر عندي إلىٰ الاعتذار عن هذا لو كان النبيُّ ﷺ سمعَ امرأةً تغتاب زوجَها من غير أن تُسمِّيه فأقرَّها علىٰ ذلك، فأما حكاية عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن نساءٍ مجهولاتٍ لا يُدرىٰ من هنَّ في العالم، ولسنَ بحاضراتٍ يُنكر عليهنَّ، فلا يكون حجةً علىٰ جواز ذلك.. لكن المسألة لو نزلت ووَصفَتِ امرأةٌ زوجَها بما هو غِيبةٌ وهو معروفٌ عند السامعين؛ فإنَّ ذلك ممنوعٌ، ولا فرقَ بين قولها: فلان بن فلان مِن صفته كذا وكذا، أو زوجي مِن صفته كذا وكذا، وهو معروفٌ، لكن لو كان مجهولًا وممَّن لا يُعرف بعد البحث عنه = فهذا الذي لا حرَجَ فيه علىٰ رأي بعضهم الذي قدَّمناه»(١).

** ** **

---

(١) المعلم بفوائد مسلم (٣/ ٢٦٢)، وانظر: إكمال المعلم (٧/ ٤٧٠- ٤٧١)، وفتح الباري (٩/ ٢٧٦- ٢٧٧).





بَابُ مَا جَاءَ فِي نَوْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

كان الباب السابق في سَمَرِ النبي ﷺ، والسَّمَرُ إنما هو حديثُ اللَّيل قبل النوم، فناسب أن يكون البابُ الذي بعده في نوم النبي ﷺ.

فإنَّ النبي ﷺ كان بَشرًا رسولًا، يفعل ما يفعله البشرُ من النوم وغيره، فيتعلَّم المؤمن منه ما يفعله في نومه، كما يتعلَّم منه ما يفعله في يَقَظته، وفي كلِّ شؤون حياته.

وفي هذا الباب ذِكْرُ كيفية نوم النبي ﷺ، والأذكار التي كان يقولها ﷺ قبل النوم علىٰ فراشه.

***

(صحيح) ٢١٦ـ **عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ وَضَعَ كَفَّهُ اليُمْنَىٰ تَحْتَ خَدِّهِ الأَيْمَنِ، وَقَالَ: «رَبِّ، قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ ـ وَفِي رِوَايَةٍ: تَجْمَعُ ـ عِبَادَكَ»**(١).

شرح الحديث

في هذا الحديث بيانٌ لثلاث سُنَنٍ كان يفعلها النبيُّ ﷺ عند نومه، وهي

(١) أخرجه أحمد (٢٣٢٤٤).

سُنَنٌ يغفل عنها كثيرٌ من الناس.

قول البراء بن عازب رضي الله عنهما: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ**»؛ أي: أتىٰ المكانَ الذي ينام فيه، واضطجع.

قوله رضي الله عنه: «**وَضَعَ كَفَّهُ اليُمْنَىٰ تَحْتَ خَدِّهِ الأَيْمَنِ**»، في هذا بيانٌ للسُّنَّة الأولىٰ: وهي أنَّ النبي ﷺ كان ينام علىٰ جَنبه الأيمن.

وهذا خلافُ المَثَل الجاري علىٰ ألسنة الناس: نَمْ علىٰ الجنب الذي يُريحك، بل علىٰ المسلم أن يقتديَ بسُنَّة نبيِّه ﷺ، وينام علىٰ جنبه الأيمن، فإنَّ المسلم إذا ربَّىٰ نفسَه علىٰ الانقياد لسُنَّة النبي ﷺ، وجاهدها ليتعوَّد علىٰ النوم علىٰ جانبه الأيمن، وفَّقه الله لهذا.

السُّنَّة الثانية: أنه كان يضع كَفَّه اليُمنىٰ تحت خَدِّه الأيمن.

وممّا ذكره الأطبَّاء المعاصرون: أنَّ هذه الهيئة في المنام أكثرُ ملائمةً لجسد الإنسان، وأفضل لدوام الصحَّة، وفيها من الفوائد للجهاز الهضمي والجهاز التنفسي والجسم كافَّةً الشيء الكثير، كما أنَّه أنشط لجسم الإنسان، وأكثر راحةً في النوم.

ولكن علىٰ الإنسان إذا أراد تحصيل الأجر وثواب هذا الفعل أن ينويَ أنه ينام بهذه الهيئة تطبيقًا للسُّنَّة، واقتداءً بالنبيِّ ﷺ، لا أن ينحصر قصده في نيل ما يذكره الأطبَّاء، ومَن فعله بقصد الاقتداء ملأ ذلك قلبَه حُبًّا للنبي ﷺ.

قوله ﷺ: «**رَبِّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ ـ وَفِي رِوَايَةٍ: تَجْمَعُ ـ عِبَادَكَ**»، السُّنَّة الثالثة: قول هذا الدعاء قبل النوم.

وناسب هذا الدعاءُ أن يكون قبل النوم؛ لأنَّ النومَ مَوتةٌ صُغرىٰ، يعقُبها بعثٌ وهو الاستيقاظ، فهو تذكيرٌ للإنسان بموتته الكبرىٰ وبعثِه يوم القيامة، فناسب أن يدعو المسلم بهذا الدعاء قبل نومِه وموتتِه الصغرىٰ.

وإنما كان النومُ موتةً صغرىٰ؛ لأنَّ الروحَ تخرج من الجسد، كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، ثم الناس ينقسمون إلىٰ قسمين؛ فمنهم من يتوفَّاه الله في منامه، قال سبحانه: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾؛ أي: يمسك الروح فلا تعود إلىٰ الجسد، وقسمٌ تعود روحُه إلىٰ جسده، قال سبحانه: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

ولكنَّ أكثرَ الناس قد تعوَّدوا أن تكون حياتُهم علىٰ هذا النمط؛ ينامون ثم يستيقظون، فلا يشعرون بهذه النعمة التي تتجدَّد عليهم كلَّ يوم.

وإنما دعا ﷺ بالوقاية من العذاب في هذا المقام؛ لأنَّ النائمَ قد لا يستيقظ، فتكون موتتُه الكبرىٰ، وما بعد الموت إلا البعث والجزاء والحساب، فناسب أن يسأل المسلمُ في هذا المقام الوقايةَ من العذاب.

*** لفتة إيمانية:**

هكذا يكون القلبُ الحيُّ، تُذَكِّره ممارسته لشؤون الحياة الدنيا بالآخرة، فيبقىٰ القلبُ حيًّا يقظًا، يزيل بهذا التذكُّر سُحُبَ الغفلة عن قلبه، فإنَّ الغفلةَ لا تأتي دفعةً واحدةً، وإنما تأتي شيئًا فشيئًا، فمَن كان قلبُه مستيقظًا في كل شؤون

حياته كان مبدِّدًا للغفلة في كلِّ لحظة من لحظات حياته، دائمَ التذكُّر للآخرة ومراحلها؛ من حياة القبر والبرزخ، ثم البعث والجزاء، ثم الجنة والنار.

فرحِم الله عبدًا حَفِظ هذا الدعاءَ ولا يزال يقوله قبل نومه، ثم علَّمه أهل بيته من زوجه وأبنائه، فإذا ناموا ناموا علىٰ سُنَّةٍ وسكينةٍ وطمأنينةٍ وراحةٍ واستقرارٍ.

*** لفتة إيمانية ثانية:**

لقد سأل النبيُّ ﷺ الوقايةَ من العذاب، وهو الذي قد غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وعلِمَ أنَّه من أهل الجنة ولا شكَّ، بل إنه هو الذي يَشفع للبشر أجمعين يوم القيامة للفصل بينهم في الحساب، وهو الذي أعطاه ربُّه الحوضَ المورودَ، والمقامَ المحمودَ! فكيف بمَن كان دونه في المقام من المسلمين مِمَّن لا يعلم مصيره إلىٰ الجنَّة أم إلىٰ النار!

ثم ليعلم المسلمُ أنَّ سؤال الوقاية من عذاب الله وسخطه ليس خاصًّا بالمجرمين المذنبين، بل هو عامٌّ لكل مسلم، فإنَّ المسلمَ كلما ازداد صلاحًا وتُقًىٰ وقُربًا من الله كان سؤالُه العفوَ والوقايةَ من العذاب أكثر؛ لأنَّ قلبَه أشدُّ يقظةً، ومعرفتَه بعذاب الله وغضبه أكثرُ، ويقينَه بفقره وحاجته إلىٰ الله أشدُّ.

والعكسُ من هذا ـ والعياذ بالله ـ؛ فإنَّ المرءَ كلما ابتعد عن الله، نراه يُعَوِّل علىٰ عمله، ويقِلُّ سؤاله ربَّه المغفرَةَ والوقايةَ من العذاب.

***

(صحيح) ٢١٧ـ **عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ قَالَ: «اللَّهُمَّ، بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا»، وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»**(١).

شرح الحديث

قول حذيفة رضي الله عنه: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ قَالَ: «اللَّهُمَّ، بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا»**»، ومعنىٰ الدعاء: يا ربِّ، أنا باسمك أموتُ، وباسمك أحيا، فجعل الحياةَ والموتَ مرتبطين بذكر الله سبحانه.

وفيه أنَّ النبيَّ ﷺ كان يذكُر اسمَ الله قبل نومه، كما أنَّه كان يذكُر اسمَ الله علىٰ كلِّ شيءٍ؛ فيذكرُه علىٰ طعامه، وشرابه، وإذا أعطىٰ، وإذا أخذ، وإذا دخل البيت، وإذا خرج، وإذا ركب الدابَّة، وإذا دخل السوق، وإذا رأىٰ الهلال، وإذا رأىٰ بواكير الثمر، وإذا هبَّت الريح، وإذا سمع الدِّيك، وهكذا؛ فلا يفترُ لسانُه عن ذِكر الله وهو يتعامل مع شؤونه كلها.

ثم هو فيما بين هذا وذاك يقضي وقته في صلاةٍ، وقرآنٍ، وتسبيحٍ، واستغفارٍ؛ حتىٰ إنه ليُحصَىٰ له في المجلس الواحد أكثرُ من سبعين استغفارًا، وفي اليوم أكثر من مائة مرَّة.

وفوق ذلك كلِّه له خَلَواتٌ بربّه آناءَ الليل وأطرافَ النهار؛ فحياتُه كلُّها لله سبحانه، وهكذا حال الكاملين من البشر؛ يجعلون حياتهم كلَّها متَّصلةً بالله

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢٥).

سبحانه، ولأجله عزَّ وجلَّ، فالحياة الحقيقة هي التي يُذكر فيها الله عز وجل، والحياة الخالية من ذكر الله لا تستحق أن تسمَّىٰ حياةً؛ مهما حَصَّل فيها الإنسان من ملذَّاتٍ؛ فأكل أفخر الطعام، وشربَ ألذَّ الشراب، ولبسَ أغلىٰ الثياب، وركبَ أعظم المراكب، وسكنَ أفخم القصور، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ**»(١).

قول حذيفة ﷺ: «**وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**»، المقصود بالموت هنا: الموتة الصُغرىٰ، فإنَّ النبي ﷺ لا يزال يربط بين أمور الدنيا والآخرة علىٰ هذا النحو العجيب.

والمقصود بالنُّشور: الرجوع إلىٰ الله يوم القيامة.

وإنما افتتح يومَه بالحمد إشعارًا بأنَّ الحياةَ بعد الموتة الصغرىٰ هي نعمةٌ من نِعَمِ الله عليه، تتجدَّد كلَّ يوم؛ كما أنَّ الأكلَ نعمةٌ تتجدَّد تستحقُّ الحمد، والشُّرب نعمةٌ تتجدّد تستحقُّ الحمد، وهكذا.

والحياةُ وحدها نعمةٌ لِمَن تأمَّلها، حتىٰ وإن سُلِبَ الإنسان كثيرًا من النعم الأخرىٰ؛ فكان قليلَ الرزق، أو مريضًا، أو حلَّت به مصيبةٌ، وإنما هي نعمةٌ بمقابلة من قد دُفِنَ في قبره، ويتمنَّىٰ أن يرجع إلىٰ الدنيا ليسبِّح تسبيحةً، أو يحمد تحميدةً، أو يصلي ركعتين لله سبحانه!

*** لفتة إيمانية:**

هكذا كانت حياةُ النبي ﷺ وذِكرُه لله عز وجل؛ فإنه أوَّل ما يذكره عندما

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٧).

يستيقظ، وآخر ما يذكره قبل النوم، وما بين استيقاظه ونومه في يومه وليلته هو ذاكرٌ لله سبحانه.

والموفَّقُ مِن الناسِ مَن ذكر الله أوّل يومه، وختم يومه بذكر الله سبحانه؛ فتُفتَتَح صحيفةُ يومه بذكر الله، وتُختَتَم صحيفةُ يومه بذكر الله سبحانه.

***

(صحيح) ٢١٨ـ **عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، فَنَفَثَ فِيهِمَا، وَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِن جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا رَأْسَهُ وَوَجْهَهُ وَمَا أَقْبَلَ مِن جَسَدِهِ، يَصْنَعُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»**(١).

شرح الحديث

في هذا الحديث سُنَّةٌ ثابتةٌ عن رسول الله ﷺ فيما يُقال عند المنام.

قول عائشة ﵂: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ**»، هذه الجملة تدلُّ علىٰ المداومة والاستمرار والمعاهدة لما ستذكره ﵂ من دعاءٍ وعملٍ.

قولها ﵂: «**جَمَعَ كَفَّيْهِ**»؛ أي: ضمَّ إحدىٰ الكفَّين إلىٰ الأخرىٰ؛ كهيئة الداعي إذا أراد أن يدعو.

قولها ﵂: «**فَنَفَثَ فِيهِمَا، وَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾**

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٠٧).

وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»؛ أي: يقرأ هذه السُّوَر الثلاثَ، وينفُث في كفَّيه؛ فيقرأُ سورة الإخلاص وينفُثُ، ثم يقرأ سورة الفلق وينفُثُ، ثم يقرأ سورة الناس وينفُثُ، ويجمع النَّفثَ في كفَّيه.

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا أَقُودُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ رَاحِلَتَهُ فِي غَزْوَةٍ إِذْ قَالَ: «**يَا عُقْبَةُ، قُلْ**»، قَالَ: فَاسْتَمَعْتُ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا عُقْبَةُ، قُلْ**»، فَاسْتَمَعْتُ، فَقَالَهَا الثَّالِثَةَ، فَقُلْتُ: مَا أَقُولُ؟ فَقَالَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ **فَقَرَأَ السُّورَةَ حَتَّىٰ خَتَمَهَا، ثُمَّ قَرَأَ**: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ **وَقَرَأْتُ مَعَهُ حَتَّىٰ خَتَمَهَا، ثُمَّ قَرَأَ** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فَقَرَأْتُ مَعَهُ حَتَّىٰ خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ: «**مَا تَعَوَّذَ بِمِثْلِهِنَّ أَحَدٌ**»(١)، يعني: لا يجد إنسانٌ يريد أن يستعيذ ويتحصَّن ويلتجأ ويعتصم بذكر الله مِن الجنِّ والشياطين وكُلِّ خلق الله؛ لم يجد شيئًا يتعوَّذ به أعظمَ مِن هذه السُّوَر.

وكان النبي ﷺ يتعوَّذ ويُعوِّذُ غيرَه بأدعيةٍ أخرىٰ، فلمَّا نزلت سورتا الفلق والناس ترك ذلك، وأصبح يُعَوِّذ بالمعوّذتين.

فممَّا كان يُعوِّذ به: ما أخرجه البخاريُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: «**إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِن كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِن كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ**»(٢)، وغير ذلك من التعويذات.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٧٩٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧١).

ولكن عندما نزلت عليه المعوِّذتان ترك ما سواهما؛ فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الجَانِّ وَعَيْنِ الإِنْسَانِ، حَتَّىٰ نَزَلَتِ المُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا، وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا**»(١).

قولها رضي الله عنها: «**ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِن جَسَدِهِ**»؛ أي: يمسح بهاتين الكفَّين اللَّتين قد قرأ فيهما السُّوَر الثلاث ونفثَ فيهما؛ يمسح بهما سائرَ جسده مما يستطيع الوصول إليه، وفي روايةٍ عند البخاري: «**وَمَا بَلَغَتْ يَدَاهُ مِن جَسَدِهِ**»(٢)، أي: كلّ موضعٍ تبلغه يداه من جسده؛ فيمسح إبطيه، وعُنقَه، وبطنَه، وفخذيه، ورجليه، وقدميه، وهكذا، كل ما استطاع الوصول إليه.

قولها رضي الله عنها: «**يَصْنَعُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**»، وإنما يفعل ذلك ﷺ تحصُّنًا بذكر الله، وتعوُّذًا بهذه السُّوَر العظيمة.

وكتابُ الله كلُّه شفاءٌ واعتصامٌ وحِصنٌ حصينٌ، ولكن هذا السُّور لها خصوصيةٌ بقراءتها عند النوم.

وجاء في روايةٍ عن عائشة رضي الله عنها: «**فَلَمَّا اشْتَكَىٰ كَانَ يَأْمُرُنِي أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ**»(٣)، أي: لَمَّا مرض في آخر حياته، واشتدَّ به الوجعُ، ولم يَعُد يَقوَىٰ علىٰ مسح جسده بيديه، كان يأمر عائشة رضي الله عنها أن تُحَصِّنَه بهذه السُّوَر، غير أنها كانت تأخذ كفَّيه ﷺ وتنفُثُ فيهما، ولا تنفُثُ في كفَّيها؛ لعلمها ببركة يديه ﷺ، ثم تمسح

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٥٨) وقال: «حسن غريب».

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٤٨).

جسدَه بيديه، وهي الفقيهة الفطِنَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ حيث علِمَت أنه لا يقوم مقامَ يديه الشريفة أيُّ يدٍ أخرىٰ، ولو كانت يدَ أحبِّ زوجاته إليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

*** لفتة إيمانية:**

انظر إلىٰ شِدَّة حرص النبي ﷺ علىٰ تطبيق هذه السُّنَّة حتىٰ في أشدِّ حالات مرضه، ثم يغفل عن هذه السُّنَّة كثيرٌ من الناس، فتراه ينامُ غافلًا عن مثل هذه الأذكار، بل أسوأُ من ذلك أن ينام علىٰ جوَّاله، ويستيقظ علىٰ جوَّاله، يتصفَّح ما فيه؛ فيكون آخرَ عهده بيومه الجوَّالُ وما يُعرَض فيه، وهو أوَّلُ ما يفتح عينه عليه؛ بينما كان الهديُ النبويُّ اختتامَ يومه بذكر الله، وافتتاحَ يومه كذلك بذكره سبحانه.

***

(صحيح) ٢١٩ـ **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ قَالَ: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَم مِمَّن لا كَافِيَ لَهُ وَلا مُؤْوِي»**(١).

شرح الحديث

قول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ قَالَ»**؛ أي: هذا أحد الأدعية التي كان يقولها الرسول ﷺ إذا أَوَىٰ إلىٰ فراشه، أي: ساعةَ نومه.

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٥).

وفي هذا الدعاء جُمَلٌ تَهُزُّ الأرواحَ، وتُوقظ القلوبَ الغافلةَ، وتحيي النفوسَ النائمةَ، يستشعر بها الإنسان نعمةَ الله وفضلَه، ويعترف بعجزه وتقصيره، ويُظهِر فيه لله حاجتَه وفقرَه، وينطرح علىٰ أعتاب الكريم سبحانه شاكرًا حامدًا.

قوله ﷺ: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا»، يحمدُ النبيُّ ﷺ ربَّه علىٰ الطعام والسُّقيا، مستشعرًا معانيَ فضل الله وإنعامه عليه، هذا مع ما علمتَ من الأحاديث السابقة أنَّه كان يبيت ﷺ بعض الليالي طاويًا جائعًا هو وأهله، حتىٰ إنه ليربط الحجر والحجرين علىٰ بطنه من شدَّة الجوع، وأكثر لياليه التي يكون قد أكل فيها إنما يكون قد أكل خبزَ شعيرٍ فقط، ثم مع هذا كلِّه يستشعر فضلَ الله عليه بهذا الطعام الذي رزقه الله إياه، ويحمده عليه!!

وهذا دليلٌ علىٰ أنَّ حمدَ الله ليس حكرًا علىٰ الأغنياء المترفين، أو مَن بات شبعان، أو فاض طعامُه عن حاجته وزاد، بل الحمدُ لله واجبٌ مستحقٌّ للمُنعِم تعالىٰ حتىٰ علىٰ الفقير الذي ما وجد قوتَ يومِه وبات جائعًا، والمكروبِ الذي بات مهمومًا، والمريضِ الذي بات موجوعًا؛ كلٌّ يحمد اللهَ ويثني عليه ما دام في جسده نَفَسٌ يتردَّد؛ لأنَّه إن فقد نعمةً فإنه ما يزال يتقلَّب في نِعَمٍ أخرىٰ، فمَن بات جائعًا فقد بات صحيحًا معافًىٰ، ومَن بات مريضًا فقد بات شبعان، ومَن بات مهمومًا مغمومًا فقد بات في بيتٍ يُؤويه، فإنَّ النعمةَ تحُفُّ بالإنسان من كل جانب، ولكن غلبت عادةُ الإنسان ألا ينظر إلا إلىٰ ما يفقدُه! ولا يكاد ينتبهُ للنعمة أو يُدرك عِظَمَ قَدرِها إلا إذا فقدها، والله المستعان!

وفي تَعْدَادِ النبي ﷺ لهذه النِّعَم استشعارٌ لتعدُّد أنواعِ نِعَمِ الله عليه، وإيقاظٌ

للقلبِ، وهكذا علىٰ المسلم أن يستشعر نِعَمَ الله عليه بقلبه، ويُعَدِّدها ويحمده عليها بلسانه، فمَن كان صحيحًا فليحمد الله علىٰ نعمة الصحّة، ومَن رُزِق زيارة بيت الله الحرام لعمرةٍ أو حجٍّ فليحمد لله علىٰ هذه الزيارة، ومَن وُفِّق لحضور مجلسِ علمٍ، فليحمد الله علىٰ نعمة طلب العلم، وهكذا يكون الإنسانُ مُربِّيًا لنفسه علىٰ حمدِ الله لكل نعمةٍ أنعمها عليه.

قوله ﷺ: «فَكَم مِمَّن لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِي»؛ أي: كم من شخصٍ في هذه الدنيا ليس له كفايةٌ تكفيه، ولا مأوًىٰ يؤويه.

افتح عينيك ـ أيها المسلم ـ وقلِّب بصرك يمنة ويسرةً فيمن حولك في هذه الحياة؛ ستجد المشرَّد الذي لا بيت له يُؤويه ولا سقف يُظِلُّه، والعاريَ الذي لا لباسَ له يكسوه، ستجد مَن يفترش الأرضَ ويلتحفُ السماء، ستجد مَن يتمنَّىٰ بيتًا مهدوم السقف لتستر جُدرانه عورته وعورة أهله عن أعيُن الناس، ومَن يتمنَّىٰ فراشًا لا يمرُّ به العابرون ولا تطرقه أقدامُ الماشين!!

تأمَّل تلك البقاع التي أصابها ما أصابها من خرابٍ ودمار، ونزفت فيها الدماءُ، وتناثرت فيها الأشلاءُ، وسقط علىٰ رؤوس البشر كلُّ شيءٍ من حجرٍ وشجرٍ، وانظر إلىٰ حالِكَ وما أنت فيه من أمانٍ وسترٍ، ثم احمد الله عليه حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه!!

إذا تأمَّلت هؤلاء البؤساء الفقراء، أو المرضىٰ والعاجزين، أو غيرهم من المنكوبين والمهمومين، الذين أصابهم النكدُ والبلاءُ، وأحاط بهم الكربُ من كل جانب، وأصابتهم المضايقُ والمصائبُ؛ فوالله إنَّك حينها ستستشعر كلَّ

نعمةٍ أعطاك الله إياها، فتحمدُه علىٰ كل لُقمةٍ، وعلىٰ كل شَربةٍ، وعلىٰ كل لباسٍ رزقك إياه، وعلىٰ بيتك الذي يؤويك مع صِغَره، وعلىٰ العافية التي تَسري في جسدك علىٰ قِلّة ذاتِ يدِك، ولَمَا استشعرت همًّا من هموم الناس التي يتحدَّثون عنها ما دامت العافيةُ والسترُ موجودين يحيطان بك.

*** لفتة إيمانية:**

حمدُ النبي ﷺ لربِّه علىٰ ما أطعمه وسقاه مع قِلَّته وخشونته، وعلىٰ البيت الذي آواه الله فيه مع صِغَره وقلَّة زخرفته؛ يدلُّك علىٰ أنَّ الحياة الدنيا ليست مقصدًا من مقاصد الأنبياء والصالحين، بل هي معينةٌ علىٰ الهدفِ الأكبر وهو عبادة الله سبحانه وتحقيق مراده.

انظر إلىٰ النبي ﷺ وهو يقول لمعاذ: «**يَا مُعَاذُ، إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، ثم بعد أن أعلن له عن حُبِّه يقول له: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللهُمَّ، أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(١)، فهذه المحبةُ جعلته يوصيه بالهدف الأكبر من هذه الحياة، فلم يعطه خُطَّةً تجاريةً، أو أهدافًا دنيويةً مستقبليةً، بل أوصاه بهذا الدعاء العظيم الذي يطلب فيه من الله سبحانه أن يذكره ويشكره ويُحسن عبادته، أوصاه بهذه العبارات التي تستحقّ أن تُكتب بماء الذهب.

وأوصاه أن يدعوَ الله دُبُرَ كلِّ صلاةٍ بهذا الدعاء؛ لأنَّه ليس من السهولة بمكانٍ أن يعيشَ الإنسان ذاكرًا شاكرًا، بل الأمرُ صعبٌ يحتاج الإنسان إلىٰ عون

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢١١٩)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣).

الله في ذلك، ثم يحتاجه أن يسأله في دُبُر كلِّ صلاة، أي: خمسَ مراتٍ في اليوم والليلة، فكون الإنسان شاكرًا ذاكرًا لا يتحقق إلا لمن وفَّقه الله سبحانه إلىٰ ذلك.

ودعاءُ الإنسان ربَّه أن يكون شاكرًا عابدًا إنما هي دعوة الأنبياء السابقين، كما حكىٰ ذلك سبحانه عن سليمان عليه السلام الذي قال: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، فمع أنَّ سليمان آتاه الله ما آتاه من الملك الذي لا ينبغي لأحدٍ من بعده، إلا أنَّه وجد نفسَه غيرَ مستطيع لحمد الله وعبادته إلا بعونه إياه وتوفيقه.

وكيف يَقوَىٰ الإنسان علىٰ شُكْرِ نِعَمِ الله عليه؛ ونِعَمُ الله حوله لا تُحْصَىٰ، بل إنَّ حمدَ الإنسان لربه وشكره إياه نعمةٌ أخرىٰ تستحقُّ الحمد والشكر، فما دام الإنسان حامدًا فإنَّه يحتاج أن يحمد الله علىٰ توفيقه لحمده؛ فكيف يُوَفِّي حقَّ الله في النِّعَم الأخرىٰ؟

فواللهِ لو عاشَ الإنسانُ في ضيقٍ من الحياة، وصعوبةٍ في العيش، ثم قضىٰ حياتَه لله راكعًا ساجدًا ما أدَّىٰ لله حقَّ عبادته!

***

(صحيح) **٢٢٠ـ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ ﵁: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا عَرَّسَ بِلَيْلٍ اضْطَجَعَ عَلَىٰ شِقِّهِ الأَيْمَنِ، وَإِذَا عَرَّسَ قُبَيْلَ الصُّبْحِ نَصَبَ ذِرَاعَهُ، وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَىٰ كَفِّهِ»**(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٦٨٣).

شرح الحديث

قول أبي قتادة رضي الله عنه: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا عَرَّسَ بِلَيْلٍ**»؛ التَّعريسُ: توقُّفُ المسافر ونزولُه عن مركوبه للراحة أو لقضاء الحاجة.

أي: إذا توقَّف النبيُّ ﷺ في سفره ليلًا لينام.

قوله رضي الله عنه: «**اضْطَجَعَ عَلَىٰ شِقِّهِ الأَيْمَنِ**»؛ أي: عندما كان يضطجع لينام كان يضطجع علىٰ شِقِّه الأيمن، وذلك إمضاءً لسُنَّته الثابتة في هذا الباب ـ كما تقدَّم ـ، فكان الاضطجاعُ علىٰ شِقِّه الأيمن في النوم هو هديَه في السفر والحضر.

قوله رضي الله عنه: «**وَإِذَا عَرَّسَ قُبَيْلَ الصُّبْحِ**»؛ أي: إذا توقَّف للراحة والنوم قُبيل الصبح بوقتٍ يسيرٍ.

قوله رضي الله عنه: «**نَصَبَ ذِرَاعَهُ، وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَىٰ كَفِّهِ**»؛ أي: لم يكن يضطجع علىٰ الأرض، وإنما يجعل جانبه علىٰ الأرض، وينصب ذراعه، ويضع رأسه علىٰ كفِّه.

وهذه الهيئةُ ليست بهيئة مناسبةٍ لمن أراد أن يرتاح بعد إرهاق السفر وتعبه، فإنه مع أدنىٰ إغفاءةٍ سيخفقُ الرأسُ، ويفقدُ توازنَه ويستيقظ، وإنما كان ﷺ يفعل ذلك لقُرْبِ الصبح، وخشيته أن ينام ويستغرق في النوم فتفوته الصلاة، فيتَّخذ هذا الأسلوب في الراحةِ من باب اتِّخاذ الأسباب للقيام لصلاة الفجر.

*** لفتة إيمانية:**

هذا من حرص النبي ﷺ علىٰ الصلاة عمومًا، وعلىٰ الفجر خصوصًا، حيث تعلَّقت روحُه بالصلاة، فما كان لينام ويستريح قبل أن يؤدِّيها لله سبحانه،

مع ما يعانيه جسدُه من السهر والإرهاق.

نعم؛ تفوته الراحة لأجل الصلاة، ولكن لا ينبغي أن تفوت الصلاةُ لأيِّ سببٍ كان، وما كان ﷺ ليُقَدِّم راحة جسده علىٰ الواجبات الشرعية.

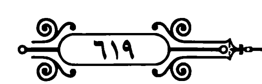
فما بالُ بعض المسلمين اليوم، الذين يسهرون أوّل الليل وينامون عن صلاة الفجر، هذا وأكثرهم يسهرُ لا لحاجةٍ مُلِحَّةٍ أو ضرورة، وإنما هو الإغراق في المباحات، وصرف الأوقات في غير المهمَّات، بل قد يكون في المحرّمات، ثم إذا أَوَىٰ إلىٰ فراشه لم يُهَيِّئْ شيئًا لإيقاظه؛ مِن مُنَبِّه، أو اعتمادٍ علىٰ مَن يُوقِظُه، ثم إذا فاتته صلاة الفجرِ يجدُ لنفسه سَعةً وعذرًا بأنه ما استطاع إدراك الصلاة لأنه نائمٌ ومعذور!

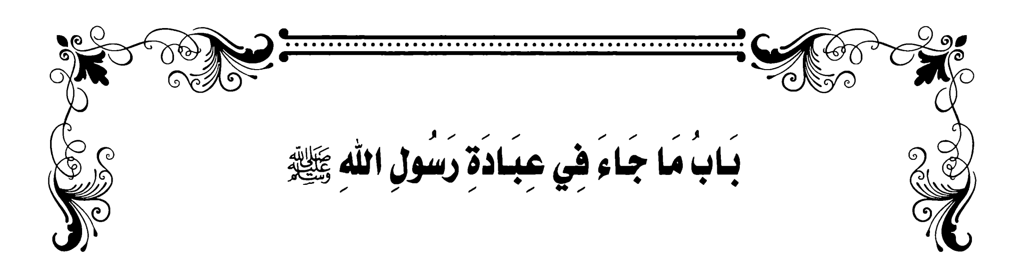
فأيُّ عذرٍ هذا لرجل مقيمٍ صحيحٍ لم يُصِبْه شيءٌ من التعب أو النصب، ثم لا يجد في نفسه حرجًا أو غضاضةً من تفويته صلاة الفجر! ومثل هذا هل قلْبُه حيٌّ يقظ؟ وهل شعيرةُ الصلاةِ تقع بين اهتماماته في موقعها اللائق بها؟

عدمُ إعطاء فريضة الصلاة حقَّها هو الذي يجعلنا نرىٰ الصفوفَ تتناقص في الصلوات؛ خاصةً صلاة الفجر!

فعلىٰ المسلمين أن يعيدوا النظر في ارتباطهم بالصلاة، وعدم مزاحمة أوقاتهم بالمواعيد والانشغالات، أو تأديتها أداءً سريعًا لإدراكِ شيءٍ من أمور الدنيا، وليتذكر مَن أراد الاستعجال أنَّ كل شيءٍ بيدِ مَن يقف أمامَه سبحانه.

ثم ليعلم المسلم أنَّ تعظيمَ الصلاةِ من تعظيم الله سبحانه، وأداءُ الصلاة حقَّ أدائها من أسباب السعادة والراحة والتوفيق، فليحرص عليها أشدَّ الحرص وأوفاه.





بَابُ مَا جَاءَ فِي عِبَادَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

هذا بابٌ عنوانُه عظيمٌ وكبيرٌ وواسعٌ، يتحدَّث عن عبادة النبي ﷺ، عن وجوهها وصفاتها.

والعبادة هي الغاية العُظمىٰ التي مِن أجلها خُلِقَت الخليقة، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإن كانت العبادة هي الغاية العُظمىٰ من خَلقِ الخَلق، وهي الحكمة الجليلة من إيجاد الخليقة علىٰ هذه الحياة، فهذا الباب يتحدث عمَّا يتعلَّق بالغاية التي من أجلها خُلقنا، وبالحكمة الكبرىٰ التي من أجلها بُسطت الحياة علىٰ وجه هذه الأرض؛ ألا وهي تحقيق العبودية لله.

فهذا الباب يُصَوِّر هذه الغاية العظمىٰ في أعظم صُوَرِها، وأهمِّ مَن طبّقها وعاش لأجلها، يُصَوِّر العبادة في حياة الرسول ﷺ، الذي هو أعظم مَن عَظَّم الله، وأتمَّ عبوديته، وحقَّق مراده؛ فالتأمُّل في جوانب عبادته ﷺ فيه معرفةٌ ووصولٌ للنموذج الأمثل الذي ينبغي أن يعيش عليه العبد كما أراد الله، فكلما اقترب العبدُ من الاقتداء بالنبي ﷺ في عبادته، وازداد تشبُّهه به؛ كان أقرب منزلةً إلىٰ ربّه، كيف لا والعبد يتشبَّه بمَن ارتقىٰ في عبادته حتىٰ وصل إلىٰ المقام المحمود والدرجة الرفيعة!

في هذا الباب يتعلّم المرءُ كيف يكون عظيمًا في حياته؛ فإنَّ عَظَمة العبد ليست في كثرة ماله، ولا علوّ منزلته ومكانته، ولكنَّ العَظَمة في تمام تحقيق ما خُلِقَ الإنسان لأجله، وهو تمام تحقيق العبودية لله؛ فكلَّما تمرَّغ العبدُ في ذُلِّ التعبُّد لله لقي من الله عزَّةً ورفعةً وشأنًا ومكانةً في الدنيا وفي الآخرة.

والدليلُ علىٰ ذلك أنَّ الله سبحانه عندما أراد أن يذكر نبيه ﷺ في كتابه في أعظم المقامات والمعجزات التي خُرِقت بها قوانينُ الكون؛ وهي معجزة الإسراء والمعراج، حيث أُسرِيَ بالنبيِّ ﷺ من مكة إلىٰ بيت المقدس، ثم عُرِج به إلىٰ السماء السابعة، وعندما ذكر الله نبيَّه ﷺ في هذا المقام العظيم ذكره بوصف العبودية، فقال سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

وكذلك أثنىٰ الله علىٰ أنبيائه بالعبودية، فقال: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠]؛ فلا أجلَّ ولا أعظمَ من مقام العبودية لله سبحانه، ولن يبلغ الإنسان أعلىٰ المقامات إلا بالتذلُّل لخالقه ومولاه.

إذا عرفت ذلك عرفتَ أنَّ هذا الباب يفتحُ لك أبواب الشرف، ويسلك بك طريق العَظَمة، فمَن أراد العَظَمةَ والمجدَ والشرفَ الرفيعَ فعليه أن يعيَ هذا البابَ وأحاديثَه، ويتتبَّع خُطَا النبي ﷺ وهديَه في هذا الباب.

وعنوانُ هذا البابِ مُشْعِرٌ بأنَّه سيتعرَّض لجميع مظاهر العبودية في حياة النبي ﷺ، والأمر ليس كذلك؛ فإنه اختصَّ بالحديث عن عبادةٍ مخصوصة هي محورُ العبودية ولُبُّها، ألا وهي عبادة الصلاة.

ولم يتحدّث البابُ عن كلّ الصلوات، بل عن صلاة الليل، التي هي صلاة

الصالحين، وصلاة السابقين، وصلاة الأولياء، التي يقوم فيها المسلم بين يدي رب الأرض والسماء في جوف الليل، عندما تهدأ النفوس، وتغمض الأعيُن، وتأوي الأجسادُ إلىٰ فُرُشها، ويختلي الصالحون بربهم، ويقومون بين يديه بالقرآن والدعاء والركوع والسجود، يترنَّمون بآياته، ويطلبونه من فضله.

فطوبىٰ لِمَن ظَفِر وشَرُف بقيام الليل.

***

(صحيح) **٢٢١ـ عَنِ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ انتَفَخَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: أَتَتَكَلَّفُ هَذَا، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»**(١).

شرح الحديث

قول المغيرة رضي الله عنه: **«صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ انتَفَخَتْ قَدَمَاهُ»**؛ يعني: تورَّمت ـ كما سيأتي في حديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ.

وانتفاخُ قدمِه وتورُّمُها إنما كان بسبب طول الوقوف في صلاة الليل، حيث كان يقوم طويلًا، حتىٰ إنه قد يصلي في الركعة الواحدة بسورة البقرة كاملة، بل وقد يصلي في الركعة بالبقرة والنساء، ولم تكن قراءته ﷺ كقراءة كثيرٍ منَّا سريعةً مفرطةً، بل كانت قراءةً خاشعةً متدبِّرةً، يقف مع كل آيةٍ ويسأل الله من فضله إن كانت آيةَ رحمة، أو يتعوَّذ من عذابه إن كانت آيةَ عذاب؛ فلك أن تتأمَّل طول تلك الركعة!

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠، ٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩).

ولم يكن طولُ القيامِ هذا قد حصل منه ﷺ مرةً بسبب نشاطٍ وجده فأقبل علىٰ العبادةِ في ذلك اليوم، أو كان يُطيل في قيامه مرةً في الشهر مثلًا ـ كما يحصل لبعضنا ـ، بل كانت هذه عادتُه المستمرة ﷺ، ومَن كانت هذه حالتُه دائمًا فإنَّ الجسد لا بُدَّ وأن يتأثر مع طول العبادة، فلأجل ذلك كانت قدم النبي ﷺ تنتفخ وتتورَّمُ مع طول القيام.

قوله رضي الله عنه: «**فَقِيلَ لَهُ: أَتَتَكَلَّفُ هَذَا، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟**»، سُئِلَ هذا السؤال لِمَا رُؤي من حاله من شدة الاجتهاد في عبادة ربه، وطول قيامه بين يديه سبحانه في صلاة الليل؛ فإنَّ المتبادر إلىٰ أذهان كثيرٍ من الناس أنَّ العبد إذا اجتهد في العبادة وأطال فيها حتَّىٰ تأثَّر جسدُه مِن عبادته؛ فإنَّه في الغالب إنما يدفعُه لذلك شيءٌ عظيمٌ من حسرةِ الذنب والمعصية، أوحُرقة الخطيئة ونَدَمها، يريد بعبادته أن يكفِّر ما وقع منه؛ كما نراه من حرارةِ بكاءِ التائبين، وشدَّة شوق العائدين إلىٰ طريق الهداية، بعدما يكون أحدُهم قد قضىٰ شطرًا من عمره بعيدًا عن الله، أو تلذَّذ ساعةً في حرام، فإذا عاد ووجد حلاوة القُرب ولذَّة الوصال اجتهد في العبادة ذلك الاجتهاد الشديد.

فمعنىٰ سؤالهم: يا رسولَ الله، إنَّا لا نجِدُ لك دافعًا يدفعك لكل هذه العبادة كما نجِده عند غيرك من البشر بتقصيرهم وفرط إجرامهم؛ فأنت قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر، كما قال: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [الفتح: ٢].

قوله ﷺ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»؛ يعني: هَبْ أنني لا ألتمس مغفرةً

لذنبٍ، ولا أبحث عن تكفيرٍ لسيئةٍ، ألا يكفي أن أجتهد في طاعةِ وعبادةِ ذلك الربِّ العظيم الذي يستحقُّ أن يُعبَد ويُطاع!؟ ألا يكفي أن أشكر الله علىٰ ما أفاض عليَّ من النِّعم!

وفرقٌ بين مَن يبلغ في العبادة أقصىٰ جهده والدافع له في ذلك حسرةُ الذنب وحرارةُ الخطيئة، وبين مَن يدفعه استشعارُ عظيمِ حق الله عليه، ووجوبِ شكره علىٰ فضله ونِعَمِه؛ فرقٌ كبيرٌ بين المقامين؛ فمَن أحرقته المعصيةُ وشَعرَ بحرارة الذنب ثم أقبل تائبًا مجتهدًا في العبادة فإنَّ الله يحبُّ صنيعَه وهو في درجةٍ كريمةٍ ولا شكَّ، ولكنه لا يبلغ مقام مَن كان علىٰ قدرٍ من التُّقىٰ والصلاح والارتقاء ونَيلِ ولاية الله سبحانه.

وفي هذا الحديث لفتةٌ عظيمةٌ، ورسالةٌ مهمةٌ لكلِّ مَن فعل الخيرات والصالحاتِ في يومه دون اقترافٍ عمدٍ للذنوب والمعاصي؛ أنَّ المنَّة لله والفضل له وحده، فمهما عمل الإنسان من طاعاتٍ وعباداتٍ وهو بعيدٌ عن الذنوب والمعاصي، فإنَّ ذلك إنما هو شكرٌ لله سبحانه وتعالىٰ، ليس فيه منةٌ وفضلٌ للعبد، كما قال سبحانه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، فليس للإنسان أن يُمنَّ علىٰ الله في عمله، وإنما عليه أن يعلم أنَّ ما فتحه الله عليه من أبواب الخير والعبادة والصلاح فإنَّه من فضل الله عليه، ذلك أنَّ ألطاف الله ونِعمَه قد أحدقت بالإنسان ذات اليمين وذات الشمال، فكيف يشكره حقَّ شكرها، فإنَّ الإنسان وإن كان خاليًا من الذنوب والمعاصي إلا أنه لا يزالُ بأمسِّ الحاجة للتعبُّد لربِّه، والتذلُّل بين يديه، والتقرُّب إليه، وإظهار حاجته إليه.

وتبقىٰ مسألة: وهي أنَّه ليس كل إنسان يستطيع أن يقتدي بالرسول ﷺ في عبادته، أو يكون قريبًا منه؛ فليس كل إنسانٍ قد وطَّنَ نفسَه علىٰ الاجتهاد في الطاعة، وليس كلُّ امرئٍ يجد نفسَه مقبلةً علىٰ العبادة متلذِّذةً بها؛ فماذا يفعل الإنسان حينئذٍ؟

والجواب: أنَّ الإنسان عليه أن يُرَوِّض نفسَه علىٰ الطاعة شيئًا فشيئًا حتىٰ تألَفَها، ويُعوِّد بدنَه وجوارحَه عليها حتىٰ يعتادها، ويُحَبِّبها إلىٰ قلبه حتىٰ يشتاق إليها، فلا يُكَلِّف نفسه عبادةً لا يُطيقُها ولا يتحمَّلها.

لأجل ذلك يقول الحافظُ ابن حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ عمَّن ينبغي له أن يطيل في عبادته بأن من شرط التطويل في العبادة أن لا يُفضيَ ذلك إلىٰ الملل[1]، وذلك أنَّ النبي ﷺ كان في عبادة ربِّه في أكمل الأحوال، كما أنَّه قد حُبِّبت إليه الصلاة ما لم تُحَبَّب لغيره، كما صحَّ عنه أنه قال: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»[2]، فأما غيره ﷺ فإنه يُخشىٰ عليه الملل إذا أكره نفسَه وحمَّلها ما لا تطيق، وقد يترك العبادة بالكليَّة، وهذا ما لا ينبغي، وعليه يحمل حديث: «**خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا**»[3]، فهذا المبدأ والقاعدة العظيمة أسلوبٌ يربي عليه الإنسانُ نفسه وهو يترقَّىٰ في مقامات العبودية.

---

(١) انظر: فتح الباري (٣/ ١٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣)، والنسائي (٣٩٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٦١)، ومسلم (٧٨٢).

* وقفة إيمانية:

إنَّ العبادة فيها مشقَّةٌ وألمٌ، كما أنَّ فيها حلاوةً ولذَّةً، والعبدُ الذي رزقه الله استشعارَ اللذَّة والحلاوة يستغرق فيها حتىٰ تطغىٰ علىٰ شعور الألم، فيستمتع به ويتلذَّذ.

هذه اللذَّةُ هي التي تُسَلِّي العبد الذي يصوم صومَ داود عليه السلام طيلةَ العام، يصوم يومًا ويفطر يومًا، وهو مع ذلك مختلطٌ بمجتمعه، يغدو ويروح، ويعولُ أسرته، ويعمل في وظيفته، ولا ينقطع عن عمله الصالح هذا مهما حصل له من تعبٍ ومشقَّةٍ.

هذه اللذَّةُ هي التي هوَّنت علىٰ الحافظين للقرآن أن يتعاهدوا الكتاب العظيم، فلا يتركون وِردهم في يومٍ من الأيام، ولا تشغلهم الشواغل ولا تصرفهم عنه الصوارفُ والأمراضُ، فلا يَبيتُ أحدُهم إلا وقد أتم وِرْدَه.

هذه اللذَّةُ هي التي سهَّلت علىٰ الحجيج قطع المسافات البعيدة، وتحمُّل مشاقِّ السفر الطويل وأيامه المتتابعات، وطول إجراءاته ومحطّاته التي تتطلّب منه كثيرَ قيامٍ وانتظار، ولكنَّ أحدَهم ما أن يدخلَ بيت الله الحرام، ويرميَ ببصره تُجاه الكعبة المشرَّفة إلا وتَسري في بدنه رعشةٌ من الهيبة والتعظيم، والإجلال والتوقير، والحبِّ والرجاء، تزيل عنه تلك الهموم والغموم، فينفجر باكيًا في تلك اللحظة شوقًا وحنينًا، وتضرُّعًا وتذلُّلًا، في مزيج من المشاعر المختلطة.

إنَّ هؤلاء ليستمتعون بحلاوة العبادة حتىٰ يصبِح أكبر ألمٍ يجدونه هو

مفارقة العبادة، وترك هذه الطاعة، فالخروجُ من العبادة أقسىٰ علىٰ أنفسهم من كل ألمٍ قد يجدونه في أداء العبادة.

هؤلاءِ الذين أنسَتْهم لذَّةُ العبادةِ أَلَمَ أبدانهم إنما هم بشرٌ كغيرهم من البشر، يلقون ما يلقونه من تعبٍ وعناءٍ كما يلاقيه أيُّ إنسان، ولكنهم يتناسون هذا التعب في غمرة اللذَّة والفرحة التي يشعرون بها.

***

(حسن صحيح) **٢٢٢ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي حَتَّىٰ تَرِمَ ـ وَفِي رِوَايَةٍ: تَنتَفِخَ ـ قَدَمَاهُ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: أَتَفعَلُ هَذَا وَقَدْ جَاءَكَ: أَنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»**(١).

شرح الحديث

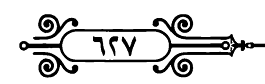
قول أبي هريرة ﷺ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي حَتَّىٰ تَرِمَ**»؛ يعني: تتورَّم، وجاء بيانه في الرواية الأخرىٰ قال: «**حَتَّىٰ تَنتَفِخَ**».

ومعاني هذا الحديث قد سبق الحديثُ عنها في الحديث السابق.

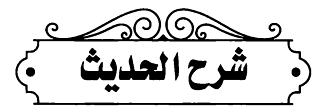
***

(صحيح) **٢٢٣ـ عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ ﵂ عَن صَلَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِاللَّيْلِ؟ فَقَالَتْ: «كَانَ يَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ، ثُمَّ يَقُومُ، فَإِذَا كَانَ مِنَ السَّحَرِ أَوْتَرَ، ثُمَّ**

(١) أخرجه ابن ماجه (١٤٢٠).



أَتَىٰ فِرَاشَهُ، فَإِذَا كَانَ لَهُ حَاجَةٌ أَلَمَّ بِأَهْلِهِ، فَإِذَا سَمِعَ الأَذَانَ وَثَبَ؛ فَإِن كَانَ جُنُبًا أَفَاضَ عَلَيْهِ المَاءَ، وَإِلَّا تَوَضَّأَ، وَخَرَجَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ»(١).



شرح الحديث

قول الأسود بن يزيد: «سَأَلْتُ عَائِشَةَ ﵂ عَن صَلَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِاللَّيْلِ؟»؛ أي: كيف كان قيامه بالليل؟

والأسود بن يزيد أحد التابعين، لقي عائشة ﵂، وروىٰ عنها عِدَّة أحاديث.

وفي هذا بيان لمبدأٍ عظيم قد انطوت عليه قلوب التابعين، وهو حبُّهم العظيم لشأن النبي ﷺ، وتتبُّعهم لهديه وعبادته وشؤونه كلها؛ وفي هذا بيانٌ لحقيقة محبَّة الرسول ﷺ، فإنَّ المحبَّة باللسان غير كافية، بل لا بدَّ أن يكون المرءُ متلهِّفًا ومتشوِّقًا لمعرفة كلِّ شيءٍ عن محبوبه، فيعلم هديه ﷺ ثم يُتْبِع ذلك اتِّباعًا وطاعةً.

قول عائشة ﵂: «كَانَ يَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ، ثُمَّ يَقُومُ»؛ أي: يقوم من نومه لعبادة ربِّه.

وقد ثبت في السُّنة في أحاديث أُخَر أنَّه كان يقسم ليلَه ثلاثة أقسام:

ـ فينام قِسمَه الأول وهو من بعد صلاة العشاء إلىٰ نصف الليل، وذلك كما مَرَّ ـ من قبل ـ من نهيه عن السهر والسمر بعد صلاة العشاء.

ـ ثم يقوم يصلِّي ثلث الليل، وذلك من نصف الليل إلىٰ السُدس الأخير.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٣٩)، والنسائي (١٦٨٠).

ـ ثم في السُدُس الأخير كان يضطجِعُ وينام نومةً خفيفة قبل صلاة الفجر.

وقد جاء بيانُ ذلك في الصحيحين(١): فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «**أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَىٰ اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عليه السلام، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَىٰ اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا**»، وهذا الهدي في تقسيم الليل هو أعظم ما يكون في مقام العبودية، وأنفع ما يكون للعبد في صحته وبدنه وعافيته؛ لأنه يجمع له بين حظِّه من النوم وحظِّه من العبادة، فيؤدي حقَّ ربِّه، ولا يؤثِّر ذلك علىٰ صحَّته وحاجته في اليوم التالي للخروج للتكسُّب والسعي في الأرض، وهكذا هي شريعة الإسلام وهدي النبي ﷺ، هو هديٌ مُتَّسِقٌ مع الكون، في أكمل وأعظم مقامات العبودية.

ومع ذلك فإذا جاءت الأوقاتُ الفاضلةُ استنفرَ جهدَه لاغتنام تلك الأوقات، كما هو شأنه في رمضان، وفي العشر الأواخر منه؛ فإذا دخلت العشرُ أحيا الليل كاملًا.

فالقيام الذي ذكرته عائشة رضي الله عنها هو قيامُه في نصف الليل.

قولها رضي الله عنها: «**فَإِذَا كَانَ مِنَ السَّحَرِ أَوْتَرَ**»؛ أي: يجعل الوِترَ خاتمةَ قيامه، وذلك في وقت السَّحر.

والسَّحَر: آخر أجزاء الليل، قُرب الفجر.

قولها رضي الله عنها: «**ثُمَّ أَتَىٰ فِرَاشَهُ**»، لينام النومة الثانية آخر الليل.

---

(١) صحيح البخاري (١١٣١)، وصحيح مسلم (١١٥٩).

قولها رضي الله عنها: «**فَإِذَا كَانَ لَهُ حَاجَةٌ أَلَمَّ بِأَهْلِهِ**»؛ أي: إذا وجد حاجةً في نفسه مما أباحه الله له من أهله من جماع ووصالٍ فَعَل ذلك، وإن لم يكن له حاجةٌ اكتفىٰ بالنوم.

قولها رضي الله عنها: «**فَإِذَا سَمِعَ الأَذَانَ وَثَبَ**»، الوُثوبُ مُشْعِرٌ بسرعة القيام، وذلك دلالةً علىٰ الحرص الشديد علىٰ إدراك صلاة الفجر.

قولها رضي الله عنها: «**فَإِن كَانَ جُنُبًا أَفَاضَ عَلَيْهِ المَاءَ**»؛ أي: إذا كان قد جامع أهلَه اغتسلَ ﷺ.

***

(صحيح) **٢٢٤ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما: «**أَنَّهُ بَاتَ عِنْدَ مَيْمُونَةَ وَهِيَ خَالَتُهُ، قَالَ: فَاضْطَجَعْتُ فِي عَرْضِ الوِسَادَةِ، وَاضْطَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طُولِهَا، فَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ إِذَا انتَصَفَ اللَّيْلُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ، فَاسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَن وَجْهِهِ، وَقَرَأَ العَشْرَ الآيَاتِ الخَوَاتِيمَ مِن سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ قَامَ إِلَىٰ شَنٍّ مُعَلَّقٍ، فَتَوَضَّأَ مِنْهَا، فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ: فَقُمْتُ إِلَىٰ جَنبِهِ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ اليُمْنَىٰ عَلَىٰ رَأْسِي، ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِي اليُمْنَىٰ فَفتَلَهَا، فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ ـ قَالَ مَعْنٌ: سِتَّ مَرَّاتٍ ـ، ثُمَّ أَوْتَرَ، ثُمَّ اضْطَجَعَ ـ وَفِي رِوَايَةٍ: نَامَ حَتَّىٰ نَفَخَ، وَكَانَ إِذَا نَامَ نَفَخَ ـ، حَتَّىٰ جَاءَهُ المُؤَذِّنُ، فَقَامَ فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ، فَصَلَّىٰ الصُّبْحَ**»، وَفِي الرِّوَايَةِ الأُخْرَىٰ: «**فَأَتَاهُ بِلَالٌ، فَآذَنَهُ بِالصَّلَاةِ، فَقَامَ وَصَلَّىٰ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣).

شرح الحديث

هذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قِصَّةٍ حصلت له مع النبي ﷺ وهو غلامٌ صغيرٌ، فإنه ما بلغ سنَّ البلوغ إلا في أواخر حياة النبي ﷺ.

«**أَنَّهُ بَاتَ عِندَ مَيْمُونَةَ وَهِيَ خَالَتُهُ**»، وميمونةُ خالتُه هي زوجُ رسولِ الله ﷺ، وبات عندها في ليلةٍ يبيت عندها النبيُّ ﷺ، استكشافًا منه لحياة رسول الله ﷺ، وقد فَطِنَ النبي ﷺ لمراد ابن عباس رضي الله عنهما فأعانه علىٰ مُراده.

وهكذا كانت همَّته مع صِغَرِ سِنِّهِ، فلا تعجب منه أن يحظىٰ بدعوة النبي ﷺ بالتفقُّه في الدين وتعلُّم التأويل، وأن يبلغ ما بلغه من مكانة علمية حتىٰ أصبح مرجع الأمَّة وحَبرَها، وأصبح يُلقَّب بتُرجمان القرآن.

قول ابن عباس رضي الله عنهما: «**فَاضْطَجَعْتُ فِي عَرْضِ الوِسَادَةِ، وَاضْطَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طُولِهَا**»؛ يعني: اضطجع رسول الله ﷺ وزوجه ميمونة في طولها.

ولا تظنَّنَّ أنَّ الوسادة التي جمعت هذه الرؤوس الثلاثة وسادةً طويلةً، فإنَّ حجرته ﷺ ما كانت كبيرةً، بل إنها مِن صِغَرِها لا يكاد يجد فيها مكانًا للسجود، كما وصفتها عائشة رضي الله عنها بقولها: «**كُنْتُ أَنَامُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرِجْلايَ فِي قِبْلَتِهِ، فَإِذَا سَجَدَ غَمَزَنِي فَقَبَضْتُ رِجْلَيَّ، فَإِذَا قَامَ بَسَطْتُهُمَا**»(١)، أي: كانت تقبض رجليها ليجد موضعًا للسجود! وذلك مِن ضيق الحجرة.

وهذا يدلُّ علىٰ عدم التكلُّفِ في حياة النبي ﷺ، وعدم الإغراق في معاني

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٢)، ومسلم (٥١٢).

الحياة ـ كما تقدَّم مرارًا ـ، فهي أسعد بيوت الدنيا مع ما فيها من بُعْدٍ عن التجهيز والتأثيث، بينما كثيرٌ من بيوت اليوم قد مُلِئَت بأفخر الأثاث ووسائل الراحة والرفاهية؛ وتجد أهلها يفتقرون إلىٰ كثيرٍ من السعادة.

يبحث الناس عن السعادة في قِطَعٍ تُزَيَّنُ بها البيوت، وفي فُرُشٍ تُفرش بها الأرض، وفي أثاثٍ وآنيةٍ ومراكبَ وملابسَ وكثيرٍ من الأدوات، بينما السعادة الحقيقة هي سعادة القلب بالإيمان بالله سبحانه وعبادته.

وفي هذا دلالةٌ أيضًا علىٰ أنَّ للسائل والمتعلِّم حقًّا؛ فإنَّ الغرفةَ صغيرةٌ، والنبي ﷺ مع زوجه بالكاد تكفيهما، ومع ذلك أَذِن لابن عباس رضي الله عنهما في المبيت معه لأجل نيَّته في التعلُّم من النبي ﷺ.

قوله رضي الله عنه: «**فَاسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**»، واستيقظ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما، وقد جاء في بعض الروايات أنه أوصىٰ خالته أن توقظه، ولكن استيقظ من نفسِه، وفي ذلك دلالةٌ علىٰ حرصه رضي الله عنه أن يُدْرِكَ السُنَّة من بدايتها.

قوله رضي الله عنه: «**فَجَعَلَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَن وَجْهِهِ**»؛ أي: يفرُك بيده عينيه وجبهتَه؛ يُنشِّط بذلك بدنَه، ويزيل عنه آثار النوم.

قوله رضي الله عنه: «**وَقَرَأَ العَشْرَ الآيَاتِ الخَوَاتِيمَ مِن سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ**»، وهي من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ـ ١٩١] إلىٰ آخر السورة.

ولهذه الآيات شأنٌ عظيمٌ، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تصِفُ صلاة النبي ﷺ بالليل في إحدىٰ الليالي: «**فَقَامَ إِلَىٰ قِرْبَةٍ فِي البَيْتِ، فَتَوَضَّأَ مِنْهَا، ثُمَّ قَرَأَ القُرْآنَ، ثُمَّ بَكَىٰ حَتَّىٰ ظَنَنتُ أَنَّ دُمُوعَهُ بَلَغَتْ حُبْوَتَهُ، ثُمَّ جَلَسَ، فَدَعَا وَبَكَىٰ حَتَّىٰ ظَنَنتُ أَنَّ دُمُوعَهُ بَلَغَتْ حُجْزَتَهُ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَىٰ يَمِينِهِ، وَجَعَلَ يَدَهُ اليُمْنَىٰ تَحْتَ خَدِّهِ الأَيْمَنِ، ثُمَّ بَكَىٰ حَتَّىٰ ظَنَنتُ أَنَّ دُمُوعَهُ قَدْ بَلَغَتِ الأَرْضَ، ثُمَّ جَاءَهُ بِلَالٌ بَعْدَمَا أَذِنَ، فَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ! قَالَ: وَمَا لِي لَا أَبْكِي، وَقَدْ أُنزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ:** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦٤] الآيَةَ، **وَيْلٌ لِمَن قَرَأَهَا، ثُمَّ لَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا**»(١)؛ فهذه الآيات فيها قدرٌ عظيم من المعاني التي تهزُّ القلوب.

وقد استفتح بها النبي ﷺ قيامه في الليل تنشيطًا لنفسه وقلبه علىٰ أداء عبادة القيام، وأيقظ همته ليكون علىٰ أُهبةِ الاستعداد للوقوف بين يدي رب العالمين.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ثُمَّ قَامَ إِلَىٰ شَنٍّ مُعَلَّقٍ، فَتَوَضَّأَ مِنْهَا**»؛ الشَّنُّ: القِرْبَة من الجِلد يُجعل فيها الماء، فإن الناس قديمًا ما كان عندهم في بيوتهم برّاداتٌ أو ثلاجاتٌ لتبريد المياه، فكانوا يجعلون الماء في قِرَبٍ من الجلود لتبريدها.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ اليُمْنَىٰ عَلَىٰ رَأْسِي، ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِي اليُمْنَىٰ فَفَتَلَهَا**»؛ أي: حرَّك أذني تحريكًا خفيفًا بأصبعيه؛ تودُّدًا وملاطفة، يُشْعِرُ ابن عباس بأنه أحسن بقيامه للصلاة، وإيناسًا له في ظلمة الليل.

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٦١٨)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٨٧).

قوله رضي الله عنه: «**فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ ـ قَالَ مَعْنٌ: سِتَّ مَرَّاتٍ ـ، ثُمَّ أَوْتَرَ**»؛ يعني: اثنتي عشرة ركعةً، وهي غير متَّصلة، بل صلَّىٰ كلَّ ركعتين منفصلتين عن غيرهما، ثم صلَّىٰ الوِتر ركعةً واحدةً؛ فكان مجموع ما صلَّاه ثلاثَ عشرةَ ركعةً.

قوله رضي الله عنه: «**نَامَ حَتَّىٰ نَفَخَ، وَكَانَ إِذَا نَامَ نَفَخَ**»، المقصود بالنَّفخ هنا: صوتُ الهواء الذي يخرج من فمِ الإنسان وهو نائمٌ، وهو يُشْبِه نفخُ الإنسانِ الهواءَ وهو مستيقظٌ، فإن كان الصوتُ عاليًا سُمِّي: شَخيرًا، وكان ﷺ ينفُخُ، لا أكثر.

قوله رضي الله عنه: «**حَتَّىٰ جَاءَهُ الْمُؤَذِّنُ، فَقَامَ فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ، فَصَلَّىٰ الصُّبْحَ**»، **وَفِي الرِّوَايَةِ الأُخْرَىٰ**: «**فَأَتَاهُ بِلَالٌ، فَآذَنَهُ بِالصَّلَاةِ، فَقَامَ وَصَلَّىٰ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ**».

قوله رضي الله عنه: «**حَتَّىٰ جَاءَهُ الْمُؤَذِّنُ، فَقَامَ فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ**»؛ أي: سُنَّة الفجر، وكان يخفِّفهما تخفيفًا شديدًا، حيث كان يقرأ بعد الفاتحة بسورتي الكافرون والإخلاص، ونحو ذلك من الآيات والسُّوَرِ القصيرة.

وذلك التخفيفُ بالنسبة إلىٰ الركعات التي قضاها في قيام الليل؛ فإنَّه كان يطيل فيها قيامًا وركوعًا وسجودًا.

وهذه الرواية لم تذكر أنه توضَّأ بعد نومته وقبل صلاته؛ فإذا كان لم يتوضَّأ فإما أن يُحْمَل علىٰ أنه نام نومةً خفيفةً لم يستغرق فيها فلم يحتج معها إلىٰ وضوء، وإما أن يُحْمَل علىٰ أنَّ ذلك أمرٌ خاصٌّ بالنبي ﷺ فإنه ما كان ينام قلبُه، أي: لم يكن نومُه نومَ انقطاعٍ كما يحصل للناس في نومها.

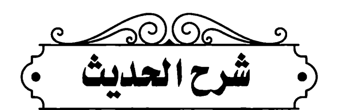
وذلك أنَّ النوم عند الفقهاء ليس ناقضًا للوضوء في ذاته، ولكنه مَظِنّة الحَدَث، أي: قد يطرأ للنائم ما ينقضُ طهارتَه وهو نائمٌ دون أن يشعر به؛ من خروج ريحٍ، أو مسِّ ذكرٍ، أو نحو ذلك، وهذا لا يحصل للنبي ﷺ؛ فإنَّه لا يصل في نومه إلىٰ مرحلةٍ لا يشعر بها بما يحصل.

قوله رضي الله عنه: «**فَأَتَاهُ بِلَالٌ، فَآذَنَهُ بِالصَّلَاةِ، فَقَامَ وَصَلَّىٰ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ**»، قد وضَّحت هذه الرواية أنَّه توضأ قبل صلاته، وذلك كما سبق في رواية عائشة رضي الله عنها.

فاختلاف الروايتين يمكن أن يُحْمَل علىٰ تعدُّدِ القِصص؛ فمرةً كان يتوضَّأ، ومرةً لا يتوضَّأ.

***

(صحيح) ٢٢٥ـ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما **قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً»**(١).



شرح الحديث

هذا الحديث في ذكر عدد ركعات قيامه ﷺ بالليل، وأنها ثلاثَ عشرةَ ركعةً.

وسيأتي حديث عائشة رضي الله عنها، وأنه كان يُصَلِّي من الليل إحدىٰ عشرةَ ركعةً.

والجمع بين الروايتين: أنَّ النبي ﷺ كان يفتتح صلاةَ الليل بركعتين

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣٨)، ومسلم (٧٦٤).

خفيفتين؛ فمَن عدَّهما جعل صلاته في الليل ثلاثَ عشرةَ ركعةً، ومَن لم يعُدَّهما جعل صلاته بالليل إحدىٰ عشرةَ ركعةً.

***

(صحيح) **٢٢٦ـ عَنْ عَائِشَةَ** رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا لَمْ يُصَلِّ بِاللَّيْلِ مَنَعَهُ مِن ذَلِكَ النَّوْمُ أَوْ غَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ؛ صَلَّىٰ مِنَ النَّهَارِ ثِنتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً»**(١).

شرح الحديث

قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا لَمْ يُصَلِّ بِاللَّيْلِ مَنَعَهُ مِن ذَلِكَ النَّوْمُ أَوْ غَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ»**، فيه أنه ﷺ كان بشرًا، فمع أنَّه ﷺ أكثرُ الأمَّة حرصًا وأشدُّهم طاعةً لربه ومسارعةً إلىٰ مرضاته إلا أنه كان بشرًا يعرض له ما يعرض للبشر؛ من مَرَضٍ أو إرهاقٍ، فيضعف جسدُه عن تمام الاجتهاد في الطاعة، وتغلبُه عيناهُ عن قيام الليل أحيانًا.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **«صَلَّىٰ مِنَ النَّهَارِ ثِنتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً»**، وهذا هديٌ نبويٌّ يقتدي به المسلمُ في حال ضعفه، فإذا لم يقُم من الليل بسبب غَلَبة النوم أو تعبٍ أو مرضٍ؛ فيمكن له أن يستدرك ما فاته، فيصلي في النهار ثنتي عشرةَ ركعةً.

وهذا شأنُ المؤمنِ الذي يألفُ عبادةً ويحبُّها ولا يحبُّ تركَها، فلا يطاوعه جسدُه علىٰ فعل ما يحبّ؛ فيستطيع أن يُعَوِّضَ من نهار اليوم الذي يليه.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٦٣٦).

وفي هذا إشارةٌ إلىٰ ما ثبتَ من سُنِّيَّةِ مداومة العملِ والطاعة، وأنه أمرٌ محبوبٌ إلىٰ اللهِ وإن قلَّ، كما قال ﷺ: «**أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ أَدْوَمُهَا، وَإِن قَلَّ**»(١)، وهذا أفضلُ مِمَّن ينشط تارةً إلىٰ الطاعة الكثيرة ثم ينقطع.

وذلك أنَّ المسلم الذي يُلْزِم نفسَه بعبادةٍ قليلةٍ ويداوم عليها نراه حريصًا عليها، فلا يخلو يومُه من تلك العبادة، وإن فاتته يومًا حاول تعويضَ ذلك، كشخصٍ اعتاد علىٰ أن يقرأ وردًا من القرآن يوميًّا مقداره جزءٌ، فإنه سيختم كلَّ شهرٍ مرةً، ولكن نرىٰ من يأتيه الحماسُ والنشاطُ فيجلسُ يومًا ويقرأ خمسةَ أجزاء، ثم اليوم الذي يليه هكذا، ثم قد يفتُر ويكسَلُ بعد ثلاثة أيام أو أربعة، فإمَّا أنه لا يختم، أو يختم مرَّةً ثم لا يكرِّرها إلا بعد فترةٍ طويلةٍ من الزمن.

فلأجل ذلك نرىٰ أنَّ مَن وطَّن نفسه علىٰ عملٍ فإنه يُنجِز ويستمرُّ، وإن كان قليلًا، فهذا الذي ينبغي في العمل، وهو المداومة، سواءٌ كان في الصلاة، أو الصيام، أو قراءة القرآن، أو غير ذلك.

فالحرصُ علىٰ الديمومة هو سبب قضاء النبي ﷺ صلاتَه من الليل، وهو أخذٌ للنفس بالجدِّ والعزيمة والحزم.

ومِن فوائد قضاء صلاة الليل والسُنَن عمومًا: أنَّه حرصٌ علىٰ السُّنَّة والنوافل واستدامةٌ لها، ومَن كان حريصًا علىٰ السُّنَّة والنوافل بهذا القدر من العزم والحزم فإنه لا يُفَوِّتُ الواجبَ في الغالب، ولا يتهاون في الفرائض التي فرضها الله سبحانه، ويكون أشدَّ تمسُّكًا بالطاعة ومرضاة الله.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٧٨٣).

ومن فوائد الحديث: أنَّ صلاةَ الليل وترٌ، وقضاءَها شفعٌ، فإنه كان يصلِّي من الليل إحدىٰ عشرة ركعة، فإذا قضاها صلاها اثنتي عشرة ركعة؛ لأنه لا وِترَ في النهار.

وهكذا مَن كان وِرْدُه من قيام الليل خمسَ ركعاتٍ فإنه يقضيها في النهار ستًّا، ومَن كان وِردُه ثلاثًا قضاها في النهار أربعًا، ومَن كان وِردُه سبعًا قضاها ثمانيًا، وهكذا، يَجبُر الوِتر بركعةٍ أخرىٰ لتصير صلاتُه شفعًا.

***

٢٢٧ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُم مِنَ اللَّيْلِ فَلْيَفْتَتِحْ صَلَاتَهُ بِرَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ»(١).

شرح الحديث

فيه أنَّ المسلم إذا أراد أن يقوم من الليل افتتح صلاته بركعتين خفيفتين؛ فلا يُطيل في القيام والقراءة، ولا في الركوع، ولا في السجود.

والمقصود بالخِفَّة هنا: ألَّا يبلُغَ طولُها طولَ بقية ركعاته من قيام الليل.

وسبب افتتاح قيام الليل بركعتين خفيفتين: أنَّ النَّفس تحتاج إلىٰ مُسايَستها في الطاعة، وأخذِها أخذًا رفيقًا، فهاتان الركعتان الخفيفتان هما تهيئةٌ وإعدادٌ لما ستُقْبِل عليه النفسُ من طولِ قيام في صلاة الليل.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٦٨).

وهذه السياسةُ كانت مِمَّن دَأَبَ واستمرَّ علىٰ قيام الليل ﷺ؛ فلا شكَّ أنَّ مَن هو دونه يحتاج إلىٰ ذلك أكثر.

وهكذا النفسُ البشريةُ تحتاج إلىٰ مَن يُلاطفها ويَسوسُها، ويقودها قيادًا حسنًا، وهذا هو المنهج النبويُّ الأمثل في التعامُل مع النفس؛ فلا يكون الإنسان شديدًا حازمًا قاسيًا علىٰ نفسه حتىٰ يخرج عن حدِّ الاعتدال، ولا يكون متهاونًا معها حتىٰ لا تُطَاوِعه في عبادةٍ ولا يقوىٰ علىٰ قيادتها، وإنما المنهج الوسط هو المنهج النبويُّ المعتدل.

***

(صحيح) ٢٢٨ـ **عَن زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَأَرْمُقَنَّ صَلَاةَ النَّبِيِّ ﷺ، فَتَوَسَّدتُ عَتَبَتَهُ أَوْ فُسْطَاطَهُ، فَصَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ وَهُمَا دونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ وَهُمَا دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ وَهُمَا دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ وَهُمَا دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا، ثُمَّ أَوْتَرَ، فَذَلِكَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً»**(١).

شرح الحديث

قول زيد بن خالد الجهني ﷺ: «**لَأَرْمُقَنَّ صَلَاةَ النَّبِيِّ ﷺ**»؛ الرَّمْق: التَّتَبُّع بلَحظ الأبصار، أي: أنه سيرصُد ويتتبَّع أفعالَ النبي ﷺ رصدًا وتتبُّعًا دقيقًا.

(١) أخرجه مسلم (٧٦٥).

وهذا يُشبه ما ذكره البراء بن عزاب رضي الله عنهما بقوله: «رَمَقْتُ الصَّلَاةَ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ»(١)؛ فكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يَتتبَّعون النبي ﷺ، ويرصُدون أفعاله رصدًا دقيقًا، وسخَّرُوا حياتَهم لصحبته ومعرفة هديه ﷺ، وتحمَّلُوا أمانةَ نقل أقوال النبي ﷺ وأفعاله وشمائله وخصائله ووصفه لمن بعدهم، فقاموا بالمهمَّة خير قيام، ونقلوا سُنَّته إلىٰ من بعدهم من الأمَّة علىٰ أكمل وجهٍ، فما كتموا شيئًا ولا أخفوا حديثًا رضي الله عنهم.

قوله رضي الله عنه: «**فَتَوَسَّدتُ عَتَبَتَهُ أَوْ فُسْطَاطَهُ**»؛ الفُسطاطُ: الخيمة المنصوبة. فلعلَّ هذه القصة كانت خارج المدينة في سفرٍ سافره النبي ﷺ وشاركه فيه زيد ابن خالد الجهني رضي الله عنه؛ لأنَّه ليس بالمدينة فُسطاطٌ يبيت فيه النبي ﷺ، فضلًا عن أنَّه لم يكن من شأن الصحابة أن يبيتوا علىٰ عَتَبات حُجرات النبي ﷺ ينتظرون كشف الستر حتىٰ ينظروا ماذا يفعل النبي ﷺ داخلها! بل كانت هذه القصة في السفر حيث يتخذ الناسُ الخيامَ، أو يبيتون في العَراء؛ فيكون متاحًا للصحابة أن يصِلوا للنبي ﷺ ويروا أفعاله.

وفي هذا بيانٌ لحرص الصحابي الجليل رضي الله عنه علىٰ معرفة شأن النبيِّ ﷺ في صلاته بالليل، وهذا شبيهٌ بما ورد في حديث ابن عباس السابق رضي الله عنهما في مبيته عند خالته ميمونة رضي الله عنها؛ فمَن كان هدفُه ونيتُه عظيمين احتاج إلىٰ إتعاب جسمِه وإرهاقها في تحصيل المقصود، فهذا زيد بن خالد رضي الله عنه عندما أراد أن يعرف هديَ النبي ﷺ في قيام الليل؛ تركَ النومَ في فراشه، وتوسَّد عَتبةَ خيمةِ النبي ﷺ، وهكذا:

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧١).

وإذا كانت النفوسُ كِبارًا   تَعِبت في مُرادها الأجسامُ

واليوم لا يستطيع أحدُنا أن يرقُب صنيعَ النبي ﷺ بعينيه، ولكن أين مَن يريد التأسِّي والاقتداء فليتأمَّل في سيرته، ويقرأ شمائله، ويطبِّقها في حياته!

قوله رضي الله عنه: «**فَصَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ**»؛ تمهيدًا لقيام الليل الطويل ـ كما سبق في الحديث السابق ـ.

وفي هذا أنَّ هاتين الركعتين الخفيفتين كانت من سُنَّته الثابتة ﷺ قولًا ـ كما في الحديث السابق ـ، وفعلًا ـ كما في هذا الحديث ـ.

قوله رضي الله عنه: «**ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ**»، مِن شِدَّة طولِهما لم تفِ كلمة (طويلتين) بوصف طولهما، فأكَّد الكلمة مرَّتين: (طويلتين، طويلتين، طويلتين).

وسيأتي في أحاديث قادمةٍ وصفُ هذا الطُّول، والسُّوَر الطويلة التي كان يقرأها في تلك الركعات الطويلة.

قوله رضي الله عنه: «**ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ وَهُمَا دونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا**»؛ أي: أقلَّ منهما في الطول، وهاتان الركعتان الخامسة والسادسة.

قوله رضي الله عنه: «**ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ وَهُمَا دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا**»، وهاتان الركعتان السابعة والثامنة، وهما أقصر من الخامسة والسادسة.

قوله رضي الله عنه: «**ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ وَهُمَا دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا**»، وهما الركعتان التاسعة والعاشرة، وهما أقصر من السابعة والثامنة.

قوله ﷺ: «**ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ وَهُمَا دُونَ اللَّتَيْنِ قَبْلَهُمَا**»، وهما الحادية عشرة والثانية عشرة، وهما أقصر من التاسعة والعاشرة.

فكان هديُ النبي ﷺ في قيام الليل أن يبتدئ بركعتين خفيفتين، ثم ركعتين طويلتين طولًا شديدًا، ثم كلما صلىٰ ركعتين جعلهما أخفَّ من سابقتيهما حتىٰ ينتهي.

وهذا التخفيفُ أيضًا هو متناسبٌ مع احتياجات النفسِ البشرية، فإنَّه هيَّأ نفسَه في البداية بركعتين خفيفتين، فكان في أتمِّ النشاط خاصَّةً بعد راحة جسده في النوم، فصلَّىٰ ركعتين طويلتين متناسبتين مع نشاطه وتهيئته وجهده وطاقته وحماسته، ثم إنَّ همة الإنسان لا تزال تتناقص ويضعفُ جهده ويتعب، فكان من المناسِبِ أن ينقص طولُ الركعات تدريجيًّا حتىٰ ينتهي.

وهكذا كان هديه ﷺ؛ يحقق فيه عبادة ربه وطاعته، مع ما يتوافق مع النفس البشرية واحتياجاتها ويوائمها ويلائمها، ولا يعارضها.

قوله ﷺ: «**ثُمَّ أَوْتَرَ، فَذَلِكَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً**»، وإنما جعلها ثلاثَ عشرةَ ركعةً لأنَّه عدَّ الركعتين الخفيفتين الأُولَيَين، فإن لم تُعَدَّ تلك الركعتان كان مجموع الركعات إحدىٰ عشرة ركعةً.

***

(صحيح) **٢٢٩- عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ** ﷺ: **كَيْفَ كَانَتْ صَلَاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ؟ فَقَالَتْ: «مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيَزِيدَ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَىٰ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ رَكْعَةً؛ يُصَلِّي أَرْبَعًا لَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ**

وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا لا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلاثًا»، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَنَامُ قَبْلَ أَن تُوتِرَ؟ فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلا يَنَامُ قَلْبِي»(١).

شرح الحديث

قول أبي سلمة: «كَيْفَ كَانَتْ صَلَاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ؟»، فيه ما مرَّ مِرَارًا من كثرة أسئلة التابعين الصحابةَ عن النبي ﷺ، يقودهم إلىٰ ذلك الحُبُّ والحرصُ وتَتبُّع مواقع السُّنَن، حيث رأوا أمامهم مَن لَقِي النبي ﷺ وعرف سيرته وشمائله وخصاله وعباداته، فرأوا ذلك فرصةً ثمينةً لا ينبغي أن يُفَرَّط فيها، فكانوا يتتابعون ويسألون عن سُنَّته وهديه ﷺ؛ فلأجل ذلك كان جيلُ التابعين أعظمَ جيل وأشرفَه بعد جيلِ الصحابة.

قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيَزِيدَ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَىٰ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ رَكْعَةً»، فلم تَعُدَّ الركعتين الخفيفتين اللتين كان يصليهما ﷺ بداية قيامه الليل.

وقد ذكرت هنا عدد الركعات إجمالًا وهو ثلاثَ عشرةَ ركعةً، ثم فصَّلت بأنهن أربعٌ وأربعٌ وثلاثٌ.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «يُصَلِّي أَرْبَعًا لَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ»، ليس المقصود بذكرها أربعَ ركعاتٍ أنَّه كان يصلِّيها متَّصلات بسلامٍ واحدٍ، وإنما كان يصلّي

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨).

ركعتين ركعتين كما ورد في غيره من الأحاديث، والمقصود أنه كان يصلي أربعًا ثم يستريح.

قولها رضي الله عنها: «**ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا لا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ**»، فأصبحت ثمانيًا.

قولها رضي الله عنها: «**ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا**»، وهو الوِترُ؛ فيكون المجموع إحدىٰ عشرة ركعةً.

قولها رضي الله عنها: «**يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَنَامُ قَبْلَ أَن تُوتِرَ؟**»، لم تذكر في كلامها السابق أنه كان ينام، ولكن تقسيمها الصلاة إلىٰ أربعٍ ثم أربعٍ ثم ثلاثٍ يدلُّ علىٰ أنَّه كان يصلي أربعًا ثم يستريح قليلًا، ثم يصلي أربعًا أخرىٰ ثم يستريح قليلًا، ثم يُوترُ بثلاث، فيُفْهَم من الرواية أنَّه كان يضطجع بعد الأربعة الثانية وقبل الثلاثة الأخيرة.

هذا احتمالٌ، واحتمالٌ آخر: أن يكون ذلك قد حصلَ منه مرةً أنَّه أراد أن ينام قبل أن يُوتِرَ، فسألته عن ذلك.

قوله ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي**»، وهذا من خصائصه ﷺ؛ أنه ينام لا كما ينام البشر، فإنَّ الله جعل لجسده الشريف من الخصائص ما ليس لغيره من الناس، فإنَّ نومَه يصيب عينيه فقط، وأما قلبُه فيبقىٰ يقظًا؛ لأنَّه متصلٌ بالوحي وبفاطر الأرض والسماء، فلا ينبغي لقلبه أن يغفُل أو ينقطع عن الحياة.

فهو ﷺ إذا أراد أن ينام يكتفي من النوم بتغميض عينيه، وإلا فوعيُه وإدراكُه موجودان؛ ولأجل ذلك عندما يذكر الفقهاء أن النوم يُوجِب الوضوء، فإنهم يُعَلِّلُون ذلك بأنَّ النوم ليس حدثًا في نفسه، وإنما هو مظِنَّةُ الحدثِ؛ لأنَّ

النائمَ لا يدرك ما يقع منه، فلعله خرج منه ريحٌ، أو وقعت يدُه علىٰ فرجه، أو نحو ذلك مما ينقض الوضوء مما لا يعقله ويدركه وهو نائم، ولكنَّ ذلك ما كان يصدر من النبي ﷺ حال نومه؛ فإنَّه يعي ويعقِل ما يكون منه حتىٰ وهو نائمٌ، فما كان النومُ موجبًا عليه أن يتوضَّأ ﷺ.

مسألة فقهية: دلَّ هذا الحديثُ علىٰ أنَّ النبي ﷺ ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره في صلاة الليل علىٰ إحدىٰ عشرة ركعةً، وقد ذكرنا سابقًا أنَّ هذه الإحدىٰ عشرة ركعةً دون الركعتين الخفيفتين في بداية القيام، فيكون مجموع الركعات التي يصلِّيها ﷺ ثلاثَ عشرةَ ركعةً.

وقد فهِمَ بعض أهل العلم أنَّه لا يصِحُّ أن يزيد المصلي علىٰ هذا العدد، فإن زاد فصلاتُه باطلةٌ، وذلك بمثابة ركعةٍ خامسةٍ في الظهر أو العصر أو العشاء، أو رابعةٍ في المغرب، أو ثالثةٍ في الفجر؛ فإنَّه إن زاد علىٰ الثلاثَ عشرةَ ركعةً فصلاتُه باطلةٌ، ولا يصحُّ التقرُّب بهذه الصلاة إلىٰ الله.

لكن مجموع الروايات والأحاديث يدلُّ علىٰ غير ذلك؛ فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ، فَقَالَ: كَيْفَ صَلَاةُ اللَّيْلِ؟ فَقَالَ: **«مَثْنَىٰ مَثْنَىٰ، فَإِذَا خَشِيتَ الصُّبْحَ فَأَوْتِرْ بِوَاحِدَةٍ، تُوتِرُ لَكَ مَا قَدْ صَلَّيْتَ»**(١). فقد جاء هذا الرجل يسأل عن صلاة الليل خاصَّةً، فأخبره ﷺ أن يُصَلِّي ركعتين، فإذا انتهىٰ منهما صلَّىٰ ركعتين أُخرَيَين، وهكذا، فإذا خشي أن يؤذِّن الفجر صلىٰ ركعةً واحدةً تكون له وِترًا، ولم يقل له: إذا صلَّيت ركعتين ركعتين فلا تتجاوز

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٣)، ومسلم (٧٤٩).

العشرة أو الاثنتي عشرة ركعة! بل ترك الأمرَ للسائلِ يصلِّي ما يشاء.

وهذا مقامٌ ينبغي أن يكون بيانُ النبي ﷺ فيه أتمَّ بيانٍ؛ لأنَّه إجابةٌ عن سؤالٍ خاصٍّ بصلاة الليل، يريد السائل أن يطبِّقه في حياته ويمتثل له، فلا بدَّ أن يكون الجواب على تمامه وأكمله.

وقد يقول قائلٌ: إنَّ السائل يعلمُ أنَّ النبي ﷺ لا يزيد على إحدى عشرة ركعةً، وهذا مستبعدٌ جِدًّا.

فيُفهم مِما سبَق أنَّه يجوز لمن أراد أن يصلِّي قيام الليل أن يصلِّي أكثر من إحدى عشرة ركعةً إن شاء.

فإن قيل: فلِمَ كان النبي ﷺ لا يزيد على إحدى عشرة ركعةً؟

فالجواب: لأنَّ هذا هو عدد الركعات المناسب للوقت والوصف الذي كان النبيُّ ﷺ يصلِّي فيه صلاة الليل؛ فإنَّه كان يقوم من نصف الليل، ثم ينصرف عند السحر، وكانت ركعاتُه طويلةً، وقراءتُه طويلةً، فلا يتَّسع الوقت لأكثر من ذلك.

ويُزاد على ما سبق: أنَّه قد ورد عن بعض السلف أنهم كانوا يصلُّون أربعين ركعةً، وثلاثين ركعةً، وغير ذلك.

فعَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ النَّاسُ يَقُومُونَ فِي زَمَانِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ فِي رَمَضَانَ بِثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ رَكْعَةً»(١).

يقول الترمذي: «وَاخْتَلَفَ أَهْلُ العِلْمِ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ، فَرَأَى بَعْضُهُمْ: أَنْ

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٣٨٠).

يُصَلِّيَ إِحْدَىٰ وَأَرْبَعِينَ رَكْعَةً مَعَ الوِتْرِ، وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ المَدِينَةِ، وَالعَمَلُ عَلَىٰ هَذَا عِندَهُمْ بِالمَدِينَةِ.

وَأَكْثَرُ أَهْلِ العِلْمِ عَلَىٰ مَا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ، وَعَلِيٍّ، وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ عِشْرِينَ رَكْعَةً، وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ، وَابْنِ المُبَارَكِ، وَالشَّافِعِيِّ.

وقَالَ الشَّافِعِيُّ: وَهَكَذَا أَدْرَكْتُ بِبَلَدِنَا بِمَكَّةَ يُصَلُّونَ عِشْرِينَ رَكْعَةً.

وقَالَ أَحْمَدُ: رُوِيَ فِي هَذَا أَلْوَانٌ وَلَمْ يُقْضَ فِيهِ بِشَيْءٍ.

وقَالَ إِسْحَاقُ: بَلْ نَخْتَارُ إِحْدَىٰ وَأَرْبَعِينَ رَكْعَةً عَلَىٰ مَا رُوِيَ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ»(١).

فمرجعُ عدد الركعات إلىٰ حال المصلِّي، ووقته، وطول قيامه، وطول ركوعه، وطول سجوده؛ فبعض القائمين بالليل يطيل الركوع والسجود والقراءة فتقلُّ ركعاته، وبعضهم يُكثر الركعات فيقصر قيامه وركوعه وسجوده، وكلاهما جائزٌ، ولا شكَّ أنَّ الهديَ النبويَّ في تطويل القيام والركوع والسجود أفضلُ وأتمُّ وأكملُ.

***

(صحيح) **٢٣٠ـ وَعَنْهَا** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُوتِرُ مِنْهَا بِوَاحِدَةٍ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْهَا اضْطَجَعَ عَلَىٰ شِقِّهِ الأَيْمَنِ**»(٢).

---

(١) جامع الترمذي عقب حديث (٨٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (٧٦٣).

(وَعَنْهَا)؛ أي: عن عائشة رضي الله عنها.

وقد دلَّ الحديثُ علىٰ أنَّ صلاتَه بالليل إحدىٰ عشرة ركعةً، وقد مرَّ سابقًا أنَّه لا تعارُضَ في ذلك مَع بعض الروايات التي ذكرت أنَّ صلاته بالليل ثلاثَ عشرةَ ركعةً.

وقد ذكر بعضُ العلماء هنا لطيفةً: وهي أنَّ ركعاتِ النهار في الصلوات المفروضة النهارية إحدىٰ عشرة ركعةً، وهي أربعُ ركعاتٍ في الظهر، ومثلها في العصر، وثلاثةٌ في المغرب، وهذا يُماثِلُ عدد ركعاته في صلاة الليل إحدىٰ عشرة ركعةً؛ فكون صلاةُ الليل إحدىٰ عشرة ركعةً حتىٰ توافق عدد الركعات النهارية.

قد يكون ذلك من قبيل الموافقة لا التعمُّد.

***

(صحيح) **٢٣١ـ وَعَنْهَا رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ تِسْعَ ركعات»**(١).

(وَعَنْهَا) أي: عن عائشة رضي الله عنها.

دلَّ الحديث علىٰ أن النبي ﷺ كان يُصَلِّي من الليل أحيانًا تسعَ ركعاتٍ، وهذا لا يناقض ما ورد في الرواية التي قبل ذلك مِن أنَّه ما كان يزيد عن إحدىٰ عشرة ركعة، فإنَّ تلك الرواية دلَّت علىٰ عدم زيادة علىٰ الإحدىٰ عشرة ركعة، وهذا الرواية دلَّت علىٰ أنه يمكن أن ينقص عن الإحدىٰ عشرة ركعة؛ فيصليها تسعًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٣٠).

(صحيح) ٢٣٢ـ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ صَلَّىٰ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ، قَالَ: فَلَمَّا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ قَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ ذُو المَلَكُوتِ وَالجَبَرُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ»، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ البَقَرَةَ، ثُمَّ رَكَعَ فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِن قِيَامِهِ، وَكَانَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ، سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ»، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَكَانَ قِيَامُهُ نَحْوًا مِن رُكُوعِهِ، وَكَانَ يَقُولُ: «لِرَبِّيَ الحَمْدُ، لِرَبِّيَ الحَمْدُ»، ثُمَّ سَجَدَ، فَكَانَ سُجُودُهُ نَحْوًا مِن قِيَامِهِ، وَكَانَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَىٰ، سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَىٰ»، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَكَانَ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ نَحْوًا مِنَ السُّجُودِ، وَكَانَ يَقُولُ: «رَبِّ اغْفِر لِي، رَبِّ اغْفِر لِي»، حَتَّىٰ قَرَأَ البَقَرَةَ وآلَ عِمْرَانَ وَالنِّسَاءَ وَالمَائِدَةَ أَوِ الأَنْعَامَ ـ شُعْبَةُ الَّذِي شَكَّ فِي المَائِدَةِ وَالأَنْعَامِ ـ »[1].

قول حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ صَلَّىٰ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ»، وفيه ما سبق في حديث ابن عباس وزيد بن خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ الصحابةَ كانوا يحرصون علىٰ اكتشاف عبادة النبي ﷺ ومعرفتها.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَلَمَّا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ ذُو المَلَكُوتِ وَالجَبَرُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ»؛ أي: سمع حذيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبي ﷺ يقول هذا في دعاء الاستفتاح تكبيرًا وتمجيدًا وتعظيمًا لله سبحانه.

وذو الـمَلَكوت: أي: ذو الـمُلك الواسع.

وذو الجَبَروت: أي: ذو القُدرة، قاصمُ الجبابرة.

فافتتح النبيُّ ﷺ عبادتَه بالتذلُّلِ بين يدي ربّه سبحانه، ولسانُ حالِه يقول:

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٣٧٥)، وأبو داود (٨٧٤)، والنسائي (١١٤٥).

يا ربِّ، أنا عبدُك الضعيفُ والفقيرُ، أنا عبدُك المسكينُ المحتاجُ، وأنت يا ربَّ العالمين، ملكُ الملوك، ذو الجلال والإكرام، صاحبُ المجد والثناء والعطاء، يا ربِّ ارحم عبدًا واقفًا بين يديك، جاءك معترفًا بعظَمَتك وجلالك وكبريائك، إلهَ الحقّ.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثُمَّ قَرَأَ البَقَرَةَ، ثُمَّ رَكَعَ فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِن قِيَامِهِ»؛ أي: أطال في الركوع بمقدار قراءة سورة البقرة، والتي تبلغ في المصحف جزأين ونصفًا تقريبًا، أي: أنَّ ركوعه قارب ساعةً من ساعاتنا اليوم؛ فقام يقرأ ساعةً، وركع ساعةً، فتلك ساعتان تقريبًا.

ولا يظنَّنَّ ظانٌّ أنه قرأ البقرة قراءةً سريعةً، بل قراءتُه ﷺ كانت قراءةَ تأنٍّ وتدبُّرٍ وتكرارٍ للآيات، وسؤالٍ لله عند آيات الرحمة، واستعاذةٍ بالله عند آيات العذاب.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَكَانَ قِيَامُهُ نَحْوًا مِن رُكُوعِهِ، وَكَانَ يَقُولُ: لِرَبِّيَ الحَمْدُ، لِرَبِّيَ الحَمْدُ»؛ أي: أطال في قيامه بعد رفعِ رأسِه من الركوع مثلما أطال في الركوع، ثم دعا بالدعاء المسْنون، ثم لا زال يكرِّر: لربّيَ الحمدُ، في ذلك القيام الطويل.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثُمَّ سَجَدَ، فَكَانَ سُجُودُهُ نَحْوًا مِن قِيَامِهِ، وَكَانَ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَىٰ، سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَىٰ»؛ أي: كان يملأ سجودَه الطويلَ هذا تسبيحًا، ولا يمنع أن يخالطه شيءٌ من دعاءٍ أو سؤالٍ، أو تضرُّعٍ أو إلحاحٍ أو ذكرٍ غير ذلك؛ فإنَّ العبدَ أقرب ما يكون من ربه وهو ساجدٌ، فيسأل من خَيْرَي الدنيا والآخرة.

قوله ﷺ: «**حَتَّىٰ قَرَأَ البَقَرَةَ وآلَ عِمْرَانَ وَالنِّسَاءَ وَالمَائِدَةَ أَوِ الأَنْعَامَ**»، وفي ذلك من الإطالةِ ما لا يخفىٰ، وفيه دلالةٌ علىٰ علوِّ همة النبي ﷺ في العبادة والصلاة.

(**شُعْبَةُ الَّذِي شَكَّ**) أي: شعبةُ راوي الحديث، هو الذي وقع منه الشكُّ.

فهذه الإطالةُ في القراءة والركوع والقيام والسجود كانت مقصودةً، ومقاربةُ تلك الأركان للقراءةِ كانت مقصودةً، فهذا من الهدي النبوي في صلاة الليل، ويؤكِّد ذلك حديثُ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: «**رَمَقْتُ الصَّلَاةَ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَوَجَدْتُ قِيَامَهُ، فَرَكْعَتَهُ، فَاعْتِدَالَهُ بَعْدَ رُكُوعِهِ، فَسَجْدَتَهُ، فَجَلْسَتَهُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ، فَسَجْدَتَهُ، فَجَلْسَتَهُ مَا بَيْنَ التَّسْلِيمِ وَالِانْصِرَافِ، قَرِيبًا مِنَ السَّوَاءِ**»(١)، أي: كانت أركانُ الصلاة في صلاة النبيِّ ﷺ قريبةً من التساوي؛ فمَن كان يطيل القراءةَ فالسُّنَّة أن يطيل في ركوعه وسجوده، وبقيَّة الأركان كذلك.

***

(صحيح) **٢٣٣ـ عَنْ عَائِشَةَ** ﷺ **قَالَتْ**: «**قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِآيَةٍ مِنَ القُرْآنِ لَيْلَةً**»(٢).

هذا لونٌ آخرُ من ألوان قيامه ﷺ، فلم يكن في قيامه كثرةُ قراءةٍ للقرآن كما في الحديث السابق، بل قرأ آيةً واحدةً وظلَّ يردِّدُها، ولم يقرأ غيرَها.

وقد جاء تحديدُ هذه الآية في روايةٍ أخرىٰ: فعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: «**صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَرَأَ بِآيَةٍ حَتَّىٰ أَصْبَحَ؛ يَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ بِهَا**: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧١).

(٢) أخرجه الترمذي (٤٤٨) وقال: «حسن غريب».

﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]»(١).

*** لفتة إيمانية:**

مِن عجائب كتاب ربِّنا الكريم وأسراره: أنَّ الإنسان قد يجدُ قلبَه متعلقًا بآيةٍ يقرؤها أو تمرُّ به، فلا يزال ملتزمًا بها، ويردِّدها، ويكرِّرها، ولا يتجاوزها، متأمِّلًا لها، مكتشفًا لأسرارها، مُتدبِّرًا لمعانيها، مُتلذِّذًا بمعاودة قراءتها، قد فتح الله عليه في فهم معاني تلك الآية في تلك اللحظة، فلا يُطاوعُه قلبُه أن يتجاوزَها ويغادرَها إلىٰ غيرها.

ولا ندري ما الذي علَّق قلبَ وفؤادَ النبيِّ ﷺ بهذه الآية في تلك الليلة! ولا شك أنَّه قد بلغ الدرجةَ الأتمَّ في التدبُّر والعيش مع القرآن.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلو عَلِمَ الناسُ ما في قراءةِ القرآن بالتدبُّر لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها؛ فإذا قرأه بتفكُّرٍ حتىٰ مرَّ بآيةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه كرَّرها ولو مائةَ مرّةٍ، ولو ليلةً، فقراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ من قراءة ختمةٍ بغير تدبُّرٍ وتفهُّمٍ، وأنفعُ للقلب، وأدعىٰ إلىٰ حصول الإيمان، وذَوقِ حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف يُردِّدُ أحدُهم الآيةَ إلىٰ الصباح»(٢).

ومما ورد عن السلف من ذلك ما رواه مَسْرُوقٌ قَالَ: قَالَ لِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ: هَذَا مَقَامُ أَخِيكَ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ: لَقَدْ رَأَيْتُهُ قَامَ لَيْلَةً حَتَّىٰ أَصْبَحَ أَوْ كَرِبَ أَنْ يُصْبِحَ، يَقْرَأُ آيَةً مِن كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَيَرْكَعُ، وَيَسْجُدُ، وَيَبْكِي ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه أحمد (٢١٣٢٨).

(٢) مفتاح دار السعادة (ص١٨٧).

ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

فإنْ فتحَ الله عليكَ يومًا في آيةٍ فردِّدها وكرِّرها، ولا تتجاوزها، حتىٰ تشعُرَ أنك اكتفيت، وأنَّ روحَك قد شبِعَت من قراءتها والتلذُّذِ بها، فإن لم تكتفِ فالزمها.

***

(صحيح) **٢٣٤ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: «صَلَّيْتُ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا حَتَّىٰ هَمَمْتُ بِأَمْرِ سُوءٍ، قِيلَ لَهُ: وَمَا هَمَمْتَ بِهِ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَقْعُدَ، وَأَدَعَ النَّبِيَّ ﷺ»**(١).

قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: **«صَلَّيْتُ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ»**، وفي هذا ما في سابقه؛ من حرص الصحابة رضي الله عنهم علىٰ معرفة هدي النبي ﷺ في قيام الليل وعبادته.

قوله رضي الله عنه: **«هَمَمْتُ أَنْ أَقْعُدَ، وَأَدَعَ النَّبِيَّ ﷺ»**، فلم يجد رضي الله عنه في نفسه طاقةً لمجاراة النبي ﷺ في صلاته، فأراد أن يترك الصلاة لطول قيام النبي ﷺ في صلاته.

وهذا شبيهٌ بما حصل لحُذيفة بن اليمان رضي الله عنهما عندما صلَّىٰ مع النبي ﷺ وفاجأه طولُ صلاته ﷺ، فعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: **صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَىٰ، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَىٰ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ،**

(١) أخرجه البخاري (١١٣٥).

ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ»، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَىٰ»، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ[1].

فلا يُقارن قيامُه ﷺ بقيام أحدٍ من الصالحين والعُبَّاد من هذه الأمّة.

***

(صحيح) ٢٣٥ـ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي جَالِسًا، فَيَقْرَأُ وَهُوَ جَالِسٌ، فَإِذَا بَقِيَ مِن قِرَاءَتِهِ قَدْرُ مَا يَكُونُ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ آيَةً قَامَ، فَقَرَأَ وَهُوَ قَائِمٌ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ، ثُمَّ صَنَعَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِثْلَ ذَلِكَ»[2].

شرح الحديث

قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي جَالِسًا»، هذا في صلاته ﷺ في قيام الليل، فإنه ﷺ كان لطول قيامه في صلاة الليل ربما استعان علىٰ ذلك بالجلوس.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «فَيَقْرَأُ وَهُوَ جَالِسٌ، فَإِذَا بَقِيَ مِن قِرَاءَتِهِ قَدْرُ مَا يَكُونُ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ آيَةً قَامَ، فَقَرَأَ وَهُوَ قَائِمٌ»؛ أي: كان يصلي أغلب الركعة وهو جالسٌ، يقرأ قراءةً طويلةً، فإذا اقترب ركوعُه قام ﷺ، وأتمَّ المقدارَ الباقيَ من القراءة قائمًا؛ ليتهيَّأ للركوع وهو قائمٌ.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (١١١٩)، ومسلم (٧٣١).

وقد قُدِّر المقدارُ الذي يقِفُه قبل الركوع بمقدار ثلاثين أو أربعين آيةً، وهذا المقدار قد لا يصِلُه كثيرٌ مِمَّن يصلي قيام الليل، بينما هو المقدار المتبقِّي من قراءته الذي كان ﷺ يقرؤه قبل أن يركع؛ فما بالُك بالمقدار الذي قرأه وهو جالسٌ! هذا المقدار هو الذي وُصِف في أحاديثَ سابقةٍ، حيث كان يقوم بالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة أو الأنعام، هذا المقدار هو الذي كاد أن يَهُمَّ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه من أجله بالانصراف عن الائتمام بالنبيِّ ﷺ في قيام الليل.

ومِن فقهِ هذا الحديث: أنَّ مَن رغِب في شرفِ قيام الليل وأجرِه، ولم يجد قدرةً في بدنه على القيام؛ فله أن يصلِّي جالسًا.

فلا ينبغي للإنسان أن يُقعِده الكسلُ أو التَّعبُ أو المرضُ عن قيام الليل؛ فإنَّ له أن يظفر بقيام الليل مع ما يجده من تعبٍ، وذلك بالصلاة جالسًا، ولو قدرًا يسيرًا؛ فإنَّه خيرٌ من ألا يصلي شيئًا.

وهذا الحكم خاصٌّ بالنوافل، فإنه يُشرَع للمرء أن يصلِّي قاعدًا ولو من غير عُذرٍ، أو كان طالبًا للتخفيف عن نفسه، أو راغبًا في الأيسر والأهون، ولكن يُكتَب له نصفُ أجرِ القائم، كما قال ﷺ: «**إِنْ صَلَّىٰ قَائِمًا فَهُوَ أَفْضَلُ، وَمَنْ صَلَّىٰ قَاعِدًا فَلَهُ نِصْفُ أَجْرِ القَائِمِ، وَمَنْ صَلَّىٰ نَائِمًا فَلَهُ نِصْفُ أَجْرِ القَاعِدِ**»(١).

وأما الفرائضُ: فإنما يجوز للمريض أو الكبير والمعذور أن يجلس، وله أجر الصلاة التامة، وأما غيرُ المعذور فلا يجوز له أن يصلي الفريضة جالسًا.

فإن فهمتَ هذا فلا يردنَّ عليك إشكالٌ في صلاة النبيِّ ﷺ قاعدًا، وفواتِ

---

(١) أخرجه البخاري (١١١٥، ١١١٦)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

نصفِ أجر القيام عليه؛ فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: حُدِّثْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ قَاعِدًا نِصْفُ الصَّلَاةِ»، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ، فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي جَالِسًا، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَىٰ رَأْسِهِ، فَقَالَ: «مَا لَكَ، يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو»، قُلْتُ: حُدِّثْتُ ـ يَا رَسُولَ اللهِ ـ أَنَّكَ قُلْتَ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ قَاعِدًا عَلَىٰ نِصْفِ الصَّلَاةِ»، وَأَنتَ تُصَلِّي قَاعِدًا! قَالَ: «أَجَلْ، وَلَكِنِّي لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنْكُمْ»(١)؛ فثبت بهذا الحديث تمامُ أجره وإن صلَّىٰ قاعدًا ﷺ.

***

(صحيح) ٢٣٦ـ **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رضي الله عنها عَن صَلَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ عَن تَطَوُّعِهِ؟ فَقَالَتْ: «كَانَ يُصَلِّي لَيْلًا طَوِيلًا قَائِمًا، وَلَيْلًا طَوِيلًا قَاعِدًا، فَإِذَا قَرَأَ وَهُوَ قَائِمٌ رَكَعَ وَسَجَدَ وَهُوَ قَائِمٌ، وَإِذَا قَرَأَ وَهُوَ جَالِسٌ رَكَعَ وَسَجَدَ وَهُوَ جَالِسٌ»**(٢).



شرح الحديث

قول عائشة رضي الله عنها: **«كَانَ يُصَلِّي لَيْلًا طَوِيلًا قَائِمًا، وَلَيْلًا طَوِيلًا قَاعِدًا»**؛ أي: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يصلي قائمًا تارةً، وجالسًا تارةً أخرىٰ.

وقد يُحمَل هذا علىٰ أنَّه كان يصلِّي بعضَ الليل قائمًا، وبعضَ الليل قاعدًا؛ فيَجمعُ بين القيام والقعود في قيام ليلةٍ واحدةٍ.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (٧٣٠).

وفي هذا دعوةٌ إلىٰ التماس فضل الربِّ سبحانه بهذه العبادة علىٰ أيِّ وجهٍ كان يستطيعه الإنسان ويقدر عليه.

قول عائشة رضي الله عنها: «**فَإِذَا قَرَأَ وَهُوَ قَائِمٌ رَكَعَ وَسَجَدَ وَهُوَ قَائِمٌ، وَإِذَا قَرَأَ وَهُوَ جَالِسٌ رَكَعَ وَسَجَدَ وَهُوَ جَالِسٌ**»، ظاهرُ هذه الرواية يخالف الروايةَ السابقةَ؛ فإنَّ هذه الرواية تفيد أنَّه إذا قرأ وهو جالسٌ أكملَ صلاتَه ركوعًا وسجودًا وهو جالسٌ، فيما دلَّت الروايةُ السابقةُ علىٰ أنَّه كان إذا قرأ وهو جالسٌ قام قبل الركوع ثم ركع وسجد قائمًا.

والجمعُ بين الروايتين أن يُقال: إنَّ الأمرَ واسعٌ، وإنَّ النبي ﷺ كان يفعل هذا تارةً وهذا تارةً أخرىٰ، ولكنّ الأكملَ مِن هذين الوجهين هو أن يقوم قبل الركوع، ويُكمِل صلاتَه قائمًا.

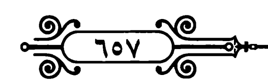
وحمل بعضُ أهل العلم الروايةَ الثانيةَ التي تفيد أنه كان يُكمِلُ صلاتَه جالسًا ركوعًا وسجودًا؛ علىٰ أنَّ ذلك كان في آخر حياته ﷺ، بعدما كبِرت سِنُّه.

وعلىٰ كل الأحوال فكلُّ هذه الأوصاف جائزةٌ في قيام الليل: أن يصلّيَ الصلاةَ كلَّها قائمًا، وأن يصلِّيها كلَّها جالسًا، وأن يقرأ جالسًا ثم يتمَّ قراءتَه وصلاتَه قائمًا.

***

(صحيح) **٢٣٧ـ عَنْ حَفْصَةَ** رضي الله عنها **زَوْجِ النَّبِيِّ** ﷺ **قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ **يُصَلِّي فِي سُبْحَتِهِ قَاعِدًا، وَيَقْرَأُ بِالسُّورَةِ وَيُرَتِّلُهَا حَتَّىٰ تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا»**(١).

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٣) وقال: «حسن صحيح».



شرح الحديث

(عَنْ حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ) هي حفصةُ بنتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

قول حفصة رضي الله عنها: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي فِي سُبْحَتِهِ قَاعِدًا**»؛ السُّبْحَة: صلاة النافلة، فالسُّنَّة تُسمَّىٰ: سُنَّة، وسُبحةً، ونافلةً، وتطوُّعًا، ومِن ذلك: ما روي عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُسَبِّحُ عَلَىٰ ظَهْرِ رَاحِلَتِهِ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ؛ يُومِئُ بِرَأْسِهِ**»(١)، أي: كان يُصلي صلاة النافلة علىٰ راحلته.

وإنما سُمِّيَت الصلاة تسبيحًا من باب تسمية الكُلِّ بالجُزء؛ فإنَّ التسبيحَ جزءٌ من أجزاء الصلاة.

فمعنىٰ الحديث: أن النبي ﷺ كان يصلِّي في نافلته قاعدًا.

قولها رضي الله عنها: «**وَيَقْرَأُ بِالسُّورَةِ وَيُرَتِّلُهَا حَتَّىٰ تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا**»؛ يعني: يتأنَّىٰ في قراءة السورة، ويتدبَّرُها، ويقفُ عند آياتها، فيسأل الله من فضله عند آيات الرحمة، ويستعيذُ بالله من غضبه وعقابه عند آيات التخويف.

فالقراءة بهذه الطريقة كانت تأخذُ وقتًا من الزمنِ أكثرَ مما تُقْرَأُ فيه عادةً، حتىٰ لكأنها أطولُ من السُّورَةِ التي هي أطولُ منها؛ فإذا كانت السُّورةُ تُقْرأُ عادةً في عشرِ دقائقَ قرأها في عشرين دقيقةً ـ مثلًا ـ.

وفي هذا فائدةٌ جليلةٌ بالإضافة إلىٰ الحثِّ علىٰ قيام الليل: وهي أنَّ الغَرَضَ من قراءة القرآن في قيام الليل خاصَّةً، وفي أحوال المسلم عامَّةً؛ هو تحريكُ

---

(١) أخرجه البخاري (١١٠٥).

القلب بما يقرأ القارئ من القرآن، وأن يقفَ عند آياته، ويتأمَّلها، ويتمعَّن فيها، ويفتح أبواب قلبه لبركاتها، فإن الله ما أنزل القرآن إلا لهذا الغرض: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

وإنما خُصَّ قيام الليلِ بهذا مع أنَّ تدبُّر القرآن مطلوبٌ في كل وقتٍ؛ لأنَّ القلبَ يكون أكثر ارتياحًا في الليل، والصدر يكون أكثر انشراحًا، وذلك الوقت يكون أكثرَ ملاءمةً للنفسِ لتقبُّل معاني كتاب الله سبحانه؛ ففي جوف الليل خاصيَّةٌ لفهم القرآن والتلذُّذ به ليست لغيره.

وهذا الصنيع من النبي ﷺ إنما هو امتثالٌ وتحقيق لأمر الله سبحانه إياه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٦].

وقد فهِم الصالحون هذا المعنىٰ، وهذا يُفَسِّر لك سِرَّ انشغالهم في جوف الليل بقراءة القرآن.

*** لفتة تربوية:**

وصفُ هذا الحديث لقراءة النبي ﷺ يُخالِفُ ما عليه كثيرٌ من قُرَّاءِ القرآن اليوم، الذين جعلوا قراءتهم هذرمةً واستعجالًا، حتىٰ تكون السورةُ أقصر مِن أقصرَ منها!

وما ذلك إلا لأنَّ رغبةَ القارئ أصبحت في الانتهاء والفراغ من السورة،

فجعل همَّه الوصول إلىٰ آخر السورة أو الحِزبِ أو الجزءِ أو الختمةِ، ولم يكن همُّه الظفرَ بأجر القراءة، والاغترافَ من البحار القرآنية، والتلذُّذَ بمعارفه.

ولا أقولُ إنَّ هذا القارئ ليس بمأجور؛ بل نرجو من الله أن يكون مِمَّن يَحصُلُ بمقابل كلِّ حرفٍ علىٰ عشرِ حسناتٍ، ولكنه قد فوَّت خيرًا عظيمًا، وحُرِم لذَّةَ القرآن، ومُنِع قلبُه من نوره.

***

(صحيح) **٢٣٨ـ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَمُتْ حَتَّىٰ كَانَ أَكْثَرُ صَلَاتِهِ وَهُوَ جَالِسٌ»**(١).



شرح الحديث

في هذا الحديث تتمَّةٌ للحديثين السابقين في صلاته ﷺ بالليل قاعدًا، فقد وصفت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا صلاتَه ﷺ آخرَ حياته بالليل، وأنه كان يُكْثِر جلوسَه في الصلاة أكثرَ مما يُطيل قيامَه فيها.

وذلك أنَّه قد غلب عليه التَّعبُ في آخر عُمُرِه.

وقد يقول قائلٌ: إنَّ النبي ﷺ قد تُوُفِّي وعمره ثلاثٌ وستّون سنةً، وتلك السِنُّ ليست بالكهولة الشديدة التي يصعب فيها علىٰ الإنسان أن يصلي قائمًا!

وقد جاء بيانُ سبب تعبِه في آخر عُمُرِه ﷺ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ:

---

(١) أخرجه مسلم (٧٣٢).

قُلْتُ لِعَائِشَةَ: هَلْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي وَهُوَ قَاعِدٌ؟ قَالَتْ: «نَعَمْ، بَعْدَمَا حَطَمَهُ النَّاسُ»(١)، أي: بعدما استنفدَ الناسُ جُهدَه، وطاقتَه، وراحةَ بدنِه، ونومَ عينيه ﷺ، فإنَّه كان ﷺ لا يَدَّخِرُ جُهدًا في تحقيق ما يطلبه من الناس، فقد كان سخيًّا معطاءً ﷺ.

ومع كلِّ هذا التَّعب، وعدم قدرته علىٰ القيام ﷺ، إلا أنَّه لم يعتذر بتعبه عن ترك قيام الليل، بل كان يقومه ولو جالسًا.

فما عذرُنا اليومَ وأكثرُ أعمالِنا غيرُ مُتعبة، وليس فيها كبيرُ جهدٍ وقيامٍ وذهابٍ ورجوعٍ، ومع ذلك ينشغلُ أحدُنا عن قيامِ بعض الليل، وتصرفُه الصوارفُ والشواغلُ عن هذا العبادة العظيمة!

وبختامِ هذا الحديث تنتهي الأحاديثُ التي تتعلَّق بقيامه ﷺ للَّيل، وستكون الأحاديث القادمة في وصف سُنَنه الرواتب.

*** لفتة إيمانية:**

علىٰ المسلم أن يحرصَ أن يكون له حظٌّ من قيام الليل، ولو بركعتين قبل أن ينام، أو قبل صلاة الفجر، أو إذا استيقظ في جوف الليل، وألَّا يرغب عن هذه العبادة الشريفة ولو بالشيء القليل.

فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَن قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ، وَمَن قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ القَانِتِينَ، وَمَن قَامَ**

---

(١) أخرجه مسلم (٧٣٢).

بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنطِرِينَ»(١)، والـمُقَنطِرون: هم أصحابُ القناطيرِ العظيمة من الأجور، والقِنطار مثل الجبل العظيم من الحسنات.

فمَن ذا الذي يعجزُ عن القيام بعشرِ آياتٍ؟ ولو قرأ المصلِّي سورةَ الفلق في ركعة، وسورةَ الناس في ركعة أخرىٰ لتجاوز العشر آياتٍ!

فلتحرص علىٰ هاتين الركعتين علىٰ الأقلِّ، حتىٰ لا تخرج من الدنيا وقد كُتِبْتَ من الغافلين!

ثم إنْ وفَّق اللهُ العبدَ لقيام الليل فعليه أن يستحضر أمرين:

الأمر الأول: أنَّ وقوفَه بين يدي الله سبحانه في هذا المقام هو من فضل الله عليه، ومن تمام نعمته، ومن خيره المتتابع عليه، ذلك أنَّ القيامَ شرفٌ وفخرٌ للعبد، لا يستحقُّه إلا مَن وفَّقه الله إليه، حيث يقومُ بين يديه في الوقت الذي قد نامت فيه ملايينُ الأعيُن، وغفَلَت عن هذه الأوقات العظيمة.

فقيامُ الليل لا ينالُه إلا مَن وفَّقه الله توفيقًا إلهيًّا عظيمًا، وأضاءَ بصيرتَه، ونوَّر وجهَه.

وانظر إلىٰ النبي ﷺ الذي ادَّخر الله له المنزلة الرفيعة والوسيلة والشفاعة العظمىٰ، لما أراده سبحانه أن ينال تلك المرتبةَ أمره بصلاة الليل، فقال له: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

فكلُّ شرفٍ يرومُ الإنسانُ أن يصِلَ إليه، وكلُّ مقامٍ يودُّ أن تعلُوَ منزلتُه إليه؛ فمفتاحُه الأكبرُ هو قيام الليل.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٣٩٨).

ولأجل ذلك كان السلفُ الصالحُ يَعدُّون عدمَ قيامِ الليل من حرمانِ اللهِ الإنسانَ فضلَه، وأنَّه إنما حُرِم ذلك بسبب معاصيه وظُلمه لنفسه؛ فإنَّ عطاءَ الله لا يقتصر علىٰ المالِ والرزق، بل توفيقُ اللهِ لعبده بقيام الليل وفعل الطاعات هو من أعظم عطايا الله وأفضاله علىٰ عباده.

الأمر الثاني: علىٰ المسلم أن يستحضرَ هدي النبيِّ ﷺ في قيامه لِلَّيل، وليهتدِ بهديه المذكور في الأحاديث السابقة.

***

(صحيح) **٢٣٩ـ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ فِي بَيْتِهِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ العِشَاءِ فِي بَيْتِهِ»**(١).

شرح الحديث

هذا الحديث في شأنه ﷺ في السُنَن الرَّواتب، **وفي الحديث مسائلُ:**

المسألةُ الأولىٰ: عددُ ركعاتِ السُّنَن الرواتب.

حيث ذكر ابنُ عمر رضي الله عنهما من السُّنَن الرواتب التي يحافظ عليها النبي ﷺ في كل يومٍ وليلةٍ ثمانيَ ركعاتٍ: ركعتين قبل صلاة الظهر، وركعتين بعد صلاة الظهر، وركعتين بعد صلاة المغرب، وركعتين بعد صلاة العشاء؛ فأصبح المجموعُ ثمانيَ ركعاتٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٧٢، ١١٨٠)، ومسلم (٧٢٩).

ولم يذكر في هذا الحديث ركعتي الفجر، وسيأتي الحديثُ عنها في روايةٍ أخرىٰ، فمجموعُها عشرةٌ، وهي الركعاتُ التي كان النبيُّ ﷺ يواظِب عليها مع الصلوات الخمس، ولذلك سُمِّيَت بالسُنَن الرَّاتبة، أي: المستمرَّة الدائمة، فلم يكن ﷺ يتركها إلا إذا كان مسافرًا، فإذا سافر ترك السُّننَ الرواتبَ واقتصرَ علىٰ الفرائض، إلا سُنّة الفَجر، فإنه كان ﷺ يصليها سَفرًا وحَضرًا، ويقول فيهما: «**رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»(١).

المسألة الثانية: أفاد الحديثُ توزيعَ السُّنَنِ الرواتبِ علىٰ الصلوات الخمس، وتبيَّن أنَّ العصرَ من بين الفروض الخمسة ليس لها سُنَّةٌ راتبةٌ، وسيأتي حديثُ عليٍّ رضي الله عنه أنَّ للعصرِ سُنَّةً، ولكنها ليست من السُّنن الرَّواتب.

المسألة الثالثة: أنَّ هذه السُّننَ الرواتبَ، بعضُها كان النبيُّ ﷺ يصلِّيها في بيته، وهي الركعتان بعد المغرب، والركعتان بعد العشاء، وبعضها كان يصلِّيها في المسجد.

ومِن السُّنن التي كان يصليها في البيت ركعتا الفجر، ولأجل ذلك لم يلحظ ابنُ عمر رضي الله عنهما هاتين الركعتين؛ فإنه ﷺ كان يصلِّيهما في البيت قبل خروجه.

المسألة الرابعة: أنَّ بعضَ السُّنَنِ الرواتبِ كان يصلِّيها قبل الصلاة المفروضة؛ وهي سُنَّة الفجر ـ كما سيأتي ـ، وسُنَّة الظهر، وبعض السُّنَن الرواتب كان يصلِّيها بعد الصلاة المفروضة؛ وهي سُنَّة الظهرِ، والمغربِ، والعشاءِ.

***

(١) أخرجه مسلم (٧٢٥).

(صحيح) ٢٤٠ـ وَعَنْهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَتْنِي حَفْصَةُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ حِينَ يَطْلُعُ الفَجْرُ وَيُنَادِي المُنَادِي»، قَالَ أَيُّوبُ: وَأُرَاهُ قَالَ: «خَفِيفَتَيْنِ»(١).



شرح الحديث

(وَعَنْهُ)؛ أي: عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

قول حفصة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **«أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ حِينَ يَطْلُعُ الفَجْرُ وَيُنَادِي المُنَادِي»**، سبق في الحديث السابق أنَّ ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لم يذكُر ركعتي سنَّة الفجر، وفي هذا الحديث يبيّن أنَّ حفصةَ أختَه وزوجَ النبي ﷺ قد حدَّثَته بهما.

فتمَّ من الحديثين بيانُ أنَّ عددَ ركعاتِ السُّننِ الرواتبِ عشرٌ.

(**قَالَ أَيُّوبُ**) راوي الحديث.

قول أيوب: «وَأُرَاهُ قَالَ»؛ أي: نافعٌ، مولىٰ ابن عمر.

«**خَفِيفَتَيْنِ**»؛ أي: السُّنَّة أن تكون القراءةُ في هاتين الركعتين خفيفةً.

وقد ثبت في أحاديث أخرىٰ مِقْدار هذه الخِفّة؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **«أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ فِي رَكْعَتَيِ الفَجْرِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»**(٢).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: **«كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَيِ الفَجْرِ:**

---

(١) أخرجه أحمد (٤٥٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (٧٢٦).

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، وَالَّتِي فِي آلِ عِمْرَانَ: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٦٤]»(١).

وفي بعض الرِّوايات عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تصِفُ شِدَّة الخِفَّة بهاتين الركعتين حتىٰ إنها لتَحسِب أنه ما قرأ الفاتحة من شِدَّة خِفَّة قراءتِه فيها، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَت تَقُولُ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي رَكْعَتَي الفَجْرِ فَيُخَفِّفُ، حَتَّىٰ إِنِّي أَقُولُ: هَلْ قَرَأَ فِيهِمَا بِأُمِّ القُرْآنِ؟»(٢).

***

(صحيح) ٢٤١ـ وَعَنْهُ أَيْضًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «حَفِظْتُ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ: رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ العِشَاءِ»، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «وَحَدَّثَتْنِي حَفْصَةُ بِرَكْعَتَي الغَدَاةِ، وَلَمْ أَكُنْ أَرَاهُمَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ»(٣).



شرح الحديث

(وَعَنْهُ) أي: عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وقد دلَّ الحديثُ علىٰ ما دلَّ عليه الحديثان السابقان.

***

(١) أخرجه مسلم (٧٢٧).

(٢) أخرجه مسلم (٧٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (٩٣٧، ١١٧٣)، بنحوه، وشطره الأول عند مسلم (٧٢٩)، بنحوه.

(صحيح) **٢٤٢ ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنْ صَلَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: «كَانَ يُصَلِّي قَبْلَ الظُّهْرِ رَكْعَتَيْنِ، وَبَعْدَهَا رَكْعَتَيْنِ، وَبَعْدَ المَغْرِبِ رَكْعَتَيْنِ، وَبَعْدَ العِشَاءِ رَكْعَتَيْنِ، وَقَبْلَ الفَجْرِ ثِنْتَيْنِ»**(١).

شرح الحديث

دلَّ حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا علىٰ ما دلَّت عليه الأحاديث السابقة عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وهنا مسألة: أنَّ الأحاديثَ السابقةَ دلَّت علىٰ أنَّ السُّنَّة قبل الظهرَ ركعتان، وجاءت روايةٌ أخرىٰ لحديث عائشة هذا تدلَّ علىٰ أنَّ السُّنَّة قبل الظُّهر أربعُ ركعاتٍ؛ ففي رواية مسلمٍ: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ عَن صَلَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنْ تَطَوُّعِهِ؟ فَقَالَتْ: «**كَانَ يُصَلِّي فِي بَيْتِي قَبْلَ الظُّهْرِ أَرْبَعًا**...»، الحديث(٢).

فعلىٰ هذا يصبح مجموعُ السُّنَن الرَّواتب اثنتي عشرةَ ركعةً، وهذا مُوافِقٌ لحديث أمّ حبيبة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّي لِلَّهِ كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعًا غَيْرَ فَرِيضَةٍ، إِلَّا بَنَىٰ اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، أَوْ إِلَّا بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الجَنَّةِ**»(٣)، وفُسِّرت الثنتا عشرةَ ركعةً في هذا الحديث بالسُّنَن الرواتب.

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٣٦) وقال: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم (٧٣٠).

(٣) أخرجه مسلم (٧٢٨).

فذهب بعضُ أهل العلمِ إلىٰ أنَّه ﷺ كان تارةً يصلِّي ركعتين، وتارةً يصلِّي أربعًا؛ فنقل كلُّ صحابيٍّ ما رآه، فحكت عائشةُ أربعًا، وحكىٰ ابنُ عمر ركعتين.

وذهب بعضُ أهل العلم إلىٰ أنَّ ذلك محمولٌ علىٰ تغيُّر المكان؛ فإن صلَّاها في المسجد صلاها ركعتين، وذلك الذي رآه ابنُ عمر رضي الله عنهما؛ لأنه إنما كان يراه في المسجد، وإن صلَّاها في البيت صلاها ركعتين، وذلك الذي رأته عائشة رضي الله عنها، فإنها إنما رأته يصلِّي في البيت كما صرَّحت بذلك بقولها: «**كانَ يُصَلِّي فِي بَيْتِي قَبْلَ الظُّهْرِ أَرْبَعًا**».

وعلىٰ كُلٍّ فالأمر واسعٌ، فمن كان صاحبَ عملٍ ويصعبُ عليه أن يجدَ وقتًا قبل إقامةِ صلاة الظهر فلْيَكْتَفِ بركعتين، ومَن وجد وقتًا فلْيَزِدْها إلىٰ أربعٍ فهو خيرٌ علىٰ خيرٍ.

والحكمةُ مِن تشريع هذه الرواتب: مع ما فيها من الأجر والثواب؛ فإنَّ لها سِرًّا عظيمًا، ومزيةً مهمَّةً، وهي سَدُّها للخَلَل الحاصل في الصلوات المفروضة.

فإنَّ المسلم مهما حرِص علىٰ إتمام الفريضة إلا أنَّه لا بُدَّ وأن يقعَ في شيءٍ من الخلل والنقص؛ مِن تفويتِ جزءٍ من الصلاة مع الإمام، أو قِلَّة خشوع، أو سهوٍ، أو نحو ذلك، فشُرِعَت هذه النوافلُ لجبرِ الخَلَل الحاصل في الصلوات المفروضة، فلا يحافظ علىٰ هذه السُنَن إلا مُوفَّقٌ.

والحكمةُ الأخرىٰ من تشريع هذه الرَّواتب هو حفظُ الفرائض من الضياع؛ فإنَّ الشيطانَ إنما يُوَسْوِس لابن آدم بإضاعة الأيسرِ والأقلِّ، فلا يُوَسوِسُ للإنسان ابتداءً أن يترك الصلوات المفروضة، وإنما يبدأ بأمره بترك قيام الليل، والسنن الرواتب، ونحو ذلك.

فإذا كان المسلمُ حريصًا علىٰ هذه السُّنن، مواظبًا عليها؛ كانت صلواتُه المفروضةُ بعيدةً عن وساوس الشيطان، فإذا أثَّرت عليه وسوسةُ الشيطان وبدأت نفسُه تضعُفُ عن الصلوات، فإنَّ الضعفَ والكسلَ إنما يكون عن السُّنن الرواتب، يجد في نفسه مشقةً في المحافظة عليها والمواظبة، ولكنه يكون متهاونًا في الفرائض.

ولكن مَن كان لا يصلي إلا الفرائض؛ فإنَّ الشيطانَ سيُوَسوِسُ له بترك هذه الفرائض، فيجد نفسَه في معركةٍ مع الشيطان ومع هواه في الصلوات المفروضة؛ فيقيمُها تارةً ويتركُها تارةً، ويؤدِّيها في وقتها مرةً، ويؤخِّرها مرَّةً أخرىٰ، وهكذا إلىٰ أن يجدَ نفسَه لا يصلِّي الصلوات إلا لِمامًا في الجمعة والأعياد ونحوها.

فالنوافل بالنسبة للفرائض كالأسوار التي تحميها وتحفظُها، وكالحِصن الحَصين الذي يحوطُها.

ولا يقولَنَّ قائلٌ: إنَّ هذه النوافل غير واجبةٍ، بدليل حديث طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ يَقُولُ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرَ الرَّأْسِ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ وَلا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّىٰ دَنَا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ**»، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «**لا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ**»(١).

فيُقال له: نعم، إنَّ هذه السُّننَ ليست بواجبةٍ، ولكنَّ العاقلَ الحَصِيفَ الذي يخاف علىٰ نفسه مِن الرَّدىٰ والهلاك؛ يحرص علىٰ المحافظة علىٰ هذه السُّنَن،

(١) أخرجه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١).

فإنَّها تحفظ له فرائضَه التي هي أساس الدين، كما أنَّها تُثبِّت محبَّتَه للنبي ﷺ، والمتمسِّكُ بها أصدقُ اقتداءً واهتداءً بالنبي ﷺ.

***

(حسن) ٢٤٣ـ عَاصِمُ بْنُ ضَمْرَةَ يَقُولُ: سَأَلْنَا عَلِيًّا ـ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ـ عَن صَلَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ النَّهَارِ؟ فَقَالَ: إِنَّكُمْ لا تُطِيقُونَ ذَلِكَ، قَالَ: فَقُلْنَا: مَنْ أَطَاقَ ذَلِكَ مِنَّا صَلَّىٰ، فَقَالَ: «كَانَ إِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ مِنْ هَهُنَا كَهَيْئَتِهَا مِنْ هَهُنَا عِندَ العَصْرِ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، وَإِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ مِنْ هَهُنَا كَهَيْئَتِهَا مِنْ هَهُنَا عِندَ الظُّهْرِ صَلَّىٰ أَرْبَعًا، وَيُصَلِّي قَبْلَ الظُّهْرِ أَرْبَعًا ـ وَذَكَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّيهَا عِندَ الزَّوَالِ، وَيَمُدُّ فِيهَا ـ وَبَعْدَهَا رَكْعَتَيْنِ، وَقَبْلَ العَصْرِ أَرْبَعًا، يَفْصِلُ بَيْنَ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ بِالتَّسْلِيمِ عَلَىٰ المَلَائِكَةِ المُقَرَّبِينَ وَالنَّبِيِّينَ وَمَن تَبِعَهُم مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُسْلِمِينَ»[1].



شرح الحديث

هذا آخرُ أحاديث الباب.

قول عاصم بن ضَمْرة: «سَأَلْنَا عَلِيًّا»: هو أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ، وزوجُ ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ووالدُ سِبْطَي رسول الله ﷺ الحسن والحسين رضي الله عنهما.

قول عاصم: «عَن صَلَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ النَّهَارِ»؛ أي: قد عُرِفَ شأنُه في

---

(١) أخرجه الترمذي (٥٩٨)، وابن خزيمة في صحيحه (١٢١١، ١٢٣٢)، وحسَّنه الترمذي.

قيام الليل، فكيف تكون صلاتُه في النهار؟ وإنما كان السؤال عن التطوُّع لا عن الصلاة المفروضة.

وفي هذا السؤال ما ذُكِر مرارًا؛ مِن بيان حرص التابعين علىٰ معرفة هدي النبي ﷺ، والبحث عن سُنَّته وتَتبُّعِها.

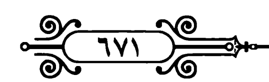
وهكذا مَن أراد الله به خيرًا تراه حريصًا علىٰ السُّنَّة النبوية، راغبًا في معرفة الهدي المحمَّدي، مفتِّشًا باحثًا عنه.

وقد أحسن التابعيُّ في السؤال؛ إذ سأَل صاحبَ سابقةٍ في الإسلام، وصاحبَ قرابةٍ للنبي ﷺ ومصاهرةٍ، مع قربه الشديد من النبي ﷺ؛ إذ قد عاش معه في بيته، وتربَّىٰ علىٰ يديه، فكان السؤالُ موجَّهًا لرجلٍ خبيرٍ بهذه المسألة.

وهذا ملحوظٌ في كثيرٍ من الأحاديث التي وصفت عبادتَه ﷺ بما مرَّ من قبل، إذ يصِفُ عبادتَه الخواصُّ والمقرَّبون منه؛ مِن زوجاته، وأقاربه، وصحابته المقرَّبين.

قول علي ﷺ: «إِنَّكُمْ لَا تُطِيقُونَ ذَلِكَ»، استفتح الجواب بهذه الجملة، أي: لِمَ تسألون عن ذلك؛ فإنِّي لو أخبرتُكم بعبادته ستجِدُون قدرًا من العبادة لا تستطيعونها.

ولم يكن هذا منه ﷺ صدًّا للناس عن تعلُّم سُنَّته، بل كان ترغيبًا وحثًّا لهم في ذلك، إذ مِثْلُ هذا يُقال مِن باب استنفار الطاقات واستثارة الهِمَم.



قول عاصم: «**فَقُلْنَا: مَنْ أَطَاقَ ذَلِكَ مِنَّا صَلَّىٰ**»؛ يعني: حسبُك أن تخبرنا يا أمير المؤمنين، فمن يستطيع منَّا أن يفعل ذلك فعل واقتدىٰ بالنبي ﷺ.

فتحقَّق مقصود أمير المؤمنين من استنفار هِمَمهم، وتثوير طاقاتهم.

قول علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**كَانَ**»؛ أي: كان النبي ﷺ.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**إِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ مِنْ هَهُنَا**»، أشار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلىٰ موضع ارتفاع الشمس ابتداءً، أي: إذا كانت في بداية طلوع الشمس.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**كَهَيْئَتِهَا مِنْ هَهُنَا عِنْدَ العَصْرِ**»؛ أي: كوقتها بعد العصر انخفاضًا.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**كَهَيْئَتِهَا مِنْ هَهُنَا عِنْدَ العَصْرِ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ**»؛ أي: صلاة الضحىٰ.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**وَإِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ مِنْ هَهُنَا كَهَيْئَتِهَا مِنْ هَهُنَا عِنْدَ الظُّهْرِ صَلَّىٰ أَرْبَعًا**»، يشير إلىٰ ارتفاع الشمس، وذلك قُبَيل الظهر، وهو امتدادٌ لوقت صلاة الضُّحىٰ، وهو الوقت المفضَّل لصلاة الضُّحىٰ، كما سيأتي في الباب القادم ـ إن شاء الله ـ، أي: يصلِّي قبل الظهيرة أربعًا عند ارتفاع الشمس واشتداد الحرارة.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**وَيُصَلِّي قَبْلَ الظُّهْرِ أَرْبَعًا**»، وهذه السُّنَّة الراتبة التي مرَّت في الأحاديث السابقة.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**وَذَكَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّيهَا عِنْدَ الزَّوَالِ**»؛ أي: يصليها بعد أذان الظهر.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**وَبَعْدَهَا رَكْعَتَيْنِ**»، وهذه سُنَّة الظهر الراتبة البعدية ـ كما تقدم ـ.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**وَقَبْلَ العَصْرِ أَرْبَعًا**»، هذه السُّنَّة ليست من السُّنن الرَّواتب.

وقد ثبت عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**رَحِمَ اللهُ امْرَءًا صَلَّىٰ قَبْلَ العَصْرِ أَرْبَعًا**»(١)؛ فمن أراد رحمةً من الله بدعوةٍ علىٰ لسان رسول الله ﷺ فليُدرك هذه الركعات الأربع.

لكنه ﷺ لم يكن يواظب عليها دومًا، ولهذا لم تُعَدَّ في السُّنَن الرواتب المذكورة قبل.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَفْصِلُ بَيْنَ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ بِالتَّسْلِيمِ عَلَىٰ المَلَائِكَةِ المُقَرَّبِينَ وَالنَّبِيِّينَ وَمَن تَبِعَهُم مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُسْلِمِينَ**»؛ أي: هذه الركعات الأربع قبل العصر لم تكن متَّصلةً بسلامٍ واحدٍ، بل كان يفصل بين كلِّ ركعتين بالتسليم.

وقد فُسِّر التسليمُ هنا بالسلام الذي يكون في آخر الصلاة، وهو أقرب، فجعلها سلامًا علىٰ الملائكة والنبيين والمؤمنين.

وفُسِّر السلام أيضًا بالتشهُّد الأخير؛ حيث يقول المصلِّي: السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين؛ وعباد الله الصالحون يشمل الملائكة المقرَّبين، والأنبياء، والرسل، والصالحين من المؤمنين.

** ** **

(١) أخرجه أحمد (٥٩٨٠)، وأبو داود (١٢٧١)، والترمذي (٤٣٠)، وقال: «حسن غريب».




بَابُ صَلَاةِ الضُّحَى

ما زال الحديثُ عن صلاة النبي ﷺ، وإنما هو انتقالٌ من نوعٍ من أنواع صلاته إلىٰ نوعٍ آخر.

وفي هذا إشارةٌ واضحةٌ إلىٰ أهمية الصلاة وشدّة حضورها في حياة النبي ﷺ؛ فإنها عمودُ الإسلام الأعظمُ، وركنُه الأكبرُ، كما أنها العبادةُ المحبَّبةُ للنبي ﷺ، يحتفي بها، ويتقرَّب بها إلىٰ ربِّه كما يتقرَّب إليه بأنواعٍ أخرىٰ من العبادات، بل إنَّها جُعِلَت قُرَّة عينه، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**وَجُعِلَت قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(١).

وإنَّ الناظرَ في حياته وسيرته ﷺ لَيَلمَحُ من الوهلة الأولىٰ أنه ﷺ كان شغوفًا بالصلاة، وقلبَه متعلِّقٌ بها، يحافظ عليها في أوقاتها، ويحثُّ الأمَّة علىٰ ذلك، ويُردِفُ الفريضة بالنافلة أو يسبقها بها، ثم يبحث عن الأوقات الصالحة لصلاة التطوُّع فيصلِّي فيها، ولا يكتفي بذلك بل يصلِّي ليلًا والناس نيام !!

ثم إنَّها هي سعادتُه وقُرَّةُ عينه؛ فإذا حَزبَه أمرٌ أو اشتدَّت وضاقت به الحياة فَزِعَ إلىٰ الصلاة، وإذا التقَت الصفوفُ وحانت ساعةُ الجهاد اتَّصل بربِّه صلاةً

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٠٣٧)، والنسائي (٣٩٤٠)، وصححه الحاكم في المستدرك (٢٦٧٦)، والألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

ودعاءً، يستنزل النصرَ من ربِّه سبحانه، وإذا قدِم من سفرٍ بدأ بالمسجد فصلَّىٰ فيه ركعتين.

وهذا معنىٰ أنَّه: (جُعِلَت قُرَّة عينه في الصلاة)؛ أي: أنه لا يرتاح فؤادُه ولا يأنس ولا يستريح إلا إذا صلَّىٰ؛ في سفرٍ أو حَضرٍ، في سِلْمٍ أو قتالٍ، في ليلٍ أو نهارٍ، حتَّىٰ إنَّه لَيقولُ لبلال: «**أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ**»(١).

والمحبُّون الذين يتتبَّعون سيرته، ويحفظون شمائله؛ عليهم أن يُحبُّوا محبوباته ﷺ؛ لأنَّ مَن أَحَبَّ إنسانًا أحبَّ خصالَه ومحبوباته، ومَن كان مُحبًّا للنبي ﷺ عليه أن يقتدي بهديه في عبادته، ومَن كان في صلاته ضعفٌ وتهاونٌ وهو سائرٌ علىٰ درب المحبَّة للنبيِّ ﷺ فعليه أن يُصَحِّح ذلك، وأن يقتدي بالنبي ﷺ في صلاته.

لقد بلغ بكثيرٍ من المسلمين الضعفُ والتهاونُ أن وصل بهم التقصيرُ إلىٰ الصلاة المفروضة ذاتها؛ فيفوِّتون بعض ركعاتها، وقد يُفَوِّتُون الجماعة كلَّها، وقد تُؤَخَّرُ إلىٰ ما بعد وقتها المفضَّل! وهذا يدلُّ بالضرورة علىٰ خللٍ في المحبة الصادقة في قلوب كثيرٍ من المسلمين.

إنَّ المتأمِّل في سيرة النبي ﷺ سيتبيَّن له أنَّ عبادتَه ﷺ لربِّه كانت حاضرةً قبل النبوَّة وبعدها، فقبل النبوَّة كان يتحنَّثُ في غارِ حِراءٍ اللياليَ ذواتِ العدد، ينقطع بذلك عن قريش وجاهليَّتها وشركها وأصنامها، ويختلي بربِّه بعيدًا عن

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٠٨٨)، وأبو داود (٤٩٨٥)، وصحَّحه العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٤٥٣).

كل الصَّخب، وينقطع ويبتهل إليه، وينطرح وينكبُّ بين يديه وعلىٰ أعتاب الدعاء والتضرُّع إليه.

ولم يكن هذا شأنَ النبي ﷺ وحده، بل كان شأنَ الأنبياء الكرام والصالحين قبله أيضًا، فهذا زكريا عليه السلام طلب من ربّه الولدَ وتضرَّع إليه، قال تعالىٰ: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، فجاءته البشارةُ وهو يلتمس فضلَ الله في الصلاة، وينتظر بها الفرج والمخرج: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وهذه مريمُ المنذورةُ لخدمة بيت المقدس، لا تُرىٰ إلا في المحراب تصلِّي وتدعو وتبتهل، قال سبحانه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧].

وكذلك أبو الأنبياء والرسل إبراهيمُ الخليلُ عليه السلام وهو يضع لَبِناتِ البيت ويؤسِّسُه، ويُقيمُ صرحَ التوحيد، ويُنشِئ طريقًا جديدًا للحنيفيّة؛ لا ينسىٰ أن يُضمِّن دعاءَه قوامَ الحياةِ والوجودِ البشريّ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وبهذا تعلم أن أولئك الكبارَ من الأنبياء والصالحين، والذين هم أعظمُ البَشر مقامًا، وأرفعهم عند الله منزلةً، والذين تبوَّؤوا المناصب العظيمة، وبلغوا الدرجات الرفيعة، ما بلغوا تلك المقاماتِ والمنازلَ إلا بالحفاظ علىٰ الصلاة والاهتمام بها وإنزالها منزلتَها.

هذه الصلاة التي فرضها الله علىٰ نبيّنا محمد ﷺ فوق سبعِ سماواتٍ، ولم تكن كسائر التشريعات والعبادات التي أنزل الله بها أمينَ وحيِه جبريلَ عليه السلام، بل رفعه الله إليه ليكلِّفه بها؛ إشعارًا بأهميتها ومكانتها ووزنها، وأنها ليست كباقي العبادات في الإسلام.

فعلىٰ المسلم الصادق أن يكون للصلاة وقعٌ عظيمٌ في قلبه، ومكانٌ فسيحٌ في حياته وعبادته، ومهما نوَّع في عباداته فلا بدَّ يكون للصلاة موضعُ اهتمامٍ أعظم من غيرها.

فإذا أصبحت الصلاةُ في حياة المسلم أمرًا ثانويًّا، ليست من أولويَّاته؛ فقَدَ السعادةَ والأُنسَ والراحة، ولم يطرقِ التوفيقُ بابَه في دنياه ولا في أخراه.

والضُّحىٰ: اسمُ وقتٍ يمتدُّ من بعد شروق الشمس إلىٰ ما قبل زوالها.

ووقتُ الضُّحىٰ وقتٌ عظيمٌ، أقسم الله به في كتابه، فقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحىٰ: ١ ـ ٣].

ثم إنَّ وقت الضُّحىٰ وقتٌ طويلٌ مُتَّسِعٌ، وهو من أوسع الأوقات التي لا تشغلها فريضةٌ من الفرائض، فإن المسلم إذا فرغ من صلاة الفجر وجد وقتًا طويلًا متسعًا حتىٰ يأتي وقت صلاة الظهر، ولا يسَاوِيه وقتٌ في الطول فارغًا من الصلاة الواجبة إلا كما بين العشاء والفجر.

وهكذا كان هدي النبي ﷺ؛ إذا طال الفصلُ بين فريضةٍ وأختِها شَغَلها بنافلةٍ مِن جنس الصلاة، فشُرِع لنا قيامُ الليل بين العشاء والفجر، وشُرِعت لنا صلاةُ الضُّحىٰ بين الفجر والظهر.

وفي هذا دلالةٌ علىٰ أنَّه ﷺ ما كان يصبر عن الصلاةِ الساعاتِ الطويلةَ، بل ما كان يفرغُ من صلاةٍ إلا وينتظر أختَها من شدَّة تعلُّقِ قلبه بالصلاة.

فكم نحنُ بحاجةٍ إلىٰ أن نُعَلِّقَ قلوبَنا بالصلاة، ونشغف بها، ونستكثر من فرائضها ونوافلها!

ولكن هذا الوقت الطويل للضُّحىٰ يتخلَّلُه وقتان نُهِي المسلم أن يصلّي فيهما، أوّلُهما: من بعد صلاة الفجر حتىٰ ترتفع الشمس قِيدَ رُمحٍ، والآخَرُ: حين تتوسَّط الشمسُ كَبِدَ السماء حتىٰ تزول، وما بينهما هو وقت صلاة الضُّحَىٰ.

وقد وصف الصحابةُ ﷺ صلاةَ النبي ﷺ في هذا الوقت، فلننظر ماذا قالوا.

***

(صحيح) **٢٤٤ـ عَن مُعَاذَةَ قَالَتْ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ ؓ: أَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي الضُّحَىٰ؟ قَالَتْ: «نَعَمْ، أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، وَيَزِيدُ مَا شَاءَ اللهُ ﷻ»**(١).

شرح الحديث

(عَن مُعَاذَةَ)؛ مُعاذَةُ العَدوية: امرأةٌ من خِيرَةِ نساء التابعين، كانت تتردَّد كثيرًا إلىٰ أمِّ المؤمنين عائشة ؓ، تتفقَّه علىٰ يديها، وتسألها عن هَدي رسول الله ﷺ، ولها في السُّنن رواياتٌ كانت تسائل فيها أُمَّنا عائشة ؓ.

قول مُعاذة: «أَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي الضُّحَىٰ؟»، هذا سؤالٌ يُظْهِر الصنيعَ العظيم لذلك الجيل الكريم؛ جيلِ التابعين، الذي ظفِر برؤية الصحابة، فأقبل

(١) أخرجه مسلم (٧١٩).

مُنكَبًّا يسأل عن السُّنن، ويبحث عن مواضع الهَدي النبوي، يتعلَّمه وينقُلُه إلىٰ مَن بعده.

قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**نَعَمْ، أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، وَيَزِيدُ مَا شَاءَ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ»، ظاهر الحديث أنَّ أقل الضُّحَىٰ أربعُ ركعاتٍ، ولا حدَّ لأكثره، وهذا قولٌ لعددٍ من أهل العلم.

وقال غيرُهم: أكثرُ الضُّحىٰ ثمانُ ركعاتٍ.

وقال آخرون: أكثرُ الضُّحىٰ اثنتا عشرةَ ركعةً.

فمَن أخذ بظاهر رواية عائشة قال لا حدَّ لأكثرِ الضُّحىٰ؛ فهو يصلِّي ما شاء الله أن يصلِّي.

ولكن ثبت في رواياتٍ أخرىٰ أنَّ أقلَّ الضُحىٰ ركعتان: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلَاثٍ: «**صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِن كُلِّ شَهْرٍ، وَرَكْعَتَيِ الضُّحَىٰ، وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَنَامَ**»(١).

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يُصْبِحُ عَلَىٰ كُلِّ سُلَامَىٰ مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِن ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَىٰ**»(٢)؛ أي: كلُّ مَفصَلٍ في ابنِ آدم يجب عليه لله فيه صدقةٌ في كلّ يومٍ تتجدَّد فيه حياتُه وتطلع عليه شمسُه، ولما كان عددُ مفاصل الإنسان يربو علىٰ ثلاثمائة وستِّين مَفصَلًا بيَّن النبي ﷺ وجوهًا للصَّدقة

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٨١)، ومسلم (٧٢١).

(٢) أخرجه مسلم (٧٢٠).

يمكن أن يُؤَدَّىٰ بها هذا الواجب العظيم، فبيَّن أنَّ التسبيحةَ الواحدةَ صدقةٌ، والتكبيرةَ الواحدةَ صدقةٌ، والتهليلةَ الواحدةَ صدقةٌ، والأمرَ بالمعروف صدقةٌ، والنهيَ عن المنكر صدقةٌ، والكلمةَ الطيبةَ صدقةٌ، وإعانةَ الناس صدقةٌ، وكلَّ خُطوةٍ يمشيها المسلم إلىٰ الصلاة صدقةٌ، وهكذا، ويجزئ عن ذلك كلِّه ركعتا الضحىٰ، فهما كفيلتان بأن تؤدِّيا عنه هذا الواجب كلَّه، وهذا يدلُّ علىٰ عِظَم أجرِ وفضلِ صلاةِ الضُّحىٰ.

لقد أثبت هذا الحديثُ صلاةَ النبي ﷺ للضُّحىٰ، ولا يقتدي به ويحرص عليها إلا الأوَّابون، فعن زَيدِ بنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه أَنَّهُ رَأَىٰ قَوْمًا يُصَلُّونَ مِنَ الضُّحَىٰ، فَقَالَ: أَمَا لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ الصَّلَاةَ فِي غَيْرِ هَذِهِ السَّاعَةِ أَفْضَلُ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**صَلَاةُ الأَوَّابِينَ حِينَ تَرْمَضُ الفِصَالُ**»(١).

فصلاةُ الضُّحىٰ هي صلاة الأوَّابين، والأوَّابُ: كثيرُ العبادة لربِّه.

ومعنىٰ: «**حِينَ تَرْمَضُ الفِصَالُ**»؛ الفِصَالُ: صِغارُ الإبل، ورَمْضُها: أنَّها حين يُلْهِبُها حَرُّ الأرض من حرارة الشمس وهي باركةٌ؛ تقوم وتتحرَّك لتُباعِد أجنابَها عن حرِّ الأرض، أي: وقت صلاة الضُحىٰ، حين اشتداد الحرِّ، عندما ترتفع الشمس، وذلك قبل وسط الظهيرة.

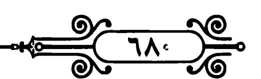
***

(صحيح) **٢٤٥ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي الضُّحَىٰ سِتَّ رَكَعَاتٍ»**(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٢٧٦)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٤٦٣).





شرح الحديث

هذا الحديث لا يتنافىٰ مع حديث عائشة رضي الله عنها السابق؛ فإنها ذكرتْ أنه يزيد علىٰ الأربعِ ركعاتٍ ما شاء الله، وذكر أنسٌ رضي الله عنه هنا أنه كان يصلِّي ستَّ ركعاتٍ، فهي من جنس الزيادة المذكورة في الحديث السابق.

***

(صحيح) ٢٤٦ـ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَىٰ قَالَ: مَا أَخْبَرَنِي أَحَدٌ أَنَّهُ رَأَىٰ النَّبِيَّ ﷺ يُصَلِّي الضُّحَىٰ إِلَّا أُمُّ هَانِئٍ رضي الله عنها فَإِنَّهَا حَدَّثَتْ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ بَيْتَهَا يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَاغْتَسَلَ، فَسَبَّحَ ثَمَانَ رَكَعَاتٍ، مَا رَأَيْتُهُ ﷺ صَلَّىٰ صَلَاةً قَطُّ أَخَفَّ مِنْهَا، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ»(١).

شرح الحديث

قول عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ: «مَا أَخْبَرَنِي أَحَدٌ أَنَّهُ رَأَىٰ النَّبِيَّ ﷺ يُصَلِّي الضُّحَىٰ إِلَّا أُمُّ هَانِئٍ»: هي أمُّ هانئٍ بنتُ أبي طالب، ابنةُ عمِّ رسول الله ﷺ، وأختُ عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

قول أم هانئ رضي الله عنها: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ بَيْتَهَا يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ»؛ لأنها ابنةُ عمِّه، فأضافته في بيتها.

قولها رضي الله عنها: «فَسَبَّحَ ثَمَانَ رَكَعَاتٍ»؛ أي: صلَّىٰ ثمانيَ ركعاتٍ، والنافلة تُسَمَّىٰ: سُبْحَةً.

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٧٤)، وقال: «حسن صحيح».

قال بعضُ أهل العلم: إنَّ هذه الصلاةَ صلاةُ الفتح، أو صلاةُ الشُكر.

وقال بعضُهم ـ وهو الأقرب ـ: إنَّها صلاة الضُحىٰ؛ لأنَّها وقعت في وقتها.

والذي قال: إنَّ صلاة الضُحىٰ لا تزيد عن ثمانِ ركعاتٍ؛ أخذ ذلك من هذا الحديث.

قولها ﵂: «**مَا رَأَيْتُهُ ﷺ صَلَّىٰ صَلَاةً قَطُّ أَخَفَّ مِنْهَا**»، وصفت خِفَّة الصلاة.

قولها ﵂: «**غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ**»، خشِيَتْ أن يُفْهَم من وصفها الصلاة بالخِفَّة أنَّها تُقارِب النَّقْرَ، فاستدركتْ بأنَّه ﷺ كان يُتِمُّها ركوعًا وسجودًا وخشوعًا.

فوصفُ الصلاة بالخِفَّة لا يعني أنها ناقصةٌ، ولا يعني أن فيها عَجَلةً تَذْهَب بشيءٍ من أركان الصلاة.

وقد تدرَّج المؤلِّف ﵀ في ترتيب روايات الحديث، فبدأ بذكر حديث عائشة ﵂ الذي ذكر أنَّ صلاتَه ﷺ للضُحىٰ كانت أربعًا، ثم حديث أنس ﵁ الذي ذكر أنَّ صلاتَه ﷺ للضُحىٰ كانت سِتًّا، ثم حديث أمِّ هانئٍ ﵂ الذي ذكر أنَّ صلاتَه ﷺ للضُحىٰ كانت ثمانيًا.

***

(صحيح) ٢٤٧ ـ **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ ﵂: أَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي الضُّحَىٰ؟ قَالَتْ: «لَا، إِلَّا أَنْ يَجِيءَ مِن مَغِيبِهِ»**[(١)].

---

(١) أخرجه مسلم (٧١٧).

شرح الحديث

سُئِلَت عائشةُ رضي الله عنها: أكان ﷺ يصلِّي الضُحىٰ؟ فأجابت بالنفي، ثم استَثْنتْ وأخبرتْ أنَّه إنما كان يُصَلِّي الضُحىٰ إذا قدم من سَفَرٍ كان غائبًا فيه.

فتبيَّن مما سبق وغيره: أنَّ الروايات التي ذكرت صلاة النبي ﷺ للضُحىٰ ثلاثةُ أنواعٍ:

النوع الأوّل: أحاديث فيها إثباتٌ مطلقٌ لصلاة الضُحىٰ؛ كروايات عائشة رضي الله عنها الأولىٰ، وأنس رضي الله عنه، وأمّ هانئٍ رضي الله عنها، وإن كان في هذه الروايات اختلافٌ في عدد الركعات.

النوع الثاني: أحاديث تنفي مداومةَ النبي ﷺ علىٰ صلاة الضُحىٰ، بل لا تكاد تثبت أنه يصلِّيها إلا إذا قَدِم من سفرٍ.

النوع الثالث: أحاديث تنفي صلاة الضُحىٰ نفيًا مطلقًا، فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «**مَا سَبَّحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سُبْحَةَ الضُّحَىٰ قَطُّ**»(١).

وهذه الأحاديثُ كلها صحاحٌ، فلا بُدَّ من الجمع بينها، وممّا يزيد في الإشكال أنَّ أنواعَ الأحاديث الثلاثة رُوِيت عن عائشة رضي الله عنها؛ فكيف تنفي عائشةُ رضي الله عنها مطلقًا مرّةً، ومرّةً تُثبت مطلقًا، وتارةً تنفي إلا إذا قَدِم من سفرٍ؟

وقد جمع أهل العلم بين هذه الأحاديث: بأنَّ الأحاديث التي نَفَتْ مطلقًا إنما كانت تتحدَّث فيه عمَّا رأتْهُ هي، فإنها لم ترَ النبيَّ ﷺ يصلِّي الضُحىٰ مطلقًا.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢٨)، ومسلم (٧١٨).

والأحاديث التي أثبتت مطلقًا إنما كان من رواية غيرها لها، ولكن لم ترَ ذلك بعينها.

والأحاديث التي أثبتت صلاته للضُحىٰ عند قدومه من سَفَرٍ إنما هو إثباتٌ لصلاة الضحىٰ في هذه الحالة خاصةً.

وهذا الجمع أولىٰ من القول بعدم مشروعيتها مطلقًا؛ لأنَّ الجمعَ بين الروايات ممكنٌ، فلا يُلْجأ إلىٰ الترجيح، وهذا هو المسلك المعتبر عند حُفَّاظ الحديث.

***

(ضعيف) **٢٤٨ـ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي الضُّحَىٰ حَتَّىٰ نَقُولَ: لا يَدَعُهَا، وَيَدَعُهَا حَتَّىٰ نَقُولَ: لَا يُصَلِّيهَا»**(١).

شرح الحديث

هذا الحديث فيه بيانٌ لحال النبي ﷺ مع صلاة الضُحىٰ، فإنه كان يصلِّيها أحيانًا ويستمرُّ علىٰ صلاتها، ولا يتركها حتىٰ يقول الصحابة: إنه لا يَدَعُ ولا يتركُ صلاةَ الضُحىٰ.

ثم يتركُها أحيانًا ويستمرُّ في تركها، ولا يصلِّيها حتىٰ يقول الصحابة: إنه لا يصلِّيها.

(١) أخرجه أحمد (١١١٥٥)، والترمذي (٤٧٧)، وحسَّنه.

فالهديُ النبويُّ في صلاة الضُحىٰ هو صلاتُها أحيانًا، وتركُها أحيانًا.

وهذا الحديث ـ وإن كان ضعيفًا ـ إلا أنَّه أفضلُ الروايات في الجمع بين الأحاديث السابقة؛ فإنَّه يُفسِّر كيف أنَّ عائشة التي بَقِيت مع النبي ﷺ السنوات الطويلة لم تَرَه قطُّ يصلِّيها في بيتها، وكيف أنَّ غيرها رآه يصلِّيها.

هل الأفضل المداومة علىٰ الضحىٰ؟ أو عدم المداومة؟

تقرَّر من مجموع الأحاديث السابقة أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن يُداوِم علىٰ صلاة الضُحىٰ، وإنما يصلِّيها أحيانًا ويتركها أحيانًا.

ولكن وردت بعضُ الأحاديث بالحثِّ علىٰ المداوَمة علىٰ صلاة الضُّحىٰ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «**أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ، لا أَدَعُهُنَّ حَتَّىٰ أَمُوتَ: صَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِن كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَىٰ، وَنَوْمٍ عَلَىٰ وِتْرٍ**»(١)، ففي هذا الحديث المداوَمة علىٰ صلاة الضُّحىٰ.

فلأجل ذلك اختلف أهلُ العلم: هل المداوَمةُ علىٰ صلاة الضُّحىٰ أفضل؟ أو صلاتُها أحيانًا وتركُها أحيانًا أخرىٰ؟

وقد ذكر ابنُ تيمية رحمه الله تحريرًا لطيفًا في هذه المسألة، فقال: «هل الأفضلُ المداومةُ عليها كما في حديث أبي هريرة؟ أو الأفضلُ تركُ المداومة اقتداءً بالنبي ﷺ؟ هذا مما تنازعوا فيه.

والأشبهُ أن يُقال: مَن كان مداومًا علىٰ قيام الليل أغناه عن المداومة علىٰ

---

(١) أخرجه مسلم (١١٧٨).

صلاة الضُحىٰ، كما كان النبي ﷺ يفعل، ومن كان ينام عن قيام الليل فصلاة الضُّحىٰ بدلٌ عن قيام الليل»(١).

أي: مَن كان يقوم الليل ولا يفوتُه شيءٌ منه فيُغنيه عن ذلك عن المداومة علىٰ صلاة الضُحىٰ، ولكن مَن كان يصلِّي من الليل أحيانًا وينام أحيانًا فالأفضل أن يُداوِم علىٰ صلاة الضُحىٰ؛ تعويضًا عمَّا فاته من صلاة الليل.

وليس المقصودُ هنا أنَّ من كان يصلِّي الضُحىٰ فليترك قيام الليل، لا ليس الأمر كذلك، وإنما المقصود أنه مَن كان ينام أحيانًا ولا يستطيع أن يلتزم بقيام الليل كلَّ ليلة فهذا الأفضل في حقه ما تقدّم ذِكرُه، ولكن أن يكون الرجلُ لا حظَّ له من صلاة الليل ويكتفي بصلاة الضُحىٰ فقط فهذا تفريطٌ عظيمٌ.

*** لفتة إيمانية:**

أبوابُ السُّنن والمستحبَّات التي تُقَرِّب العبدَ إلىٰ الله مفتوحةٌ مُشْرَعةٌ، وهي غنائمُ في أيدي المسلم، قد شرع الله للمسلم من العبادات ليلًا ونهارًا ما يسعُ المسلمَ أن يدرك شيئًا منها حسب ما يتيسَّر له، فالله يبسطُ يدَه بالليل ليتوب مُسيءُ النهار، ويبسطُ يدَه بالنهار ليتوب مُسيءُ الليل، وأبوابُه مفتوحةٌ آناءَ الليل وأطرافَ النهار.

وبِئسَ العبدُ الذي لا يأتي ربَّه طائعًا خاضعًا متذلِّلًا لا في ليل ولا في نهارٍ، ومَن كان قلبُه متعلِّقًا بهذا الدّين وبمحبّة النبي ﷺ وهديِه فلا بُدَّ أن يكون له من هذه العبادات نصيبٌ، خاصةً صلاة الليل.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٢/ ٢٨٤).

(صحيح) ٢٤٩ـ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنصَارِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُدْمِنُ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ عِندَ زَوَالِ الشَّمْسِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُدْمِنُ هَذِهِ الأَرْبَعَ رَكَعَاتٍ عِندَ زَوَالِ الشَّمْسِ؟ فَقَالَ: «إِنَّ أَبْوَابَ السَّمَاءِ تُفْتَحُ عِندَ زَوَالِ الشَّمْسِ، فَلَا تُرْتَجُ حَتَّىٰ يُصَلَّىٰ الظُّهْرُ، فَأُحِبُّ أَن يَصْعَدَ لِي فِي تِلْكَ السَّاعَةِ خَيْرٌ»، قُلْتُ: أَفِي كُلِّهِنَّ قِرَاءَةٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: هَلْ فِيهِنَّ تَسْلِيمٌ فَاصِلٌ؟ قَالَ: «لَا»(١).

شرح الحديث

ختم المصنفُ هذا البابَ بهذا الحديث والذي بعده، والبابُ معقودٌ لصلاة الضُحىٰ، ولكنَّ هذين الحديثين عن سُنَّة الظهر الراتبة القَبليَّة.

والعلاقةُ بين هذه السُّنَّة وصلاة الضُحىٰ أنَّ سُنَّة الظهر الراتبة القَبليَّة يأتي وقتُها مباشرةً بعد وقت صلاة الضُحىٰ، فذُكِرَت في هذا المقام لاتِّصالِ وقتيهما؛ إذ وقتُ صلاة الضُحىٰ يمتدُّ من انتهاء وقت النهي بعد طلوع الشمس إلىٰ زوالها، وهذه السُّنَّة يأتي وقتُها من بعد الزوال.

قول أبي أيوب رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُدْمِنُ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ»؛ الإدمانُ: الاستمرارُ الدائمُ الذي لا يَقوَىٰ صاحبُه علىٰ تركه، ولم يُعبِّر بالاستمرار والمحافظة، وإنما عبَّر بـ «الإدمان»؛ لأنَّ الإدمانَ حالةٌ أقوىٰ من مجرَّد الاستمرار؛ إذ هو استمرارٌ لا يستطيع صاحبُه أن يترك ما هو عليه أو يفارقَه، وهذا يُنبيك عن شِدّة تعلُّقه ﷺ بالصلاة، حتىٰ إنه يُدمِنُها ولا يَقوَىٰ علىٰ فراقها وتركها.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٥٣٢)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١٩٦٧).

قوله ﷺ: «**عِندَ زَوَالِ الشَّمْسِ**»، هذه اللفظةُ تحتمل أنه كان يصلِّيها في وقت الزوال، أو قبل وقت الزوال، أو بعد وقت الزوال.

ولكن المقصود أنه كان يصلِّيها بعد الزوال؛ بدليل حديث عبد الله بن السائب رضي الله عنهما الآتي.

قوله ﷺ: «**فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُدْمِنُ هَذِهِ الأَرْبَعَ رَكَعَاتٍ عِندَ زَوَالِ الشَّمْسِ؟**»، رآه يحافظ ويُدمِن عليها، فاستدعَىٰ ذلك سؤالًا من هذا الصحابي الجليل عن سبب إدمانه هذه الصلاة.

وهذا موافقٌ لما ذُكِرَ مرارًا من يَقَظة قلوب الصحابة، وشدَّة ترصُّدهم وترقُّبهم لكلِّ أفعالِ النبي ﷺ، فلا يرون شيئًا من أفعاله إلا ويسألون عنه، ويحفظونه وينقلونه، فلأجل ذلك كانوا أعظم الأمة حرصًا علىٰ هدي النبي ﷺ، وأشدَّهم اتِّباعًا له.

فعندما رآه قد أدمن هذا الصلاة عَرَفَ أنَّ هذا أمرٌ يستحقُّ السؤال عنه، وأنَّ وراءَ إدمان النبي ﷺ لهذه الصلاة خيرٌ عظيمٌ، وسرٌّ خطيرٌ؛ فرضي الله عن أبي أيوب الذي سأل هذا السؤال، فكشف للأمَّة عن هذا الأمر العجيب، والذي لولا سؤالُه لما كُشِف لنا عن هذه الحكمة الخفيَّة.

قوله ﷺ: «**إِنَّ أَبْوَابَ السَّمَاءِ تُفْتَحُ عِندَ زَوَالِ الشَّمْسِ، فَلَا تُرْتَجُ حَتَّىٰ يُصَلَّىٰ الظُّهْرُ**»؛ لا تُرْتَج: لا تُغلَق؛ أي: إنَّ أبواب السماء تُفْتَحُ من بعد زوال الشمس دقائقَ معدودةً، ولا تُغْلَقُ حتَّىٰ يُصَلَّىٰ الظهرُ.

وهذا مِن الغيب الذي لولا إخبار النبي ﷺ عنه لما عرفناه.

قوله ﷺ: «**فَأُحِبُّ أَن يَصْعَدَ لِي فِي تِلْكَ السَّاعَةِ خَيْرٌ**»؛ الخيرُ: لفظةٌ عامَّةٌ تشمل أنواعَ الخير المتعدِّدة؛ فمن تصدَّق في تلك الساعة وجد أبواب السماء مفتوحةً، ومَن قرأ القرآن تلك الساعة وجد أبواب السماء مفتوحةً، ومَن بَرَّ والديه أو أحسن إلىٰ مسكينٍ في تلك الساعة وجد أبواب السماء مفتوحةً.

ولكن النبي ﷺ عندما أراد أن يغتنم فتحَ أبواب السماء في تلك الساعة قصدَ إلىٰ أعظم نوعٍ من أنواع الخير، وهو الصلاة، مما يدلُّ علىٰ مكانة الصلاة في الشرع، وعند النبي ﷺ.

قول أبي أيوب رضي الله عنه: «**قُلْتُ: أَفِي كُلِّهِنَّ قِرَاءَةٌ؟**»؛ يعني: أفي كل الأربع الركعات تقرأ شيئًا مِن السُّوَر مع الفاتحة؟

قول أبي أيوب رضي الله عنه: «**قُلْتُ: هَلْ فِيهِنَّ تَسْلِيمٌ فَاصِلٌ؟ قَالَ: «لَا»**، فهذه الأربعُ ركعاتٍ تؤَدَّىٰ بتسليمٍ واحدٍ، كما هو مُوجِب هذه الرواية، وأخذًا بظاهرها.

ويجوز أن تُصَلَّىٰ ركعتين ركعتين بتسليمتين، لعموم حديثه ﷺ: «**صَلَاةُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مَثْنَىٰ مَثْنَىٰ**»(١).

*** لفتة إيمانية:**

بعد أن ثبت لديك أنَّ نبيَّك ﷺ كان محافظًا علىٰ هذه الركعات الأربع قبل الظُهر، بل مُدمِنًا عليها، ألا ترىٰ أنَّه من التقصير الكبير ألَّا يكون لك حظٌّ

---

(١) أخرجه أحمد (٤٧٩١)، وأبو داود (١٢٩٥)، والترمذي (٥٩٧)، والنسائي (١٦٦٦)، وابن ماجه (١٣٢٢)، وبيَّن الترمذيُّ أنَّ لفظة «والنهار» شاذَّة، وأنَّ المحفوظَ فيه ذكرُ صلاة الليل فقط.

من هذه الركعات إلا شيئًا يسيرًا!

فهذه دعوةٌ لنكون محافظين مجتهدين علىٰ هذه الركعات قبل صلاة الظُهر، مستغلّين لفرصة انفتاح أبواب السماء في ذلك الوقت.

***

(صحيح) ٢٥٠ـ **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ السَّائِبِ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي أَرْبَعًا بَعْدَ أَن تَزُولَ الشَّمْسُ قَبْلَ الظُّهْرِ، وَقَالَ: «إِنَّهَا سَاعَةٌ تُفْتَحُ فِيهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَأُحِبُّ أَن يَصْعَدَ لِي فِيهَا عَمَلٌ صَالِحٌ»**(١).

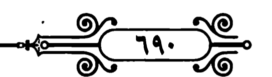
شرح الحديث

قول عبد الله بن السائب رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي أَرْبَعًا بَعْدَ أَن تَزُولَ الشَّمْسُ قَبْلَ الظُّهْرِ»، هذا صريحٌ بأن هذه الركعات الأربع كان النبي ﷺ يصلّيها بعد زوال الشمس وقبل الظهر، فهي واقعةٌ بين أذان الظُهر وإقامتها.

قوله ﷺ: «إِنَّهَا سَاعَةٌ تُفْتَحُ فِيهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَأُحِبُّ أَن يَصْعَدَ لِي فِيهَا عَمَلٌ صَالِحٌ»، والعمل الصالح أيضًا لفظٌ عامٌّ يشمل جميع العبادات الصالحة، فالظنُّ بالله أنَّ مَن عمل صالحًا أيَّ صالحٍ في تلك الساعة صعد ذلك العملُ إلىٰ السماء، وقد علمتَ هديَه ﷺ في تلك الساعة، وهو أن يصلّي هذه الركعات الأربع.

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٧٨)، وقال: «حسن غريب».





بَابُ صَلاةِ التَّطَوُّعِ فِي الْبَيْتِ

ما زال الحديث عن هدي النبي ﷺ في الصلاة، وهذا الباب يكشف سُنّةً أخرىٰ متعلّقةً بصلاة النبي ﷺ للتطوُّع، وهديه مع الصلاة في بيته ﷺ.

والتطوُّع يُقصد به: كلُّ صلاةٍ غيرُ الصلوات الخمس المفروضة، فيدخل في ذلك السُّنَنُ الرّواتبُ، والوِترُ، وقيامُ الليل، والضُحىٰ، وغير ذلك.

***

(صحيح) **٢٥١ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الصَّلَاةِ فِي بَيْتِي، وَالصَّلَاةِ فِي المَسْجِدِ؟ قَالَ: «قَد تَرَىٰ مَا أَقْرَبَ بَيْتِي مِنَ المَسْجِدِ! فَلَأَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُصَلِّيَ فِي المَسْجِدِ، إِلَّا أَن تَكُونَ صَلَاةً مَكْتُوبَةً»**(١).

هذا الحديث وغيره من الشواهد التي تُثبتُ مشروعيّةَ صلاةِ التطوُّع في البيت، بل أفضليَّة صلاة التطوُّع في البيت علىٰ صلاتها في المسجد، ولكنَّ المؤلِّف رَحِمَهُ اللهُ لم يُورِد إلا هذا الحديث، فهو حديثٌ يتيمٌ في هذا الباب.

قول عبد الله بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الصَّلَاةِ فِي بَيْتِي، وَالصَّلَاةِ فِي المَسْجِدِ؟**»، وهذا سؤالُ مُفاضلةٍ، أي: أيُّ الصنيعين أفضل؟

(١) أخرجه أحمد (١٩٠٠٧).

قوله ﷺ: «قَد تَرَىٰ مَا أَقْرَبَ بَيْتِي مِنَ المَسْجِدِ!»، وبيت النبي ﷺ لم يكن قريبًا من المسجد فقط، وإنما كان ملتصقًا به، ليس بينه وبين المسجد إلا بابٌ، إذا فتَحَه نَفَذَ منه إلىٰ المسجد مباشرة.

قوله ﷺ: «فَلَأَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُصَلِّيَ فِي المَسْجِدِ»؛ أي: صلاةُ التطوُّع في البيت أفضلُ من صلاتها في البيت مطلقًا.

ومما يؤيِّد ذلك: حديث زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**صَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ، فَإِنَّ أَفْضَلَ صَلاةِ المَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الصَّلَاةَ المَكْتُوبَةَ**»(١).

فهذان الحديثان فيهما تفضيلُ صلاة التطوُّع في البيت تفضيلًا مُطْلَقًا، ومِن هنا قال بعضُ أهل العلم: إنَّ صلاةَ التطوُّع في البيت أفضلُ من صلاتها في المسجد، حتىٰ وإن كان المسجد من المساجد الثلاثة التي ثبتت الرواياتُ بزيادة الأجر فيها ومضاعفتها: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصىٰ، فمَن كان بيتُه داخلَ حدود الحرم المكيِّ فصلاتُه النافلةَ في بيته أفضلُ من صلاته النافلةَ في المسجد الحرام.

ولصلاة النافلة في البيت حِكَمٌ عظيمةٌ وأهدافٌ عديدةٌ، منها:

الفائدةُ الأولىٰ: إحياءُ البيوت؛ فإنَّ الناس يجعلون بيوتَهم أماكنَ لتناول الطعام والشراب، والنوم، وقضاء سائر الحاجات، وينشغلون فيها عن أداء العبادات والصلوات، فأراد الشارِعُ أن يجعل للبيوت نصيبًا من العبادات والصلوات، حتىٰ لا تكون كالمقابِر التي لا يؤدَّىٰ فيها شيءٌ من العبادات، لأجل

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٩٠).

ذلك قال النبي ﷺ: «**اجْعَلُوا فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ صَلاتِكُمْ، وَلا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا**»[(١)].

فمَن حَرمَ نفسَه وأهلَه من الصلاة في البيت فقد جعل بيته قبراً؛ وذلك أنَّ أهل القبور لا يركعون لله ولا يصلُّون؛ لأنهم أمواتٌ، فمَن جعل بيته خاليًا من الصلاة فكأنه جعلها قبراً من القبور لا يُصَلَّىٰ فيه.

وفي ذلك إشارةٌ إلىٰ أنَّ البيوت دون الصلاة مَيّتةٌ مُظلمةٌ، ومَن أراد أن يُحيِيَها فعليه أن يُحيِيَها ويُنوِّرَها بالصلاة فيها.

الفائدةُ الثانية: تحقيقُ الإخلاص، وذلك أنَّ الصلاة في البيت تكون بعيدةً عن أعيُن الناس، وذلك أدعىٰ وأقرب إلىٰ الإخلاص وإصلاح القلب، وأمَّا المحافظةُ علىٰ النوافل أمام أعيُن الناسِ في المسجد، وتركها حال الانفراد في البيوت ونحوها فهو أدعىٰ للرّياء.

ولا يضرُّ عدمُ إخفاء النافلة عن أعيُن أهل البيت، فإن ذلك يَصعُب من جهةٍ، وأهل البيت يكونون مطَّلعين علىٰ خاصَّةِ المرءِ وشأنه أكثر من اطِّلاعِ غيرهم عليهم، كما أنه يَندُرُ من الناس مَن يطلب المراءاةَ والإعجاب من أهل بيته.

الفائدةُ الثالثة: فائدةٌ تربويةٌ عظيمةٌ، ومقصدٌ إيمانيٌ كبيرٌ، وتربيةٌ نفسيةٌ واجتماعيةٌ لأهل البيت من الصغار والكبار، بتعويدهم علىٰ الصلاة، وتحبيبهم لها: وهي أنَّ الطفلَ وأهل البيت إذا رأوا والدَهم يصلِّي في البيت قاموا يقلِّدونه، ونشأوا علىٰ حُبِّ الصلاة، ثم إنَّهم يرونه ذاهبًا للمسجد ليؤدِّي الفريضة

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٢)، ومسلم (٧٧٧).

فيعلمون أنه يتقرَّب إلىٰ الله بالنوافل، وهذا أبلغ من التربية بالكلام.

وَينشَأُ نَاشِئُ الفِتْيَانِ فِينَا عَلَىٰ مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ

كما أنَّ في ذلك تعليمًا للأطفال كيفية الركوع، والسجود، والقيام، وجميع أفعال الصلاة.

وشتَّان بين هذه البيوت التي عُمِرَت بالصلاة والذكر ليلًا ونهارًا، وأضاءت بنور الله وطاعته، وبين تلك البيوت التي قد أظلمت وأعتمت بسبب بُعدها عن ذكر الله، وربما عَلَت فيها مزاميرُ الشيطان، حتىٰ ترىٰ أهلَها يعيشون وَحشةً في قلوبهم وضِيقًا في صدورهم.

فإنَّ السّعَةَ في البيوت ليس بسَعَةِ الحُجرات وارتفاع الأسقف، كلا، وإنما سَعَتُها بما يملؤها من ذكر الله وعبادته وطاعته، وهذا نبيُّكم ﷺ من أضيق الناس بيتًا، ومع ذلك كان أعظم الناس سعادةً وانشراحًا.

الفائدةُ الرابعة: إحلالُ البركة بالبيوت، وطردُ الشياطين منها.

قوله ﷺ: «إِلَّا أَن تَكُونَ صَلَاةً مَكْتُوبَةً»؛ لأنَّ الصلوات المكتوبات شأنُها أن تُصَلَّىٰ في المساجد جماعةً؛ إذ المتعيّنُ في حقِّ الرِّجال أن يصلُّوا الصلوات المكتوبات جماعةً في المسجد، بل قال بعضُ أهل العلم بوجوب صلاة الجماعة في المسجد علىٰ الرجال، وإثمِ من تركها، ففي كل صلاةٍ مفروضةٍ يتعلَّق فيها بالرجال واجبان:

الواجب الأول: أداء الصلاة والقيام بها، إبراءً للذمة.

والواجب الثاني: حضورُ جماعتها في المسجد.

وهذا القول قولٌ وجيهٌ، يتأيَّد بحديث الصحيحين: «**وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ، فَتُقَامَ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَىٰ قَوْمٍ لا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ**»(١)، وفي رواية: «**لَوْلَا مَا فِي الْبُيُوتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالذُّرِّيَّةِ لَأَقَمْتُ الصَّلَاةَ صَلَاةَ الْعِشَاءِ، وَأَمَرْتُ فِتْيَانِي يُحْرِقُونَ مَا فِي الْبُيُوتِ بِالنَّارِ**»(٢).

فكونه همَّ أن يُحَرِّق بيوتَ مَن لا يَشهدون الصلاة دليلٌ علىٰ عِظَم ذلك الصنيع، وهذا الأمرُ العظيمُ ليس تركَ الصلاة، وإنما تركُها جماعةً، فدلَّ ذلك علىٰ وجوب شُهود الصلاة جماعةً.

ومما يُلاحظ أيضًا في الحديث أنَّ ثَمَّة احتمالًا أنَّهم يصلّون جماعةً في بيوتهم، ولكن ذلك لم يكن عُذرًا لهم لترك شهود الصلاة.

وهذا من أقوىٰ أدِلَّةِ أهل العلم القائلين بوجوب صلاة الجماعة في المساجد حيث يُنادَىٰ بها، إلا لمن كان معذورًا، فمَن سمِع النداء وجب عليه إتيانُ المسجد.

** ** **

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤)، ومسلم (٦٥١)، واللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٩٦).




بَابُ مَا جَاءَ فِي صَوْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

ما زال الحديثُ عن عبادته ﷺ، وينتقل الكتابُ من عبادةٍ إلىٰ أختها، وقد طُوِي الحديث عن الصلاة في الباب السابق، وهذا أوانُ الشروع في الحديث عن صيامه ﷺ.

والصومُ عبادةٌ لها شأنٌ عظيمٌ، ووزنٌ ثقيلٌ في ميزان الشريعة؛ فإنَّ الله قد استأثر من فوق سبع سماوات بجزاء أصحابه ومكافأتهم ومضاعفة ثوابهم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَىٰ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي**»(١).

ولقد حثَّ النبيُّ ﷺ أمَّته علىٰ الصوم فقال: «**مَن صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ بَعَّدَ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا**»(٢)؛ فكيف بمَن صام يومين أو ثلاثة أو أكثر.

ولقد جعل الله بابًا خاصًّا بالصائمين في الجنة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَنفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ:**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٢٧)، ومسلم (١١٥١)، واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٤٠)، ومسلم (١١٥٣).

يَا عَبْدَ اللهِ، هَذَا خَيْرٌ، فَمَن كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِن بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَن كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِن بَابِ الجِهَادِ، وَمَن كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِن بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَن كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِن بَابِ الصَّدَقَةِ»(١)، فانظر كيف عندما يزدحم الناسُ ذلك اليوم، وتتزاحم مناكبهم كلهم يريد أن يدخل الجنة، ثم ينادَىٰ الصائمون فيدخلون وحدَهم من باب الريّان.

كما أنَّ الصيامَ أحدُ المشفَّعات في ذلك اليوم الذي يبحث الناس فيه عن شفاعة الشافعين، من الأنبياء والصالحين والأقربين، ويحتاج كلُّ شخصٍ ولو إلىٰ حسنةٍ واحدةٍ، فيأتي الصيام ويشفع لصاحبه، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﵄: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«الصِّيَامُ وَالقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ القُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، قَالَ: فَيُشَفَّعَانِ»**(٢)، فهلا اتَّخذتَ شفيعًا يكون إلىٰ جانبك في وقتٍ أنت أحوج ما تكون إليه!

وكذلك كانت سيرة السلف الصالح، يحرصون علىٰ الصيام والإكثار منه، حتىٰ إنَّ إحدىٰ الصالحات كانت تصوم في أيام الصيف الحارَّة الطويلة، فنُصِحت بصيام الأيام الباردة عِوضًا عن ذلك، فقالت: «إنَّ السِّعر إذا رخُصَ اشتراه كلُّ أحد!»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (٦٦٢٦).

(٣) لطائف المعارف (ص٣٦٦).

وهذه الأحاديث تُنَشِّط مَن ضعُفَت هِمَّتُه عن الصيام إلا في رمضان، وزَهِدَ في السُّنن والمستحبَّات وشقَّت عليه، وكذلك إلقاء النظر على الأحاديث القادمة التي فيها الحديث عن صيامه ﷺ، وكيف أنه كان يصوم مِن كل أيام السنة.

***

(صحيح) ٢٥٢ـ **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رضي الله عنها عَن صِيَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: «كَانَ يَصُومُ حَتَّىٰ نَقُولَ: قَدْ صَامَ، وَيُفْطِرُ حَتَّىٰ نَقُولَ: قَدْ أَفْطَرَ»، قَالَتْ: «وَمَا صَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهْرًا كَامِلًا مُنذُ قَدِمَ المَدِينَةَ إِلَّا رَمَضَانَ»**(١).



شرح الحديث

في الحديث إثباتٌ لكثرة صيام رسولنا ﷺ، ووفرة الأيام التي يصومها من العام.

قول عبد الله بن شقيق: «**سَأَلْتُ عَائِشَةَ رضي الله عنها عَن صِيَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»، وفيه الأمر الذي تكرَّر مرارًا، وهو حرص التابعين علىٰ معرفة هدي النبي ﷺ في شأنه كله.

قول عائشة رضي الله عنها: «**كَانَ يَصُومُ حَتَّىٰ نَقُولَ: قَدْ صَامَ**»؛ يعني: تمرُّ به أوقاتٌ يَسرُد فيها الصومَ ويتابعه، ولا يتخلله فِطرٌ في أثنائه، حتىٰ نقول: إنه سيَمضي مستمرًا علىٰ صيامه ولن يفطر.

قولها رضي الله عنها: «**وَيُفْطِرُ حَتَّىٰ نَقُولَ: قَدْ أَفْطَرَ**»؛ يعني: تمرُّ به أوقاتٌ يُتابع فيها

---

(١) أخرجه مسلم (١١٥٦).

الفِطرَ ولا يصوم شيئًا من الأيام، حتىٰ نظنَّ أنه لن يعود إلىٰ الصوم.

أي: لم يكن النبي ﷺ يلتزم الصومَ علىٰ الدوام فلا يفطر حتىٰ يشُقَّ ذلك عليه، كما أنه لا يُفْطِر دائمًا حتىٰ إنه لا يصوم إلا رمضان فقط، بل ينوّع بين هذا وذاك؛ فيصوم أيامًا متتابعات، ثم يفطر أيامًا متتابعات.

قولها رضي الله عنها: «**وَمَا صَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهْرًا كَامِلًا مُنذُ قَدِمَ المَدِينَةَ إِلَّا رَمَضَانَ**»؛ أي: لم يَثبُت في سُنَّته ﷺ استكمالُ شهرٍ صائمًا إلا رمضان، حتىٰ شعبان الذي كان أكثر الشهور التي يصومها لم يكمله صيامًا.

فمهما اجتهد الإنسان في الصوم وحُبِّب إليه ورغب فيه؛ فلا ينبغي له أن يكمل شهرًا من الشهور صيامًا، وإلا فقد خالف الهدي النبوي في الصيام.

***

(صحيح) **٢٥٣ ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه: **أَنَّهُ سُئِلَ عَن صَوْمِ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالَ: «كَانَ يَصُومُ مِنَ الشَّهْرِ حَتَّىٰ نَرَىٰ أَن لَا يُرِيدَ أَن يُفْطِرَ مِنْهُ، وَيُفْطِرُ حَتَّىٰ نَرَىٰ أَن لَا يُرِيدَ أَن يَصُومَ مِنْهُ شَيْئًا، وَكُنتَ لَا تَشَاءُ أَن تَرَاهُ مِنَ اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إِلَا رَأَيْتَهُ مُصَلِّيًا، وَلَا نَائِمًا إِلَا رَأَيْتَهُ نَائِمًا»**(١).

شرح الحديث

هذا الحديث كسابقه في إثبات كثرة صيام رسولنا ﷺ.

قوله رضي الله عنه: «**أَنَّهُ سُئِلَ عَن صَوْمِ النَّبِيِّ ﷺ**»، سُئِل عن الصيام فحسب،

(١) أخرجه الترمذي (٧٦٩) وقال: «حسن صحيح».

فأجاب عن صيامه، وزاد جملةً عن صلاته ﷺ، وتأمَّل كيف أنَّه رضي الله عنه عندما أراد أن يزيد السائل شيئًا من عبادات النبي ﷺ زاده في صلاته؛ وذلك لعِظَم مكانتها عند النبي ﷺ وفي الشريعة الإسلامية.

وفيه الأمر الذي تكرَّر مرارًا، وهو حرص التابعين علىٰ معرفة هدي النبي ﷺ في شأنه كله.

قول أنس رضي الله عنه: «**كَانَ يَصُومُ مِنَ الشَّهْرِ حَتَّىٰ نَرَىٰ أَن لَا يُرِيدَ أَن يُفْطِرَ مِنْهُ، وَيُفْطِرُ حَتَّىٰ نَرَىٰ أَن لَا يُرِيدَ أَن يَصُومَ مِنْهُ شَيْئًا**» هو في المعنىٰ نفسه الذي سبق في الحديث السابق، وهو أنه كان يصوم ويَسرُدُ أيامًا متتابعات حتىٰ يظنَّ الصحابةُ أنه سيُكمل الشهر صائمًا ولكنه لا يُكمله، ثم يُفطر أيامًا متتابعات من الشهر حتىٰ يظن الصحابة أنه لن يصوم من هذا الشهر شيئًا.

قوله رضي الله عنه: «**وَكُنتَ لَا تَشَاءُ أَن تَرَاهُ مِنَ اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إِلَا رَأَيْتَهُ مُصَلِّيًا، وَلَا نَائِمًا إِلَا رَأَيْتَهُ نَائِمًا**»؛ أي: إذا أردتَ في الليل أن تراه مُصلّيًا تراه مُصلّيًا، وإذا أردتَ أن تراه نائمًا تراه نائمًا، وذلك أنَّه ما كان يقوم ليلَه كلَّه، ولا ينامه كلَّه، بل كان ينام شيئًا من الليل، ويقوم شيئًا منه أيضًا، وهذا هديُه المتتابع في قيام الليل.

وهذا الهديُ النبويُ هو القدرُ المشتركُ بين فعله ﷺ في الصلاة في قيام الليل وفي الصيام، وهو الذي جعل أنسًا رضي الله عنه يَقرِنُهما في جوابه للسائل عن صوم النبيِّ ﷺ.

***

(صحيح) ٢٥٤ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصُومُ حَتَّىٰ نَقُولَ: مَا يُرِيدُ أَن يُفْطِرَ مِنْهُ، وَيُفْطِرُ حَتَّىٰ نَقُولَ: مَا يُرِيدُ أَن يَصُومَ مِنْهُ، وَمَا صَامَ شَهْرًا كَامِلًا مُنْذُ قَدِمَ المَدِينَةَ إِلَّا رَمَضَانَ»(١).

شرح الحديث

فيه إثبات كثرة صيام رسولنا ﷺ، كما في الحديثين السابقين.

قول ابن عباس رضي الله عنهما: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصُومُ حَتَّىٰ نَقُولَ: مَا يُرِيدُ أَن يُفْطِرَ مِنْهُ»؛ أي: ما يريد أن يُفطِر من أيام الشهر.

وفي الحديث ما في الحديثين السابقين من عدم استمراره ﷺ علىٰ شأنٍ واحدٍ في حياته، فما كان يصوم بتتابُع فلا يُفطر، وما كان يُفطر دومًا فلا يصوم، بل منهجُه منهجُ الوسط والاعتدال، كما كان شأنه في كلّ حياته.

***

(صحيح) ٢٥٥ـ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَصُومُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ إِلَّا شَعْبَانَ وَرَمَضَانَ»(٢).

قَالَ أَبُو عِيسَىٰ: «هَذَا إِسنَادٌ صَحِيحٌ، وَهَكَذَا قَالَ: عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، وَرَوَىٰ هَذَا الحَدِيثَ غَيْرُ وَاحِدٍ: عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيُحْتَمَلُ أَن يَكُونَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَدْ رَوَىٰ هَذَا الحَدِيثَ عَنْ

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٩٨)، وابن ماجه (١٧١١).

(٢) أخرجه الترمذي (٧٣٦)، والنسائي (٢٣٥٢)، وقال الترمذي: «حسن».

عَائِشَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ جَمِيعًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ».

شرح الحديث

ظاهر هذا الحديث يثبتُ أنَّ النبي ﷺ كان يصوم شعبان كاملًا، وهذا يتعارض مع حديثي عائشة وابن عباس السابقَين، في أنَّه ما صام شهرًا كاملًا منذ قَدِم المدينة.

والحقُّ أنَّه لا تعارُض بين هذه الأحاديث؛ لأنَّ حديث أمِّ سلمة هذا الذي ذكرَتْ فيه أنه صام الشهر كاملًا إنما أرادت به المبالغة في وصف صيامه شعبان، أي: حتىٰ يوشك أن يكون صيامُه لشعبان كاملًا.

قَالَ أَبُو عِيسَىٰ: «هَذَا إِسنَادٌ صَحِيحٌ»، هذا من قول الإمام الترمذي تعقيبًا علىٰ الحديث بشيءٍ متعلِّق بإسناد الرواية في الحديث؛ لأنَّ الحديثَ مرويٌّ من حديث التابعيِّ أبي سَلَمة بن عبد الرحمن عن أمِّ سلمة، ومرويٌّ أيضًا من رواية أبي سَلَمة بن عبد الرحمن عن عائشة.

فقد يظنُّ قارئٌ أنَّ الرواية فيها خطأٌ، فأثبت الإمامُ صحة الرواية من الطريقين، وأنَّ أبا سَلَمة بن عبد الرحمن قد سمع من كلتيهما رضي الله عنهما.

***

(صحيح) ٢٥٦ـ **عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «لَمْ أَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَصُومُ فِي شَهْرٍ أَكْثَرَ مِن صِيَامِهِ لِلَّهِ فِي شَعْبَانَ، كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ إِلَّا قَلِيلًا، بَلْ كَانَ يَصُومُهُ كُلَّهُ»**[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥١٠١)، وهو في صحيح البخاري (١٩٧٠)، بنحوه.

شرح الحديث

قول عائشة رضي الله عنها: **«لَمْ أَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَصُومُ فِي شَهْرٍ أَكْثَرَ مِن صِيَامِهِ لِلَّهِ فِي شَعْبَانَ»**؛ أي: ليس شهرٌ من شهور السَّنة كان له حظٌّ من صيام رسول الله ﷺ أكثر من شعبان.

وسببُ كثرةِ صيامه لشعبان واعتنائه به: وقوعُه قبل رمضان، فصيامُ شعبان قبل رمضان بمثابة صلاة السُّنَّة الراتبة قبل الفريضة، ثم يأتي صيامُ الستِّ من شوّال بعد رمضان؛ فيكون بمثابة السُّنَّة الراتبة بعد انقضاء الفريضة.

فهو ربطٌ للفرائض بالنوافل قبلها وبعدها.

ومن حِكَم صومه ﷺ شعبان: أنَّه الشهرُ الذي تُرْفَع فيه صحائفُ أعمال العباد في العام؛ فإنَّ الأعمال تُرفَع وتُعرَض علىٰ الله كلَّ يوم، ثم كلَّ أسبوع، ثم كلَّ سَنَة.

فأمَّا العرضُ اليوميُّ فيكون مع كلِّ صباحٍ وكلِّ مساءٍ، وأمَّا العرضُ الأسبوعيُّ فيكون يومي الاثنين والخميس، وأمّا العرضُ الحوليُّ أو السنويُّ فيكون في شعبان.

ومن حِكَم صيام شعبان: أنَّه شهرٌ واقعٌ بين رجب ورمضان، فإنَّ رجبًا شهرٌ حرامٌ، تجتمع النفوس علىٰ تعظيمه وتحريمه، ثم يأتي رمضان شهرُ البركات والخيرات والحسنات والعتق من النار، فوقع شعبانُ بين هذين الشهرين العظيمين، وكان مَظِنَّة ضعف الهمّة فيه لوقوعه بين شهرين معظَّمين،

فسَنَّ النبيُّ ﷺ الإكثار من صيامه، خاصَّةً وأنَّ كثيرًا من الناس يَغفُلُ عنه؛ عن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَمْ أَرَكَ تَصُومُ شَهْرًا مِنَ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِن شَعْبَانَ؟ قَالَ: «**ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الأَعْمَالُ إِلَىٰ رَبِّ العَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَن يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**»(١).

ومن حِكَم صوم شعبان: أنَّه تهيئةٌ للنفوس لصيام رمضان؛ فإنَّ مَن أقبل عليه رمضان وكان بعيدَ عهدٍ بالصيام فإنه سيَجِدُ صوم رمضان ثقيلًا علىٰ النفس، وفيه قدرٌ من المشقَّة والتعب، بخلاف ما لو وطَّن نفسه قبل بَدء رمضان، وانطلق في الصيام، فإنه سيأتي رمضانُ وهو نشيطٌ، ويستغلُّ ذلك الشهر بالعبادات والطاعات والمسابقة إلىٰ رحمة الله.

قولها رضي الله عنها: «**كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ إِلَّا قَلِيلًا، بَلْ كَانَ يَصُومُهُ كُلَّهُ**»؛ أي: كان يصوم شعبان إلا أيامًا معدودات، حتىٰ ليكاد القائلُ أن يقول: إنه صام شعبانَ كلَّه.

وهذا مُفَسِّرٌ لرواية أمِّ سلمة رضي الله عنها السابقة، التي ذكرت أنه صام شعبان كاملًا.

وقد جاء هذا الحديث في رواية مسلم(٢) بلفظ: «**كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ، كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ إِلَّا قَلِيلًا**»، فجعلت الجملةَ الثانيةَ تفسيرًا للأولىٰ.

قال النوويُّ رحمه الله: «وقولُها: «**كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ، كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ إِلَّا قَلِيلًا**»؛ الثاني تفسيرٌ للأوّل، وبيان أنَّ قولَها: (كلَّه) أي: غالبَه»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٧٥٣)، والنسائي (٢٣٥٧).

(٢) صحيح مسلم (١١٥٦).

(٣) شرح النووي علىٰ صحيح مسلم (٨/ ٣٧).

قال الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر هذا الحديث: «ورُوي عن ابن المبارك أنه قال في هذا الحديث: هو جائزٌ في كلام العرب إذا صام أكثر الشهر أن يُقال: صام الشهر كلَّه، ويُقال: قام فلانٌ ليلَهُ أجمعَ، ولعلَّه تعشَّىٰ واشتغل ببعض أمره، كأنَّ ابنَ المبارك قد رأىٰ كلا الحديثين متَّفِقَين، يقول: إنما معنىٰ هذا الحديث أنه كان يصوم أكثر الشهر»(١)؛ أي: هذا استعمالٌ عربيٌّ سائغٌ، أن يُعبَّر بالكُلِّ عن الأغلب، كما أننا نقول: قام فلانٌ الليلَ كلَّه، وهو لم يَقُمه كلَّه؛ فإنه انشغل بعض وقته بتناوُل العشاء، ونحو ذلك.

***

(حسن) **٢٥٧ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصُومُ مِنْ غُرَّةِ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَقَلَّمَا كَانَ يُفْطِرُ يَوْمَ الجُمُعَةِ»(٢).**

شرح الحديث

هذه سُنَّةٌ أخرىٰ من سُنَن نبيّكم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصيام، علىٰ المسلم أن يتعلَّمها ويطبّقها.

(عَنْ عَبْدِ اللهِ) أي: ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **«كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصُومُ مِنْ غُرَّةِ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ»؛ غُرَّةُ** الشهر: أوَّله.

(١) جامع الترمذي عقب حديث (٧٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٧٤٢)، والنسائي (٢٣٦٨)، وقال الترمذي: «حسن غريب».

أثبت هذا الحديث أنه ﷺ كان يصوم ثلاثةَ أيام من أول كلِّ شهرٍ، وقد ثبتت السُّنَّة من غير هذا الحديث باستحباب صيام ثلاثةِ أيامٍ من كلِّ شهرٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلَاثٍ: «**صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِن كُلِّ شَهْرٍ، وَرَكْعَتَيِ الضُّحَىٰ، وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَنَامَ**»(١).

ولكن وقع في بعض الروايات: أنَّ هذه الأيامَ الثلاثةَ هي أيامُ البِيضُ، والروايةُ التي بين أيدينا تُحدِّد الأيَّاَم المسنونَ صيامُها بأنها أوّل ثلاثةِ أيامٍ من كلِّ شهرٍ.

ولا تعارُضَ بين هذه الروايات؛ لأنَّه سيأتي من حديث عائشة رضي الله عنها أنه كان لا يبالي مِن أيِّ أيام الشهر صام هذه الأيام الثلاثة.

فعلىٰ المسلم أن يعتنيَ بهذه السُّنَّة، ولا حرجَ عليه أن يصومَ الأيام الثلاثة الأولىٰ من غُرَّة الشهر، أو أيَّام البِيض، أو يجعلها متفرِّقةً، ومَن كان له صومٌ كصيام الاثنين والخميس، أو صيام داود عليه السلام، فلا بأس أن ينويَ هذه الأيام الثلاثة ضمن ما يصومه.

والحكمةُ في تشريع صيام ثلاثةِ أيامٍ من كلّ شهرٍ: أنَّ الحسنةَ بعشرِ أمثالِها؛ فإذا صام الإنسان ثلاثةَ أيامٍ من كلِّ شهرٍ كان عند الله بثواب صيامِ ثلاثين يومًا؛ فإذا صام من كل شهرٍ ثلاثةَ أيام فكأنه صام العامَ كاملًا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ، وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِن كُلِّ شَهْرٍ: صَوْمُ الدَّهْرِ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٨١)، ومسلم (٧٢١).

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٧٧).

*** لفتة إيمانية:**

من الحِرمان العظيم أن يكون المسلم قادرًا علىٰ صيام هذه الثلاثة الأيام ولا يفعل، ويتيسَّر له الصيام فيُعرِض عنه ويُقَصِّر ويُفَرِّط، فلا ينصرمنَّ عليك الشهرُ وأنتَ لم تُودِع فيه لله صومًا، ولو ثلاثةَ أيام.

قوله ﵁: «**وَقَلَّمَا كَانَ يُفْطِرُ يَوْمَ الجُمُعَةِ**»، ليس المقصود أنه كان يتحرَّىٰ صيام يوم الجمعة باعتباره يوم الجمعة؛ لأنَّ النهيَ قد ثبت عن تخصيص يوم الجمعة بالصيام[1].

ولكن المقصود: أنَّه ﷺ عندما كان يصوم الثلاثة الأيام من كل شهر، أو الثلاثة البِيض، أو عندما كان يَسردُ صومَه ويتابعُه، إذا تخلَّل هذا الصيامَ يومُ جمعةٍ فإنه كان يصومه، وقليلًا ما كان يُفطر فيه.

فصيامُه يوم الجمعة باعتباره من غُرَّة الشهر، أو من أيام البِيض، أو لأنه من شعبان، أو نحو ذلك، لا أنَّه كان يتقصَّد صيام يوم الجمعة.

***

(صحيح) **٢٥٨ـ عَنْ عَائِشَةَ** ﵂ **قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ** ﷺ **يَتَحَرَّىٰ صَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالخَمِيسِ»**[2].

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٨٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٧٤٨)، والترمذي (٧٤٥)، وقال: «حسن غريب».



شرح الحديث

هذه سُنّةٌ أخرىٰ من سُنَن صيامِ الرسول ﷺ، ألا وهي صومُ يومي الاثنين والخميس من كلِّ أسبوع، وهي سُنَّةٌ كان يحرص عليها النبيُّ ﷺ ويتحرَّاها.

وقد تبيَّن مما سبقَ أنَّ الصيامَ المسنونَ الذي شرعه النبي ﷺ علىٰ أنواعٍ وألوانٍ؛ فمِنه صيامُ ثلاثة أيام من كل شهر، وصيامُ غُرَّة كلِّ شهر، وصيامُ أيام البِيض، وصيامُ يومي الاثنين والخميس، وصيامُ داودَ عليه السلام، والإكثارُ من صيام شعبان، ونحو ذلك.

وإنما تنوَّعت التشريعاتُ والسُّنَنُ في الصيام لاختلاف أحوال الناس؛ فبعضُ الناس قد يكون قوي الهمَّة شديد العزيمة، يُحبُّ الاستكثارَ من العبادات والصوم، فيُشرع له الاستكثار؛ فيصوم الاثنين والخميس مثلًا، ويُكثر من صيام شعبان، ونحو ذلك.

وبعضُ الناس قد تضعف عزيمتُه عن الصوم، وربما كان عملُه اليوميُّ عملًا شاقًّا، يدعوه للعمل تحت الشمس، أو طبيعة عمله تدعوه لكثرة الحركة، مما يشقُّ معه الاستمرار في التطوُّع في الصوم، فيُوَطِّن نفسَه ويروِّضها علىٰ أقل شيءٍ مما يتيسَّر له، كصيام ثلاثة أيامٍ من كل شهر، وإن كانت متفرِّقة بحسب ما تسمحُ له ظروفه.

وهكذا الشأن في كل العبادات، فقد يتيسَّر لبعض الناسِ أن يقرأ وِردًا كثيرًا من القرآن كلَّ يوم، وبعض الناس لا يتيسَّر له، ولكن ليحرص أن يكون له وردٌ يوميٌّ ولو جزءًا.

وهكذا في العمرة والحج، وقيام الليل، والصلاة، وغير ذلك من العبادات.

ولكن الملحوظ أنَّ من حمل نفسَه ووطَّنها وروَّضها علىٰ تتبُّع مواطن السُّنَن من العبادات فإنَّ الله يُيَسِّرها عليه، ويُعينه علىٰ أدائها؛ حتىٰ إنه لَيجِدُ لذةً في أدائها تُصعِّبُ عليه أن يتركها بعد ذلك.

***

(صحيح) ٢٥٩ـ **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «تُعْرَضُ الأَعْمَالُ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَالخَمِيسِ، فَأُحِبُّ أَن يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ»**(١).

شرح الحديث

في هذا الحديث بيانٌ للحكمة التي شُرِع من أجلها صيام يومي الاثنين والخميس، والسبب الذي كان من أجله يتحرَّىٰ ﷺ صيامَ ذَيْنك اليومين، فإنها أيامٌ يُعرَض فيها العمل، والنبي ﷺ يُحبّ أن يُعرَض عملُه وهو صائمٌ.

هذا المعنىٰ العظيم يجعل الإنسان يُتْبِع العبادةَ بالعبادة، ويُلحِق الطاعةَ بأخرىٰ مثلها.

وقد ذُكِرَت حكمةٌ أخرىٰ لصيام يوم الاثنين، فعن أبي قتادة ﵁ قَالَ: وَسُئِلَ ﷺ عَن صَوْمِ يَوْمِ الاِثْنَيْنِ؟ قَالَ: **«ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ ـ أَوْ أُنزِلَ عَلَيَّ فِيهِ ـ»**(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٧٥٣)، والترمذي (٧٤٧)، والنسائي (٢٣٥٨)، وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) أخرجه مسلم (١١٦٢).

ففي هذا الحديث أنَّه ﷺ وُلِد يوم الاثنين، وأنَّ من أسباب صيامه يوم الاثنين أنه يومٌ وُلِد فيه.

ومعنىٰ ذلك: أنَّه يومٌ وُلِد فيه فجرٌ جديدٌ للبشرية، بمولده ﷺ والذي كان سببًا لإخراج الناس من ظُلُمات التِّيه إلىٰ نور الهداية.

وقد توسَّع بعضُ الناس في مفهوم الحديث؛ فاستدلَّ به علىٰ الاحتفال السَّنويِّ بيوم مَوْلده، واستدلَّ به بعضُ الناس علىٰ جواز الاحتفال بعيد ميلاد الإنسان، حيث أصبحوا يخصُّون يومًا في السَّنة يحتفلون به كلَّ عامٍ، وهو يومُ ميلادهم.

والجوابُ عن هذا: أنَّ النبي ﷺ قد خصَّ يومًا متكرِّرًا كلَّ أسبوع وهو يوم الاثنين، ولم يخُصَّ يومًا يتكرَّر كلَّ سنةٍ مختصًّا بشهرٍ من الشهور وتاريخ سنوي محدَّد، كما يفعله المحتفلون بالمولد النبوي، والمحتفلون بأعياد ميلادهم.

ثم إنَّ النبي ﷺ وظَّف هذا اليوم لعبادة الصوم لا أكثر، فمَن أراد الاقتداء بالنبي ﷺ فليَصُم ذلك اليوم من كلِّ أسبوع.

***

(صحيح) **٢٦٠ـ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصُومُ مِنَ الشَّهْرِ السَّبْتَ وَالأَحَدَ وَالِاثْنَيْنَ، وَمِنَ الشَّهْرِ الآخَرِ الثُّلَاثَاءَ وَالأَرْبَعَاءَ وَالخَمِيسَ»**(١).

---

(١) أخرجه الترمذي (٧٤٦)، وقال: «حسن».

شرح الحديث

هذا الحديث تفسيرٌ للأحاديث السابقة التي ذكرت أنَّه يصوم ثلاثةَ أيامٍ من كل شهر؛ سواءٌ كانت في بداية الشهر، أو أيام البِيض.

فإن هذه الأيامَ قد توافق في أحد الأشهُر أيامَ السبت والأحد والاثنين، ثم في شهرٍ آخر توافق الثلاثاء والأربعاء والخميس، والمقصود أنَّه لم يكن يعيِّن يومًا يخصُّه بالصيام من كل شهر، وإنما يصوم ما يوافق هذه الأيام الثلاثة التي يريد صيامها.

وأمَّا تعيين أيَّامٍ محدّدة للصوم فلتلك مناسباتٌ أخرىٰ في أحاديث أخرىٰ.

***

(صحيح) ٢٦١ـ **عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصُومُ فِي شَهْرٍ أَكْثَرَ مِن صِيَامِهِ فِي شَعْبَانَ»**(١).



شرح الحديث

وهذا كالأحاديث التي تقدَّمت في صوم أكثر شعبان، وذلك ترغيبًا في صيام هذا الشهر، واستعدادًا لشهر رمضان.

***

(١) أخرجه أحمد (٢٤١١٦).

(صحيح) ٢٦٢ـ عَن مُعَاذَةَ قَالَتْ: «قُلْتُ لِعَائِشَةَ: أَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصُومُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِن كُلِّ شَهْرٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قُلْتُ: مِنْ أَيِّهِ كَانَ يَصُومُ؟ قَالَتْ: كَانَ لا يُبَالِي مِنْ أَيِّهِ صَامَ»(١).

شرح الحديث

قول معاذة: «قُلْتُ لِعَائِشَةَ: أَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصُومُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِن كُلِّ شَهْرٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ»، فيه ما تقدَّم من صيامه ثلاثة أيام من كل شهر ﷺ.

قولها: «مِنْ أَيِّهِ كَانَ يَصُومُ؟»، علِمتْ أنه كان يصوم ثلاثةَ أيامٍ من كل شهر، ثم حرِصَتْ علىٰ تحديد هذه الأيام كما عَهِدنا من حرص التابعين علىٰ معرفة الخير وإصابة السُّنَّة؛ فهي لا تريد أن تصوم ثلاثة أيامٍ فقط، وإنما تريد أن يُطابِقَ فعلُها فعلَ النبي ﷺ، ويوافقه في الأيام الثلاثة التي كان يصومها.

قول عائشة رضي الله عنها: «كَانَ لا يُبَالِي مِنْ أَيِّهِ صَامَ»؛ أي: أنَّ المهم أن لا يطويَ المسلمُ صحيفةَ عمله في أيِّ شهرٍ كان إلا وقد أودعه صيام ثلاثة أيام، ثم بعد ذلك لا يُهِمُّ أيَّ تلك الأيام صامها.

*** لفتة إيمانية:**

ينبغي للمسلم الذي لم يتعوَّد الصيام المستحب أن يُعَوِّد نفسَه علىٰ صيام ثلاثة أيام من كل شهرٍ بحسب ما يستطيع، حتىٰ إذا تعوَّد ذلك وألِفه زاد عليه صيام الاثنين والخميس، حتىٰ إذا تعوَّد ذلك وألِفه زاد ما يستطيع زيادتَه من

(١) أخرجه الترمذي (٧٦٣) وقال: «حسن صحيح».

الصومِ، فيصوم يومًا ويفطر يومًا كصيام داود عليه السلام، فإنَّه إن فعل ذلك أصبح يومُ فِطره ويومُ صومِه سواء؛ لا يشعر بتعبٍ، ولا يُحِسُّ بجوعٍ وعطشٍ، ويقضي يومَه كما لو كان مُفْطِرًا.

والصائمُ وإن استوىٰ يومُ فطرِه وصومِه فإنَّهما عند الله لا يستويان، وشتَّان ما بين مسلمٍ تكون وجبتُه لسدِّ جوعِه فقط، ومسلم إذا حان وقت الإفطار فرِحَ فرحتين؛ فرحةً بفطره، وفرحةً ينتظرها عند لقاء ربِّه.

***

(صحيح) **٢٦٣ـ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ عَاشُورَاءُ يَوْمًا تَصُومُهُ قُرَيْشٌ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَصُومُهُ، فَلَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ صَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، فَلَمَّا افْتُرِضَ رَمَضَانُ كَانَ رَمَضَانُ هُوَ الفَرِيضَةَ، وَتُرِكَ عَاشُورَاءُ، فَمَن شَاءَ صَامَهُ، وَمَن شَاءَ تَرَكَهُ»**(١).

شرح الحديث

قول عائشة رضي الله عنها: **«كَانَ عَاشُورَاءُ يَوْمًا تَصُومُهُ قُرَيْشٌ فِي الجَاهِلِيَّةِ»**؛ عاشوراءُ هو اليوم العاشر من شهر المحرَّم، وكانت قريشٌ تصومُه في الجاهلية، إذ كان ذلك من السنن الباقية من الحنيفيّة، وليس لذلك علاقةٌ بصوم اليهود لذلك اليوم.

قولها رضي الله عنها: **«وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَصُومُهُ»**، وفي هذا إثباتٌ لسُنّةٍ أخرىٰ من سُنن الصيام عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهي سُنّة صيام يوم عاشوراء.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٠٢).

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**فَلَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ صَامَهُ**»، وفي ذلك قصّةٌ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ وَجَدَهُمْ يَصُومُونَ يَوْمًا، يَعْنِي: عَاشُورَاءَ، فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ يَوْمٌ نَجَّىٰ اللهُ فِيهِ مُوسَىٰ، وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ، فَصَامَ مُوسَىٰ شُكْرًا لِلَّهِ، فَقَالَ: «أَنَا أَوْلَىٰ بِمُوسَىٰ مِنْهُمْ»، فَصَامَهُ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ**[1].

وفي هذا الحديثِ إزالةٌ لإشكالٍ يطرحه بعضهم، وهو موافقةُ النبي ﷺ لليهود في صيام يوم عاشوراء؛ فقد أثبت هذا الحديثُ صيامَه ﷺ لعاشوراء قبل مَقْدمه المدينة، وقبل علمه بصوم اليهود له.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ**»؛ أي: فرَض صيامَه علىٰ المسلمين، وبقي صومُ عاشوراء واجبًا إلىٰ السَّنة الثانية للهجرة.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**فَلَمَّا افْتُرِضَ رَمَضَانُ كَانَ رَمَضَانُ هُوَ الفَرِيضَةَ**»؛ أي: عندما فُرِضَ صيام رمضان في السَّنة الثانية للهجرة أصبح هو الصومَ الواجبَ المفروضَ علىٰ المسلمين.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**وَتُرِكَ عَاشُورَاءُ، فَمَن شَاءَ صَامَهُ، وَمَن شَاءَ تَرَكَهُ**»؛ أي: تُرِك ونُسِخ وجوبُ صوم عاشوراء، وانتقل إلىٰ الاستحباب والترغيب؛ فمن شاء أن يصومه صامه، ومن شاء ألا يصومه فلا شيءَ عليه.

ومن ترغيب الشارع في صيام عاشوراء ما قاله النبي ﷺ: «**أَحْتَسِبُ عَلَىٰ اللهِ أَن يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٩٧)، ومسلم (١١٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (١١٦٢).

وقد مضت السُّنَّة أن يُصام عاشوراء بصومِ يومٍ معه، وهو اليوم التاسع، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَئِن بَقِيتُ إِلَىٰ قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ**»، وفي روايةٍ: «**يَعْنِي يَوْمَ عَاشُورَاءَ**»(١).

وقد أطبق الفقهاءُ علىٰ استحباب صوم التاسع مع العاشر مخالفةً لليهود، ومفارقةً لهم في عبادةٍ يشتركون فيها.

وهنا مسألةٌ: وهي أنَّ بعضَ الناسِ يَقِيسون علىٰ هذا الحديث؛ فيصومون ويحتفلون كل عامٍ ببعض الأحداث العظيمة التي حصلت في الأمَّة الإسلامية.

وهذا خطأٌ؛ فإنَّ الصومَ عبادةٌ، وتخصيصُ العبادة بوقتٍ من الأوقات لا بُدَّ فيها من توقيفٍ من الشارع، وإلا اعتُبِرَ ذلك التخصيصُ بدعةً، وتُسَمَّىٰ: بدعةً إضافيةً؛ فإنّ الأصلَ في العبادات المنعُ والتوقيفُ.

خاصَّةً وأننا نرىٰ أنَّ الأجيالَ المفضَّلة من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين لم يفعلوا ذلك، ولم يخصِّصوا يومًا من تلك الأيام بعبادة، ولم يحتفلوا بها، فالواجب علىٰ المسلم أن يتبَّع هؤلاء ويهتدي بهديهم.

***

(صحيح) ٢٦٤ـ **عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَخُصُّ مِنَ الأَيَامِ شَيْئًا؟ قَالَتْ: «كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً، وَأَيُّكُمْ يُطِيقُ مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُطِيقُ»**(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١١٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٨٧)، ومسلم (٧٨٣).



شرح الحديث

(**عَنْ عَلْقَمَةَ**) هو ابن قيس النخعي، إمامٌ تابعيٌّ كبيرٌ، فقيهُ الكوفة وعالـمُها ومُقرئُها، أدرك زمن النبي ﷺ ولم يره، فلم يَظفر بشرف الصحبة، لكنه من كبار أئمة التابعين.

قول علقمة: «أَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَخُصُّ مِنَ الأَيَّامِ شَيْئًا؟»؛ يعني: هل كان يخصُّ شيئًا من أيامِ الاسبوعِ أو الشهرِ أو السنةِ بمزيدِ عملٍ صالحٍ عن باقي الأيام؛ من صلاةٍ، أو صيامٍ، أو قرآنٍ، أو دعاءٍ، أو غير ذلك من الأعمال الصالحة؟

وهذا السؤال فيه دلالةٌ علىٰ الحُبِّ العظيم والرغبة الصادقة في الاقتداء واتِّباع السُّنن والهدي النبوي.

قول عائشة رضي الله عنها: «كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً»؛ أي: ما كان يخصُّ شيئًا من الأيام بعملٍ صالحٍ أكثرَ من غيره من الأيام، وإنما كان يعمل الأعمال الصالحة علىٰ الدوام، فلا يترك يومًا فارغًا من العمل الصالح ويعمل في آخر، بل كان عملُه ديمةً، أي مستمرًا علىٰ الدوام.

فالهديُ النبويُّ في العمل: أنَّ العملَ الدائمَ وإن قلَّ خيرٌ من العمل الكثير المنقطع.

قول عائشة رضي الله عنها: «وَأَيُّكُمْ يُطِيقُ مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُطِيقُ»، عقَّبت قولها السابق بهذه العبارة،

وقد صدقت، فأيُّنا الذي يبلغ به الحماسُ والرغبةُ وبذلُ الجهد في العمل

الصالح مبلغَ رسول الله ﷺ في كثرة العمل واجتهاده وديمومته مع وجود الصوارف والعوائق والشواغل؟

فقد كان ﷺ أعظم الناس شغلًا، وأكبرهم همًّا، في آناء الليل وأطراف النهار، ومع ذلك لا تجدُه منقطعًا عن الأعمال الصالحة في يومهِ وليلته ﷺ.

ومن صُوَرِ ديمومته علىٰ العمل ﷺ: أنَّه إذا فاتته نافلةٌ وتطوُّعٌ مما كان يفعله قضاه في وقتٍ آخر، وفواتُ النافلة لم يكن بسببِ انشغالٍ منه ﷺ في لهوٍ أو فراغٍ أو حتىٰ انشغالٍ بأمرٍ مباحٍ، بل قد يكون انشغالًا بواجبٍ عظيمٍ أعظمَ من نافلته وتطوّعه، كتعليم الوفود أمور الدين، وقضاء حوائج المسلمين.

فقد صلىٰ ﷺ مرَّةً ركعتين بعد العصر، فسألته أمُّ سلمة رضي الله عنها؛ لأنه صلاهما بعد العصر، فقال لها: «**يَا بِنتَ أَبِي أُمَيَّةَ، سَأَلْتِ عَنِ الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ العَصْرِ، إِنَّهُ أَتَانِي نَاسٌ مِنْ عَبْدِ القَيْسِ بِالإِسْلَامِ مِن قَوْمِهِمْ، فَشَغَلُونِي عَنِ الرَّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْرِ، فَهُمَا هَاتَانِ**»(١).

فقد أتاه هؤلاء القومُ راغبين في الإسلام، فانشغل بتعليمهم الدِّين وأحكامه، وبقي معهم من بعد صلاة الظهر مباشرةً إلىٰ صلاة العصر، فلم يجد وقتًا يصلِّي فيه سُنَّة الظهر البَعديَّة، فشغله عن السُّنَّة ما هو أهمُّ منها من تعليم أحكام الدين للراغبين في الدخول في الإسلام.

ولكن لم يرضَ ﷺ لنفسه أن يتركَ هذه السُّنَّة، حتىٰ وإن كان مشغولًا بما هو أعظم منها، ولم يلتمس لنفسه عذرًا في تركها، ولم يقلْ: إن فاتتني اليوم

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٣٣)، ومسلم (٨٣٤).

أصلِّيها غدًا! بل عندما سنحت له الفرصةُ بالتعويضِ صلاها في غير وقتها.

وكذلك كان ﷺ في جميع عباداته؛ إن فاته شيءٌ من وِرده من الليل لتعبٍ أو مرضٍ قضاه في النهار، وهكذا.

فصدقَتْ عائشةُ رضي الله عنها في نفيها عن الناس إطاقةَ ما كان يطيقُه ﷺ، ولكننا نتعلَّم هديه، ونحاول التمسُّك بشيءٍ من سُنَّته، وأن نظفر بالتشبُّث بأذيال هَديه وشمائله.

*** لفتة إيمانية:**

هذه القاعدة العظيمة قد أخلَّ بها كثيرٌ من أبناء الإسلام؛ عندما ظنُّوا أن اغتنامَ الأجور واكتسابَ الحسنات والفوزَ بفضل الله وعظيم جزائه وهباته ونفحاته إنما يكون في أيامٍ محصورةٍ من أيام العام، حتىٰ انحصرت هِمَّتُهم وجهادُهم في الطاعة ومنافستُهم في الصالحات في أيامٍ معدودةٍ من العام، فتراهم يزدحمون لياليَ أيام رمضان وخاصَّةً في العشر الأواخر، وعلىٰ الأخصِّ في ليلة السابع والعشرين منه، وفي ليلة ختم القرآن في التراويح.

وهذه ليالٍ مباركةٌ ولا شكَّ، ولكن لم يكن من هدي النبي ﷺ أن يجتهد ليلةً بعينها أو أيامًا بعينها، ويُفرِّغ نفسَه من الأعمال والشواغل لأجلها، أو يسافر للمسجد الحرام معتمرًا في ليلةٍ بعينها، وتكون الأيامُ التي قبلها وبعدها خاليةً من العبادة!

فهذا الحديثُ مُوَجَّهٌ لكلِّ مَن اجتهد يومًا من أيام السَّنة بعينه ولا يَعرف غيره؛ ممن يجتهد يوم عاشوراء، أو يوم عرفة، أو الليالي العشر الأخيرة من رمضان، أو

ليلة السابع والعشرين منه علىٰ وجه الخصوص، ثم هو في بقية أيام السنة ساهٍ منصرفٌ عن الطاعات، بل ربما فرَّطَ في الواجب وتساهل في إتيان المحرمات!!

فما هكذا تؤتَىٰ الطاعات! ولا هكذا يُنال فضل الله! بل يُنال فضلُ اللهِ ﷻ ورحمتُه بالديمومةِ علىٰ العملِ الصالح.

فليقرأ الإنسانُ يوميًا حزبًا أو رُبعَ حزبٍ دون انقطاع؛ لا في آخر الأسبوع، ولا في وسطه، ولا في أيام الصحَّة والمرض، ولا في أيام السفر والحضر، بل يحرص علىٰ وِرده هذا كلَّ يوم، وهذا أفضلُ ممن يختم القرآن في رمضان عشرَ خَتَمات، ثم يهجرُه بقية العام!!

وهذا ليس من التسابق في الصالحات في شيءٍ، ولا من اغتنام الأوقات الفاضلة، بل اغتنام الأوقات الفاضلة يكون بالنشاط والزيادة عمَّا يفعله طِيلةَ العام من العبادات والأعمال الصالحة، أمَّا أن يَهجُرَ العملَ طيلةَ العام ثم يُشَمِّر عن ساعديه في تلك الأيام فقط؛ فهذا ليس من الهدي النبوي في شيءٍ، وقُلْ مِثلَ ذلك في الصيام، وفي الصلاة، وغيرها من العبادات.

***

(صحيح) **٢٦٥ـ عَنْ عَائِشَةَ ؓ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعِنْدِي امْرَأَةٌ، فَقَالَ: «مَنْ هَذِهِ؟»، قُلْتُ: فُلَانَةُ، لا تَنَامُ اللَّيْلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلَيْكُم مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ؛ فَوَاللهِ، لا يَمَلُّ اللهُ حَتَّىٰ تَمَلُّوا»، وَكَانَ أَحَبَّ ذَلِكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي يَدُومُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ**(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥).



شرح الحديث

قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعِنْدِي امْرَأَةٌ**»، قيل: إنها من رَهط خديجةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، ومن صُوَيْحِباتها.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**فُلَانَةُ، لَا تَنَامُ اللَّيْلَ**»، أرادت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مدحَ هذه المرأة، وذِكرَها بما تَعرفها من مناقبها ومن خصال الخير فيها التي لا توجد في غيرها.

ومقصودُها: أنَّ هذه المرأة تجتهد في الطاعة حتىٰ إنها لا تنام شيئًا من الليل، بل تقضيه صلاةً ودعاءً وطاعةً، وربما كان في نظر عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّ هذا أمرٌ عظيمٌ لا يقوىٰ عليه أيُّ مسلمٍ.

قوله ﷺ: «**عَلَيْكُم مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ**»، تفاجأَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا من كلام النبي ﷺ، فإنها ذكرَتْ صاحبتَها بمدحٍ، وكانت تظنُّ أنَّ النبي ﷺ يُعْجَب بصنيعِها ولا ينتقدُها.

وفي ذلك إشارةٌ إلىٰ أنَّ المنهجَ النبويَّ في أبواب الطاعات مبنيٌّ علىٰ الديمومة والاستمرار، وذلك إنما يكون بما ينشطُ له الإنسان ويرغب فيه ويجُد قدرةً وطاقةً عليه، ولا يكون بما تدفعه إليه الحماسةُ في البدايات حتىٰ إنه ليقوم الليل كلَّه أو أكثره، تدفعه لذلك رغبةٌ مفاجئةٌ، وحماسةٌ شديدةٌ، ولكنها سَرعان ما تنطفئ بعد مدةٍ من الزمن.

والأسلوب الناجح في مثل هذا أن يُوَقِّت الإنسان لنفسه من العبادات ما يناسبه، ثم يأخذ نفسَه بالحزم علىٰ تطبيقه؛ فيحدِّد لنفسه عددًا من الركعات يصلِّيها، مع وِردٍ من القرآن يقرؤه فيه، ثم ينام وقتًا كافيًا قبله ليقدر علىٰ القيام لمثل هذا العمل العظيم، وليدرك الإنسانُ أنه يحتاج إلىٰ رياضةٍ وتمرين، وأنَّ

نفسَه ستخالفُه وتطلب الراحةَ، فيروِّضها رويدًا رويدًا، وخطوةً بعد خطوةٍ، ولا يفاجِئُها بما لا تطيقه فتطاوعُه قليلًا ثم تغلبُه نفسُه.

فليس المقصود بالإطاقة هنا: ما يطيقه الإنسان الآنَ أو اليومَ أو هذه الأيام، وإنما ما يمكن أن يُطيقَه لفترة طويلة من الزمن؛ فلا ينظر الشابُّ اليوم إلىٰ قدرته وطاقته، بل ينظر إلىٰ الطبيعة الإنسانية، وهل يمكن أن يستمرَّ علىٰ هذا العمل دائمًا، حتىٰ وإن بلغ الستِّين والسبعين؟

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ ﭬ قَالَ: أُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ يَقُولُ: لَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ وَلَأَصُومَنَّ النَّهَارَ مَا عِشْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**آنتَ الَّذِي تَقُولُ ذَلِكَ؟**»، فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ قُلْتُهُ، يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَإِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؛ فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَنَمْ وَقُمْ، وَصُم مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ**»، قَالَ: قُلْتُ: فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِن ذَلِكَ، قَالَ: «**صُمْ يَوْمًا، وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ**»، قَالَ: قُلْتُ: فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِن ذَلِكَ، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا، وَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ ﵇، وَهُوَ أَعْدَلُ الصِّيَامِ**»، قَالَ قُلْتُ: فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِن ذَلِكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لا أَفْضَلَ مِن ذَلِكَ**»، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو ﭬ: لَأَنْ أَكُونَ قَبِلْتُ الثَّلَاثَةَ الأَيَّامَ الَّتِي قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي(١).

فهذا عبد الله بن عمرو بن العاص ﭬ، شابٌّ فتيٌّ يافعٌ يشتعل حماسًا ورغبةً وإيمانًا، يريدُ الاجتهادَ في الطاعة، وكان حظُّه من الطاعة الصيامَ، فأراد أن

---

(١) أخرجه مسلم (١١٥٩).

يصوم الدهر ولا يُفطِر، فنهاه النبي ﷺ عن ذلك، وأمرَه بأقلِّ شيءٍ وهو صيام الثلاثة الأيام من كل شهرٍ، فما زال يطلب الزيادةَ حتىٰ أمره بصيام داود عليه السلام، ولم يأذن له أن يصوم أكثر من ذلك، فأخذ عبد الله بهذا، وأصبح يصوم يومًا ويُفطر يومًا، ولكنه بعدما كَبِر ندِم أنه لم يقبل بصيام الثلاثة الأيام.

وهكذا كان النبي ﷺ، لا ينظر إلىٰ حال المسلم في شبابه، وإنما ينظر إلىٰ ما يقوىٰ علىٰ الاستمرار عليه في حال كبره وضعفه، بحيث يبقىٰ المسلمُ ملازمًا لهذه الطاعة مهما طالت به الحياة.

وهذا لا يعني أنَّ الإنسان لا يستغلُّ أوقات فراغه وقدرته علىٰ المزيد؛ بل المقصود أن يُحَدِّد الإنسان لنفسه مقدارًا من العبادة والطاعة يوميًّا لا يتركها بحالٍ من الأحوال، مهما كان به من ظروفٍ وانشغالٍ وتعبٍ، ثم إن طاوعَتْه نفسُه علىٰ الزيادةِ ووجد وقتًا للزيادة في بعض الأيام فلا بأس بالزيادة والاجتهاد، ولكن يبقىٰ الوِردُ المحدَّدُ هو الأصل الذي لا يتركه مهما كانت الظروف.

قوله ﷺ: «فَوَاللهِ، لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّىٰ تَمَلُّوا»، أي إنَّ الله ـ سبحانه ـ لا يمنع خيرَه وفضلَه وإحسانَه عمَّن يقف علىٰ بابه طالبًا، ولكن المسلم يطلب من الله فيعطيه، ثم إن المسلم يملُّ من العبادة وينقطع فيحرمه الله الثواب والأجر، فالانقطاعُ والمللُ جاءَ مِن قِبَل العبد، واللهُ أكرمُ من أن يحرِم عبدَه أو أمَتَه من الفضل، وأن يغلق الأبوابَ في وجههما ما داما طالبين لرحمته وفضله.

ولا يُوصَف الله تعالىٰ بالملل ـ سبحانه وحاشاه ـ، ولكنَّ هذا علىٰ سبيل المقابلة، فنفَىٰ مقابل النفي.

ومن أهل العلم من قال: الحديث ينفي ثبوت الملل: «لا يملّ»؛ لأن قول

القائل: (لا أقوم حتىٰ تقوم) لا يستلزم قيامه(١).

قول عائشة رضي الله عنها: «**وَكَانَ أَحَبَّ ذَلِكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي يَدُومُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ**»؛ أي: لو وُجِد مسلمان؛ أحدُهما مجتهدٌ كثيرُ الخيرات والطاعات لكنه ينقطع عن هذه الأعمال، والآخرُ قليلُ الحظِّ من العمل لكنه مداومٌ عليه؛ فالثاني أفضلُ من الأول بهذا النصِّ.

***

(صحيح) ٢٦٦ـ **عَنْ أَبِي صَالِحٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ** رضي الله عنهما: **أَيُّ العَمَلِ كَانَ أَحَبَّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَتَا: «مَا دِيمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّ»**(٢).

شرح الحديث

قول أبي صالح: «**سَأَلْتُ عَائِشَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ**»، في هذه الرواية لفتةٌ إلىٰ اهتمام التابعين الذي قد مرَّ معنا كثيرًا في سؤال الصحابة عن هدي النبي ﷺ في حياته وعباداته، ولكنَّ أبا صالح هنا من حرصه الشديد لم يكتفِ بسؤال واحدةٍ من أمَّهات المؤمنين، بل لم يُشْبِع حرصَه ورغبته وحبَّه وإيمانه ولم تهدأ نفسُه إلا بسؤال اثنتين من أمّهات المؤمنين.

قوله: «**أَيُّ العَمَلِ كَانَ أَحَبَّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟**»، الرجلُ كان يعلمُ أنَّه يستطيع التقرُّبَ إلىٰ الله بأيِّ عملٍ صالح كان؛ من الاستغفار أو التسبيح أو

---

(١) ينظر: التعليق علىٰ صحيح البخاري، لابن عثيمين: (٤/ ٣١٥ـ ٣١٦)، و(١٢/ ٨٢٢ـ ٨٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٥٦)، وقال: «حسن غريب».

التصدُّق أو الصلاة أو أيِّ عملٍ كان، فكلُّها أعمالٌ تُقرِّب إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، ولكنه كان يبحث عن شيءٍ آخر، وهو الاقتداءُ بالنبي ﷺ حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة، واتِّباعُ ما كان يحبُّه ﷺ.

قولهما رضي الله عنهما: «**مَا دِيمَ عَلَيْهِ وَإِن قَلَّ**»، يتكرَّر في هذا الحديث المعنىٰ الذي دلَّ عليه الحديثان السابقان، وهو الديمومة علىٰ العمل الصالح وإن كان قليلًا، وتفضيله علىٰ العمل الكثير المنقطع.

وقد نقلتاه رضي الله عنهما من سؤاله الذي كان عن جنس العمل، إلىٰ منهج العمل؛ فلا ينبغي أن يكون الجوابُ أنَّ الصلاةَ أفضلُ من الصيام؛ فينقطع المسلم إلىٰ الصلاة، ولا يلتفت إلىٰ الأعمال الأخرىٰ، بل الكلام عن منهج العمل الصالح، وهو الديمومة والاستمرار علىٰ العمل وإن كان قليلًا.

واللفظ جاءَ عامًّا في العمل، وليس خاصًّا بباب الصيام، مع أنَّ الحديثَ واردٌ في باب الصيام، إلا أنَّه قاعدةٌ كلية يصلح لكل أبواب العبادة؛ من صلاةٍ، وصيام، وقراءة قرآن، وصدقةٍ، وبرِّ والدين، وذكرٍ، وكلِّ عمل صالح.

***

(صحيح) **٢٦٧ـ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه يَقُولُ: «كُنتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ لَيْلَةً، فَاسْتَاكَ ثُمَّ تَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَقُمْتُ مَعَهُ، فَبَدَأَ فَاسْتَفْتَحَ البَقَرَةَ، فَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ فَمَكَثَ رَاكِعًا بِقَدْرِ قِيَامِهِ، وَيَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ وَالمَلَكُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ، ثُمَّ سَجَدَ بِقَدْرِ رُكُوعِهِ، وَيَقُولُ فِي سُجُودِهِ: سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ وَالمَلَكُوتِ**

وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ، ثُمَّ قَرَأَ آلَ عِمْرَانَ، ثُمَّ سُورَةً سُورَةً يَفعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ»(١).

شرح الحديث

ظاهر هذا الحديث أنَّه لا علاقة له بهذا الباب، وهو باب ما جاء في صوم رسول الله ﷺ، وإنما هو أَلْيَقُ وألصقُ بالباب السابق الذي هو باب ما جاء في صلاة رسول الله ﷺ؛ لأنَّ الحديثَ يصِفُ هديَ النبي ﷺ في صلاته.

قول عوف بن مالك رضي الله عنه: «**كُنتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ لَيْلَةً**»، فوصفَ ما رآهُ بعينه في تلك الليلة.

قوله رضي الله عنه: «**فَاسْتَاكَ ثُمَّ تَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي**»، وهذه سُنَّةٌ مأثورةٌ قولًا وفعلًا عن النبي ﷺ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَىٰ أُمَّتِي ـ أَوْ عَلَىٰ النَّاسِ ـ لَأَمَرْتُهُم بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلاةٍ**»(٢)، وفي رواية: «**لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَىٰ أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُم بِالسِّوَاكِ عِندَ كُلِّ وُضُوءٍ**»(٣).

فالسِّواكُ قُبيل الصلوات المفروضة والمسنونة سُنَّةٌ نبويةٌ.

قوله رضي الله عنه: «**فَبَدَأَ فَاسْتَفْتَحَ البَقَرَةَ، فَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ**»، في سورةِ البقرةِ من الطولِ ما يكفي لأن يكونَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١١٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢).

(٣) علَّقه البخاري في صحيحه (٣/ ٣١)، ووصله النسائي في الكبرىٰ (٣٠٢١).

القيامُ طويلًا؛ فكيف إذا تخلَّلها الوقوفُ المتتابعُ بعدَ كل آيةٍ فيها رحمة أو فيها عذاب؟ كم سيبلغُ طولُ القيامِ إذن؟ سيكونُ مضاعفًا ولا شكَّ، وكما وُصِفَ في حديثٍ سابق أنَّ السورةَ تكون أطولَ من أطولَ منها.

فليس المقصود من القراءة مجرَّد السَّرْد والرغبة في إنهاء السورة، بل المقصود العيشُ مع القرآن، والتدبُّر لما يقرأه القارئ.

ولا يصل إلىٰ هذا المنهج في القراءة أحدٌ من القُرَّاء إلا وأقبل علىٰ القرآن يتصفَّحه آيةً آيةً، ويعرضها علىٰ قلبه، فإن وجد فيها من الرحمة أراد الاغتراف من فضل الله وسأله إياه، وإن وجد فيها عذابًا توقَّف عندها واستعاذ الله من هذا العذاب، ومَن كان هذا منهجُه لا يملُّ من قراءة القرآن، ولا يُسْرِع فيه، ولا يرغب في إنهاء حزبٍ أو سورة، ولا بحثٍ عن ركوعٍ ينتهي به قيامُه.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ثُمَّ رَكَعَ فَمَكَثَ رَاكِعًا بِقَدْرِ قِيَامِهِ**»، وهذا ركوع المتلذِّذين بالقيام، المستمتعين بالركوع، الذي لا يجد لألِم ظهره في الركوع إلا لذةً مُضاعفةً، ثم هو لا ينتقل من ركُنٍ إلىٰ ركُنٍ إلا ويجد فيه لذَّةً لم يجدها في الركن السابق؛ فيتلذَّذ بالقراءة، ثم يتلذَّذ بالتسبيح والتنزيه لربِّه الكبير المتعال.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَيَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ وَالمَلَكُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ**»، كان ﷺ ينوِّعُ في تسبيحهِ لربِّه، ويتلذَّذ بالصِّيَغ المتنوِّعة التي يُعَبِّر فيها عن تعظيمه وتنزيهه لربِّه، ويُكثِر في ركوعه من تلك العبارات التي تنضحُ تسبيحًا للربِّ وتمجيدًا ووصفًا بأوصاف العَظَمة.

والـمَلَكوتُ: الـمُلك الواسعُ الذي لا مُنتهَىٰ له.

والجَبَروتُ: إما من الجَبْر الذي بمعنىٰ: الجبَّار الذي يَقصِمُ ظهور الجبابرة. أو من الـجَبر الذي يَجبُر به كسرَ قلوبِ عباده المنكسِرة.

وذي العَظَمة: أي: صاحبُ العَظَمة التي لا يُوزايها عظمةُ شيءٍ علىٰ وجه الأرض ولا في السماء.

ووصفُه بذي العَظَمة وذي الكبرياء هو من وصفه تعالىٰ بالأوصاف التي استأثر الله بها.

وقد جاءت السُّنَن النبوية بأدعيةٍ أخرىٰ في مقام الركوع؛ يختار الإنسانُ منها ما يحفظه، وما يُنوِّع به تنزيهَه وتعظيمَه للربِّ تعالىٰ.

ومن المهمِّ في هذا المقام التفكُّر في معاني تلك الألفاظ وتفهُّمها، ولا يكون المقصد من ذلك هو سَرد تلك الألفاظ عددًا من المرَّات دون تدبُّرٍ لها؛ فإنَّ الإنسان لو فعل ذلك لأصابه الملل والتعب سريعًا، وإنما يستطيع المسلم أن يُطيلَ ركوعَه وسجودَه إذا نطق بتلك الألفاظ والتسبيحات متأمِّلًا لها، متدبِّرًا لمعناها.

قوله رضي الله عنه: «ثُمَّ سَجَدَ بِقَدْرِ رُكُوعِهِ»، فيجد في السجود من الـمُتعة ما لم يجده فيما سبق؛ إذ إنه أقربُ موضعٍ للعبد من ربِّه سبحانه، وهكذا المتلذِّذ بسجوده يُطيل السجودَ، وكلما دعته نفسُه إلىٰ أن يرفع رأسه أبَىٰ ذلك؛ لشدَّةِ ما يجده من الاستمتاع بهذا السجود والقُرب من الله سبحانه؛ فينثرُ الدعوات، ويُخرج ما في

صَدره من التأوُّهات، ويتوسَّل إلىٰ الله في طلب الحاجات، ويَطرُقُ تلك الأبواب ويُلِحُّ، ويتذكَّر أمر دنياه وأُخراه، ويسأل حاجتَه وحاجةَ أهل بيته وزوجه وأبنائه ووالديه، ولا ينسىٰ الأموات من دعواته.

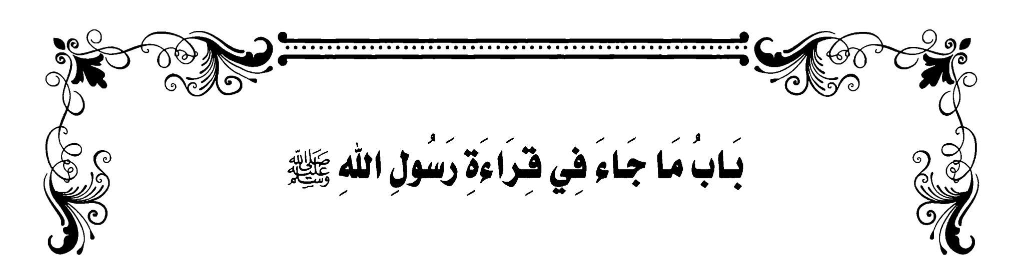
ثم إنَّه يَشعر بالشرف في ذلك المقام؛ حيث كرَّمه الله وشرَّفه بأن وفَّقه للقيام في تلك الساعات، بينما كثيرٌ من الناس يَغُطُّون في نومهم، أو يُهدِرون هذه الأوقات الشريفة في غفلةٍ وإهمال.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**ثُمَّ قَرَأَ آلَ عِمْرَانَ**»؛ يعني: في الركعة الأخرىٰ.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**ثُمَّ سُورَةً سُورَةً يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ**»؛ أي: ينتهج النهجَ نفسَه في كلِّ سورةٍ وركعةٍ.

وهذا الحديث يدلُّ علىٰ ما دلَّت عليه الأحاديث التي وردت في باب صلاة النبي ﷺ، من طول صلاةِ رسول الله ﷺ في قيام الليل.

** ** **



بَابُ مَا جَاءَ فِي قِرَاءَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

يعني: قراءتُه ﷺ القرآنَ.

وقد تدرَّج الإمامُ الترمذيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فبدأ بذِكر باب الصلاة، ثم ذِكر باب الصيام، ثم باب قراءة القرآن.

والمقصودُ في هذا الباب: ذكرُ الرواياتِ التي تصفُ قراءةَ رسولِ الله ﷺ للقرآن؛ في الصلاةِ وخارجَ الصلاة، وكيف كان مدُّه في القراءة؟ وكيف كان تأنِّيه وتمهُّلُه؟ وكيف كان تَحسينُه للصوت في قراءةِ القرآن؟

***

(ضعيف) ٢٦٨ـ **عَن يَعْلَىٰ بْنِ مُمَلَّكٍ: «أَنَّهُ سَأَلَ أُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ اللهِ فَإِذَا هِيَ تَنْعَتُ قِرَاءَةً مُفَسَّرَةً حَرْفًا حَرْفًا»**(١).



شرح الحديث

الحديث وإن كانَ ضعيفَ السندِ إلا أنَّ لمعناه شواهدَ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٥٢٦)، وأبو داود (١٤٦٦)، والترمذي (٢٩٢٣)، والنسائي (١٠٢٢)، وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب».

قول يعلىٰ بن مُمَلَّك: «أَنَّهُ سَأَلَ أُمَّ سَلَمَةَ عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ اللهِ»؛ أي: كيف كانت قراءتُه للقرآن؟

وهذا السؤال المتكرِّر من التابعين للصحابة عن سُننِ رسولِ الله ﷺ يُبيِّن الهمّ الأكبر الذي كان يعيشُه التابعون، وما ينبغي لنا أن نرِثه من شأنهم، وهو حُبُّ الاقتداء بهدي النبي ﷺ في كل شؤونهم وأحوالهم.

ومتىٰ ما كان المسلم قد حضرَ في قلبه وحياته هذا الاهتمامُ فليبشر بالاستقامة العريضة علىٰ السُّنَّة النبوية.

قوله: «فَإِذَا هِيَ تَنْعَتُ قِرَاءَةً مُفَسَّرَةً حَرْفًا حَرْفًا»؛ تَنعَتُ: أي تَصِفُ.

والمراد بالقراءةِ المفسَّرةِ حرفًا حرفًا: أنه كان يقرأ بتُؤَدَةٍ وتمهُّلٍ وتَرَوٍّ، فلا يتعجَّل ولا يُهَذرِمُ ولا يقرأُ قراءةً تتداخل فيها الكلمات وتتآكلُ فيها الحروف، فإذا سمع سامعٌ كلماتِ القرآن من فيه ﷺ سَمعها واضحةً بحروفها، غير مختلِطة.

فليكن هذا منهجَ المسلمِ في قراءة القرآن؛ بترتيلٍ وتأنٍّ وتُؤَدَةٍ، لا هذًّا كهذِّ الشِّعر.

***

(صحيح) ٢٦٩ـ **عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «قُلْتُ لِأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ رَسُولِ اللهِ؟»، قَالَ: «مَدًّا»**(١).

---

(١) أخرجه أحمد (١٢١٩٨)، والنسائي (١٠١٤).

شرح الحديث

قول قتادة: «**قُلْتُ لِأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ رَسُولِ اللهِ؟**»، وهذا يؤكِّد ما سبق؛ أنَّ السؤال لم يكن من تابعيٍّ واحدٍ فقط، وإنما من عددٍ من التابعين، يتوجَّهون إلىٰ الصحابة بالسؤال عن كيفية قراءة رسول الله ﷺ، وعن منهجه في عبادته بشكل عامٍّ، مما يدلُّ علىٰ أنَّ الرغبة في معرفة هدي النبي ﷺ كان همًّا مشتركًا في قلوب التابعين أجمعين.

قول أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**مَدًّا**»؛ أي: يمُدُّ مدًّا.

والمقصود بالمَدِّ: إيفاءُ الحروف حقَّها من المدِّ، وهذا وصفٌ آخرُ غير الوصف الذي ذُكِر في الحديث الأوّل، ولكنه يعني أيضًا: أنه لم يكن مستعجِلًا راغبًا في إنهاء القراءة.

***

(صحيح) **٢٧٠ ـ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ** رَضِيَ اللهُ عَنْهَا **قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ، يَقُولُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثُمَّ يَقِفُ، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثُمَّ يَقِفُ، وَكَانَ يَقْرَأُ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾**»(١).

شرح الحديث

قول أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**كَانَ النَّبِيُّ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ**»؛ أي: يفصلُ الآياتِ بعضَها عن بعض، فالسُّنَّة الثابتة أنه يقرأ آيةً ثم يسكت، ثم يقرأ آيةً ثم يسكت، ولا يَصِلُ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٥٨٣)، وأبو داود (٤٠٠١)، والترمذي (٢٩٢٧)، وقال: «غريب».

آياتِ السورة بعضَها ببعضٍ.

ولهذا يقول القُرَّاء: إنَّ الوقف علىٰ رأس كلِّ آيةٍ في القرآن سُنَّةٌ، تَمَّ المعنىٰ أم لم يَتِمّ.

ولا يُحتاج في إتمام المعنىٰ إلىٰ وصل الآيات، بل يقرأ القارئ مثلًا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤]، ثم يقف لأنها رأس آية، والوقف علىٰ رأس الآية سُنَّة، ثم يقرأ: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥]، وبالآية الثانية يتمُّ المعنىٰ ويزول الإشكال، ولا حاجةَ إلىٰ وصل الآيات حتىٰ يزول الإشكال.

فهذا الهديُ هو الذي ينبغي فعلُه في القراءة وفي الصلوات.

قولها رضي الله عنها: «**يَقُولُ:** ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **ثُمَّ يَقِفُ، ثُمَّ يَقُولُ:** ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ **ثُمَّ يَقِفُ**»، هذا شرحٌ لقولها السابق، وتأكيدٌ علىٰ أنَّ فصلَ آيات الفاتحة عن بعضها وتقطيعَها سُنّةٌ نبويةٌ.

ويدلُّ علىٰ ذلك الحديث القدسي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ:** ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي** ـ وَقَالَ مَرَّةً: **فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي** ـ، **فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»(١).

فإذا سمعتَ هذا الحديث وعرفتَه زادك تعظيمًا لهذه السُّنَّة واستمساكًا بها.

والله، لو استشعرت هذا الخطابَ الإلهيَّ وأنت تقرأ الفاتحة لاستَحْيَيْتَ أن تُسرعَ في قراءتك، أو أن تصلَ الآيات ببعضها رغبةً في الانصراف والانتهاء من القراءة.

قولها ﵂: «**وَكَانَ يَقْرَأُ**: ﴿مَلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾»، هذه قراءةٌ ثابتةٌ، وهي إحدىٰ القراءتين الصحيحتين في الآية، والقراءة الأخرىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، وقد صَحَّت القراءتان عن النبي ﷺ.

***

(صحيح) ٢٧١ـ **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي قَيْسٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ** ﵂ **عَن قِرَاءَةِ النَّبِيِّ؛ أَكَانَ يُسِرُّ بِالقِرَاءَةِ أَمْ يَجْهَرُ؟ قَالَتْ: «كُلُّ ذَلِكَ قَدْ كَانَ يَفْعَلُ؛ قَدْ كَانَ رُبَّمَا أَسَرَّ، وَرُبَّمَا جَهَرَ»، فَقُلْتُ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي الأَمْرِ سَعَةً**(٢).

شرح الحديث

قول عبد الله بن أبي قيس: «سَأَلْتُ عَائِشَةَ ﵂ **عَن قِرَاءَةِ النَّبِيِّ؛ أَكَانَ يُسِرُّ بِالقِرَاءَةِ أَمْ يَجْهَرُ؟»**، هذا سؤالٌ عن سُنَّةٍ أخرىٰ مِن سُنَنِ القراءةِ، وهو الإسرارُ والجهرُ بالقراءة.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٤٥٣)، وأبو داود (١٤٣٧)، والترمذي (٢٩٢٤) وقال: «حسن غريب».

والمقصودُ بالسؤالِ هنا: القراءةُ في صلاةِ الليل إذا صلّىٰ ﷺ، أكان يُسِرُّ فيها أم يجهر؟

قول عائشة رضي الله عنها: «كُلُّ ذَلِكَ قَدْ كَانَ يَفْعَلُ؛ قَدْ كَانَ رُبَّمَا أَسَرَّ، وَرُبَّمَا جَهَرَ»؛ المقصود بالجهر هنا: إسماعُ القريب؛ فمَن صلّىٰ صلاةَ ليلٍ نافلةً ولو كان وحدَه فجَهرُه بالقراءةِ: إسماعُ نفسِه والقريبِ منه، والإسرارُ: أن يُخافِت بقراءته فلا يسمعَ حتىٰ القريب، والذي يخبر بهذا الخبر هو عائشة رضي الله عنها، التي كانت تنام معه في الحُجرة نفسِها؛ فتارةً تسمعُه، وتارةً لا تسمعُه ويغيبُ عنها ما يقرأ.

قول عبد الله بن أبي قيس: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي الأَمْرِ سَعَةً»؛ أي: سواءٌ كان المصلّي في قيام الليل يُسِرُّ أو يَجهرُ فقد أصاب السُّنَّة.

***

(صحيح) **٢٧٢ـ عَنْ أُمِّ هَانِئٍ رضي الله عنها قَالَتْ: «كُنتُ أَسْمَعُ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ بِاللَّيْلِ وَأَنَا عَلَىٰ عَرِيشِي»**[(١)].

شرح الحديث

(عَنْ أُمِّ هَانِئٍ): هي أمُّ هانئٍ بنتُ أبي طالب، ابنةُ عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ، وأختُ أميرِ المؤمنين عليٍّ رضي الله عنهما.

قول أمّ هانئ رضي الله عنها: «كُنتُ أَسْمَعُ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ بِاللَّيْلِ وَأَنَا عَلَىٰ عَرِيشِي»؛ العَريشُ: السريرُ والفِراشُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٣٨٢)، وابن ماجه (١٣٤٩)، والنسائي (١٠١٣).

تقصد: أنَّها كانت تسمع قراءةَ النبي ﷺ وهو يصلّي بالليل، وهي في بيتها علىٰ فراشها، أي: أنه كان يَجهرُ حتىٰ يبلغ صوتُه بيتَ أمِّ هانئ فتسمعه.

وعامةُ شُرَّاحِ الحديث يرون أنَّ هذا في صلاته بالليل بمكةَ قبل الهجرة ﷺ، وقد كانت صلاةُ الليلِ آنذاك واجبةً قبل أن تُفرَض الصلاةُ المفروضة، وكانت دارُ أمِّ هانئ قريبةً من داره.

أو ربما كانت صلاتُه عند الكعبة، وبيتُها قريبٌ من الكعبة، وإنما كان ذلك لأنَّ الليل وقتٌ تهدأ فيه الأصوات، وتَقِلُّ فيه الضوضاء، وينامُ الناس، فيسعُ السامعَ أن يسمعَ قِرَاءةَ المترنِّمِ بالقرآن.

وفي الحديثِ إثباتُ الجهرِ بقراءة صلاة الليل، وسبق في حديثِ عائشة رضي الله عنها الجمعُ بين الوصفين: الإسرارُ والجهرُ في القراءة.

***

(صحيح) **٢٧٣ـ عَن مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ قال: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُغَفَّلٍ رضي الله عنه يَقُولُ: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ عَلَىٰ نَاقَتِهِ يَوْمَ الفَتْحِ وَهُوَ يَقْرَأُ:** ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١ ـ ٢]، **قَالَ: فَقَرَأَ وَرَجَّعَ»، قَالَ: وَقَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ قُرَّةَ: لَوْلَا أَن يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَيَّ لَأَخَذْتُ لَكُمْ فِي ذَلِكَ الصَّوْتِ، أَوْ قَالَ: اللَّحْنِ**[1].


شرح الحديث

قول عبد الله بن مُغفَّل رضي الله عنه: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ عَلَىٰ نَاقَتِهِ يَوْمَ الفَتْحِ وَهُوَ يَقْرَأُ:

---
(١) أخرجه البخاري (٧٥٤٠).

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١ ـ ٢]»، هذه الآيات هي مَطلَعُ سورة الفتح، وقد نزلت عليه يومَ الحديبية سنةَ ستٍّ من الهجرة، فقرأها ﷺ يوم فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة.

أي: يقرأها ويتأوّل وعدَ الله له بالفتح لَمَّا قرَّت عينُه بفتح مكة، واثقًا بوعد الله الذي وعده إياه قبل سنتين، مستشعِرًا فضلَ الله، فرِحًا بنعمة الفتح التي دخلت فيها مكّةُ بلدُ الله الحرام هذا الدين.

قوله رضي الله عنه: «**فَقَرَأَ وَرَجَّعَ**»، يَروي لونَ القراءة التي سمعها من رسول الله ﷺ وهو يقرأ سورةَ الفتح.

ورجَّع: يعني: قطَّع صوتَه بالقراءة، وهو يمدُّ ما فيها من حروف المدِّ.

والمقصود بذلك: أنَّ الترجيعَ نوعٌ مِن اللحن والتطريب، وترجيعُ القراءة بمعنىٰ: مدّ الصوت وترديده، والترجيعُ يفعله القُرَّاء والمؤذِّنون ومَن منَّ الله عز وجل عليهم بحُسن الصوت؛ فإنَّ الصوت يعتريه عند تَلحينه وتَطريبه شيءٌ مِن تقطيع الصوت أثناء مدِّه ورفع الصوت به.

وفي الحديث بيانٌ لاهتمام الصحابة بكلِّ ما كان يفعله النبي ﷺ، كما في هذا المقام من حكاية طريقة تَلحينه وتَرجيعِه القرآن، وهذا من تمام أمانة الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ، والتي حملها عنهم التابعون، وبقي علينا أن نحملها كما حملها أولئك.

وقد ذهب بعضُ شُرَّاح الحديث إلىٰ أنَّ هذا الترجيعَ من النبي ﷺ إنما كان يحصل له بسبب ركوبه الناقة؛ حيث إنَّ الناقةَ إذا تحرَّكت فإنَّ راكبَها يهتزُّ بدنُه اهتزازًا ناشئًا عن تحرُّك الناقة، فينشأ عن ذلك أيضًا تقطيعُ الصوت إذا كان يقرأ.

قول معاوية بن قُرَّة: «لَوْلَا أَن يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَيَّ لَأَخَذْتُ لَكُمْ فِي ذَلِكَ الصَّوْتِ»؛ أي: لولا خوفي أن يجتمع الناس حولي لحكيتُ لكم كيف كان النبي ﷺ يُرَجِّع صوتَه.

ومعاوية بن قُرَّة إنما سمع ذلك الترجيع من عبد الله بن مُغفَّل رضي الله عنه، فالمعنىٰ: أنَّ عبد الله بن مُغفَّل رضي الله عنه لـمَّا حكىٰ الحديثَ حاكىٰ لهم قراءةَ النبي ﷺ بالترجيع، فمدَّ صوتَه وقطَّعه، فلمَّا روىٰ معاويةُ بنُ قُرَّة هذا الحديثَ أراد أن يحكي لهم ما سمعه من عبد الله بن مُغفَّل رضي الله عنه.

وفي صحيح البخاري أنه قيل لمعاوية رضي الله عنه: «كَيْفَ كَانَ تَرْجِيعُهُ؟»، قَالَ: «آ آ آ ـ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»؛ أي: يمدُّ صوتَه بالألف.

وحكاية الترجيع ليس من شأنها أن تُكْتَبَ، فإنها لا تدلُّ علىٰ المعنىٰ المقصود، ولكن شأنها أن تُحْكَىٰ لفظًا.

***

(ضعيف) ٢٧٤ـ عَن قَتَادَةَ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا حَسَنَ الوَجْهِ حَسَنَ الصَّوْتِ، وَكَانَ نَبِيُّكُمْ حَسَنَ الوَجْهِ حَسَنَ الصَّوْتِ، وَكَانَ لَا يُرَجِّعُ».

شرح الحديث

(عَن قَتَادَةَ) حديثُ قتادة مُرسَلٌ؛ لأنه تابعيٌّ، ولم يُسند الروايةَ إلىٰ صحابيٍّ عن رسول الله ﷺ؛ فالحديثُ ضعيفٌ السند بهذا الوجه.

وضعيفٌ أيضًا من وجهٍ آخر، وهو أنَّ أحدَ رواته في الإسناد هو حُسام بن مِصَكٍّ، يقول فيه الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «ضعيفٌ يكاد يُترك»(١).

قول قتادة: «**كَانَ نَبِيُّكُمْ حَسَنَ الوَجْهِ حَسَنَ الصَّوْتِ**»، هذا ثابتٌ بالروايات الصحيحة التي تغني عن هذه الرواية الضعيفة التي لا تثبت سندًا.

قوله: «**وَكَانَ لَا يُرَجِّعُ**»، هذا منافٍ ومناقضٌ لما أثبته حديثُ عبد الله بن مُغفَّل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ السابق، وهو حديثٌ ضعيفٌ كما عرفت، فلا يعارض الحديث الصحيح الذي أثبت الترجيع.

***

(حسن) **٢٧٥ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ رُبَّمَا يَسْمَعُهَا مَن فِي الحُجْرَةِ وَهُوَ فِي البَيْتِ»**(٢).

شرح الحديث

هذا الحديث مُشابِهٌ في مضمونه لما تقدّم من الأحاديث السابقة التي دلَّت علىٰ أنَّه ﷺ ربما كان يَجهر أحيانًا في قراءته في صلاة الليل، حتىٰ يسمعه السامعُ داخل الحجرة، أي: يسمعه من يبعد عنه قليلًا، أو يفصل بينه وبينه جدارٌ؛ فليس الصوتُ صوتًا شديدَ الارتفاع المزعج، وليس بالصوت الخافت، وإنما هو بين ذلك.

---

(١) تقريب التهذيب (١١٩٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٤٦)، وأبو داود (١٣٢٧).



بَابُ مَا جَاءَ فِي بُكَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

هذا بابٌ يصف عبادةً أخرىٰ مِن عبادات رسول الله ﷺ، وهي البكاءُ من خشية الله، كما أنَّه قد يكون لسبب آخر، فهذا البكاء يحكي بعض المواقف العجيبة التي حصلت في حياته ﷺ، وكانت سببًا في بكائه.

والبكاءُ يدل علىٰ رِقّة القلب، وهو لونٌ لطيفٌ مِن المشاعر يعتري الفؤادَ فينتفض عنه البدنُ وتدمع العينُ، وهو لونٌ عاطفيٌ بشريٌّ عاشه رسولنا ﷺ؛ لأنَّ الله بعثه بشرًا رسولًا، فكان يبكي ﷺ كما كان يضحك، وكان يحزن كما كان يفرح.

وهنا ستأتي الروايات التي تدلُّ علىٰ لون عظيمٍ من عبادته، وإخباته، ورقّة فؤاده وقلبه.

يقول ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا بُكاؤه ﷺ فكان مِن جِنسِ ضَحِكِهِ، لَمْ يَكُن بِشَهِيقٍ وَرَفْعِ صَوْتٍ، كَمَا لَمْ يَكُن ضَحِكُهُ بِقَهْقَهَةٍ، وَلَكِن كَانَت تَدْمَعُ عَيْنَاهُ حَتَّىٰ تَهْمُلَا، وَيُسْمَعُ لِصَدْرِهِ أَزِيزٌ.

وَكَانَ بُكَاؤُهُ تَارَةً رَحْمَةً لِلْمَيِّتِ، وَتَارَةً خَوْفًا عَلَىٰ أُمَّتِهِ وَشَفَقَةً عَلَيْهَا، وَتَارَةً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَتَارَةً عِندَ سَمَاعِ القُرْآنِ، وَهُوَ بُكَاءُ اشْتِيَاقٍ وَمَحَبَّةٍ وَإِجْلَالٍ مُصَاحِبٌ لِلْخَوْفِ وَالخَشْيَةِ.

وَلَمَّا مَاتَ ابْنُهُ إبراهيم دَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَبَكَىٰ رَحْمَةً لَهُ، وَقَالَ: «**تَدْمَعُ العَيْنُ وَيَحْزَنُ القَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»(١)، وَبَكَىٰ لَمَّا شَاهَدَ إِحْدَىٰ بَنَاتِهِ وَنَفْسُهَا تَفِيضُ(٢)، وَبَكَىٰ لَمَّا قَرَأَ عَلَيْهِ ابْنُ مَسْعُودٍ سُورَةَ النِّسَاءِ وَانتَهَىٰ فِيهَا إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١](٣)، وَبَكَىٰ لَمَّا مَاتَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ(٤)، وَبَكَىٰ لَمَّا كَسَفَتِ الشَّمْسُ وَصَلَّىٰ صَلَاةَ الكُسُوفِ وَجَعَلَ يَبْكِي فِي صَلَاتِهِ، وَجَعَلَ يَنْفُخُ وَيَقُولُ: «**رَبِّ أَلَمْ تَعِدْنِي أَلَّا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ، وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُكَ**»(٥)، وَبَكَىٰ لَمَّا جَلَسَ عَلَىٰ قَبْرِ إِحْدَىٰ بَنَاتِهِ(٦)، وَكَانَ يَبْكِي أَحْيَانًا فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ(٧)»(٨).

ففي هذا الباب سنقف علىٰ نوعٍ من أنواع عبادته ﷺ لربه، وهديه فيه، يقترب فيه المسلم من عواطف نبيّه ومشاعر قلبه ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٧٥، ٢١٧٧٩)، وسيأتي عند المصنف برقم (٢٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠)، وسيأتي برقم (٢٧٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٩٨٩) وقال: «حسن صحيح»، وسيأتي برقم (٢٨٠).

(٥) أخرجه ابن خزيمة (١٣٨٩، ١٣٩٢)، وأصله في البخاري (١٠٥١)، ومسلم (٩١٠)، وسيأتي برقم (٢٧٨).

(٦) أخرجه البخاري (١٢٨٥، ١٣٤٢)، وسيأتي برقم (٢٨١).

(٧) أخرجه أحمد (١٦٣١٧)، والنسائي (١٢١٤)، من حديث عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه، وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٤٦١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وسيأتي برقم (٢٧٦).

(٨) زاد المعاد (١/ ١٧٦).

في هذا الباب سيعرف المسلم أنَّه قد أراق كثيرًا من دموع عينيه فيما لا يستحقّ، كما أنَّه فقد كثيرًا من البكاء في حياته فيما يستحقُّ؛ في مواضع خشية الله، وحالات الفرح والنصر من عند الله.

في هذا الباب نهذِّب عواطفَنا ومشاعرَنا وأحاسيسَنا، ونوطِّنها علىٰ الاقتداء بهدي رسول الله ﷺ، ونقتفي السُّنَن حتىٰ في بكائنا عندما نحزن، وعندما نرحم، وعندما نخاف ونخشىٰ الله، وعند فراق الأحبة؛ من أجل أن لا ننساق لعواطف وأهواءٍ بشريةٍ متجرّدة.

في هذا الباب نقود النفوسَ نحو بابٍ آخر من الاتِّباع، بعيدًا عما يظنه الناسُ اتِّباعًا صريحًا للعبادات، فإنك كما تعبد ربَّك وتتبع سُنَّةَ نبيِّك ﷺ في وضوئك وصلاتك وصومك، وطوافك وسعيك وحَجّك وعمرتك، وفي كل العبادات الصريحة؛ فإنك أيضًا تتقرَّب إلىٰ الله وتتَّبع سُنَّة رسول الله ﷺ في أحاسيس القلب ومشاعر الفؤاد، وفي الضحك والبكاء.

إنَّ كلَّ بكاءٍ مِن خوفٍ يعقُبُه حُرقةُ قلبٍ وإنهاكُ بدنٍ، إلا البكاءَ من خشية الله، فإنه يُورِثُ ارتياحًا عجيبًا، ونعيمًا ولذّةً وسرورًا!!

كلُّنا بشرٌ؛ نبكي ونَدمعُ، ولكن شتَّان بين مَن يبكي بأغلىٰ دمعٍ وأنفسِه خشيةً من الله، وبين من بَذلَ دمعَ عينيه رخيصًا لفوات حظٍّ، أو فِراقِ عشيقٍ، أو هيامًا في محبوب!!

***

(صحيح) ٢٧٦ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المِرْجَلِ مِنَ البُكَاءِ»(١).



شرح الحديث

المِرْجَل: القِدرُ العظيمةُ.

وأزيزُ القِدر: فَورانُ وغَلَيانُ ما فيها من ماءٍ وطعامٍ أثناء الطبخِ والقِدرُ علىٰ النار، فالمقصود بالأَزِيز: ما يُسمَع من هذه القِدر عند طَهْوِ الطعام، حتىٰ إنَّ غِطاءَ القِدر ليتحرّك أحيانًا بسبب الفَوران والغَلَيان، ويكون في القِدرِ حركةٌ واضطرابٌ يُحْدِثان هذا الصوت.

والمقصودُ أنَّ بكاءَ رسول الله ﷺ في صلاته وقراءته ودعائه لم يكن صياحًا ولا شهيقًا، ولا رفعًا للصوت بالبكاء، ولا ندبًا ولا لطمًا، وإنما كان بكاؤه ﷺ ـ الذي هو أعظم الأمَّة خشيةً لربّه وأصدقهم بكاءً خوفًا من الله ـ إذا ملأ صدرَه ﷺ أن يهتزَّ ويضطرب صدرُه، فيُسمَع له أَزيزٌ كأَزيز الـمِرْجَل.

*** لفتة إيمانية:**

الخوفُ من الله قاعدةٌ عظيمةٌ مِن قواعد العبودية، وأساسٌ متينٌ من أُسُسها الراسخة، فلن يَعرف عبدٌ حقَّ الله ﷻ إلا إذا زَرع في قلبه مقامَ الخوف من الله كما يَزرع في قلبه تمامًا مقامَ الحُبِّ لله، وكما يَزرع أيضًا مقامَ الرجاء، وهذه الثلاثة هي قاعدةُ العبودية العظيمة: الحبُّ والخوفُ والرجاءُ.

(١) أخرجه أحمد (١٦٣١٧)، والنسائي (١٢١٤).

والخوفُ من الله لا يكون ممن هو كثيرُ الذنوب والسيئات والمعاصي فقط، فقد كان النبي ﷺ أشدَّ الناس خوفًا من الله، هذا مع أنه قد غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر؛ فالخوفُ من الله يكون من جَبَروته ونِقمته وسَطوته، ومهما بلغ الإنسانُ من العمل الصالح فلا يجوز له أن يَأمنَ من عذاب الله.

والخوفُ من الله عندما يَعمُرُ القلوبَ فإنّ القلوب تكتسب طمأنينةً ورِقّةً، وتفتح الطريقَ أمام العيون لتَذرِف دَمعَها، وهذا الدمعُ يكون شاهدًا للإنسان عند الله؛ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»(١).

ومن السّبعة الذين يُظِلُّهم الله في ظِلّه يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: «**وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»(٢).

وهذه هي حياةُ القلوب؛ أن يعيشَ القلبُ معمورًا بخوفٍ من الله، لأجل ذلك تجدُ الصالحين من أشدِّ الناس بكاءً لما عرفوا من مقام ربّهم، لا أن يعيش الإنسان في غفلةٍ، يُخرجه الشيطان من حُفرةٍ ليوقعه في حُفرةٍ أخرىٰ، ويَنقُلُه من معصيةٍ إلىٰ أخرىٰ أكبر منها، فإنَّ القلبَ إذا فارقه خوفُ الله فَسدَ وأَظلَم، وإذا أظلَم استسهلَ المعاصي واستثقلَ الطاعة وبَعُدَ عن الله ﷻ، وعند ذاك لا يُؤمَن عليه سوءُ الخاتمة.

وعند قراءة المسلم هذا الحديث يسأل نفسَه: كم مرّةً بكىٰ في قراءته في

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٣٩)، وقال: «حسن غريب».

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

الصلاة؟ أليس هو بأحوج للبكاء من النبي ﷺ ومن العُبَّاد والصالحين؟ فكلُّنا مُقصِّرٌ ومُفرِّطٌ، نستحقُّ أن نلومَ أنفسَنا وأن نبكيَ علىٰ أخطائنا ومعاصينا.

***

(صحيح) ٢٧٧ـ **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنزِلَ؟ قَالَ: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّىٰ بَلَغْتُ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾** [النساء: ٤١]، **قَالَ: فَرَأَيْتُ عَيْنَيْ رَسُولِ اللهِ تَهْمِلَانِ**(١).

شرح الحديث

قول ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنزِلَ؟»، قال ذلك تعجُّبًا؛ إذ قد نزل القرآنُ علىٰ النبي ﷺ ببلاغِ أمينِ الوحي جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأنَّىٰ تبلغ قراءتُه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قراءتَهما؟

قوله ﷺ: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، لقد أُنزل القرآنُ علىٰ النبي ﷺ، وجمع الله له القرآنَ في قلبه؛ فقال له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٧]، وقال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ: ٦]، ومع ذلك فقد كان ﷺ يُحبُّ سماعَ القرآن من غيره.

ففي الحديث استحبابُ سماع المسلمِ قراءةَ القرآن من غيره، وهذه سُنَّةٌ عجيبةٌ سَنَّها النبي ﷺ في تعامُل المسلم مع القرآن، فإنَّ المسلمَ وإن كان من

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠).

الحُفَّاظ والقُرَّاء إلا أنَّ استماعَ القرآن له خاصِّيَّةٌ؛ إذ يتفرَّغ القلبُ للسماع والتدبُّر، فيما أنَّ القارئ لا بدَّ وأن ينصرف شيءٌ من جُهدِه وانشغال فِكره إلىٰ القراءة واستحضار لفظ الآية وما يتعلَّق بذلك.

فكما أنَّ قراءةَ القرآن عبادةٌ فسماعُ القرآن أيضًا عبادةٌ، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وفي ذلك دلالةٌ علىٰ أنَّ رحمةَ الله في أحد طُرُق تحصيلها ونَيْلها تكون بالاستماع للقرآن.

قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّىٰ بَلَغْتُ:** ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾، **قَالَ: فَرَأَيْتُ عَيْنَيْ رَسُولِ اللهِ تَهْمِلَانِ**»؛ يعني: تَذرِفان الدَّمعَ.

وفي ذلك أنَّ النبي ﷺ كان يتدبَّر الآيات التي يقرؤها ابنُ مسعودٍ، ويتفكَّر في معانيها، فلمَّا بلغ هذه الآيةَ بلغَ به ﷺ الخوفُ والخشيةُ مبلغَه العظيم، فوجد نفسَه غيرَ قادرٍ ﷺ علىٰ حَبس بُكائه.

وإنما بكىٰ ﷺ عند هذه الآية لأنَّه تصوَّر معنىٰ هذه الآية، حيث يجتمعُ الناسُ في ذلك اليوم، وتشتدُّ بهم أهوالُه، في ذلك الموقف الذي تَجثُو فيه الأممُ، فبكىٰ تعظيمًا لذلك اليوم، وخوفًا ووَجَلًا علىٰ أمَّته حيث أدركته الرحمة والشفقة عليهم من هذا الموقف.

وقد جاء الحديث السابق ببيان بكائه ﷺ في الصلاة، وهذا الحديث ببكائه ﷺ خارج الصلاة.

***

(صحيح) ٢٧٨ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: انكَسَفَتِ الشَّمْسُ يَوْمًا عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ يُصَلِّي حَتَّىٰ لَمْ يَكَدْ يَرْكَعُ، ثُمَّ رَكَعَ فَلَمْ يَكَدْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَلَمْ يَكَدْ أَن يَسْجُدَ، ثُمَّ سَجدَ فَلَمْ يَكَدْ أَن يَرْفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَلَمْ يَكَدْ أَن يَسْجُدَ، ثُمَّ سَجَدَ فَلَمْ يَكَدْ أَن يَرْفَعَ رَأْسَهُ، فَجَعَلَ يَنفُخُ وَيَبْكِي وَيَقُولُ: «رَبِّ، أَلَمْ تَعِدْنِي أَن لا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ؟ رَبِّ، أَلَمْ تَعِدْنِي أَن لا تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؛ وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُكَ؟»، فَلَمَّا صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ انجَلَتِ الشَّمْسُ، فَقَامَ فَحَمِدَ اللهَ تَعَالَىٰ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لا يَنكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا انكَسَفَا فَافزَعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَىٰ»[(١)].

شرح الحديث

قول عبدِ الله بن عمرٍو رضي الله عنهما: «انكَسَفَتِ الشَّمْسُ يَوْمًا عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ»؛ أي: في حياته ﷺ.

قوله رضي الله عنه: «فَقَامَ رَسُولُ اللهِ يُصَلِّي»؛ أي: يصلّي بأصحابه صلاة الكسوف.

ولصلاة الكسوف صفاتٌ متعدِّدة، أحدُها ما جاء في هذا الحديث، ويجمعُ تلك الروايات أنها كانت صلاةً طويلةً لا يكادُ يعرف الصحابةُ مثلَها في صَلَواته ﷺ طُولًا في الركوع، وطُولًا في القيام، وطُولًا في السجود، وطُولًا في الدعاء.

وقد وصفوا من فَزَعه ﷺ عند كسوف الشمس ما لم يعهدوه من قبل،

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (١٣٨٩، ١٣٩٢) بنحوه، وأصله في البخاري (١٠٥١)، ومسلم (٩١٠).

وذلك لأنَّ انكساف الشمس إنما هو اضطرابٌ واختلافٌ في نظام الكون، واختلالُ نظام الكون أمرٌ مخيفٌ قد يكون فيه من الكوارث والمصائب ما يوجب الالتجاءَ إلىٰ الله، وهذا هو الهديُ النبويُّ الأكملُ في هذه الحال: الالتجاءُ إلىٰ الله سبحانه خوفًا وفزَعًا.

قوله رضي الله عنه: «**ثُمَّ سَجَدَ فَلَمْ يَكَدْ أَن يَرْفَعَ رَأْسَهُ، فَجَعَلَ يَنفُخُ وَيَبْكِي**»، وهذا موضعُ الشاهد من الحديث، فسَجدَ ودعا ربَّه، وأصابه من الخشية ما جعله يبكي.

والمقصود بالنَّفخ: البكاءُ الشديدُ الذي يَختلِجُ ويَضطرِبُ لأجله الصدرُ، فتخرج معه الأنفاسُ متأجِّجةً بصعوبةٍ.

وشِدّةُ البكاء هذه بسبب خوفه من الكسوف، كما جاء عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رضي الله عنه قَالَ: «**خَسَفَتِ الشَّمْسُ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَزِعًا، يَخْشَىٰ أَن تَكُونَ السَّاعَةُ**»(١)، فبدأ بالصلاة فزعًا، ثم أضيف إلىٰ ذلك الفزعِ ما أصابه من خوفٍ من قراءةٍ للآيات وتدبُّرٍ لها، فكان خوفًا علىٰ خوف، وكان هذا سببُ شِدّة بكائه ﷺ.

قوله ﷺ: «**رَبِّ، أَلَمْ تَعِدْنِي أَن لا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ؟ رَبِّ، أَلَمْ تَعِدْنِي أَن لا تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؛ وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُكَ؟**»، يتأوّل قولَ الله تعالىٰ له في سورة الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فهذان أمانان من الله عز وجل للأمّة، والأمَّة في أمانٍ من العذاب ما بقي هذان الأمران فيهما.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ أي: ما كان الله ليُنزِل

(١) أخرجه البخاري (١٠٥٩)، ومسلم (٩١٢).

بلاءً عظيمًا يَعُمُّ الأمَّةَ جمعاءَ والنبيُّ ﷺ حيٌّ بين أظهُرهم، فكانت حياتُه ﷺ أمانًا للأمّة.

وأمّا الأمانُ الثاني فهو الاستغفارُ، قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ولهذا قال أبو موسىٰ الأشعريُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أمانان كانا علىٰ عهد رسول الله ﷺ، رُفِع أحدُهما، وبقِيَ الآخرُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]»(١)، ذهب رسولُ الله ﷺ، فما بقي للأمَّة أمانةٌ من العذاب العامِّ والبلاء الذي قد يصيب الأمّةَ جمعاء إلا هذه البوّابة من الأمان، وهي الاستغفار.

فإذا فرَّطت الأمّةُ في الاستغفار وقلَّ حظُّها منه فقد رَفَعت عنها أمانَ الله، وجَازفَت بنفسها بما لا طاقة لها به من العذاب والهلاك.

وفي قوله: «**أَلَمْ تَعِدْنِي أَن لَا تُعَذِّبَهُمْ**» دليلٌ علىٰ شفقته وخوفه ﷺ علىٰ هذه الأمّة؛ فإنَّه ﷺ قد أمِن من العذاب لِمَا قد عَلِمه من اختيار ربّه إياه واصطفائه واجتبائه، فكان بكاؤُه وتوسُّلُه وتضرُّعه لأجل أمَّته.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**فَقَامَ فَحَمِدَ اللهَ تَعَالَىٰ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ**»، أراد في هذا المقام أن يَعِظهم بخطبة موجَزة.

قوله ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لَا يَنكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ**»، وذلك أنَّ الشمس كَسَفت لَمَّا مات ابنُه إبراهيم، فتحدّث بعضُ الناس بما كان عندهم مِن عقائد قبل الإسلام، من أنَّ الشمسَ إنما تنكسف

(١) أخرجه أحمد (١٩٥٠٦).

لموتِ عظيمٍ من العُظَماء، فلما كان انكسافُ الشمس مقترنًا بموت ولده إبراهيم نفىٰ ﷺ هذا الاعتقاد، ورَبَطهم بما يجب الارتباط به وهو خشية الله.

وقد بيَّن في بعض الروايات سببَ هذا الكسوف حيث قال: «**وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُخَوِّفُ بِهَا عِبَادَهُ**»(١)، أي: من مقاصد حدوث الكسوف والخسوف تخويفُ العباد، فينبغي أن يَفزَعوا إلىٰ الصلاة، وينقادوا إلىٰ المساجد، ويجتمعوا للدعاء والذكر، ويُظلِّلُهم في ذلك كلِّه الخوفُ من الله.

*** لفتة إيمانية:**

لقد أصبح الناسُ اليومَ يعلمون بالكسوف قبل حدوثه، لما حَصلَ من تطوُّرٍ علميٍّ معروف، حتىٰ إنهم ليعلمون في أيِّ ساعةٍ يَبدأ ومتىٰ يَنتهي، وهذا ليس من خَرْقِ حُجُبِ الغيب، بل هو من العلم بالأسباب التي أذِن الله لعباده بتحصيلها والوقوف عليها، كالعلم بأسباب الأمراض البدنية الباطنة وعِلَلها ونحو ذلك، وهذا التنبُّؤُ المسبَقُ بهذه الحوادث الكونية من توقُّع الغَيم والمطَر والكسوف والخسوف والبراكين ألقىٰ بظلاله علىٰ القلوب بحجاب المادِّيَّة الغليظ، حين طغىٰ عليها تفسيرُ هذه الحوادث الكونية الضخمة تفسيرًا مادِّيًّا سببيًا، بمعزِلٍ عن التوجيه الشرعيِّ لها وربطها بالتأمُّل في آيات الكون الدالَّة علىٰ توحيد الله والإيمان به، حتىٰ اضمحلَّ الشعورُ بعَظَمة الخالق المدبِّر لهذا الكون، وقلَّ الإحساسُ بالخوف من عذاب الله وعقابه، مع التصريح الثابت في السُّنَّة بأنه مقام تخويفٍ إلهيٍ للعباد، يستدعي الاستغفار والالتجاء بالدعاء والتضرُّع.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٤٨)، ومسلم (٩١٢).

بل كان ينبغي أن يكون التنبُّؤُ الـمُسبَق بهذه الآيات الكونية طريقًا إلىٰ مزيد من الخوف والوَجَل، فإنَّ من عَلِم أو توقَّع حصولَ أمرٍ مخُوفٍ ظلَّ متخوِّفًا منه حتىٰ يقع، ولا يزال تخوُّفه ينمو ويزداد كلَّما اقترب من الموعد المتوقَّع فيه حصول ما يخافه، لا أن يتبلَّد الإحساسُ وتَطغَىٰ الأسبابُ الماديَّة علىٰ التعامل مع هذه الحوادث الكونية الضخمة، فينبغي علىٰ المؤمن أن يستشعرَ غضبَ الله سبحانه عند حدوث الكسوف أو الخسوف، وأن يبعث الخوفَ في قلبه من هذا الأمر، وأن يفزع إلىٰ الصلاة والدعاء والاستغفار والصدقة؛ اقتداءً برسول الله ﷺ وعملاً بهديه وسُنّته.

***

(صحيح) **٢٧٩ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ابْنَةً لَهُ تَقْضِي، فَاحْتَضَنَهَا، فَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَمَاتَتْ وَهِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَصَاحَتْ أُمُّ أَيْمَنَ، فَقَالَ ـ يَعْنِي: النَّبِيَّ ﷺ ـ: «أَتَبْكِينَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ؟»، فَقَالَتْ: أَلَسْتُ أَرَاكَ تَبْكِي؟ قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ أَبْكِي، إِنَّمَا هِيَ رَحْمَةٌ، إِنَّ المُؤْمِنَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، إِنَّ نَفْسَهُ تُنزَعُ مِن بَيْنِ جَنبَيْهِ وَهُوَ يَحْمَدُ اللهَ عز وجل»**(١).


شرح الحديث

قول ابن عباس رضي الله عنهما: «أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ابْنَةً لَهُ تَقْضِي»؛ يعني: تُنازِعُ خروجَ الروح، وتَلفِظُ أنفاسَها الأخيرة.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٧٥).

والمقصود بالابنة هنا: ابنةُ ابنتِه زينب رضي الله عنها، وإنما سمَّاها ابنتَه لأنَّ بنتَ البنتِ بنتٌ.

قوله رضي الله عنه: «**وَصَاحَتْ أُمُّ أَيْمَنَ**»؛ يعني: بلغ بها البكاءُ رفعَ الصوت.

وأمُّ أيمن رضي الله عنها هي مولاةُ النبي ﷺ وحاضنتُه، فهي امرأةٌ من أهل بيته، وهي من أقرب الناس إليه، وتعرف شؤونه ﷺ، فصاحت شفقةً وحزنًا ورحمةً بهذه الصغيرة التي تنازعُ سكراتِ الموت، وللموتِ سكراتٌ من رآها وعاينَها أشفق علىٰ مَن نزلت به.

وبكاؤها كان من جنس ما يحصل من النساء عادةً في تلك المواقف، حيث تغلب عليهن العاطفةُ والضعفُ، ولم يكن رفع الصوت منها عن رغبةٍ واختيارٍ.

قول أمّ أيمن رضي الله عنها: «**أَلَسْتُ أَرَاكَ تَبْكِي؟**»، رأت عينيه تَذرِفان، فاستَشهدَت علىٰ ما بَدرَ منها بما رأت منه ﷺ، وهذا من فِقه الصحابة رضي الله عنهم أنهم يستدلُّون علىٰ أفعالهم بما رأوه من النبي ﷺ، ولكنهم قد يُصيبون في الاستدلال وقد لا يصيبون، والنبيُّ ﷺ يعلِّمهم ويصوِّب استدلالاتهم.

قوله ﷺ: «**إِنِّي لَسْتُ أَبْكِي**»؛ أي: ليس البكاءَ الذي تظنِّين، فإنَّ بكاءَه ﷺ لم يكن بكاءَ جزعٍ وتسخُّطٍ، أو بكاءَ فراقٍ علىٰ مَن يحبّ.

وهذا لونٌ آخر من بكائه ﷺ: بكاءُ الرحمة والشفقة.

قوله ﷺ: «**إِنَّمَا هِيَ رَحْمَةٌ**»؛ أي: رَحِمَها لِما رأىٰ ممّا قد حلَّ بها من سَكَرات الموت والنَّزع وخروج الروح من الجسد.

قوله ﷺ: «إِنَّ المُؤْمِنَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ»؛ أي: مهما نزل بالمؤمن من مصائب، وأصابه من آلام، وفَقدَ من أحبابٍ، وسُلِب من المال، وشَظِفَت به الحياةُ؛ فإنَّه خيرٌ له؛ لأنَّ ما في قلب المؤمن من الإيمان هو عِوضٌ عمَّا فاته من الحياة، وما مِن مصيبةٍ تنزل بالمسلم إلا ووراءَها من الحِكَم العظيمة والخير العميم ما لا يعلمه إلا الله.

وإنَّ المؤمن عندما يلقىٰ ربَّه فينظر ما في صحيفته وسِجِلّه من المصائب والبلايا، التي عُظِّم بها أجرُه، وكُفِّرت بها سيئاتُه، وضُوعِفَت بها حسناتُه؛ لتمنَّىٰ لو أنَّ البلاءَ طال به.

قوله ﷺ: «إِنَّ نَفْسَهُ تُنزَعُ مِن بَيْنِ جَنبَيْهِ وَهُوَ يَحْمَدُ اللهَ ﷻ»؛ أي: إن نفْسَ المؤمن تُنزَع من بين جنبيه ويظلُّ حامِدًا شاكِرًا لربه، مُثنِيًا عليه.

***

(صحيح) **٢٨٠ـ عَنْ عَائِشَةَ ﵂: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَبَّلَ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ وَهُوَ مَيِّتٌ وَهُوَ يَبْكِي»، أَوْ قَالَ: «عَيْنَاهُ تُهرَقَانِ»**(١).

شرح الحديث

قول عائشة ﵂: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَبَّلَ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ»: هو عثمانُ بن مَظْعون الجُمَحيّ أبو السائب ﵁، من أوائل الصحابة إسلامًا، هاجَرَ الهجرتين، بل هو من سادات المهاجرين، وتوفّي في شعبان من السنة الثالثة للهجرة قبل

(١) أخرجه أحمد (٢٥٧١٢)، والترمذي (٩٨٩) وقال: «حسن صحيح».

أُحُدٍ، وهو أول مَن دُفِن بالبقيع من الصحابة على الإطلاق، عُرف بصدقه واجتهاده وتحرّيه في العبادة، بل إنَّه من شدَّة اجتهاده وتعبُّده جاء يستأذِنُ رسولَ الله ﷺ في التبتُّل، أي: الانقطاع التامّ عن الدنيا، يقول سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه: «**رَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ التَّبَتُّلَ، وَلَوْ أَذِنَ لَهُ لاخْتَصَيْنَا**»(١).

ويُفاد مِن هذا الحديث: جوازُ تقبيل الميّت بعد موته، ما لم يُفضِ هذا التقبيلُ إلىٰ جَزعٍ وتسخُّطٍ، فيُمنَع تقبيلُ الميّت سدًّا للذَّريعة، وإلا فتقبيلُ الميِّت جائزٌ شرعًا، فهذا رسولُ الله ﷺ قَبَّلَ عثمانَ بنَ مَظعون، وأبو بكر رضي الله عنه قَبَّل رسولَ الله ﷺ بعدما فاضت روحُه.

قولها رضي الله عنها: «**وَهُوَ يَبْكِي**»، إنما بكاه لفَقْده ﷺ رجلًا عظيمًا من أمّته.

وهذا سببٌ آخر من أسباب بكائه ﷺ.

وقولها رضي الله عنها: «**عيناه تُهْرَقان**»؛ أي: تسيلان بالدموع(٢).

***

(صحيح) **٢٨١ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: شَهِدْنَا ابْنَةً لِرَسُولِ اللهِ، وَرَسُولُ اللهِ جَالِسٌ عَلَىٰ القَبْرِ، فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَدْمَعَانِ، فَقَالَ: «أَفِيكُمْ [رَجُلٌ] لَمْ يُقَارِفِ اللَّيْلَةَ؟»، قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَنَا، قَالَ: «انزِلْ»، فَنَزَلَ فِي قَبْرِهَا**(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢).

(٢) انظر: الصحاح (٤/ ١٥٦٩)، وتاج العروس (٢٧/ ١١)، مادة (هـ رق).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨٥).

شرح الحديث

قول أنس بن مالك رضي الله عنه: «**شَهِدْنَا ابْنَةً لِرَسُولِ اللهِ**»؛ أي: ماتت ابنةٌ مِن بنات رسول الله ﷺ، وشهد رسولُ الله ﷺ وأصحابُه موتَها ودفْنَها، والبنتُ الميتةُ هي أمُّ كلثومٍ رضي الله عنها، زوجةُ ذي النُّورَين عثمان بنِ عفّان خليفةِ المسلمين رضي الله عنه.

وقد جاء في بعض الطُرُق ـ ولا يصحُّ ـ أنَّ الميّتةَ هي رُقيّةُ ابنتُه رضي الله عنها(١).

قوله رضي الله عنه: «**فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَدْمَعَانِ**»، يبكي ﷺ؛ لأنَّ ابنةً من بناته فارقت الحياة، فهو بكاءُ الأب المحبِّ لابنته، والبناتُ قريباتٌ حبيباتٌ إلىٰ قلوب الآباء، والنبي ﷺ إنما بقي من ذرِّيَّته الإناثُ، وذلك كما دمعَتْ عيناه ﷺ لما فاضت نفسُ بنت ابنتِه، ولما مات ابنُه إبراهيم، فلا يُستنكر علىٰ أحدٍ أن يذرف دمعَه إذا كان يَدفِن أحدَ أولادِه من البنين أو البنات، بل يُستنكَر علىٰ من يجفُّ دمعُه في مثل هذه الأحوال.

وذلك إذا كان البكاء والدمع رحمةً مع التسليم لقَدَر الله والرّضا به، لا بكاءَ تسخُّطٍ وجزعٍ ونحيبٍ وعَويلٍ.

وإنما يصبر المؤمن علىٰ أقدار الله ويرضىٰ بها لأنه يعلم أنَّ في طيّات المصائبِ رحماتٌ وخيراتٌ ولا بُدَّ؛ فالميت قد أفضَىٰ إلىٰ رحمة الله، والأجر والثواب قد نزل بمن فَقَدَ ذلك الميِّت.

قوله رضي الله عنه: «**قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَنَا**»، دلَّت مبادرةُ أبي طلحة ومسارعتُه علىٰ

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٣٩٨)، وقد وَهِم فيه حماد بن سلمة في تسمية ابنة النبي ﷺ.

أنَّ في دفن الميت فضيلةً يتنافس فيها المؤمنون، كما يتنافسون في غَسل الموتىٰ، وتشييعِهم.

قوله ﷺ: «**أَفِيكُمْ [رَجُلٌ] لَمْ يُقَارِفِ اللَّيْلَةَ؟**»، اختلف أهل العلم في تفسير (الـمُقارَفَة) في الحديث علىٰ قولين:

القول الأوّل: أنَّ المقصودَ مُقارفَة الذنوب، والمقصود: أفيكم رجلٌ لم يَعصِ ولم يُذنب ولم يَقترف سيئةً الليلة؟

لكنَّ هذا التفسيرَ مُستبعَدٌ، لأسبابٍ منها: أنَّ في بعض روايات الحديث: «**أفيكم رجلٌ لم يُقارِف أهلَه الليلة**»(١)، ولا يمكن أن يكون المعنىٰ: أفيكم رجلٌ لم يُذْنِبْ أهلَه الليلة.

ومنها: أنه لو كان المقصود: أفيكم رجلٌ لم يفعل ذنبًا تلك الليلة، لكان النبي ﷺ أَوْلَىٰ بهذه الحال من غيره.

والقول الثاني في معنىٰ الـمُقارَفة ـ وهو الأرجح ـ : أنَّ الـمُقارَفة بمعنىٰ الجماع، وهي كنايةٌ عن إتيان الرَّجُل لأهله؛ ولهذا كانت الأولويّة له علىٰ غيره، حتىٰ علىٰ زوجها عثمان ﵁.

واختلف العلماءُ اختلافًا شديدًا في سبب هذا، والعجيبُ أنك لا تكاد تجد كتابًا من كتب الفقه يتحدَّث عن هذه المسألة، لتحرير معناها والحكمة منها.

وقد ذهب بعضُ أهل العلم إلىٰ أنها واقعةُ عينٍ خاصَّةٌ بشأن رسول الله ﷺ وابنتِه أمِّ كلثوم، وهذا قولٌ وَجيهٌ جدًّا، وذلك علىٰ أنه علىٰ كثرة موتىٰ

---

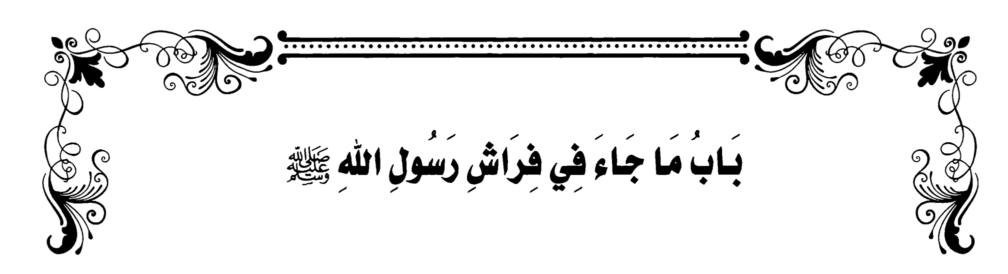
(١) شرح مشكل الآثار (٢٥١٤).

الصحابة وَمن شهد النبيُّ ﷺ دَفنَهم لم يُؤثَر عنه ﷺ أنه سأل هذا السؤال في غير هذا الموضع.

ومع ذلك فإنَّ الأولىٰ والأحوط في تقرير المسألة فقهيًّا أنَّ الذي ينزل في القبر مع الميت يكون لا عهدَ له بأهله ليلةَ الدَّفن.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَنَزَلَ فِي قَبْرِهَا**»، أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أجنبيٌّ عن ابنة النبيِّ ﷺ وليس مَحرَمًا لها، ومع ذلك تولَّىٰ إنزالَها في قبرها؛ لأجل ذلك قال الفقهاء: يجوز أن يَقبُرَ الرجلُ الأجنبيُّ المرأةَ الأجنبيةَ عنه إذا احتاج الأمر إلىٰ ذلك، والأَوْلَىٰ أن يتولَّىٰ محارمُها دَفنَها، وإنزالَها في قبرها، وهم أولىٰ بها من غيرهم.

** ** **



بَابُ مَا جَاءَ فِي فِرَاشِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

هذا بابٌ آخر من أبواب عَيشِه وحياته ﷺ، وفيه الحديث عن خصوصيَّات النبي ﷺ داخل بيته، وعن فِراشه الذي ينام عليه.

وهذا المقصود بدراسة الشمائل؛ أن تقِف علىٰ كل منحًىٰ من مناحي حياته ﷺ، حتىٰ لكأنّك تنظر إليه رأيَ عينٍ، وتدخُل بيتَه فتنظرُ إلىٰ مَتاعِه وطعامِه وشرابِه وفراشِه ﷺ.

***

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «إِنَّمَا كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ الَّذِي يَنَامُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَمٍ، حَشْوُهُ لِيفٌ»(١).

شرح الحديث

الأَدَم: الجِلدُ، وقيل: الجِلدُ المصبوغُ خاصةً.

واللِّيفُ: الشَّعرُ الذي يكون علىٰ سَعَفِ النَّخل.

والمقصودُ أنَّ فِراشَ النبي ﷺ كان له حَشْوٌ من الداخل وما يُغطِّي هذا الحَشْوَ، فأمّا الغِطاءُ فكان من الأَدَم، وأمّا الحَشْوُ فكان من اللِّيف.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٨٢).

فلم يكن فراشُه ﷺ مَحشُوًّا ريشَ نعامٍ، أو قُطنًا ناعِمًا، أي: لم يكن ليِّنًا ناعمًا، بل كان فراشُه كما عُهِد من حياته التي عاشها ﷺ؛ حياةِ الزهد والتواضع والتقلُّل والإعراض عن نعيم الدنيا ولذائذها، فحياتُه ﷺ كانت حياة المُقِلِّين الذين لا يَرَوْن من الحياة إلا بابَها، ولم يُؤتَوا من نصيبها إلا قليلًا.

***

(ضعيف جدًّا) ٢٨٣ـ **عَن جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: مَا كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ فِي بَيْتِكِ؟ قَالَتْ: «مِنْ أَدَمٍ، حَشْوُهُ مِن لِيفٍ»، وَسُئِلَتْ حَفْصَةُ: مَا كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ فِي بَيْتِكِ؟ قَالَتْ: «مِسْحًا، نَثْنِيهِ ثَنيتَيْنِ، فَيَنَامُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ قُلْتُ: لَوْ ثَنَيْتُهُ أَرْبَعَ ثِنْيَاتٍ لَكَانَ أَوْطَأَ لَهُ، فَثَنَيْنَاهُ لَهُ بِأَرْبَعِ ثِنْيَاتٍ»، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ: «مَا فَرَشْتُم لِيَ اللَّيْلَةَ؟»، قَالَتْ: قُلْنَا: هُوَ فِرَاشُكَ، إِلَّا أَنَّا ثَنَيْنَاهُ بِأَرْبَعِ ثِنْيَاتٍ، قُلْنَا: هُوَ أَوْطَأُ لَكَ، قَالَ: «رُدُّوهُ لِحَالَتِهِ الأُولَىٰ؛ فَإِنَّهُ مَنَعَتْنِي وَطَاءَتُهُ صَلَاتِيَ اللَّيْلَةَ».**

شرح الحديث

الحديث ضعيفٌ جدًّا في السند، في بعض رواته من يُتَّهَم في حديثه ولا يَرقَىٰ حديثُه إلىٰ القبول.

ولكن الحديث فيه قطعتان: أمَّا القطعة الأولىٰ فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وهذه القطعة موافقةٌ للحديث الصحيح الذي ذُكِر قبل هذا الحديث.

وأمَّا القطعةُ الأخرىٰ فهي التي لا يُحتجُّ بها ما لم يثبت لها طريقٌ صحيحٌ تَقوم به الحُجّةُ ويَقوىٰ به الإسنادُ، وهو ما نقله الراوي عن حفصة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

«وَسُئِلَتْ حَفْصَةُ: مَا كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ فِي بَيْتِكِ؟ قَالَتْ: مِسْحًا»؛ الـمِسحُ: الكِساءُ الَخِشنُ، أي: كان فراشُه قطعةً خشنةً من قِماشٍ.

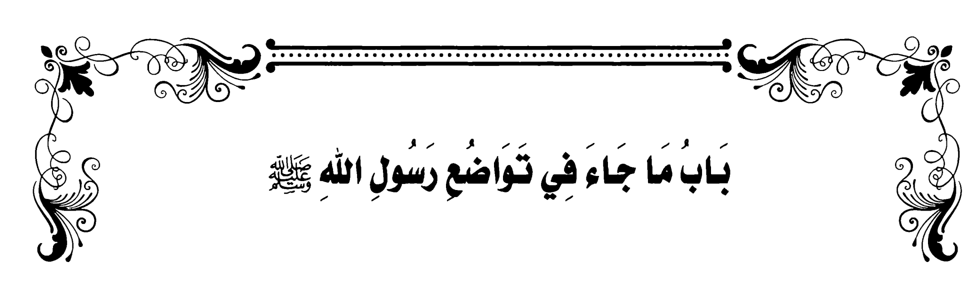
قول حفصة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «نَثْنِيهِ ثِنِيَتَيْنِ، فَيَنَامُ عَلَيْهِ»؛ أي: تَطوِي طَرفَه إلىٰ الطَّرَف الآخَر حتىٰ يكون طَبَقتين، مِن أجل أن يبتعد جنبُ الإنسان عن الأرض بمقدار ثَنْية القِماش أو الكِساء، فإنه وإن كان خَشنًا إلا أنَّ ثَنْيَه ثِنْيَتَين يجعله ألْيَن وأكثرَ طراوةً لوضع الجَنب أو الجَسد عليه.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ قُلْتُ: لَوْ ثَنَيْتُهُ أَرْبَعَ ثِنْيَاتٍ لَكَانَ أَوْطَأَ لَهُ»؛ يعني: أرادت أن تُضاعف الثِّنْيةَ، ليكون أكثر ليونةً ونعومةً في وضع جَنبه وجسده ﷺ.

قوله ﷺ: «رُدُّوهُ لِحَالَتِهِ الأُولَىٰ؛ فَإِنَّهُ مَنَعَتْنِي وَطَاءَتُهُ صَلَاتِيَ اللَّيْلَةَ».

لو صحَّ هذا اللفظُ من الحديث لدلَّ علىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ رَغِبَ عن الفراش الوَطِيء؛ لأنه سببٌ للاستغراق في النوم والتلذُّذ به، وبالتالي سيكون مانعًا له عن الصلاة.

** ** **



بَابُ مَا جَاءَ فِي تَوَاضُعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

هذا الباب في تواضُع رسولنا ﷺ.

والتواضُع خلقٌ عجيبٌ، وهو جِماعُ الأخلاق الحسنة، تحلَّىٰ به الكبارُ والعُظماءُ، وتخلَّق به الأوفياءُ والنُّبلاءُ، وأما الكِبْر فشأنُ وسَمْتُ الصِّغار، فالعظيمُ كالشجرة المُثْمِرة كلما كَثُرَ ثَمرُها تذلَّلت أغصانُها من ثِقَل الثمر الذي عليها، وبالعكس الشجرةُ الخاويةُ التي لا تحمل إلا أوراقًا دون ثَمر، فإنك تراها طويلةً في السماء، لكن من غير نفعٍ ولا ثَمرٍ يُؤكَل.

ومعنىٰ التواضُع: خفضُ الجَناح، ولِينُ الجانب، وكَسرُ الكِبْر، والقربُ من الإخوان، وألَّا ينظر الإنسان إلىٰ عِظَم قدره.

والتواضُع شأنُه الدائم ﷺ الذي يُضرَب به الـمَثَل، فمَن شَعرَ بعزّةٍ أو رِفعةٍ بسبب منصبه، أو جاهه، أو كثرة ماله، أو أيّ سببٍ كان مما تعتزُّ به النفوس ويترفع أصحابُها عن الآخرين، فعليه أن يتذكَّر شأن النبي ﷺ وتواضُعَه.

وتواضُعُه ﷺ ليس مصطنَعًا ولا متكلَّفًا، ولكنه تواضعٌ حقيقيٌّ نابعٌ من قلبٍ جمَّله ربُّه وأكرمه بأحسن الأخلاق، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وهكذا كانت أخلاقُ النبي ﷺ أعظمَ الأخلاق؛ فإنْ بحثتَ عن الكرم فهو

أعلىٰ الناس كرمًا، وإن بحثتَ عن الحياء فهو أشدُّ الناس حياءً، وإن سألتَ عن الأمانة فهو أعظم الناس أمانةً، فما مِن خُلُقٍ اتَّصفَ به الرسولُ ﷺ إلا نال فيه درجةَ العَظَمة.

فالتواضعُ خُلُقٌ عاشه النبي ﷺ مع زوجاته وأصحابه، في البيت وفي المسجد؛ ظهر هذا في تواضعه في طعامه وشرابه، وتواضعه في لباسه، وتواضعه في كلامه وضحكه ومزاحه، ظهر في زيارته للمريض، وشهود الجنازة، والرأفة بحال الفقراء، والعَيش كعَيشهم.

هذا وهو الذي حصل له ما لم يحصل لغيره من العالمين؛ فقد عُرِج به إلىٰ السماء السابعة، وأُسرِي به إلىٰ بيت المقدس، وأَمَّ الأنبياءَ عليهم السلام، وأُنزِل عليه أفضلُ كتابٍ، وغير ذلك مما لم يحصل لأحدٍ من العالمين، ومع ذلك كان التواضُعُ هو سمتَه وهديَه ﷺ.

***

(صحيح) ٢٨٤ـ **عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ؛ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»**(١).



شرح الحديث

قوله ﷺ: «لَا تُطْرُونِي»، الإطراءُ: مبالَغةُ الحدِّ وتجاوُز المشروع في الـمَدحِ والثناء.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

ونبيُّنا ﷺ أكملُ البشر خَلْقًا وخُلُقًا، وأحقُّ من مُدِح، وأَوْلىٰ من يُذكَر بالخصال الحسنة، والطباع الحميدة، والخلال الشريفة، ومع ذلك فهو يأمر الأمّة بعدم المبالغة في مدحه وثنائه ﷺ.

قوله ﷺ: «كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ»، وذلك أنَّ النصارىٰ بالغَتْ في مدح عيسىٰ عليه السلام؛ حتىٰ قالوا: إنَّه الله، وقالوا: ابنُ الله، وقالوا: ثالثُ ثلاثةٍ، وقالوا: إنَّه المُخلِّص، وهذا الإطراءُ الذي ذمَّه الرسولُ ﷺ قد ذمَّه القرآن؛ حيث يقول تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] فحكم الله بالكُفر علىٰ قائل هذه العبارة، والنبي ﷺ إنما يريد لأمَّته النجاةَ مما وقعت فيه الأمم السابقة، وخَشِيَ عليهم أن يبالغوا كما بالغ مَن قبلَهم.

قوله ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ»، هذا هو المطلوب من الأمَّة في مدحِه ﷺ والتعبيرِ عن حُبِّه، وهو وصفُه بأنه عبدٌ يتساوَىٰ مع بقيّة العِباد في هذا الوصف، ولا يبلغ درجة الألوهية.

فلا يجوز لمحبٍّ أو مادحٍ ـ أيًّا كان عُذرُه ودافعُه ـ أن يصف رسولَنا ﷺ بشيءٍ من خصائص الألوهية أو الربوبية، ولا العَظَمة المبالَغ فيها التي لا تستندُ إلىٰ دليلٍ.

نعم هو أعظم مِن أن تَصِفَه الألسنةُ والأقلام، لكن ذلك لا يُجيزُ لأحدٍ أن يَصِفَه بشيءٍ من الخصائص التي تبرَّأ هو منها ﷺ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَخَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُم بِتَقْوَاكُمْ، لَا**

يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَن تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنزِلَتِي الَّتِي أَنزَلَنِي اللهُ»(١).

وعَن مُطَرِّفٍ قَالَ: قَالَ أَبِي: انطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْنَا: أَنتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «**السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ**»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»(٢).

فمع أن النبي ﷺ هو سيِّدُنا إلا أنه يرفُضُ ﷺ أن يُوصَفَ بالسيادة، ومع أنه أفضلُ الأمَّة وأعظمُهم كرمًا وجودًا وطَوْلًا إلا أنه ما أراد أن يُوصَف بهذه الأوصاف حتىٰ لا يكون ذلك بابًا للمبالغة في المديح وتجاوُز الحدِّ المشروع فيه؛ فإنَّ الجُمَل تتتابع حتىٰ يخرج المادِح عن الحدِّ المشروع، وهو من استهواءِ الشيطان واستجرائه لابن آدم.

وهذا الذي قد وقع فيه مَن لم يمتثل لهذا الأمر النبويّ الكريم؛ فإنهم قد استرسلوا في مديحِهم، وغَلَبَتْهم قلوبُهم التي تغلي بالأشواق، فما زالوا يَقذفون بالعبارة تِلْوَ العبارة، حتىٰ تجاوزوا الحدود، وحتىٰ وُصِفَ بأنه خُلِق قبل الخلق أجمعين، وبأنه قُبَّة الأفلاك، وبأنه نور الله المخلوق قبل الكون، وغير ذلك من المبالَغات والشَطَحات التي لا تستندُ إلىٰ دليلٍ، بل تخالف الأدلَّةَ الصريحةَ وتناقِضُها.

ومما نهىٰ عنه ﷺ أن يُفَضَّل علىٰ غيره من الأنبياء عليهم السلام؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٥١)، وهو صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٨٦)، وهو صحيح.

المُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَىٰ مُحَمَّدًا عَلَىٰ العَالَمِينَ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَىٰ مُوسَىٰ عَلَىٰ العَالَمِينَ، فَرَفَعَ المُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَطَمَ وَجْهَ اليَهُودِيِّ، فَذَهَبَ اليَهُودِيُّ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ المُسْلِمِ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ المُسْلِمَ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا تُخَيِّرُونِي عَلَىٰ مُوسَىٰ**»(١).

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لا يَنبَغِي لِعَبْدٍ أَن يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِن يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ**»(٢).

هذا مع أنَّ النبي ﷺ قد فُضِّل علىٰ جميع الناس؛ فقد قال ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٣)، وفي بيت المقدس أمَّ الأنبياء عليهم السلام، فكان إمامًا وكانوا مأمومين.

وفي هذا درسٌ عظيمٌ مهمٌ للمحبِّين الصادقين: أنَّ المحبَّةَ لا تكون بأقوالٍ مبالَغٍ فيها، وإطراءاتٍ تَخرج عن المقبول، والتمدُّح بالقصائد والإنشاد، في ظلِّ البُعد الصريح عن السُّنَّة ومُجافاتها، واقتصارٍ علىٰ الأقوال دون الأفعال.

ولكنَّ الحُبَّ الصادقَ هو تطبيقُ السُّنَّة، وتوظيفُ هذا الحُبِّ الذي سكن القلوبَ، وتحويلُه إلىٰ أعمالٍ واقتداءٍ واستنانٍ، وتشميرٍ عن ساعدِ الجدِّ لسباقٍ طويلٍ في دَرب السُّنَّة الذي يقود إلىٰ جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ.

فليس أكثرُنا حبًّا له ﷺ هو أكثرُنا مدحًا له، بل أصدقُنا مشاعرَ هو مَن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٩٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٨).

حمل التعظيمَ والتوقيرَ والإجلالَ للنبي ﷺ، وأطاعه في أوامره، وابتعد عن نواهيه، وظهرت آثار سُنَّته علىٰ جوارحه.

قوله ﷺ: «فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»، في هذه العبارة بيانٌ للوسطية التي ينبغي أن يكون عليها المسلم؛ فإنَّ النبي ﷺ إنما هو عبدٌ لا يبلغ درجة الألوهية، ولكن يوجد فرقٌ بينه وبين سائر العباد، فإنه رسول الله، أكرمه الله بالوحي والنبوة والرسالة، فليس هو إنسانًا عاديًّا كسائر البشر، ولكنه بشرٌ رسولٌ.

فالنهيُ عن التجاوُزِ في الغلوِّ لا ينبغي أن يكون مَدعاةً إلىٰ تسويته بسائر البشر، حاشا وكلا، بل لا ينبغي أن يساوَىٰ بينه وبين غيره حتىٰ في المناداة، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، فهو ﷺ أجلُّ من أن تُجْعَل مكانتُه ومنزلتُه كسائر البشر، بل هو صاحبُ الدرجة الرفيعة، الذي اصطفاه الله تعالىٰ من بين الناس بهذه الرسالة.

***

(صحيح) **٢٨٥ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: «اجْلِسِي فِي أَيِّ طَرِيقِ المَدِينَةِ شِئْتِ أَجْلِسُ إِلَيْكِ»**(١).

شرح الحديث

قول أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً»؛ يعني: أريدك في أمر أحتاجك فيه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٢٦).

قوله ﷺ: «اجْلِسِي فِي أَيِّ طَرِيقِ المَدِينَةِ شِئْتِ أَجْلِسُ إِلَيْكِ»؛ أي: اجلسي في المكان الذي ترينه مناسبًا للجلوس، وتريدينني أن أقضي حاجتك في ذلك المكان، وأنا أجلس إليك فيه.

وانظر كيف أنها لم تُسَمِّ حاجتها، ولم يسألها ﷺ عن حاجتها، بل أجابها إلىٰ ما تريد، ولم يحاول أن يرسلها إلىٰ غيره لينظر في أمرها بدلًا عنه، هذا مع ما هو فيه من عظيم المهمّات، واشتغاله بأمر الدعوة والرسالة.

بل جاء في بعض الروايات: أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: «يَا أُمَّ فُلَانٍ، انظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ، حَتَّىٰ أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ»، فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ، حَتَّىٰ فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا[1].

فبيَّنت هذه الروايةُ أن المرأة لم تكن سويَّةً في عقلها! فمَن يقوىٰ علىٰ هذا اليوم من الأمراء والرؤساء والعُظماء، أن تأتيَه امرأةٌ تُحسِنُ فيه الظنَّ، وتتوسَّمُ فيه الخيرَ، وتلتمسُ حاجتَها عنده، بل وفي عقلها شيءٌ، فيُفَرِّغ لها من وقته وجهده، ويترك لها الخيارَ في تحديد المكان الذي يجتمعان فيه، وتُقضَىٰ فيه حاجتُها!؟

إن لم يكن هذا التواضُعَ.. فما التواضع؟ وإن لم تكن هذه العَظَمةَ.. فما العَظَمةُ؟

لقد كان هذا تواضُعًا حقيقيًّا مستقِرًّا في قلبه ﷺ، ينعكس علىٰ أمور حياته، فلم تكن لحظةً يتواضع فيها لتَرصُدَه فيها عَدَسات الإعلام! أو شيئًا يتكلَّفه خلاف ما هو عليه!

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٢٦).

ومِن هذا القَبيل ما قاله أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﵁: «**إِنْ كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَنطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ**»(١)؛ فليست امرأةً من المهاجرين أو الأنصار، بل أَمَةً شأنُها أن تُؤْمَر وتُنهَىٰ، لا أن تَطلُبَ الحاجات، فلم تكن الأمةُ مع ما يلازمُها من رِقٍّ وعبوديةٍ تجد إنسانًا أقربَ لأن يقضيَ حاجاتها وأن يرحمها مثلَ النبي ﷺ.

وهذا بابٌ من أبواب الخير إنْ فَتَحه الله للإنسان فقد أصابه خيرٌ عظيمٌ، وهو نفعُ العباد، وجَعلُ مفاتيحِ أمورهم في يده، حتىٰ إن الناس ليقصدونه لقضاء حاجاتهم.

ومَن كان هذا حاله فلا يحملنَّه المللُ والسآمةُ علىٰ الابتعاد، والتقليلِ من الاختلاط؛ خشيةَ أن يشغله الناس، وأن يملأوا وقته وحياته، بل عليه أن يستشعرَ أنَّ هذا شأنُ العُظَماء، فإنهم أفنَوْا حياتهم من أجل غيرهم، وعاشوا لقضاء حاجات إخوانهم، وما يصيبُه من وراء ذلك من تعبٍ ونَصَبٍ إنما هي ضريبةُ العَظَمة، وقد قال ﷺ: «**فَطُوبَىٰ لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الخَيْرِ عَلَىٰ يَدَيْهِ**»(٢).

وهكذا كان يعيش النبي ﷺ؛ تأتيه الأُمَّة كلُّها لقضاء حوائجها، فتأتيه المرأةُ ليحُلَّ مشكلتها مع زوجها، ويأتيه الرَّجُل الذي جامع زوجتَه في رمضان ليستفتيه، ويأتيه المتخاصمان علىٰ قطعةِ أرضٍ ليحكم بينهما، ويأتيه صاحبُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٣٧) من حديث أنس ﵁، وفيه محمد بن أبي حميد؛ منكر الحديث، وله شاهد من حديث سهل الساعدي ﵁.

الدَّين ليقضي دَينَه، ويأتيه الفقيرُ ليطلب حاجته، وهكذا كلُّ صاحب شأنٍ يأتي ويطلب ما يريد ويحتاج، وهو يقضي بينهم ويُفتي ويُلَبِّي حاجاتهم، ولم ينقل لنا أصحابُه أنَّه قال يومًا للناس: اذهبوا عنِّي؛ إنما أنا نبيٌّ أعلِّمكم الدِّينَ والوحيَ والصلاةَ والقرآنَ!

***

(ضعيف) **٢٨٦ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ يَعُودُ المَرْضَىٰ، وَيَشْهَدُ الجَنَائِزَ، وَيَرْكَبُ الحِمَارَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ العَبْدِ، وَكَانَ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَىٰ حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلٍ مِن لِيفٍ، وَعَلَيْهِ إِكَافٌ مِن لِيفٍ»**(١).

شرح الحديث

الحديث ضعيفٌ سندًا بمقتضىٰ الصناعة الحديثية، ولكنّ الجُمَلَ التي وردت فيه ثَبتَت من طُرُقٍ صِحاحٍ ووُجوهٍ معتبَرةٍ، فالأوصافُ المذكورةُ صحيحةٌ ثابتةٌ من غير هذا الحديث، ولا يضيرُ ضعفُ هذا الحديث.

وقد ذكر أنس بن مالك رضي الله عنه في هذا الحديث جُمَلًا فيها أحوالٌ وأوصافٌ من أحوال الرسول ﷺ، يتحدَّث فيها عن وجوهٍ من التواضُع النبويِّ الشريف.

وأنسٌ رضي الله عنه عندما اختار هذه الجُمَلَ في هذا الحديث؛ أراد أن يُثبِتَ تواضُعَ النبي ﷺ الذي يُوحَىٰ إليه، ويجالسُه جبريلُ عليه السلام، وينزل عليه الوحيُ بسُوَر القرآن وبالحلال والحرام.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠١٧)، وابن ماجه (٤١٧٨)، وضعَّفه الترمذي لحالِ راويه مسلم ابن كيسان الملائي الأعور.

أراد أن يُثبِت تواضُع النبي ﷺ الذي جعله الله إمامًا، وقائدًا، وهاديًا، ونبيًّا، ومعلِّمًا، ورسولًا، ومع ذلك ما كان يترفَّع عن بعض الأمور التي ربما ترفَّع عنها بعضُنا اليوم، حيث يراها غيرَ لائقةٍ به، ولكن النبي ﷺ ما كان يجد ذلك في نفسِه وقلبِه وفؤادِه، وما كان يرىٰ أنها غيرُ لائقةٍ به وأنه أرفع منها.

قول أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ يَعُودُ المَرْضَىٰ، وَيَشْهَدُ الجَنَائِزَ»، قد يكون المريضُ قريبًا فتفِرضُ عليك هذا القرابةُ زيارتَه، أو صديقًا أو عزيزًا أو صاحبَ معروف عليك فتزورُه لتردَّ معروفَه أو تؤدِّيَ حقَّه نحوك، فقد يكون لشيءٍ من الأسباب المقتضِية لذلك، وليس من باب التواضُع.

ولكن الرسول ﷺ كان يتفقَّد الصحابةَ، ويعودُ من المرضَىٰ مَن لا حقَّ لهم عليه، ولا صِلةَ قرابةٍ أو صداقةٍ بينه وبينهم، لا يدعوه إلىٰ ذلك إلا التواضُع، فإذا بلغه أنَّ أحدهم مريضٌ سَعَىٰ إلىٰ زيارته، وحثَّ الناسَ علىٰ ذلك، وأخذَ معه لهذه العيادة من كان بحضرته من أصحابه.

وما كان يفعل ذلك إلا من باب التواضُع، ومن باب أنَّه يرىٰ أنَّ لكلِّ إنسانٍ من أصحابه عليه حقًّا، وذلك لوجود رابط الأخوَّة والإيمان.

وكذلك الحال في شُهود الجنائز؛ يسألُ عن أصحابه، ويَتبَعُ جنائزَهم إذا سمع بموتهم، ويصلِّي عليهم، بل رُبَّما تَفَقَّد مَن لا يُؤْبَه بشأنهم.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَيَرْكَبُ الحِمَارَ»، نصَّ علىٰ الحمار لأنه أدنىٰ المركوبات منزلةً إذا ما قُورِن بالفَرَس أو البعير، حيث إنه أدنىٰ منهما بكثير، والعادة أنَّ الحمارَ مركبُ الفقراء، فمَن لا يجد فَرَسًا أو بعيرًا ركبَ الحمارَ.

وقد كان النبي ﷺ لا يأنفُ من ركوبِ الحمار مع عظيمِ منزلته، وشَرَفِ رسالته، ومقامِ نُبوَّته، ولا يُشعِرُ أصحابَه من حوله أنَّ الركوبَ غيرُ لائقٍ به، ولا يلتفتُ إلىٰ مثل ذلك.

فمَن حَبَاه الله مراكبَ أو ملابسَ أو دُورًا أو غير ذلك من متاع الحياةِ الدنيا فلا يترَّفع علىٰ ما حباه الله إياه من هذه النعم، وينتقي منها ما يشاء ويترك ما يشاء، إلا أن يكون بعضُه خارمًا للمروءة أو مسقطًا لها فيتجنَّبه.

قوله رضي الله عنه: «**وَيُجِيبُ دَعْوَةَ العَبْدِ**»، وهذا مظهرٌ آخر من مظاهر التواضُع؛ فإنَّ العبدَ والرقيقَ ليس له مكانةٌ ولا منزلةٌ ولا احترامٌ في المجتمع، يتعاملُ معه الناس علىٰ أنه أدناهم، ومع ذلك إذا دَعَا عبدٌ النبيَّ ﷺ كان يجيب دعوتَه، ويلتفتُ إليه؛ سواءٌ كانت دعوته لتناوُل طعامٍ، أو زيارةٍ ودعاءٍ، أو نحو ذلك.

قوله رضي الله عنه: «**وَكَانَ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَىٰ حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلٍ مِن لِيفٍ، وَعَلَيْهِ إِكَافٌ مِن لِيفٍ**»؛ اللِّيفُ: الشَّعرُ الذي يكون علىٰ سَعَفِ النخيل وجَريدِه، ويُستخدم لبعض الأغراض.

وخِطامُ الدابَّة: الحَبلُ الذي يكون علىٰ رأسها تُقادُ به.

والإكافُ: ما يوضَع علىٰ ظهر الحمار ليجلس عليه الراكب؛ وهو كالسَّرْج علىٰ الحصان، وكالرَّحْل علىٰ البعير.

وقد مرَّ في بداية الحديث أنَّ ركوب الحمار يدلُّ علىٰ التواضُع والإعراض عن مظاهر التكبُّر والترفُّع، ويُزاد هنا أن الحمار كان مخطومًا بحبلٍ من لِيفٍ، والمقصودُ: أنَّ ركوبَ الحمار تواضعٌ في نفسه، ويزيد علىٰ ذلك أنّ خِطامَه شيءٌ

زهيدٌ أيضًا، فما هو إلا شَعراتٌ من لِيفٍ اتُّخِذت خِطامًا، بل إنَّ الإكافَ الذي يجلس عليه ﷺ كان قطعةً زهيدةً من اللِّيفِ أيضًا، لا يلتفتُ إليها الناسُ ولا يأبهون لها.

*** لفتة إيمانية:**

التواضُعُ ليس ألفاظًا تُقال، أو منصبًا يناله الإنسان، أو موقفًا يعيشه في موقفٍ من مواقفِ حياته، بل التواضُعُ سلوكٌ ونمطٌ في الحياة، يصعُبُ معه أن تُثْبِت للإنسان خُلُقَ التواضُع إلا إذا كان ذلك أمرَه وشأنَه في كلِّ يومٍ وليلةٍ.

وهذا النبي الكريم ﷺ قد تجاوز كلَّ الاعتبارات الدُّنيويَّة، حيث لم يُعطِ مظهرًا من مظاهر الحياة قِيمةً في يوم من الأيام، بل كان يتعاملُ مع مظاهر الحياة بحسب ما يحتاجه، ويأخذ من هذه الحياة بُلْغَتَه، فالتكثُّر من مظاهر الحياة والتفاخُر بها والمباهاة بها لم يكن من شأنه أبدًا ﷺ، وإنما يتجاوزُ ذلك إلىٰ ما هو أهمُّ.

بل يقول ﷺ عن هذه المظاهر: «**لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا لَسَرَّنِي أَن لا تَمُرَّ عَلَيَّ ثَلاثُ لَيَالٍ وَعِندِي مِنْهُ شَيْءٌ، إِلَّا شَيْئًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ**»(١)، فلو أعطي ﷺ مِثْلَ أحدٍ ذَهبًا، وامتلك كنوزًا وخزائن من الذهب والأموال، ما كان ذلك يُفْرِحه ولا ينشغل قلبُه به، بل سيَصرفُ همَّه كلَّه في إنفاقِ هذا المال علىٰ الفُقراء والمساكين والمحاويج، اللهم إلا شيئًا يتركه لسدادِ دَيْنٍ عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٥).

فهذا قلبٌ قد ابتعد عن حُطامِ الدنيا ولذائذها، وتحرَّرَ من التعلُّق بالدنيا وسما عنها وارتفع، فمهما أتته الدنيا فإنه سيعتبرُها شيئًا عابرًا، وقدرًا زائلًا، يأخذ منه بقدر الحاجة، ويتجاوز عن الباقي.

مثلُ هذا القلب لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن تكون للدنيا عليه سلطانٌ، أو تؤثِّر في سلوكه أو قِيَمِه أو أخلاقِه أو مبادئه، فلا يتكبَّر بهذه الدنيا ولا يتجبَّر ولا يترفَّع، ولا يغترُّ بها.

بعكس ما يكون من كثيرٍ من الناس، كما قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، فإنَّ كثيرًا من النفوس إذا شعرت بالاستغناء ترفَّعَت وطغَت.

وعلاجُ هذا الترفُّع والتكبُّر إنما يكون بالزُّهد في هذه الحياة الدنيا، والتقلُّل منها، والابتعادِ عنها.

***

(صحيح) **٢٨٧ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قال: «كان رسول الله يُدْعَىٰ إِلَىٰ خُبْزِ الشَّعِيرِ وَالإِهَالَةِ السَّنِخَةِ فَيُجِيبُ، وَلَقَدْ كَانَ لَهُ دِرْعٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ فَمَا وَجَدَ مَا يفكها حتىٰ مات»**(١).



شرح الحديث

قول أنس بن مالك ﷺ: «كان رسول الله يُدْعَىٰ إِلَىٰ خُبْزِ الشَّعِيرِ وَالإِهَالَةِ

(١) أخرجه أبو يعلىٰ (٤٠١٥).

السَّنِخَةِ فَيُجِيبُ»، ورواية البخاري: «أَنَّهُ مَشَىٰ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بِخُبْزِ شَعِيرٍ، وَإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ»(١).

والإهالَةُ: السَّمنُ الجامدُ، أو كلُّ دُهنٍ يُتَّخَذُ إدامًا بحيث يُغمَسُ فيه الخبزُ ويؤكَلُ به.

والسَّنِخَةُ: ما تغيَّرتْ رائحتُه لِقِدَمه.

فلم يُدعَ النبيُّ ﷺ إلىٰ اللحمِ أو الدجاجِ أو السمكِ أو نحو ذلك من متاع الطيّبات والمآكل، وإنما هو خبزٌ جافٌّ وسمنٌ يُرَطَّب به الخبز ويُلَيِّن ليُمكِن أكلُه به؛ إذ كانوا يرطّبون الخبزَ الجافَّ واليابسَ بأيِّ شيءٍ حتىٰ وإن كان سَمنًا أو زيتًا أو خَلًّا، كما قال ﷺ: «نِعْمَ الإِدَامُ الخَلُّ»(٢).

بل إنه لم يُدْعَ إلىٰ طعامٍ جديدٍ، بل إلىٰ إهالةٍ سَنِخَةٍ قد تغيَّرتْ رائحتُها لطُول مُكثِها، ولا شكَّ أنها قد تغيَّرَ طعمُها أيضًا، ومع ذلك كان يُجيب داعيَه لتواضُعه ﷺ.

ويحتاج أحدُنا اليوم أن يسأل نفسَه: هل إذا دُعِي لمثل هذا سيُجيبُ؟ وهل سيجده ملائمًا لقَدْره؟ وهل أصحابُ المناصبِ المرموقةِ اليوم ووُجُوهُ المجتمعِ ورؤساؤه يَرضَون بمثل هذا فيما يُدْعَون إليه؟

إنَّ إجابةَ الدعوة لا ينبغي أن تكون رغبةً في الطعام، ولكن تقديرًا للداعي وإكرامًا له، فعلىٰ المسلم أن يقبل دعوةَ الفقيرِ والمسكينِ والعائلِ والمحتاج،

---

(١) صحيح البخاري (٢٠٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٥١).

الذي ربما أخذ صدقته وزكاته من الموسِرين، والذي ربما شعر يومًا برغبةٍ في دعوتك وإكرامك، فيُقَدِّم لك ما يأكله لا ما تأكله، فتَجبُرُ خاطِرَه بإجابة دعوته، وتكرمُه، وتتواضَعُ له بأكلك مما يأكل، دون أن تكلِّفَه ما لا طاقةَ له به، أسوتُك في ذلك رسولُ الله ﷺ.

حتىٰ وإن كانت الدعوةُ إلىٰ طعامٍ لا تحِبُّه ولا تأكلُه، فقد قال أبو هريرة رضي الله عنه: «**مَا عَابَ النَّبِيُّ ﷺ طَعَامًا قَطُّ، إِنِ اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ، وَإِلَّا تَرَكَهُ**»(١)، فما كان يَعيبُ طعامًا أو يذُمُّه أو يَقدَح فيه.

وهذا بعكسِ حالِ كثيرٍ مِنَّا ممن لا يرضَىٰ ما تُطعِمُه إيَّاه زوجتُه، أو يدعوه إليه الناسُ، وما ذلك إلَّا لأنَّ الطعام أخذ حيزًا كبيرًا من حياة الناس اليوم، والذي ينبغي أنَّ الإنسان يشغل بالَه وفكره بأمورٍ أكبر، وأن تكون همومُه تتعلّق بالقضايا الكُبرىٰ، فلا يشغلُ نفسَه بسفاسف الأمور من طعامٍ أو شرابٍ أو مسكنٍ.

قوله رضي الله عنه: «**وَلَقَدْ كَانَ لَهُ دِرْعٌ عِندَ يَهُودِيٍّ**»؛ يعني: قد كانت درعُ النبي ﷺ مرهونةً عند يهوديٍّ يُقال له: أبو الشَّحم، رَهَنَها من أجل ثلاثين صاعًا من الطعام أو نحو ذلك؛ حيث كان الفقرُ الذي عاش فيه ﷺ في حياته لا يكادُ يجد معه ما يُطعِم نفسَه وأهلَ بيته، حتىٰ إنَّه ليَقترضُ من يهوديٍّ ويَرهَنُ دِرعَه عنده، وهو النبيّ الذي يوحَىٰ إليه من فوق سبعِ سماوات!

والناس اليوم يحتاجون أن ينظروا إلىٰ الحياة بمنظار الإنصاف، وأن يعاملوها بالقَدر الذي تستحقُّه، ولا نطلب منهم أن يحرِّموا حلالًا، أو أن يَزهدوا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٣)، ومسلم (٢٠٦٤).

عنها بالكُلِّيَّة، ولكن يُعْطونَها القدرَ الملائمَ لها؛ فمن قُتِّر عليه في حياته فلا يَيْأسْ ولا يَجزعْ ولا يَقنطْ، فإنَّ الدنيا قد ضاقت قبله بسيِّد البشر ﷺ، ومَن وُسِّعت عليه حياتُه فهنيئًا له، ولْيستعمِلها في طاعة الله سبحانه وابتغاءِ مرضاته، ولا يجعلها مُشْغِلَةً له عن طاعته، ولا يتعلَّق بها، وأكبر من هذا أن يجعلها سببًا للترفُّع عن الخلق والتكبُّر عليهم واحتقارهم واستعبادهم واستذلالهم.

قوله رضي الله عنه: «**فَمَا وَجَدَ مَا يَفُكُّهَا حَتَّىٰ مَاتَ**»؛ أي: ما وجد سدادًا يسدُّ به دَينَه، ويفكُّ رهنَ دِرعه، حتىٰ مات وبقيت مرهونةً عند ذلك اليهودي.

وذلك أن مُدَّة الأجل التي كانت بينه وبين اليهودي سَنةٌ، وقد مات ﷺ قبل تمام السَّنَة، ولم يطالبه اليهوديُّ بالسداد لأنه لم يَحِلَّ الأجلُ، وإنما فَكَّ الدِّرعَ من الرَّهن أبو بكر الصدِّيقُ رضي الله عنه خليفةُ المسلمين بعد رسول الله ﷺ، فإنه هو الذي سعَىٰ في قضاء دَين الرسول ﷺ وفَكَّ دِرعَه.

***

(صحيح) ٢٨٨ـ **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه: **حَجَّ رَسُولُ اللهِ عَلَىٰ رَحْلٍ رَثٍّ، وَعَلَيْهِ قَطِيفَةٌ لا تُسَاوِي أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ، اجْعَلْهُ حَجًّا لا رِيَاءَ فِيهِ، وَلا سُمْعَةَ»**(١).

شرح الحديث

قول أنس بن مالك رضي الله عنه: «**حَجَّ رَسُولُ اللهِ عَلَىٰ رَحْلٍ رَثٍّ، وَعَلَيْهِ قَطِيفَةٌ لا تُسَاوِي أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ**»؛ الرَّحْلُ: ما يكونُ علىٰ ظَهر البعير ليَجلس عليه الراكب.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٨٩٠).

والرثُّ: القديمُ البالي المتهالِكُ.

ومظهرُ التواضُع في هذا الحديث: أنَّ المسافرَ الراكبَ علىٰ ظَهر البعير يضعُ عادةً تحته رَحلًا من جِلدٍ أو نحوه ليُحقِّق له قدرًا من الراحة في ركوبه؛ فإنَّ السفر من المدينة إلىٰ مكّة يقضي فيه المسافرُ أيامًا متتابعات، يحتاج معه إلىٰ رَحلٍ جيّدٍ يُعينُه علىٰ قضاء هذا السفر.

ومع ذلك كان حجُّ النبي ﷺ وسفرُه ذاك علىٰ رَحْلٍ قديمٍ مُتهالِك، فاحتاج إلىٰ أن يغطِّيه بشيءٍ يصلح للركوب عليه، فوضع عليه قِطعةَ قماشٍ لا تُساوِي أربعةَ دراهمٍ.

❊ لفتة إيمانية:

لقد استجمعت صورةُ حَجَّةِ النبي ﷺ البُعدَ عن مظاهر المفاخَرة والمكاثَرة التي هي مداخلُ للرِّياء، ومع ذلك فهو يدعو ﷺ بأن يجعل الله حجَّه لا رياءَ فيه ولا سُمعةَ.

فما عسانا نقول اليوم وحجُّ الناس قد امتلأَ بصُوَر المفاخَرة والمباهاة، وأصبحت بعضُ حَمَلات الحجِّ فاخرةً، يدفع فيها الحاجُّ أموالًا طائلة، ويستلِذُّ فيها بأنواع المطاعم والمشارب، مع حاجة كثيرٍ من الناس إلىٰ الالتفات إلىٰ معنىٰ إخلاص العمل والبعد عن الرياء!

وكثيرٌ من الناس عندما يَحُجُّ أو يعتمرُ يَحرصُ علىٰ أن يعرفَ الناسُ عنه ذلك، وما ابتُلِي المتعبِّدون اليوم بشيءٍ أكثر من تصوير أنفسِهم بجوَّالاتهم؛ فإذا

طاف بالكعبة أو سَعَىٰ أو وقفَ بعرفاتٍ أو بات بمنًىٰ أو رَمَىٰ الجمرات يكون شُغلُه الشاغلُ أن يصوِّر نفسَه!

ويكون الحاجُّ والمعتمرُ قد سلَّمه الله من نظر الناس إليه، فيسعىٰ بنفسِه وبيديه بتصوير نفسه وإرسالها إلىٰ الناس لينظروا إليه؛ فما مقصودُه من وراء هذا؟ وماذا يبقىٰ له من إخلاصه في حجِّه؟

وليس هذا مقتصِرًا علىٰ الحجِّ والعمرة، بل كثيرٌ من العبادات يتعامل معها الناس هكذا؛ فإذا أراد أن يصنع معروفًا أو طاعةً أو بِرًّا أو إصلاحًا يُصوّر ذلك للتوثيق! ثم يرسله إلىٰ أصدقائه، وربما كتب عليها: من روضة المسجد النبوي؛ أو من جوار الكعبة، أو من صعيد عرفات: أدعو لكم بصلاح الذرية والنية!

هذه في حقيقتها خوارمُ للإخلاص، وحُفَرٌ كبيرةٌ للرياء، يتساقط فيها الناسُ من حيث لا يَشعرون، وانظروا كيف حجَّ نبيُّكم ﷺ في زمنٍ لا يوجَد فيه آلاتُ تصويرٍ ولا نَشراتُ أخبارٍ ولا مراسلون أو صحفيُّون، وكان حجُّه خاليًا من كلِّ مظاهر المفاخَرة والمكاثَرة، ومع ذلك يدعو الله أن يحفظ حجَّه من الرِّياء والسُّمعة.

يحتاج المسلمون أن يتعلَّموا اليوم كيف يُخفون عباداتهم، ويتذكَّروا أنَّ ذلك سببٌ للاستظلال بعرش الرحمن، كما قال ﷺ في السبعة الذين يُظِلُّهم الله في ظِلِّه: «**وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا؛ حَتَّىٰ لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنفِقُ يَمِينُهُ**»(١).

أرأيت المبالغةَ في إخفاء العمل؟ يتصدَّقُ بيده اليُمنَىٰ، ويبالغ في إخفاء

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٢٣).

الصدقة، حتىٰ إنَّ يدَه اليُسرَىٰ لا تعلمُ ماذا فعل! أتظُنُّ أنَّ مثلَ هذه المبالغةَ في إخفاءِ العمل يمكن أن تراها عينُ آدميٍّ.

فتفقَّدوا إخلاصَكم في العمل، واقتدوا بنبيِّكم ﷺ، وانظروا كيف حجَّ وخلفَه أمَّةٌ تسيرُ وراءَه، ترصُدُ أفعالَه لحظةً بلحظة، وكلَّ قولٍ وفعلٍ وحركةٍ وسكونٍ، يريدون أن يتعلَّموا منه ويَقتدوا ويأتسوا، ومع ذلك ما كان ﷺ ملتفتًا إليهم، بل مقبلًا علىٰ ربِّه، مخلصًا له، حريصًا علىٰ سلامة عمله أن يصيبه شيءٌ من الرِّياء أو السُّمعة.

فليكن الإنسانُ عاقلًا، وليجعل الوسائلَ المتاحةَ اليوم مُعِينةً له علىٰ العبادة، لا مُعينةً للشيطان عليه، فيُسلِّم عُنقَه للشيطان، الذي لن يتردَّد أن يَهوِيَ به في الدَّركَات.

***

(صحيح) ٢٨٩ـ **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه **قَالَ: «لَمْ يَكُن شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِم مِن رَسُولِ اللهِ، قَالَ: وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا؛ لِمَا يَعْلَمُونَ مِن كَرَاهَتِهِ لِذَلِكَ»**(١).

شرح الحديث

قول أنس بن مالك رضي الله عنه: **«لَمْ يَكُن شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِم مِن رَسُولِ اللهِ»**؛ أي: لم يكن شخصٌ أحبَّ إلىٰ الصحابة من الرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٣٤٥)، والترمذي (٢٧٥٤)، وقال: «حسن صحيح غريب».

وكون الرسول ﷺ أحبَّ إليهم من كلِّ الناس ليست بالمسألة التي تُوصَف بكلمةٍ أو كلمتين، ولا بسطرٍ أو سطرين، بل ولا مُجلَّدٍ أو مُجلَّدين، إنها قضيةُ حياةٍ عاشُوها، وقلوبٍ مُلِئَت بل وفاضت بحُبِّ رسول الله ﷺ.

فمن مظاهر حُبِّهم له تَفْدِيَتُهم رسولَ الله ﷺ بأنفسِهم وأموالِهم وأرواحِهم، ونصرتُهم له، وتركُ أوطانهم، ومفارقةُ أموالهم وديارهم، وهِجرتُهم معه، وجهادُهم معه، ومعاداتُهم لآبائهم وأبنائهم وأهاليهم من أجل نُصرتهم له.

وهذا الدليلُ الذي يُثبت وتُقيِّم به حُبَّك للنبي ﷺ؛ فإن كان أعظمَ شيءٍ عندك، واعتبارُ موافقته أكبرَ من أيِّ اعتبارٍ، في اتِّخاذ الطعام والشراب واللباس، واختيار الزوجة ومعاشرتها، وتربية الأولاد، وصِلة الأرحام، ودفعِ المظالم، والسعيِ للخير، والخدمةِ للدِّين، واذكر ما شِئتَ أن تَذكُرَه من أنماط الحياة إذا كنت فيها مقتديًا تمام الاقتداء برسول الله ﷺ، متجاوِزًا الأعرافَ والعاداتِ والتقاليدَ، مُتَخَطِّيًا حظوظَ النفس وشهواتِها ورغباتِها، فأنت ذلك الوقت إنسانٌ مُحِبٌّ لرسول الله ﷺ، وقد أقمتَ شاهدًا علىٰ ذلك في حياتك ليشهد لك بعد مماتك، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فهذا هو دليلُ المحبَّة وشاهدُها، ولتَجمعْ منه قدر ما تستطيع قبل موعد اللقاء.

ثم إنَّ محبّةَ الصحابة للنبي ﷺ لم تكن بالقضية التي تحتاج إلىٰ إثباتٍ لينطق بها أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكنه جعلها مقدِّمةً للجملة التي بعدها.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا؛ لِمَا يَعْلَمُونَ مِن كَرَاهَتِهِ لِذَلِكَ**»،

هذه هي القاعدةُ الذهبيةُ، والميزانُ الأكبرُ في وَزْنِ محبَّة المؤمن للنبي ﷺ، وهو الاتِّباعُ والاقتداءُ والاستنانُ.

أمَّا عواطفُ المحبَّة والشوقِ للنبي ﷺ، التي تقذفُ ببعض المحبِّين إلىٰ مواقعَ وخطواتٍ يتجاوزون فيها حُدود المشروع، ثم يزعمون أنه من مَحبَّة رسول الله ﷺ، فإنَّ ذلك مخالفٌ للمحبَّة الحقيقية الصادقة.

بل إنَّ بعضَهم يُساوِم الناس علىٰ هذه الأعمال المخالفة للشريعة، ويجعل مَن لا يفعلها ليس مُحِبًّا للنبي ﷺ، ومثال هذا يُقال له: إنَّك مهما زعمتَ وادَّعيتَ محبَّةَ النبي ﷺ فإنَّك لن تكون أكثر محبَّةً له من محبَّةِ الصحابة للنبي ﷺ، ومع ذلك فإنهم ما كانوا يخالفون شَرعَه لإثبات محبَّته ﷺ.

إنَّ الإنسانَ إذا أقبلَ عليه شخصٌ يُحِبُّه، فإنَّه يَهُشُّ له ويَبُشُّ، ويرىٰ نفسَه مُسرعًا قائمًا إليه، تعبيرًا عن فرحة قلبه واهتزاز مشاعره، يريدُ أن يأخذَه بالأحضان، ومع ذلك فإنَّ الصحابة ﷺ ما كانوا يفعلون ذلك؛ اتِّباعًا لشرعه وسُنَّته وهديه، وابتعادًا عن طريقة تعظيم الأعاجم لملوكها وعظمائها، وامتثالًا لنهي النبي ﷺ.

فكلُّ مَن خالف هديَ النبي ﷺ بداعي المحبَّة فدعواهُ مردودةٌ عليه.

***

(صحيح) **٢٩٠ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: «لَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ، وَلَوْ دُعِيتُ عَلَيْهِ لَأَجَبْتُ»**(١).

---

(١) أخرجه الترمذي (١٣٣٨)، وقال: «حسن صحيح»، وأخرجه البخاري (٢٥٦٨، ٥١٧٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

شرح الحديث

قوله ﷺ: «**لوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلتُ**»؛ الكُراعُ: عَظْمَةُ الساقِ في الحيوان؛ سواءٌ كان شاةً أو بعيرًا أو بقرةً، وقيل: مُسْتَدَقُّ الساقِ من الرِّجْل، ومن حَدِّ الرُّسْغِ إلىٰ اليَدِ، وما زال عامَّة الناس اليوم تُسمِّيها: الكوارع.

والكُراعُ كما هو معلومٌ ليس عليه كثيرُ لحمٍ، وإنما يستطيبُه بعضُ الناس لـمَرَقِه الذي يُطبَخ به، وأكلِ قليلِ اللحمِ الذي عليه.

والمقصود أن الكُراعَ هو أقلُّ جزءٍ من الحيوان حظًّا من لحمه، حيث إنه منتهىٰ الأطراف من القدمين واليدين، فهو أقلُّها لحمًا، ومع ذلك كان النبي ﷺ إذا دُعِي إلىٰ كُراعٍ أجابَ.

والمقصود عدمُ استحقار الهدية وإن كانت يسيرةً أو زهيدةَ الثمن؛ لأنَّ العبرة ليست في مقدار الهدية أو ثَمَنها أو قيمتها، وإنما في مشاعر صاحبها الذي يُقدِّمها إليك، وقد تكون ـ مع زهادتها ـ أعظمَ ما يستطيعُ بذلَه، فمراعاةُ مشاعِرِه تقتضي قبولَ الهدية.

وأما انتقاصُ الهدية واحتقارُها فمخالفٌ لهدي النبي ﷺ.

***

(صحيح) **٢٩١ـ عَن جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: «جَاءَنِي رَسُولُ اللهِ لَيْسَ براكِبِ بَغْلٍ وَلَا بِرْذَوْنٍ»**(١).

(١) أخرجه البخاري (٥٦٦٤) بمثله، ومسلم (١٦١٦)، بمعناه.

شرح الحديث

قول جابر رضي الله عنه: «جَاءَنِي رَسُولُ اللهِ»، وسببُ مجيئه أنَّ جابرًا رضي الله عنه قد مرض، ففي صحيح البخاري: «مَرِضْتُ مَرَضًا، فَأَتَانِي النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُنِي وَأَبُو بَكْرٍ، وَهُمَا مَاشِيَانِ»(١).

قوله رضي الله عنه: «لَيْسَ بِرَاكِبِ بَغْلٍ وَلَا بِرْذَوْنٍ»؛ البَغْلُ معروف، والبِرْذَوْنُ: دابَّةٌ تُشبِهُ الخَيل.

وقد جاء التصريحُ في رواية البخاريِّ بأنَّه جاء ماشيًا.

والشاهدُ من هذا الحديث: أنَّ قَطعَ المسافات مَشيًا يدلُّ على التواضُع، وعدم التكلُّف والترفُّع.

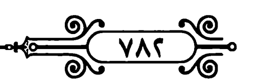
***

(صحيح) ٢٩٢- عَنْ يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَّامٍ رضي الله عنهما قَالَ: «سَمَّانِي رَسُولُ اللهِ يُوسُفَ، وَأَقْعَدَنِي فِي حِجْرِهِ، وَمَسَحَ عَلَى رَأْسِي»(٢).

«عَنْ يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَّامٍ»؛ أبوه عبد الله بن سلام رضي الله عنه، حَبرٌ من أحبار اليهود قبل الإسلام، وكان من يهود بني قَيْنُقاعٍ، ومن أوائل من أسلم بعد مَقْدَم رسول الله ﷺ المدينة، فهو إمامٌ حَبرٌ عالمٌ في الإسلام وفي اليهودية، وقد بشَّره النبي ﷺ بالجنَّة؛ فعَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: مَا

(١) أخرجه البخاري (٥٦٥١).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٤٠٤).



سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لِأَحَدٍ يَمْشِي عَلَىٰ الأَرْضِ: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»، إِلَّا لِعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ، قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠](١).

قول يوسف بن عبد الله رضي الله عنهما: «سَمَّانِي رَسُولُ اللهِ يُوسُفَ، وَأَقْعَدَنِي فِي حِجْرِهِ، وَمَسَحَ عَلَىٰ رَأْسِي»، وإنما علِم يوسفُ بما فعله رسول الله ﷺ معه في صِغَره عن طريق حكاية أهله له ذلك؛ حيث كانوا يعُدُّون ذلك شرفًا، حَفِظوه، وغَرَسوه في نفس هذا الطفل، حتىٰ كَبرَ واحتفظَ بهذا الشرف وهذه المنقبة.

وفي هذا الحديث مَظهرٌ آخر من مظاهر تواضُعه ﷺ، فمع عظيم شُغله وكثرة أعماله إلا أنَّه يجد وقتًا لمجالسة الصبيان، ولا يترفَّع عن التودُّدِ والتلطُّفِ معهم، والدعاء لهم.

***

(صحيح) ٢٩٣ـ عَنْ عَمْرَةَ قَالَتْ: قِيلَ لِعَائِشَةَ: مَاذَا كَانَ يَعْمَلُ رَسُولُ اللهِ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: «كَانَ بَشَرًا مِنَ البَشَرِ؛ يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ»(٢).

شرح الحديث

قول عمرة: «قِيلَ لِعَائِشَةَ: مَاذَا كَانَ يَعْمَلُ رَسُولُ اللهِ فِي بَيْتِهِ؟»، سُئِلَت رضي الله عنها عمَّا كان يصنع ﷺ في بيته؛ لأنَّ صنيعَه خارج البيت مشاهَدٌ ملحوظٌ مرصودٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨١٢)، ومسلم (٢٤٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٦١٩٤).

بالأبصار، ولكنَّ صنيعَه داخلَ البيت لا يطَّلِع عليه إلا أهلُ بيته، وقد كان التابعون حريصين علىٰ ألَّا يفوتهم شيءٌ من أخبار رسول الله ﷺ، وأن يعرفوا هديَه وسُنَّته في بيته.

وهذا حالُ مَن أراد الاقتداء والاهتداء بسُنّة النبي ﷺ، فهو لا يكتفي بمعرفة أحواله خارج البيت، وإنما أحواله الخفيّة التي تكون داخل البيت أيضًا.

قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ**»، هذا موضع الشاهد لما أراده المصنِّف من إثبات تواضُعه ﷺ، فهو وإن كان أعظمَ إنسانٍ عرفه التاريخُ ومَشَىٰ علىٰ وجه الأرض، ورفعَ ربُّه منزلتَه، وأعلىٰ قَدرَه، وأظهر علىٰ يديه الشيءَ الكثيرَ من المعجزات؛ إلا أنه كان في بيته كما يكون البشر، يقوم علىٰ شأنِ نفسِه بيديه، ويساعد زوجَه.

والذي يقول هذا الكلام هي زوجُه رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، صاحبةُ البيت، القائمةُ بخدمته، فهي أعلمُ الناس بذلك.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**يَفْلِي ثَوْبَهُ**»؛ أي: يتعاهدُه ويُفَتِّشُه ويُنظفُه مما لحقه من الوَسَخ والأذىٰ؛ كالقمل، والحشرات، والدُّود، والورق، والعُشب، ونحو ذلك مما يَعْلَق بالثوب.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**وَيَحْلُبُ شَاتَهُ**»، وهذا مظهرٌ من مظاهر التواضُع، وقِلَّة التكلُّف في حياته ﷺ.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ**»، جملةٌ عامَّةٌ بعدما سبق من تفصيلٍ يسيرٍ لخدمة نفسه.

فهذا مظهرٌ من مظاهر التواضُع؛ إذ إنَّ العظيمَ من شأنه عادةً أن يُخْدَم لا أن يَخْدُم، وأن يُسْبَق إليه بالأمر قبل أن يَطلُب، وأن يُقَدَّم له ما يريد قبل أن يسعىٰ في طلبه وتحصيله، ولكنه ﷺ من تواضُعه لم يكن كذلك.

وهذه فلسفةُ الحياة عند العُظَماء؛ ألَّا يرىٰ الإنسانُ لنفسه قدرًا زائدًا علىٰ غيره، وإن كان أهلًا له ومستحقًّا، فلا يشعر بترفُّعٍ علىٰ الآخرين، ولا يجد مانعًا من أن يفعل ما يترفَّع عنه بعضُ الناس دون سبب.

وقد يكون من غير الممكن في هذا الزمان لكثيرٍ من الناس أن يفعل مثل فعل النبي ﷺ، فأكثر الناسِ لا يحتاجون إلىٰ تفليةِ ثيابهم، وليس لهم شياهٌ يَحلُبونها.

ولكن يمكن أن يُقاس علىٰ ذلك بعضُ الأمور التي يعيشُها الناس اليوم؛ فيغسلُ ثوبَه بنفسه، ويَكويه بيده، ويغسل سيارتَه، ويحملُ علىٰ ظهره أو كتفه أغراضَه التي اشتراها من السوق مثلًا، وهكذا سائر الأمور التي قد يراها كثيرٌ منَّا من غير اللائق أن يفعلها بنفسه وإن كان قادرًا عليها.

عندما تزول العَظَمةُ الزائفةُ عن الإنسان يشعر أنَّه لا بأس عليه أن يمارس كثيرًا من الحياة بسهولة، دون مراعاةِ أنظارِ الناس واعتبارات الآخرين.

** ** **




بَابُ مَا جَاءَ فِي خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

هذا أحدُ أعظم أبواب الشمائل المحمَّدية، حيث الحديثُ فيه عن خُلُق إمام الأنبياء وسيِّد المرسلين ﷺ، وهو بابٌ لا يَجد المبحِرُ فيه ساحلًا له، وذلك حقيقةً لا مبالغةً، ذلك أنَّ الحديث عندما يكون عن أخلاق رسول الله ﷺ فإنَّ الجُمَلَ تتصاغَرُ، والأوصافَ التي يُراد تَحبيرُها تَتلاشَىٰ.

هذا الباب يُفَسِّرُ شيئًا من معاني الثناء الإلهيِّ العظيم علىٰ النبيِّ الكريم ﷺ في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فما وصفه الله بالعَظَمة لا يُمكن لخلق إدراكه والإحاطةُ به، ولا يستطيع أن يتصوَّر منتهاهُ أحدٌ.

فكيف يُمكن أن يُوصَف ذلك القلب الرفيق الذي قال الله فيه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]!.

ومهما بلغت روعةُ العبارات فكيف يمكن أن تَصِف كمالَ أدبه وعقله ولسانه وبصره، بعد أن زكَّاه ربُّه بقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢]!، وبعد أن قال فيه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، وبعد أن قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]!.

فبعد هذا الوصف الإلهي لم يبقَ لبشرٍ قولٌ، وما تركت الآياتُ متَّسَعًا لمدحِ مادحٍ ولا وَصْفِ واصفٍ، وما وَصْفُ الصحابةِ له في الروايات التي

تواترت ألفاظُها وتعدَّدت أبوابُها إلا محاولةٌ لتقريب الصورة لِمَن لم يرَ أخلاقه ﷺ، هذه الأخلاق التي جعلت قلوب أصحابه تجتمع عليه محبةً له، بل قلوبَ الأمَّة جمعاء!!

هذه العَظَمة في أخلاقه ﷺ **تستوجِبُ علىٰ المسلمين ثلاثةَ أمور:**

الأمر الأوّل: إجلالُه ﷺ وتقديرُه ومهابتُه، وقد أمر الله بذلك في قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٨ ـ ٩]، وإنما يزداد إجلالُه وتقديرُه ومهابتُه في قلب المؤمن عندما يقف علىٰ أطرافٍ من خُلُقه العظيم ﷺ.

الأمر الثاني: أنَّ عَظَمة خُلُق النبي ﷺ تستوجب مزيدَ محبَّةٍ له في قلب المؤمن، تأسِرُ قلبَه وتأخذ بلُبِّه، بما يعرفه من شمائله وأخلاقه وعَظَمته ﷺ.

والأمر الثالث: صدقُ الطاعة، ووَفرةُ الاغتراف من معين هذا الخُلق العظيم، حتىٰ يَعُدَّ المؤمنُ نفسَه تلميذًا صغيرًا في مدرسة أخلاق النبي ﷺ، فإنَّ المسلمَ مهما بلغتْ به الدرجاتُ، وارتفعتْ به المقاماتُ، فإنه يظلُّ صغيرًا متعلِّمًا أمام هذا الهدْي والخُلُق العظيم.

***

٢٩٤ـ (ضعيف) **عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: دَخَلَ نَفَرٌ عَلَىٰ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه فَقَالُوا لَهُ: حَدِّثْنَا أَحَادِيثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «مَاذَا أُحَدِّثُكُمْ؟ كُنتُ جَارَهُ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ بَعَثَ إِلَيَّ، فَكَتَبْتُهُ لَهُ، فَكُنَّا إِذَا ذَكَرْنَا الدُّنْيَا ذَكَرَهَا**

مَعَنَا، وَإِذَا ذَكَرْنَا الآخِرَةَ ذَكَرَهَا مَعَنَا، وَإِذَا ذَكَرْنَا الطَّعَامَ ذَكَرَهُ مَعَنَا، فَكُلُّ هَذَا أُحَدِّثُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ»(١).

شرح الحديث

هذا الحديثُ ضعيفٌ سندًا، وفي غيره من أحاديث البابِ غُنْيَةٌ عنه وزيادةٌ، ولا بأس بشرح ألفاظه.

قول زيد بن ثابت رضي الله عنه: «**مَاذَا أُحَدِّثُكُمْ؟ كُنتُ جَارَهُ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ بَعَثَ إِلَيَّ، فَكَتَبْتُهُ لَهُ**»، لقد كان زيدُ بن ثابت رضي الله عنه قريبًا من النبي ﷺ من جهتين: من جهةِ أنه جارُه يسكنُ بجواره، ومن جهةِ أنه كان كاتبًا للوحي، يستدعيه النبي ﷺ كلما نزل عليه الوحيُ ليكتبَ له ما نزل عليه، وهذا يستدعي كثرةَ إتيانه ومخالطتِه النبيَّ ﷺ؛ فحصل له من القُرب ما لم يكن لكثيرٍ من الصحابة غيره.

وعبارة: «**مَاذَا أُحَدِّثُكُمْ؟**»، تُفِيدُ كثرةَ الأحاديث التي يعرفُها عن النبي ﷺ؛ فكأنه يقول بعبارةٍ معاصرةٍ: ماذا أذكر؟ وماذا أترك؟ ومن أين أبدأ؟ وأين سأنتهي؟

قوله رضي الله عنه: «**فَكُنَّا إِذَا ذَكَرْنَا الدُّنْيَا ذَكَرَهَا مَعَنَا، وَإِذَا ذَكَرْنَا الآخِرَةَ ذَكَرَهَا مَعَنَا، وَإِذَا ذَكَرْنَا الطَّعَامَ ذَكَرَهُ مَعَنَا**»، هذه العبارة يُقصَد بها أحدُ معنيَيْن:

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٥/ ١٤٠، رقم: ٤٨٨٢)، وضعَّفه الألباني لجهالة راويه سليمان بن خارجة بن زيد بن ثابت.

المعنىٰ الأوّل: أنَّه ﷺ كان يشاركهم هُمومَ الحياة، ويتحدَّث بأحاديثِهم التي يطرحونها في مجالسهم، فكأنَّه واحدٌ منهم.

وفي هذا معنًى كبيرٌ، وهو أنه كان قريبًا منهم معنويًّا، يشاركهم حياتَهم، ولا ينصِبُ الحواجزَ الوهميةَ بينه وبينهم، ولا يعيش في بُرجٍ عاجيٍّ لا يدري عن الناس ما يُهِمُّهم وما يعيشونه وما يتحدّثون عنه، بل هو مشاركٌ لهم في حياتهم علىٰ اختلاف أبوابها.

والمعنىٰ الثاني: أنه كان يشاركُهم حديثَهم علىٰ الوجهِ الذي يحصل له منه تعليمهم، فإذا تحدَّثوا عن الدنيا شاركهم الحديثَ ببيان حَقارتِها، ووَجَّههم إلىٰ عدم الاكتراث بها والاستكثار منها، وإذا تحدَّثوا عن الآخرة شاركهم الحديثَ علىٰ وجه الترغيب والتشويق والحثِّ، وذكر ما أعدَّ الله ﷻ لأهل الجنة، وما لهم من الدرجات العُلَىٰ، وإذا ذكروا الطعام ذكره معهم علىٰ وجهٍ يُبيِّن لهم فيه آدابَه، وما يُستحَبُّ لهم فيه.

***

٢٩٥ـ (حسن) **عَنْ عَمْرِو بْنِ العَاصِ ﵁ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُقْبِلُ بِوَجْهِهِ وَحَدِيثِهِ عَلَىٰ أَشَرِّ القَوْمِ؛ يَتَأَلَّفُهُم بِذَلِكَ، فَكَانَ يُقْبِلُ بِوَجْهِهِ وَحَدِيثِهِ عَلَيَّ، حَتَّىٰ ظَنَنتُ أَنِّي خَيْرُ القَوْمِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا خَيْرٌ أَوْ أَبُو بَكْرٍ؟ قَالَ: «أَبُو بَكْرٍ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا خَيْرٌ أَوْ عُمَرُ؟ قَالَ: «عُمَرُ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا خَيْرٌ أَوْ عُثْمَانُ؟ قَالَ: «عُثْمَانُ»، فَلَمَّا سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَصَدَقَنِي فَلَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُن سَأَلْتُهُ».**

شرح الحديث

في هذا الحديث بيانٌ لِسَعَة خُلُقه ﷺ، وسَعَة صدره، ووَطَاءة كَنَفه، ولِين جانبه، مع مختلَف الناس الذين يتعامل معهم، علىٰ اختلاف شخصيَّاتهم، وتفاوُت عقولهم وأحوالهم، وتعدُّد أنماطهم.

قول عمرو بن العاص رضي الله عنه: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُقْبِلُ بِوَجْهِهِ وَحَدِيثِهِ عَلَىٰ أَشَرِّ القَوْمِ**»، إذا كان هذا حالُه مع شرِّ الجالسين معه في المجلس من الإقبال بالوجه والانبساط، فما ظنُّك بحاله ﷺ مع من هو خيرٌ منه من أقوياء الإيمان السابقين بالإسلام وخيار الأنصار؟

فعلىٰ المسلم ألَّا يَضِيقَ صدرُه بكثرة الجالسين إليه، أو المتحدِّثين معه، أو المزدحمين علىٰ بابه، فهذا موطنٌ تُخْتبَرُ فيه سَعَةُ النفوس، واتِّساعُ الأخلاق، فمهما لَقِيتَ من الناس تبقىٰ البشاشةُ والهشاشةُ ظاهرةً علىٰ وجهك، وليس ذلك بالأمر اليسير.

قوله رضي الله عنه: «**يَتَأَلَّفُهُم بِذَلِكَ**»؛ أي: إنما كان يصنع ذلك مع شرِّ القوم تأليفًا لقلبه علىٰ الإسلام، وهدايتِه لهذا الدين.

وهكذا هم أصحابُ الرسالة العُظمىٰ، والمبادئ العالية، والهِمَم الكبيرة، فيبذُلون من أخلاقهم وأوقاتهم وأموالهم لأجل تحقيق هذه المبادئ.

قوله رضي الله عنه: «**فَكَانَ يُقْبِلُ بِوَجْهِهِ وَحَدِيثِهِ عَلَيَّ، حَتَّىٰ ظَنَنتُ أَنِّي خَيْرُ القَوْمِ**»؛ أي: شَعَر من كثرة ما رأىٰ من إقبال النبي ﷺ عليه، وكثرة الحديث معه، بحفاوةٍ

واختصاصٍ، فكأنَّه ليس أحدٌ مقدَّمًا عليه في قلب رسول الله ﷺ، حتىٰ بدأ يظُنُّ أنَّه ينافِسُ الكبارَ في مكانتهم عند رسول الله ﷺ، فسأله ما سأل.

وهنا وقفةٌ؛ فإنَّ عمرو بن العاص رضي الله عنه أسلم متأخّرًا، حيث لم يُسلِم إلا بعد الحُديبية، فلم يكن من المهاجرين السابقين بالإسلام، ولم يكن من كبار الأنصار، ومع ذلك.. فسنواتٌ يسيرةٌ معدودةٌ قضاها في صُحبة رسول الله ﷺ كانت كافيةً بأن يشعرَ معه هذا الشعور، هذا مع العلم بأنَّ عمرَو بنَ العاص لم يكن من ضعافِ العقول بحيث يَظُنُّ أنَّه مقدَّمٌ في قلب إنسانٍ لمجرَّد ابتسامةٍ عابرةٍ، أو حديثٍ في مجلسٍ يَسُرُّ الخاطِر، بل هو الداهيةُ صاحبُ العقل الحصيف، ومع هذا فإنَّ حُسنَ تعامُلِ النبي ﷺ أوصله إلىٰ هذا المنطق والشعور، الذي ظنَّ معه أنَّ له مكانةً ليست لغيره في قلب النبي ﷺ.

قوله رضي الله عنه: «**يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا خَيْرٌ أَوْ أَبُو بَكْرٍ؟**» هو ما سأل هذا السؤالَ إلا لِما وجده من الإقبال والبشاشة وحُسن الحديث من النبي ﷺ.

قوله رضي الله عنه: «**يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا خَيْرٌ أَوْ عُمَرُ؟**»، لَمَّا فَقَدَ الصدارةَ طمِعَ في المرتبة الثانية، فسألَ هذا السؤال.

قوله رضي الله عنه: «**يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا خَيْرٌ أَوْ عُثْمَانُ؟**»، فَقَدَ المرتبةَ الثانيةَ، ولم يزل طامعًا مُتطلِّعًا أن يَظفر بشيءٍ مِن القُرب.

وهذا الترتيب منه لهؤلاء الصحابة الكرام رضي الله عنهم دليلٌ علىٰ أنَّه قد وَقَر في قلبِه أنَّ ترتيب أفضليَّة الصحابة كان هكذا علىٰ هذا الترتيب، وهذا موافقٌ لما في الحديث عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «**كُنَّا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لا نَعْدِلُ بِأَبِي بَكْرٍ أَحَدًا،**

ثُمَّ عُمَرَ، ثُمَّ عُثْمَانَ، ثُمَّ نَتْرُكُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ، لا نُفَاضِلُ بَيْنَهُمْ»(١).

وفي هذا ردٌّ علىٰ أولئك الذين لا يَعرفون مراتبَ هؤلاء العِظام؛ كمثلِ الذين يَطعنون في إمامة الشَّيخين، أو يَنتقِصون من قَدرهما، والذين لا يفقهون حقيقةً مكانةَ الصحابة ومنازلَهم وأقدارَهم رضي الله عنهم، أولئك الذين تَعمَىٰ أبصارُهم وتَصَمُّ آذانُهم عن المواضع التي تواتَرَتْ ألفاظُها ومعانيها في إمامة هؤلاء السابقين والخلفاء الراشدين.

وهذا التخييرُ والمفاضَلةُ لا يعني الحطَّ من أقدار الآخرين، ولا الانتقاصَ من شأن باقي الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ، لكنها تدلُّ علىٰ إثبات الفضل لصاحبه.

قوله رضي الله عنه: «**فَلَمَّا سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَصَدَقَنِي**»، فيه صِدقُ رسول الله ﷺ، نعم؛ كان يبذُلُ من الوُدِّ والبشاشةِ لجميع الناس ما يَبذُلُه لأقرب المقرَّبين إليه، ولكنه عندما سُئِل أجاب بالصِّدق، ولم يَحتَجْ أن يَكذِبَ لأجل إرضاءِ مشاعرِ الآخرين، خاصَّةً وأنَّ الإجابةَ مترتِّبٌ عليها أحكامٌ شرعيةٌ.

ومع ذلك فإنه لم يَسمع من النبي ﷺ ما يُؤذِيه في مشاعره.

قوله رضي الله عنه: «**فَلَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُن سَأَلْتُهُ**»، ودَّ أنه لم يكن قد سألَ؛ لِئَلَّا يقف علىٰ حقيقة الجواب، ويبقىٰ فَرِحًا بهذا الشعور الذي بداخله، فيكفيه الشعورُ وإن لم يكن حقيقةً.

***

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٧).

٢٩٦ـ (صحيح) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ؛ قَطُّ، وَمَا قال لي لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ صَنَعْتَهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: لِمَ تَرَكْتَهُ؟ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، وَلَا مَسَسْتُ خَزًّا وَلَا حَرِيرًا وَلَا شَيْئًا كَانَ أَلْيَنَ مِن كَفِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا شَمَمْتُ مِسْكًا قَطُّ وَلَا عِطْرًا كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ النَّبِيِّ ﷺ»(١).

شرح الحديث

هذا الحديثُ من أمتَع الأحاديث التي تَحكي طَرفًا مِن خُلُقِ ورِفعةِ وجَمالِ رسولِنا ﷺ، حيث إنَّ كلَّ جُملةٍ فيه تستحقُّ أن تُفرَدَ بدرسٍ، حديثٌ يحكيه الصحابيُّ الجليلُ أنس بن مالك رضي الله عنه الذي أدرك النبي ﷺ منذ قَدِم المدينةَ، ولزِمَه علىٰ شرف الخدمة، حتىٰ مات ﷺ.

قول أنس بن مالك رضي الله عنه: «**خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ**»، المدَّةُ التي قضاها أنس رضي الله عنه في خِدمة رسول الله ﷺ هي مُدَّة بقائه في المدينة زمن الدعوة في العهد النبوي بأكمله، فصُحبةُ أنسٍ رضي الله عنه صُحبةٌ قريبةٌ لَصيقةٌ، ومُعايَشتُه للنبي ﷺ مُعايَشةٌ عن قُربٍ، فلم يكن مُجرَّدَ صحابيٍ، بل تستطيع أن تقول هو بمثابة وَلَده الذي تربَّىٰ عنده، حيث إنَّه في خدمته للنبيِّ ﷺ يبقىٰ معه في بيته، ويرسلُه النبي ﷺ ليقوم بأموره وحاجاته، فهو لأجل ذلك من أوفر الصحابة حظًّا بالرواية التي تحكي صِفةَ خِلقته وخُلُقه ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٣١٧)، والترمذي (٢٠١٥)، وقال: «حسن صحيح»، وأخرجه البخاري (١٩٧٣، ٦٠٣٨)، مسلم (٢٣٠٩)، بنحوه.

هذا الخادمُ المُحِبُّ الذي ما عرفت البشريةُ خادِمًا أشرف منه، ولا مَخدومًا أعظمَ من مخدومه ﷺ، فكم كان أهلُ أنسٍ موفَّقين حينما أتَوا به النبيَّ ﷺ ليخدِمَه؛ فظَفِرَ بشرف الخِدمة، وشرف الصُّحبة، مع ما هو فيه من صِغَر سنٍّ كان يستوعب فيه ما يكون منه ﷺ.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ؛ قَطُّ**»، هذه عبارةٌ تهزُّ القلوب، وتُزلزل الأفئدة، وتجعل الإنسانَ يعيدُ حساباته في أخلاقه وقِيَمه ومبادئه! فكيف يكون الخادِمُ معه عشرَ سنينَ ثم لا يجدُ تأفُّفًا من سيّده ولو مرةً واحدة فقط، مع طُول العِشرة وكثرة المعاملة؟

ذلك أنَّ تعدُّدَ المواقفِ يزيدُ من احتمال الخطأ؛ فإنَّ المسلم إذا تعدَّىٰ عليه شخصٌ عابرٌ في الشارع أو السُّوق أو مقرِّ العمل فإنَّ حِلْمَه يكون أسهلَ، ذلك أنه خطأٌ واحدٌ غيرُ متكرِّر، وإذا تكرَّرَ الخطأُ من الزوجة التي تكثُر معاشرتُها فإنَّ الأُلفةَ الزوجية وطولَ المعاشَرة قد يُسَهِّل من هذه الأخطاء ويُهوِّن من شأنها، ولكن عندما يكون المخطئُ خادِمًا ويتعدَّدُ خَطؤُه فإنَّه في الغالب يصعُبُ الحِلْمُ عليه، ويقلُّ التسامُحُ معه، وهذا ما يدلُّ علىٰ عَظَمة خُلُق النبي ﷺ.

وليس مقصودُ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه هو الذي لم يُخطئ مرَّةً في الخِدمة ولم يُقَصِّر، بل الحديثُ عن عَظَمة أخلاق النبي ﷺ.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**وَمَا قال لي لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ صَنَعْتَهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: لِمَ تَرَكْتَهُ؟**»، فلم يُعاتِب خادمَه في شيءٍ أخطأَ فيه أو قصَّر.

وليس المقصود أنَّ أنسًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم يخطئ قطُّ؛ فإنَّ هذا لا يكون مع طول

المدَّة، مهما تفانَىٰ في خدمته فلا بُدَّ أن يقع منه قصورٌ؛ بسبب خطأٍ أو جهلٍ أو نسيانٍ، ومع ذلك ما عاتبه النبي ﷺ علىٰ شيءٍ قطُّ.

قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَاللهِ، لَا أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَخَرَجْتُ حَتَّىٰ أَمُرَّ عَلَىٰ صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِن وَرَائِي، قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: «**يَا أُنَيْسُ، أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ، يَا رَسُولَ اللهِ(١).

وأمَّا أحدُنا اليوم فلو أبطأَ خادمُه أو زوجتُه أو ابنُه لَغضِبَ، وكان انفعالُه سريعًا.

ولا بُدَّ من التفرقة بين الحَزم المطلوب الذي تَنضبِطُ به أمور المنزل وتترتَّب، وبين الجفاءِ والغضبِ الذي تفسُدُ معه العلاقاتُ الزوجيةُ والأُسريةُ؛ فإنَّ المطلوبَ في البيت أن يُبنىٰ التعامُلُ علىٰ حُسن العِشرة والمحبَّة والوئام والسكن، مع التزام الزوجة والأولاد بالأدب والاحترام، فلا بُدَّ من وجود قدرٍ من التفاهُم، ولا بُدَّ أن يَعلم رَبُّ الأسرة أنَّ الأخطاءَ لا بُدَّ أن توجد من الزوجة والأولاد، فعليه أن يتجاوز عن كثيرٍ منها، مع عدم الإخلال بالحزم والانضباط.

ولكن أن تتحوَّل التربية والمعاملة إلىٰ عَطَنٍ ضيِّقٍ، وخُلُقٍ سيِّءٍ، ونُفرةٍ وانزعاجٍ، وتبرُّمٍ وصراخٍ وصياحٍ، وتَطاوُلٍ بالألسُن والأيدي؛ فهذا ليس من العشرة الزوجية والتربية الحسنة في شيءٍ، خاصَّةً إذا كان الخطأُ سهلًا مما يمكن

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٠).

التسامُحُ معه، كالتأخُّر أحيانًا في صناعة الطعام، أو عدم إجادته، أو تقصيرٍ من الأولاد في الواجبات، أو نحو ذلك؛ فإنَّ البيوت ليست معسكراتٍ يقودُها قادةُ جيشٍ، بحيث إذا اختلَّ أيُّ نظامٍ وامتثالٍ استحقَّ الـمُخطئُ العقابَ مباشرةً!

والبيوت إذا تحوَّلت إلىٰ مُعسكَراتٍ بهذا الشكل فإنَّ الإنسانَ لا يَسكُنُ فيه ولا يجد فيه الراحة، ويتحوَّل البيتُ إلىٰ مُجَرد جُدرانٍ وفُرُشٍ ومكانٍ للنوم، وليس مكانَ مودَّةٍ والتقاءٍ أُسريٍّ.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنزَعُ مِن شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**»(١).

وحديثُ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ما كان الحديث فيه عن الأولاد والمعاشرة الزوجية، بل كان حُسنُ الخلق هنا مع الخادم، فإذا كان خُلُقه ﷺ مع خادمه هكذا؛ فكيف هو مع أهل بيته وأبنائه؟

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا**»، وهذه جملةٌ عظيمةٌ عامَّةٌ تشهد لها تفاصيلُ ما جاء في رواياتٍ كثيرةٍ متعدِّدةٍ، اتَّفقتْ علىٰ هذا المعنىٰ العظيم وفصَّلتْه.

قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**وَلَا مَسَسْتُ خَزًّا وَلَا حَرِيرًا وَلَا شَيْئًا كَانَ أَلْيَنَ مِن كَفِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»؛ الخزُّ: الحريرُ، أو قماشٌ فيه حريرٌ.

يَصِفُ كفَّ النبي ﷺ التي لطالما صافحها وقبض عليها، فيصِفُها بالنعومة واللُّيونة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤).

وما كانت هذه نعومةَ العيش التي أورثت نعومةَ البدن، فإنَّه ﷺ كما دلَّت الرواياتُ المتعدِّدةُ ما كان يعيشُ عيشةً ناعمةً أو مُترَفةً، بل عِيشةَ شَظَفٍ وتعبٍ، وإنما هي خِلْقَةٌ كريمةٌ جميلةٌ خَلَقه الله عليها؛ فكما كان ﷺ على أتمّ الأخلاق وأجملها كذلك كان ﷺ على أتمّ الأوصاف وأحسَنها.

قوله رضي الله عنه: «**وَلَا شَمَمْتُ مِسْكًا قَطُّ وَلَا عِطْرًا كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ النَّبِيِّ ﷺ**»، بلغ من جماله وجلاله وكمال صفاته ﷺ أنَّ العرَقَ الذي يُسْتَقْذَرُ عادةً من الناس لنَتْنِهِ ورائحته يكون منه ﷺ شيئًا جميلًا.

وفي هذا أمران:

الأمر الأوّل: تواضُعُه ﷺ مع مَن حوله حتى إنهم ليكونون قريبًا منه، يَشتمُّون منه رائحةَ جسده الشريف.

الأمر الثاني: شِدّةُ تأمُّل الصحابة لأحوال النبيّ ﷺ، واجتهادُهم في معرفتها ونقلها إلينا، حتى في بيان عَرَقِه ﷺ.

***

٢٩٧ـ(ضعيف) **وَعَنْهُ** رضي الله عنه، **عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ رَجُلٌ بِهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ، قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لا يَكَادُ يُواجِهُ أَحَدًا بِشَيْءٍ يَكْرَهُهُ، فَلَمَّا قَامَ قَالَ لِلْقَوْمِ: «لَوْ قُلْتُمْ لَهُ يَدَعُ هَذِهِ الصُّفْرَةَ»**(١).

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٧٣)، وأبو داود (٤١٨٢)، وضعَّفه الألباني؛ لضعف راويه سلم العلوي.

شرح الحديث

(وَعَنْهُ رضي الله عنه) أي: عن أنس رضي الله عنه.

وهذا الحديثُ وإن كان ضعيفَ السند إلا أنَّ معناه ثابتٌ بنصوصٍ كثيرةٍ متَّفِقةٍ في المعنىٰ، تدلُّ علىٰ مراعاته ﷺ لمشاعر الآخرين واللُّطف في نُصح المخطئ.

قول أنس رضي الله عنه: «**أَنَّهُ كَانَ عِندَهُ رَجُلٌ بِهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ**»؛ أي: في ثيابه لون صَفَار، والصُّفرةُ في الثياب تكون عادةً من الزَّعفران، أو يكون ثوبًا مُعَصْفرًا، وكلاهما قد نهىٰ عنه النبي ﷺ، فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: **رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيَّ ثَوْبَيْنِ مُعَصْفَرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ مِن ثِيَابِ الكُفَّارِ؛ فَلَا تَلْبَسْهَا»**[(١)]، وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «**نَهَىٰ النَّبِيُّ ﷺ أَن يَتَزَعْفَرَ الرَّجُلُ**»[(٢)]، والمقصود: النهيُ عن استعمال الزَّعفران؛ فإنه طيبٌ للنساء، إذ الزَّعفرانُ مما يظهرُ لونُه ويَخفَىٰ رِيحُه، وهذا شأن طِيب النساء في الإسلام.

قول أنس رضي الله عنه: «**وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَكَادُ يُوَاجِهُ أَحَدًا بِشَيْءٍ يَكْرَهُهُ، فَلَمَّا قَامَ قَالَ لِلْقَوْمِ: «لَوْ قُلْتُمْ لَهُ يَدَعُ هَذِهِ الصُّفْرَةَ»**، في هذا الموقف جمعٌ بين واجب التوجيه والنصح، وبين عدم إيذاء مشاعر المنصوح وإحراجه أمام الناس، وهكذا كان شأن النبي ﷺ في النصيحة، فإنه يعاتِبُ مع الرِّفق العظيم واللُّطف والوُدّ.

***

(١) أخرجه مسلم (٢٠٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٤٦)، ومسلم (٢١٠١).

٢٩٨ـ (صحيح) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «لَمْ يَكُن رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا وَلَا صَخَّابًا فِي الأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِن يَعْفُو وَيَصْفَحُ»(١).

شرح الحديث

قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «لَمْ يَكُن رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا»؛ الفُحشُ: سوءُ الأدب، والأخلاقُ الرذيلةُ من الأقوال والأفعال.

والفرق بين الفاحِشِ والـمُتَفَحِّش: أنَّ الفاحِشَ سيِّءُ الأدَب في أخلاقه، والـمُتَفَحِّشُ: المتكلِّفُ اكتسابَ الفُحش.

وأيًّا ما كان المعنىٰ: فقد برّأت أمُّ المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا رسولَ الله ﷺ من الفُحش كلِّه خُلُقًا وتطبُّعًا، فلم يكن بفاحِشٍ ﷺ في أقواله ولا أفعاله.

وحياةُ النبي ﷺ كلُّها شاهدةٌ علىٰ هذا؛ فلم يُحفَظ أنه خرج من شفتَيْ رسول الله ﷺ كلمةٌ نابيةٌ أو عبارةٌ قاسيةٌ أو سوءٌ في الكلام أبدًا، لا غاضبًا ولا مازحًا ولا متباسطًا.

وفي هذا همسةٌ لِمَن أَلِفَ الفُحْشَ في الكلام والمزاح والأفعال، أن يقتدوا برسول الله ﷺ في تهذيب أخلاقهم وأفعالهم وأقوالهم، وهو الذي حثَّهم علىٰ ذلك بقوله: «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاقًا»(٢)، وعَن جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ

(١) أخرجه أحمد (٢٥٤١٧)، والترمذي (٢٠١٦)، وقال: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٥٩)، ومسلم (٢٣٢١).

قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا»(١)، فلا تخسرنَّ القُربَ منه يوم القيامة بسببِ كلمةٍ تخرُج من لسانك، أو إشارةٍ تصدُرُ من يدك أو عينك، ألا يكفيك حِرمانًا أنَّك لم تَشرُف بصُحبته في الدنيا حتىٰ تزهد في قُربك منه في الآخرة ؟

قولها رضي الله عنها: «**وَلَا صَخَّابًا فِي الأَسْوَاقِ**»؛ الصَّخَّاب: كثيرُ رفع الصوت.

والأسواقُ عادةً مَجمَعُ عامّة الناس، وليس بمكانِ عبادةٍ كالمساجد، ولا مكانِ تعليمٍ وأدبٍ كحِلَق التعليمِ والمدارس؛ فهو مَظِنَّةُ اجتماع الأراذِلِ والغَوْغَاء والعامّة والسُّفَهاء، وصُدور ما لا يليقُ من الأقوال والأفعال، ويحصُل في الأسواق غالبًا من الناس ما يُسقِطُ المروءات في التعامل قولًا وفعلًا ومزاحًا، ولذلك كانت الأسواقُ أبغضَ البلاد إلىٰ الله كما صحَّ في الحديث(٢).

فإذا كانت الأسواقُ كذلك، وكان المرءُ العاقلُ يحتاج إلىٰ الذهاب إليها، فينبغي عليه أثناءَ وجوده في السوق ألا يفعل ما يُخِلُّ بالمروءة، وألا يتخلَّق بأخلاقِ أهل السوق، بل ينبغي ذلك علىٰ التجار وأصحاب البضائع والدكاكين أيضًا.

وفي الحديث دلالةٌ علىٰ أنَّ رفعَ الصوت والجهرَ به صُراخًا لا يليق بذي المروءة، خاصَّةً في حال الجدال والخصومة.

قولها رضي الله عنها: «**وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِن يَعْفُو وَيَصْفَحُ**»؛ أي: لا يُقابِل السيِّئةَ بالسيئةِ، بل يقابلُها بعفوٍ وصفحٍ وإحسانٍ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، وقال: «حسن غريب».

(٢) أخرجه مسلم (٦٧١).

ومن المعلوم أنَّ العدلَ هو مقابَلةُ السَّيِّئةِ بالسَّيِّئة، كما قال الله ﷻ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ولكنَّ منزلةَ النبي ﷺ كانت منزلةَ الفضل، وهي فوقَ منزلةِ العدل، قال سبحانه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠]، فلم يذكر أجرَه مِن عِظَمِهِ، ثم قال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣]، أي: هذا الأعلىٰ والأكمل والأشرف، وكذلك كان هدي النبي ﷺ.

وهذا شأن العُظَماء في أخلاقهم، أنهم يتحمَّلون الإساءةَ وساعات الغضب وردَّات الفعلِ الشديدةَ من إخوانهم، ويَعفُون عنهم ويَصفحون، فليس القويُّ قويَّ البدن والعضلات، وإنما القويُّ قويُّ الأخلاق والنفس، الذي يتحمَّلُ مواقفَ الاستفزاز، ومواضعَ الخطأ والأذىٰ.

ثم إنَّ عفوَهم وصبرَهم ليس من باب الضَّعف والاستكانة، بل هو عفوٌ مع قُدرةٍ علىٰ ردِّ الإساءة.

وقد سجَّلت السُّنَّة مواقفَ للنبيِّ ﷺ لم يُقابِل فيها الإساءةَ بالإساءة؛ كمُناداة الأعراب له من وراء الحُجُرات، وتغليظ الأعرابيِّ عليه في طلبه الصدقة وإمساكه لردائه وجذبه وتأثير ذلك في صفحةِ عُنُقه ﷺ، وإساءةِ اليهوديِّ له عند تقاضيه دَينه، وغير ذلك من المواقف التي ظهر فيها عفوُه وصفحُه ﷺ.

ومِمَّا جرت عليه عادةُ كثيرٍ من الناس في هذا الزمان أنَّهم إذا أرادوا أن ينصحوا المتغاضِبين والمتخاصِمين والمتشاجِرين أن يقولوا لهم: صلِّ علىٰ رسول الله ﷺ؛ إذ في الصلاة عليه تسكينٌ للنفوس وتهدئتُها، وأجدُ فيه معنىً لطيفًا أيضًا وهو الإشارةُ لهذين المتخاصِمَين بالاقتداء والائْتِساء في هذا المقام

بالنبي ﷺ، وكيف أنه كان يعفو ويصفح ولا ينتقم، حتىٰ إننا لنجد كثيرًا من هؤلاء يتمالك زِمامَ نفسِه ويتراجع، ويعفو عن صاحبه ويحلُم.

***

٢٩٩ـ (صحيح) **وَعَنْهَا** رَضِيَ اللهُ عَنْهَا **قَالَتْ: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا أَن يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا ضَرَبَ خَادِمًا وَلَا امْرَأَةً»**(١).

شرح الحديث

قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **«مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ»**؛ أي: ما كان ﷺ يستعمل يدَه في التأديب، ولا في التفاهُم والتعامُل مع الناس، وإنما يكتفي ﷺ بإرشاد المخطئ ونصحه بالكلمة الطيبة، وإذا غضِب غضبًا شديدًا عُرِف ذلك في وجهه دون أن يظهر أثرُ ذلك علىٰ يدِه.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **«إِلا أَن يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ»**: استثناءٌ مما سبق، وإنما يضرب بيده في الجهاد امتثالًا لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩]، فالغِلظةُ والشِدّةُ في الجهاد مَطلبٌ وأمرٌ إلهيٌّ.

ولك أن تَعْجَب مع ذلك أنَّه حتىٰ في غزوه وجهاده الذي لاقىٰ فيه صناديدَ الكُفر وشياطينَ الإنس وعُتاةَ بني آدم مِمَّن صدُّوا عن سبيل الله وعادَوه وآذَوه،

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٩٢٣).

وفتنوا أهلَ الإيمان عن اتِّباع رسولِ الله، أنه لم يَقتُل بيده ﷺ في غزواته كلها إلا رجلًا واحدًا فقط!

فلم يكن له يدٌ مُباشرةٌ في إراقة دمِ إنسانٍ إلا مرةً واحدةً فقط، وذلك أنه كان حريصًا علىٰ هدايتهم لا إراقة دمائهم، همُّه الأكبرُ أن يدخلوا الجنَّة، لا أن يَقذِفهم في النار.

وهذا لا يعني تخاذُلَه عن القتال والجهاد، بل كان يرفعُ رايةَ الجهاد ويُقيمُها، ويُسَيِّر الغزوات، ويبعثُ السرايا.

قولها رضي الله عنها: «**وَلَا ضَرَبَ خَادِمًا وَلَا امْرَأَةً**»، في هذا إشارةٌ إلىٰ الرجال من الأزواج والآباء والإخوان أنَّ الرجولة وكمالَها ليس في التسلُّط علىٰ الضُّعفاء من النساء والخَدَم، بل إذا أبصرْتَ رجُلًا يستطيلُ علىٰ امرأته وخادمه دون سببٍ، ويتجاوزُ الحدَّ معهما فاعلم أنه لا يتمتّع برجولةٍ حقيقيةٍ، ومَن يَفرض قوَّته البدنيةَ علىٰ أهله في كلِّ صغيرٍ وكبيرٍ فليس قائمًا بالقِوامة علىٰ وجهها.

وهذا لا يعني ألَّا يختلف الإنسان مع أهله وخَدَمه، بل له ذلك، وله أن يعاتِبَهم، وأن يحاسِبَهم، وأن يكون حازمًا معهم.

وقد يتعلَّل بعضُهم بأنَّ أهل النبي ﷺ وخدمه ما كانوا يخطئون معه؛ لأجل ذلك ما كان يحتاج إلىٰ ضربهم!

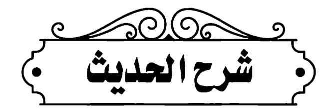
وهذا أمرٌ محالٌ، فإنَّ الخطأَ أمرٌ بشريٌّ، والحياةُ الزوجيةُ وعملُ الخِدمةِ يقتضيان ـ ولا شكَّ ـ وجودَ الخلافات والتقصير، فكلُّ هذا واردٌ، ولكنَّ الفرقَ بين رجلٍ وآخر أنَّ رجلًا يعلمُ أنَّ مقامَ الرُّجولة لا يكمُل إلا بالحِلم والأناةِ والتعقُّل!

بل إن نبيَّنا ﷺ قد عاش مع نساءٍ متعدِّداتٍ، تختلفُ طبائعُهنَّ وعاداتُهنَّ وأعمارُهنَّ، ومع ذلك عامَلَهنَّ جميعًا بما يدُلُّ علىٰ رُجولته وكريم أخلاقه ﷺ، فلم يَضرب إحداهُنَّ قطُّ، مع أنه قد يحتاج أحيانًا إلىٰ تأديبهِنَّ بالعِتاب والَهجر ونحو ذلك، فلم تكن حياتُه حياةً خاليةً من المنغِّصات والأكدار، بل كان بَشرًا يطرأُ عليه وعلىٰ حياته ما يطرأُ علىٰ البشر، ولكنه كان يعاملُ أهلَ بيته بالأرفق؛ فإنَّ الرفقَ ما كان في شيءٍ إلا زانَه.

وهكذا يجب أن تكون الحياةُ الأُسريةُ؛ فإنَّ الزوجاتِ والأولادَ من بنينَ وبناتٍ يحتاجون أن يُعامَلوا بالرفق، وأن يُظَلَّل بيتُهم بالسكينة والهدوء والوداعة، وأوَّلُ من يبحث منه عن الرِّفق في البيت هو الزوجُ والأبُ، فإذا فُقِد ذلك منه فُقِد من جميع أفراد العائلة.

***

٣٠٠ـ (صحيح) وَعَنْهَا أَيْضًا قَالَتْ: «مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُنتَصِرًا مِن مَظْلَمَةٍ ظُلِمَهَا قَطُّ، مَا لَمْ يُنتَهَكْ مِن مَحَارِمِ اللهِ شَيْءٌ، فَإِذَا انتُهِكَ مِن مَحَارِمِ اللهِ تَعَالَىٰ شَيْءٌ كَانَ مِنْ أَشَدِّهِمْ فِي ذَلِكَ غَضَبًا، وَمَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُن مَأْثَمًا»(١).



شرح الحديث

(وَعَنْهَا أَيْضًا) أي: عن عائشة ﵂، وإنَّما رُوِيَ عنها كثيرٌ من أحاديث

---

(١) أخرجه الحميدي في مسنده (٢٦٠)، وأخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (٨١٣)، مختصرًا.

الأخلاق لأنَّها كانت تعيش معه ﷺ في بيته، والميزانُ الحقيقيُّ للأخلاق إنما يكون داخلَ البيوت، وأمَّا الأخلاقُ خارجَ البيوت فإنما هي معاييرُ زائفةٌ، فإنَّ الإنسانَ قد يُحْسِنُ أن يُزَيِّن أخلاقَه ويتصنَّعها أمامَ الناس فترةً من الزمن، ولكن يصعُبُ عليه أن يستصحب هذا التصنُّع داخلَ بيته.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُنتَصِرًا مِن مَظْلَمَةٍ ظُلِمَهَا قَطُّ، مَا لَمْ يُنتَهَكْ مِن مَحَارِمِ اللهِ شَيْءٌ، فَإِذَا انتُهِكَ مِن مَحَارِمِ اللهِ تَعَالَىٰ شَيْءٌ كَانَ مِنْ أَشَدِّهِمْ فِي ذَلِكَ غَضَبًا**»؛ الحِلْم والغضبُ لله صفتان قد يبدو بينهما شيءٌ مِن عدم التوافُق ابتداءً، لكنهما اجتمعا في خُلُق رسول الله ﷺ، وهذا التوازنُ معادَلةٌ صعبةٌ؛ حيث يحتاجُ الإنسانُ أن يكون له معيارٌ دقيقٌ يُفرِّقُ فيه بين: متىٰ يعفو ويصفح، وذلك إذا كان التجاوُزُ والخطأُ في حقِّه هو، ومتىٰ يغضب وينتقم وذلك إذا كان الخطأُ في حقِّ الله سبحانه.

وشِدَّةُ الغضب هنا لا تُترجَمُ بسوء الخلق، والتلفُّظِ بالعبارات الجارحة، ونحو ذلك من سيِّئ الأخلاق، حاشاه ﷺ، ولكن المقصود هنا أنَّه لا يتسامَحُ مع انتهاك حُرُمات الله وتجاوُز حدوده ودِينه، وعدم الرضا بذلك.

وهذا هو المعيارُ الحقيقيُّ الذي يدلُّ علىٰ صدق الإنسان في حُبّه لله عَزَّ وَجَلَّ ودِينه؛ بحيث يكون الخطأُ في حقِّ الله أعظمَ عنده من الخطأ في حقِّه، ولكنّ الملاحَظَ عند كثيرٍ من الناس أنَّ المعادَلةَ عنده قد انعكست، وصار أحدُنا إذا انتُهِك حقٌّ من حقوقه ثار وغضب، وانفعلَ وزَمجَر، وأَرغَىٰ وأَزبَدَ، وتوعَّدَ وهدَّدَ، فلا يرضىٰ أن يتناوله الناسُ بالانتقاص باللسان أو الأفعال؛ لأنه لا يرضَىٰ

أن يُظلم أو يُهانَ، وأمَّا إذا انتُقِصَت حقوقُ الله أمامَه سكت وكأنَّ شيئًا لا يعنيه، فإذا سلِمَت له دُنياه لم يأبَهْ بما يحصل من انتهاكٍ للحقوق.

إنَّ حُبَّ الله ليس عباراتٍ تُقال بالألسُن، ولا شعاراتٍ تُرفَع في المناسبات، بقدر ما هي مواقفُ تُثبت حقيقةَ هذا الادِّعاء.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**وَمَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا**»، التيسيرُ علىٰ الناسِ مقصدٌ عظيمٌ من مقاصد الشريعة؛ فإنَّ النبي ﷺ ما بُعِث إلا بالحنيفية السَّمْحَة، عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ**»(١).

ومن ذلك مثلًا عندما كان يُسْتَفْتىٰ في مناسك الحج عن تقديم بعض الأعمال وتأخيرها يوم العيد، فكان يختارُ الأيسَرَ علىٰ الناس، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَفَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ بِمِنًىٰ لِلنَّاسِ يَسْأَلُونَهُ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: لَمْ أَشْعُرْ فَحَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ؟ فَقَالَ: «**اذْبَحْ وَلَا حَرَجَ**»، فَجَاءَ آخَرُ فَقَالَ: لَمْ أَشْعُرْ فَنَحَرْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ؟ قَالَ: «**ارْمِ وَلَا حَرَجَ**»، فَمَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَن شَيْءٍ قُدِّمَ وَلَا أُخِّرَ إِلَّا قَالَ: «**افْعَلْ وَلا حَرَجَ**»(٢).

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**مَا لَمْ يَكُن مَأْثَمًا**»؛ أي: إلا إذا كان التيسيرُ معصيةً أو إثمًا؛ فإنه أبعدُ الناسِ عن ذلك ﷺ.

ويخطئ بعضُ الناس في الاستدلال بالجُملة الأخيرة من هذا الحديث؛ فنراه يتنقَّلُ بِهَواهُ بين أقاويل الفُقهاء، يختارُ منها ما هو أقربُ لِهَواهُ، لا ما هو

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٨٣)، ومسلم (١٣٠٦).

أرجحُ عنده بالدليل، فيتلمَّسُ الرُّخَصَ، وقد يقعُ في المحرَّماتِ بناءً علىٰ أقوالٍ شاذَّةٍ، ثم يقول: إنما أختارُ الأيسرَ من الأقوال!

***

٣٠١ـ (صحيح) وَعَنْهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَت: اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَنَا عِندَهُ، فَقَالَ: «بِئْسَ ابْنُ العَشِيرَةِ أَوْ أَخُو العَشِيرَةِ»، ثُمَّ أَذِنَ لَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ القَوْلَ، فَلَمَّا خَرَجَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْتَ مَا قُلْتَ ثُمَّ أَلَنتَ لَهُ القَوْلَ! فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ مِن شَرِّ النَّاسِ مَن تَرَكَهُ النَّاسُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ»[1].

شرح الحديث

قوله ﷺ: «بِئْسَ ابْنُ العَشِيرَةِ أَوْ أَخُو العَشِيرَةِ»؛ أي: لـمَّا عرفَه النبيُّ ﷺ ذمَّه بما قال، أي: ذمَّ هذا الرَّجُلَ، وأنه من أسوأ القومِ خُلُقًا وتعامُلًا.

قول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «قُلْتَ مَا قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنتَ لَهُ القَوْلَ»؛ أي: سمعتُك ما تقولُ من ذمِّه، ثم رأيتُك تُلِين له القول، فانظُر إلىٰ فطنتها وتفقُّهها في الدين!

قوله ﷺ: «إِنَّ مِن شَرِّ النَّاسِ مَن تَرَكَهُ النَّاسُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ»؛ أي: إنَّ مِن الناس مَن يبلغ فُحشُه في التعامُل مع الآخرين ما يجعلهم يتجنَّبون هذا الفُحشَ بالتلاطُف في المعاملة، واللِّينِ في القول، وذلك أنَّه لو قُوبِل بالحزم والمعاملة الصُّلبة التي تُناسِب حالَه لازدادَ فُجورُه، وظَهرَ فُحشُه، وأساءَ في أقواله وأفعاله، فالحكمةُ في التعامُل مع أمثال هؤلاء أن يُحْسَن القولُ إليه، وأن يُدارىٰ فيُدفَع بالتي هي أحسنُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٤)، ومسلم (٢٥٩١).

وهذه المعاملةُ ليست بضعفٍ ولا جُبْنٍ ولا خَوَرٍ، وإنما هي من الملاطَفَةِ الحَسنةِ والمداراةِ الحميدةِ، التي يفعلها العاقلُ الكريمُ العظيمُ، مع قُدرته علىٰ دَفع الإساءة بالإساءة، ومقابَلةِ الشرِّ بالشرِّ.

ففي هذا الحديث بيانُ جواز الـمُداراة والملاطفة لدَرْء المفاسد وتحقيق المصالح.

***

٣٠٢ـ (صحيح) **عَن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵄ يَقُولُ: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ: لَا»**(١).

شرح الحديث

هذا الحديثُ عن جُوده ﷺ وسخائه وكرمه وبذله وعطائه؛ إذ جُودُه بحرٌ لا ساحِلَ له، وكرمُه لا يقارَنُ بشيءٍ من كرم الكُرماء، دع عنك حاتمًا وغيرَه من الملوك والأمراء الذين يُتَحَدَّث عن كرمهم وسخائهم، فكلُّ قَصصِ أولئك تَتَصاغَرُ أمام الكرم والعطاء النبويّ.

ومعنىٰ الحديث: أنَّه ما طُلِب منه يومًا من الأيام شيءٌ من أمور الدنيا وردَّ صاحبه أبدًا بعبارة: لا، بل إنْ وَجدَ أعطَىٰ، وإن لم يجِد ـ وهو الغالب في حياته ـ وَعَدَ بالعطاء، وطيَّب خاطرَ السائل بالدعاء، وذلك أدنىٰ درجات العطاء: القولُ الحَسَن، وميسورُ الكلام، والصَّرفُ بلُطْفٍ، فإنَّ هذا لونٌ من ألوان البذل، ونوعٌ من أنواع العطاء.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُرِيدُ سَفَرًا؛ فَزَوِّدْنِي، قَالَ: «**زَوَّدَكَ اللهُ التَّقْوَىٰ**»، قَالَ: زِدْنِي، قَالَ: «**وَغَفَرَ ذَنبَكَ**»، قَالَ: زِدْنِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، قَالَ: «**وَيَسَّرَ لَكَ الخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ**»(١).

طلب منه أن يُزَوِّده بما يحتاجه المسافرُ من طعامٍ وشرابٍ ونحو ذلك، فلم يجد عنده ما يزوِّده به، فزوَّده بتلك العبارات الجميلة اللطيفة، التي هي أفضلُ وأكرمُ وأعظمُ جدًّا من الدراهم والدنانير.

وقد أمر الله سبحانه بعدم نَهر السائل فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحىٰ: ١٠]، فإن لم تُرِد أن تُعْطِيَه فلا تنهره.

ولم يكن هذا العطاءُ بناءً علىٰ عظيمِ غِنًىٰ أو كثرةِ مالٍ، بل كان ﷺ من المساكين والفقراء، فهل رأيتَ كرمًا أعظمَ من هذا الكرم؟

فقد جاء في كرمه حديث أنس ﷺ قَالَ: «**مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَىٰ قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَىٰ الفَاقَةَ**»(٢)؛ أي: إذا كان السؤالُ يتعلَّق به إسلامُ إنسانٍ فإنه لا يتأخَّر أبدًا عن البذل والعطاء؛ فإنَّ ثمرةَ الإسلام ينبغي أن يُبذَل في سبيلها كلُّ شيءٍ ممكنٍ.

هكذا عاش النبي ﷺ حياته بهذا الكرم والسَّخاء، والجود والعطاء، فهو أحق الناس بقول القائل:

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٤٤)، وقال: «حسن غريب».

(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٢).

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكَفِّ حَتَّىٰ لَوَ أنَّهُ ... ثَنَاهَا بِقَبْضٍ لَمْ تُجِبْهُ أنَامِلُهْ
تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا ... كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنتَ سَائِلُهْ
وَلَوْ لَمْ يَكُن فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ ... لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُهْ
هُوَ البَحْرُ مِنْ أَيِّ النَّوَاحِي أَتَيْتَهُ ... فَلُجَّتُهُ المَعْرُوفُ وَالجُودُ سَاحِلُهْ

لقد كان له مواقفُ عجيبةٌ في غاية العَجَب، حكت السُّننُ شيئًا منها، فعَن سَهْلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتِ النَّبِيَّ ﷺ بِبُرْدَةٍ مَنسُوجَةٍ، فِيهَا حَاشِيَتُهَا، أَتدْرُونَ مَا البُرْدَةُ؟ قَالُوا: الشَّمْلَةُ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: نَسَجْتُهَا بِيَدِي فَجِئْتُ لِأَكْسُوَكَهَا، **فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا إِزَارُهُ**، فَحَسَّنَهَا فُلانٌ، فَقَالَ: اكْسُنِيهَا، مَا أَحْسَنَهَا، قَالَ القَوْمُ: مَا أَحْسَنتَ، **لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا**، ثُمَّ سَأَلْتَهُ، وَعَلِمْتَ **أَنَّهُ لا يَرُدُّ**! قَالَ: إِنِّي ـ وَاللهِ ـ مَا سَأَلْتُهُ لِأَلْبَسَهُ، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي، قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ[(١)].

فانظر كيف أعطَىٰ الثوبَ الذي يلبسه وهو محتاجٌ إليه! فأيُّ كرمٍ فوق ذلك الكرم، وأيُّ جُودٍ وسخاءٍ يمكن أن يُضرَب به المثلُ فوق هذا الجود والسخاء؟

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّىٰ نَفِدَ مَا عِندَهُ، فَقَالَ: «**مَا يَكُونُ عِندِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنكُمْ، وَمَن يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٧٧).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُهْدِيَتْ لَهُ أَقْبِيَةٌ مِن دِيبَاجٍ، مُزَرَّرَةٌ بِالذَّهَبِ، فقَسَمَهَا فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَعَزَلَ مِنْهَا وَاحِدًا لِمَخْرَمَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، فَجَاءَ وَمَعَهُ ابْنُهُ المِسْوَرُ بْنُ مَخْرَمَةَ، فقَامَ عَلَىٰ البَابِ، فَقَالَ: ادْعُهُ لِي، فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ صَوْتَهُ، فَأَخَذَ قَبَاءً، فَتَلَقَّاهُ بِهِ، وَاسْتَقْبَلَهُ بِأَزْرَارِهِ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا المِسْوَرِ، خَبَأْتُ هَذَا لَكَ، يَا أَبَا المِسْوَرِ، خَبَأْتُ هَذَا لَكَ**»(١)، ومعنىٰ استقبلَه بأَزْرارِه: يعني أظهَرَ له الجانب المُزَرَّر بالذهب؛ ليُظهِر له فخامةَ الهديَّة.

فانظر كيف استقبله مُتهلِّلًا مسرورًا وكأنه هو الذي يُهْدَىٰ إليه لا المُهْدِي!

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ بَعَثَتْهُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِقِنَاعٍ عَلَيْهِ رُطَبٌ، فَجَعَلَ يَقْبِضُ قَبْضَةً فَيَبْعَثُ بِهَا إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ، ثُمَّ يَقْبِضُ القَبْضَةَ فَيَبْعَثُ بِهَا إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ، ثُمَّ جَلَسَ فَأَكَلَ بَقِيَّتَهُ أَكْلَ رَجُلٍ يُعْلَمُ أَنَّهُ يَشْتَهِيهِ**»(٢).

وانظر كيف مع اشتهائه لهذا الطعامِ، إلا أنه بدأ بزوجاته قبلَه.

وكان لا يبقىٰ عنده شيءٌ من المال؛ حتىٰ إنه في مَرضِ موتِه أنفقَ كلَّ ما يملك، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «**يَا عَائِشَةُ، مَا فَعَلَتِ الذَّهَبُ**»، فَجَاءَتْ مَا بَيْنَ الخَمْسَةِ إِلَىٰ السَّبْعَةِ أَوِ الثَّمَانِيَةِ أَوِ تِسْعَةٍ، فَجَعَلَ يُقَلِّبُهَا بِيَدِهِ وَيَقُولُ: «**مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَوْ لَقِيَهُ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟ أَنْفِقِيهَا**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٦٦٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٢٢٢).

فعاش ﷺ حياةَ الفُقراء، لكنه تمثَّل حياةَ الكُرماء، فكان كريمًا علىٰ غيرِ غِنًىٰ وثراءٍ، وعظيمًا علىٰ غيرِ سَعَةٍ في المال، ولكنَّ الكرمَ لا يتعلَّق بكثرة ما تملك، إنما هو بعَظيم ما يقوم في قلبك من صدقٍ في الكرم وعظيم العَطاء اقتداءً برسول الله ﷺ، فيمكن للفقير والمسكين أن يكون كريمًا، كما يمكن للغنيِّ أن يكون كريمًا، وذلك بسَعَة صدره، وحُسن أخلاقه مع السائلين.

***

٣٠٣ـ (صحيح) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ حَتَّىٰ يَنسَلِخَ، فَيَأْتِيهِ جِبْرِيلُ فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ القُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ»(١).

شرح الحديث

قول ابن عباس ﵄: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالخَيْرِ»، هذا تفضيلٌ مطلقٌ، فلا أحدَ أجودُ منه ﷺ، وهذا حقٌّ!

قوله ﵁: «وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ حَتَّىٰ يَنسَلِخَ»، يَنسَلِخُ؛ أي: ينقضي الشهرُ.

قوله ﵁: «فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ»؛ الرِّيحُ المُرسَلة: هي التي تحمل الخيرَ والعطاء؛ حيث تسوقُ السحابَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٢)، ومسلم (٢٣٠٨).

والمطرَ، وتُلقِّحُ الثمارَ والأشجارَ بأمر الله، ويسوقُ الله بها أرزاقَ العباد، فإذا ضُرِب المَثلُ ضربته العربُ بالرِّيح المُرسَلة، فيُقال: فلانٌ جوادٌ كالرِّيح المُرسَلة، أو كان أجودَ بالخير من الريح المرسَلة.

وفي هذا ارتباطٌ بين رمضانَ والقرآنِ من جهةٍ، وبين رمضان والكرمِ من جهةٍ أخرىٰ، فإنَّ رمضانَ موسمُ الخيرات، وشهرُ النفَحَات، تُحلِّق فيه القلوبُ المؤمنةُ في سماء الإيمان، فإنَّ النفوسَ الصالحةَ التقيةَ تَنشَطُ للأعمال التي تُقرِّبُها إلىٰ الرحمن في مواسم الخير والصلاح، وتزداد إقبالًا علىٰ الطاعة والرغبة فيما يحبُّه الله، فما هذه المواسم إلا نَفَحاتٌ ومحطَّاتٌ لا يَغفلُ عنها إلا محرومٌ، ولا يُفرِّط فيها إلا مَغبونٌ.

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَاغْتَنِمْهَا فَإِنَّ الرِّيحَ عَادَتُهَا السُّكُونُ

*** لفتة إيمانية:**

إنَّ رمضانَ موسمٌ استثنائيٌّ في عُمُر الإنسان، يُهذِّب الأخلاقَ، ويَسمُو بالطِّباع، فيَنبغي علىٰ الإنسانِ أن يستغلَّ هذا الشهر بقراءة القرآن، والجُودِ بما يستطيعه من مالٍ.

ولا ينبغي أن يكون رمضانُ سببًا لضِيق الأخلاق، وسُرعةِ الانفعال، وكثرةِ الاستفزاز، وذلك كما تراه من كثيرٍ من الناس في رمضان، والأعجبُ من ذلك أنهم يعتذرون عن سوء الأخلاق بالصِّيام!

فما هكذا يكون رمضانُ في حياة الصائمين، بل ينبغي أن يكون مُهَذِّبًا

للأخلاق، وأن يجد فيه المسلمون فرصةً لزيادة الأجر، ومضاعفة الثواب، وتغيير الأخلاق نحو الأفضل وتهذيبها.

***

٣٠٤ـ (صحيح) **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه **قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لا يَدَّخِرُ شَيْئًا لِغَدٍ»**(١).



شرح الحديث

يعني: كان لا يحتفظُ بشيءٍ من بقايا ما يملكه، ولا يحبسُ شيئًا من ماله لأجل يوم الغد، بل كان عطاؤه متتابعًا، وبذلُه مستمرًا، وهكذا يكون الكرمُ، لا يُبقِي شيئًا لصاحبه.

وأمَّا رِزْقُ الغَدِ فالرازق هو الله، فالذي خَلقَ لا ينسَىٰ أن يرزُقَ عبادَه، ففي هذا الحديث معنًىٰ عظيمٌ من معاني التوكُّل علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

ولكن جاء في الصحيح عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه: **«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَبِيعُ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ، وَيَحْبِسُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ»**(٢).

والجمع بين الحديثين: أنَّه ﷺ من عظيم توكُّله وصِدقِ إيمانه بربّه ما كان يدَّخِر لنفسه شيئًا، ولكن يدَّخِر لأهله وعياله، فإنَّه من الواجب علىٰ الإنسان أن

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٦٢)، وقال: «غريب».

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٥٧).

يتَّخذ الأسبابَ، وادِّخارُ النفقة للأهل والأولاد ومَن يعوله الإنسانُ مَطْلَبٌ شرعيٌّ.

ولأجل ذلك عندما استأذن سعدُ بن أبي وقَّاص رضي الله عنه في أن يتصدَّق بكلِّ مالِه لم يأذن له، وأمره أن يترك شيئًا لأولاده من بعده، وقال له: «**إِنَّكَ أَن تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَن تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**»[1]، أي: يـمُدُّون أيديَهم للناس فيطلُبون الصَّدقات والزكوات.

*** لفتة إيمانية:**

في هذا الحديث تعليمٌ للأمَّة الكرمَ والإنفاقَ، والمُنفِقُ موعودٌ بالخير؛ فإنَّه لا ينفِقُ شيئًا إلا وَجدَ خَلَفَهُ من الله سبحانه، ولا يقبل علىٰ الإنفاق إلا وتزداد حياتُه سَعَةً واستمتاعًا، وتُضَافُ إلىٰ عُمُره أعمارُ غيره عندما يشارك الناسَ همومَهم، ويعيش شُؤونَهُم.

ولكن مَن يعيش لنفسه فقط فإنَّ الحياة تضيقُ عليه، ولو كان أوسع الناس مالًا أو عقارًا أو ثراءً.

فميزانُ الإنفاق والكرم ميزانٌ يحتاج المسلمُ أن يُعِيد النظرَ فيه، ويتأمَّل هديَ النبي ﷺ بشأنه، فقد ضرب لنا أروع المثل في الكرم والعطاء، والجود والسخاء.

***

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

(ضعيف) **٣٠٥ـ عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَهُ أَن يُعْطِيَهُ، فَقَالَ النبي ﷺ: «مَا عِندِي شَيْءٌ، وَلَكِنِ ابْتَعْ عَلَيَّ، فَإِذَا جَاءَنِي شَيْءٌ قَضَيْتُهُ»، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ أَعْطَيْتَهُ، فَمَا كَلَّفَكَ اللهُ مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَكَرِهَ ﷺ قَوْلَ عُمَرَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنصَارِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنفِقْ وَلَا تَخَفْ مِن ذِي العَرْشِ إِقْلَالًا، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَعُرِفَ فِي وَجْهِهِ البِشْرُ لِقَوْلِ الأَنصَارِيِّ، ثُمَّ قَالَ: «بِهَذَا أُمِرْتُ»**(١).

شرح الحديث

هذا الحديث في إسناده ضعفٌ، ولكن الشواهدَ كثيرةٌ ومتكررةٌ في الدلالة على سَعَة العطاء النبويِّ والكرم المحمَّديّ، وهي أعظم من هذا الحديث وأكثر بكثير.

قول عمر رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَهُ أَن يُعْطِيَهُ، فَقَالَ النبي ﷺ: «مَا عِندِي شَيْءٌ»، وقد مَرَّ في الحديث السابق أنَّ النبي ﷺ لا يَرُدُّ سائلًا قطُّ، فما الذي فعله مع هذا السائل وما عنده شيءٌ يعطيه إيّاه؟

قوله ﷺ: «وَلَكِنِ ابْتَعْ عَلَيَّ، فَإِذَا جَاءَنِي شَيْءٌ قَضَيْتُهُ»؛ أي: اذهب واشترِ ما تريدُ، واجعل ثمنَ ما تشتريه دَينًا عليَّ، فإذا جاءني شيءٌ من مالٍ أو صدقةٍ أو عطاءٍ قضيتُ ودفعتُ ثمن هذا الدَّيْن.

---

(١) أخرجه معمر بن راشد في جامعه (٢٠٠٥٧)، والبزار في مسنده (٢٧٣)، وضعَّفه الألباني؛ لجهالة بعض رواته.

فقد جاءه الرجُلُ يريد مالًا، والمالُ لا يُراد لعينه وإنما يُراد لما يُشترىٰ به من طعامٍ أو لباسٍ أو شرابٍ أو قضاءِ حاجةٍ من الحوائج، وما كان عنده ﷺ شيءٌ من المال، ولكن أعطاه بديلًا عن حاجته، فوجَّهه لشراء ما يحتاجه بالدَّيْنِ، ثم هو ﷺ يَقْضِي عنه ذلك الدَّيْن؛ ففي الحقيقة قد أعطاه ﷺ حاجته.

قول عمر رضي الله عنه: «**يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ أَعْطَيْتَهُ**»، في قول عمر رضي الله عنه تفسيران:

التفسير الأوّل: أنَّه قد أعطاه قبل هذا الموقف، فلما جاءه مرةً ثانيةً يطلب منه والنبي ﷺ لا يملك شيئًا، أراد عمرُ أن يعتذر للنبي ﷺ، فقال له: قد أعطيته المرّةَ السابقة.

والتفسير الثاني: قد أعطيتَه قولًا معروفًا، وكلمةً طيبةً، ودعاءً حسنًا، فبذلته.

قول عمر رضي الله عنه: «**فَمَا كَلَّفَكَ اللهُ مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ**»؛ أي: لم يُكَلِّفك الله ما لا تستطيعه من الإعطاءِ وأنت ما عندك شيءٌ تعطيه إياه.

قول عمر رضي الله عنه: «**فَكَرِهَ** ﷺ **قَوْلَ عُمَرَ**»، وإنما كرِهه لأنه قولٌ يحمِل علىٰ الكفِّ عن العَطاء، والحَبس عن البَذل، وهذا خلافُ طبعه ﷺ وهديه.

قول الأنصاري رضي الله عنه: «**يَا رَسُولَ اللهِ، أَنفِقْ وَلَا تَخَفْ مِن ذِي العَرْشِ إِقْلَالًا**»؛ أي: لا تَخَفْ من الكريم ذي العرشِ المجيدِ سبحانه أن يُقَلّل من رزقك، بل كلّما أنفقتَ وبذلتَ وأعطيتَ أخلفك خيرًا وزادك من فضله.

قوله ﷺ: «**بِهَذَا أُمِرْتُ**»؛ أي: أمره ربُّه بالإنفاق، ووَعدَه بالإخلاف؛ ذلك أنَّ الله يقول: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]،

وقد قال ﷺ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ**»(١).

وإنما كانت الصدقةُ لا تَنقُصُ من المال، مع أنَّ المحسوسَ أنَّها تَنقُصُ منه؛ من وجهين:

الوجهُ الأوّل: أنَّ النقصَ المحسوسَ ينقلبُ إلىٰ أجرٍ يجدُه المنفقُ يوم القيامة، في ذلك اليوم الذي يتمنّىٰ المرءُ لو بذل مالَ الدنيا كلَّه ليَجِدَ حسنةً واحدةً تُثقِل ميزانَه، قال سبحانه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

الوجهُ الثاني: أنَّ الله يَسوقُ له رزقًا يُعَوِّض به ما أنفقه، ويجعل له من البركةِ في ماله ما يُضاعِفه له، ويكون له خيرًا مما أنفق.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ**، أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **قَالَ: «مَا مِن يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ، أَعْطِ مُنفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ، أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»**(٢).

ولْيُسْأَلْ عن ذلك أصحابُ الصدقات، والأسخياءُ في النفقات، كيف يجدون البركةَ في مالهم، وكيف تُضاعَفُ لهم أرزاقُهم، مع أنَّنا لا نحتاج لكلام البشر مع موعود ربِّ البشر، ولكن لمزيد الاطمئنانِ والثقة، بسؤال من عايَنَ ذلك وعايَشَه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

وليس المقصودُ مِن الحثِّ علىٰ البذلِ أن يُنفِق المسلم كلَّ ماله، بل عليه أن يوازِنَ بين ما يدَّخِرُه وما يَبذُلُه.

***

(صحيح) ٣٠٦ـ **عَنْ عَائِشَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْبَلُ الهَدِيَّةَ، وَيُثِيبُ عَلَيْهَا**»(١).

هذا الحديث آخرُ أحاديث هذا الباب.

وفي هذا الحديث خُلُقان من أخلاق النبي ﷺ: التواضُعُ، واللُّطْفُ؛ فالتواضُعُ متمثِّلٌ في قبوله للهديّة، واللُّطفُ في الإثابة عليها.

ووجهُ التواضُعِ في قبوله الهديَّة: أنَّه أعظمُ إنسانٍ علىٰ الأرض، فهو أعظمُ من أيِّ أميرٍ أو مَلِكٍ أو رئيسِ وُزراءٍ، ومع ذلك يقبل الهدايا ممن حوله من الضعفاء والمساكين والفقراء وعامَّة الناس، وهذه الهدايا لم تكن من الأشياء الكبيرة؛ بل قد يكون رَيحانًا مقطوعًا من الشجر، أو منيحةً من منائحِ لَبَن العَنز، أو خُفًّا، أو نحو ذلك، ولم يتكبَّر يومًا بدعوَىٰ أنَّه ليس بحاجةٍ لهذه الهدية، أو أنَّه أكبر من هذه الهدية.

ثم إنَّ في قبوله هذه الهدايا إيناسًا لقلب المُهدِي.

فينبغي علىٰ المسلم أن يتخلَّق بهذا الخلق، وأن يقبل الهدية مهما كانت متواضعةً، وأن يُشْعِرَ المُهْدِي بالفرحة بهذه الهدية، فإنَّ الإنسان في الهدية يتعامل مع المشاعر قبل التعامل مع الهدية.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٥).

ومعنىٰ الإثابة علىٰ الهدية: مكافأةُ صاحب الهدية بهديةٍ أخرىٰ، فيحتفِظُ بالجميل، ويردُّه لصاحبه، وهذا لونٌ عزيزٌ من الوفاء وكرم الخُلُق.

وفي الإثابة علىٰ الهدية معنًىٰ جميلٌ؛ حيث إنَّ تبادُلَ الهدايا يؤدِّي إلىٰ بناءِ جُسور المحبّة والوُدِّ والصفاءِ بين القلوب، فإنَّ الهدايا رُسُلُ محبَّةٍ بين الناس.

وفي ختامِ بابِ خُلُق النبي ﷺ، نكون قد تجوَّلنا وتنقَّلنا بين أخلاقٍ من أخلاقه ﷺ، وتعرَّفنا علىٰ هذا الخُلق علىٰ حقيقته متمثِّلًا في النبي ﷺ، ولا بُدَّ بعد هذا التعرُّف أن نَنشُر هذه الأخلاق بين أبنائنا وطلابنا وأهلينا والناس أجمعين من حولنا، قاصدين بذلك أمرين:

الأمر الأوّل: تعريف الناس بحقيقة هذا الخُلُق، بعيدًا عن التصوُّرات المغلوطة حول هذا الخُلُق، بل نتعلَّمه من منبع الأخلاق الأصيلة، ومن الهدي النبوي الكريم.

الأمر الثاني: أن نغتنمَ هذا التعليم بتحبيب النبي ﷺ للناس؛ ليكون قُدوةً وأسوةً لهم في كل الأمور التي يفعلونها.

يَا مَن لَـهُ الأَخْلَاقُ مَا تَهْوَىٰ الْعُلَا ... مِنْهَـا وَمَـا يَتَعَشَّــقُ الكُـبَرَاءُ
لَوْ لَمْ تُقِمْ دِينًا لَقَـامَـتْ وَحْـدَهَـا ... دِيـنًـا تُضِــيءُ بِـنُـورِهِ الآنَـاءُ
زَانَتْكَ فِي الخُلُقِ العَظِيمِ شَـمَـائِلٌ ... يُغْـرَىٰ بِـهِـنَّ وَيُـولَـعُ الـكُـرَمَـاءُ
أَمَّا الجَمَالُ فَأَنتَ شَـمْـسُ سَـمَائِهِ ... وَمَلَاحَـةُ الصِّــدِّيقِ مِنـكَ أَيَـاءُ
وَالحُسْــنُ مِن كَرَمِ الوُجُوهِ وَخَيْرُهُ ... مَـا أُوتِـي الـقُـوَّادُ وَالـزُّعَـمَـاءُ

فَإِذَا سَخَوْتَ بَلَغْتَ بِالجُودِ الْمَدَىٰ ... وَفَعَلْتَ مَا لَمْ تَفْعَلِ الأَنْوَاءُ

وَإِذَا عَفَوْتَ فَقَادِرًا وَمُقَدَّرًا ... لَا يَسْتَهِينُ بِعَفْوِكَ الجُهَلَاءُ

وَإِذَا رَحِمْتَ فَأَنتَ أُمٌّ أَوْ أَبٌ ... هَذَانِ فِي الدُّنْيَا هُمَا الرُّحَمَاءُ

وَإِذَا غَضِبْتَ فَإِنَّمَا هِيَ غَضْبَةٌ ... فِي الحَقِّ لَا ضِغْنٌ وَلَا بَغْضَاءُ

وَإِذَا رَضِيتَ فَذَاكَ فِي مَرْضَاتِهِ ... وَرِضَا الكَثِيرِ تَحَلُّمٌ وَحَيَاءُ

وَإِذَا خَطَبْتَ فَلِلْمَنَابِرِ هِزَّةٌ ... تَعْرُو النَّدِيَّ وَلِلْقُلُوبِ بُكَاءُ

وَإِذَا قَضَيْتَ فَلَا ارْتِيَابَ كَأَنَّمَا ... جَاءَ الخُصُومَ مِنَ السَّمَاءِ قَضَاءُ

وَإِذَا مَلَكْتَ النَّفْسَ قُمْتَ بِبِرِّهَا ... وَلَوْ أَنَّ مَا مَلَكَتْ يَدَاكَ الشَّاءُ

وَإِذَا صَحِبْتَ رَأَىٰ الوَفَاءَ مُجَسَّمًا ... فِي بُرْدِكَ الأَصْحَابُ وَالخُلَطَاءُ

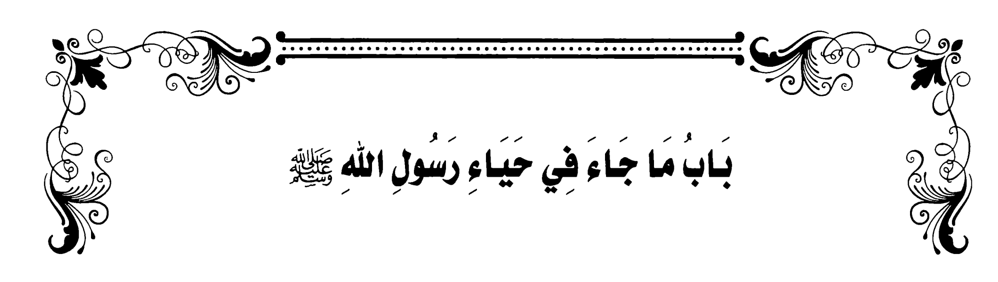
وَتَمُدُّ حِلْمَكَ لِلسَّفِيهِ مُدَارِيًا ... حَتَّىٰ يَضِيقَ بِعِرْضِكَ السُّفَهَاءُ

فِي كُلِّ نَفْسٍ مِن سُطَاكَ مَهَابَةٌ ... وَلِكُلِّ نَفْسٍ فِي نَدَاكَ رَجَاءُ(١)

صلوا عليه وسلموا تسليمًا.

** ** **

(١) الأبيات لأحمد شوقي من قصيدته الهمزية النبوية.



بَابُ مَا جَاءَ فِي حَيَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

الحياءُ أحدُ الأخلاق الحميدة التي يَتَّصفُ بها البشر، وهي من أخلاق النبي ﷺ.

وقد أفرده الإمام الترمذيُّ رَحِمَهُ اللهُ ببابٍ مستقلٍّ عن الباب السابق وهو باب الخُلُق؛ لأنَّ خُلُقَ الحياء من الأخلاق التي اختصَّ بها دينُ الإسلام، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الإِسْلَامِ الحَيَاءُ**»(١)، وهو صحيحٌ بمجموع طُرُقه.

فهذا الخُلُق مما اختصَّت به أمَّةُ الإسلام من بين سائر الأُمَم، فهو يتربَّع علىٰ عرش أخلاقها، ويقود باقيَ الأخلاق ويَنتظِمُها، ذلك أنَّ الحياءَ عبارةٌ عن وصفٍ يحمل الإنسانَ علىٰ فعلِ كلِّ جميلٍ، وتركِ كلِّ قبيحٍ، فانتظم الحياءُ كلَّ الأخلاق.

الحياءُ يمنع الإنسانَ من البُخل الذَّميم، ويحمله علىٰ الكرم المحمود، ويمنعُه من الغضب والحماقة والفَظَاظَة، ويحملُه علىٰ العفو والصفح، وهكذا ...، فلأجل هذا كان هذا الخُلُق إمامَ الأخلاق ورأسَها وعظيمَها، وقد قال فيه ﷺ: «**الحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»(٢)، وقد نصَّ عليه ﷺ من بين شُعَبِ الإيمان،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

فقال ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»(١)؛ فلمَّا خصَّ الحياءَ بالذِّكر من بين سائر الأخلاق عُرِفَ أنه إمامُها ورأسُها وأساسُها.

وقد عُرِفَ الحياءُ من النبي ﷺ قبل النبوّة، فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما يُحَدِّثُ: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَنقُلُ مَعَهُمُ الحِجَارَةَ لِلْكَعْبَةِ وَعَلَيْهِ إِزَارُهُ، فَقَالَ لَهُ العَبَّاسُ عَمُّهُ: يَا ابْنَ أَخِي، لَوْ حَلَلْتَ إِزَارَكَ فَجَعَلْتَ عَلَىٰ مَنكِبَيْكَ دُونَ الحِجَارَةِ، قَالَ: فَحَلَّهُ فَجَعَلَهُ عَلَىٰ مَنكِبَيْهِ، فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَمَا رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ عُرْيَانًا ﷺ**»(٢).

وكان هذا قبل النُّبوَّة؛ فما ظنُّك بحيائه بعدها ﷺ!

***

(صحيح) **٣٠٧ـ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ**»(٣).

شرح الحديث

قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا»، في هذا الحديث وصفٌ عجيبٌ لحيائه ﷺ، حيثُ فُضِّل حياؤه ﷺ علىٰ حياءِ العَذْراءِ في خِدْرِها.

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٤)، ومسلم (٣٤٠).
(٣) أخرجه البخاري (٦١٠٢)، ومسلم (٢٣٢٠).

والعَذْراءُ: الفتاةُ البِكْرُ التي لم تتزوَّج، وإنما تُوصَف الفتاةُ بالعُذريَّة إذا كانت في تمام السَّتر، والحياء، والعِفَّة، والصيانة، لم يَسبق لها أن تعاملت مع رجلٍ أجنبيٍّ قطُّ؛ لا كلامًا ولا مقابلةً ولا معاشرةً ولا اختلاءً.

وخِدْرُ العَذراءِ: حُجرتُها وسِترُها الذي لا ينكشف أبدًا، فذَوات الخُدور هنَّ النساءُ المحتشِماتُ الـمَصُوناتُ العفائفُ الحرائرُ، اللاتي لَزِمْنَ البيتَ من عِفّتهنّ وحيائهنَّ.

ومثلُ هذه الفتاةِ كيف يكون حياؤها إذا قابلت رجُلًا وهي التي لم تقابل الرِّجال الأجانب قطّ؟ لا شكَّ أنَّ الحياءَ يعصِرُها حتىٰ يكادَ أن يُذيبَها خَجَلًا، فلا تكادُ تستطيعُ أن تقفَ علىٰ رجليها، ويخرسُ لسانُها، وتنغلقُ عيناها؛ هكذا يكون حياءُ العَذارَىٰ.

ولقد شُبِّه حياءُ النبي ﷺ بحَياء العَذارَىٰ، بل هو أشدُّ حياءً منهنَّ.

ولكن ليس وجهُ الشَبَه هنا أنَّه لا يستطيع الكلام مع الناس؛ بل كان ﷺ أفصحَ الخلق، وليس المقصود أنَّه لا يستطيع مواجهةَ البشر؛ بل كان ﷺ أشجع الناس في الحقِّ وأقدرَهم علىٰ مواجهة الباطل والـمُبطِلين.

ولكن المقصودَ هنا حَياءُ الطَّبع، ورِقَّتُه، ولَطافتُه، وعدمُ القدرة علىٰ أذيَّة الآخرين، وجَرحِ مشاعرهم، أو الظهورِ أمام الناس بشيءٍ من الأخلاق القبيحة، والمجاهرةِ بالعِصيان، وهذا هو الحياءُ الصادقُ.

فإنَّ الحياءَ ثلاثةُ أنواعٍ: حَياءٌ من الله، وحَياءٌ من الناس، وحَياءٌ من النفس.

فالحياءُ من الله قد وضَّحه النبي ﷺ في الحديث الذي رواه عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ**»، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: «**لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ: أَن تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَىٰ، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَىٰ، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَىٰ، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنيَا، فَمَن فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ**»(١)، فالحياءُ من الله أن يحفظَ الإنسانُ جوارحَه وأذنيه وعَينيه وسمعَه ولسانَه من أن تُسْتَعمل في الحرام، فلا يجد الحرامُ طريقًا لسمعه، ولا إلىٰ نظره، ولا يقعُ علىٰ لسانه، ولا يدخل فمَه لقمةٌ من حرامٍ ولا شربةٌ من حرامٍ.

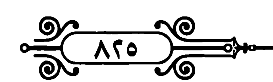
ومما يحويه البطن الفرجان؛ فيَستُرُهما ولا يُظهِرُهما، ولا يقع بهما في حرامٍ من زِنا أو لِواط، أو أيّ فاحشةٍ كانت.

وأما الحياءُ من الناس: فهو ألَّا تَظهر أمامهم بما يُسقِطُ مروءتَك، أو يُزري بسُمعتك، أو يُسقِط صِدقَك وأمانتَك بين الناس، فلا يُجاهر الإنسان بالمعاصي، فإنَّ كلَّ إنسان لا بُدَّ أن يُبْتَلىٰ بمعصيةٍ وذَنبٍ، فليكن ذنبُه مستترًا في بيته، ولا يُظهِره أمام الناس، فإنَّه مَن سَقطَ قناعُ حيائه أمام الناس وقع في حبائل الشيطان وخطواته.

وأما الحياءُ من النفس: فأن يُهذِّب الإنسان نفسَه ويُربِّيها علىٰ الأخلاق الحميدة، ويكونَ في حيائه حالَ انفراده وخَلوته بنفسه كمثل حيائه إذا كان بحَضرة من يحترمُه ويهابُه من الناس.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٨)، وقال: «غريب».



قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ»؛ أي: إذا كرِه شيئًا مما يحصل أمامه ظهر أثرُ تلك الكراهية علىٰ وجهه دون أن يتكلَّم.

وفي هذه الجملة لونان عجيبان عظيمان من الأخلاق، أحدُهما أعجبُ من الآخر:

الخُلُق الأوّل: عظيمُ أدبِه وخُلُقِه وحَيائه ﷺ، أما تَرىٰ أن الحييَّ إذا رأىٰ شيئًا لا يتوافق مع حيائه ظهرت كراهيةُ ذلك علىٰ شكل لونٍ أحمرَ يظهر في وجهه!

وذلك أنَّ الحياء يؤدِّي إلىٰ تدفُّق الدمِ إلىٰ الوجهِ، فتظهرُ حُمرةٌ في وجهِ المستحي، فتعرفُ أنَّ الخَجلَ قد اعتصره، وأنَّ الحياءَ قد بلغ به مبلغًا عظيمًا.

الخُلُق الثاني: عظيمُ أدب الصحابة رضي الله عنهم، ورهافةُ حِسِّهم وتعاملِهم مع النبي ﷺ، حتىٰ إنَّهم لا يحتاجون إلىٰ سماعِ كلمةٍ أو إشارةٍ منه ﷺ ليعرفوا أنَّ الأمر لا يُعجِبُه، بل يكفيهم تعبيراتُه ومشاعرُه التي كانوا يقرأونها في وجهه ﷺ.

فإذا رأوا الكراهيةَ في وجهه بادروا إلىٰ إصلاح ما يفعلون، وأسرعوا في معالجة ذلك الموقف، فإذا أخطأ رجلٌ منهم كلَّموه وأفهموه.

فمن ذلك: عَن جَرِيرٍ رضي الله عنه أَنَّ قَوْمًا أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الأَعْرَابِ مُجْتَابِي النِّمَارِ، فَحَثَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ عَلَىٰ الصَّدَقَةِ، فَأَبْطَؤُوا حَتَّىٰ رُئِيَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِقِطْعَةِ تِبْرٍ فَطَرَحَهَا، فَتَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّىٰ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ: **«مَن سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا مِن بَعْدِهِ كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَمِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَن يُنتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً عُمِلَ بِهَا مِن بَعْدِهِ كَانَ عَلَيْهِ**

وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا يُنقِصُ ذَلِكَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا»(١).

*** لفتة إيمانية:**

عندما يُفْقَد الحياءُ من المجتمعات، تبدو تلك المظاهرُ التي يَندَىٰ لها الجبينُ، وتتأسَّف لها صروحُ التربية، حيث تَرىٰ الحياءَ اليوم قد هُجِر مِن قِبَلِ كثيرٍ من المسلمين في بلادهم ومنازلهم وملابسهم وهيئاتهم، ويظهر لك أنَّنا أصبحنا اليوم في مأزقٍ خُلُقيٍّ عظيم، تكاد أن تتهاوَىٰ معه صروحُ الأخلاق، في ظلِّ حضارةٍ لم تُقِم للحياءِ الإنساني مثقالَ ذرَّةٍ!!

عندما يُفقَد الحياءُ من المجتمع فإنَّك تشعرُ أنَّ ذلك المجتمع يَحتضِرُ ويتهاوَىٰ ويسقُط.

إنَّ الناظرَ اليوم إلىٰ شباب الإسلام وفَتَياته يرىٰ الأمرَ قد تجاوز حدودَ الحياء في اللِّباس الذي ظهر فيه التفسُّخ والعُرْيُ، وفي العبارات والشعارات التي أسقطَتْ حجابَ الحياء، فالتقىٰ الشبابُ بالفَتَياتِ في كثير من المواقف التي تُسْقِط المروءاتِ، وتُنتهَك فيها الحُرُمات، ويُتلفَّظ فيه بالكلام البذيء الساقط، ويُجاهَر به في المجامع والمجالس، حتىٰ خُلِع حجابُ الحياء.

وعلىٰ الأمّة اليوم أن تعمل علىٰ إعادة خُلُق الحياء إلىٰ شبابها شيئًا فشيئًا، فإنَّه الخُلُق الذي تميَّزت به هذه الأمّة، وأصبح شعارًا لها تختصُّ به دون سائر الأمم.

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٢٠٠).

(ضعيف) ٣٠٨ـ عَن مَوْلًى لِعَائِشَةَ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «مَا نَظَرْتُ إِلَىٰ فَرْجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَوْ قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ فَرْجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَطُّ»[١].

شرح الحديث

الحديث ضعيفٌ سندًا، وأصحُّ منه ما جاء في البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «**كُنتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَالنَّبِيُّ ﷺ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ، تَخْتَلِفُ أَيْدِينَا فِيهِ**»[٢].

فالحديثُ المذكورُ هنا لا يصحُّ، ولا يجوزُ حملُ العِشرةِ الزوجية علىٰ هذا الـمَحْمَل.

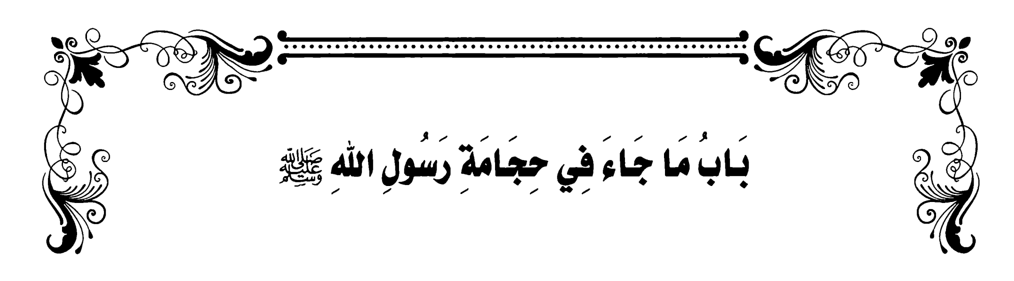
إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي ... وَلَمْ تَسْتَحِي فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ
فَلَا وَاللهِ مَا فِي العَيْشِ خَيْرٌ ... وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ
يَعِيشُ المَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ ... وَيَبْقَىٰ العُودُ مَا بَقِيَ اللِّحَاءُ[٣]

** ** **

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣٤٤)، وابن ماجه (٦٦٢، ١٩٢٢)، وضعَّفه الألباني؛ لجهالة مولىٰ عائشة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦١)، ومسلم (٣٢١).

(٣) الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا (ص٣٠٦).



بَابُ مَا جَاءَ فِي حِجَامَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

الحِجامةُ: إخراجُ الدمِ الفاسدِ الذي لا يُنتفَع منه من جسد الإنسان، عن طريق شَرْطِ الجِلد.

والحِجامةُ نوعٌ من الطبِّ عرفه البشرُ قديمًا قبل الإسلام، وتداوَت العربُ به، وأثبته الإسلامُ وحثَّ عليه، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ، وَأَنْهَىٰ أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ**»[1]، فأثبت ﷺ الاحتجامَ، وأثبت الشفاءَ به.

والشعوبُ تختلف ثقافتُها في التداوي بالحِجامة، وهي نوعانِ كما يقول أهل الطِبّ: حِجامةٌ علاجية، وحِجامةٌ وقائية.

أما الحِجامةُ العلاجيةُ فيُسْتَطَبُّ بها عندما يصيب الإنسانَ داءٌ أو مرضٌ، وتكون الحِجامة مداويةً للدَّاء بإذن الله، أو مخفِّفةً للألم.

وأما الحِجامةُ الوقائيةُ فهي التي يَحتجِم بها الإنسانُ اتِّقاءً من الأمراض، لا لعلَّةٍ به.

وكلا النوعين ثابتٌ في الهَدي النبويِّ، كما سيأتي في أحاديث هذا الباب.

ثم إنَّ الحجامةَ والتطَبُّبَ لا ينافيان التوكُّل، فإنَّ رسول الله ﷺ هو سيِّدُ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٨٠، ٥٦٨١)، وأخرجه مسلم (٢٢٠٥)، من حديث جابر رضي الله عنه.

المتوكِّلين، ومع هذا كان يتداوىٰ ويتطبَّبُ ويَحتجِم؛ لأنَّ تمامَ التوكُّلِ إنما يكون بالأخذ بالأسباب، وهذا كما سبق في أحاديثَ تقدَّمَت من أنَّه ﷺ كان يلبسُ الدُّروعَ في الغزوات.

فالتداوي والعلاج أمرٌ مشروعٌ، أقرَّته الشريعة الإسلامية، يكفلُ سعادة الإنسان العاجلة والآجلة، فسعادةُ الإنسان العاجلة تكون بالاستمتاع بالصحة والعافية والحياة الطيبة، ومن السعادة العاجلة أنَّ من تَداوىٰ وتطبَّب وتعالج يكون أكثر نشاطًا علىٰ الطاعة، وأكثر قوةً علىٰ أداء العبادة، والمؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، فهو أقدر علىٰ إقامة الصلاة، وأقدر علىٰ إعانة الناس ومساعدتهم، بعكس المسلم المريض الضعيف الذي لا يجد ما يساعده من الصحة والعافية علىٰ تأدية العبادات وإعانة إخوانه.

فهذا أصلٌ عظيمٌ راعاه الإسلام؛ لأجل ذلك شَرعَ التطبُّبَ والتداويَ بالحِجامة وغيرها.

***

(صحيح) **٣٠٩ـ عَنْ حُمَيْدٍ قَالَ: سُئِلَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَن كَسْبِ الحَجَّامِ؟ فَقَالَ: احْتَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، حَجَمَهُ أَبُو طَيْبَةَ، فَأَمَرَ لَهُ بِصَاعَيْنِ مِنَ الطَّعَامِ، وَكَلَّمَ أَهْلَهُ، فَوَضَعُوا عَنْهُ مِنْ خَرَاجِهِ، وَقَالَ: «إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَدَاوَيْتَم بِهِ الحِجَامَةُ»، أَوْ «إِنَّ مِنْ أَمْثَلِ مَا تَدَاوَيْتَم بِهِ الحِجَامَةَ»**(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٩٦)، ومسلم (١٥٧٧).

شرح الحديث

قول حميد: «سُئِلَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَن كَسْبِ الحَجَّامِ؟»؛ يعني: أحلالٌ هو أم حرامٌ؟ أطيّبٌ هو أم خبيثٌ؟ أجائزٌ أم ممنوعٌ؟

قول أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «احْتَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ»، وهذا نصٌّ واضحٌ وصريحٌ في مشروعية الحِجامة، وأنها من الهدي النبوي الكريم.

قوله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «حَجَمَهُ أَبُو طَيْبَةَ»، أبو طَيبةَ مولًىٰ لبني حارثة، أو مولىٰ أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، يُقال: إنَّ اسمَه نافعٌ، وكان يمتهن الحِجامة.

قوله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «فَأَمَرَ لَهُ بِصَاعَيْنِ مِنَ الطَّعَامِ»، استشهد بهذا أنسٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ علىٰ مشروعية كَسب الحَجَّام، وذلك بما دفعه النبيُّ ﷺ لأبي طَيبة؛ إذ لو كان غير جائزٍ لما أعطىٰ النبيُّ ﷺ أبا طَيبة أُجرةً للحِجامة.

قوله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «وَكَلَّمَ أَهْلَهُ، فَوَضَعُوا عَنْهُ مِنْ خَرَاجِهِ»؛ المقصود بأهله هنا: مَوَاليه، والخَراجُ: ما يدفعه العبدُ لسيّده مقابلَ أن يتركه يعمل ويتكسّب، فيفرِضُ عليه السيّدُ خراجًا معلومًا كلَّ يومٍ أو أسبوعٍ أو شهرٍ.

أي: كلَّم مواليَ أبي طَيبة أن يُخفِّفوا عنه من هذا الخراج، وذلك من باب الشفاعة.

قوله ﷺ: «إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَدَاوَيْتَم بِهِ الحِجَامَةُ»، هذا حثٌّ للأمّة أن تَحتجِم؛ فثبت الاحتجامُ بهديه القوليّ، كما ثبت في أوّل الحديث من هديه الفعليّ ﷺ.

حلُّ إشكالٍ:

ثبت بهذا الحديثِ وبأحاديثَ قادمةٍ مشروعيةُ كَسْب الحَجَّام، ويتعارضُ ظاهرُ هذا الحديث مع ما أخرجه الإمام مسلمٌ عن رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ رضي الله عنه عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**كَسْبُ الحَجَّامِ خَبِيثٌ**»(١).

وقد جُمِع بين هذه الأحاديث: بأنَّ الخُبْثَ في كَسْب الحَجَّام ليس معناه التحريم، وإنما معناه: أنَّه ليس من جميل الكسب؛ فإنَّ مِهنةَ الحِجامة تعتمدُ علىٰ استخدام المِشْرَط وامتصاص الدِّماء، وكثيرًا ما يؤدِّي ذلك إلىٰ إصابة الحَجَّام بالدماء في فمه أو ملابسه أو جسده، فليس هذا الكسبُ بالكسبِ الذي يليق بأهل المروءات عادةً.

فوصفُ كَسْبِ الحَجَّام بالخُبث كوَصْف البَصل والثُّوم بالخُبث في مثل قوله ﷺ: «**مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الخَبِيثَةِ شَيْئًا، فَلَا يَقْرَبَنَّا فِي المَسْجِدِ**»(٢)؛ فإنَّه لم يقل أحدٌ من أهل العلم بأنَّ أكلَ البَصَل أو الثوم حرامٌ لوصفهما بالخُبث! ولكنَّ الموصوف بالخُبث هنا رائحتُهما، فكذلك وصفُ كَسْبِ الحَجَّام بالخُبث لا يعني تحريمَه وإنما يعني عدمَ طِيبِ مظهرِ ومَرأىٰ الحَجَّام.

***

(صحيح) **٣١٠ـ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ احْتَجَمَ، وَأَمَرَنِي فَأَعْطَيْتُ الحَجَّامَ أَجْرَهُ»**(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٦٨).

(٢) أخرجه مسلم (٥٦٥).

(٣) أخرجه أحمد (١١٣٠)، وابن ماجه (٢١٦٣).

شرح الحديث

قول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ احْتَجَمَ**»، فيه إثباتُ احتجامِه ﷺ - كما سبق من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَأَمَرَنِي فَأَعْطَيْتُ الحَجَّامَ أَجْرَهُ**»، يُثبت أيضًا ما أفاده حديثُ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من مشروعيَّة كَسْب الحجَّام؛ بدليل دفع النبي ﷺ للحَجَّام أجرتَه.

***

(صحيح) ٣١١- **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَظُنُّهُ قَالَ: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ احْتَجَمَ عَلَىٰ الأَخْدَعَيْنِ وَبَيْنَ الكَتِفَيْنِ، وَأَعْطَىٰ الحَجَّامَ أَجْرَهُ، وَلَوْ كَانَ حَرَامًا لَمْ يُعْطِهِ»**(١).

شرح الحديث

في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إثباتُ الأمرين اللَّذَين أثبتهما الحديثان السابقان، وهما:

الأمر الأوّل: احتجامُ النبي ﷺ، وهذا يدلُّ علىٰ مشروعية الاحتِجام.

الأمر الثاني: إعطاءُ الحجَّام أجرَه، والاستدلال بذلك علىٰ مشروعية كسْب الحجَّام، وأنه ليس مُحرَّمًا، وقد نصَّ علىٰ هذا الاستنباط الفقهي الصحابيُّ الجليلُ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حيث قال: «**وَأَعْطَىٰ الحَجَّامَ أَجْرَهُ، وَلَوْ كَانَ حَرَامًا لَمْ يُعْطِهِ**»، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ ما كان ليعمل شيئًا خبيثًا أو حرامًا؛ فإنَّ الله قد عَصَمه من مُواقَعة المحرَّمات والخبائث.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٩٠٤).

وقد جاءت الروايةُ في صحيح مسلمٍ(١) بلفظ: «**حَجَمَ النَّبِيَّ ﷺ عَبْدٌ لِبَنِي بَيَاضَةَ، فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ أَجْرَهُ، وَكَلَّمَ سَيِّدَهُ فَخَفَّفَ عَنْهُ مِن ضَرِيبَتِهِ، وَلَوْ كَانَ سُحْتًا لَمْ يُعْطِهِ النَّبِيُّ ﷺ**».

قول ابن عباس رضي الله عنهما: «**إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ احْتَجَمَ عَلَىٰ الأَخْدَعَيْنِ وَبَيْنَ الكَتِفَيْنِ**»، في هذا زيادةُ بيانٍ لموضع الحِجَامة، وهي مواضعُ يعرِفُها الحجَّامون إلىٰ اليوم.

والأَخْدَعان: عِرْقان في جانبَي العُنُق اليمين والشمال، يمتدَّان من الرَّقبة إلىٰ أسفل الظَّهر.

وبين الكَتِفَين: وهو الكاهِلُ، أعلىٰ الظَّهر وأسفلَ الرَّقَبة من الخلف.

وقد أثبت الطبُّ الحديثُ اليوم أنَّ الحِجامة في هذه المواضع من أنفع ما تكون فيه الحجامة، وأفضل ما يُستخرَج منه الدمُ الفاسدُ من جسد الإنسان، وذلك بعد أمر الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ، وذلك أن الدِّماء تجتمع في تلك المواضع، ثم إنَّ الكاهِلَ خالٍ من المفاصل، وهو أكثر مواضع الجسم رُكودًا، والشعيراتُ الدَّمَويةُ فيه من أكثر ما تكون غزارةً بالدَّم وتشابُكًا، فتلك المنطقةُ مَظِنَّةُ اجتماعِ الدِّماء وترسُّبِ الموادِّ الفاسدة فيها؛ فلأجل ذلك كان استخراجُ الدمِ الفاسدِ من تلك الأماكن من أنفع ما يُفيدُ الجِسم.

فسبحان مَن ألهم نبيَّه ﷺ وعلَّمه ما لم يكن يعلمه هو ولا البشرية من قبلُ، حتىٰ جاء الطبُّ الحديثُ بأجهزته واستكشافاته بعد مئات السنين؛ ليثبت هذا الإعجازَ الطبيَّ النبويَّ، والذي جاء به النبيُّ الأُمِّيُّ ﷺ في زمنٍ قديمٍ غابرٍ لم

(١) صحيح مسلم (١٢٠٢).

تكن تعرف فيه البشريةُ هذا التقدُّمَ الطبيَّ ولا تلك الأجهزة والآلات المتطوِّرة، ولكنه وحيٌ من ربِّ العالمين لإمام الأنبياء والمرسلين ﷺ.

والاحتجامُ في هذه المواضع إنما هو من باب الحِجامة الوقائية، وأما الحِجامةُ العلاجيةُ التي يتداوَىٰ بها المرءُ من مرضٍ يصيبُه أو عِلّةٍ يشتكي منها فإنها لا تتقيَّدُ بهذه المواضع، بل يَحتجِمُ بحسب ما هو معروفٌ عند الحجَّامين من مواضع الاستشفاء والتطبُّب مما قد أصابه من مرضٍ.

***

(صحيح) **٣١٢ـ عَنِ ابْنِ عُمَر رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا حَجَّامًا، فَحَجَمَهُ، وَسَأَلَهُ: «كَمْ خَرَاجُكَ؟»، فَقَالَ: ثَلَاثَةُ آصُعٍ، فَوَضَعَ عَنْهُ صَاعًا، وَأَعْطَاهُ أَجْرَهُ**(١).

شرح الحديث

قول ابن عمر رضي الله عنهما: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا حَجَّامًا**»، قد يكون هذا الحجَّام هو أبا طيبة الذي ذُكِر في حديثٍ سابق، وقد يكون غيرَه.

قوله ﷺ: «**كَمْ خَرَاجُكَ؟**»؛ الخراج ـ كما سبق ـ: ما يدفعه العبد لسيده مقابل أن يتركه يعمل ويتكسب، فيفرض عليه السيد خراجًا معلومًا كل يوم أو أسبوع أو شهر.

قول ابن عمر رضي الله عنهما: «**فَقَالَ: ثَلَاثَةُ آصُعٍ**»؛ الآصُع: جمع صاع، والصاع: أربعة أمداد، والمد: مِلْءُ الكفَّين المعتدلتين مجتمعتين.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٠٩٨٣).

والمُد والصاع من المكاييل التي كانت تستعملها العرب قديمًا، تحسب بها مقادير الأطعمة.

فكان خراج هذا المولىٰ الذي حجم النبي ﷺ ثلاثة آصع.

قوله رضي الله عنه: «**فَوَضَعَ عَنْهُ صَاعًا**»؛ أي: كلَّم مواليه أن يُخفِّفوا عنه من ثلاثة آصُعٍ إلىٰ صاعين.

قوله رضي الله عنه: «**وَأَعْطَاهُ أَجْرَهُ**»، إن كان الحجام أبا طيبة فقد مرَّ في الحديث السابق أنَّه أعطاه أجره صاعين من طعامٍ.

***

(صحيح) **٣١٣ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه **قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَحْتَجِمُ فِي الأَخْدَعَيْنِ وَالكَاهِلِ، وَكَانَ يَحْتَجِمُ لِسَبْعَ عَشْرَةَ وَتِسْعَ عَشْرَةَ وَإِحْدَىٰ وَعِشْرِينَ»**(١).

شرح الحديث

قول أنس بن مالك رضي الله عنه: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَحْتَجِمُ فِي الأَخْدَعَيْنِ وَالكَاهِلِ**»، في هذا إثبات أمرين ثبتا في الأحاديث السابقة: وهو إثبات احتجامه ﷺ، وتحديد موضع الحجامة بالأَخْدَعَين والكاهِل.

ولكن اللفظ الوارد في الحديث السابق: (بين الكتِفَين)، وهنا حدَّده بالكاهِل.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٥١)، وقال: «حسن».

قوله رضي الله عنه: «وَكَانَ يَحْتَجِمُ لِسَبْعَ عَشْرَةَ وَتِسْعَ عَشْرَةَ وَإِحْدَىٰ وَعِشْرِينَ»، في هذا الحديث زيادةُ فائدةٍ بتحديد أيام الحجامة، إذ هذه الليالي الثلاثُ هي أفضلُ ليالي الحِجامة علىٰ الإطلاق؛ ليلةُ السابعَ عشرَ من كل شهر، وليلةُ التاسعَ عشرَ، وليلةُ الحادي والعشرين، فتلك الليالي هي أفضلُ الأوقات مناسبةً لجسم الإنسان أن يحتجم فيها؛ إذ يرتفعُ فيها دمُ الإنسان الفاسدُ إلىٰ سطح الجلد في تلك الليالي؛ فيكون أسهلَ ما يكون استخراجه بالحجامة، وأنفعَ ما يكون للمُحتجِم.

وهذا إنما يكون في الحِجامة الوقائية، وأما الحِجامةُ العلاجيةُ فيَحتجِم الإنسان في أيِّ يومٍ وأيِّ مكانٍ، بحسب ما يحتاج إليه، وبحسب ما يشير إليه أصحاب الخبرة والعلم بالحِجامة.

وقد عقد ابنُ القيِّم ـ رحمه الله ـ في (زاد المعاد) فصلًا طويلًا عن الحِجامة النبويّة، وأثبت طرفًا من الإعجاز في هذا الباب، ومن الهديِ النبويِّ في الحجامة من جهة الزمان والمكان وطريقة الحجامة(١).

***

(صحيح) ٣١٤ ـ وَعَنْهُ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ احْتَجَمَ وَهُوَ مُحْرِمٌ بِمَلَلٍ، عَلَىٰ ظَهْرِ الْقَدَمِ»(٢).

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٤٩) وما بعدها.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٦٨٢)، وأبو داود (١٨٣٧)، والنسائي (٢٨٤٩)، من غير قوله «بملل».

شرح الحديث

قول أنس بن مالك رضي الله عنه: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **احْتَجَمَ وَهُوَ مُحْرِمٌ بِمَلَلٍ**»؛ مَلَلٌ: موضعٌ بين مكة والمدينة، وهو إلىٰ المدينة أقرب، قدِم عليه ﷺ مُحرِمًا.

ففي الحديث إثباتُ احتجامه ﷺ حالَ إحرامه، فثبت أنَّ الاحتجامَ لا ينافي الإحرام، وأنَّه ليس من محظوراته، فيجوز للمُحرِم أن يَحتجم.

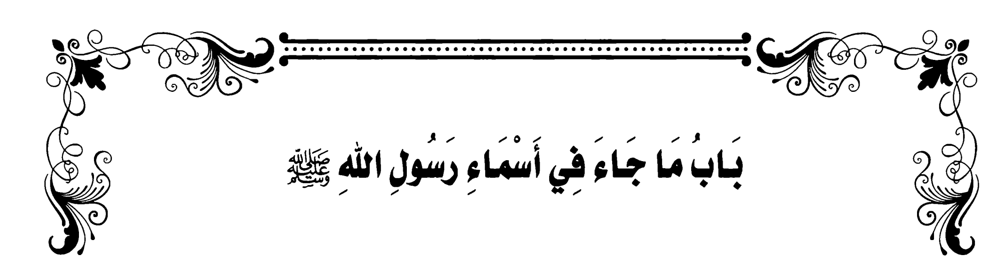
قوله رضي الله عنه: «**عَلَىٰ ظَهْرِ القَدَمِ**»، في هذا فائدةٌ جديدةٌ، وهي تحديدُ موضع الاحتجام في ظَهر القَدَم.

وقد جاء في روايةٍ أخرىٰ: «**أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **احْتَجَمَ وَهُوَ مُحْرِمٌ عَلَىٰ ظَهْرِ القَدَمِ مِن وَجَعٍ كَانَ بِهِ**»[(١)]، ففيه إثبات الحِجامة العلاجية، وأنَّ الإنسان إذا احتاج للحِجامة في أيِّ موضعٍ كان من جسده يُشرع له الاحتِجامُ في ذلك الموضع، فلا تتقيَّدُ الحجامةُ العلاجيةُ بزمانٍ أو موضعٍ، بل بحسب ما يحتاج إليه.

إلا أنَّه ينبغي التنبيهُ علىٰ أنَّه ليس كلُّ موضعٍ في الجسد يصحُّ الاحتِجام فيه، ويرجع في ذلك إلىٰ أهل الاختصاص في الطبِّ والحجامة.

** ** **

(١) أخرجه أحمد (١٢٦٨٢)، وأبو داود (١٨٣٧)، والنسائي (٢٨٤٩).



بَابُ مَا جَاءَ فِي أَسْمَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

هذا الباب يتحدَّث عن أسماء رسول الله ﷺ، وهو جزءٌ من الشمائل المحمَّدية التي ينبغي علىٰ المسلم أن يتعلَّمها ويعرفها.

فلا تقتصر المتابعةُ ومحبَّةُ النبي ﷺ علىٰ تعلُّم كيفية اللباس والطعام والشراب، ونحو ذلك مما يُطَبَّق تطبيقًا عمليًّا في حياة المسلم، بل تتعدَّىٰ المحبَّةُ الصادقةُ له ﷺ إلىٰ معرفة أسمائه، وأسماء زوجاته، وأسماء أبنائه وبناته، وأسماء خَدَمه، وأسماء المقرَّبين إليه من الصحابة وآل البيت، وما يتعلَّق بمقتنَياته الخاصَّة من أدواتٍ ومركوبٍ وسلاحٍ وفِراشٍ ونحوها؛ إذ إنَّ هذه المعرفةَ تقود إلىٰ محبَّة النبي ﷺ، وتدلُّ علىٰ محبَّته ﷺ، فإنَّ الإنسان كلَّما ازداد حُبًّا لشخصٍ قادَتْه نفسُه إلىٰ معرفته أكثر، والبحثِ عن شؤونه الخاصَّة، ومعرفةِ كلِّ تفاصيل حياته، وتتبُّعِ أخباره وأحواله، فتراه يَرصُدُها رصدًا دقيقًا.

فلا يكتمل الحُبُّ في قلبِ المؤمن إلا وهو حريصٌ علىٰ معرفة كلِّ شأنٍ من شؤون نبيِّه ﷺ، من معرفة جَمالِ مَظهرِه، وكمال خِلْقَتِه وهيئتِه، ومعرفة أسمائه.

ثم إنَّ أسماءَه ﷺ اجتمع فيها من الجَمال ما اجتمع في خِلْقَته ومَظهرِه، فإنَّه جَمعَ جَمالَ الخَلْقِ والخُلُقِ والأسماء، وهي أسماءٌ سمَّاه بها الله تعالىٰ، وأخبرنا بها النبي ﷺ.

(صحيح) ٣١٥ـ عَن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ، وَالعَاقِبُ: الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ**»(١).

شرح الحديث

قوله ﷺ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً»، كثرةُ الأسماء تدُلُّ علىٰ عَظَمة الـمُسَمَّىٰ.

ثم إنَّ أسماءَ النبي ﷺ ليست أعلامًا مُجَرَّدةً لا معانيَ لها كأعلام بقيَّة الناس، وإنما هي أسماءٌ تدلُّ علىٰ معانٍ وأوصافٍ متعدِّدةٍ يتَّصف بها النبي ﷺ، فكلُّ اسمٍ يدلُّ علىٰ معنًىٰ ووصفٍ يستحقُّه النبي ﷺ.

قوله ﷺ: «أَنَا مُحَمَّدٌ»، هذا أعظمُ الأسماء وأشهرُها، وقد جاء هذا الاسم في القرآن الكريم، وقد عُرِف به النبي ﷺ قبل النبوَّة وبعدها، وهو الاسم الذي سَمَّاه به والداه.

و(محمد) صيغةُ مبالغةٍ وتفضيلٍ، بمعنىٰ: أنه كثيرُ الحَمد، يستحقُّ الحَمد علىٰ أقواله وأفعاله وصفاته الفاضلة ومناقبه الكريمة التي تُحمَد في شأنه، فهو محمودٌ في الدنيا والآخرة، ومحمودٌ بين أهل الأرض وأهل السماء.

ومن لطائفِ التسمية بهذا الاسم حديثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ! يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا**

(١) أخرجه البخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤).

وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا، وَأَنَا مُحَمَّدٌ»(١)، حيث كانت قريشٌ من غَيْظها وبُغضِها وحَربها للنبي ﷺ لا تطيقُ أن تناديَه باسمه (محمد)؛ لأنَّه اعترافٌ ضِمنيٌّ بصدقه ﷺ، فقادهم الشيطانُ لمناداته (مذمَّمًا)، وهو عكسُ اسمه ﷺ ونقيضُه، فـ(محمّدٌ) مَن يُحمَد قولُه وفعلُه وشأنُه، و(مُذَمَّمٌ) من يُذَمُّ قولُه وفعلُه وشأنُه، فإذا أرادوا شَتمه ولَعنه شَتَموا مُذَمَّمًا ولعنوا مُذَمَّمًا، وهو من باب صرف الله تعالىٰ الكفّارَ عن شَتمه باسمه ﷺ.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

هُمْ يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا، وَمُحَمَّدٌ ... عَن شَتْمِهِمْ فِي مَعْزِلٍ وَصِيَانِ

صَانَ الإِلَهُ مُحَمَّدًا عَن شَتْمِهِمْ ... فِي اللَّفْظِ وَالمَعْنَىٰ هُمَا صِنْوَانِ

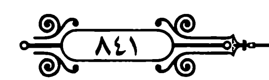
قوله ﷺ: **«وَأَنَا أَحْمَدُ»**، وقد جاء هذا الاسمُ في سورة الصفِّ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، كما ثبت هذا الاسمُ في الكتب السماوية السابقة.

وسُمِّي بهذا الاسم لأنه أكثرُ العباد حَمدًا لربِّه، فهو أحمدُ الناس علىٰ الإطلاق، وثبت في حديث الشفاعة أنه يَحمدُ الله بمحامِدَ لم يَحمده تعالىٰ بها أحدٌ قبله ﷺ؛ فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«يَجْمَعُ اللهُ المُؤْمِنِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَىٰ رَبِّنَا حَتَّىٰ يُرِيحَنَا مِن مَكَانِنَا هَذَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَمَا تَرَىٰ النَّاسَ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٣).

(٢) نونية ابن القيم (ص١٦٤).



أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا حَتَّىٰ يُرِيحَنَا مِن مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكَ، وَيَذْكُرُ لَهُمْ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، وَلَكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ لَهُمْ خَطَايَاهُ الَّتِي أَصَابَهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا مُوسَىٰ، عَبْدًا آتَاهُ اللهُ التَّوْرَاةَ، وَكَلَّمَهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَىٰ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ لَهُمْ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، وَلَكِنِ ائْتُوا عِيسَىٰ عَبْدَ اللهِ وَرَسُولَهُ، وَكَلِمَتَهُ وَرُوحَهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَىٰ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ، عَبْدًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَنطَلِقُ، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَن يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقَالُ لِي: ارْفَعْ مُحَمَّدُ وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ عَلَّمَنِيهَا، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَرْجِعُ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَن يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ عَلَّمَنِيهَا رَبِّي، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَرْجِعُ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَن يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، قُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ عَلَّمَنِيهَا، ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَرْجِعُ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ، وَوَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُودُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَن قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَن قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَن قَالَ: لا إِلَهَ

إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ مِنَ الخَيْرِ ذَرَّةً»(١).

فهو أعظمُ الناسِ حَمدًا لربّه، وأكثرُهم ثناءً عليه، وأعظمُهم قيامًا بحقِّه الواجب له ـ جلَّ في عُلاه ـ.

قوله ﷺ: «وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الكُفْرَ»، فذكر اسمَه، وبيَّن معنىٰ الاسم.

أي: أنَّ الله يمحو به الكُفرَ، حيث إنَّ رسالته ﷺ جاءت نورًا، طمسَ الله بها ظُلماتِ الشرك والجاهلية، وأشرق بها نور الإسلام، قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، فجعل الهداية في نور نُبوَّته ﷺ.

قوله ﷺ: «وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدَمِي»؛ أي: أنَّه يتقدَّم الناسَ في الحشر؛ فهو أوّلُ من يَنشَقُّ عنه القبرُ فيُبعَث، ثم يُبعَث الناس علىٰ إثره ويُحشَرون.

قوله ﷺ: «وَأَنَا العَاقِبُ، وَالعَاقِبُ: الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ»، معناه واضحٌ، أي: أنَّه خاتَم النبيِّين، وليس بعدَه أحدٌ من الأنبياء.

قيل: إنَّ اللفظة التي فُسِّر بها اسمُه (العاقب) ليست من الحديث، وإنما هي مُدرَجةٌ من كلام الإمام الزُّهري رَحِمَهُ اللهُ.

***

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٠).

(حسن) ٣١٦ـ عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: لَقِيتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي بَعْضِ طُرُقِ المَدِينَةِ، فَقَالَ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَأَنَا المُقَفَّىٰ، وَأَنَا الحَاشِرُ، وَنَبِيُّ المَلَاحِمِ»(١).

شرح الحديث

قوله ﷺ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ»، تقدّم الحديثُ عن هذين الاسمين في الحديث السابق.

قوله ﷺ: «وَأَنَا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ»، وهو ﷺ نبيُّ الرحمة من وجهين:

الوجهُ الأوّل: أنَّ الدينَ الذي جاء به هو دينُ الرحمة؛ حيث أَذِنَ الله بنبوَّته أن تعود الهدايةُ للناس، وأن ترجعَ البشريةُ إلىٰ الصراط المستقيم بعد أن تاهوا في غَيٍّ وضلالٍ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فنُبُوَّته ﷺ رحمةٌ للعالمين؛ المسلمِ منهم والكافرِ، فهي رحمةٌ لأمَّة الدعوة كافةً.

الوجهُ الثاني لتسميته بنبيِّ الرحمة: ما اتَّصف به ﷺ من الأخلاق والصفات الرحيمة؛ حيث كانت الرحمةُ تَقطُرُ من أقواله وأفعاله ﷺ، وتَسري في جميع شؤون حياته؛ فإذا تعامل مع أهله كان عُنوانَ تعامُله الرحمةُ، وإذا تعامل مع الناس خارجَ بيته لا يعرفون منه إلا الرحمةَ، وإذا أخطأَ جاهلٌ بحضرته عالجَه وعلَّمه بالرحمة، وقد قال الله ﷻ فيه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٤٤٥).

لنا سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]، لكن الله أراد له أن يكون رحيمًا بأمَّته، وصَدقَ الشاعرُ حين قال فيه:

وَإِذَا رَحِمْتَ فَأَنْتَ أُمٌّ أَوْ أَبٌ ... هَذَانِ فِي الدُّنْيَا هُمَا الرُّحَمَاءُ(١)

قوله ﷺ: «وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ»؛ أي: أنَّه ﷺ جاء بشريعةٍ فُتِحَت فيها أبوابُ التوبة، وحَثَّ العبادَ عليها، فليست هذه الأمَّةُ بأمَّةِ آصارٍ وأغلالٍ، بل إن الآصارَ والأغلالَ قد وضعها الله عن الناس ببعثة النبي ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ففُتِحَت أبوابُ التوبة علىٰ يديه إلىٰ أن تَبْلُغ الروحُ الحُلقومَ، أو تَطلُعَ الشمسُ من مغربها؛ فلا عُذرَ لصاحبِ معصيةٍ أو ذنبٍ أو كبيرةٍ أو فاحشةٍ بعدم التوبة، ولا يجزعنَّ أحدٌ من أتباع محمدٍ ﷺ من كثرة ذنوبه ولا يَقنَطْ، بل عليه أن يسارع إلىٰ التوبة، ولا يقعدنَّ به الشيطانُ، وليُحسِن الظنَّ بالله، ولْيُسارع إلىٰ التوبة، قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وما زال ربُّنا يحثُّ الناسَ علىٰ التوبة مهما بلغت ذنوبُهم، فيقول سبحانه في الحديث القدسي: **«يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي**

(١) من أبيات لأحمد شوقي.

لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(١).

قوله ﷺ: «وَأَنَا المُقَفَّىٰ»، رُوِي باسم الفاعل (المُقَفِّي)، أي: الذي يَقْفُو الأنبياءَ، أي: الذي يَتْلُوهم ويَتْبَعُ سبيلَهم.

ورُوِيَ باسم المفعول (المُقَفَّىٰ) أي: الذي جعله الله خاتمًا للأنبياء.

قوله ﷺ: «وَأَنَا الحَاشِرُ»، تقدَّم في الرواية السابقة.

قوله ﷺ: «وَنَبِيُّ المَلَاحِمِ»؛ المَلاحِم: الحُروب، والمقصودُ بكونه نبيَّ الملاحِم: أنَّ الله بعثه للجهاد باليد واللسان والسِّنان، قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

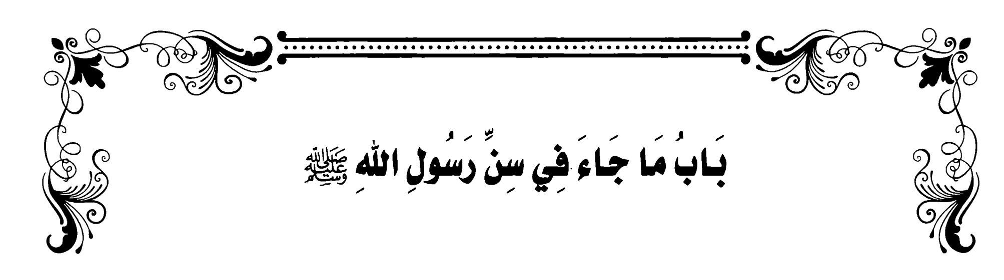
فكما أنَّه نبيُّ الرحمةِ والرأفةِ والدعوةِ بالكلمة الطيبة، فكذلك هو نبيُّ الجهاد، فشريعتُه قامت علىٰ الجمع بين الترغيب والترهيب، فليس هو دينَ ضَعفٍ وخَوَرٍ، ولا دينَ ظُلمٍ وجَوْرٍ وتجبُّرٍ.

ولا يُفهَم من هذا أنَّه نبيٌّ متعطِّشٌ للدِّماء، وتجريدِ السيوفِ وتسليطِها علىٰ رقاب العباد! بل إنما شُرِع الجهادُ لصيانة الأمَّةِ أن تُصاب من قِبَل الأُمَم الأخرىٰ، ولأجل حفظ هَيبتها وكرامتها، فلا بُدَّ للأمَّة من قوةٍ ورادعٍ يُردَع به الأعداءُ ويُخَوَّفون.

بل إن رحمته ﷺ ظهرت حتىٰ في الجهاد وميادين القتال مع الأعداء، فمع كثرة غَزَواته وتعدُّدها إلا أنه ﷺ ما قتل بيده إلا رَجُلًا واحدًا فقط، وهو أُبيُّ بنُ خَلَفٍ الجُمحيُّ حيث كان يريدُ قتلَ النبي ﷺ يوم أُحُد.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، وقال: «حسن غريب».

بَابُ مَا جَاءَ فِي سِنِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ

(صحيح) ٣١٧ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «مَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَىٰ إِلَيْهِ، وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرًا، وَتُوُفِّيَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ»(١).

شرح الحديث

دلَّت هذه الرواية علىٰ أنَّه ﷺ عاش قبل النبوَّة أربعين سنةً، ثم بُعِث وعاش بعد البِعثة ثلاثًا وعشرين سنةً، أقامَ منها في مكة ثلاثَ عشرةَ سنةً، وهي المدَّة التي تُسَمَّىٰ بالدَّعوة المكِّية، حتىٰ أذِنَ الله له بالهجرة إلىٰ المدينة، وبقيَ فيها عشرَ سنواتٍ، حتىٰ لحِقَ بالرفيق الأعلىٰ.

وتوفي ﷺ وعُمرُه ثلاثٌ وسِتّون سنةً، وهو القولُ الوسطُ المعتمَدُ والمُقَرُّ عند أهل العلم كافَّةً.

وقد جاء في بعض الروايات أنَّه مات وهو ابنُ ستِّين سنةً، ورواياتٌ أخرىٰ أنَّه مات وهو ابنُ خمسٍ وسِتّين سنةً، والجمعُ بين هذه الأقوال أن يُقال: إنه مات وهو ابنُ ثلاثٍ وسِتِّين سنةً تحديدًا، ولكنَّ العربَ من عادتها أن تُقَرِّب الأرقامَ ولا تُحدِّدها، فبعضُهم قرَّبها إلىٰ أقرب عدد من ألفاظ العُقود وهو السِّتِّين، فقال:

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٢)، ومسلم (٢٣٥١).

إنه مات وهو ابنُ ستِّين سنةً، وبعضُهم جَبرَ الكَسرَ وقرَّب الرقمَ إلىٰ أقرب خمسةٍ فقال: إنه ماتَ وهو ابنُ خمسٍ وستِّين سنةً.

وقد جاءت الرواياتُ بموته وهو ابنُ ثلاثٍ وستِّين سنةً عن أقرب الناس إليه؛ عائشةَ زوجِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومعاويةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو مِن أقرب الناس إليه.

وإنما طَوَىٰ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الكلام عن حياته قبل النُّبوَّة لانعقاد الإجماع علىٰ بعث ﷺ وهو علىٰ رأس الأربعين.

***

(صحيح) ٣١٨ـ **عَن جَرِيرٍ، عَن مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَخْطُبُ قَالَ: «مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَأَنَا ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ»**(١).

شرح الحديث

(**عَن مُعَاوِيَةَ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَخْطُبُ**) وذلك أيّام خلافته، فإنه قد امتدَّت به الحياةُ إلىٰ ما بعد موت الخلفاء الأربعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وتولَّىٰ الخلافة من بعدهم.

قول معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ**»، هذا الجزءُ من الرواية يؤكِّدُ روايةَ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا السابقة.

قول معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**»؛ أي: كلاهما مات عن ثلاثٍ وستّين سنةً، فعاشوا سنواتٍ متوافقةً مع سنواتِ عُمُر النبيِّ ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٥٢).

وذلك أنَّ أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَصغُر رسولَنا ﷺ بنحو من سنتين ونصفٍ، فلما توفّي النبي ﷺ عاش بعده أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنتين ونصفًا متولِّيًا الخلافة، وعندما تُوفّي كان قد أتمَّ ثلاثًا وستّين سنةً، فكان عُمُره موافقًا لعُمُر النبي ﷺ.

وأمَّا عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان أصغرَ من النبي ﷺ بثلاثَ عشرةَ سنةً، وقد تولَّىٰ الخلافة من بعد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عشرَ سنواتٍ، فأتمَّ الله له عند وفاته ثلاثًا وستِّين سنةً أيضًا.

ولك أن تعجب كيف جمع الله نبيَّه ﷺ مع صاحبيه في الحياة، والعُمُر، والقَبر، فاجتمعوا في هذه الثلاثة، بل واجتمعوا في أمورٍ أخرىٰ كثيرةٍ لا تُحَصىٰ، ثم يأتي بعد ذلك من أصحاب الأقوال الفاسدة مِمَّن ينتسب إلىٰ الإسلام كَذبًا وزورًا مَن يتناول هذين الإمامين الكبيرين بالسَّبِّ والشَّتم واللَّعنِ والانتقاصِ، بل والتكفيرِ ـ والعياذ بالله ـ، فيتجاوزون كلَّ هذه النصوصِ التي دلَّت علىٰ فضيلتهما ومكانتهما، ودلَّت علىٰ صحَّة خلافتهما لرسول الله ﷺ، وما ذلك إلا لأنَّ عقولَهم مطموسةٌ، وقلوبَهم مُظلمةٌ، قد حادَت عن الحق، وخرجَت عن الدِّين، ومشَت في دربٍ ليس من الإسلام في شيءٍ، وذهبوا يُكفِّرون الصحابةَ وعلىٰ رأسهم الشيخان الوزيران.

وهم في ذلك ما أرادوا شَخصَيْهما، بل أرادوا هَدمَ الدِّين بهدم بوَّاباته، والطعنَ في الإسلام بطعن أركانه، وتقويضَ الإيمان بالطعنِ في هذين الكبيرين وسائرِ الصحابة.

قول معاوية رضي الله عنه: «**وَأَنَا ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ**»؛ أي: وأنا اليوم ابنُ ثلاثٍ وستِّين سنةً، قالها تشوُّفًا وطمعًا أن يدركَه الأجلُ في تلك السَّنة فيوافق عمرُه عمرَ النبي ﷺ.

ولكن معاوية رضي الله عنه امتدَّ به الأجلُ حتىٰ بلغ الثمانين من عمره.

ولا ينبغي للمسلم أن يطلب من الله أن يُميته وعُمرُه ثلاثٌ وستّون سنةً، بل يطلب من الله ويدعوه أن يُعينه علىٰ اتِّباع السُّنن، والاقتداءِ بالهدي النبوي، وأن يُميتَه علىٰ عملٍ صالحٍ، وأن يَختِمَ له بالخاتمة الحسنة، والسيرة الصالحة، فإنَّ خيرَ المؤمنين مَن طال عمرُه وحسُنَ عملُه.

فإنْ كتبَ الله للمؤمن الوفاةَ وقد وافقَ عمرُه عمرَ النبي ﷺ فهو خيرٌ يَفرح المؤمنُ به، ولا يجعله أمنيةً أو طلبًا يطلُبُه من الله سبحانه.

***

(صحيح) ٣١٩ـ **عَنْ عَائِشَةَ** رضي الله عنها: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ سَنَةً**»(١).

شرح الحديث

هذا الحديث يؤكِّدُ ما ورد في الحديثين السابقين عن ابن عباسٍ ومعاويةَ رضي الله عنهم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٥٤) وقال: «حسن صحيح».

وإنما ساق المؤلفُ ثلاثَ رواياتٍ في معنًىٰ واحدٍ عن ثلاثةٍ من الصحابة؛ ليدفع عنك ما سيرِدُ في الروايات القادمة مما يخالفُ ظاهرُه هذه الروايات مِن أنَّه ﷺ مات وعُمرُه ثلاثٌ وستّون سنةً.

***

(صحيح) ٣٢٠ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يَقُولُ: «تُوُفِّي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ ابْنُ خَمْسٍ وَسِتِّينَ»(١).

شرح الحديث

هذه الروايةُ صحيحةُ الإسناد لأنها في صحيح مُسلم، ولكنَّ مَتنَها شاذٌّ؛ إذ يخالفُ الرِّواياتِ الأكثرَ والأصحَّ منها في أنَّه ﷺ مات عن ثلاثٍ وستِّين سنةً.

وقد سبق توجيهٌ آخرُ يُصَحَّح به المتنُ، وهو أن يُقال: إنَّه علىٰ التقريب، فجَبرَ الثلاثة والسِّتين وقال: إنه ابنُ خمسٍ وستِّين سنةً.

***

(ضعيف) ٣٢١ـ عَن دَغْفَلِ بْنِ حَنظَلَةَ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قُبِضَ وَهُوَ ابْنُ خَمْسٍ وَسِتِّينَ»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٥٣)، والترمذي (٣٦٥١)، وقال: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٦٧٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٤/٢٢٦).

شرح الحديث

(عَن دَغْفَلِ بْنِ حَنظَلَةَ) هو دَغْفَلُ بنُ حَنظَلَةَ بن زَيدٍ السَّدوسي، مُخضرَمٌ، لا تَثبتُ له صُحبةٌ، نزل البصرة، ومات بفارسٍ أيَّام قتال الخوارج.

فدَغفلُ إنما يروي هذا الحديث عن أحد الصحابة قطعًا، ولأنه لم يذكر الصحابي فيكون حديثُه مُرسَلًا، ويُحكَم عليه بالضعف، هذا من ناحية الإسناد، ومن ناحية المتن فإنه يخالف الروايات الأصحَّ في أنَّه ﷺ تُوفِّي وُعمرُه ثلاثُ وستّون سنةً.

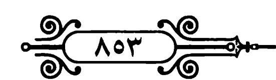
* **لفتة إيمانية:**

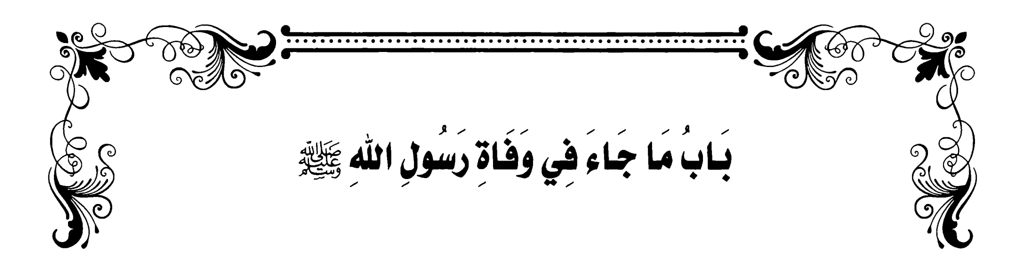
هذا الرقم الذي تتابع الصحابةُ والتابعون والأئمةُ علىٰ نقله في سِنِّ رسول الله ﷺ لا يَثبُتُ به حكمٌ شرعيٌّ، ولا يَدلُّ علىٰ عملٍ، ولا يَفتح باب قُرْبَةٍ، ولكنه يدلُّ علىٰ حُبِّ الصحابة الشديدِ لنبيِّهم ﷺ، حتىٰ إنَّهم ليعرفون عنه كلَّ شيءٍ، وينقلون ذلك إلىٰ مَن بعدهم، يَحكون بذلك حُبَّهم، ويَروُون به تتبُّعَهم لآثاره وسيرته ﷺ.

ولا يُظَنُّ بمثل هذا الكلام أنَّ معرفةَ سيرته وشمائله وسِنِّه من فُضول العِلم، حاشا وكلا، بل هو من صُلب العلم الذي له أثرٌ في الإيمان والطاعة والاقتداء والاتِّباع، وما نقله الصحابةُ وحَفِظوه وتلقَّفه عنهم أصحابُ الرواياتِ والسُّننِ والمسانيدِ والجوامعِ إلا لتحفظه الأجيالُ، وتقرأه وتتعلَّمه الأمَّة، فإنه عِلمٌ يقود من ورائه إلىٰ محبَّته، واتِّباع سُنَّته وهَديه.

وهذا هو المقصدُ الأكبرُ من دراسة السيرة النبوية والشمائل المحمَّدية؛ أن يكون للمسلم سَهمٌ وافرٌ ونصيبٌ عظيمٌ مباركٌ من حُبِّ النبي ﷺ، يمتلئ به صَدرُه، ويَربط كلَّ شؤونه بشؤون النبي ﷺ، حتىٰ لا يبقىٰ عنده خبرٌ ألذُّ من سماع أخبار النبي ﷺ.

** ** **





بَابُ مَا جَاءَ فِي وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

وفاةُ النبي ﷺ هي المُصابُ الجَلَلُ، والمصيبةُ العُظمىٰ، التي ما حلَّت بأمَّة الإسلام قبلَها ولا بعدَها مصيبةٌ أعظمُ منها، وفي الأحاديث الواردة في هذا الباب شيءٌ من وصفِ هذا الحدث العظيم، وطرفٌ من المشاعرِ التي عاشها جيلُ الصحابة الكرامِ رضي الله عنهم ذلك اليوم.

***

(صحيح) ٣٢٢ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «آخِرُ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَشَفَ السِّتَارَةَ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ، فَنَظَرْتُ إِلَىٰ وَجْهِهِ كَأَنَّهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ، وَالنَّاسُ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ، فَكَادَ النَّاسُ أَن يَضْطَرِبُوا، فَأَشَارَ إِلَىٰ النَّاسِ: أَنِ اثْبُتُوا، وَأَبُو بَكْرٍ يَؤُمُّهُمْ، وَأَلْقَىٰ السِّجْفَ، وَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ آخِرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ»(١).

شرح الحديث

(أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ) هو الغلامُ الخادمُ الـمُحِبُّ لرسول الله ﷺ، والذي يعرف كثيرًا من شؤونه الخاصة ﷺ، سيكون له ولأمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها نصيبٌ كبيرٌ من روايات هذا الباب؛ لأنهما من أقرب الناس إليه.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٠٧٢)، والنسائي (١٨٣١)، وابن ماجه (١٦٢٤).

قول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**آخِرُ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَشَفَ السِّتَارَةَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ**»، وكان هذا في أيّام موته ﷺ، وذلك أنه ﷺ وَجِعَ يومَ الخميس، واشتدَّ به الوجعُ فأقعده المرضُ عن الخروج من البيت، وثَقُلَ عن الصلاة فلم يخرج إلىٰ المسجد هذه الأيام، ولم يزل كذلك إلىٰ أن توفَّاه الله يوم الاثنين.

وكانت هذه الرؤيةُ التي يحكيها أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم الاثنين وهو يومُ الوفاة، عند صلاةِ الفجر، وتُوفِّي النبي ﷺ عندما اشتدَّ الضُّحىٰ من ذلك اليوم، وهي آخرُ نظرةٍ ينظرها أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي ﷺ.

والمقصود بالسِّتارة: سِتارةُ باب الحُجرة التي تفصل بين بيته ﷺ والمسجد، كَشفَها ﷺ ونظرَ إلىٰ أصحابه وهم يُصلُّون صلاةَ الفجر.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَنَظَرْتُ إِلَىٰ وَجْهِهِ كَأَنَّهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ**»، هذا تشبيهٌ عجيبٌ، يُشبِّهُ فيه أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجهَ رسول الله ﷺ بورقة المصحف، والمقصودُ: وصفُ وجهه بالنور والإشراق.

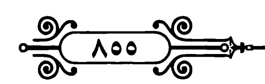
وذلك أنه ﷺ فرِحَ واستبشَرَ باجتماع أُمَّته في الصلاة خلف إمامٍ واحدٍ، فهذا نَتاجُ دعوته، وسنواتِ جهادِه، خرج ليودِّعَهم ويُلقيَ عليهم نظرةَ الوداع.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَالنَّاسُ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ**»، يُصلُّون وإمامُهم أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان هذا آخرُ فرضٍ أدركه فيهم وهو حيٌّ بين أظهُرهم ﷺ.

وفي روايةٍ: «**ثُمَّ تَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ضَاحِكًا**»(١)، يُثبِتُ استبشارَه بالمنظر الذي رآه.

---

(١) أخرجه مسلم (٤١٩).



قوله رضي الله عنه: «**فَكَادَ النَّاسُ أَن يَضْطَرِبُوا**»؛ أي: من شِدَّة فرحِهم برؤيتهم إمامَهم ونبيَّهم ﷺ، وظنُّوا أنه خارجٌ لإمامتهم كما كان يفعل ﷺ طيلة سنوات دعوته بالمدينة.

قوله رضي الله عنه: «**فَأَشَارَ إِلَىٰ النَّاسِ: أَنِ اثْبُتُوا**»؛ يعني: أتِمُّوا صلاتكُم.

قوله رضي الله عنه: «**وَأَلْقَىٰ السِّجْفَ**»؛ والسِّجْفُ: السِّتارةُ، ولا تُسمَّىٰ كذلك إلا إذا كانت السِّتارةُ مشقوقةَ الوسَطِ كالمِصراعَين، أو إذا أُرخِيَ طرفُ الستارة ورُفِع.

قوله رضي الله عنه: «**وَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ آخِرِ ذَلِكَ اليَوْمِ**»؛ أي: يوم الاثنين.

والثابتُ أنَّه ﷺ تُوفِّي لما اشتدَّ الضُّحىٰ من ذلك اليوم، فلعَّل مقصودَه بآخر اليوم: أنَّ تأكُّدَ الخبر وانتشارَ أمرِ وفاته ﷺ بين أصحابه إنما كان آخر ذلك اليوم.

*** لفتة إيمانية:**

لقد كان سببُ فرَحِ النبي ﷺ واستبشارِه هو ما رآه في ذلك الموقف؛ من إتيان الصحابة للصلاة في المسجد، واجتماعِهم عليها صفوفًا، واهتمامِهم بهذه الفريضة التي هي عِمادُ الدِّين.

فلم يكن فرحُ النبي ﷺ أنه رأىٰ أصحابَه وقد ذهبَ عنهم الفَقرُ، أو فُتحت عليهم الدنيا فأصبحوا يتنافسون ما فيها من مالها وزهرتها! بل والله إنه ما تركهم إلا وهم أشدُّ ما يكونون فقرًا وتقلُّلًا من هذه الدنيا، وما كان يهتمُّ له في آخر سُوَيْعاتِ حياته إلا صلاةُ أصحابه.

فمَن أراد أن يفعل ما يُفْرِح النبيَّ ﷺ، فليحرص علىٰ إحياءِ الصلوات المفروضة في المسجد، والاجتماعِ فيها مع الناس؛ فإنَّ هذا الصلواتِ هي شِعارُ الدين وعِمادُه، وهي التي تتباهَىٰ بها الأمّةُ علىٰ سائر الأُمم.

***

(صحيح) **٣٢٣ـ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كُنتُ مُسْنِدَةً النَّبِيَّ ﷺ إِلَىٰ صَدْرِي، أَوْ قَالَتْ: إِلَىٰ حِجْرِي، فَدَعَا بِطَسْتٍ لِيَبُولَ فِيهِ، ثُمَّ بَالَ فَمَاتَ»**(١).

شرح الحديث

في هذا الحديث ذِكرٌ للصفة والهيئة التي كان عليها النبيُّ ﷺ عندما قُبِض.

قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**كُنتُ مُسْنِدَةً النَّبِيَّ ﷺ إِلَىٰ صَدْرِي**»؛ أي: كان كالجالس المتّكئ بظَهره علىٰ صدر أمّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد ثبت في صحيح البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «**تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيْتِي، وَفِي نَوْبَتِي، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي**»(٢)، أي: كانت مُسنِدتَه إلىٰ صَدرها، فقُبِضَت روحُه علىٰ تلك الحال.

وفي هذا مَنقَبةٌ عظيمةٌ لأمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ حيث إنها كانت آخِرَ مَن مَسَّ جَسدَ النبي ﷺ حالَ حياته، وقُبِضَ ﷺ وهو علىٰ صدرها، وهو أقربُ ما يكون الرجُلُ من زوجته؛ فكأنه عِناقُ وَداعٍ.

---

(١) أخرجه أبو عوانة في المستخرج (٥٧٥٢)، وهو عند أحمد (٢٤٠٣٩)، بنحوه مختصرًا.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٠٠).

وكان ﷺ قد طَلَبَ في آخر أيام حيَّاته من زوجاته أن يُمَرَّض في بيت أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فنالت بذلك ما نالَته من الشرف، فلم تَزل حبيبتَه والقريبةَ من قلبه إلىٰ لحظةٍ فارقَ فيها الحياةَ، وهي الصدِّيقةُ بنتُ الصِّدِّيق، العفيفةُ، المبرَّأةُ من فوق سبعِ سماواتٍ، لا كما يزعمه الساقطون الفَجَرةُ الذين يَرمونها بالإفك والزور والبهتان، ويزعمون أنهم مسلمون!!

فنحن نُحِبُّها، ونَدِينُ الله بذلك، ونُشهِدُه علىٰ ما نَعلمُه من براءتها وعفافِها وإيمانها وصدقها، وأنها مع رفيقاتِها في الجنَّة زوجاتٍ للنبي ﷺ.

قول عائشة رضي الله عنها: «**فَدَعَا بِطَسْتٍ لِيَبُولَ فِيهِ**»؛ الطَّسْتُ: إناءٌ مستديرٌ واسعٌ من نُحاسٍ، يستعمله أهلُ البيوتِ عادةً لغَسيل الأواني والملابس، أو الاغتسال فيه إن كان كبيرًا، فيَجتمعُ فيه الماءُ تحت المُغتسِل.

***

(ضعيف) **٣٢٤ـ وَعَنْهَا** رضي الله عنها **أَيْضًا أَنَّهَا قَالَتْ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِالمَوْتِ، وَعِنْدَهُ قَدَحٌ فِيهِ مَاءٌ، وَهُوَ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي القَدَحِ، ثُمَّ يَمْسَحُ وَجْهَهُ بِالمَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ، أَعِنِّي عَلَىٰ مُنكَرَاتِ المَوْتِ، أَوْ قَالَ: سَكَرَاتِ المَوْتِ»**[١].

شرح الحديث

(**وَعَنْهَا أَيْضًا**) أي: عن عائشة رضي الله عنها، فما زالت تحكي لنا اللَّحظَات

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣٥٦)، والترمذي (٩٧٨)، وابن ماجه (١٦٢٣) وقال الترمذي: «غريب»، وبيَّن الألباني أنَّ في إسناده جهالة ونكارة.

الأخيرةَ قبل فِراق النبي ﷺ هذه الحياة.

قول عائشة رضي الله عنها: «**رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِالمَوْتِ، وَعِنْدَهُ قَدَحٌ فِيهِ مَاءٌ، وَهُوَ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي القَدَحِ، ثُمَّ يَمْسَحُ وَجْهَهُ بِالمَاءِ**»، يفعل ذلك تخفيفًا لشيءٍ من ألمه وشِدَّة مُعاناتِه خروجَ الرُّوح وسَكَراتِ الموت.

قوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ، أَعِنِّي عَلَىٰ مُنكَرَاتِ المَوْتِ، أَوْ قَالَ: سَكَرَاتِ المَوْتِ**»، وفي لفظٍ: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ غَمَرَاتِ المَوْتِ**»(١)، والمراد بمنكرات الموت وسَكَراته وغَمَراته: شِدَّتُه، وهي ساعاتُ الكَرْب والألَم العظيم والمُصاب الكبير الذي يصيبُ الإنسانَ عندما يفارقُ الحياة، وعندما تُنزَعُ روحُه من جسده، تلك الروحُ التي أمر الله بنَفخها في جوفِ ابنِ آدم عندما كان جنينًا في بطن أُمِّه، والتي هي مادَّةُ الحياةِ التي تجعلُه ينامُ ويستيقظُ، ويأكلُ ويشربُ، ويدخلُ ويخرجُ، فإذا ما حان الوقتُ، وطُويت صحيفتُه؛ نُزِعت روحُه، وغادرَت سِجِلَّاتُه من الحياة الدنيا إلىٰ حياةٍ أخرىٰ؛ حياةِ البرزخ، ثم الآخرة.

والحديثُ وإن كان ضعيفًا لجَهالةٍ ونكارةٍ في السند، إلا أنَّ في صحيح البخاريِّ ما يؤيِّده؛ فعن عَائِشَةَ رضي الله عنها أنها كَانَت تَقُولُ: «إِنَّ مِن نِعَمِ اللهِ عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي وَفِي يَوْمِي، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، وَأَنَّ اللهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِندَ مَوْتِهِ: دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ، وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَرَأَيْتُهُ يَنظُرُ إِلَيْهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ، فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ؟ **فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ**: «**أَن نَعَمْ**»، فَتَنَاوَلْتُهُ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ لَكَ؟ **فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ**:

---

(١) أخرجه الترمذي (٩٧٨)، وقال: «غريب».

«**أَن نَعَمْ**»، فَلَيَّنْتُهُ، فَأَمَرَّهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ ـ يَشُكُّ عُمَرُ[(١)] ـ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي المَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، يَقُولُ: «**لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ**»، ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «**فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَىٰ**»، حَتَّىٰ قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُه»[(٢)].

وتلك السَّكَراتُ لا يَقْوَىٰ الميِّتُ حال احتضارِه علىٰ وَصفِها لك، ولكن لو قُدِّر لك أن تكون بحَضرةِ مَيِّتٍ تُنزَعُ روحُه فسترَىٰ اضطرابَ جسدِه، واهتزازَ بدنِه، وإغفاءةً تِلْوَ إغفاءةٍ حتىٰ تُقبض الرُّوحُ.. ويَتْبَعُها البَصَرُ!!

***

(صحيح) **٣٢٥ـ وَعَنْهَا** رَضِيَ اللهُ عَنْهَا **قَالَتْ: «لا أَغْبِطُ أَحَدًا بِهَوْنِ مَوْتٍ بَعْدَ الَّذِي رَأَيْتُ مِن شِدَّةِ مَوْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ»**[(٣)].

(وَعَنْهَا) أي: عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

قولها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**لا أَغْبِطُ أَحَدًا بِهَوْنِ مَوْتٍ بَعْدَ الَّذِي رَأَيْتُ مِن شِدَّةِ مَوْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»، تريد أنَّ الموتَ لو كان يسيرًا هيِّنًا علىٰ أحدٍ لكان أولىٰ الناس بذلك النبيُّ ﷺ، وقد رأَتْ به ما مرَّ من شِدَّة سَكَرات الموت.

---

(١) هو عمر بن سعيد بن أبي حسين المكي، راوي الحديث عن ابن أبي مُليكة، قال الإمام البخاري عقب الحديث (٦٥١٠): «العُلبةُ من الخشب، والرَّكْوةُ من الأدم»، انظر: فتح الباري (١١/ ٣٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٤٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٩٧٩).

وفي روايةٍ: «فَلا أَكْرَهُ شِدَّةَ المَوْتِ لِأَحَدٍ أَبَدًا بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ»(١).

* لفتة إيمانية:

إنَّ في سَكَرات الموتِ لَعِظَةً وعبرةً لكلِّ من شَهِد إنسانًا يَحتضِر، تُؤْذِنُه بأنّ الحياةَ قصيرةٌ، وأنَّ الأجلَ قريبٌ، حتىٰ إنه لأدنىٰ إلىٰ أحدنا من شِراكِ نَعله، وأنَّ الحياةَ الباقيةَ هي الآخرةُ، وهذا يُزَهِّدُه في كلِّ شيءٍ في الدنيا، ويجعلُه يَحُثُّ الخُطا نحو ربِّه، ويُقبِلُ علىٰ مواطن رضاه، ويَنْأىٰ عن مواضع الحُرمة والسَّخَط.

ولقد عانىٰ النبيُّ ﷺ من هذه السَّكَرات، وسيُعاني منها كلُّ أحدٍ، وإذا لم يَنجُ منها الأنبياءُ فلن يَنجُوَ منها أحدٌ، وهو أمرٌ آتٍ ولا ريبَ، فالحصافةُ والعقلُ يقتضيان أن يُعِدَّ المرءُ عُدَّتَه لذلك اليوم.

وقد تكون كُربةُ الأنبياء وبلاؤهم له شِدَّةٌ مضاعَفةٌ ليست لغيرهم، وذلك ليُضاعَف لهم الأجرُ والثوابُ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَرَضِهِ وَهُوَ يُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قُلْتُ: إِنَّ ذَاكَ بِأَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «أَجَلْ»(٢).

***

(صحيح) ٣٢٦ـ **وَعَنْهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اخْتَلَفُوا فِي دَفْنِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: سَمِعْتُ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئًا مَا نَسِيتُهُ، قَالَ: «مَا قَبَضَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي**

(١) أخرجه البخاري (٤٤٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٧)، ومسلم (٢٥٧١).

المَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَن يُدْفَنَ فِيهِ»، ادْفِنُوهُ فِي مَوْضِعِ فِرَاشِهِ[(١)].



شرح الحديث

(وَعَنْهَا) أي: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **«لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اخْتَلَفُوا فِي دَفْنِهِ»**؛ أي: اختلف الصحابة في دَفْن الرسول ﷺ، وكان الخلافُ في أمرين: هل يُدفَن رسولُ الله ﷺ أو لا يُدْفَن؟ وإن كان يُدْفَن فأين يُدْفَن؟

ثم اتفقوا علىٰ دَفنه ﷺ، وبَقوا مختلِفين في مكان دَفنه ﷺ، حتىٰ ذكر لهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما ذكر.

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **«فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: سَمِعْتُ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئًا مَا نَسِيتُهُ، قَالَ: «مَا قَبَضَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي المَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَن يُدْفَنَ فِيهِ»**، فذَكر لهم الدَّليلَ الذي يدُلُّ علىٰ المكان الذي يَجبُ أن يَدفنوا فيه النبيَّ ﷺ، وقد قَبِل منه الصحابة هذه الرواية وصدَّقوه.

وقد قُبِضَ ﷺ في حُجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فهو المكان الذي أحبَّ الله لنبيِّه أن يُدفَن فيه.

قول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«ادْفِنُوهُ فِي مَوْضِعِ فِرَاشِهِ»**، وقد تولَّىٰ أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَفْر القبرِ تحت الفِراش الذي مات عليه ﷺ، ثم صلَّوا عليه ودَفَنوه.

***

(١) أخرجه الترمذي (١٠١٨)، وقال: «غريب».

(صحيح) ٣٢٧ـ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَبَّلَ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَمَا مَاتَ»**(١).

شرح الحديث

أي: أنَّ أبا بكر رضي الله عنه قبَّل النبيَّ ﷺ بعدما مات النبيُّ ﷺ قُبلةَ الوَداع؛ قبَّل حبيبَه وخليلَه ورفيقَه في الهجرة، ومَن عاش معه أشرفَ سنواتِ عُمره صاحبًا ومناصرًا وخليلًا ومعاضدًا ووزيرًا.

وفي هذا جوازُ تقبيلِ الميِّتِ بعد موته، سواءٌ قبل غَسله أو بعده، وسواءٌ من كان حاضرًا عند الموت أو مَن قدم عليه بعد ذلك، فلا بأس أن يُقبِّل الأبناءُ آباءَهم أو أمَّهاتهم، أو أن يُقبِّل الرجلُ قريبَه أو أستاذَه أو صديقَه ونحو ذلك.

***

(حسن) ٣٢٨ـ **وَعَنْهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ دَخَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَوَضَعَ فَمَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَىٰ سَاعِدَيْهِ، وَقَالَ: وَانَبِيَّاهُ، وَاصَفِيَّاهُ، وَاخَلِيلَاهُ»**(٢).

شرح الحديث

قول عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ دَخَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَفَاتِهِ»، وذلك أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه كان في عوالي المدينة، ولم يكن قريبًا من النبيِّ ﷺ عندما قُبِضَ، فجاء ودخل علىٰ النبي ﷺ والصحابةُ مجتمعون عند الحُجرة ما بين مُصدِّقٍ ومكذِّبٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٥٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٠٢٩).

قولها رضي الله عنها: «**فَوَضَعَ فَمَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ**»؛ أي: وقبَّله، كما جاء في الرواية السابقة.

قولها رضي الله عنها: «**وَقَالَ: وَانَبِيَّاهُ، وَاصَفِيَّاهُ، وَاخَلِيلَاهُ**»، يقول ذلك تألُّمًا وتوجُّعًا؛ وحُقَّ له أن يَتوجَّع ويُفجَع؛ فهو صاحبُه في الهجرة، وخليفتُه، ووزيرُه، ومَن بَذَلَ وضَحَّىٰ لأجله، وقد أثبت له ﷺ من الصُّحبة ما ليس لغيره، فقال ﷺ: «**وَلَوْ كُنتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ**»[(١)]، وقال ﷺ: «**مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ**»[(٢)]؛ فقد بذل مالَه وحياتَه كلَّها لأجل رسول الله ﷺ؛ فلا تستكثِرنَّ عليه شُعورَ الوَداع!!

وما كانت هذه الألفاظُ والعباراتُ من أبي بكر رضي الله عنه تسخُّطًا ولا جَزعًا ولا نُدبةً ولا اعتراضًا؛ فإنه ما رفع بها صوتَه، ولا شقَّ لها ثوبًا أو لَطمَ خَدًّا، ولا شَدَّ شَعرًا، وإنما هي حُرْقَةٌ حَرقَت قلبَه، وما مَلكَ أن يَرُدَّها فأخرجها بهذه العبارات، وما زاد عليها.

***

(صحيح) ٣٢٩ـ **عَنْ أَنَسٍ** رضي الله عنه **قَالَ: «لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَمَا نَفَضْنَا أَيْدِيَنَا مِنَ التُّرَابِ وَإِنَّا لَفِي دَفْنِهِ حَتَّىٰ أَنكَرْنَا قُلُوبَنَا»**[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٧٤٤٦) وهو صحيح.

(٣) أخرجه أحمد (١٣٣١٢)، والترمذي (٣٦١٨)، وابن ماجه (١٦٣١) وقال: «غريب صحيح».

شرح الحديث

واللهِ لو رأيت رسولَ الله ﷺ لأحببتَه، ولو صَحِبتَه لأسرَ قلبَك وسمعَك وبصرَك، ولو طالت بك صُحبتُه وسماعُه ورؤيتُه لتعلَّق قلبُك به وشقَّ عليك فِراقُه، ولو تعلَّق به قلبُك ثم فقدتَّه لأظلَمَت الدنيا في وجهك ولأنكرتَ قلبَك.. ﷺ.

هذه صفحةٌ مِن المشاعِر يحكيها أنسٌ رضي الله عنه، يحكي فيها عواطِفَ قلبه، ومشاعِرَ فؤادِه، ويَروي فيها ما عاشه، بل ما عاشه أهلُ المدينة أجمعون من الصحب الكرام رضي الله عنهم.

قول أنس رضي الله عنه: «**لَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ**»، أضاءَ الشَجَرُ، وأضاءَ الحَجَرُ، وأضاءُ الجَبلُ، وأضاءَ منها ما بين السماءِ والأرضِ.

ولِمَ لا تُضِيءُ؟ وقد دخلها رسولُ الله ﷺ وأصبح بين ظهرانيها! وأصبح الوحيُ يَغشاها، وحبلُه ممدودٌ بين السماء والأرض! واجتمعَ فيها الدِّينُ والهِجرةُ والنُّصرةُ! لِمَ لا تُضِيءُ وقد آنَ أوانُ عِزّةِ الإسلام ورِفعتِه في المدينة!

قوله رضي الله عنه: «**فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ**»، أظلَمَتْ حِسًّا ومعنًىٰ؛ بعدما فَقَدَت سِراجَها، وانقطعَ حبلُ الوحي الممتدُّ بين السماء والأرض، وفَقَدتْ أشرفَ الخلق وأحبَّهم إلىٰ الله.

قوله رضي الله عنه: «**وَمَا نَفَضْنَا أَيْدِيَنَا مِنَ التُّرَابِ وَإِنَّا لَفِي دَفْنِهِ حَتَّىٰ أَنكَرْنَا قُلُوبَنَا**»، كيف لا يُنكِرون قلوبَهم وهم يُودِعون حبيبَ قلوبهم ﷺ جوفَ الأرض! لم لا

يُنكِرون قلوبَهم وقد انقطعَ عهدُهم بالوحي الذي تردَّدتْ أصداؤُه بين جبالِ المدينة وطُرُقاتها؟ لم لا يُنكِرون قلوبَهم وقد زال عنها أعظمُ مَن وَقَعتْ عليه العينُ وتشنَّفَت بسماعه الأُذنُ؟ لم لا يُنكِرون قلوبَهم وقد كان أحدُهم يطولُ به الوقتُ إن طالَ فراقُه عن النبيِّ ﷺ؛ فكيف يكون شعورُه اليومَ وهو موقنٌ بعدم رؤيته حتىٰ حتىٰ يلقىٰ الله ﷻ؟

ونحن هنا لا نتحدَّثُ عن مشاعر الصحابة؛ فإنَّ مشاعر القلب لا يُحسِنُ التعبيرَ عنها إلا مَن أحسَّ بها، ولكننا نَقيسُ ذلك علىٰ ما نعرفُه؛ فكيف تكون فرحتُنا بحضور من يمتلئ قلبُنا حبًّا له، من والدٍ أو والدةٍ أو زوجةٍ أو ولدٍ أو صديقٍ أو حبيبٍ؟ وكيف تكون فرحتُنا عند لُقياه بعدما يطول عنه الفِراقُ؟

وفي المقابل.. كم يَشُقُّ علىٰ نفوسنا فِراقُ الأَحِبَّة؟ وتَعِزُّ علينا أوقاتُ الوداعِ والافتراقِ ولو إلىٰ أمدٍ؟ فما عساكَ أن تقول عندما تَفقِدُ حبيبًا أو قريبًا أو عزيزًا فِراقًا أبديًّا، وتنظُرُ إليه النظرةَ الأخيرةَ التي لا نَظرةَ بعدها إلىٰ يوم القيامة؟

فلأجلِ ذلك عبَّر أنسٌ رضي الله عنه بهذا التعبيرِ العجيبِ اللطيفِ، الذي وصف الصحابةَ فيه بأنَّهم (أنكروا قلوبَهم)؛ مع أنَّ الإنسانَ لا يسَعُه أن يُنكِرَ نفسَه، ولكن كان ذلك من هَولِ الـمَوقِف، وفَظَاعة الـمُصيبة التي غَشِيَت الصحابةَ رضي الله عنهم، حتىٰ كادَ الإنسانُ لا يعرفُ نفسَه التي بين جنبيه.

فهذا الوصفُ يُنْبِيك عن شِدَّة الـمُصاب الذي أصابهم، وإلىٰ أيِّ حدٍّ بلغت بهم الدَّهشةُ والحَيرةُ.

***

(صحيح) ٣٣٠ـ **عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ»**(١).

شرح الحديث

هذا الحديثُ محلُّ اتفاقٍ بين المسلمين، وهو أنَّ النبي ﷺ تُوفّي يوم الاثنين، كما أنَّ الأُمَّةَ اتَّفقت علىٰ أنَّ ذلك كان في السَّنة الحاديةَ عشرةَ من الهجرة، واتفقوا أيضًا اتفاقًا لا يكاد يُحكىٰ فيه خلافٌ أنَّه كان في الثاني عشرَ من ربيعٍ الأوّل.

***

(صحيح) ٣٣١ـ **عَن جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، فَمَكَثَ ذَلِكَ اليَوْمَ وَلَيْلَةَ الثُّلَاثَاءِ، وَدُفِنَ مِنَ اللَّيْلِ»، قَالَ سُفْيَانُ: وَقَالَ غَيْرُهُ: «يُسْمَعُ صَوْتُ المَسَاحِي مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ»**.

شرح الحديث

(عَن جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ) هو جعفرُ الصادق.

(عَنْ أَبِيهِ) هو محمدٌ الباقِرُ بنُ عليّ بن زين العابدين.

وهذه الروايةُ صحيحةُ المعنىٰ ضعيفةٌ سندًا لإرسالها؛ فإنَّ محمدًا الباقرَ ليس بصحابيٍ، ولا أبوه ولا جدُّه زينُ العابدين، ولكنهم يَحكُون عن آبائهم وأجدادِهم من آل البيت، وما في الرواية موافقٌ لما في غيرها.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٧).

قول محمد بن علي: «**قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، فَمَكَثَ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلَيْلَةَ الثُّلَاثَاءِ، وَدُفِنَ مِنَ اللَّيْلِ**»؛ أي: كانت الوفاةُ يوم الاثنين كما دلَّت عليه الرواية السابقة، وكان الدفنُ يومَ الثلاثاء ليلة الأربعاء.

قول سفيان: «**وَقَالَ غَيْرُهُ: «يُسْمَعُ صَوْتُ الْمَسَاحِي مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ**»؛ والـمَسَاحِي: جمعُ مِسحَاةٍ، وهي آلةٌ يُجرَفُ بها التراب، يَستعمِلها حفَّارُ القبر بعد الفراغ من الدَّفن لتسوية التُّراب علىٰ سطح القبر.

وقد دلَّ هذا علىٰ أنَّه دُفِنَ في آخر الليل.

ويُقَوَّىٰ هذا الحديث برواية عائشة رضي الله عنها: «**مَا عَلِمْنَا بِدَفْنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ سَمِعْنَا صَوْتَ الْمَسَاحِي مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، لَيْلَةَ الْأَرْبِعَاءِ**»[(١)].

***

(ضعيف) **٣٣٢ـ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَدُفِنَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ».**

قَالَ أَبُو عِيسَىٰ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ.



«**عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ**»، وهو من سادات التابعين.

وهذه الرواية ضعيفةٌ سندًا لإرسالها، ولكن مضمونها صحيحٌ؛ لموافقته ما ثبت في الروايات الصحيحة.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣٣٣).

قول أبي سلمة: «وَدُفِنَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ»؛ أي: آخِرَ يوم الثلاثاء؛ من ليلة الأربعاء.

وقد دلَّ الحديثان الأخيران علىٰ تأخُّرِ دفنِ النبي ﷺ عن يوم موته، وقد كان ذلك لأسبابٍ:

السببُ الأوّل: اشتغالُ الصحابة بشؤون تجهيزه؛ من غَسله، وحَفرِ قَبره، ونحو ذلك.

السببُ الثاني ـ وهو الذي بدأوا به ـ: أمرُ الخلافة بعد رسول الله ﷺ؛ فإنهم ما أردوا أن تَبقَىٰ الأمَّةُ دون أميرٍ أو إمامٍ يَقتدُون به، أو حاكمٍ يرجعون إليه.

وهذا أصلٌ عظيم من أصول الإسلام والسُّنَّة، وهو ضرورةُ الاجتماعِ علىٰ إمامٍ وحاكمٍ، تلتفُّ الأمَّةُ حولَه.

السببُ الثالثُ: ما حصل من الصحابة بادئَ الأمر من هولِ الموقف وعدم تصديقِ بعضِهم وتكذيبِهم لوفاة النبي ﷺ.

فما حصلَ إذن هو أنَّه لم يُصدِّق بعضُهم في البداية ما قيل من وفاته ﷺ، واشتغلوا بهذا الأمرِ ما بين مُصدِّقٍ ومُكَذِّبٍ حتىٰ ارتفع النهارُ، فلمَّا تأكَّدوا من وفاته ﷺ اشتغلوا بأمر الخلافة، وحَسَموا الخلافَ فيها، وذلك كان يومَ الاثنين، فلما جاء يومُ الثلاثاء اختلفوا في قَبره وموضع دفنه، وكان ذلك نهارَ الثلاثاء، ثم بعد الاتِّفاق حَفَرَ القبرَ أبو طلحة ﷺ، وغَسَّلوه ﷺ وجَهَّزوه للدَّفن، وصلَّوا عليه، واجتمعُوا عليه جماعاتٍ جماعاتٍ، يدخلون الحُجرةَ ويُصلُّون عليه، ثم إذا فرغت هذه الجماعةُ دخلت الجماعةُ الأخرىٰ، وهكذا إلىٰ أن انقضَىٰ يومُ الثلاثاء وجزءٌ كبيرٌ من ليلة الأربعاء، ثم دَفنُوه ليلةَ الأربعاء في حُجرة عائشةَ ﷺ.

وهذه الحُجرةُ هي التي يقف أمامها الناسُ اليوم للسلام علىٰ النبي ﷺ وصاحبيه أبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما.

***

(صحيح) ٣٣٣ـ عَن سَالِمِ بْنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه ـ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ ـ قَالَ: أُغْمِيَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ، فَأَفَاقَ، فَقَالَ: «حَضَرَتِ الصَّلَاةُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: «مُرُوا بِلَالًا فَلْيُؤَذِّن، وَمُرُوا أَبَا بَكْرٍ أَن يُصَلِّيَ للنَّاسِ»، أَوْ قَالَ: «بِالنَّاسِ»، قَالَ: ثُمَّ أُغْمِيَ عَلَيْهِ، فَأَفَاقَ، فَقَالَ: «حَضَرَتِ الصَّلَاةُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: «مُرُوا بِلَالًا فَلْيُؤَذِّن، وَمُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّ أَبِي رَجُلٌ أَسِيفٌ، إِذَا قَامَ ذَلِكَ المَقَامَ بَكَىٰ، فَلَا يَسْتَطِيعُ، فَلَوْ أَمَرْتَ غَيْرَهُ، قَالَ: ثُمَّ أُغْمِيَ عَلَيْهِ، فَأَفَاقَ، فَقَالَ: «مُرُوا بِلَالًا فَلْيُؤَذِّن، وَمُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ؛ فَإِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ أَوْ صَوَاحِبَاتُ يُوسُفَ»، قَالَ: فَأُمِرَ بِلَالٌ فَأَذَّنَ، وَأُمِرَ أَبُو بَكْرٍ فَصَلَّىٰ بِالنَّاسِ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَجَدَ خِفَّةً، فَقَالَ: «انْظُرُوا لِي مَنْ أَتَّكِئُ عَلَيْهِ»، فَجَاءَتْ بَرِيرَةُ وَرَجُلٌ آخَرُ، فَاتَّكَأَ عَلَيْهِمَا، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ ذَهَبَ لِينكُصَ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ أَن يَثْبُتَ مَكَانَهُ، حَتَّىٰ قَضَىٰ أَبُو بَكْرٍ صَلَاتَهُ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قُبِضَ، فَقَالَ عُمَرُ: وَاللهِ، لَا أَسْمَعُ أَحَدًا يَذْكُرُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قُبِضَ إِلَّا ضَرَبْتُهُ بِسَيْفِي هَذَا، قَالَ: وَكَانَ النَّاسُ أُمِّيِّينَ، لَمْ يَكُن فِيهِمْ نَبِيٌّ قَبْلَهُ، فَأَمْسَكَ النَّاسُ، فَقَالُوا: يَا سَالِمُ، انطَلِقْ إِلَىٰ صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَادْعُهُ، فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَهُوَ فِي المَسْجِدِ، فَأَتَيْتُهُ أَبْكِي دَهِشًا، فَلَمَّا رَآنِي قَالَ لِي: أَقُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قُلْتُ: إِنَّ عُمَرَ يَقُولُ: لَا أَسْمَعُ أَحَدًا يَذْكُرُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قُبِضَ إِلَّا ضَرَبْتُهُ بِسَيْفِي هَذَا، فَقَالَ لِي: انطَلِقْ،

فَانطَلَقْتُ مَعَهُ، فَجَاءَ وَالنَّاسُ قَد دَخَلُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْرِجُوا لِي، فَأَفْرَجُوا لَهُ، فَجَاءَ حَتَّىٰ أَكَبَّ عَلَيْهِ وَمَسَّهُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ثُمَّ قَالُوا: يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ، أَقُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَعَلِمُوا أَن قَدْ صَدَقَ، قَالُوا: يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ، أَيُصَلَّىٰ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: وَكَيْفَ؟ قَالَ: يَدْخُلُ قَوْمٌ فَيُكَبِّرُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَدْعُونَ ثُمَّ يَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَدْخُلُ قَوْمٌ فَيُكَبِّرُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَدْعُونَ ثُمَّ يَخْرُجُونَ، حَتَّىٰ يَدْخُلَ النَّاسُ، قَالُوا: يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ، أَيُدْفَنُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: أَيْنَ؟ قَالَ: فِي الْمَكَانِ الَّذِي قَبَضَ اللهُ فِيهِ رُوحَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَقْبِضْ رُوحَهُ إِلَّا فِي مَكَانٍ طَيِّبٍ، فَعَلِمُوا أَن قَدْ صَدَقَ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَن يَغْسِلَهُ بَنُو أَبِيهِ، وَاجْتَمَعَ الْمُهَاجِرُونَ يَتَشَاوَرُونَ، فَقَالُوا: انطَلِقْ بِنَا إِلَىٰ إِخْوانِنَا مِنَ الأَنْصَارِ نُدْخِلُهُمْ مَعَنَا فِي هَذَا الأَمْرِ، فَقَالَتِ الأَنْصَارُ: مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنكُمْ أَمِيرٌ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: مَن لَهُ مِثْلُ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] مَنْ هُمَا؟ قَالَ: ثُمَّ بَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعَهُ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ بَيْعَةً حَسَنَةً جَمِيلَةً(١).

شرح الحديث

(عَن سَالِمِ بْنِ عُبَيْدٍ ـ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ ـ) وقيل: كان من أهل الصُّفَّة.

وفي هذه الروايةِ شيءٌ من التفصيل لم يَرِد في الروايات السابقة، والروايةُ

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٢٩٩).

صحيحةٌ، أخرج بعضَها النَّسائيُّ(١)، وبعضُها في الصحيح من رواية عائشةَ(٢) وسهلِ بن سعدٍ الساعديِّ(٣) رضي الله عنهم.

قول سالم بن عبيد رضي الله عنه: «**أُغْمِيَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ، فَأَفَاقَ**»؛ يعني: مرضَه الذي أقعده، وقد سبق أنَّ هذا المرضَ ابتدأ به يوم الخميس، واستمرَّ إلىٰ يوم الاثنين.

أي: حصلت له إغماءةٌ وإفاقةٌ في يومٍ من أيّام مرضه الأخير.

قوله رضي الله عنه: «**فَقَالَ: «حَضَرَتِ الصَّلَاةُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ**»، هذا الحديثُ أحدُ الأدلَّة العظيمة والشواهدِ الكثيرةِ المتتابعةِ علىٰ عِظَمِ فريضة الصلاة، فعاشَ ﷺ إمامًا للأُمَّة في الصلاة، وعُرِجَ به إلىٰ السماء حين فُرِضَت، وهي الفريضةُ الوحيدةُ التي ما أُذِنَ لجبريل عليه السلام أن ينزل بها، بل رُفِعَ ﷺ إلىٰ ما فوق سبعِ سماواتٍ ليؤمَر بها، ثم عندما مَرِضَ مَرَضَ الموتِ وأُغمِي عليه من شِدَّة الألم والتعب؛ كان أوّلُ شيءٍ ينطقُ به لسانُه بعدما أفاق هو: السؤالَ عن الصلاة وحضورِ وقتها! وما ذلك إلا لشدَّة تعلُّقِ قلبِه بالصلاة، وإدمانِه عليها، بل إنَّ قلبَه لا يجد أُنسَه وراحتَه إلا في الصلاة، كيف لا وهو القائل: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(٤).

---

(١) سنن النسائي (٨٣٣- ٨٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٤، ٦٧٩، ٧٣٠٣)، ومسلم (٤١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٦٨٤، ١٢١٨)، ومسلم (٤٢١)، في قصة صلاة أبي بكر رضي الله عنه بالناس، دون ذكر قصة مرض النبي ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد (١٤٠٣٧)، والنسائي (٣٩٤٠).

وفي هذا إيذانٌ بأهميَّة هذه الصلاة، وتعجُّبٌ مِمَّن يُفرِّطُ في شأن الصلاة من المسلمين!، مِمَّن قد رزقهم الله الحياةَ والصحةَ والقُدرةَ ثم هم يَسمعون الأذانَ ويَرَون جماعاتِ الناس مُتَّجِهةً للصلاة ثم لا يزالون متأخِّرين ومتكاسِلين ومُفرِّطين؟

ماذا عساك أن تقول لِمَن تقودُهم أقدامُهم لكلِّ موضعٍ من مواضع الحياة؛ للسياحة، والعلاج، والدراسة، والتسوُّق، ثم تُبْطِئُ بهم أقدامُهم عن الخُطا إلىٰ المساجد وحضور الجماعات؟

لقد باتت المساجدُ تشتكي إلىٰ الله من قِلَّة أهلها! ومن هُجران جيرانها لها! في الوقت الذي تَجتمعُ فيه المئاتُ والألوفُ في الولائم والأفراح والحفلات، فيجتمعُ لها الجمعُ الغَفيرُ، بينما يَزهدُ هؤلاء في حضور الصَّلَوات وخاصَّةً صلاةَ الفجر!

فالأُمَّة اليوم بحاجةٍ إلىٰ مَن يُنبِّهُها إلىٰ الموضع اللائق الذي ينبغي أن تكون فيه الصلاة من أولىٰ اهتماماتها.

قوله ﷺ: «مُرُوا بِلَالًا فَلْيُؤَذِّن، وَمُرُوا أَبَا بَكْرٍ أَن يُصَلِّيَ للنَّاسِ ـ أَوْ قَالَ ـ بِالنَّاسِ»، كان ﷺ هو المسؤول عن إمامة المسلمين طيلةَ السنوات الماضية التي قضاها فيهم، ولكنه اليوم لا يَسعُه الخروج، ولا يُطاوِعُه المرضُ علىٰ فِعْلِ ما كان يفعله من قبل، فأوكل القيامَ بهذه المهمّة لأبي بكر رضي الله عنه.

قول عائشة رضي الله عنها: «إِنَّ أَبِي رَجُلٌ أَسِيفٌ، إِذَا قَامَ ذَلِكَ المَقَامَ بَكَىٰ، فَلَا يَسْتَطِيعُ، فَلَوْ أَمَرْتَ غَيْرَهُ»؛ الأَسِيفُ: كثيرُ الحُزن، رقيقُ الطَّبع والقلب، سريعُ

العَبرة والخشية، شديدُ التأثُّرِ عند قراءة القرآن الكريم، هكذا وصفت عائشة رضي الله عنها والدَها، أنَّه سريعُ التأثُّر بالقرآن ومواعظه، فإذا قام يُصلِّي وقرأ بَكَىٰ، وإذا بَكَىٰ لا يستطيعُ أن يُواصِل قراءتَه، ولا يَقْوَىٰ أن يُتِمَّ الصلاةَ وهو علىٰ هذه الحال، وأشارت أن يكون الإمامُ غيرَ والدِها.

وفي روايةٍ: أَنَّهَا قَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ فِي مَرَضِهِ: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ**»، قَالَتْ عَائِشَةُ: قُلْتُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ: قُولِي لَهُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ، فَفَعَلَتْ حَفْصَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَهْ إِنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ**»(١)، فاستعانت عائشةُ بحفصةَ رضي الله عنهما.

قوله ﷺ: «**مُرُوا بِلَالًا فَلْيُؤَذِّن، وَمُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**»، تأكيدٌ منه ﷺ علىٰ ما قاله سابقًا.

واستدلَّ بهذا الموقفِ بعضُ الصحابة علىٰ تقديم أبي بكرٍ رضي الله عنه للخلافة بتقديم النبيِّ ﷺ له إمامًا؛ فمَن اختاره النبي ﷺ ليكون إمامًا لهم في الصلاة فمن باب أَولىٰ أن يكون إمامًا لهم في سائر شؤون الحياة.

قوله ﷺ: «**فَإِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ أَوْ صَوَاحِبَاتُ يُوسُفَ**»، يقصد ﷺ ما حصل ليوسُفَ عليه السلام من كَيد النِّساء، فشبَّه كيدَهنَّ بذلك الكَيد، ووَجْهُ الشَّبَه: ما يَحصُل من النساء من التآمُر والترتيب، وإظهارِهنَّ خلافَ ما يُخفِين.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٩).

قول سالم بن عبيد رضي الله عنه: «**فَأُمِرَ بِلَالٌ فَأَذَّنَ، وَأُمِرَ أَبُو بَكْرٍ فَصَلَّىٰ بِالنَّاسِ**»، وكان هذا في بداية مرضه ﷺ، حيث كان لا يستطيع أن يَخرُج إلىٰ الصلاة ويُشاركَ الناسَ فيها.

قول سالم بن عبيد رضي الله عنه: «**ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَجَدَ خِفَّةً**»؛ يعني: وَجدَ نشاطًا، وخفَّ أَلَمُه.

قوله ﷺ: «**انْظُرُوا لِي مَنْ أَتَّكِئُ عَلَيْهِ**»، يريد الخروجَ إلىٰ المسجد، وحضورَ صفِّ الصلاة، وهو مريضٌ قد أقعدَه المرضُ ولا يستطيع أن يقومَ إلا بالاتِّكاء، وليس أيَّ مرضٍ؛ بل مرضُ الموت!!

وهذا من اهتمامه ﷺ بالصلاة، حتىٰ إذا وجدَ خِفَّةً من مرضه الشَّديد كان أولىٰ ما أولاه اهتمامَه أن يَمشيَ خُطواتٍ إلىٰ المسجد.

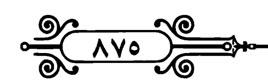
وفي هذا تنبيهٌ لأولئك الأقوام الذين تتمتَّعُ أجسادُهم بتمام الصحة والعافية، ومع ذلك ما تزال أقدامُهم تَتَباطأُ بهم عن المساجد، ولا يعرفون لها طريقًا؛ فرحِمَ الله امرءًا قادته رِجْلاه إلىٰ المسجد صحيحًا سليمًا معافًىٰ، قبل أن يُحمل لها حملًا.

قول سالم بن عبيد رضي الله عنه: «**فَجَاءَتْ بَرِيرَةُ وَرَجُلٌ آخَرُ، فَاتَّكَأَ عَلَيْهِمَا**»؛ أي: وضعَ يدَه وذِراعَه علىٰ كَتِف أحدِهما عن يمينه، وكذلك علىٰ كَتِف الآخَرِ عن شماله، يكادان أن يَحمِلاه أو يَجُرَّاه، وقَدَمُه تخُطُّ في الأرض.

وبريرةُ مولاةٌ لعائشة رضي الله عنها، والرَّجُلُ الآخرُ رجلٌ مملوكٌ، جاء في بعض الرِّوايات أنّ اسمه: نَوْبة(١).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧٢٤٤)، وابن حبان (٢١١٨).



وفي بعض الرِّوايات: أنه خرج بين رَجُلين: العباس وعلي رضي الله عنهما(١)، وقيل: عليٌّ والفضلُ بنُ العبّاس(٢) ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

والجمعُ بين هذه الرِّوايات أن يُقال: إنه اتَّكأ على بريرةَ ونَوبةَ من الفِراش إلى الحُجرة، حتى إذا أتى بابَ المسجدِ تَناوَبَ على حمَله عليٌّ والعباسُ والفضلُ رضي الله عنهم.

وقد يُقال في الجمع بين هذه الرِّوايات: إنَّ النبيَّ ﷺ قد خرجَ أكثرَ من مرّةٍ في مرضه هذا للصلاة؛ فمرّةً اتَّكأ على هذا، ومرّةً على هذا.

قوله رضي الله عنه: «**فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ ذَهَبَ لِينكُصَ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ أَن يَثْبُتَ مَكَانَهُ، حَتَّى قَضَى أَبُو بَكْرٍ صَلَاتَهُ**»، وقد اختُصِرَت الروايةُ هنا، فقد جاء في بعض الروايات: «**فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو بَكْرٍ حِسَّهُ ذَهَبَ أَبُو بَكْرٍ يَتَأَخَّرُ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى جَلَسَ عَن يَسَارِ أَبِي بَكْرٍ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي قَائِمًا، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي قَاعِدًا، يَقْتَدِي أَبُو بَكْرٍ بِصَلَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالنَّاسُ مُقْتَدُونَ بِصَلاةِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه**»(٣).

قوله رضي الله عنه: «**ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قُبِضَ، فَقَالَ عُمَرُ: وَاللهِ، لا أَسْمَعُ أَحَدًا يَذْكُرُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قُبِضَ إِلَّا ضَرَبْتُهُ بِسَيْفِي هَذَا**»، هذا موقفٌ من مواقفِ الدَّهشة التي طاشَت فيها العقولُ، ومع ما كان عليه عُمر رضي الله عنه من صلابة الإيمان

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٥، ٦٨٧)، ومسلم (٤١٨).

(٢) أخرجه الدارقطني في سننه (١٥٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٣)، ومسلم (٤١٨).

وثبات الجَنان، والتي جعلت أقوالَه أقوالًا مُسدَّدةً مُلهَمَةً يوافقُه عليها القرآنُ، والتي جَعلته فُرقانًا يُفرِّق به بين الحق والباطل، حتىٰ إنَّه لو سلك فَجًّا لسلك الشيطان فَجًّا آخر؛ مع هذا كلِّه إلا أنَّه أصابه في هذا الموقف العظيم والمصيبةِ التي طاشت منها العقول ما أصابه، وجعلته يقول هذا القولَ!

وظنَّ ﷺ أنَّه ﷺ أُغْمِي عليه، وأنه سيُفيق مرةً أخرىٰ، وأنَّه من كرامته علىٰ الله أنه لا يُميته كسائر البشر، بل ربَّما رفعه إلىٰ السماء كما رُفِع عيسىٰ عليه السلام.

قوله رضي الله عنه: «**وَكَانَ النَّاسُ أُمِّيِّينَ، لَمْ يَكُن فِيهِمْ نَبِيٌّ قَبْلَهُ، فَأَمْسَكَ النَّاسُ**»؛ أي: لم يكن لهم عهدٌ بالأنبياء؛ فما كانوا يعرفون هل يَعتري الأنبياءَ ما يعتري الناسَ من الوفاة ومُفارقة الحياة؟

قوله رضي الله عنه: «**فَقَالُوا: يَا سَالِمُ، انطَلِقْ إِلَىٰ صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَادْعُهُ**»؛ المقصود بسالمٍ: سالم بن عُبَيد رضي الله عنه راوي هذا الحديث، والمقصود بصاحبِ رسول الله ﷺ: أبو بكرٍ رضي الله عنه.

وفي هذا توضيحٌ جليٌّ لمكانة أبي بكر رضي الله عنه بين الصحابة، وأنَّهم كانوا يعرفون منزلتَه وما حباه الله تعالىٰ به من المكانة؛ حتىٰ إنَّه لَيصلُحُ أن يكون مرجعًا لهم في مثل هذه المواقف.

قوله رضي الله عنه: «**فَقَالَتِ الأَنصَارُ: مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنكُمْ أَمِيرٌ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: مَن لَهُ مِثْلُ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ:** ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠] **مَنْ هُمَا؟ قَالَ: ثُمَّ بَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعَهُ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ بَيْعَةً حَسَنَةً جَمِيلَةً**».

قوله رضي الله عنه: «فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَهُوَ فِي المَسْجِدِ، فَأَتَيْتُهُ أَبْكِي دَهِشًا، فَلَمَّا رَآنِي قَالَ لِي: أَقُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟»، فسبقه بالسؤال؛ فِراسةً منه رضي الله عنه.

قوله رضي الله عنه: «قُلْتُ: إِنَّ عُمَرَ يَقُولُ: لا أَسْمَعُ أَحَدًا يَذْكُرُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قُبِضَ إِلَّا ضَرَبْتُهُ بِسَيْفِي هَذَا، فَقَالَ لِي: انطَلِقْ، فَانطَلَقْتُ مَعَهُ، فَجَاءَ وَالنَّاسُ قَد دَخَلُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفرِجُوا لِي، فَأَفْرَجُوا لَهُ، فَجَاءَ حَتَّىٰ أَكَبَّ عَلَيْهِ وَمَسَّهُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ثُمَّ قَالُوا: يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ، أَقُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَعَلِمُوا أَن قَدْ صَدَقَ»، وقد جاء في صحيح البخاري[1]: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه خَرَجَ وَعُمَرُ رضي الله عنه يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَأَبَىٰ، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَأَبَىٰ، فَتَشَهَّدَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، فَمَالَ إِلَيْهِ النَّاسُ، وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ مَاتَ، وَمَن كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إِلَىٰ ﴿ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وَاللهِ، لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَهَا حَتَّىٰ تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ، فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا.

فكان الناسُ مَدهُوشِينَ من هَول الموقف وعَظيم المُصاب، فثبَّتهم أبو بكرٍ رضي الله عنه بمقولته وخُطبته؛ فكان فقيهَ ذلك الموقف، وحكيمَ تلك الساعة، فحُقَّ له رضي الله عنه أن تختاره الأُمّة لخلافة رسول الله ﷺ.

---

(١) صحيح البخاري (١٢٤١).

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**قَالُوا: يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ، أَيُدْفَنُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ**»، هذا موضعٌ من المواضع التي اختلف فيها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعد وفاة رسول الله ﷺ؛ فاختلفوا أيُدْفن ﷺ أم لا يُدفَن؟ وذلك لاحتمال وجود خصوصيةٍ له ﷺ لا تُجيزُ دَفنَه، فأخبرهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يُدفَن ﷺ.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**قَالُوا: أَيْنَ؟ قَالَ: فِي المَكَانِ الَّذِي قَبَضَ اللهُ فِيهِ رُوحَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَقْبِضْ رُوحَهُ إِلَّا فِي مَكَانٍ طَيِّبٍ، فَعَلِمُوا أَنْ قَدْ صَدَقَ**»، بعد أن انتهىٰ الخلافُ الأوَّلُ في دفنِه، واتَّفقوا علىٰ أنَّه يُدْفَن، انتقلوا إلىٰ خلافٍ آخر، وهو مكان دَفنِه، فأخبرهم أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ الأنبياءَ يُقْبَضُون حيث يُدفَنون، فدُفِنَ في الموضع الذي مات فيه، وكان ذلك علىٰ فراشِه في حُجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والذي تولَّىٰ حفرَ القبرِ أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَن يَغْسِلَهُ بَنُو أَبِيهِ**»؛ أي: بنو عُمومته؛ فكان الذي غسله عليُّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان الفضلُ بنُ العباس وأسامةُ بن زيدٍ وشُقرانُ مولىٰ رسول الله ﷺ يساعدونه في الغَسل، ويصُبُّون عليه الماءَ.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَاجْتَمَعَ المُهَاجِرُونَ يَتَشَاوَرُونَ**»؛ أي: اجتمعوا يتشاوَرُون في أمر الخلافة، وهذا شأنٌ عظيمٌ قد شغل الصحابةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم ـ، حتىٰ إنهم قَدَّموا أمرَ الاستخلافِ والبيعةِ علىٰ دَفن رسول الله ﷺ، وكرهوا أن يُمضوا ليلةً من حياتِهم دون أميرٍ أو إمامٍ.

وفي هذا دلالةٌ علىٰ أهميَّة هذا الأمر للأمّة الإسلامية، وهو أن يكون لها رأسٌ وإمامٌ ووليٌّ، فاجتماعُ المسلمين علىٰ كلمةِ إمامٍ واحدٍ من مقاصد الشريعة

التي لا يَنبغي الاستخفافُ بأمرها أو تجاوُزُها.

فتأخيرُ دفن النبي ﷺ لم يكن من باب الإهمال، حاشا الصحابةَ أن يكونوا مُهمِلين في حقِّ وشأنِ نبيِّهم ﷺ، ولكنه فِقهُ تقديمِ الأولويَّات، «قيل: إن عمرو بن حُريث قال لسعيد بن زيد: متىٰ بويع أبو بكر؟ قال: يوم مات رسول الله، كرهوا أن يبقوا بعض يوم ليسوا في جماعةٍ»(١).

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَقَالُوا: انطَلِقْ بِنَا إِلَىٰ إِخوانِنَا مِنَ الأَنصارِ نُدْخِلُهُمْ مَعَنَا فِي هَذَا الأَمْرِ»، وذلك أنَّ الأنصار كانوا قد اجتمعوا في سَقِيفَة بني سَاعِدَة؛ للتشاوُر في أمر الخلافة(٢).

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَقَالَتِ الأَنصَارُ: مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنكُمْ أَمِيرٌ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: مَن لَهُ مِثْلُ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]»، فاجتمع لأبي بكر هذه الخصالُ الثلاثةُ: إثباتُ الصُّحبة ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾.

وكونُه أحدَ الاثنين في الغار: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾، فهي ثنائيةٌ فريدةٌ، أحدُ طَرَفيها أعظمُ البشر وهو النبيُّ ﷺ، فلا شك أنَّ طرفَها الثاني قد حاز من الفضل ما لم يحُزْه غيرُه.

والخصلةُ الثالثةُ معيَّةُ الله له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، فثبتَت معيَّةُ الله لأبي بكرٍ ثبوتًا يقينيًّا بنصِّ كلامِ الله سبحانه.

---

(١) الكامل لابن الأثير (٢٧٩).

(٢) صحيح البخاري (٣٦٦٧).

وهذا من دقيقِ فِقهِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجليلِ استنباطِه وتأمُّلِه، حيث أقام الحُجَّةَ بهذه الآية علىٰ الصحابة من المهاجرين والأنصار بأحقِّيَّة أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالخلافة.

قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَنْ هُمَا؟**»؛ أي: معلومٌ أنَّ أحدَهما رسولُ الله ﷺ، ومعلومٌ أن الآخَرَ أبو بكرٍ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأقنعَ الناسَ بهذا الأسلوب الحكيم.

قول سالم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**قَالَ: ثُمَّ بَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعَهُ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ بَيْعَةً حَسَنَةً جَمِيلَةً**»؛ أي: مالت القلوبُ إلىٰ مبايعةِ أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فبايعه الناسُ بيعةً حَسَنةً جميلةً، اجتمعتْ فيها كلمتُهم، وزالت فُرقتُهم، وحصل لهم من الاتِّفاق والائتلافِ الشيءُ العظيمُ.

وكانت هذه البيعةُ في سَقيفةِ بَني ساعِدَةٍ، ولم يحضُر جميعُ الصحابة تلك البيعة، فكانت بيعةٌ ثانيةٌ في المسجد بعدَها، أُعْلِن فيها أمام جميع الصحابة ما تمَّ بالسَّقِيفة، فتقدَّم الناسُ يبايعون مرّةً أخرىٰ مِمَّن لم يكن حاضرًا بَيعةَ السَّقيفة، ولم يحصُل فيها شيءٌ من الفُرقة أو الاختلاف.

ودعْ عنك ما تسمعه من إفْكِ الأفَّاكين وكَذِب الكذَّابين، الذين يدَّعُون كذبًا أنَّ أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انتزع الخلافةَ من علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأنه أخذها ظلمًا وقهرًا، وحرم منها مَن هو أولىٰ منه بها، ويَزعُمون أنَّ الصحابة اتَّفقوا واجتمعوا علىٰ هذا الظُّلم!!

***

(صحيح) ٣٣٤ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا وَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِن كَرْبِ المَوْتِ مَا وَجَدَ؛ قَالَتْ فَاطِمَةُ ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا ـ : وَاكَرْبَاهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا كَرْبَ عَلَىٰ أَبِيكِ بَعْدَ اليَوْمِ؛ إِنَّهُ قَدْ حَضَرَ مِنْ أَبِيكِ مَا لَيْسَ بِتَارِكٍ مِنْهُ أَحَدًا، المُوَافَاةُ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

شرح الحديث

قول أنس بن مالك رضي الله عنه: «**لَمَّا وَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِن كَرْبِ المَوْتِ مَا وَجَدَ**»؛ أي: وَجدَ الكَرْبَ الشديدَ من سَكَرات الموت، وذلك أنَّ الأنبياء أعظمُ بلاءً من غيرهم في مَرَضهم ونَزع أرواحهم؛ لتَعظيم حسناتهم وتضعيف أجورهم.

قوله رضي الله عنه: «**قَالَتْ فَاطِمَةُ ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا ـ : وَاكَرْبَاهُ**»؛ هي فاطمةُ الزهراءُ الغرَّاءُ، بنتُ رسول الله ﷺ، وزوجُ علي رضي الله عنه، وأمُّ الحسنِ والحسينِ رضي الله عنهما، وسيِّدةُ نساء العالمين، أشدُّ الناس شَبهًا بالنبي ﷺ لا سيَّما في مِشيته، وأوَّلهم لحوقًا به بعد موته.

لما رأت بأبيها ما به من شِدَّة الكربِ أخذ قلبَها ما يأخذ بقلبِ أيِّ ابنةٍ وهي ترىٰ أباها يَحتضِرُ، كيف لا وهو الأبُ والإمامُ والنبيُّ والرسولُ، الذي طالما أحبَّها وهشَّ لها وبشَّ!

قوله ﷺ: «**لَا كَرْبَ عَلَىٰ أَبِيكِ بَعْدَ اليَوْمِ**»؛ أي: لا كَرْبَ علىٰ أبيكِ بعد اليوم مِن كُرَبِ الدنيا؛ فإنَّ كُرَبَ الدنيا كلَّها تزولُ بالوفاة، وإذا لقِيَ الله فليس له

(١) أخرجه ابن ماجه (١٦٢٩).

عنده إلا الحُظوةُ والمكانةُ الرفيعةُ، والمقامُ المحمودُ، واللِّواءُ المعقودُ، والحوضُ المورودُ.

يقول ذلك يُطَيِّبُ به خاطرَ ابنتِه، ويُهدِّئُ من حالها.

قوله ﷺ: «إِنَّهُ قَدْ حَضَرَ مِنْ أَبِيكِ مَا لَيْسَ بِتَارِكٍ مِنْهُ أَحَدًا»؛ يعني: الموتَ، الذي أصاب الأوَّلين وسيُصيبُ الآخِرين، كما أصابه ﷺ.

قوله ﷺ: «المُوَافَاةُ يَوْمَ القِيَامَةِ»، قال ذلك مُودِّعًا ابنتَه ﷺ، فإنه مهما طال البقاءُ فلا بُدَّ من حصول الفِراق، ثم الموافاةُ يومَ القيامة.

نسأل الله سبحانه أن يُوافِيَنا به ﷺ، إنه جوادٌ كريمٌ.

***

(ضعيف) **٣٣٥ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يُحَدِّثُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَن كَانَ لَهُ فَرَطَانِ مِنْ أُمَّتِي أَدْخَلَهُ اللهُ بِهِمَا الجَنَّةَ»، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: فَمَن كَانَ لَهُ فَرَطٌ مِنْ أُمَّتِكَ؟ قَالَ: «وَمَن كَانَ لَهُ فَرَطٌ، يَا مُوَفَّقَةُ»، قَالَتْ: فَمَن لَمْ يَكُن لَهُ فَرَطٌ مِنْ أُمَّتِكَ؟ قَالَ: «فَأَنَا فَرَطٌ لِأُمَّتِي؛ لَن يُصَابُوا بِمِثْلِي»**(١).

شرح الحديث

الحديثُ ضعيفٌ سندًا.

قوله ﷺ: «مَن كَانَ لَهُ فَرَطَانِ مِنْ أُمَّتِي أَدْخَلَهُ اللهُ بِهِمَا الجَنَّةَ»؛ الفَرط:

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠٩٨)، والترمذي (١٠٦٢) وقال: «غريب»، وضعَّفه الألباني لحال راويه عبد ربه بن بارق.

السَّابِقُ، والمراد بالفَرَط هنا: الولَدُ الصغيرُ إذا مات، وسُمِّيَ الولدُ الصغيرُ إذا ماتَ فَرَطًا لأنه يَسبِقُ والديه إلىٰ الجنَّة برحمة الله وفضله، ويَشفعُ لهما، فهو من الأجرِ المُدَّخَر، والذُّخر المحفوظ، وهذا من فضل الله سبحانه وكرمِه علىٰ عباده.

قول عائشة ﵂: «**فَمَن كَانَ لَهُ فَرَطٌ مِنْ أُمَّتِكَ؟**»؛ أي: فَمن لم يمُت له ولدان، بل مات له ولدٌ واحدٌ؟

قوله ﷺ: «**وَمَن كَانَ لَهُ فَرَطٌ، يَا مُوَفَّقَةُ**»؛ أي: وكذلك مَن كان له ولدٌ واحدٌ ميتٌ، أدخله الله به الجنّة.

قول عائشة ﵂: «**فَمَن لَمْ يَكُن لَهُ فَرَطٌ مِنْ أُمَّتِكَ؟**»؛ أي: فماذا عن الذين لم يُبتلَوا بموت أحدٍ من صغار أولادهم؟

قوله ﷺ: «**فَأَنَا فَرَطٌ لِأُمَّتِي؛ لَن يُصَابُوا بِمِثْلِي**»؛ أي: هو ﷺ ذُخْرٌ لأُمَّته، ورحمةٌ سابقةٌ لهم، وذلك بشفاعته فيهم، واستفتاحِه أبوابَ الجنَّة لهم.

وإنما كان ﷺ فَرَطًا لأُمَّته لأنَّ موتَه مصيبةٌ لأُمَّته لن يُصابوا بمثلها، ولن يَجِدوا أشدَّ منها، فهو هَولٌ عظيمٌ، ومُصابٌ جسيمٌ، لكلّ فردٍ من أفراد الأُمَّة إلىٰ يوم القيامة، يَستحقُّ أن يُعزَّىٰ ويُسَلَّىٰ به.

فمَن ابتُلِي بمصيبةٍ في نفسه أو ماله أو ولده أو أهله، وأصابه لفَقْده لوعةٌ في القلب، أو حُرقةٌ في الفؤاد، أو أسىً في الصدر؛ فليذكر مُصابه بالنبي ﷺ، ولْيَعلم أنَّ وفاتَه ﷺ أكبرُ مصيبةٍ حلَّت عليه، وأنَّ المسلم الذي تحمَّل فَقْدَ النبيّ ﷺ يستطيع أن يتحمَّل أيَّ شيءٍ ويصبرَ عليه.

فإذا تذكَّرتَ ذلك هان عليك كلُّ شيءٍ، وانطفأتْ حُرقةُ قلبك، ووجدتَ السَّلوَىٰ تَسري في بدنك، والسكينةَ تغشىٰ فؤادَك.

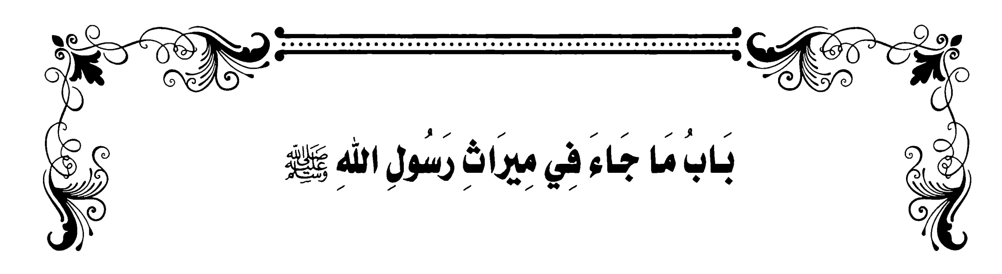
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ فِي يَدِهِ، لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ أَحَدِكُمْ يَوْمٌ وَلَا يَرَانِي، ثُمَّ لَأَنْ يَرَانِي أَحَبُّ إِلَيْهِ مَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ مَعَهُمْ**»(١).

فأخبر صحابتَه أنهم سيَفقِدونه، وأنهم سيتمنَّوْن رؤيتَه بعد ذلك، يريد أن يَحُثَّهم علىٰ طُول صُحبته وملازَمته، وهذا أصلٌ في مشروعيّة الشَّوقِ إلىٰ لُقياه ﷺ، والاجتماعِ به في الحياةِ وبعد الممات.

** ** **

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٤).



بَابُ مَا جَاءَ فِي مِيرَاثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

لما انتهىٰ الحديثُ عن وفاة النبي ﷺ؛ أتبع المؤلِّفُ ذلك بالحديث عمَّا يَتبَعُ الوفاةَ من تقسيمِ المالِ علىٰ الوَرَثة.

وللأنبياء في هذا اختصاصٌ لم يُجعَل لغيرهم، وذلك أنَّ الأنبياءَ لا يُورَثون، وأن ما يتركونه من أموالهم فهو صدقةٌ، لا حظَّ لأولادهم فيه، وذلك حتىٰ لا يَطمعَ أحدُهم بموت النبيّ عليه السلام.

والأنبياءُ لم يُورِّثوا متاعَ الحياة الدنيا، وإنما ورَّثوا نوعًا آخر وهو العِلمُ، قال ﷺ: «**إِنَّ العُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنبِيَاءِ، لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرِثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(١).

فهذا ميراثُ الأنبياء: شريعةُ الله، ونورُ هَديه، وبيانُ الحلال والحرام، والتعريفُ بالصراط المستقيم، فهذه وظيفةُ الأنبياء في حياتهم، ومشروعُهم الذي قَضَوا فيه أعمارَهم وبذلوا فيه جُهودَهم، فهو إرثُهم الذي تركوه، ولم يتركوه لأبنائهم، بل لأُمَّتهم جميعًا، فإنَّ الأنبياءَ آباءٌ لأُمَمهم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنزِلَةِ الوَالِدِ**»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٨).

(صحيح) ٣٣٦ـ **عَنْ عَمْرِو بْنِ الحَارِثِ ﵁ أَخِي جُوَيْرِيَةَ ـ لَهُ صُحْبَةٌ ـ قَالَ: «مَا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَّا سِلَاحَهُ، وَبَغْلَتَهُ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً»**(١).

شرح الحديث

(**عَنْ عَمْرِو بْنِ الحَارِثِ أَخِي جُوَيْرِيَةَ ـ لَهُ صُحْبَةٌ ـ**) أي: أخو جُوَيْرِيَة بنتِ الحارث، أمِّ المؤمنين، وزوجِ النبي ﷺ.

قول عمرو بن الحارث ﵁: «**مَا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَّا سِلَاحَهُ**»؛ أي: سِلاحَه الذي قَضَىٰ به حياتَه يُجاهدُ في سبيل الله.

قوله ﵁: «**وَبَغْلَتَهُ**»: هي بَغْلةٌ أُهدِيَت له من الـمُقَوْقِسِ حاكمِ مِصرَ، واسمُها: دُلْدُل.

قوله ﵁: «**وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً**»، وكانت هذه الأرضُ حظَّه ﷺ من أرضِ فَدَكٍ وخَيبر، وقد جعلها ﷺ صدقةً، حيث كان يُخرِجُ منها رِزقَ أهلِه وقُوتَ عِيالِه سَنةً، ويجعلُ الباقي صدقةً.

فهذا جملةُ ما تركه النبيُّ ﷺ بعد وفاته من المال، وهو ما يُسمَّىٰ اليوم بحَصْر الإِرْث.

هذا حَصْرُ إِرْثِ أعظمِ الأنبياءِ وسيِّد البشر ﷺ، تكتبُه الأقلام في سطرٍ واحدٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٨).

ومِن الناس مَن يموت ولم يُخلِّف شيئًا لأولاده، ومنهم مَن يسعىٰ لتَوريثهم العقاراتِ والدُّورَ والأرصِدةَ؛ فالمالُ مالُ الله، يَقسمُه بين عباده كما يشاء بحكمته، وليس بِيَدِ الإنسان أن يُوَرِّثَ أبناءَه وبناتِه ما دام الله لم يكتب له ذلك، فلْيَحرص الإنسانُ علىٰ توريثهم الإيمانَ السليمَ، والعقيدةَ الصافيةَ، وحُبَّ السُّنَّة، والتمسُّكَ بالشريعة، والالتزامَ بالهدْيِ النَّبويِّ، ثم ما علىٰ الإنسان أن يموتَ الليلةَ أو غدًا، بعد أن جنَّبهم الحرامَ، وألزمَهم الحلالَ وأقنعَهم به.

ولا يعني هذا تحريمَ الاكتسابِ والادِّخارِ والاتِّجارِ، بل كلُّ ذلك من المباح المشروع، ولكن لا ينبغي للإنسان أن يَجعل ذلك همًّا يهتمُّ له، يعيشُ من أجله، ويصبحُ هاجِسًا يُفسِد عليه حياتَه، ويَبني عليه تقييمَ ما يفعلُه؛ فيتساءلُ: ماذا تركتُ لأبنائي؟ وماذا بَنَيتُ لهم؟

وكثيرًا ما نسمعُ اليوم مِن الناس مَن يَنصَحُ الآخرين بقوله: أمِّن مستقبلَ أبنائك، واترُكْ شيئًا من بعدك لزَوْجِك وبناتك، وهذا ليس حَرامًا، بل هو من المباحات، ولكن علىٰ الإنسان أن يُرَتِّب أولويَّاته، فيبذُلَ جُهدَه وماءَ عَيْنيه وما في جَيبه قدْرَ الـمُستطاع ليُنَشِّئَهم النَّشْأةَ الصالحةَ، ويَغرِسَ الإيمانَ في قلوبهم، ويَنُوءَ بهم عن الشَّهَوات والشُّبُهات والبِدَعِ والمعاصي، حتىٰ إذا مات قال الناسُ لأبنائه: رَحِم الله أبًا ربَّاك وأمًّا أنجَبَتْك.

فهذه هي التربيةُ التي ينبغي أن يكتَنِزَها الآباءُ لأبنائهم، ولا يَكترِثُوا لما يتركون لهم من خلفهم، فهذا النبيُّ ﷺ لم يترك شيئًا كثيرًا من خلفه؛ وذلك أنه عاش زاهدًا في حياته، متقلِّلًا منها، لم يَطلُبها، ولم يسألها، ولم يَحرص عليها،

ولو أراد لفعل، ولَطلبَ من الله أن يُوسِعَ له في رزقه، ولكنَّ الله طوىٰ عنه الدنيا وزواها عنه.

فمَن ضاقت به الحياةُ والدنيا فليتأسَّ بالنبي ﷺ، الذي لم يُقِم لهذه الدنيا وزنًا، ولم يَحفِل بما آتاه الله منها، ولا حَزِنَ علىٰ ما فاته منها.

***

(حسن) **٣٣٧ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَتْ فَاطِمَةُ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَتْ: مَن يَرِثُكَ؟ فَقَالَ: أَهْلِي وَوَلَدِي، فَقَالَتْ: مَا لِي لا أَرِثُ أَبِي؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لا نُورَثُ»، وَلَكِنِّي أَعُولُ مَن كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُولُهُ، وَأُنفِقُ عَلَىٰ مَن كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُنفِقُ عَلَيْهِ**(١).

شرح الحديث

قول أبي هريرة رضي الله عنه: «**جَاءَتْ فَاطِمَةُ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ**»، وذلك بعد وفاة أبيها، وتولّي أبي بكر رضي الله عنه الخلافةَ، قَدِمَتْ إليه تَطلُبُ حَظَّها من إرْثِ أبيها، وذلك أنّها رأتْ أبا بكرٍ رضي الله عنه قد أنفَقَ مالَ أبيها، وجعلَه صدقةً.

قول فاطمة رضي الله عنها: «**مَن يَرِثُكَ؟**»؛ أي: إذا مِتَّ يا أبا بكرٍ؛ مَن يَرِثُ مَالَكَ؟ مهَّدَتْ بهذا السؤال ما أرادَتْه من طلبِ حظِّها من إرْثِ النبي ﷺ، وهذا من فِطنتها في الحِوار، فلم تَقفِز إلىٰ السؤال والطلب مباشرةً.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٠٨)، وقال: «حسن غريب».

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**مَا لِي لَا أَرِثُ أَبِي؟**»؛ أي: إذا مِتَّ أنت يرِثُك أهلُك وولدُك، فما بالي أنا لا أرِثُ رسولَ الله ﷺ، وهو أبي وأنا ابنتُه؟

قول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا نُورَثُ»**»، احتكم إلىٰ النصِّ، واعتمدَ علىٰ الدليل.

وجاءَ في بعض الرِّوايات: «**إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ**»(١)، أي: ليس للأنبياء إرثٌ يأخذُه الوَرَثةُ من بعدهم.

قول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَلَكِنِّي أَعُولُ مَن كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُولُهُ، وَأُنفِقُ عَلَىٰ مَن كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُنفِقُ عَلَيْهِ**»، استدرَكَ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علىٰ ما أوردَه من عدمِ أخذِ أقاربِ النبي ﷺ شيئًا من إرْثه، وبَيَّن أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما كان يَرضَىٰ أن يَمسَّ ابنةَ رسولِ الله ﷺ شيءٌ من الفَقرِ أو الحاجةِ أو المسكنةِ، وما كان يرضىٰ أن تمُدَّ يَدَها لأحدٍ فتَطلُبَ منه، وإنما قال ذلك لسببَين:

السببُ الأوَّلُ: أنَّ هذا واجبٌ تُجاه آلِ بيتِ رسول الله ﷺ، أن يكونوا أعظمَ الأمَّة شأنًا، وأرفعَهم منزلةً، وذلك أنَّ حُبَّهم واجبٌ، وإكرامَهم واجبٌ، ورَفعَهم عن مَذَلَّة السؤال ومَهانة الحياةِ أيضًا واجبٌ.

السببُ الثاني: أنّ أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو خليفةُ المسلمين في ذلك الوقت وإمامُهم، فهو مسؤولٌ عن شؤون وأمور المسلمين عامَّةً، وآلِ البيت خاصةً، فتحمَّل هذا بموجِب مَنصبِه ومسؤوليّته.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٥/ ٢٦، رقم: ٤٥٧٨).

وبهذا العمل من خليفة رسول الله ﷺ، أغلق بابًا مشؤومًا من أبواب الجَدَل السقيم الذي تتفوَّه به بعضُ الطوائف؛ حيث تَنسُب الظُّلْمَ زُورًا وبُهتانًا للصَّحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ، ويَزعُمون أنهم ظَلَموا آلَ بيت النبيِّ ﷺ، وذلك بمنعِهم حقَّهم من الإرْث، وحَجْبِ فاطمةَ ﵂ من إرْث أبيها.

وما قالوا ذلك حرصًا منهم علىٰ تلك الحقوق، وإنما حقدٌ دفينٌ في قلوب هؤلاء تُجاه الصحابة ﵃، تلك القلوبُ التي أخفَتْ داخلَها من العقائدِ الفاسدةِ ما تجعلُ أصحابَها ينطلقون لكَسرِ ذلك الباب الذي حُصِّنت به الأُمّة من الضلال والبِدَع والخُرافات، وهو بابُ الصحابة ﵃، وذلك أنَّ القُرآن ما نُقِل إلا من طريقهم، ولا رُوِيَت السُّنَّة إلا بحفظهم، فإذا طَعَنوا في هؤلاء الناقلين للقرآن والسُّنَّة فقد طعنوا في المنقول وأبطلوه!!

فكلُّ ما يَنسُجُونه من قَصَصٍ خياليةٍ، ومَظالمَ مزعومةٍ، ما هو إلا إفكٌ مبينٌ، يُراد به الطَّعنُ في أسيادِ الناس من الصحابة ﵃.

وسيأتي أنَّ هذا الحديثَ باختلاف ألفاظِه سمعه أكثرُ من صحابيٍّ، فعندما يتصرَّفُ أبو بكر ﵁ بهذا المال ويجعله في الصدقة، فإنه إنما يُطبِّق أوامرَ رسولِ الله ﷺ، لا تعدِّيًا علىٰ حقوقِ آلِ بيتِه.

فلا أسعدَ اللهُ قلبًا أبغضَ الصحابةَ، ولا أقرَّ الله عينَ مَن تنقَّصَهم واحتَقَرهم وآذاهُم، ولا سلَّم الله مَن زَعَم أنَّه مسلمٌ ثم يجعلُ الصحابة هدفًا له وغرضًا؛ يَنتقِصُهم ويَسُبُّهم ويَشتمُهم، هؤلاء أبعدُما يكونون عن شريعة الله وهديه وصراطه المستقيم.

ويُلاحَظُ في هذا الحديث أنَّ فاطمة رضي الله عنها لم تُجادِل أبا بكرٍ رضي الله عنه فيما قاله، ولا راجَعَتْه، ولا عادَتْ إليه بجملة، بل وافَقَته علىٰ ما قاله وأقرَّت، وسمِعَت وسلَّمت، وانصرفَت بعد ذلك راضيةً؛ لأنها ما كان لها أن تُنازِعَ أمرًا أمَرَ به والدُها رسولُ الله ﷺ، وكيف تفعلُ ذلك وقد جَعَلت نَصْبَ عينيها قولَه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات: ١].

بل إنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه قد حَرِصَ علىٰ ألَّا تُفارِقَ فاطمةُ رضي الله عنها الدنيا إلا وهي غيرُ غاضبةٍ منه، فلما حَضَرتْها الوفاةُ بعد موت أبيها بأقلَّ من ستَّةِ أشهُرٍ استأذَنَ عليًّا أن يزورَ فاطمةَ، فأذِن له، فدخل عليها واسترضاها، وطيَّب خاطِرَها، وسَمِعَ مِن فِيها أنَّها لا تَحمِلُ شيئًا في قلبها تُجاهَه، فرضي الله عن الجميع.

وهكذا كان تعامُلُ الصحابة مع آلِ بيتِ رسول الله ﷺ، يُراعُون شؤونَهم، ويُطيِّبون خواطِرَهم، ويَحترمونهم، ويتأدَّبون في تعامُلهم معهم، ثم جاء هؤلاء الأقزامُ الذين زعموا أنهم يَعرفون طريقَ حُبِّ آل البيت أكثر من الصحابة الكُبراء، وتشيَّعوا لهم، ونَصَبوا بينهم وبين جُمهور الأمَّة الأكبر حاجِزًا من الخلاف تَخَنْدقوا فيه، وهو ما زَعَموه من حُقوق آلِ بيتِ رسول الله ﷺ.

***

(صحيح) ٣٣٨ـ عَنْ أَبِي البَخْتَرِيِّ أَنَّ العَبَّاسَ وَعَلِيًّا جَاءَا إِلَىٰ عُمَرَ يَخْتَصِمَانِ، يَقُولُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَنتَ كَذَا، أَنتَ كَذَا، فَقَالَ عُمَرُ لِطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَسَعْدٍ رضي الله عنهم: أَنشُدُكُم بِاللهِ، أَسَمِعْتُمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ

يَقُولُ: «كُلُّ مَالِ نَبِيٍّ صَدَقَةٌ، إِلَّا مَا أَطْعَمَهُ، إِنَّا لَا نُورَثُ»، وَفِي الحَدِيثِ قِصَّةٌ[١].

شرح الحديث

القِصّةُ المذكورةُ ستأتي بعد حديثين اثنين.

والحديثُ هنا ضعيفٌ سندًا؛ لأنه من رواية أبي البَخْتَري عن العبَّاسِ وعليٍّ رضي الله عنهما، والروايةُ الآتيةُ هي من حديث مالك بن أَوْسٍ، وهي أصحُّ.

***

(صحيح) ٣٣٩ـ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ»[٢].

شرح الحديث

هذا الحديث من رواية عائشة رضي الله عنها، وهذا يُؤَكِّدُ الحديثَ السابقَ في أنَّ الأنبياءَ لا يُورَثُون، والراوي لهذا الحديث زوجةٌ من زوجاته ﷺ، ولو كان لها حقٌّ شرعيٌّ من إرثه ﷺ ما قالت هذا الكلام، ولكنها تحكي ما سمِعَته.

***

(صحيح) ٣٤٠ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَقْسِمُ وَرَثَتِي دِينَارًا وَلَا

(١) أخرجه أبو داود (٢٩٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٢٧)، ومسلم (١٧٥٨).

دِرْهَمًا، مَا تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ نِسَائِي وَمُؤْنَةِ عَامِلِي فَهُوَ صَدَقَةٌ»(١).

شرح الحديث

قوله ﷺ: «لَا يَقْسِمُ وَرَثَتِي دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا»؛ يعني: ليس لورثتي من بعدي دينارٌ يأخذونه، ولا دِرهمٌ.

وهذا يؤكِّد معنىٰ الرِّوايات السابقة التي دلَّت علىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ لا يُورَثُ.

قوله ﷺ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ نِسَائِي وَمُؤْنَةِ عَامِلِي فَهُوَ صَدَقَةٌ»؛ أي: يؤخَذُ من ماله ﷺ الذي ترَكه ما يكون نفقةً لزوجاته من بعده، ومُؤنَةً لعامله.

وقد اختُلِفَ في معنىٰ العامِل هنا؛ فقيل: العامِلُ الذي يَلِي أمر المسلمين من بعده، أي: الخليفةُ، وقيل: عامِلُ الصَّدقة الذي بَعَثه لجَلْب الصَّدقات وجِبَايَتها، وقيل: عاملٌ علىٰ نخلٍ في أرضه، وقيل غيرُ ذلك.

ورجَّحَ الحافظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ القولَ الأوَّل، وهو أنَّ المقصودَ به الخليفةُ علىٰ المسلمين من بعده، وهذا هو القولُ المعتمَدُ.

***

(صحيح) ٣٤١ـ عَن مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الحَدَثَانِ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ عُمَرَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَطَلْحَةُ وَسَعْدٌ، وَجَاءَ عَلِيٌّ وَالعَبَّاسُ يَخْتَصِمَانِ، فَقَالَ لَهُمْ عُمَرُ: أَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:

(١) أخرجه البخاري (٢٧٧٦)، ومسلم (١٧٦٠).

«لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»، فَقَالُوا: اللَّهُمَّ، نَعَمْ، وَفِي الحَدِيثِ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ(١).

شرح الحديث

والقِصَّةُ باختصارٍ(٢): أنَّ عمرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه لما تولَّىٰ الخلافةَ كان يَنظُرُ في شأن الأرض التي تركها النبيُّ ﷺ، ويَقْسِمُ خَراجَها علىٰ آلِ بيتِ النبي ﷺ، كما كان يفعلُ أبو بكرٍ رضي الله عنه مِن قبلِه، وذلك دونَ قِسمةِ الأرضِ نفسِها بين الوَرَثة.

ثم إنَّ عُمرَ قد جعل العبَّاسَ عمَّ النبيِّ ﷺ وعليَّ بنَ أبي طالب نَاظِرَين علىٰ تلك الأرض، يُشرِفان عليها، ويَتولَّيان توزيعَ خراجِها علىٰ آلِ بيتِ النبي ﷺ، فحَدَثَ خلافٌ بينهما، فاختَصَما إلىٰ عُمرَ وعنده هؤلاء الرَّهطُ المذكورون في الحديث، فاشتدَّ الخلافُ بينهما، وكل واحدٍ منهما يقول للآخَر: أنتَ كذا.

وكان الحلُّ مع تلك الخُصومة الشَّديدة أن تُقْسَم الأرضُ بينهم حتىٰ يُحَلَّ الخلافُ، ولكن ما كان لِعُمَر رضي الله عنه أن يفعلَ هذا مع نَهي النبيِّ ﷺ عن ذلك، فلأجل ذلك قال ما قال، واستَحلفَ الصحابةَ الجالسين في مجلسه علىٰ سَماعِهم هذا الحديثَ من رسول الله ﷺ.

فهذا حديثٌ يرويه عُمرُ رضي الله عنه، موافقًا لما سبق من رِواياتٍ عن أبي بكرٍ وعائشةَ وأبي هريرةَ رضي الله عنهم، بل وفي المجلس يَشهدُ له الجالسون وهم عبد الرحمن بنُ عوفٍ وطلحةُ والزُّبير وسعدٌ رضي الله عنهم.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٩٤).

فاجتمعَتْ روايةُ الصحابة علىٰ أنَّ مالَ النبيِّ ﷺ مِن بعدِه لا يكون إرثًا يتقاسَمُه الوَرَثةُ، بل هو صدقةٌ، وأمّا إرْثُه فالعِلمُ الذي خلَّفه، ونورُ الشريعةِ الذي تركه للأُمَّة مِن بعدِه.

***

(صحيح) ٣٤٢ـ **عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَلَا شَاةً وَلَا بَعِيرًا»، قَالَ: وَأَشُكُّ فِي العَبْدِ وَالأَمَةِ**[1].



شرح الحديث

أي: ما تَركَ رسولُ الله ﷺ شيئًا من الدَّنانير والدَّراهم، ولا شيئًا من الماشِيةِ من الشِّياهِ أو الجِمال، بل ما تركه هو ما ذُكِر في الحديث السابق، وهو السِّلاحُ والبَغْلةُ والأرضُ التي جعلها صدقةً.

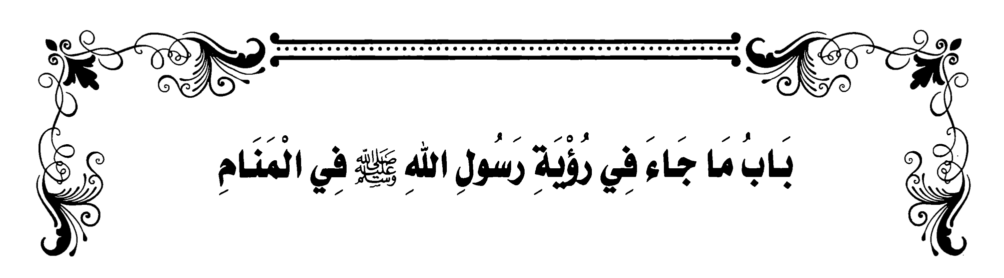
بل إنَّه ﷺ قد مات وما عنده ما يَفُكُّ به درعًا رَهَنَها عند يهوديٍّ لأجل صاعٍ من طعامٍ!

* **لفتة إيمانية:**

إنَّ عدمَ تركِ النبي ﷺ لشيءٍ من متاع الدنيا يُوقِفك علىٰ حَقَارة الدنيا، ويُزَهِّدُك فيها، وأنَّ هذه الدنيا لو كانت تُساوي شيئًا لاهتمَّ بها النبي ﷺ ولو قليلًا، ولكنه ما كان يَسعَىٰ من أجلها، ولا يَصرفُ لها شيئًا من اهتماماته، ولا يَعتنِي بها، بل يتخفَّفُ منها غايةَ التَّخَفُّف.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٥٣٨).



بَابُ مَا جَاءَ فِي رُؤْيَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَنَامِ

هذا البابُ هو خاتمةُ أبواب الكتاب وآخِرُها، بعد أن بثَّ المؤلفُ فيه أبوابًا متعدِّدةً، تملأُ المسلمَ القارئَ لها إيمانًا، وحُبًّا، وشوقًا، فكان من المناسب أن يكون هذا البابُ هو خاتِمةَ الـمَطاف، إذ مُنتهَىٰ آمال الـمُحِبِّين رؤيةُ النبي ﷺ؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ**»(١).

فمَحبَّةُ رؤيةِ النبي ﷺ مَطْلَبٌ شرعيٌ، وعبادةٌ قلبيةٌ، ينبغي علىٰ المسلم أن يَعتنيَ بها ويَسعَىٰ لتحصيلها.

ولكنَّ هذا الشرفَ بالرؤيةِ الحقيقيةِ قد فات، وما بَقِيَ للمُحِبِّين إلا رؤيتُه في منامهم قبل اللقاء في اليوم الموعود عند الله سبحانه، فرؤيتُه ﷺ في المنام غايةُ الشَّرف، ومُنتهىٰ آمالِ الـمُحِبِّين، ومُتَعلَّقُ نفوسِ الصالحين، ظلَّ كثيرٌ منهم يعيشُ حياتَه لعلَّه يَظفَرُ بهذه الأُمنيَةِ ولو مرَّةً في حياته.

فيا أيُّها المسلمُ الذي دعا الله أن يَغفِرَ له ويرحمَه ويَهديَه ويَجبُرَه ويُعافيَه ويَرزُقَه، وسأله من خير الدنيا والآخرة، هل سألتَ الله يومًا أن يَرزُقَك رؤية حبيبه في منامِك؟ وحين تقول في دعائك: اللهمَّ اغفِر لي وارحمني واهدِني وعافِني

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٢).

وارزُقني، فهل قصدتَّ حقًّا أن يرزُقَك الله رؤيةَ نبيِّك ﷺ في المنام؟ وهل لك من شَرَف العملِ الصالح والحِرصِ علىٰ السُّنَّة وتطبيقِها وحُبِّ صاحبِها ﷺ ما يُطمِعُك فِعلًا في شرفِ رؤيته ﷺ؟

من المؤسِف أن تمرَّ علىٰ الإنسان حياةٌ طويلةٌ يرىٰ في منامه كلَّ شيءٍ؛ من قريبٍ وبعيدٍ، وحيٍّ وميِّتٍ، ثم لا يَكتُبُ الله له رؤيةَ نبيِّه ﷺ في المنام!

لقد عاش الصحابةُ مع النبي ﷺ سنواتٍ طويلةً، متمتِّعين برؤيته رأيَ عينٍ، وبصُحبتِه ومُرافَقته وخِدمتِه ونُصرتِه، ومع ذلك فما شَبِعوا من رؤيته، قال أنسٌ رضي الله عنه: «قلَّ ليلةٌ تأتي عليَّ إلا وأنا أرىٰ فيها خليلي ﷺ»، وأنسٌ يقول ذلك وتَدمَعُ عيناهُ(١)، فكيف لنا ألَّا نَطمَعَ في تلك الرؤية؟

عن عَبْدَة بنت خالد بن مَعْدَان عن أبيها، قالت: «قلَّ ما كان خالدٌ يأوي إلىٰ فراشه إلا وهو يذكُرُ فيه شوقَه إلىٰ رسول الله ﷺ وإلىٰ أصحابه من المهاجرين والأنصار، ثم يسمِّيهم ويقول: هم أَصْلي وفَصْلي، وإليهم يَحِنُّ قلبي، طال شوقي إليهم، فعَجِّل ربي قَبضي إليك، حتىٰ يَغلبَه النومُ وهو في بعض ذلك»(٢).

***

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٢٦٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رجاله رجال الصحيح».

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٢١٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥/ ٢٥٩).

(صحيح) **٣٤٣ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَن رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَمَثَّلُ بِي»**(١).

شرح الحديث

أي: مَن تشَرَّفَ وظَفِرَ برؤية رسول الله ﷺ في منامِه فإنها رؤيا حقٌّ؛ وذلك أنَّ الشيطانَ لا يتمثَّل بالنبي ﷺ في المنام.

فما يراه الإنسانُ في نومِه من رؤيةِ قريبٍ أو صديقٍ أو نحو ذلك، قد يكون ذلك من تمثُّل الشيطان له، أو أضغاثَ أحلامٍ، يرىٰ الإنسان فيها شيئًا أو يسمع صوتًا قد يكون من الشيطان، ولكن ذلك لا يكون إذا رأىٰ النائمُ النبيَّ ﷺ.

ولكنَّ هذه الرؤيةَ لا بُدَّ أن تكون موافِقةً لأوصافِ النبي ﷺ المذكورةِ في شمائله، فإنْ رأىٰ رجُلًا قال له في المنام: أنا نبيُّك، ولم يكن علىٰ الأوصاف التي عُرِفَت من أوصاف النبي ﷺ، فذلك شيطانٌ وليست برؤيا حقٍّ.

ومَن رأىٰ النبيَّ ﷺ في منامه فتلك بِشارةٌ، وخيرٌ عظيمٌ، وتثبيتٌ للقلوب، وزيادةُ ثباتٍ علىٰ هذا الدِّين، ولا تكونُ تلك الرؤية إلا خيرًا مَحضًا لصاحبها.

***

(صحيح) **٣٤٤ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَن رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَصَوَّرُ ـ أَوْ قَالَ: ـ لا يَتَشَبَّهُ بِي»**(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٤١٩٣).

(٢) أخرجه أحمد (٩٣١٦).



شرح الحديث

دلَّ هذا الحديث علىٰ ما دلَّ عليه الحديثُ السابقُ.

***

(صحيح) **٣٤٥ـ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ، عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَن رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي»**(١).

قَالَ أَبُو عِيسَىٰ: وَأَبُو مَالِكٍ هَذَا هُوَ سَعْدُ بْنُ طَارِقِ بْنِ أَشْيَمَ، وَطَارِقُ بْنُ أَشْيَمَ هُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ رَوَىٰ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَادِيثَ.

شرح الحديث

دلَّ هذا الحديث علىٰ ما دلَّ عليه الحديثان السابقان.

***

(صحيح) **٣٤٦ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَن رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَمَثَّلُنِي»**(٢)**، قَالَ أَبِي: فَحَدَّثْتُ بِهِ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقُلْتُ: قَدْ رَأَيْتُهُ، فَذَكَرْتُ الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ، فَقُلْتُ: شَبَّهْتُهُ بِهِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّهُ كَانَ يُشْبِهُهُ.**

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٨٨٠)، والترمذي (٢٢٧٦) «حسن صحيح».

(٢) أخرجه أحمد (٨٥٠٨)، من طريق عاصم بن كليب، عن أبيه، عن أبي هريرة ﷺ به.
وهو عند البخاري (١١٠، ٦١٩٧)، ومسلم (٢٢٦٦)، من طرقٍ أخرىٰ بنحوه.

شرح الحديث

دلَّ هذا الحديث علىٰ ما دلَّت عليه الأحاديث السابقة.

«**قَالَ أَبِي**»؛ أي: أحدُ رُواةِ الحديث.

«**قَدْ رَأَيْتُهُ، فَذَكَرْتُ الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ، فَقُلْتُ: شَبَّهْتُهُ بِهِ**»؛ أي: حدَّثْتُ ابنَ عبّاسٍ بهذا الحديث، وذكرتُ له أنِّي رأيتُ النبيَّ ﷺ في مَنامي، وشَبَّهتُه بالحسنِ ابنِ عليّ.

قول ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: «**إِنَّهُ كَانَ يُشْبِهُهُ**»؛ أي: كان الحسنُ بنُ عليّ من أشدِّ الناس شَبَهًا برسول الله ﷺ.

وفي هذا ما ذُكِر سابقًا مِن أنَّ مَن رأىٰ النبي ﷺ في مَنامِه لا يَثبُتُ ذلك له إلا إذا كان قد رآهُ علىٰ أوصافه المعلومة المعروفة.

***

(حسن) **٣٤٧ـ عَن يَزِيدَ الفَارِسِيِّ ـ وَكَانَ يَكْتُبُ المَصَاحِفَ ـ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي المَنَامِ زَمَنَ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَسْتَطِيعُ أَن يَتَشَبَّهَ بِي؛ فَمَن رَآنِي فِي النَّوْمِ فَقَدْ رَآنِي»، هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّوْمِ؟ قَالَ: نَعَم، أَنْعَتُ لَكَ رَجُلًا بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، جِسْمُهُ وَلَحْمُهُ أَسْمَرُ إِلَىٰ البَيَاضِ، أَكْحَلُ العَيْنَيْنِ، حَسَنُ الضَّحِكِ، جَمِيلُ دَوَائِرِ الوَجْهِ، قَدْ مَلَأَتْ لِحْيَتُهُ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَىٰ هَذِهِ قَدْ مَلَأَتْ نَحْرَهُ، قَالَ عَوْفٌ: وَلَا أَدْرِي مَا كَانَ مَعَ هَذَا**

النَّعْتِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ رَأَيْتَهُ فِي اليَقَظَةِ مَا اسْتَطَعْتَ أَن تَنْعَتَهُ فَوْقَ هَذَا(١).

شرح الحديث

قول ابن عباس رضي الله عنهما: «هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّوْمِ؟»؛ استفسارٌ من الصحابة للتثبُّت من هذه الرؤية، هل رأى النائمُ رسولَ الله ﷺ حقيقةً؟ وذلك أنَّ ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما كان قد رَأى النبيَّ ﷺ، فإذا حَكىٰ الرائي وصفًا مطابقًا لما عرفوه من صفاته شَهِدوا له بصِدق ما رَأىٰ.

قول يزيدٍ الفارسي: «أَنْعَتُ لَكَ رَجُلًا بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ»، الذي ينعت هنا هو يزيدُ الفارسيُّ صاحبُ الرؤيا.

أي: أصِفُ لك رجُلًا متوسِّطَ الطُّول، بين رَجُلَين: أحدُهما طويلٌ، والآخَرُ قصيرٌ.

وهكذا كان ﷺ؛ فإنه كان رَبعةً بين الرِّجال، ليس بالطَويل البائِنِ، ولا بالقَصيرِ الـمُمَغَّط.

قوله: «جِسْمُهُ وَلَحْمُهُ أَسْمَرُ إِلَىٰ البَيَاضِ»؛ أي: لم يكن أبيضَ أَمْهَقَ، ولا أَسمرَ شَديدَ السُّمْرة، بل هو إلىٰ البياضِ أقربُ.

قوله: «أَكْحَلُ العَيْنَيْنِ»؛ أي: من رآه يَحسِبه مُكتحِلًا، وهو غيرُ مُكتحِلٍ.

قوله: «قَدْ مَلَأَتْ لِحْيَتُهُ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَىٰ هَذِهِ قَدْ مَلَأَتْ نَحْرَهُ»؛ يعني: كان كثَّ اللِّحيةِ، قد مَلأَتْ لِحيتُه نَحرَه من كثافتها.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٤١٠).

قول ابن عباس رضي الله عنهما: «لَوْ رَأَيْتَهُ فِي اليَقَظَةِ مَا اسْتَطَعْتَ أَن تَنْعَتَهُ فَوْقَ هَذَا»، يُشيرُ إلىٰ دِقَّةِ وَصفِه ونَعتِه.

***

(صحيح) ٣٤٨ـ قَالَ أَبُو قَتَادَةَ رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَن رَآنِي ـ يَعْنِي: فِي النَّوْمِ ـ فَقَدْ رَأَىٰ الحَقَّ»(١).



شرح الحديث

وهذا الحديثُ كسابقه.

***

(صحيح) ٣٤٩ـ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَن رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَخَيَّلُ بِي»(٢).

شرح الحديث

هو أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه.

والحديثُ دلَّ علىٰ ما دلَّت عليه الأحاديثُ السابقةُ.

***

(١) أخرجه البخاري (٦٩٩٦)، ومسلم (٢٢٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٩٤).

(صحيح) ٣٥٠ـ **وَقَالَ ﷺ: «وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِن سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»**(١).



شرح الحديث

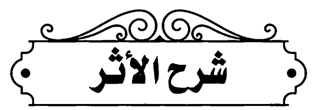
أي: إنَّ الرؤيا الصادقةَ جُزءٌ من الوحي، بمعنىٰ: أنها إلهامٌ من الله وتتضمَّنُ معنىٰ الوحي فتَقعُ صادقةً، وهي من المُبشِّرات، وإنما تقعُ لأهل الصِّدق من المؤمنين، ولهذا جاء في صحيح مُسلمٍ(٢): **«أَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا»**، فمن عاشَ حياةَ الصِّدق كان صادقًا حتىٰ في رؤياه، وأعظمُ ما يراهُ الرائي من الرُّؤَىٰ الصادقة: رُؤيةُ النبيِّ ﷺ.

وإنَّ لِسانَ حالِنا وشَوقِنا يقول:

إِن طَالَ شَوْقُ العَالَمِينَ لِبَعْضِهِمْ ... فَالشَّوْقُ نَحْوَكَ لَا يُحَاطُ مَدَاهُ
صَلَّىٰ عَلَيْكَ اللهُ مَا رُفِعَ النِّدَا ... وَتَحَرَّكَتْ بِالبَاقِيَاتِ شِفَاهُ

***

(صحيح) ٣٥١ـ **قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: «إِذَا ابْتُلِيتَ بِالقَضَاءِ فَعَلَيْكَ بِالأَثَرِ»**(٣).



شرح الأثر

هذا الأثرُ يدُلُّ علىٰ مكانة التمسُّك بالسُّنَّة، وأنها بابُ نجاةٍ، وخَتَم به

(١) أخرجه البخاري (٦٩٩٤).
(٢) صحيح مسلم (٢٢٦٣).
(٣) حلية الأولياء (٨/ ١٦٦).

المصنِّفُ كتابَه ليَدُلَّ علىٰ مكانة التمسُّك بالسُّنَّة، فإنَّ القضاءَ من أعظم المواضع خَطرًا، وأكثرها حاجَةً إلىٰ التوفيق والسَّداد من الله تعالىٰ، لتحقيق النَّجَاة من الخَطر والخَلَل، فأشار الإمامُ المبارَكُ عبدُالله بنُ المبارك رَحِمَهُ اللهُ إلىٰ هذا المخرج العظيم، وهو التمسُّكُ بالأثر والعنايةُ بالسُّنَّة، فإنه ما تمسَّك بها عبدٌ إلا كان متمسِّكًا بطَوْق السلامة وحَبْل النجاةِ.

وإذا تحقَّق هذا المعنىٰ في باب القضاء فهو في غيره من أبواب الحياة آكدُ أن يتحقّق، ليتقرَّر أن التمسُّكَ بالأثر بابٌ عظيمٌ من أبواب السعادةِ والتوفيقِ والفلاحِ والنَّجاةِ للعبد في دُنياه وأُخراه.

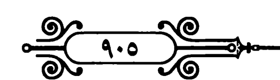
وتقريرُ هذا الأصل من أهمية العناية بالسُّنَّة والتمسُّك بها مما درجَ السَّلَفُ علىٰ الوصايةِ به والتنبيهِ عليه، والتأكيدِ علىٰ أهميّته، وأنه الثمرةُ المنشودةُ من العناية بالسُّنَّة والسيرة النبوية، وهكذا فعل الإمامُ الترمذيُّ رَحِمَهُ اللهُ في خاتمة كتابه المبارَك هذا في الشمائل المحمَّديَّة؛ حتىٰ يُعلَم أنَّ هذا البابَ من العِلم بشمائل رسول الله ﷺ إنما هو خطوةٌ في طريقٍ جليلٍ عظيمٍ، يسلكُ فيه أهلُ الإيمان دربَ النجاةِ والتوفيقِ والسدادِ، مُتمسِّكين بهَدي صاحبِ الشمائل النَّضِرَة والسيرَةِ العَطِرَةِ ﷺ، الذي مُلِئت القلوب بدراستها لهذه الشمائل حُبًّا له وتعظيمًا وإجلالًا.

***

(صحيح) **٣٥٢ـ عَنِ ابْنِ سِيرِينَ قَالَ: «هَذَا الحَدِيثُ دِينٌ؛ فَانظُرُوا عَمَّن تَأْخُذُونَ دِينكُمْ»**(١).

---

(١) الكفاية في علم الرواية (ص١٢٢).





شرح الأثر

في هذا الأثر دليلٌ علىٰ أهميَّة البحث عن الإسناد عند الأخذ بالأحاديث، كما قال ابنُ المبارك: «الإِسْنَادُ مِنَ الدِّينِ، وَلَوْلَا الإِسْنَادُ لَقَالَ مَن شَاءَ مَا شَاءَ»(١)؛ ألزمنا الله وإياكم سبيلَها.

فإنَّ الإسنادَ هو مفتاحُ الوصول إلىٰ الحديث، وإن كان الحديثُ دِينًا فمفتاحُه الموصِلُ إليه دينٌ أيضًا؛ لأنَّ الوسيلةَ لها حكمُ المقصِد، وإنما يُعرف الثابت من الحديث من غيره بالإسناد، وبه يُميَّز الصحيحُ من الضعيف، والمقبولُ من المردود، والحقُّ من الباطل، والسُّنَّة من البِدعة، ولأجله قامت علوم الحديث روايةً عنايةً بهذا الأصل الشرعيِّ العظيم.

***

ورحم الله الإمامَ الترمذيَّ صاحبَ الكتاب، ورحم الله الشيخَ الألبانيَّ مُختصِرَ الكتاب، ورحمنا الله معهما برحمته الواسعة، ونسأله عزَّ وجلَّ كما رزقنا إتمامَ الكتاب أن يجعل لنا من وراء ذلك حظًّا عظيمًا ونصيبًا واسعًا من محبَّة النبي ﷺ، والالتزامِ بهديه، وأن يكون هذا سبيلًا لنا للرُّقيِّ في الدِّينِ والإيمانِ، والعِلمِ والهدىٰ، وأن يجعلنا من خِيرة عباد الله اتِّباعًا لسُنَّته واستمساكًا بهديه وطاعةً لأمره معرفةً بسيرته.

وندعو الله تعالىٰ بأسمائه الحُسنىٰ وصفاته العُلىٰ أن يجمعنا به في الحياة

(١) صحيح مسلم (١/ ١٥).

في منامنا، وبعد الممات بأن يحشُرنا في زمرته، وأن يُورِدَنا حوضَه، ويرزقَنا شفاعتَه، نحن ووالدينا وأزواجَنا وذريَّاتنا.

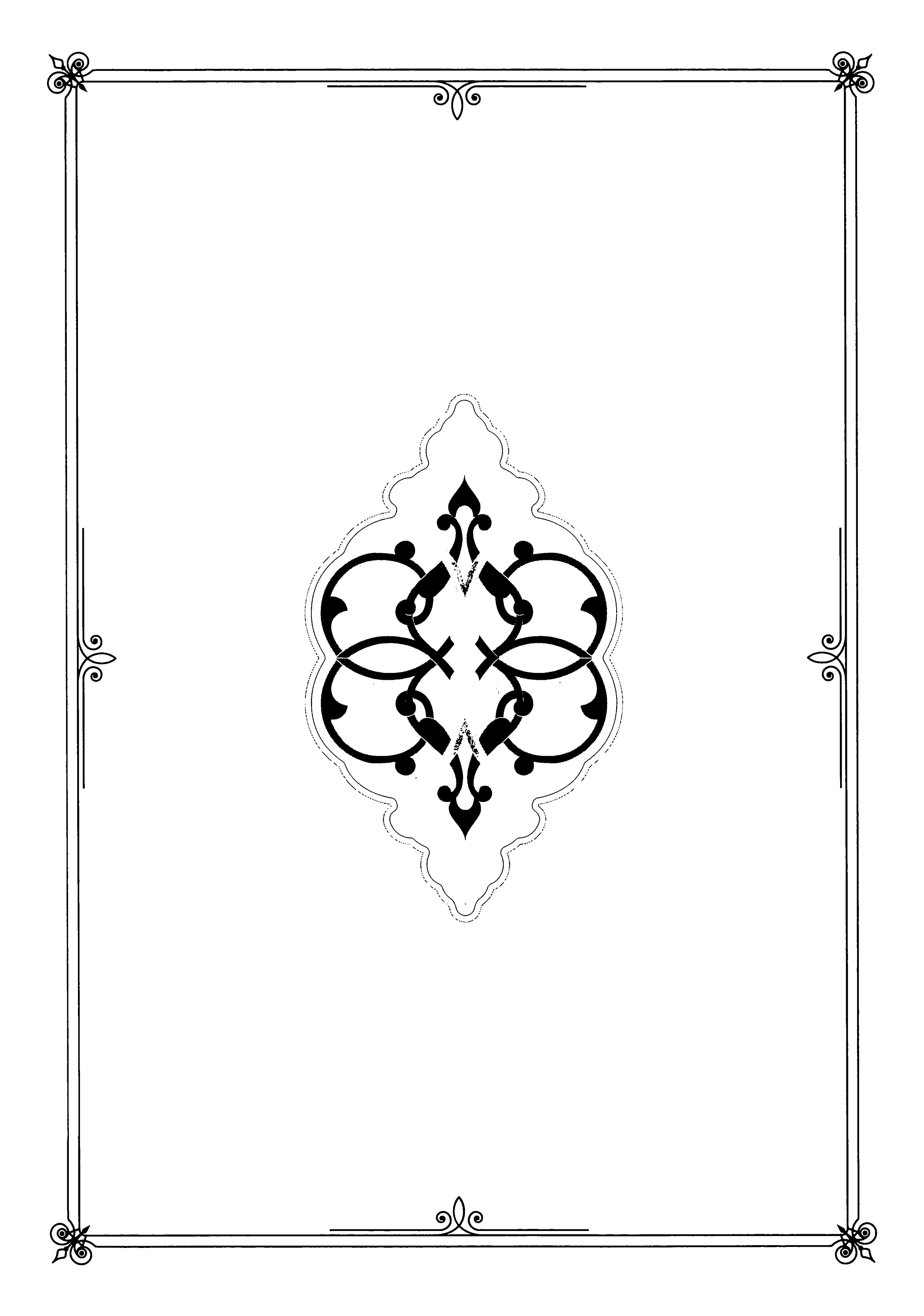
والحمدُ لله الذي بنعمته تتِمُّ الصالحات، وصلىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ عبدِه ورسولِه سيِّدِنا ونبيِّنا وحبيبِنا وقُرَّةِ عُيونِنا محمدِ بن عبدالله، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين،،،

** ** **




فهرس الموضوعات

** ** **



مركز إحسان لدراسات السنة النبوية

مركز غير ربحي يتبع وقف إحسان لإحياء السنة النبوية، يُعنى بدراسات السنة النبوية وتطويرها، من خلال كوادر بحثية مختصّة، وشراكات استراتيجية متنوعة ويشرف عليه نخبة من المختصّين والخبراء.

أهدافنا:

١. التميّز التعليمي في بناء المناهج وتطوير المهارات.
٢. تأهيل الكفاءات المتميزة في تعليم السنة النبوية.
٣. فتح آفاق جديدة في دراسات السنة النبوية.
٤. تعزيز مكانة السنة النبوية والانتصار لها.

مشاريعنا:

- تطوير المهارات: تمكين المتخصصين من مهارات دراسة السنة النبوية والدفاع عنها من خلال مجموعة من البرامج التدريبية.
- المناهج الدراسية: بناء مناهج تعليمية ومقررات دراسية تلبِّي احتياج المؤسسات التعليمية في تعليم السنة النبوية وعلومها.
- مرصد معلومات السنة: رصد الإنتاج الفكري في السنة النبوية وعلومها وتحليله وتكشيفه وإتاحته للباحثين والمهتمين.
- النشر العلمي: نشر الدراسات والأبحاث التي تجمع بين الجدّة والأصالة والتحرير العلمي.
- الانتصار للسنة النبوية: برامج تعليمية ومهارية تهدف إلى تثبيت اليقين بالسنة النبوية والانتصار لها.